مَنهج المعارج لأخبار الخوارج

بالإشراف على الإسراف مَن دِينهم المارج

وموسوماً إن شئت بالسِّيرة الخارجية

المحتوية على كلّ غائلة وبلية

تأليف
الشيخ: عثمان بن عبد العزيز بن منصور
(ت ١٢٨٢هـ)
رحمه الله

قدم له وترجم لمؤلفه
سليمان بن صالح الخراشي

عني به
نبيل صلاح سليم

مكتبة الرشد
ناشرون

مِنْهَجُ المَعَارِجِ لِأَخْبَارِ الخَوَارِجِ

بِالإِشْرَافِ عَلَى الإِسْرَافِ مِنْ دِينِهِمُ المَارِجِ

وَمَوْسُومًا إِنْ شِئْتَ بِالسِّيرَةِ الخَارِجِيَّةِ المُحْتَوِيَةِ عَلَى كُلِّ غَائِلَةٍ وَبَلِيَّةٍ

تأليف
الشَّيخ: عُثمانُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ منصُور
(ت ١٢٨٢هـ)
رَحِمَهُ الله

قدّمَ لهُ وترجَمَ لمؤلِّفهِ
سُلَيْمانُ بنُ صالحٍ الخراشي

عُنِيَ بِهِ
نبيل صلاح سليم

مكتبة الرُّشد
ناشرون

ح مكتبة الرشد ١٤٣٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخراشي ، سليمان بن صالح بن ابراهيم

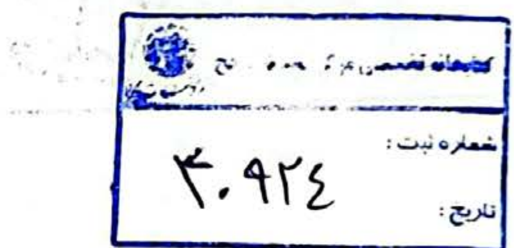
منهج المعارج لأخبار الخوارج / سليمان بن صالح بن ابراهيم الخراشي - الرياض ، ١٤٣٩ هـ

ردمك ٤ - ٦٢٥٦ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- الخوارج أ. العنوان

ديوي ٢٤٨ ١٤٣٩ / ٣٦٥١

ردمك ٤ - ٦٢٥٦ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨ رقم الإيداع ١٤٣٩/٣٦٥١



الطبعة الأولي تاريخ : ١٤٣٩هـ ٢٠١٨م

مكتبة الرشد — ناشرون

المملكة العربية السعودية — الرياض

الإدارة : العليا فيو — طريق الملك فهد هاتف ٤٦٠٤٨١٨

ص ٠ ب ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ فاكس ٤٦٠٢٤٩٧

مكتبة الرشد ناشرون/Facebook.com Email: info@rushd.com.sa

twitter.com/ALRUSHDBOOKSTOR Website : www.rushd.com.sa

فروع المكتبة داخل المملكة

الرياض :المركز الرئيسي:الدائري الغربي بين مخرجي ٢٧ و٢٨ هاتف ٤٣٢٩٣٣٢ فاكس ٤٣٢٩٣٧٥

الرياض : فرع طريق عثمان بن عفان هاتف ٢٠٥١٥٠٠ فاكس ٢٢٥٣٨٦٤

فرع مكة المكرمة : شارع الطائف هاتف ٥٥٨٥٤٠١ فاكس ٥٥٨٣٥٠٦

فرع المدينة المنورة : شارع أبي ذر الغفاري هاتف ٨٣٤٠٦٠٠ فاكس ٨٣٨٣٤٢٧

فرع جدة : حي الجامعة شارع باخشب هاتف ٦٣٣١١٨٣ فاكس ٦٣٣٠٣١٥

فرع القصيم : بريده – طريق المدينة هاتف ٣٢٤٢٢١٤ فاكس ٣٦٩٥٤٥١

فرع خميس مشيط : شارع الامام بن سعود هاتف ٢٣٧٨١٢٩ فاكس ٢٢١٧٩١٣

فرع الدمام : شارع الخزان هاتف ٨١٥٠٥٥٦ فاكس ٨٤١٨٤٧٣

فرع حائل : هاتف ٥٣٢٢٢٤٦ فاكس ٥٦٦٢٢٤٦

فرع الإحساء : هاتف ٥٨١٣٠٢٨ فاكس ٥٨١٣١١٥

فرع تبوك : هاتف ٤٢٤١٦٤٠ فاكس ٤٢٣٨٩٢٧

فرع المجمعة : هاتف ٦٣٢٠١٩٢ فاكس ٦٣٢٠١٩٢

فرع عرعر : شارع الامير فهد بن جلوي – حي النسيم هاتف ٦٦١٢١٠٠

فرع القاهرة : شارع إبراهيم أبو النجا – مدينة نصر : هاتف ٢٢٧٢٨٩١١ – فاكس ٢٢٧١٢٦٢٥

مكاتبنا بالخارج

القاهرة : مدينة نصر : هاتف ٢٧٤٤٦٠٥ موبايل ٨ ٠٠٢٠١٠٩٨٥٦٢٠٦

موبايل ٠٠٢٠١٠٢٣٩١١٦٦٠ فاكس ٢٢٧١٣٦٢٥

مُقَدِّمَة

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾.

أما بعد: فقد عُني علماء أهل السنة والجماعة منذ بدايات التأليف في علم العقيدة والسنة إلى يومنا هذا بتحذير الأمة من فرقة (الخوارج) الضّالة، المُكفِّرة بالذنوب، الخارجة على ولاة الأمور، مُفردين لها المصنّفات المستقلة[(١)]، أو مُضمّنين كتب السنة بيانَ حالها، وأوصافَ معتنقيها، والحكمَ الشرعي تجاههم.

ومن آخر ما رأيت من المؤلفات عن هذه الفرقة: رسالة "الخوارج: نشأتهم - فِرَقهم - صفاتهم - الرد على أبرز عقائدهم"؛ للدكتور سليمان بن صالح الغصن - وفقه الله -[(٢)].

---

(١) انظر بعضها في مقدمة رسالة " آراء الخوارج الكلامية "؛ للدكتور عمار طالبي.

(٢) نشر: دار كنوز أشبيليا، عام ١٤٣٨هـ، ط ٢.

وفي ظني أن من أهم أسباب عناية العلماء بالتحذير من هذه الفرقة المبتدِعة:

أولاً: تحذير نبي الأمة ﷺ منها، وتوعده أفرادها بالقتل، وحثّه أتباعَه على قتلِ الخوارج أينما ثُقِفوا:

- ففي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بعث علي رضي الله عنه وهو باليمن بذَهَبة في تربتها إلى رسول الله ﷺ، فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة نفر.. فجاء رجلٌ كثُ اللحية، مُشرفُ الوجنتين، غائرُ العينين، ناتئُ الجبين، محلوقُ الرأس، فقال: اتقِ الله يا محمد ! فقال رسول الله ﷺ: "فمَن يُطع اللهَ إن عصيتُه؟ أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني؟"، ثم أدبر الرجل، فاستأذن رجلٌ من القوم في قتله، فمنعه، فلما ولّى قال رسول الله ﷺ: "إنّ من ضئضئ هذا قومًا يقرأون القرآن لا يُجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهمُ من الرميّة، لئن أدركتُهم لأقتلنّهم قتلَ عاد"[(١)].

وقال ﷺ: "سيخرج في آخر الزمان قومٌ أحداثُ الأسنان، سفهاءُ الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يقرأون القرآن لا يُجاوز حناجرَهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهمُ من الرميّة، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة"[(٢)].

وإخباره ﷺ عن أنّ معتنقي فِكرها سيكونون من (كلابِ النار) - كما سيأتي -.

ثانيًا: إخباره ﷺ عن استمرار خروجهم إلى زمن الدجال !

قال ﷺ: "ينشأ نشءٌ يقرأون القرآن لا يُجاوز تراقيهم، كلما خرج قَرنٌ قُطع، حتى يخرج في عِرَاضهم الدجال"﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ

(١) أخرجه البخاري (٦٩٩٥) ومسلم (١٠٦٤). وقوله ﷺ: " لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد "؛ أي أنه سيقتلهم قتلاً عامًا؛ بحيث لا يُبقي منهم أحدًا؛ كما فعل الله بعاد.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٦٦).

سَبِيلَهُمْ﴾ ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

ثالثًا: خطورة فكرهم على الأمة الإسلامية؛ بقتلهم أهلَ الإيمان، وتركهم أهلَ الأوثان - كما سبق -.

قلت: وممن صنّف في فرقة الخوارج، وجمعَ الأحاديث والآثار الواردة في أتباعها من كتب السنة، وقصّ سيرتَهم، وحروبَهم مع دول الإسلام المتتالية؛ من المؤلفات التي احتوت عليها؛ كتاريخ الطبري، والكامل؛ للمبرّد، ونهج البلاغة؛ لابن أبي الحديد.. وغيرها[١] - تحذيرًا للمسلمين من الوقوع في مسالكها وأفكارها -: الشيخ عثمان بن منصور - رحمه الله -، بكتابه الذي سمّاه "منهج المعارج لأخبار الخوارج"، الذي قال عنه الدكتور المحقّق عبدالرحمن العثيمين - رحمه الله -: (يُعتبر من أجمع الكتب المؤلَّفة في أخبارهم)[٢]، وهو من المؤلفات التي لم تُطبع بعدُ.

لذا أحببتُ - مساهمةً مني في التحذير من هذه الفرقة الشاذّة المتواصل شرُها - أن أبعثَ كتابَه، وأُخرجَه إلى عالم المطبوعات. فطلبتُ من الأخِ الكريم الشيخ: نبيل صلاح سليم - وفقه الله - أن يعتني به؛ بنَسخِ مخطوطِه، وتوثيقِ نقولاته. فقام بذلك مشكورًا.

وقمتُ بالتقديمِ للكتاب، والترجمةِ لمؤلِّفه.

أسأل الله أن يهديَ مَن اغتر بفكر هذه الفرقة الشاذة من أبناء المسلمين، وأن يعيدَهم إلى رُشدهم؛ كما أعادَ بعض أسلافهم الذين ناظرهم ابنُ عباس ابنُ عم رسول الله ﷺ في قصته المشهورة التي سيذكرها المؤلف في كتابه هذا.

والله الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) وهو ينقل منها - أحيانًا - باختصارٍ وتصرف.

(٢) تعليقه على "السحب الوابلة" (ص ٧٠٨).

ترجمة المؤلف(١)

هو الشيخ عثمان بن عبد العزيز بن منصور بن حمد بن إبراهيم بن حمد بن محمد بن حسين الحسيني من آل رحمة، الناصري العَمروي التميمي(٢)

- وُلد في بلدة الفرعة حيث تقيم عشيرته النواصر عام ١٢١١هـ تقريبًا(٣)، وقرأ على علماء سدير وعلى الشيخ عبد العزيز الحصيّن قاضي بلدان الوشم، وعلى الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في الرياض. ثم رحل إلى العراق وقرأ على علمائه، ومن أشهر مشايخه هناك: إبراهيم بن جديد، ومحمد بن سلوم الفَرَضي المشهور، الذي أجازه بإجازة مؤرّخة في شعبان ١٢٤١هـ.

واجتمع بابن سند «اجتماع مدارسة أكثر منه تتلمذًا»(٤)

ثم حج وقرأ على علماء الحرم ممن يفد إليه للتدريس.

- لما عاد إلى نجد استقر في سدير، ثم عينه الإمام تركي بن عبد الله قاضيًا في بلدة جلاجل من أعمال سدير، ثم ضم إليه الإمام فيصل بن تركي أعمال سدير كلها.

---

(١) مصادر ترجمته: «الأعلام» (٤/ ٢٠٨)، «زهر الخمائل» لعلي الهندي (ص ٨-٩)، «علماء نجد خلال ثمانية قرون» (٥/ ٨٩)، تعليق الدكتور عبد الرحمن العثيمين على «السحب الوابلة» (٢/ ٧٠٤)، «قضاة مدينة حائل» لأحمد العريفي (ص ٥٨-٥٩). ويُنظر للتوسع عنه: مقدمتي لرسالته " الرد الدامغ على الزاعم أن شيخ الإسلام زائغ "، ومقدمة كتاب " مصباح الظلام "؛ للشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ - رحمهما الله -؛ تحقيق الأستاذ: خالد بن محمد الشنيبر (رسالة ماجستير بجامعة الملك سعود - لم تُطبع بعدُ).

(٢) هكذا بخط يده في آخر نسخته من المسوّدة في أصول الفقه لآل تيمية. انظر صورة عنها في مطبوعة المسوّدة، (ص ١١). وانظر مقدمة شرحه " فتح الحميد "، (ص ٣٠).

(٣) كما في روضة الناظرين للقاضي (٢/ ٨٧). ومُعظم مَن ترجم له لم يذكر سنةَ ولادته.

(٤) مقدمة «فتح الحميد» للدكتور سعود العريفي، (ص ٥٦).

ثم نُقل قاضيًا إلى بلدة قفار ثم حائل، وذلك عام ١٢٦٥هـ، إلى أن حدث بينه وبين أميرها طلال بن رشيد خلافٌ فعزله عن القضاء سنة ١٢٧٠هـ.

- غادر حائل إلى روضة سدير، إلى أن مات بها سنة ١٢٨٢هـ.

من مؤلفاته:

١- «الرد الدامغ على الزاعم أن شيخ الإسلام ابن تيمية زائغ» وهو منظومة أنشأها عندما كان في البصرة للرد على عثمان بن سند لما تعرّض للنيل من شيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام المجدِّد محمد بن عبدالوهاب - رحمهما الله -[(١)].

وفيها يقول دفاعًا عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب:

وقولك في معرض الذم شيخُكم
يُضل الورى جهلاً وفيكم تنطعُ
أبن لي ضلال الشيخ حتى أجيبكم
أفي هدمه الأوثان فالحقَّ يتبعُ
أبن لي أبن لي لا أبا لك وانتبه
أفي سدّه طُرق الضلالات مَشنعُ

٢- «فتح الحميد شرح كتاب التوحيد»[(٢)] وهو أوسع مؤلفاته، شرح فيه كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله-. وهو شرحٌ مميَّز. لكنه كما قال محققه الدكتور سعود العريفي: «لم يخلُ هذا الشرح من المواضع التي ينبغي تحريرها أو تعقبها»[(٣)] وقال: «لا يخلو من هنات»[(٤)]، وأنه يحتاج «في كثير من المواطن إلى التحرير والتعقب

(١) وقد طُبعت بتحقيقي عن دار التدمرية بالرياض، عام ١٤٢٥هـ.

(٢) طُبع - رسالةً جامعية - عن دار عالم الفوائد، عام ١٤٢٥هـ، بتحقيق: د:سعود العريفي، و د: حسين السعيدي.

(٣) مقدمة تحقيق «فتح الحميد» (ص ٤).

(٤) السابق (ص ٦).

والتصويب والاستدراك»[١].

٣- «منهج المعارج لأخبار الخوارج» - وهو كتابنا هذا -.

٤- «التحفة الوضيّة في الأسانيد العالية المرضيّة» وهي ثبَتٌ بأسانيده إلى شيوخه[٢].

(١) السابق (ص ٧).

(٢) طُبعت عن دار جداول، عام ٢٠١٧ م، بتحقيق الأستاذ: راشد بن محمد بن عساكر.

تحذير أئمة الدعوة الإصلاحية من الخوارج وفكرهم[1]

لقد اهتم أئمة الدعوة السلفية في نجد، منذ الإمام المجدد بالتحذير من الخوارج وبدعتهم؛ كي لا يغتر بها الجهلة والمتحمسون.

- قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - في كتابه "فضل الإسلام": (باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾، وفي الصحيح أنه ﷺ قال في الخوارج: "أينما لقيتموهم فاقتلوهم، لئن لقيتهم لأقتلنّهم قتل عاد)[2].

- وسُئل الشيخ عبد الرحمن بن حسن - رحمه الله - عن مذهب الخوارج؛ فأجاب:

(أما مذهب الخوارج، فإنهم يُكفرون أهل الإيمان بارتكاب الذنوب، ما كان منها دون الكفر والشرك، وإنهم قد خرجوا في خلافة علي ﷺ وكفروا الصحابة بما جرى بينهم

(١) انظر للتوسع: رسالة " تقريرات أئمة الدعوة في مخالفة مذهب الخوارج وإبطاله "؛ للدكتور محمد هشام طاهري - وفقه الله -. وفي " الدرر السنية " (٩ / ٢١٢ - ٢٣٢) جوابٌ مُطوّل للشيخ سليمان بن سحمان - رحمه الله - لمن سأله عن (قصة الخوارج) نقلاً عن شيخه الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن - رحمهم الله -، قال في ختامه: (فعلى من نصح نفسه وأراد نجاتها: أن يعرف طريقة هؤلاء القوم، وأن يجتنبها، ولا يغترّ بكثرة صلاتهم، وصيامهم، وقراءتهم، وزهدهم في الدنيا، وأن يعرف سيرة أصحاب رسول الله ﷺ وما كانوا عليه من الهدى ودين الحق، الذي فُضّلوا به على مَن بعدهم، وعدم تكلفهم في الأقوال والأفعال، لعله أن يسلم من ورَطات هؤلاء الضُلال، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وصلى الله على محمد).

(٢) مؤلفات الشيخ (٦ / ١٥٦).

من القتال، واستدلوا على ذلك بآيات، وأحاديث، لكنهم اخطؤوا في الاستدلال.

فما دون الكفر والشرك من المعاصي، فلا يَكفر فاعله، لكنه يُنهى عنه إذا أصر على كبيرة ولم يتب منها، فيجب نهيه والقيام عليه؛ وكلُ منكر يجب إنكاره، مِن تركِ واجب، أو ارتكاب محرم، لكن لا يكفر إلا من فعل مكفِّرًا، دل الكتاب والسنة على أنه كفر، وكذلك ما اتفق العلماء على أن فعله، أو اعتقاده، كفر، كما إذا جحد وجوب ما هو معروف من الدين بالضرورة، أو استحل ما هو معروف بالضرورة أنه محرم، فهذا مما أجمع العلماء على أنه كفر إذا جحد الوجوب، لا إذا ترك الصلاة تهاونًا وكسلاً، فالمشهور في مذهب أحمد أنه يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتل كافرًا، وأما الثلاثة فلا يكفرونه بالترك، بل يعدونه من الكبائر؛ وكذلك إذا فعل كبيرة كما تقدم، فلا يكفر عند أهل السنة والجماعة إلا إذا استحلها)[١].

- وفي عام ١٢٦٤هـ قدم فارسيان من إيران إلى بلد الأحساء؛ فأقاما بها، ثم اعتزلا الجمعة والجماعة، وكفّرا المسلمين في الأحساء ! فرُفع أمرهم إلى قاضي الأحساء: العلاّمة الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن - رحمهم الله -.

قال الشيخ: (فأحضرتُهم وتهدّدتُهم، وأغلظتُ لهم القول. فزعموا أولاً أنهم على عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وأن رسائلَه عندهم ! فكشفتُ شبهتهم، وأدحضتُ ضلالتهم بما حضرني في المجلس، وأخبرتهم ببراءةِ الشيخ محمد بن عبدالوهاب من هذا المعتقدِ والمذهب، وأنه لا يُكفِّر إلا بما أجمع المسلمون على تكفير فاعلِه من الشرك الأكبر، والكفر بآيات الله ورسله، أو بشيء منها، بعد قيام الحجة، وبلوغها المعتبر.. وقد أظهر الفارسيان المذكوران التوبة والندم... إلخ)[٢].

---

(١) الدرر السنية (١٠ / ٣٤٨).

(٢) الدرر السنية (١ / ٤٦٧ - ٤٦٨).

خصومُ الدعوة السلفية الإصلاحية يُلصقون بها وصفَ (الخوارج) !

رغم تحذير أئمة الدعوة - رحمهم الله - من فرقة الخَوارج ومَسلكهم الفاسد، إلا أن بعض المعادِين للدعوة السلفية من الشيعة والأشاعرة القبوريين لمزوا أتباعها بأنهم (خوارج) ! بسبب تكفيرهم مرتكبي الشرك، وصارفي العبادة - كالدعاء والذبح والنذر..- للأموات ! محاولةً من هؤلاء الأعداء - عاملهم الله بعدله - غشَّ المسلمين، وصرفَهم عن دعوة الكتاب والسنة بفهم الصحابة ﷺ إلى شركياتهم وبِدَعهم وخرافاتهم.

فصدق فيهم ما قاله الإمام ابن القيم - رحمه الله - عن أسلافهم المبتدعة في قصيدة النونية[1] تحت عنوان: (فصلٌ في بيان كذبهم ورميهم أهل الحق بأنهم أشباه الخوارج ! وبيان شَبههم المحقَّق بالخوارج:

ومـن العجائبِ أنّهم قالوا لَمـن ... قـد دان بالآثار والقـرآنِ
أنتم بذا مثـلُ الخوارج إنّهـم ... أخذوا الظواهرَ ما اهتدوا لمعاني
فانظرْ إلى ذا البُهت هذا وصفُهم ... نسبوا إليهـم شيعةَ الإيمـانِ).

قال العلاّمة حمد الجاسر - رحمه الله -: (انتهت المبالغة إلى حدّ أن الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله- لما قام بدعوته الإصلاحية لتطهير الدين من البدع والخرافات، واستقائه من معينه الصافي: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وُصِم هو وأتباعه بأنهم خوارج ! وأُلصِق بهم من الأوصاف السيئة ما هم بريؤون منه، بل لا يزال لهذه الأفكار المنحرفة عن الصواب بعضُ الآثار، مما يُوجب على المؤرخ المُنصف العمل في محاولة إيضاح الحقيقة التاريخية في هذا الأمر)[2].

---

(١) النونية (١ / ١٣٩).

(٢) من أحاديث السِيَر والتراجم (١ / ٣٣٧).

المُؤلِّف عثمان بن منصور يُدافع عن الدعوة الإصلاحية وإمامِها في شرحه لكتاب "التوحيد" الذي يُحيل عليه في كتابه هذا "منهج المعارج" كثيرًا[(١)] :

قال في شرح كتاب "التوحيد"[(٢)]:

(وقد صنف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب هذا الكتاب لما رأى من حوادث الشرك، وأنه قد عمّت به البلوى، فدعا إلى الله بتوحيده، وحمل الناس على كتاب ربهم، وسنّة نبيهم محمد ﷺ، فنفر من ذلك الرؤساء؛ لما فيه من زوال مناصبهم وترؤُسِهم بالباطل، والقوانين الخارجة عن الشريعة المحمدية، والملّة الإبراهيمية، وشايعهم على ذلك الجهلة بقوانين الشريعة، وزيّفوا عليه، وزيّنوا لغوغاء العوام الإنكار عليه، فنفّروا الناس عمّا دعا إليه، بأنه يُكفِّر بالعموم، ويقتل الأنفس بغير حق، ونسبوه إلى الخروج، وحاشاه من ذلك..).

وقال عن الشيخ محمد[(٣)]: (فأبى الله إلا أن يشيّد به الملة، ويرحم به الأمة، ويهدم به الأوثان، ويدمغ به الطغيان، ويرفع به مِن دينه الأركان - وسيتبين لك بهذا الشرح ما هو عليه من الدعوة -، فهنالك أظهره الله بذلك، فساحت دعوتُه، وظهرت شيعتُه، ونزّه الله به الشريعة، فعادت نجدٌ به مُخصبة مُربعة، فصنف هذا الكتاب، قدوة لأولي الألباب، حشاه من الكتاب والسنة، وإني لأرجو لنا وله والمسلمين الجنّة، فصار أتباعُه على ذلك طائفةً منصورة، وضدُّهم بإذن الله رايتُه مكسورة، فرحمه الله رحمة واسعة، ومن آواه ونصره، وإني لأرجو أنهم الخارجون في المشرق آخر الزمان، الموطؤون للمهدي بخروجهم السلطان).

---

(١) انظر على سبيل المثال الصفحات: (١٠٩، ١٢٢، ١٥٢، ١٩٢، ٦٢١).

(٢) (ص ١٢٢).

(٣) (ص ١٢٣ - ١٢٤).

وقال[1]: (فلم يزل الشيطان على إياسه من ذلك، حتى ذهبت القرون المفضلة، وضعف حكم الإسلام في العرب وفي جزيرتهم، وتزايدت الأهواء والفتن، فدخل عليهم بذلك، حتى ضعف يأسه، وقوي طمعه فيهم، فأدخل عليهم الأحداث، حتى أدرك ما أدرك، ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً، ولتتم معجزة سيد البشر ﷺ بوقوع عبادة الأوثان في الأمّة. حتى بصّر الله عبدًا من عبيده في الجزيرة، فجدّد الله به دينه فيها، بتوحيده، وفلّ حزب الشيطان بحدّه وحديده، وهو شيخ الإسلام مصنف هذا الكتاب، جزاه الله عن الإسلام وأهله خيرًا. فلمع به فجر التوحيد وسطع، وأخمد الله به نار الشرك وقطع، فالحمد لله على هذه المنّة، وإنا لنرجو بفضله الجنة).

(١) (ص ٣٧٨)، ويُنظر أيضًا (ص ٤٨٨).

وصفُ المخطُوطِ

لم أقفْ لكتابِ (منهجِ المعارجِ لأخبارِ الخوارجِ) إلَّا على نسخةٍ واحدةٍ، وهيَ منْ محفُوظَاتِ المكتبةِ التَّيموريةِ بدارِ الكتُبِ المصريةِ برقم (٢١٤٤ تاريخ)، قال الزركلي في الأعلام[١]: (وعلَى النُّسْخةِ خطُّه، وهُو مرتَّبٌ على الفصُولِ، ألَّفهُ فِي البصرةِ). ولهُ مصوّرةٌ بمعهدِ المخطُوطاتِ العربية بالقاهرةِ برقم (٥٣١ تاريخ)، ولهُ مصوّرةٌ بإدارةِ المخطُوطَاتِ والمكتبَاتِ الإِسلاميةِ بوزارة الأوقَافِ الكويتيةِ برقم (١٨٤٣).

عدد الأوراق: (١٩٠) ورقةً.

عدد الأسطر: ٢٩ س، وفِي بعضِها أقلُّ، وفِي بعضِهَا أكثرُ.

اسم الناسخ: مُحَمَّدُ بنُ حمدِ بنِ نصرِ الله بن فوزانَ بنِ نصرِ الله بنِ محمَّدِ بنِ عِيسَى بن حمدِ بنِ عِيسَى بنِ صقرٍ بن مشعاب[٢].

تاريخ النَّسخِ: سنة ١٢٦٩هـ.

---

(١) (٤/ ٢٠٨).

(٢) هو الشيخ محمد بن حمد بن نصر الله بن فوزان بن نصر الله بن محمد بن عبدالله بن عيسى بن حمد بن صقر بن مشعاب، من آل مشاعيب من آل جراح من قبيلة بني ثور.

وُلد في حدود عام ١٢١٠هـ في بلدة الحوطة، قرأ على الشيخ عبدالله أبا بطين، وعلى الشيخ عثمان بن منصور الناصري. وغيرهما من علماء سدير والوشم حتى أدرك. وصفَه الشيخُ إبراهيم بن صالح بن عيسى بـ (الكاتب المشهور)، أي: جميلَ الخط مضبوطَه.

توفي في نهاية القرن الثالث عشر الهجري في بلدة حوطة سدير - رحمه الله تعالى -.

عن: " علماء نجد في ثمانية قرون "؛ للشيخ عبدالله البسام - رحمه الله - (٥/ ٥٢٣ - ٥٢٤) - باختصار -. ويُنظر للمزيد عنه: رسالة " صناعة المخطوطات في نجد "؛ للدكتور عبدالله المنيف (ص ٣٠١ - ٣٠٢)، ورسالة " الوراقة في منطقة نجد "؛ للدكتور: الوليد آل فريان (ص ١٠١ - ١٠٢).

سوَّد المؤلِّفُ بعضَهُ فِي البصرَةِ سنةَ ١٢٤٠هـ، وفرغَ من تَبييضِه سنة ١٢٥٥هـ.

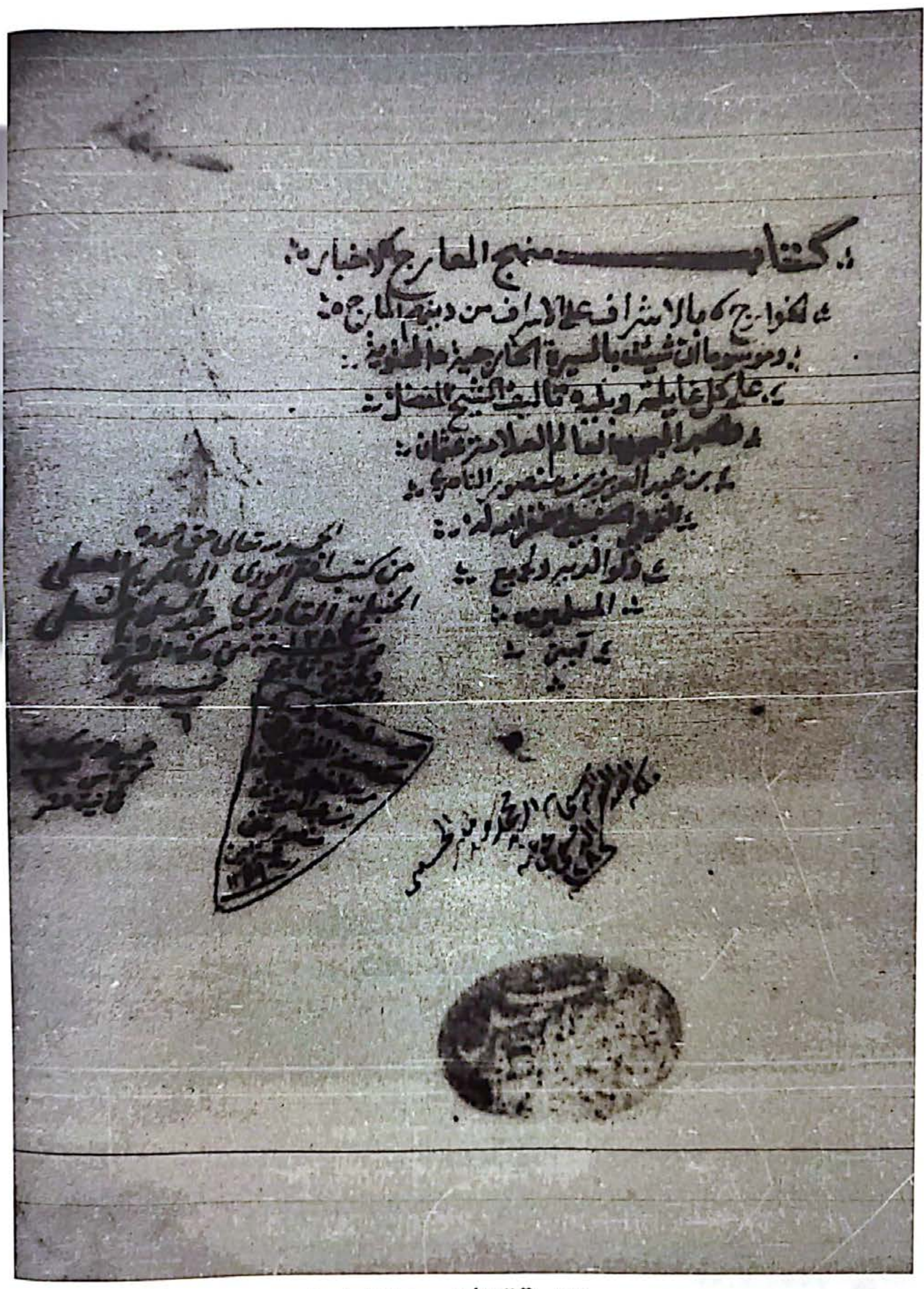
وهي نسخةٌ مُقَابلة على الأصلِ، وذكر ذلكَ فِي مواضعَ كثيرة كقولِه: «بلغَ مُقَابلةً عَلَى أصْلِهِ، فصحَّ عَلَى يدِ مؤلفِه عفَى اللهُ عنهُ»، وأحيانًا يقولُ: «بلغَ مُقَابلةً على أصْلِهِ، فصحَّ على يدِ مَالكِه عفَى اللهُ عنهُ».

وكتبَ النَّاسخُ العناوينَ بالحُمْرَةِ، ولذلكَ لم تتضحْ لي في بعضِ الأحيانِ.

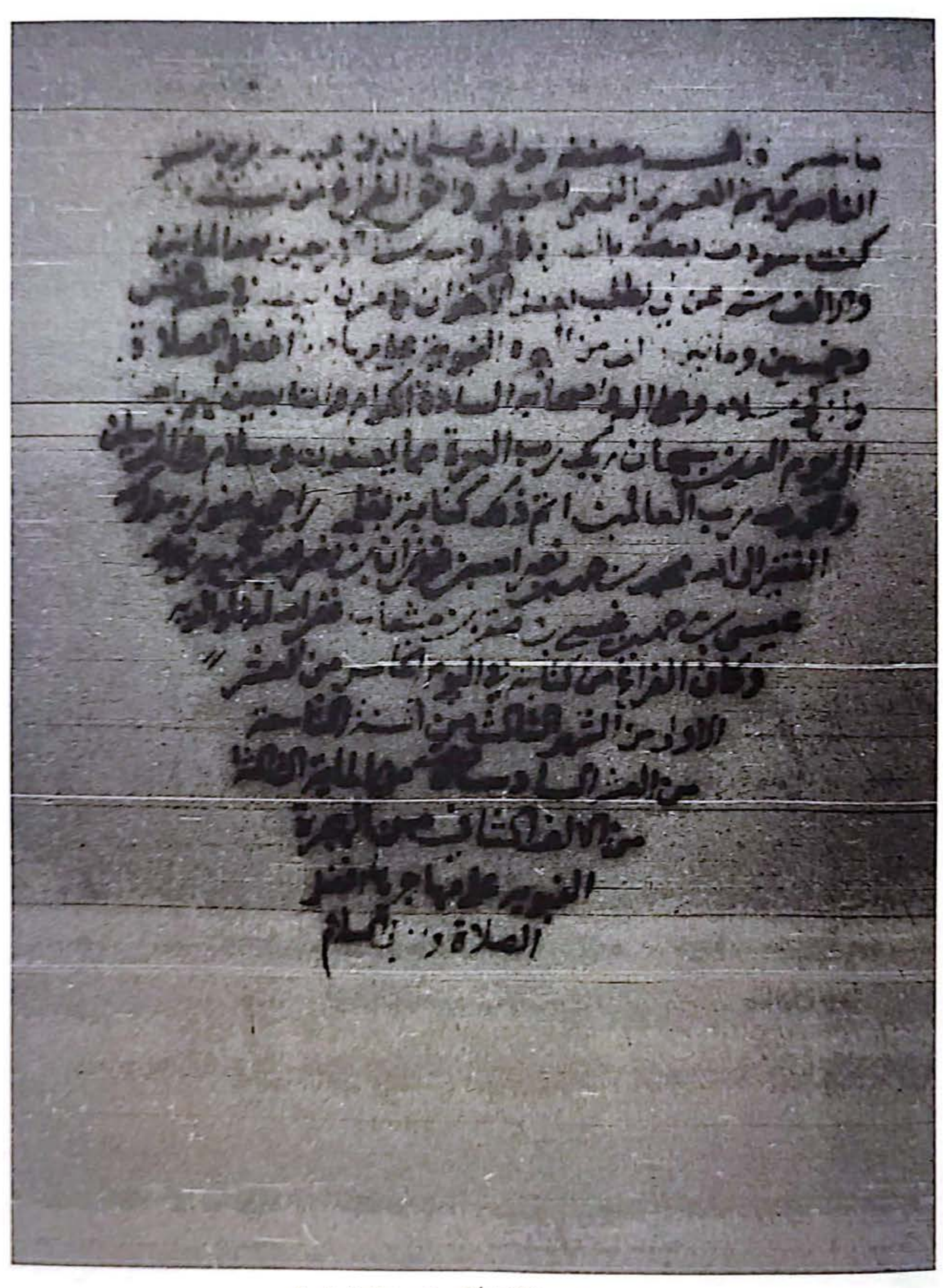
تنبيه: سيجد القارئُ تكرارًا من المؤلف لبعض أخبار الخَوارجِ ما بين إطالةٍ واختصار، وهذا ما سيشير إليه المؤلِّف بقوله عند أحدِ الأحداثِ[1]: (وسنذكرُه مِن طرقٍ أخرَى، ومَا فِيهِ من زيادةِ بيانٍ عمَّا تقدَّمَ عَلَى عادتِنَا، فلا يُظنُّ أنَّا ذكرْناَ مَا ذكرْنَا فِي كتَابِنَا هَذَا تكرِيرًا، وإنَّما المقصُودُ زيادةُ الإفادةِ والبيانِ بلفظٍ لَيْسَ فِي الطَّرِيقِ الآخرِ، فليُعلمْ ذَلِكَ)، وقوله[2]: (وقد كنتُ سوّدت بعضَ هذا الكتاب في رحلتي للعراق بالبصرة المحروسة، ثم عنَّ لي تركَه، وبعد ذلك سألني بعضُ الإخوان إثباته وتتميمه؛ طلبًا منه للاعتبارِ، وإشرافًا على ما سلف لهم من الأخبار).

(١) (ص ٥٥٧).

(٢) (ص ٤٠٥).



صورة الورقة الأولى من المخطوط



[illegible] مصنفه [illegible]
الناصرية [illegible] التميمي الحنفي [illegible] القراءة [illegible]
كنت سودت [illegible]
[illegible] الاخوان [illegible]
[illegible] ومائة [illegible] النبوية على [illegible] افضل الصلاة
[illegible] وعلى آله واصحابه السادة الكرام [illegible]
يوم الدين سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين
والحمد لله رب العالمين اتم ذلك كتابة بقلم [illegible]
الفقير الى الله [illegible]
عيسى [illegible] غفر الله له ولوالديه
وكان الفراغ من كتابته في اليوم الخامس من العشر
الاول من الشهر [illegible]
من العشر [illegible]
من الالف [illegible] من الهجرة
النبوية على صاحبها افضل
الصلاة و[illegible] السلام

صورة الورقة الأخيرة من المخطوط

مَنهَجُ المَعَارِجِ لأَخبَارِ الخَوَارِجِ
بالإِشْرَافِ على الإسرَافِ مِن دِينِهم المَارِجِ
وَمَوسُومًا إنْ شِئْتَ بِالسِّيرَةِ الخَارجيّةِ المُحتويةِ عَلَى كُلِّ غَايلةٍ وبليّةٍ

تأليف

الشَّيخ: عثمان بن عبد العزيز بن منصور

(ت 1282هـ)

- رحمه الله -

عُني به

نبيل صلاح سليم

مقدِّمةُ المؤلِّفِ

بسم اللهِ الرَّحمنِ الرحيمِ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ، وَهُوَ حَسْبِي، وَنِعْمَ الوَكِيلُ.

الحَمْدُ للهِ هَادِي أَوْلِيَاءَهُ سوَاءَ السَّبيلِ، ومُوَفِّقهُم فِي شَرعِه فَهمَ مَوَاضعِ الدَّليلِ، والمُزِيغِ لقُلوبِ مُحَكِّمِي العُقولَ عَنْ صَحِيحِ تأويلِ مَا أنزلَ مِنَ التَّنزيلِ، أَحْكَمَ صَنعةَ الأشيَاءِ فِي خلقِهِ، وَعَلِمَ مَقَاديرَهَا فِي سَابقِ عِلمِهِ، فَهُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ ليسَ كَمثلِهِ شَيءٌ، وَهُوَ السَّميعُ البَصِيرُ.

وأَشهدُ أن لَا إِلَه إِلَّا اللهُ، وَحدهُ لَا شَريكَ لَهُ، وَلَا عديلَ، وَلَا نظيرَ، وَلَا ظهيرَ، وَلَهُ الأمرُ فِي الأُولَى والآخِرَةِ، وَلَهُ الحُكْمُ، وإِليهِ المَصِيرُ، وأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسولُهُ، وَحَبيبُه، وأَمينُه، المُبينُ عَنه مَا أشكلَ مِنْ تَنزيلِهِ، بوَاضحِ التَّأويلِ، الَّذِي أَوْضحَ اللهُ بِهِ لأُمَّتِهِ المَنَارَ، وَجَعَلَهُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ فِي سَالفِ الأَعْصَارِ؛ لِيَظْهَرَ فَضْلُهُمْ عَلَى سَائِرِ الأُمَمِ بِذَلِكَ التَّفضيلِ، فَأَكْمَلَ بِهِ الدِّينَ، كَمَا نَطقَ بِذَلِكَ - التَّفصِيلِ - الكِتَابُ المُبِينُ، فَهُوَ رحمةٌ للعَالمينَ وحُجَّةٌ عَلَى الزَّائغِينَ، دَامِغَةٌ لَهُم بالفَلَجِ والتَّذليلِ، ضَمِنَ اللهُ لَهُ تخليدَ دينه، وجعلَ صالحَ أُمَّتِه ظهيرًا لَهُ عَلَى إِظْهَارهِ وَتَدوينِه، فَمَنْ تَبعَهُم نَجَا مِنَ الذُّلِ والزَّيغِ والتَّضليلِ، فَأَصْبَحَ دِينُهُ بذلكَ ظَاهرَ المَنَارِ، ونورُ سُنَّتِه قَدْ وَضَحَ مُتَشعشعَ الأنوَارِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ نَوَّرَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِالحِكْمَةِ والتَّنْزِيلِ، حتَّى عَصَمَهُمْ بِذَلِكَ عَنِ الزَّيغِ والتَّبْدِيلِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

أَمَّا بَعْدُ:

فَيَقُولُ العَبْدُ الفَقِيرُ إِلَى رَبِّهُ الغَفُورِ: عُثمانُ بنُ عبدِ العَزيزِ بنِ مَنصُورٍ النَّاصِريُّ ثُمَّ العَمروِيُّ التميميُّ الحنبليُّ: إِنَّهُ قَدْ عَنَّ للخَاطِرِ الحَاضِرِ أَنْ أَذْكُرَ أَخبارَ الخَوَارِجِ الَّذِينَ خرجُوا بالسَّيفِ عَلَى صَالحِ الأُمَّةِ، فقَاتلُوا بِهِ سائرَ المُسْلِمِينَ والأئمَّةِ، فَسَطَوْا عَلَى النَّاسِ بالسَّيفِ، وَنَسَبُوهُمْ بِمَا فِيهِم إِلَى الكُفرِ والحَيفِ، تأَوَّلُوا فِيهم آياتٍ قَدْ أُنزِلَتْ فِي الكُفَّارِ، وحكمُوا عَلَيْهِم بالخُلُودِ فِي النَّار، فبَدَأوا بالصَّحَابةِ، وثنّوا مَنْ بَعْدَهُمْ منْ أهلِ البصَائرِ

والإِصَابةِ، فَفَتَنُوا النَّاسَ بِالعِبَادَةِ والاجتهَادِ، وَرَكَّبُوا دينَهُم عَلَى مُجَانبَةِ الحَقِّ والالحَادِ، وذلكَ لتحكيم عُقُولِهِم، وفسَادِ أُصُولِهِم؛ فضَربُوا كتابَ الله بعضَهُ ببعضٍ، وَجَفَّتْ مِنْ سفكِهِم الدِّماءَ السَّمواتُ والأرضُ، فتبعَ مَنْ خَلف مِنْهُم من سَلف، حتَّى جانبُوا بِذَلِكَ سيرةَ صَالحِ السَّلَفِ، باستعمَالِهِمْ للمُسلمِينَ الغُلُّو، أو الصّلف، إِلَى أن جعلُوا الدِّينَ القَويمَ بينهُم مُزْدَلف، وَقَالُوا عَلَى الله غَيْرَ الحَقِّ، وَزَعَمُوا أَنَّ كُلًّا مِنْهُم بِمَا زعمَ مُحِقٌّ.

فَصَارُوا بِذَلِكَ عَنِ الدِّينِ نَاكِبِينَ، فهُم لله ورسُولِهِ مُحَارِبُونَ، وَمَع ذَلِكَ يَزْعمُونَ أَنَّهُم مُحسنُونَ، أَلَا إِنَّهُم هُمُ الفَاسِقُونَ، ولَكِن لا يَشعُرُونَ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفعلُونَ، ويفعلُونَ مَا لا يُؤمرُونَ، فهُم يُقَاتلُونَ أَهلَ شَعَائرِ الإِسلَامِ، ومَنْ نصبُوا لَهُ الرَّاياتِ والأعلَامَ، يدعُونَ بدَاعِي الفَلاحِ عَلَى رُؤوسِ المَنَارِ، يَسْعَوْنَ إِلَى مَا يُقرِّبهُمْ مِنْ دَارِ القَرَارِ، وينصبُونَ القضَاةَ فِي أمصَارهِم، وَيَعمُرُونَ المَدَارسَ فِي أقطَارِهِمْ.

ومعَ ذَلِكَ فهُم يجعلُونَ بلَادَهُم بلادَ كُفرٍ وحربٍ، فيوقعُونَ بِهِم القتلَ بالوخزِ والضَّربِ؛ ومَنْ أَقَامَ مِنهُم فِي بلَادِهِ فَهُوَ عندَهُم الشَّقِي الكافرُ، ومَنْ رَحلَ مِنهَا إِلَيْهِم فَهُوَ المُؤمنُ المُهاجِرُ، إِذْ من قواعَدِ دينهِم وتسويلِ شيَاطينِهِم: أَنَّ مَنْ ساعدَهُم عَلَى قولِهِم فَهُوَ المُؤمنُ القَوِي، أو خَالفَهُم فهُوَ الكَافرُ الشَّقِي.

فهُم يَقْتلُونَ أهلَ الإِسلَامِ والإِيمَانِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الكُفرِ والعُدوَانِ، قَدْ غَشيَتِ الفتنةُ الكُبرَى لقُلوبِهِم، فَلَا هُم يتوبُونَ مِنْ جُرمِهِم وذنُوبِهِم، فَلِذَلِكَ عَمِيَتْ عَنِ الحَقِّ بَصَائِرُهُم وَأَبْصَارُهُم، وَقَرُبَ مِنَ البَاطِلِ خَوضُهُمْ ومزارُهُم، فاختلفتْ فِي ذَلِكَ أهوَاؤهُم، وتولت عنِ الحقِّ إِلَى البَاطلِ آراؤهُم ودلائُهُمْ، فمَا خطرَ بخَواطرِهِم كَانَ عِندهُمْ كَالحَقِّ، وحُرمة عبَّادِ المُسلِمِينَ لدَى عُبَّادِهِمْ كالبَقّ، يتلعَبُونَ بالمُسلِمِينَ تَلعُّبَ الصِّبيانِ بالكرَه، وَمَا شَابَهُ مِنْ زيّهِم زيَّهم فَهُوَ عِندَهُم مُحَرَّمٌ، أو مُكترَه.

مُتمنونَ عَلَى الله الأَمَانِي، وَلَا يَرَوْنَ قَاتِلَ المُسْلِمِينَ بِقَتْلِهِم جَانِي، يُؤولُونَ القُرْآنَ عَلَى غيرِ تأويلِ المُؤمنِينَ، فيجعلُونَ بِذَلِكَ المُسْلِمِينَ كَالمُجرمِينَ، قَدْ جَفَّتْ مِن فِعْلِهِم دمَاءُ المُسْلِمِينَ، وأموالُهُم، وضَاقتْ بِهِم فرُوجُهُم وأحوالُهُم، لَا يرْجعُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى قَوْلِ

صَحيحِ فِي الأُمَّةِ، وَلَا ينتحلُونَ فِي اجتهادِهِم إمَامًا مِنَ الأئمةِ، معوّلهُمْ فِي قولِهِم عَلَى عقُولِهِم فِي القُرآنِ، إِذْ ليسَ عِندَهُم فِي تأويلِهِم منْ دليلٍ عَنِ السَّلفِ وَلَا بُرهانٍ، فهُم لا يُعرِّجُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى قولٍ صائبٍ، أو بأثرٍ عن تَابِعِيٍّ أو صاحبٍ.

قَدْ جَلّتْ مُصِيبتُهُم عَلَى أهلِ الإسلَامِ، وتبَهَّجَ بفعلِهِمْ عُبَّادُ الصَّليبِ والعِجلِ والأصنَامِ، فَلَا خرقُهم يُخاطُ، وَلَا كفُّهم عن فعلِهِم يُناطُ، فَلذَلِكَ استعنتُ اللهَ عَلَى شَرحِ سِيرتِهِمْ بتَأليفِهَا وَجَمعِهَا، وبيانِ صوَاعقِ وَقعِهِمْ بِالمُسْلِمِينَ وَدفعِهَا.

فَاللهَ أَسْأَلُ مَعُونتَهُ، وَبِهِ أَسْتَنْصِرُ، وَإِلَيْهِ أرْغَبُ، وَبِهِ أَسْتَبْصِرُ؛ فَإِنَّهُ وَلِيُّ الهِدَايَةِ والتَّوْفِيقِ؛ إِذْ هُوَ السَّالِكُ بِعَبْدِهِ لِسَبيلِهِ بِالتَّحْقِيقِ.

وَجَعَلْتُهُ عَلَى فصُولٍ: أَوَّلُهَا فِي الكَشْفِ عَنْ مَذهبِهِمْ، وفصَّلْتُ أثنَاءَهُ ببَابٍ، فَأَوْرَدْتُ مَا كَانَ قبْلَهُ عَلَى سَبيلِ التَّنبيهِ والإِجْمَالِ والتَّمْرِينِ، وَمَا بَعْدَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ وَالتَّرْتِيبِ وَالتَّقْرِيرِ، وَليحصلَ بِذَلِكَ مَزِيدُ بَيَانٍ وَتَوْضِيحٍ، فَقَدْ يَكُونُ الخَبَرُ مِنْ طَرِيقٍ بِالإِشَارَةِ، وَفِي الأُخْرَى بِالتَّصْرِيحِ، أَو يَكُونُ مِنْ أَحَدِهِمَا عَلَى الأُخْرَى زِيَادَةٌ؛ فيحصلَ بِهَا النَّفعُ والإفادَةُ، فَلْيُعْلَمْ القَصْدُ منَّا عَنْ ظنِّ التَّكْرَارِ بِمَا أَوْرَدْنَا فِي كِتَابِنَا هَذَا لِمَا لَهُ أَرَدْنَا، وَسَمَّيتُهُ: «مَنْهَجُ المَعَارِجِ لأَخْبَارِ الخَوَارِجِ بالإِشْرَافِ عَلَى الإِسرَافِ مِنْ دِينِهِم المَارِجِ، وَمَوْسُومًا إِنْ شِئْتَ بِالسِّيرَةِ الخَارِجيةِ المُحتوِيَةِ عَلَى كُلِّ غَائِلَةٍ وَبَلِيةٍ؛ كَقَتْلِهِمْ ـ بِتَكْفِيرِهِمْ ـ لِخَيْرِ البَرِيَّةِ، وَسَائِرِ الأُمَّةِ المَرْحُومَةِ المُحَمَّدِيَّةِ».

جعلتُهُ تنبيهًا لِمَنْ تأمَّلَهُ مِنْ مقيمٍ ودارجٍ، وتحذيرًا عن مَذهبِ الغُلاةِ الخَوارجِ، فَهُوَ تعريفٌ لمنْ عقلَ لدينِهِم المَارِقِ المَارجِ، وسترَى مَا وصفتُه لكَ مِن مذَاهبِهِم فِي هَذَا الكتَابِ مَسْطُورًا، وإِنْ كَانَ كُلُّ مَنْ وافقَهُم يرَى أَنَّهُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ دِينِهِم مَفْطُورًا.

وقد تَظَاهَرَتْ بخُرُوجِهِم الأخبَارُ، حتَّى تواترَ الأمرُ بقتَالِهِم عَنِ النَّبِيِّ المُختَارِ، فَاسْتفَاضَتْ أَحَادِيثُهُم فِي الأُمَّةِ، فَهِيَ فِيهِم كثيرَةٌ شَهيرَةٌ جَمَّةٌ، وأنَّ فِي قَتلِهِمْ أجرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ، وأنَّ قَتْلَاهُمْ شَرّ قتيلٍ تحتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، وأنَّ فِيهِم المُخدَجَ، وَقد عُرِفَ بالسيمَاءِ، وأنَّهم يَقُولُونَ من خَيرِ قولِ البَرِيَّةِ، يشيرُ ﷺ بأنَّ أفعَالَهُمْ بالنِّسبَةِ إِلَى طيبِ أقوالِهِم كُلِّهَا شَرِيَّةٌ.

فَقَدْ بَالغَ ﷺ فِي كفِّهِم وكبتِهِمْ، وذلكَ بالتَّحرِيضِ والتَّرغِيبِ مِنْ سيِّدِ البَشَرِ ﷺ عَلَى قَتلِهِمْ، مَع مَا ظهرَ مِن عبَادَتِهِم وَزُهدِهِم؛ لفتنتِهِم الوَاقعةِ، ودعوَاهم البَاقعَةِ، كادعائِهِم الأمرَ بالمعرُوفِ، واتِّباع كِتَابِ الله المألُوف، يزعمُونَ إقامَةَ الدِّينِ بَعدَ اعوجاجه، وَيُثيرُونَ عَلَى المُسْلِمِينَ الحربَ، فيقتلونَهُم تَحتَ عجاجه، يَسْتحلُّونَ أموالَهُمْ، وَيقتلُونَ رِجَالَهُم، فبقَاؤُهُم فِي المُسْلِمِينَ فتنةٌ، وقتَالهُم إِيَّاهُم محنةٌ، يَرَوْنَ الخرُوجَ عَلَى السُّلطَانِ طاعةً، فهُم لا يدينُونَ لَهُ بالانقيَادِ رعيةً وجمَاعَةً، قَدْ نفخَ الشَّيطانُ فِي قلُوبِهِم وحنَاجرِهِمْ؛ فَأَضْرَمُوا عَلَى المُسْلِمِينَ بِالحَربِ نارَ مَراجلِهِمْ.

أوَّل غبَارِهِم، وخُبث طويةِ أخبَارِهِمْ: قوْلِ الَّذِي قَالَ للنَّبِيِّ المُختَارِ ﷺ: «اعدِلْ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ»[(١)]، وَقوله: «هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ الله»[(٢)]؛ وَهُوَ ذُو الخويصرَةِ كَمَا رُوِيَ ذَلِكَ عَنْهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» والمَسَانيدِ، وحذَّرَ - عنهُم - المُصْطَفَى ﷺ كُلَّ مُكلَّفٍ وَرَشيدٍ، فاسْتَفَاضَتْ فِي الأمَّةِ أخبَارُهُم، وخبُثَ فِيهَا قتْلُهُمْ وإكفارُهُمْ.

وَقَدْ أَخبَرَ ﷺ أَصْحَابَهُ - لَمَّا قَالَ ذُو الخُوَيْصِرَةِ مَا قَالَ -: «أَنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ، تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ عِندَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ عِندَ صِيَامِهِمْ، وَقِرَاءَتَكُمْ عِندَ قِرَاءَتِهِمْ، يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[(٣)].

وَفِي لَفْظٍ: «مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ يَنْظُرُ أَحَدُكُمْ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يَجِدُ شَيْئًا، وَيَنْظُرُ إِلَى نَضِيِّهِ فَلَا يَجِدُ شَيْئًا، ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى القُذَذِ»[(٤)] فكذلك.

---

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٣١٣٨)، ومُسْلمٌ (١٠٦٣).

(٢) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٣١٥٠)، ومُسْلمٌ (١٠٦٢).

(٣) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٥٠٥٨)، ومُسْلمٌ (١٠٦٤) مَع تَقْدِيمٍ وتَأخيرٍ فِي بَعضِ الكَلِمَاتِ.

(٤) لفظُ النَّسائِيِّ فِي «الكُبرَى» (٨٧٠٧ ط التَّأصيلِ). دون لفظة «فكذلك». والقُذذ: ريش السهم.

وَفِي بَعضِ الألفَاظِ فِي هَذَا الحَدِيثِ فِي «الصَّحِيحَينِ»: «قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ الدَّمُ»[١] يعنِي: مَن كلفِ العِبَادَةَ والتَّقَشُّفَ والزَّهَادَةَ؛ فَهُوَ نَاحِلٌ، كَمَا تَأتِي صِفَاتُهُمْ.

وفِي بَعضِ ألفَاظِ حَدِيثِ «الصَّحِيحَينِ»: «ويَنْظُرُ إِلَى الفُوقِ[٢] فيتَمَارَى».

وَهَذِهِ اللَّفظَةُ لَمْ يُكَفِّرْهُم جُمهُورُ العُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى، ولَكِن حرَّضُوا عَلَى قتلِهِم كفًّا لشرِّهِم؛ لقَولِه ﷺ فِيمَا صحَّ عنهُ: فِي قتلِهِمْ أجرٌ لِمَن قتَلَهُم، وأخبَرَ أنَّ مِنْهُم ذَا الثَّدِيَّةِ الَّذِي قتلَه عَلِيٌّ ؓ يومَ النَّهروَانِ، وأنَّ سِيمَاهُم التَّحْلِيقِ، وأنَّهُم يقتلُونَ أهلَ الإِسلَامِ، وَيدَعُونَ أهلَ الأوثَانِ، وأنَّهُمْ شرُّ الخَلقِ والخَلِيقِهِ[٣]، وتركنا ذِكْرَ جُمْلَةٍ مِنَ أَحَادِيثِ خرُوجِهِم، وَعَزْوِهَا إِلَى مُخَرِّجِيهَا للعِلْمِ بِهَا، وَاسْتفاضتهَا الَّتِي هِيَ أَشْهَرُ مِنَ استفَاضَةِ النِّيلِ والفُرَاتِ، وإنَّمَا نَذْكُرُ طرَفًا مِنْهَا اسْتدْلَالًا.

---

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٣٦١٠)، ومُسْلِمٌ (١٠٦٤) ولفظُه: «سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ».

(٢) الفُوقُ: موضعُ الوَترِ منَ السَّهمِ.

(٣) سَيأتِي تَخريجُ كُلِّ مَا ذكرَ.

فَصْلٌ

وَمَنْ رَأْيِ الخَوَارِجَ أَنَّهُم لَا يَرَوْنَ طَاعَةَ السُّلطَانِ، وَلَا خِلَافَةَ قُرَيشٍ، ولَكِن مَن دَانَ بِدِينِهِمْ، واعْتَقَدَ مَا يَعْتَقِدُونَهُ مِن تَكفِيرِ أَهلِ القِبلَةِ، وكَانَ عَلَى رَأيِهِم كَانَ إِمَامًا ـ وَإِنْ كَانَ نبطيًّا ـ، ومِن رَأيِهِمْ أَخَذَتِ المُعْتَزِلَةُ التَّحْسِينَ والتَّقبِيحَ بالعَقلِ، وضَربَ الأمثَالِ بِهِ، وأنَّ العَدْلَ مَا يَقْتَضِيهِ، وَهُمْ قَدْرُ خَمْسَةَ عَشَرَ فرقةً يصدرُونَ عَن فِرقٍ نَذْكرُهَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى أثنَاءَ كِتَابِنَا هَذَا.

وَهُمْ بِذَلِكَ يَدّعُونَ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ والنَّهيِ عَنِ المُنكرِ والتَّوحِيدِ والعَدلِ، وأنَّ الَّذِي أَخْرَجَهُمْ عَلَى السُّلطَانِ ووُلاتِه ذَلِكَ.

قَالَ مُوفَّقُ الدِّينِ ابنُ قُدَامَةَ: «وَإِنْ أَظْهَرَ قَوْمٌ رَأْيَ الْخَوَارِجِ، مِثْلُ تَكْفِيرِ مَنْ ارْتَكَبَ كَبِيرَةً، وَتَرْكِ الْجَمَاعَةِ، وَاسْتِحْلَالِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَخْرُجُوا عَنْ قَبْضَةِ الْإِمَامِ، وَلَمْ يَسْفِكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ، فَحَكَى الْقَاضِي عَنْ أَبِي بَكْرٍ، أَنَّهُ لَا يَحِلُّ بِذَلِكَ قَتْلُهُمْ وَلَا قِتَالُهُمْ»[1].

قَالَ: «وَهَذَا قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ، وَالشَّافِعِيِّ[2]، وَجُمْهُورِ أَهْلِ الْفِقْهِ، وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَعَلَى هَذَا؛ حُكْمُهُمْ فِي ضَمَانِ النَّفْسِ وَالْمَالِ حُكْمُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ سَبُّوا الْإِمَامَ أَوْ غَيْرَهُ مِنْ أَهْلِ الْعَدْلِ، عُزِّرُوا؛ لِأَنَّهُمْ ارْتَكَبُوا مُحَرَّمًا لَا حَدَّ فِيهِ، وَإِنْ عَرَّضُوا بِالسَّبِّ، فعَلَى وَجْهَيْنِ.

وَقَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ فِي الْإِبَاضِيَّةِ ـ أَصْحَابِ عَبدِ الله بنِ إِبَاضٍ، وَسَائِرِ أَهْلِ الْبِدَعِ: يُسْتَتَابُونَ، فَإِنْ تَابُوا، وَإِلَّا ضُرِبَتْ أَعْنَاقُهُمْ[3].

---

(١) «المغني» (٨/ ٥٣٠)، أو (١٢/ ٢٤٧ ط هجر).

(٢) في «الأمّ» (٥/ ٥٢٢).

(٣) «المدوَّنة» (١/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠).



قَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ: رَأَى مَالِكٌ قَتْلَ الْخَوَارِجِ وَأَهْلِ الْقَدَرِ، مِنْ أَجْلِ الْفَسَادِ الدَّاخِلِ فِي الدِّينِ، كَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ، فَإِنْ تَابُوا، وَإِلَّا قُتِلُوا عَلَى إِفْسَادِهِمْ، لَا عَلَى كُفْرِهِمْ»[(١)] [(٢)].

وَعَلَى ذَلِكَ قُتِلَ غيلَانُ القَدَرِيُّ وَجَعْدُ بنُ دِرْهَمٍ وأَضْرَابُهُمَا، فإِنَّهُم قُتِلُوا تَنْكِيلًا وَرَدْعًا عَنِ الإِفسَادِ عَلَى الأُمَّةِ فِي مُلَّتِهَا، وَلَو كَانَ عَلَى كُفْرِهِمْ لَمْ يُصْلَبُوا، وَيُشَبَّه بِهِم قُطَّاع الطَّرِيقِ المُفْسِدِينَ عَلَى الأمَّة بنَهْبِ أَمْوَالِهِمْ، وسَفْكِ دمَائِهِمْ، وإِخَافَة طَرِيقِهِم، فإِنَّ الْمُرْتَدَّ الْمَقْتُولَ عَلَى كُفْرِهِ لَمْ يَذْكُرِ العُلَمَاءُ رَحِمَهُم اللهُ تَعَالَى فِيهِ زِيَادَةً عَنْ قتلِهِ بالسَّيفِ.

وَأَمَّا الإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ فَبَالَغَ فِي إِنْكَارِ مَذْهَبِ الخَوَارِجِ وتَوْهِينِهِ حتَّى نُسِبَ إِلَى الإِرْجَاءِ مَع بَرَاءَتِهِ مِنْهُ.

وَمَن رَأَى تَكفِيرَهُم منَ العُلَمَاءِ رَحِمَهُم اللهُ تَعَالَى كَبَعضِ أهلِ الحَدِيثِ فإِنَّهُم يُقتلُونَ عَلَى مُقتَضَى قَولِهِ لكُفرِهِمْ.

وَهَلْ إِذَا لَمْ يُقتلُوا لكُفْرِهِمْ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الجُمهُورِ يُصلَّى عَلَيْهِمْ؟

قَالَ المُوفَّقُ: «لَمْ يُفَرِّقْ أَصْحَابُنَا بَينَ الْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ فِي هَذَا، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ[(٣)]، وَأَصْحَابِ الرَّأْيِ - يَعنِي: أَنَّه يُصلَّى عَلَيهِمْ -، وَظَاهِرُ كَلَامِ أَحْمَدَ أَنَّهُ لَا يُصَلَّى عَلَى الْخَوَارِجِ، فَإِنَّهُ قَالَ: أَهْلُ الْبِدَعِ، إِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تُصَلُّوا عَلَيْهِمْ»[(٤)].

وَعَدَمُ تَفْرِيقِ الأصحَابِ نَظرًا لمَا رَوَى الخَلَّالُ فِي جَامِعِهِ وَغَيرِهِ مَرْفُوعًا: «صَلُّوا عَلَى مَنْ قَالَ: لَا إِلَه إِلَّا اللهُ»[(٥)].

---

(١) حكَاهُ عَنْهُ ابنُ عبدِ البرِّ فِي «التَّمهِيدِ» (٨/ ٥٣٠)، ثمَّ قَالَ: «هَذَا قَوْلُ عَامَّةِ الْفُقَهَاءِ الَّذِينَ يَرَوْنَ قَتْلَهُمْ وَاسْتِتَابَتَهُمْ».

(٢) «الْمُغني» (١٢/ ٢٤٨).

(٣) فِي «الأمِّ» (٥/ ٥٣٢).

(٤) «الْمُغني» (١٢/ ٢٥٦).

(٥) أخرجَهُ الدارقطنيُّ (٢/ ٥٦)، والخطيبُ فِي «التَّاريخِ» (٦/ ٣٠٩)، وابنُ الجوزيِّ فِي «العِلَلِ ==

وَقَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ: لَا يُصَلَّى عَلَى الْإِبَاضِيَّةِ، وَلَا الْقَدَرِيَّةِ، وَسَائِرِ أَهلِ البدَعِ، وَلَا تُتْبَعُ جَنَائِزُهُمْ، وَلَا تُعَادُ مَرْضَاهُمْ[1].

وَالْإِبَاضِيَّةُ صِنفٌ مِنَ الْخَوَارِجِ، نُسِبُوا إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ إِبَاضٍ، صَاحِبِ مَقَالَتِهِمْ.

وَأَتبَاعُهُ فِرقَةٌ مِنْ فِرَقِ الخَوَارِجِ الكِبَارِ نَذْكُرُ مَقَالَتَهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِنَا هَذَا، وَهُوَ مِن بَنِي مُقَاعِسٍ، ثُمَّ مِن بَنِي سَعدٍ، من بنِي تَمِيمٍ، وإِذَا غلبُوا عَلَى بَلَدٍ فَجبَوا الخَرَاجَ والزَّكَاةَ والجِزيَةَ، وأقَامُوا الحُدُودَ، وَقَعَ ذَلِكَ مَوْقِعَهُ، ولَمْ يُطَالبْ مَنْ غلبُوا عَلَيْهِ بِشَيءٍ مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ قُدْرَةِ أَهلِ العَدْلِ.

رُوِيَ نَحْو هَذَا عَنِ ابنِ عُمَرَ، وسَلمَةَ بنِ الأكوعِ، وَهُوَ ظَاهِرُ سِيرَةِ عَلِيٍّ ﷺ فِي الخَوَارِجِ، والسَّلفِ بَعْدَهُ، وَهُوَ المَشْهُورُ مِن مَذهَبِ الإمَامِ أَحْمَدَ، وفاقًا للشَّافِعِيِّ، وأَصْحَابِ الرَّأيِ، وَهَذَا يجرِي فِي جَمِيعِ أَهْلِ البَغيِ.

وَذَكرَ مُوَفَّقُ الدِّينِ فِي الخَوَارِجِ الَّذِينَ يَسْتَحِلُّونَ دِمَاءَ المُسْلِمِينَ، وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا مَنْ كَانَ خَرَجَ مَعَهُمْ؛ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِ الْفُقَهَاءِ مِنْ أَصْحَابِنَا المُتَأَخِّرِينَ، أَنَّهُم بُغَاةٌ، حُكْمُهُمْ حُكْمُهُم.

==

المُتناهيةِ» (١/ ٤٢٠) من طريقِ محمَّدِ بنِ الفَضلِ، نا سالمٌ الأفطسُ، عن مجاهِدٍ عنِ ابنِ عُمرَ مرفُوعًا بِهِ.

قلتُ: وسندُه ضعيفٌ جدًّا. محمَّدُ بنُ الفَضلِ تَرْجَمَ لهُ الحافظُ ابنُ حجرٍ فِي «التَّقريبِ» (ص ٥٠١) بِقَوْلِهِ: «كذَّبوهُ».

وَلَهُ طُرقٌ كَثِيرةٌ - إِلَّا أَنَّهَا وَاهِيةٌ خرَّجَهَا الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «الإروَاءِ» (٢/ ٣٢٠) ثمَّ قَالَ: «فقد تبيَّنَ من هذا التَّجريحِ والتَّتبُّعِ لطُرقِ الحَدِيثِ أنَّها كُلُّها واهيةٌ جدًّا كَما الحافظُ فِي «التَّلخيصِ» (ص ١٢٥)، ولذلكَ فالحديثُ يبقَى على ضعفِه مَع كثرةِ طُرقِهِ؛ لأنَّ هَذِهِ الكثرَةَ الشَّدِيدَةَ الضعف فِي مُفرداتِهَا لا تُعطِي الحَدِيث قُوَّةً فِي مجمُوعِهَا كَمَا هُو مقررٌ فِي «علمِ الحَدِيثِ»، فالحَدِيثُ مثلٌ صالحٌ لِهَذِهِ القَاعِدَةِ الَّتِي قَلَّمَا يُرَاعِيهَا مِنَ المُشتغلِينَ بِهذا العِلمِ الشَّريفِ».

(١) «المدوَّنة» (١/ ٢٥٨).



قَالَ: «وَهَذَا قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ، وَالشَّافِعِيِّ، وَجُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ، وَكَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ».

قَالَ: «وَمَالِكٌ يَرَى اسْتِتَابَتَهُمْ، فَإِنْ تَابُوا، وَإِلَّا قُتِلُوا عَلَى إِفْسَادِهِمْ، لَا كُفْرِهِمْ».

قَالَ: «وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ إِلَى أَنَّهُمْ مُرْتَدُّونَ كُفَّارٌ، حُكْمُهُمْ حُكْمُ الْمُرْتَدِّينَ، تُبَاحُ دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، فَإِنْ تَحَيَّزُوا فِي مَكَانٍ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَعَةٌ وَشَوْكَةٌ، صَارُوا أَهْلَ حَرْبٍ كَسَائِرِ الْكُفَّارِ، فَإِنْ تَابُوا، وَإِلَّا ضُرِبَتْ أَعْنَاقُهُمْ، وَكَانَتْ أَمْوَالُهُمْ فَيْئًا، لَا يَرِثُهُمْ وَرَثَتُهُمُ الْمُسْلِمُونَ؛ لِمَا رَوَى أَبُو سَعِيدٍ ﵁ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَخْرُجُ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَأَعْمَالَكُمْ مَعَ أَعْمَالِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الْقِدْحِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الرِّيشِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَتَمَارَى فِي الْفُوقِ» رَوَاهُ الإِمَامُ مَالِكٌ فِي «الْمُوَطَّإِ»[١]، وَالْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»[٢]. وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، ثَابِتُ الْإِسْنَادِ، وَفِي لَفْظٍ: «يَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتَهُمْ فَاقْتُلْهُمْ؛ فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[٣]. وَرُوِيَ مَعْنَاهُ مِنْ وُجُوهٍ، يَقُولُ ﷺ: فَكَمَا خَرَجَ هَذَا السَّهْمُ نَقِيًّا خَالِيًا مِنَ الدَّمِ وَالْفَرْثِ، لَمْ يَتَعَلَّقْ مِنْهَا بِشَيْءٍ، كَذَلِكَ خُرُوجُ هَؤُلَاءِ مِنَ الدِّينِ -يَعْنِي الْخَوَارِجَ-»[٤].

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ: «سِيمَاهُمُ التَّسْبِيدُ»، وَفِي لَفْظٍ: «التَّحْلِيقُ»[٥][٦] يَعْنِي فِي اللَّفْظَيْنِ: حَلْقَ

---

(١) (١/ ٢٠٤).

(٢) (برقم: ٥٠٥٨).

(٣) (برقم: ٣٦١٠).

(٤) «المغني» (٨/ ٥٢٥).

(٥) التَّسبيدُ: استئصالُ الشَّعرِ، والتَّحليق: إزالتهُ.

(٦) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٧٥٦٢)، ومُسْلمٌ (١٠٦٤).

الرُّؤُوسِ، وأَخْبَرَ أَنَّهُم شَرُّ الخَلْقِ وَالخَلِيقِهِ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ الصَّحِيحُ المَرْفُوعُ، وَأَكثَرُ الفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّهُم بغاةٌ، وَلَا يَرَوْنَ تكفيرَهُمْ؛ كَقَولِهِ ﷺ فِي بَعْضِ الأَلْفَاظِ: «وَينظرُ إِلَى الفُوقِ فيتَمَارَى»[(١)] يَعْنِي: أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ مَعَهُمْ شَيءٌ مِنَ الإِيمَانِ، وإِنَّمَا يُقتلُونَ كَفًّا لشَرِّهِمْ، وَإِفسَادِهِمْ للأَديَانِ، وَالأَبدَانِ، والأَموَالِ.

قَالَ ابنُ المُنذِرِ: «لَا أَعْلَمُ أَحَدًا وَافَقَ أَهْلَ الحَدِيثِ عَلَى تكفِيرِهِمْ وَجَعْلِهِمْ كَالمُرْتَدِّينَ».

وَقَالَ ابنُ عَبْدِ البَرِّ، فِي الحَدِيثِ الَّذِي روينَاهُ: «قَوْلُهُ: «يَتَمَارَى فِي الفُوقِ»[(٢)] يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُكَفِّرْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ عَلِقُوا مِنَ الإِسْلَامِ بِشَيْءٍ، بِحَيْثُ يُشَكُّ فِي خُرُوجِهِمْ مِنْهُ»[(٣)].

وَرَوَى ابنُ عَبْدِ البَرِّ[(٤)] عَنْ عَلِيٍّ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ أَهْلِ النَّهروان: أَكُفَّارٌ هُمْ؟ قَالَ: مِنَ الكُفْرِ فَرُّوا. قِيلَ: مُنَافِقُونَ؟ قَالَ: إِنَّ المُنَافِقِينَ لَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا - وَهَؤُلَاءِ يَذْكُرُونَ اللهَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا - قِيلَ: فَمَا هُمْ؟ قَالَ: قَوْمٌ أَصَابَتْهُمْ فِتْنَةٌ، فَعَمُوا فِيهَا وَصَمُّوا[(٥)].

---

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٥٠٥٨)، ومُسْلِمٌ (١٦٠٤).

(٢) لفظُ البُخَارِيِّ (٥٠٥٨).

(٣) «الاستذكار» (٨/ ٨٧).

(٤) فِي «التَّمهِيدِ» (٢٣/ ٣٣٥) ثمَّ قالَ: «وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّ هَذَا القَوْلَ كَانَ مِنْهُ فِي أَصْحَابِ الجَمَلِ، وَاللهُ أَعْلَمُ».

(٥) أخرجَهُ عبدُ الرَّزاقِ فِي «المُصنَّفِ» (٨/ ٢٤٣ ط التأصيل) بسندٍ ضَعيفٍ لجهَالَةِ مَنْ حَدَّثَ مَعْمرًا.

واخرجَ ابنُ أَبِي شَيبَةَ فِي «المُصنَّفِ» (٢١/ ٤٦١) بِسَندٍ رِجَاله ثقَات عَن طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عَلِيٍّ، فَسُئِلَ عَنْ أَهْلِ النَّهرِ أَمُشرِكُونَ هم؟ قَالَ: مِنَ الشِّرْكِ فَرُّوا، قِيلَ: فَمُنَافِقُونَ هُمْ؟ قَالَ: إِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً، قِيلَ لَهُ: فَمَا هُمْ، قَالَ: قَوْمٌ بَغَوْا عَلَيْنَا.

فَصْلٌ

وَمِنْ سَببِ خرُوجِهِمْ عَلَى الأئمَّة، وتكفيرِهِمْ أهلَ القِبْلَةِ؛ أنَّهُم اعتلوا عن ذَلِكَ بأنَّ الخَلائِقَ لَا يَنْفَكُّونَ مِنَ ارتكَابِ مزجُورٍ، وانتهَاكِ مأمُورٍ، وَإِذَا كَانُوا كَذَلِكَ، وَلَمْ يُغيِّرْ أئمتهُمْ، وانْهَمَكُوا معَهُم فِيمَا انهمَكُوا فِيهِ لمْ يكُونُوا بِذَلِكَ مُؤمِنِينَ، فإنَّ الإيمَانَ عِندَهُم كَمَا ذَكَرْنَا لَا يَتَبَعَّضُ[1]، بَلْ إِذَا ذهبَ بَعْضهُ ذَهَبَ كُلُّهُ، فنَادوا بهَذَا عَلَى أهلِ القبَائحِ بِاسْتحلَالِ دمَائِهِمْ وأموَالِهِمْ، فَفعلُوا بِهِمْ مَا فَعَلُوا بِمَا أوَّلُوهُ فِي القُرآن مِنْ تَأوِيلِ الأَبَاطِيلِ.

وَكُلَّمَا كَانَ سَبَبُ نزُولِهِ فِي الكُفَّارِ والمُشْرِكِينَ جَعلُوهُ فِي المُسْلِمِينَ[2]، فَجَرَّدُوا سُيوفَهُم عَلَيْهِم بِالقَتلِ والسَبِّ والنَّهبِ والسَّلبِ، يَعْتَقِدُونَ أنَّ ذَلِكَ عَلَيهم مِنَ الله تَعَالَى حَقٌّ قَدْ وَجَبَ، وأنَّهُ هُوَ التَّوحيدُ والعَدلُ، وَنَصَبُوا لأهلِ القِبْلَةِ عَلَى ذَلِكَ الخُصُومَةَ والجَدلَ، وقالُوا عَلَى الله غَيْرَ الحَقِّ، وَأنَّ كلًّا مِنْهُم بِذَلِكَ مُحِقٌّ، فجَاسُوا خِلَالَ الدِّيارِ، وَعَفو مِن عُلَمَائِهَا الآثَارَ، وَلمْ يجعلُوا لِمَنْ لَمْ يوَافقْهُم عَلَى قَولِهِمْ فِيهَا قرَارًا، فَضَيَّقُوا الحَضِيرَه، وَجَعلُوا نارَ الحَربِ عَلَى المُسْلِمِينَ مِنهُم مُسْتطِيره، وَمَا ذَلِكَ إلَّا لغُلُوهِم فِي الدِّينِ، واتِّبَاعِهِمْ لِغَيرِ سَبيلِ المُؤمنِينَ بِتَزيِينَ الشَّياطِين، فنزَلُوا مِنَ الطَّرِيقِ أَوْسَعَهُ، وَسَلَكُوا مِنَ المضيقِ أَشْبَهَهُ.

فلمَّا كانُوا كَذلكَ، وخَرجُوا مِنَ البَابِ الوَاسعِ الَّذِي هُوَ الأمرُ بِالمَعْرُوفِ والنَّهي عَنِ المُنكرِ - كَمَا سَيأتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعرِيفُهُ - إِلَى البَابِ الضَّيقِ؛ وَهُوَ تَكْفِير أهلِ القبلةِ، وسفكُ دمَائِهِم، وَنَهبُ أموَالِهِم؛ صَارُوا بِذَلِكَ بُغَاةً ظلمَةً، وَصَارَ يَجِبُ عَلَى مَنْ لَهُ ولَايَة المُسْلِمِينَ شَرعًا كَفَّ شَرِّهِمْ وَلَوْ بقتلِهِمْ.

---

(١) في الأصلِ زيادة: «بل إذا يتبعض».

(٢) علَّقَ البُخَارِيُّ (٩/١٦) عنِ ابنِ عُمرَ - بصيغَةِ الجزمِ - قَالَ: «إِنَّهُمْ انْطَلَقُوا إِلَى آيَاتٍ نَزَلَتْ فِي الكُفَّارِ، فَجَعَلُوهَا عَلَى المُؤْمِنِينَ».

قَالَ فِي «شَرحِ مُسلِمٍ»: «يَجِبُ قِتَالُ الخَوَارِجِ والبُغَاةِ إِجْمَاعًا»[١].

وَقَالَ القَاضِي: «أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْخَوَارِجَ وَشِبْهَهُمْ من الْبِدَعِ وَالْبَغْيِ مَتَى خَرَجُوا على الْإِمَامِ، وَخَالَفُوا رَأْيَ الْجَمَاعَةِ؛ وَجَبَ قِتَالُهُمْ بَعْدَ الْإِنْذَارِ وَالْإِعْذَارِ»[٢].

فَإِنْ لَمْ يكُنْ إِمَامٌ يلِي قتالَهُم؛ جَازَ قتالُهُم ودفعُهُم، كَمَا أرادَهُ عبدُ الله بنُ عمَرَ ﷺ لَمَّا أُخْبِرَ بِتَوجّهِ نَجْدَةَ بنِ عُوَيْمرٍ[٣] الحنفِي صَاحِبِ اليَمَامَةِ الخَارِجِي إِلَى المَدِينَةِ، وكَانَ ابنُ عُمَرَ بِهَا حتَّى قِيلَ لَهُ: إِنَّا نخَافُ عليْكَ أنْ يَخْذلَكَ النَّاسُ[٤]، كَمَا فِي البُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ.

وَلِهَذَا لَمَّا قِيلَ للقَاضِي: أَيَجُوزُ قِتَالُ الْبُغَاةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِمَامٌ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ لِأَنَّ الْإِمَامَ إِنَّمَا أُبِيحَ لَهُ قِتَالُهُمْ لِمَنْعِ الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ، وَهَذَا مَوْجُودٌ بِدُونِ إِمَامٍ[٥].

هَذَا إِذَا قَاتَلُوا.

وأمَّا إِذَا لَمْ يُقَاتِلُوا؛ فَقَدْ قَالَ ابنُ مُفْلِحٍ: «وَإِنْ أَظْهَرَ قَوْمٌ رَأْيَ الْخَوَارِجِ، وَلَمْ يَخْرُجُوا عَنْ قَبْضَةِ الْإِمَامِ لَمْ يُقَاتَلُوا، وَلَمْ يُتَعَرَّضْ لَهُمْ، وَتَجْرِي الْأَحْكَامُ عَلَيْهِمْ كَأَهْلِ الْعَدْلِ، ذَكَرَهُ جَمَاعَةٌ»[٦] -يَعنِي: مِنَ الأَصْحَابِ[١].

---

(١) «شَرحُ مُسلِمٍ» (٧/ ١٧٠) بتصرف.

(٢) «إِكمَالُ المُعلمِ» (٣/ ٦١٣).

(٣) كذا بالمَخطُوطِ بالتَّصغيرِ، ولعلَّ الصَّوابَ: «عَامِر» بالتَّكبيرِ كمَا فِي مصَادرِ ترجمتِه، انظر: «الكَامل» (٤/ ٢٠١)، و«الملل والنحل» (١/ ١٢٢)، و«مقَالَات الأشعَري» (١/ ١٧٤)، و«تَلبيس إبليس» (ص٩٥)، و«الفرْق بَينَ الفِرقِ» (ص٨٧)، و«دراسَات عنِ الفرقِ» (ص٥٧)، وقد ذكرَه ابنُ حزمٍ فِي الفِصلِ بالتَّصغيرِ.

(٤) سيأتِي آثارٌ كثِيرَةٌ فِي هذَا المَعْنَى.

(٥) «الفرُوع» (١٠/ ١٧٤).

(٦) «الفرُوع» (١٠/ ١٧٧).



وَسَأَلَ الْمَرُّوذِيُّ الإِمَامَ أَحْمَدَ عَنْ قَوْمٍ من أَهْلِ الْبِدَعِ يَتَعَرَّضُونَ وَيُكَفِّرُونَ؟ قَالَ: «لَا تَعْرِضُوا لَهُمْ»، قُلْت: وَأَيُّ شَيْءٍ تَكْرَهُ أَنْ يُحْبَسُوا؟ قَالَ: «لَهُمْ وَالِدَاتٌ وَأَخَوَاتٌ»[(٢)].

وَقَالَ فِي «رِوَايَةِ ابْنِ مَنْصُورٍ»: «فالْحَرُورِيَّةُ إِذَا دَعَوْا إِلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ؟ قال: إِذَا دعَوْا إِلَى دِينِهِمْ فَقَاتِلْهُمْ، وَإِلَّا فَلَا يُقَاتَلُونَ»[(٣)].

واحتجَّ مُوفَّقِ الدِّينِ[(٤)] عَلَى عَدَمِ قتَالِهِمْ فِي هَذِهِ الحَالَةِ بقَولِ خَالِدٍ ﷺ للنَّبيِّ ﷺ[(٥)] عَنِ الخَارِجِي: أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ قَالَ: «لَا»، وَبكفِّه عَنِ الْمُنَافِقِينَ[(٦)]، وَبِمَا رُوِيَ عَن عَلِيٍّ ﷺ، وَقَد سَبَقَ.

وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ ـ أَيضًا ـ فِي الحَرُورِيَّةِ: الدَّاعِيَةُ تُقَاتَلُ كبُغَاةٍ، وَفِي «التَّبْصِرَةِ»[(٧)]: «عَلَى الْإِمَامِ مَنْعُهُمْ وَرَدْعُهُمْ، وَلَا يُقَاتِلُهُمْ، إِلَّا أَنْ يَجْتَمِعُوا لِحَرْبِهِ فَكَبُغَاةٍ»[(٨)].

==

(١) قَالَ الشَّيخُ السعديُّ رحمه الله فِي «تَيسيرِ الكَريمِ الوَاحِدِ» (١٢/ ١٧٧ ـ ١٧٨): «قلتُ: منهم أبو بكرٍ، وصاحِبُ الهدايةِ، والمذهبِ ومسبوكِ الذَّهبِ والمُستوعبِ والخُلاصَةِ والهَادِي والكَافِي والمُغني والشَّرحِ والبلغةِ والمُحرَّر والنَّظمِ والرعايتَينِ والحَاوِي الصَّغيرِ والوَجيزِ وإدرَاكِ الغَايةِ والمُنتخبِ وتَجريدِ العِنَايةِ ونِهايةِ ابنِ رزينٍ وغيرهُم».

(٢) نقلَهَا ابنُ مُفلحٍ فِي «الفرُوع» (١٠/ ١٧٨).

(٣) انظر: «المَسائل الفِقْهيَّة مِن كتَابِ الرِّوَايتَينِ والوَجْهَينِ» (٣/ ١٢٥).

(٤) فِي «المُغني» (٩/ ٨).

(٥) فِي المَخطُوطِ: «صلعَمْ»، وكُلُّ ما كُتِبَ هَكذَا، أكتبُ صِيغَةَ الصَّلاةِ كَامِلَةً.

(٦) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٤٣٥١)، ومُسْلِمٌ (١٠٦٤) ولفَظُهُ: قَالَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ قَالَ: «لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي»، وَهَذَا الَّذِي احتجَّ بِهِ المُوفَّقُ فِي «المُغْنِي»، إلا أَنَّ المُصنِّفَ نقلَ هَذَا الفَصلِ مِن «الفرُوعِ» (١٠/ ١٧٩) وَهُو فِيهِ كَمَا هُنَا.

(٧) عزَاهُ لـ«التَّبْصِرَةِ» ابنُ مُفلحٍ فِي «الفرُوعِ» (١٠/ ١٧٩)، والمردَاويُّ فِي «الإنصَافِ» (١٠/ ٣٢٢).

(٨) «».

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ: «اتَّفَقُوا - يَعْنِي: الفُقَهَاءَ[١] - عَلَى أَنَّ الْبِدَعَ الْمُغَلَّظَةَ شَرٌّ مِنَ الذُّنُوبِ فَقَدْ أَمَرَ ﷺ بِقِتَالِ الْخَوَارِجِ عَنْ السُّنَّةِ، وَأَمَرَ بِالصَّبْرِ عَلَى جَوْرِ الأَئِمَّةِ وَظُلْمِهِمْ»[٢].

قَالَ[٣]: «وَنُصُوصِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ تدلُّ أَنَّه لَا يَحِلُّ الخُرُوجُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ بِدْعَةٌ مُخَالِفٌ لِلسُّنَّةِ، وأنَّ ذَلِكَ مِنْ فِعلِ الخَوَارج والبُغَاةِ، وَقَد أُمَرَ بِالصَّبْرِ عَلَى جَوْرِهِمْ، وَأَنَّ السَّيْفَ إِذَا وَقَعَ عَمَّتِ الْفِتْنَةُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ. فَتُسْفَكُ الدِّمَاءُ، وَتُسْتَبَاحُ الْأَمْوَالُ، وَتُنْتَهَكُ الْمَحَارِمُ».

قَالَ[٤]: «عَامَّةُ الْفِتَنِ الَّتِي وَقَعَتْ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِهَا قِلَّةُ الصَّبْرِ؛ إِذِ الْفِتْنَةُ لَهَا سَبَبَانِ: إِمَّا ضَعْفُ الْعِلْمِ، وَإِمَّا ضَعْفُ الصَّبْرِ، فَإِنَّ الْجَهْلَ وَالظُّلْمَ أَصْلُ الشَّرِّ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ إِنَّمَا يَفْعَلُهُ لِجَهْلِهِ بِأَنَّهُ شَرٌّ، وَلِكَوْنِ نَفْسِهِ تُرِيدُهُ، فَبِالْعِلْمِ يَزُولُ الْجَهْلُ، وَبِالصَّبْرِ يُحْبَسُ الْهَوَى وَالشَّهْوَةُ، فَتَزُولُ الْفِتْنَةُ»[٥].

والخَوَارِجُ لَمْ يُقْدِمُوا عَلَى ما قَدمُوا عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ هَاتَيْنِ الخصْلَتَيْنِ، وَلِهَذَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ الهَرَوِيُّ[٦]: أَجْمَعَتِ العُلَمَاءُ قَاطِبَةً عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ إِمَامًا فِي الدِّينِ والمَذْهَبِ المُستقِيمِ حتَّى يَكُونَ جَامعًا لهَذِهِ الخصَالِ؛ وَهِيَ: أَنْ يَكُونَ حَافِظًا للغَاتِ العَرَبِ، واختلَافِهَا، ومعَانِي أشعَارهَا، وأصنافِهَا، واختلَافِ العُلَمَاءِ والفُقهَاءِ، ويكُونَ عَالمًا فقيهًا،

(١) المُصَنِّفُ نقلَ كَلَامَ شَيخِ الإسلَامِ رَحِمَهُ اللهُ مِنَ «الفرُوعِ» (١٠/ ١٨٠)، وفِي «مَجْمُوعِ الفَتاوى»: «اتَّفَقَ أَئِمَّةُ الإِسْلَامِ».

(٢) «مَجْمُوعِ الفتاوى» (٢٨/ ٤٧٠) بِتصَرُّفٍ.

(٣) أي: ابنُ مُفلح فِي «الفرُوعِ» (١٠/ ١٨١)، ونقلَهُ - عَنْهُ - المرداويُّ فِي «الإنصَافِ» (١٠/ ٣١١)، وتصرَّفَ المُصنِّفُ فِي النَّقلِ، بَل زَادَ كَلِمَاتٍ تَوضِيحيةً.

(٤) أي: شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ، وَقَد قَالَ ابنُ مُفلحٍ فِي «الفرُوعِ» (١٠/ ١٨١): «قَالَ شَيْخُنَا».

(٥) «مَجْمُوعِ الفتاوى» (٢٨/ ٤٧٠) بِتصَرُّفٍ.

(٦) فِي «الحجَّةِ فِي بيانِ المَحجَّةِ» (١/ ٣٣٣): «قَالَ عُلَمَاءُ السَّلفِ:...».

وحَافظًا للإعرَابِ، وأنوَاعِه والاختلَافِ فِيهِ، عَالمًا بكتَابِ الله حَافظًا لَهُ، ولاختلَافِ قرَاءتِهِ، واختلَافِ القرَّاءِ فيهَا، عَالمًا بتفسيرِهِ، ومُحكمِهِ، وَمُتشَابِهِهِ، مميزًا بَينَ ذَلِكَ، عالمًا بناسخِهِ، ومنسُوخِه، وخاصِّه، وعَامِّه، ومطلقِهِ، ومقيدِهِ، وسببِ نزولِهِ، وظاهرِ خطَابِهِ، ومفهُومِه، وَقصصِهِ، وعبرِهِ، عَالمًا بأحاديثِ الرَّسُولِ ﷺ، مميزًا بَينَ صَحيحِهَا، وَسَقيمِهَا، ومتصلِهَا، ومنقطعِهَا، ومرَاسيلِهَا، ومسَانيدِها، وَمشَاهيرِهَا، وَآحادِهَا، وأحَادِيثِ الصَّحَابَةِ، موقُوفِهَا، ومُسندِهَا، وأقوَالِهِم، واختلَافِهِمْ، واتِّفَاقِهِمْ.

ثمَّ يكُون مع ذَلِكَ وَرِعًا دِيِّنًا صَائِنًا نَفسَهُ، صَدُوقًا ثقةً، يبنِي مَذهبَهُ، وَدِينَهُ عَلَى كِتَابِ الله وسُنَّةِ رسُولِه ﷺ فِي ذَلِكَ سَالكًا لِسَبيلِ المُؤمنِينَ.

فَإذَا جَمعَ هَذِهِ الخصَالِ فَحِينَئِذٍ يجُوزُ أَنْ يَكُونَ إمَامًا فِي المَذْهَبِ المُستقِيمِ، وجازَ أن يُقلَّدَ ويجتهدَ فِي دينِهِ وفتَاويهِ، إذا لَمْ يحدِثْ قَولًا يخَالفُ نُظراءَهُ فِي العِلْمِ. وإذَا لَمْ يَكُنْ جَامِعًا هَذِهِ الخصَالِ، أو أخلَّ بواحدَةٍ مِنْهَا كَانَ نَاقصًا، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَكُونَ إمَامًا يُقلدهُ النَّاسُ.

وَهَكَذا رُوِيَ نَحْوُ هَذِهِ الشُّرُوطِ عَنِ الإمَامينِ الحُسينِي مُحَمَّدِ بنِ إِدْرِيسَ وأحمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ حَنبلٍ وَغَيرِهِمَا مِنْ عُلَماءِ السَّلفِ وَقَادتِهِمْ ﷺ، وَقَد تقدَّمَ مِنْ كَلام الإمَامِ مَالِكٍ التَّشدِيدُ فِي أمرِ الخَوَارجِ، فإنَّهُم لما جهلُوا بابَ الأمرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهي عَنِ المُنكرِ الَّذِي هُوَ أصلُ الإسلامِ، وقَاعدَةُ الإيمَانِ، خَرَجُوا مِنْهُ لظنهم أنَّهُم فِيهِ إِلَى البَابِ الضَّيقِ مِن تكفِيرِ أَهلِ القِبْلَةِ.

ولَمَّا رَأَوْا أنَّ عُلمَاءَ الأُمَّةِ لَا توافقهُم عَلَى ذَلِكَ سَعَوْا لَهُم بالتَّكفِيرِ والقَتلِ، ولقَّبُوهُمْ بألقَابِ المُشرِكِين والكُفَّارِ، وَحَكمُوا عَلَيْهِم بالخلُودِ فِي النَّارِ، إلَّا مَنْ وَافقَهُم عَلَى بِدْعتِهِم، أو هَاجَرَ إليهم فِي بقعتِهِم، فنعُوذُ بالله مِنَ الزَّيغِ والهَوَى.

فَصْلٌ

[مطلبٌ فِي مرَاتبِ الأمرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهي عنِ المُنكرِ الَّذِي عَلَيْهِ السَّلفُ][(١)]

ونحنُ سنذكرُ منْ مَراتبِ الأمرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهي عَنِ المُنكرِ الَّذِي عَلَيْهِ السَّلف ما يَدُلكُ عَلَى غواية الخوارج وخرُوج دِينهم المَارِج.

فنقولُ: قَدْ ذكرَ اللهُ سُبحانَهُ الآمرينَ بِالمَعْرُوفِ والنَّاهينَ عنِ المُنكرِ فِي كِتَابه، وَمَدَحَهُم، ونوَّه بِذِكْرِهِم حيثُ قَالَ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ وَقَالَ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾.

والآياتُ فِي هَذَا كثيرةٌ، حيثُ يطولُ عدُّهَا، وهيَ معلومةٌ، فَلَا نطيلُ بذكرِهَا، وَمَا كَانَ اللهُ لينص عَلَى تفضيلِ هَذِهِ الأمةِ بقولِه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ الآيَةَ، وَيأتمنهم عَلَى الأُممِ بقولِه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ثمَّ يكون مِنْهُم مغترُّونَ يغترُّونَ، ومقصرُونَ لا ينتصرون، وَلَا يكونُ فيهم محقِّقُونَ مُشَمِّرُونَ، محرِّزُونَ، بالحَقِّ، ظاهرُونَ حتَّى تخرجَ فِيهم هَذِهِ الخوارجُ، ويُحكمَ فيهم بالكُفرِ، وأنَّ الجهلَ قَدْ عمَّهُم قبلهم، وبأنَّ منْ ليسَ مِنْهُم ولمْ يهاجرْ إليهم كافرٌ لا يُناكحُ وَلَا يُجامعُ فِي أرضِه ودارِه.

وَقَدْ أَجْمَعَتِ الأمَّةُ عَلَى أنَّ الأمَّةَ لا تُجْمِعُ، وَلَا تجتمعُ عَلَى ضَلالةٍ، حتَّى حَكَمَتْ عَليهم الخَوَارجُ بِذَلِكَ، وَحَكَمَتْ أيضًا بأنَّ الأمَّةَ فِي جَاهليةٍ عامةٍ حتَّى أخرجتْ لهَا هَذِهِ الفِرْقَة المَارِقة دينهَا، وَقَاتلتهَا عَلَى ذَلِك تزعمُ أنَّها قَدْ دَلتهَا عَلَى دينِ أضاعتهُ الأمَّةُ، وَمَنْ لَمْ يُجِبْهُم إِلَى ذَلِكَ فَهُوَ كافرٌ حَلَالُ الدَّمِ والمَالِ.

---

(١) هذَا العنوانُ منْ هامشِ الأصلِ.



وَقد عصمَ اللهُ هَذِهِ الأمةَ منَ الجاهليةِ العَامَّةِ - كَمَا ذكرَ ذَلِكَ شيخُ الإسلَامِ ابنُ تيمية قدَّسَ اللهُ رَوحَهُ فِي كِتَابِهِ «اقتضَاءِ الصِّراطِ المُستَقِيمِ فِي مُخَالفَةِ أصْحَابِ الجَحِيمِ».

فَعنْ بَهزِ بنِ حَكِيمِ بنِ حزَامٍ عن أَبيهِ عَن جَدِّهِ أَنَّه سَمعَ رَسُولَ الله ﷺ يقُولُ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قَالَ: «أَنْتُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّة أَنْتُمْ خَيْرُهَا، وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ» رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ[(١)]، وابنُ مَاجَه[(٢)] والدَّارِمِيُّ[(٣)].

وَقَالَ التِّرمِذِيُّ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

وَعِندَ النَّسَائيِّ[(٤)] وابنِ حِبَّانَ[(٥)] بِسَندٍ صَحِيحٍ عَن عرفجةَ ﷺ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: «سَتكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ فَارَقَ الجَمَاعَةَ، أَو يُرِيدُ أَنْ يفارِقَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَائِنًا مَنْ كَانَ فَاقْتُلُوهُ، فَإِنَّ يَدَ الله عَلَى الجَمَاعَةِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ يَرْكُضُ».

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ» رَوَاهُ أَبو دَاودَ[(٦)].

وَعِندَهُ[(٧)] عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشعَرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ، قَدْ أَجَارَكُمْ اللهُ مِنْ ثَلَاثِ خِلَالٍ: أَنْ لَا يَدْعُوَ عَلَيْكُمْ نَبِيُّكُمْ فَتَهْلِكُوا

---

(١) (برقم: ٣٠٠١) وَقَالَ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَقَدْ رَوَى غَيْرُ وَاحِدٍ هَذَا الحَدِيثَ عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ نَحْوَ هَذَا، وَلَمْ يَذْكُرُوا فِيهِ ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾».

(٢) (برقم: ٤٢٨٨) وصحَّحه الشيخُ الألبانيُّ رحمه الله فِي «صحيحِ الجامعِ» (٢٣٠١).

(٣) فِي «السُّنَنِ» (٢٦٧٦).

(٤) (برقم: ٤٢٨٨) وصحَّحه الشيخُ الألبانيُّ رحمه الله فِي «صحيحِ الجامعِ» (٢٣٠١).

(٥) (برقم: ٤٥٧٧).

(٦) (برقم: ٤٧٥٨) وصحَّحه الشيخُ الألبانيُّ رحمه الله فِي «صحيحِ الجامعِ» (٦٤١٠).

(٧) (برقم: ٤٢٥٣) وضعَّفهُ الشيخُ الألبانيُّ رحمه الله فِي «ضعيفِ الجامعِ» (١٥٣٢).

جَمِيعًا، وَأَنْ لاَ يَظْهَرَ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ، وَأَنْ لاَ تَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلاَلَةٍ».

وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ(١) عنِ ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما أَنَّ رسُولَ الله قَالَ: «إِنَّ اللهَ لَا يُجْمِعُ أُمَّتِي» - أَوْ قَالَ: «أُمَّةَ مُحَمَّدٍ» - عَلَى ضَلَالَةٍ، وإِنَّ يدَ اللهِ عَلَى الجَمَاعةِ، ومَنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ».

وَقَدْ قَالَ ابنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه - فِيمَا صَحَّ عَنْهُ كَمَا هُوَ عِندَ الدَّارِمِي(٢) وَغَيرِهِ -: «إِيَّاكُمْ وَالتَّنَطُّعَ وَالتَّعَمُّقَ وَالتبدعَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ».

وَعِندَهُ(٣) أيضًا عَنْهُ بِسَندٍ صَحِيحٍ: «إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَقْوَامًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَكُمْ إِلَى كِتَابِ الله، وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، فَعَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّبَدُّعَ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَطُّعَ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّعَمُّقَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ».

وَلهَذَا ضَربَ الفَارُوقُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ صُبَيْغًا القشعِي التَّمِيمِي لَمَّا رَأَى مِنْهُ نَحوَ ذَلِكَ، وكانَ يَسأَلُ عَنِ الذَّارِيَاتِ والمُرسلَاتِ وَغيرِ ذَلِكَ من مُتشَابه القُرْآنِ، وَكَانَ كَثِيرَ التَّنطع، ثمَّ خَرَجَ منْ بعدَ ذَلِكَ معَ الخَوَارجِ؛ كَمَا ذكرنا قِصَّتَهُ فِي شَرحِ التَّوحِيدِ مُستَقصَاة، وَلْيُنظر

---

(١) فِي «الجَامِعِ» (٢٠٩٣).
قَالَ أَبُو عِيسَى: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَسُلَيْمَانُ الْمَدَنِيُّ هُوَ عِنْدِي سُلَيْمَانُ بْنُ سُفْيَانَ، وَقَدْ رَوَى عَنْهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، وَأَبُو عَامِرٍ الْعَقَدِيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، قَالَ أَبُو عِيسَى: وَتَفْسِيرُ الْجَمَاعَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ هُمْ أَهْلُ الْفِقْهِ وَالْعِلْمِ وَالْحَدِيثِ، قَالَ: وَسَمِعْتُ الْجَارُودَ بْنَ مُعَاذٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْحَسَنِ، يَقُولُ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُبَارَكِ: مَنِ الْجَمَاعَةُ؟ فَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، قِيلَ لَهُ: قَدْ مَاتَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، قَالَ: فُلَانٌ وَفُلَانٌ، قِيلَ لَهُ: قَدْ مَاتَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، وَأَبُو حَمْزَةَ السُّكَّرِيُّ جَمَاعَةٌ، قَالَ أَبُو عِيسَى: وَأَبُو حَمْزَةَ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مَيْمُونٍ، وَكَانَ شَيْخًا صَالِحًا، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا فِي حَيَاتِهِ عِنْدَنَا»، وضعَّفهُ الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «تَحقِيقِ المُشكَاةِ» (١٧٣).

(٢) فِي «السُّنَنِ» (١٤٦)، والطَّبَرَانِيُّ فِي «الكَبِيرِ» (٩/ ١٧٠)، قَالَ الهَيثَمِيُّ فِي «المَجمَعِ» (١/ ١٢٦): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الكَبِيرِ، وَأَبُو قِلَابَةَ لَمْ يَسْمَعْ مِن ابنِ مَسْعُودٍ».

(٣) فِي «السُّنَنِ» (١٤٧)، وسندُه ضعيفٌ؛ أَبُو قِلَابَةَ لَمْ يَسْمَعْ مِن ابنِ مَسْعُودٍ.

هناكَ، وَقَد ذَكَرَهَا ابنُ عَبْدِ البَرِّ وَغَيرُهُ منَ العُلَمَاءِ، وَكَذَلِكَ الدَّارمِيُّ [١] بِأسَانِيدَ صِحَاحٍ.

وقَد عَفَى اللهُ لِهَذِهِ الأمَّة عَنِ الخَطَأ والنِّسيَانِ، وَمَا اسْتُكرِهُوا عَلَيْهِ، والحَدِيثُ فِي السُّنَنِ ذَكرناه مستقصًى فِي شَرحِ التَّوحِيدِ، وَقَد قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ الآيَةَ.

والغُلُو فِي الدِّينِ: التَّشديدُ فِيهِ، ومُجَاوزَةُ الحَدِّ والقَصْدُ سَوَاء فِي نَفسِ الغَالِي، أو عَلَى النَّاسِ كَمَا قَالَ ابنُ زيدِ التَّميمِي [٢]:

وعاذِلَةٍ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَلُومُنِي ... فلَمَّا غلَتْ فِي اللَّومِ قُلْتُ لهَا اقْصِدِي

فالدِّينُ سلُوكُ الصِّراطِ المُستَقِيمِ بالقَصْدِ مِنْ غَيرِ غُلوٍّ، فَهُوَ قصدٌ بَينَ طَرِيقَةِ الخَوَارجِ والرَّافضَةِ، وَبينَ القَدَريَّةِ والجَبْريَّةِ.

وَرَوَى ابنُ الجَوْزِيِّ [٣] بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي إِسْحَاقَ الفِزَارِيِّ قَالَ: قَالَ الأَوْزَاعِيُّ: اصْبِرْ نَفْسَكَ عَلَى السُّنَّةِ، وَقِفْ حَيْثُ وَقَفَ القَوْمُ، وَقُلْ مَا قَالُوا، وَكُفَّ عَمَّا كَفُّوا، وَاسْلُكْ سَبِيلَ سَلَفِكَ الصَّالِحِ، فَإِنَّهُ يَسَعُكَ مَا وَسِعَهُمْ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾.

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ [٤]، والنَّسَائِي [٥]، وابنِ مَاجَه [٦] بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَى شَرطِ مُسلمٍ مِن

---

(١) فِي «السُّنَنِ» (١٤٨).

(٢) هُو حَاتمٌ الطَّائِي كما فِي «جَمهَرَة أشعَارِ العَربِ» (ص ٣٩١).

(٣) فِي «تلبيسِ إِبليس» (١/ ٥٣) بإِسنَادٍ صَحِيحٍ.

(٤) فِي «المُسْنَدِ» (١/ ٢١٥).

(٥) فِي «المُجتَبى» (٥/ ٣٠٩).

(٦) فِي «السُّنَنِ» (٣٠٢٩)، وصحَّحهُ الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ» (١٢٨٣).

حدِيثِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ».

قالَهُ ﷺ يومَ النَّحْرِ عِندَ لقطِ الجِمَارِ، وَهَذَا عامٌّ فِي جَمِيعِ أنوَاعِ الغُلُوِّ فِي الاعتقَادَاتِ والأعمَالِ والأقوَالِ، وبِأَنْ يُزَادَ فِي حَمدِ الشَّيءِ، أو ذمِّهِ عَلَى ما يَسْتَحقّه.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ يقعُ مِنْهَا مِنْ تَركِ المَأمُورَاتِ، وارتكَابِ المحظُورَاتِ مَا لا يُحصَى كَثْرَةً.

وَقَدْ عَلِمَ ذَلِكَ نَبِيُّهَا ﷺ، وحذَّرَ وأنذرَ فِي ذَلِكَ فِي مقَامِ الأمرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهي عَنِ المُنكرِ، وَلَمْ يَأمرْ أَنْ يقتلَ بَعْضُهُم بعضًا عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ سُلْطَانًا عَلَى إِقَامَةِ الحُدُودِ، وكَفِّ البغَاةِ عَنِ الأُمَّةِ تَوقِيرًا لجمَاعتِهِم، وَلهَذَا قَالَ ﷺ فِيمَا ثَبَتَ عَنهُ: «لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[1].

وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ[2] بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللهِ، فَلاَ يُتْبِعَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذِمَّتِهِ».

وهو عِندَ ابنِ مَاجه[3] بِمَعْنَاهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكرِ الصِّدِيقِ رضي الله عنه، وَزَادَ: «فَمَنْ قَتَلَهُ طَلَبَهُ اللهُ تَعَالَى حَتَّى يَكُبَّهُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ».

---

(١) أخرجَه البُخاريُّ (٦١٦٦)، ومسلِمٌ (٦٦).

(٢) فِي «الجامِع» (٢١٦٤).
وأخرجَ مسلمٌ (٢٦١) من حديثِ جُنْدَبَ بنِ عَبْدِ الله، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ الله، فَلَا يَطْلُبَنَّكُمُ اللهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ فَيُدْرِكَهُ فَيَكُبَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ».

(٣) فِي «السُّنَنِ» (٣٩٤٥).
قالَ البُوصيريُّ فِي «مصبَاحِ الزّجاجة» (٤/ ١٦٧): «هَذَا إِسْنَادٌ رِجاله ثِقَات إِلَّا أنه مُنْقَطِعٌ؛ سعيدُ بنُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يدرِكْ حَابِسَ بنَ سعيدٍ؛ قَالَهُ فِي التَّهْذِيبِ، وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الكَبِيرِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ».

وَرَوَاهُ الطبَرَانِيُّ فِي «الكَبِيرِ» بِمَعْنَاهُ عن وَالِدِ أَبِي مَالِكٍ الأَشْجَعِي [(١)]، وابنِ عُمَرَ [(٢)] مِنْ طريقَينِ بإسنَادَينِ حَسَنَينِ.

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ [(٣)]، وَمُسْلِمٍ [(٤)]، وأَبِي دَاودَ [(٥)]، وابنِ مَاجه [(٦)] عَنْ عمارَةَ بنِ رُوَيبةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا».

وَعِندَ البُخَارِيِّ [(٧)] وَغَيرِهِ عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ مَرْفُوعًا: «مَنْ صَلَّى صَلاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ المُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلاَ تُخْفِرُوا اللهَ فِي ذِمَّتِهِ».

وأَمَّا عِلمُهُ ﷺ أَنَّها سَتكثرُ ذنُوبُ أمَّتِهِ؛ فمِنْ أخبَارِهِ أَنَّهُ خبأَ شَفاعتَهُ للمُذنبِينَ المُتلطِّخِينَ بَعدَ علمِهِ بإجَابَةِ الله لِدُعَائِهِ فِي ذَلِكَ، وَبَعْدَ قَولِه: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ» [(٨)].

وَعِندَ مُسْلِمٍ [(٩)] فِي «صَحيحِهِ» عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأنصَارِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ حِينَ حَضَرَتْهُ

---

(١) «المُعْجَمُ الكَبِيرُ» (٨/ ٣١٨).
قَالَ الهَيْثمِيُّ فِي «المَجْمَعِ» (١/ ٢٩٧): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ، وَفِيهِ الْهَيْثَمُ بْنُ يمانٍ ضَعَّفَهُ الْأَزْدِيُّ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ رِجَالُ الصَّحِيحِ».

(٢) «المُعْجَمُ الكَبِيرُ» (١٢/ ٣١٢).
قَالَ الهَيْثمِيُّ فِي «المَجْمَعِ» (١/ ٢٩٦): «وَفِيهِ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْحِمَّانِيُّ، ضَعَّفَهُ أَحْمَدُ وَوَثَّقَهُ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ».

(٣) فِي «المُسْنَدِ» (٤/ ١٣٦).

(٤) فِي «صَحيحِهِ» (١٣٨٠).

(٥) فِي «السُّنَنِ» (٣٦٢).

(٦) لَمْ أقِفْ عَليهِ فِي «سننِ ابن ماجه»، ولا عزاهُ إليه المزيُّ فِي «التُّحْفَةِ» (٧/ ٤٨٦).

(٧) (برقم: ٣٩١).

(٨) أخرجه مسلمٌ (١٩٩).

(٩) «صَحِيح مُسلمٍ» (٢٧٤٨).

الْوَفَاةُ: كُنْتُ كَتَمْتُ عَنْكُمْ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، سَمِعْتُه يَقُولُ: «لَوْلَا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ لِيَغْفِرَ لَهُمْ»

وَهُوَ بِلَفظِه عِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(١)] مَرْفُوعًا عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(٢)] عَنْ أَنسٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَخطَأْتُمْ حَتَّى تَمْلأَ خَطَايَاكُمْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُمُ اللهَ لَغَفَرَ لَكُمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُخْطِئُوا لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ يُخْطِئُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ».

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَولِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآيَةَ قَالَ: «هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَوْرَثَهُمُ اللهُ كُلَّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ، فَظَالِمُهُمْ يُغْفَرُ لَه، وَمُقْتَصِدُهُمْ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَسَابِقُهُمْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ». رَوَاهُ عَنْهُ البَيْهَقِيُّ[(٣)]، وابنُ أَبِي حَاتِمٍ[(٤)].

---

(١) فِي «المُسْنَدِ» (١/ ٢٨٩) وهذا سندٌ ضعيفٌ، يحيى بنُ عمرو النُكري بضمِّ النُّونِ قالَ فِي «التَّقريبِ»: «ضعيفٌ ويقالُ: إن حمَّادَ بنَ زَيدٍ كذَّبَهُ». وبقيةُ رجَالِ الإسنادِ ثِقَات رِجَالِ البخاريِّ غير عمرو بنِ مالكٍ وهو صَدُوقٌ لَهُ أوهامٌ؛ قاله الشَّيخُ الألبَانيُّ فِي «الصَّحيحةِ» (٢/ ٦٥٨).

(٢) فِي «المُسْنَدِ» (٣/ ٢٣٨).

قال الشَّيخُ الألبَانيُّ فِي «الصَّحيحةِ» (٤/ ٥٩٤): «قال الهيثميُّ (١٠ / ٢١٥): رواهُ أحمدُ وأبو يعلَى، ورجالُه ثقَاتٌ». كَذا قَالَ، وهو صوابٌ إلَّا فِي أخشنَ هَذَا، فإنَّه لَمْ يوثقْهُ سِوَى ابنِ حبَّانَ، وقَد قالَ فِي «الإكمَالِ»: «هُو مجهُولٌ». وقالَ الحافظُ فِي «التَّعجِيلِ»: "لَمْ يذكرِ البُخاريُّ ولا ابنُ أبِي حاتمٍ فيهِ جرحًا، وصرَّح فِي روايتِه بسَمَاعِه مِن أنسٍ، وللحَديثِ الَّذِي أخرجهُ لهُ أحمَدُ فِي الاستغفَارِ شاهدٌ مِن حديثِ أبِي هُريرَةَ عندَ مُسْلِمٍ».

(٣) فِي «البَعثِ والنُّشورِ» (ص ٨٦).

(٤) فِي «التَّفسيرِ» كمَا فِي «فتح القديرِ» (٤/ ٤٠٣).

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ، والتِّرْمِذِيِّ[(١)] ـ وحسَّنَهُ ـ، والبَيْهَقِيِّ[(٢)] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ الآيَة أَنَّهُ قَالَ: «هَؤُلاءِ كُلُّهُم بمَنْزِلَةٍ واحِدَةٍ، وكُلُّهُم فِي الجَنَّةِ».

فقسَّمَ تبَارَكَ وتَعَالَى هَذِهِ الأُمَّةَ حيثُ اصْطفَاهَا ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ، وأخبَرَ رَسُولَهُ ﷺ عَن حالِهِمْ، وبيَّنَ عَن مرجعِ مَآلِهِم، والخَوَارِجُ جعَلُوهُم قسمًا واحدًا؛ لقَّبُوهُم بالكُفَّارِ، وحَكَمُوا عَليهم بالخُلودِ فِي النَّارِ، قاتَلَهُم اللهُ أَنَّى يُؤْفكُونَ.

وَقَد قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ[(٣)]: ثنا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، أَنْبَأَنَا أَبُو مَالِكٍ عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّ رَجُلًا أُتِيَ بِهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: مَا عَمِلْتُ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ ثلاثًا، وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: إِني كُنْتَ أَعْطَيْتَنِي فَضْلاً مِنَ المَالِ فِي الدُّنْيَا، فَكُنْتُ أُيَسِّرُ عَلَى المُوسِرِ، وَأُنْظِرُ المُعْسِرَ، فَقَالَ تَبَارَكَ وتَعَالَى: نَحْنُ أَوْلَى بِذَاكَ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي فَغُفِرَ لَهُ.

قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ البَدْرِيُّ وَعُقْبَةُ بنُ عَامِرٍ رضي الله عنهما: هَكَذَا سَمِعنَاهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَهَكَذَا رَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مَالِكٍ سَعدِ بنِ طَارِقٍ بِهِ.

وَقَدْ أَخرجَهُ البُخَارِيُّ[(٤)]، وَمُسْلِمٌ[(٥)]، وابنُ مَاجَه[(٦)] مِنْ طُرقٍ عَن رِبْعِيٍّ عَنْ حُذَيْفَةَ.

زادَ مُسْلمٌ عَن عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ، وَأَبِي مَسْعُودٍ البَدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بنَحْوِهِ.

---

(١) فِي «الجَامِعِ» (٣٢٢٥).
وقالَ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، لا نَعْرِفُهُ إلاَّ مِنْ هَذَا الوَجْهِ».
وسندُهُ ضعيفٌ لجَهَالةِ من حدثَ الوليدَ بنَ عَيْزَارٍ.

(٢) فِي «البَعثِ والنُّشورِ» (ص ٨٣).

(٣) فِي «المُسْندِ» (١١٨/٤).

(٤) (برقم: ١٩٤٥).

(٥) (برقم: ١٥٦٠).

(٦) فِي «السُّنَنِ» (٢٤١٣).

قَالَ الحُمَيدِيُّ فِي «جَامِعِهِ»: «وَقَدْ رُوِيَ هَذَا المَعْنَى عَنْ حُذَيفَةَ مَوقُوفًا وَعَنْ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ مَرْفُوعًا»(١)، وَذَكَرَهَا مِنْ طَرِيقِ صَحيحِ مُسلمٍ أيضًا عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ البَدْرِيِّ مَرْفُوعًا بِمَعْنَاهُ.

وَعِندَ أَبِي دَاودَ(٢) عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مِنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ: الْكَفُّ عَمَّنْ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، لَا نُكَفِّرُهُ بِذَنْبٍ، وَلَا نُخْرِجُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ، وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي اللهُ إِلَى أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَّالَ لَا يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ، وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ، وَالْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ» إلا أنَّ فِيهِ يَزِيدَ بنَ نُسبةَ بِضَمِّ النُّونِ لَمْ يُخَرِّجْ لَهُ بَقِيةُ السِّتَّةِ.

قَالَ ابنُ حَجَرٍ والمُنَاوِيُّ: «إِنَّهُ مَجْهُولٌ».

وَعِندَ أَبِي يعْلَى المَوصِلِي(٣) حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ الضَّحَّاكِ، ثَنَا أَبِي، ثنا أبو همَّامٍ الْهُنَائِيُّ، ثَنا ثَابِتٌ، عَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا تَرَكْتُ حَاجَةً، وَلا دَاجَةً إِلا قَدْ أَتَيْتُها ! قَالَ: «أَلَيْسَ تَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؟» ثَلَاث مَرَّاتٍ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنَّ ذَلِكَ يَأْتِي عَلَى ذَلِكَ كُلِّه».

وَعِندَ أَبِي حَاتِمٍ(٤) عَنِ ابنِ أَخِي أَبِي أَيُّوبَ الأنصارِيِّ ﷺ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ لِي ابْنَ أَخٍ لَا يَنْتَهِي عَنِ الْحَرَامِ، قَالَ: «وَمَا دِينُهُ؟» قَالَ: يُصَلِّي وَيُوَحِّدُ اللهَ. قَالَ: «اسْتَوْهِبْ مِنْهُ دِينَهُ، فَإِنْ أَبَى فَابْتَاعْهُ مِنْهُ»، فَطَلَبَ الرَّجُلُ ذَلِكَ مِنْهُ فَأَبَى عَلَيْهِ، فَأَتَى

---

(١) «الجمع بين الصَّحيحين» (١/ ٤٩٤).

(٢) في «السُّنَن» (٢٥٣٢). وضعَّفه الشَّيخُ الألبانِي في «ضعيفِ سُننِ أبي داود» (٤٣٧).

(٣) في «المُسْنَد» (١/ ٢٢٠).

قَالَ الهَيثَمِيُّ فِي «المَجْمَع» (١٠/ ٨٣): «رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى، وَالْبَزَّارُ بِنَحْوِهِ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الصَّغِيرِ وَالْأَوْسَطِ، وَرِجَالُهُمْ ثِقَاتٌ».

(٤) فِي «التَّفسِير» (٣/ ٩٧١)، والطَّبَرَانِيُّ فِي «الكَبِير» (٤/ ١٧٧).

قَالَ الهَيثَمِيُّ فِي «المَجْمَع» (٧/ ٥): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَفِيهِ وَاصِلُ بْنُ السَّائِبِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ».

رَسُولَ الله ﷺ، فَأَخْبَرَهُ، وَقَالَ: وَجَدْتُهُ شَحِيحًا عَلَى دِينِهِ، قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾.

وفِي مُسندِ الإِمَامِ أَحْمَدَ[1] وَغيرِهِ عَن أمِّ هَانئ ﵂ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا إِلَه إِلَّا اللهُ لَا تَتْرُكُ ذَنبًا، وَلَا يَسْبِقُهَا عَمَلٌ».

وَعِندَ ابنِ أَبِي الدُّنيَا فِي حَدِيثٍ فِيهِ شُعْبَة: أَنَّ رَجُلاً حَلفَ بِاللهِ الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ كَاذِبًا فغُفِرَ لَهُ.

قَالَ شُعْبَةُ: وذَلِكَ بِكَلمَةِ التَّوحِيدِ، والحَدِيثُ مَرْفُوعٌ[2] إِلَى النَّبِيِّ ﷺ عِندَ ابنِ أَبِي الدُّنيَا وَغَيرِهِ.

وفِي «صَحِيح مُسلِم»[3] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَو أَبِي سَعِيدِ الخُدرِيِّ بالشَّكِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَن شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرُ شَاكٍّ، فَيُحْجَبُ عَنِ الجَنَّةِ».

وَفِيهِ[4] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أن رسول الله ﷺ قَالَ يومًا: «مَنْ لَقِيتُ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ».

وفِي صَحِيح مُسْلِمٍ[5] أيضًا عَنْ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يعْلَمُ أَن لَا إِلَه إِلَّا اللهُ دَخلَ الجَنَّةَ».

---

(١) فِي «المُسْنَدِ» (٦/ ٤٢٥) وضعَّفَهُ الشَّيخُ الألبَانِيُّ فِي «تَخرِيجِ كَلِمَةِ الإِخلَاصِ» (ص ٥٦).

(٢) أخرجَهُ النَّسائيُّ فِي «الكبرى» (٦١٧٥)، وأحمَدُ (٣/ ٤) وقدِ اضطرَبَ فيهِ عطاءُ بنُ السَّائبِ، وعَدَّهُ الذهبيُّ فِي «الميزَانِ» (٣/ ٧٢) مِنْ مناكيرِهِ.

(٣) (برقم: ٤٥).

(٤) (برقم: ٥٢).

(٥) (برقم: ٤٣/ ٢٦).

وَعِندَ ابنِ أَبِي الدُّنيَا، والبَيْهَقِيِّ فِي «شُعَبِ الإِيمَانِ»[(١)]، وابنِ لآل، والدَّيلمِي فِي الفردوسِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ مَرْفُوعًا قَالَ: حَضَرَ مَلَكُ الْمَوْتِ رَجُلا يمُوتُ فشَلَّ أَعْضَائَهُ، فَلَمْ يَجِدْهُ عَمِلَ خيرًا قَطُّ، ففكَّ لِحْيَيْهِ فَوَجَدَ طَرْفَ لِسَانِهِ لاصِقًا بِحَنكِهِ، يَقُولُ: لاَ إِلَهَ إِلا اللهُ، فغُفر لَهُ بكَلِمَةِ الإِخْلاصِ.

وَحدِيثُ أَبِي ذَرٍّ، وحَدِيثُ البِطَاقَةِ[(٢)] فِي ذَلِكَ مَعْلُومٌ.

وَقَد أَنكرَ ﷺ عَلَى أَسَامَةَ بنِ زَيدٍ ﷺ قَتْلَهُ مَنْ قَالَ: لَا إِله إِلَّا اللهُ لَمَّا رفعَ عَلَيْهِ السَّيفَ، وَلَمْ يقبلْ مِنْهُ ﷺ قَوْلَهُ: «إِنَّمَا قالَهَا تَعَوُّذًا عَنِ القَتلِ»[(٣)] كَمَا صَحَّ ذَلِكَ.

وَلهَذَا قَالَ ﷺ كَمَا فِي «صَحِيح مُسْلِمٍ»[(٤)] مِن حَدِيثِ طَارِقٍ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ؛ حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ عز وجل».

وفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[(٥)] عَنْ عَبدِ اللهِ بنِ عَمْرو بنِ العَاصِ رضي الله عنهما أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ تَلَا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ إِلَى قولِهِ: ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وَقَوْلَ عِيسَى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾، فَرَفَعَ يَدَيْهِ ﷺ، وَقَالَ: «أُمَّتِي أُمَّتِي»، ثمَّ بَكَى، فَقَالَ اللهُ: «يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ لهُ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ».

(١) (برقم: ٩٨٤) قالَ الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «الضَّعيفَةِ» (٢٥٩٠): «منكرٌ».

(٢) أخرجَهُ التِّرمذِيُّ (٢٦٣٩) وصحَّحهُ الشَّيخُ الألبَانِيُّ فِي «الصَّحيحةِ» (١٣٥).

(٣) أَخرَجَهُ البُخَارِيُّ (٤٢٦٩)، ومسلمٌ (٩٦).

(٤) (برقم: ٣٧).

(٥) (برقم: ٣٤٦).



وعِندَ الإمَامِ أَحْمَدَ[(١)]، والبُخَارِيِّ[(٢)]، ومُسْلِمٍ[(٣)] فِي صَحِيحيهِمَا عَنْ أَنسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فِي أُمَّتِهِ فَاسْتُجِيبَ لَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وعِندَ الإمَامِ أَحْمَدَ[(٤)]، والطَّبَرَانِي[(٥)]، والبَيْهَقِيُّ[(٦)] بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ، وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، لأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْفَى، أَتَرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟ وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ، الْخَطَّائِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ».

وَعِندَ البَيْهَقِيِّ[(٧)]، والطَّبَرَانِي[(٨)] بَسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ مَعْقِلِ بنِ يَسَارٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «رَجُلَانِ لَا تَنَالُهُمَا شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِمَامٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وَآخَرُ غَالٍ فِي الدِّينِ مَارِقٌ مِنْهُ».

وَقَدْ ذَكَرنَا طَرَفًا مِن ذَلِكَ فِي «فَتْحِ الحَمِيدِ»[(٩)] لِمَنْ أَرَادَهُ.

وَأعظمَ مَا عَلَى الأمَّةِ مَنْ قَدْ يدَّعِي العِلْمَ مُعظَّمًا فِي النَّاسِ، وَهُوَ لا يُحسِنُهُ؛ كَمَا عِندَ

---

(١) فِي «المُسْنَدِ» (٣/ ٢٠٨).

(٢) (برقم: ٦٣٠٥).

(٣) (برقم: ٢٠٠).

(٤) فِي «المُسْنَدِ» (٢/ ٧٥).

(٥) فِي «الكبير» (١٣/ ١٩١).

(٦) فِي «الاعتقاد» (ص ٢٦٣) وضعَّفه الشَّيخُ الألبانيُّ فِي «الضَّعيفَةِ» (٣٥٨٥).

(٧) فِي «البَعثِ والنُّشورِ» (١٨).
قال البيهقيُّ: «تَفَرَّدَ بِهِ مَنِيعُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبَصْرِيُّ، وَرُوِيَ مِنْ أَوْجُهٍ أُخَرَ ضَعِيفَةٍ»، وصحَّحه الشَّيخُ الألبانيُّ بِمَجمُوعِ طُرقِهِ فِي «ظلَالِ الجنَّةِ» (١/ ٢٣).

(٨) قالَ الهيثميُّ فِي «المَجمعِ» (٥/ ٢٣٥): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ وَرِجَالُ الْكَبِيرِ ثِقَاتٌ».

(٩) «فتح الحَمِيد» (٢/ ٧٧٥ - ٧٩٠).

البُخَارِيِّ[١] والدَّارمِي[٢] وَغَيرِهِمَا عَنْ عَبدِ الله بنِ عَمْرٍو بنِ العَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، فإذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

وَلِهَذَا قَالَ الفَارُوق عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه كَمَا عِندَ الدَّارمِيِّ[٣] وغيرِهِ فِي كَلَامٍ لَهُ قَالَ فِي آخرِهِ: «فَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى الْفِقْهِ كَانَ حَيَاةً لَهُ وَلَهُمْ، وَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى غَيْرِ فِقْهٍ كَانَ هَلاَكًا لَهُ وَلَهُمْ».

وعِندَ الإمَامِ أَحْمَدَ[٤] مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ: «فَعَلَيْكُمْ بَالجَمَاعَةِ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَنْ يُجْمَعَ أُمَّتِي إلَّا عَلَى هُدًى».

وعِندَ الإمَامِ أَحْمَدَ[٥] وَغَيرِهِ عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عن عتبَانَ بنِ مالِكٍ حِينَ صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِهِ قَالَ: فَلَمَّا قضَى رَسُولُ الله ﷺ صلاته قَالَ: «لاَ يَشْهَدُ أَحَدٌ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَيَدْخُلَ النَّارَ».

قَالَ أَنَسٍ: فَأَعْجَبَنِي هَذَا الْحَدِيثَ، فَقُلْتُ لِابْنِي: «اكْتُبْهُ» فَكَتَبَهُ

---

(١) (برقم: ١٠٠)، ومسْلِمٌ (٢٦٧٣).

(٢) فِي «السُّنَنِ» (٢٤٥).

(٣) فِي «السُّنَنِ» (٢٥٨).
وَسندُهُ ضَعِيفٌ؛ صَفْوَانُ بْنُ رُسْتُمَ قالَ الحافظُ الذهبيُّ - فيهِ - فِي «الميزَانِ» (٢/ ٣١٦): «مجهولٌ»، عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَيْسَرَةَ، لَمْ يُدْرِكْ تَمِيمًا.

(٤) فِي «المُسْندِ» (٥/ ١٤٥).
قالَ الهيثميُّ فِي «المَجمعِ» (٥/ ٢٢٨): «رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَفِيهِ الْبَخْتَرِيُّ بْنُ عُبَيْدٍ، وَهُوَ ضَعِيفٌ».

(٥) فِي «المُسْندِ» (٢٧/ ١٣ - ١٤) وفيهِ: عَلِيُّ بْنُ زَيْدِ بْنِ جُدْعَانَ وهُو ضَعِيفٌ.

وَفِي لَفظِ الإِمَامِ أَحْمَدَ عَن أَنَسٍ ﷺ قَالَ: فَمَا فَرِحُوا بِشَيْءٍ كَفَرَحِهِمْ بِمَا قَالَ.

وَفِي لَفْظٍ: فَقَالَ أنسُ بنُ مالِكٍ لابنِهِ أَبِي بكرٍ: يا بنِي احْفَظْ هَذَا الحَدِيثَ فَإِنَّهُ مِنْ كُنُوزِ الحَدِيثِ.

وَفِي «الصَّحِيحَينِ»[1] مِنْ حَدِيثِ عتبانَ فِي شَأنِ ابْنِ الدُّخَيْشِمِ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ»، قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ ذَلِكَ وَمَا هُوَ فِي قَلْبِهِ، قَالَ: «لَا يَشْهَدُ أَحَدٌ: أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ فَيَدْخُلَ النَّارَ» قَالَ أَنَسٌ: فَأَعْجَبَنِي هَذَا الحَدِيثُ فقلتُ لِابْنِي: «اكْتُبْهُ» فَكَتَبَهُ.

وفِي «الصَّحِيحَينِ»[2] عن الصُّنَابِحِيِّ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَبَكَيْتُ فَقَالَ: مَهْلًا لِمَ تَبْكِ؟ فَوَاللهِ لَئِنِ اسْتُشْهِدْتُ لَأَشْهَدَنَّ لَكَ وَلَئِنْ شُفِّعْتُ لَأَشْفَعَنَّ لَكَ، وَلَئِنِ اسْتَطَعْتُ لَأَنْفَعَنَّكَ، ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ مَا مِنْ حَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَكُمْ فِيهِ خَيْرٌ إِلَّا حَدَّثْتُكُمْ بِهِ إِلَّا حَدِيثًا وَاحِدًا، وَسَوْفَ أُحَدِّثُكُمُوهُ الْيَوْمَ، وَقَدْ أُحِيطَ بِنَفْسِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ»

وَحَدِيثُ مُعَاذٍ ﷺ وأنسٍ ﷺ مَعْلُومَانِ فِي ذَلِكَ لا نطيلُ بذِكْرِهِمَا فِي قصَّةِ معاذٍ[3] فِي ردفِه للنَّبِيِّ ﷺ عَلَى الحمَارِ الْمُسمَّى بيعفُور.

وَعِندَ ابنِ طاهر فِي كتابِ «الحجَّةِ عَلَى تَارِكِ المحَجَّةِ» بِسندِهِ إِلَى سُفيانَ الثَّورِيِّ[4] أَنَّ رَجُلًا قَالَ لجابرٍ ﷺ: هَلْ كُنتُم تسمُّونَ أَحدًا مِنْ أَهلِ القِبْلَةِ مُشْرِكًا؟ قَالَ: «مَعَاذَ اللهِ»، قَالَ:

---

(١) البُخاري (٥٩٧٠)، ومسلم (٥٤).

(٢) البُخاري (٣٢٠٤)، ومسلم (٤٧).

(٣) أخرجهُ البُخاريُّ (١٢٨)، ومسلمٌ (٣٢).

(٤) الصَّوابُ: أبو سُفيانَ كَمَا فِي مصَادرِ التَّخريجِ.

هَلْ كُنتُم تُسَمُّونَهُ كافرًا؟، قَالَ: «لَا واللهِ»[(١)].

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الخَطَّابِيُّ فِي قَولِهِ ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»: «مَعْنَاهُ: لا يُكَفِّرُ بَعْضُكُمْ بعضًا، فَتَسْتَحِلُّوا بِهِ أَنْ تُقَاتِلُوا، وَيضرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[(٢)].

وَهُوَ فِي مَعْنَى قَوْلِ شَيْخِ الإِسْلامِ ابنِ تيمية وَغَيْرِهِ، وَفِي لَفظٍ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِن حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ: «لا تَرْجعُوا بَعْدِي كُفَّارًا».

قَالَ موفَّقُ الدِّينِ ابنُ قُدَامَةَ فِي ردِّهِ عَلَى فخرِ الدِّينِ محمَّدِ بنِ حَسَنِ بنِ عبدِ الله بنِ تيميةَ رحمه الله حَيثُ قَالَ: ليسَ منْ لوَازمِ التَّكفِيرِ التَّخليدَ فِي النَّارِ، فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ أَطْلَقَ التَّكفِيرَ فِي مَوَاضِعَ لا تَخْلِيدَ فِيهَا.

وَذكرَ أَحَادِيثَ مِنْ جُمْلتِهَا هَذَا الحَدِيث.

ومُرَادُ المُوفَّقِ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ جِنسَ هَذَا مِنْ الكُفرِ العَمَلِي الَّذِي لا يُخْرِجُ منَ المِلَّةِ، وَسَبِيلُ عَامِلِهِ سَبِيلُ أهلِ الكبَائرِ فِي عَدمِ التَّخلِيدِ، وأنَّهم منَ الَّذِينَ تحتَ المَشِيئَةِ تَحْذِيرًا عَن مَذْهَبِ الخَوَارِجِ.

وَمَنْ زَادَ البسطَ فِي هَذِهِ المَعَانِي عَنِ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى؛ فَعَلَيْهِ بِكِتَابِنَا «فَتْحِ الحَمِيدِ فِي شَرحِ التَّوحِيدِ» يَجِدْهُ مُوضَّحًا.

وَعِندَ الإِمَامينِ الحُسَيْنِيُّ الشَّافِعِيُّ[(٣)]، وأَحْمَدَ[(١)] فِي مُسنَدِيهِمَا منْ حَدِيثِ عبيدِ[(٢)] اللهِ بنِ

---

(١) أخرجهُ أبو يعلى (٢٣١٧)، وأبو عبيدِ القاسمُ بنُ سلامٍ فِي «الإيمانِ» (٢٩)، وابنُ أبي زمنين في «أصُولِ السُّنةِ» (١٤٤) من طريقِ الأعمشِ، عن أبي سُفيَانَ به.
قال الشيخُ الألبانيُّ في تحقيقِ «الإيمانِ» (ص ٩٨): «صحيحٌ على شرطِ مسلمٍ».

(٢) «غريب الحديثِ» (٢/ ٢٤٩).

(٣) في «المُسنَدِ» (١٦٠٢).



عدِي بنِ الخيارِ أنَّ رَجلًا من الأنصار حدَّثهُ أنَّهُ أتى النَّبيَّ ﷺ وَهُوَ فِي مَجْلِسٍ فَسَارَّهُ يَسْتَأْذِنُهُ فِي قَتْلِ رَجُلٍ مِنَ المُنَافِقِينَ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟» قَالَ: بَلَى، وَلَا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؟» قَالَ: بَلَى، وَلَا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: «أَلَيْسَ يُصَلِّي؟» قَالَ: بَلَى، وَلَا صَلَاةَ لَهُ، قَالَ: «أُولَئِكَ الَّذِينَ نَهَانِي اللهُ عَنْ قَتْلِهِمْ».

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[٣] بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى الْفِطْرَةِ»، فقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «خَرَجَ هَذَا مِنَ النَّارِ».

وَعِندَ البزَّارِ[٤]، والطَّبَرَانِيِّ[٥] بِسَنَدٍ رواته رُوَاة الصَّحِيحِ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ نَفَعَتْهُ يَوْمًا مِنْ دَهْرِهِ، يُصِيبُهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَا أَصَابَهُ».

وَعِندَ الطَّبَرَانِي[٦] وَالبَيْهَقِي[٧] مِنْ رِوَايَةِ يَحْيَى بن عبدِ الحَمِيدِ عَنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ

==

(١) فِي «المُسْنَد» (٥/ ٤٣٢).
قَالَ الهيثميُّ فِي «المَجْمَع» (١/ ٢٤): «رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ، وَأَعَادَهُ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَدِيِّ الْأَنْصَارِيِّ حَدَّثَهُ، فَذَكَرَ مَعْنَاهُ».

(٢) فِي المخطوط: «عبد» والصَّوابُ ما أثبته.

(٣) فِي «المُسْندِ» (١/ ١٣٢)، ومسلم (٣٨٢).

(٤) فِي «المُسْندِ» (١٥/ ٦٦).

(٥) فِي «الأوسط» (٣٤٨٦):
قَالَ الهيثميُّ فِي «المَجْمَع» (١/ ١٧): «رَوَاهُ الْبَزَّارُ وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَالصَّغِيرِ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ» وصحَّحه الشيخُ الألبَانِي فِي «الصَّحيحةِ» (٣/ ٣٠٠).

(٦) فِي «البَعثِ والنُّشورِ» (٨٣).

(٧) فِي «الأوسطِ» (٩٤٧٨) وقالَ الشَّيخُ الألبَانِي فِي «الضَّعيفةِ» (٨/ ٣١٣): «ضعيفٌ جدًّا».

قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَيْسَ عَلَى أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْشَةٌ فِي قُبُورِهِمْ، وَلَا نشروهِمْ، [وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ][1]، وَهُمْ يَنْفُضُونَ التُّرَابَ عَنْ رُؤُوسِهِمْ، وَيَقُولُونَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ».

وفِي روايةٍ عِندهما: «ليسَ عَلَى أهلِ لَا إلهَ إلا اللهُ وَحْشَةٌ عِندَ المَوتِ وَلَا عِندَ القَبرِ».

وحَدِيثُ وَصيةِ نوحٍ عليه السلام لابنِهِ بِلَا إله إِلَّا اللهُ، وأَنَّهَا لَو وُضِعتْ فِي كفَّةٍ، والسَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ لَمَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[2].

وَفِي لفظٍ: «لَو كَانَتْ حَلْقَةً لقَصَمَتْهُنَّ حتَّى تَخلصَ إِلَى الله تَعَالَى».

وَهُوَ عِندَ البزَّارِ[3] عن ابنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا، ورُواتُهُ مُحتجٌّ بِهِم فِي «الصَّحِيحَينِ» إِلَّا مُحَمَّدَ بنَ إِسْحَاقَ.

وهو عِندَ النَّسائِيِّ من طَرِيقِ صَالحِ بنِ سَعِيدٍ عَن سُلَيمَانَ بنِ يَسَارٍ عن رجلٍ منَ الأنصَارِ لَمْ يُسَمِّهِ.

وَرَوَاهُ الحَاكِمُ[4] عنِ ابنِ عمرو، وَقَالَ: «صَحِيحُ الإِسْنَادِ»، وَلَهُ شَوَاهِدُ كَثِيرَةٌ جدًّا سِوَى الخَوَارِج ذكرنَاهَا فِي شَرحِ التَّوحِيدِ، والأَحَادِيثُ فِي هَذَا البَابِ كَثِيرَةٌ جدًّا.

والخَوارجُ لَمَّا أخطأوا طريقَ الأمرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهي عَنِ المُنكرِ الَّذِي هُوَ منْ أفضلِ الأعمَالِ، وعليهِ رُكِبتْ قاعدَةُ الإسلَامِ دخلُوا عَلَى الأمَّةِ مِن بابِ التَّكفيرِ، فضيَّقُوا ما وَسَّعَهُ الكتَابُ والسُّنةُ عَلَى الأمَةِ، ووسَّعُوا مَا ضَيَّقَاهُ؛ وَهُوَ بابُ التَّكفِيرِ، ولَمْ يتورَّعُوا تورع

---

(١) منَ «الأوسطِ».

(٢) وأخرجه أحمدُ (٢/ ١٧٠) عن عبد الله بن عمرو.
وقال الشيخ الألبانيُّ فِي «الصحيحة» (١/ ١٥٩): «وهذا سندٌ صحيحٌ».

(٣) كمَا فِي «كشفِ الأستارِ» (٢٩٩٨).

(٤) فِي «المُستَدرَكِ» (١/ ٤٨ ـ ٤٩).



السَّلفِ، فكَابرُوا، وجَعَلُوا رضَاهُم شَرطًا لِصِحَّةِ الشهادَةِ وقبُولِهَا، وآيسُوا الخَلقَ منْ رحمَةِ واسعِ الرَّحمَةِ والمَغْفرَةِ، ولم يسلكُوا طريقَ الرِّفقِ والتَّيسيرِ، حَيثُ قَالَ أرحمُ الرَّاحِمِينَ وأحكمُ الحَاكِمِينَ لرسُولِهِ سيِّدِ الأوَّلينَ والآخرِينَ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾، وَقَالَ لِموسَى وهارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لَمَّا بعثَهُمَا لِمَنْ يقولُ: أنا رَبُّكُم الأَعلَى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾، بلْ سَلكُوا فِي الأمَّةِ طَرِيقَ التَّعسِيرِ والتَّنفيرِ بالتَّكفِيرِ، فسلُّوا عَليهم بِذَلِكَ سيفَ الفتنَةِ، حتَّى صَارُوا مِنْهُم فِي أَعْظَمِ مِحْنَةٍ، وَقَد قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِمُعَاذٍ وَأَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لَمَّا بعثَهُمَا إِلَى اليَمنِ كَمَا فِي البُخَارِيِّ[(١)] وَمسْلِمٍ[(٢)] وَغَيرِهِمَا: «يسِّرَا وَلَا تُعسِّرا، وبشِّرَا وَلَا تُنفِّرَا».

وقال البُخَارِيُّ فِي صَحيحِه[(٣)]: وَكَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ التَّخْفِيفَ، واليُسْرَ عَلَى النَّاسِ.

وعندَ الشَّيْخَينِ[(٤)] أيضًا، والإمَامِ أحْمَدَ[(٥)] عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَسَكِّنُوا ولاَ تُنَفِّرُوا».

وَعِندَهُم أيضًا من حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي قصَّةِ بولِ الأَعْرَابِي فِي المَسْجِدِ: «فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»[(٦)].

---

(١) (برقم: ٧١٧٢).

(٢) (برقم: ١٧٣٣).

(٣) (٨/ ٣٠).

(٤) البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤).

(٥) فِي «المُسْندِ» (٣/ ١٣١).

(٦) أخرجه البخاريُّ (٦١٢٨).

وعِندَ الإمَامِ أَحْمَدَ[(١)] بسندٍ رِجَاله ثقَات، وَكَذَلِكَ الطَّبرانِيِّ عن أَبِي مُوسَى ﵁ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَبْشِرُوا وَبَشِّرُوا مَنْ وَرَاءَكُمْ، أَنَّهُ مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ صَادِقًا بِهَا دَخَلَ الجَنَّةَ».

والمرادُ بكَونِهِ صَادقًا بأنْ يصدِّقَ قلبُه ولسَانُه، وليسَ أحدٌ منْ أهلِ القبلَةِ إلَّا وَهُوَ يقولُهَا كَذَلِكَ، وَلَا يقيمُ عَلَى عملٍ يعلمُ أَنَّهُ يضادُّ شهَادتِي الإخلاصِ إلا أَنْ يَكُونَ بِذَلِكَ جَاهِلًا.

فَليحذَرِ الإنسانُ منْ طريقِ الخَوَارجِ بالخُرُوجِ عَن قانون دَعوةِ سيِّدِ البَشرِ ﷺ بارتكَابِ الغُلوِ فِي الدِّينِ، وسلوكِ غيرِ سَبيلِ المُؤمنينِ، فإنَّ خيرَ الدُّنيا والآخرَةِ فِي هَديِهِ ﷺ والتَّأدبِ بآدَابِ الله لَهُ فِي قولِهِ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

وَلَيْسَتْ هَذِهِ الآيَةُ منسُوخةً كَمَا زعمَه بعضُهُم؛ فإنَّ مَا فِيهَا مِنَ الآدَابِ ثابتٌ فِي حَقِّ المُجاهدَةِ باللِّسانِ؛ إذْ هيَ قائمةٌ أبدًا كالمجَاهدَةِ بالسَّيفِ والسنَانِ، وَلَا تجمل إلَّا بِهَذِهِ الآدَابِ، وَقَد صَحَّ أنَّه ﷺ قَالَ: «خَيْرُ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ»[(٢)].

وَمَنْ جَرَّدَ سَيفًا فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ غَيرِ أمرِ إمامِهَا وسُلطَانِهَا يدَّعِي الأمرَ بِالمَعْرُوفِ والنَّهي عنِ المُنكرِ مُجانبًا للإمَامِ وعامَّةِ الأمَّةِ، فَقَدْ ابتغَى الفتنةَ باتِّباعِ المُتشَابه.

وأمَّا السُّلطانُ فلَهُ تجريدُهُ لقُطَّاعِ الطَّريقِ، وإمضَاءِ الحدُودِ، حتَّى أنَّهُم قَالُوا: مَنِ افتاتَ عَلَى الإمَامِ فِي قوَدٍ فاقتادَ من دونَ أمرِهِ فلَهُ تعزيرُهُ؛ لافتياتِه عَلَيْهِ بتجريدِ السَّيفِ، وذلكَ حذرًا منَ الفتنَةِ، وأن يكُونَ فعلُ المقتَادِ مؤدِّيًا إلَى فتنةٍ قَدْ تحصلُ بِذَلِكَ بَينَ المقتادِ

---

(١) فِي «المُسنَدِ» (٤/ ٤٠٢) وصحَّحه الشيخ الألبانِي فِي الصَّحيحة (٣/ ٢٩٩) بمجموع طرقه.

(٢) أخرجه البخاريُّ فِي «الأدبِ المفردِ» (٣٤١)، وأحمدُ (٤ / ٣٣٨) وحسَّنه الشيخُ الألبانِيُّ فِي «صحيحِ الأدبِ المفردِ».

والمقتَادِ مِنْهُ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقِّ الإنسَانِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ حقًّا لَهُ فِي كتابه العَزيزِ فِي قولِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ الآيَة، وقولِه تَعَالَى: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ فما بالُكَ في حقِّ الله الَّذِي هُوَ موكُولٌ أمره إِلَى ولي أمرِ المُسْلِمِينَ الَّذِي هُوَ بمنزلِةِ الوَكيلِ لَهُم؟!

وقَدْ قَدَّمنَا: أنَّه لَا يَجُوزُ الخرُوجُ عَليهم بإجمَاعِ الأمَّةِ ما خَلا الخوَارجِ، وَلذَلِكَ لم يشترط الفقهاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِيهِ لولاية النّكاحِ: العَدَالة، فأثبتُوا عدمَ اشتراطِهَا فِيهِ دُونَ الأوليَاءِ.

وكذلكَ صحَّة صلَاةِ الجُمْعَةِ خلفَهُ، والجهَاد معه، وَمَع قولِ الخَليفَةِ بخَلق القرآنِ، والإمامُ أحمَدُ يُطلقُ الكُفْرَ عَلَى مَن قَالَ ذَلِكَ، وَهُوَ يقولُ للخليفَةِ القَائِل لذلكَ المُمتحنِ عَلَيْهِ: يَا أميرَ المُؤمنينَ. ولَمْ يَأمرْ ﷺ بمُنَابذَةِ مَنْ عُلمَ مِنْهُم أنَّهُم يُؤخِّرُونَ الصَّلاةَ عَن وَقْتِهَا مِنَ الأمَرَاءِ، بلْ أمرَ أن يُصلَّى مَعَهُم، وإنْ كَانَ الرَّجُلُ قَدْ صَلَّى وحْدهُ فَيَجعلهَا نَافِلَةً كمَا صحَّ ذَلِكَ من طُرقٍ صَحيحةٍ مَعْلُومةٍ.

ومثل هَذَا يقع فِي الأمَّةِ؛ إمَّا جَهْلًا، وإمَّا تهَاونًا وَكَسَلًا.

وَلهَذَا لَمَّا حكَى شَيخُ الإسلام ابنُ تيميةَ مَا وقعَ فِي هَذِهِ الأمَّةِ منْ أفعَالِ المُشركِين وأقوَالِهِم قَالَ: «وَمِثلُ هَذِهِ الأشيَاءِ إذَا كَانَ يَفعلُهَا جَاهِلاً لم يبلغْهُ العِلْمَ، أو لم يعرِفْ حَقِيقَةَ الشركَ الَّذِي قَاتلَ عَلَيْهِ النبيُّ ﷺ المشركين - معرفةً تزيلُ اللبسَ عَنْهُ -[1] فإنَّه لا يُحْكَمُ بكفرِه، لاسيَّما وَقَد كثُر مثلُ هَذَا الشركِ فِي كثيرٍ منَ المُنتسبِينَ إِلَى الإسلَامِ». انتهَى كَلَامُهُ قدَّسَ اللهُ روحَهُ[2].

---

(١) مابين شرطتين ليس في «جامع المسائل».

(٢) «جامع المسائل» (٣/ ١٥١). ولشيخ الإسلام بن تيميه - رحمه الله - كلامٌ صريح فرّق فيه في مسألةِ العُذر بالجهلِ بين مسائل الشرك الظاهرة والمسائل الخفية؛ فقال: (... وهذا إذا كان في المقالات الخفية فقد يُقال: إنه فيها مخطيءٌ ضال، لم تقم عليه الحجة التي يكفر صاحبُها، لكن ذلك
==

وقد قال أبو عبد الله محمدُ بنُ عبدِ الله السَّامرِي من أصحَابِنَا فِي مُستوعبِه[(١)] بعد حكَايتِه حكمَ تاركِ الصَّلاة: وأمَّا بقية العبادَاتِ فأكثرُ أصحَابِنَا حكَوْا أنّه لَا يكفرُ بتَركِهَا بخِلَافِ الصَّلَاةِ، وهلْ يُقتلُ بتركِهَا؟ عَلَى رِوَايتَينِ.

وَقَالَ أبو بكرٍ فِي كتابِ الخِلَافِ: منْ تركَ الصَّلاةَ والزَّكَاةَ والصِّيامَ والحَجَّ مع القُدرة فعِندَ الإمَامِ أحْمَدَ أنّه مُرْتَدٌّ.

وَكَذا حَكَى أبو الخطَّابِ فِي الهدَايةِ: وأنكرَ ابنُ بطَّةَ قولَ مَنْ قَالَ: إنَّهُ يَكفرُ تَاركُ الصَّلَاةِ، واختَارَ أنَّه لَا يكفرُ، وأنَّ المَذْهَبَ عَلَى هَذَا، وأنّه لمْ يَجِدْ فِيهِ خِلَافًا.

قالَ فِي شَرحِ المُقنعِ لابنِ أبي عُمَرَ: وَهُوَ قولُ أكْثَرِ الفُقهَاءِ مِنْهُم: أَبُو حَنِيفَةَ، ومَالِكٌ والشَّافِعِيُّ[(٢)].

قَالَ موفَّقُ الدِّين: وَهُوَ أصْوبُ القَولَينِ[(٣)].

ومالَ إليهِ ابنُ أخيهِ صَاحبُ الشَّرحِ[(٤)]، وصحَّحهُ مجدُ الدِّينِ ابنُ تَيْميةَ[(٥)]، وجزَمَ بِهِ فِي

يقع في طوائف منهم في الأمور الظاهرة التي تعلم العامة والخاصة من المسلمين أنها من دين المسلمين، بل اليهود والنصارى يعلمون أن محمداً ﷺ بُعث بها، وكفّر مخالفها، مثل أمره بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهيه عن عبادة أحدٍ سوى الله من الملائكة والنبيين والشمس والقمر والكواكب والأصنام وغير ذلك، فإن هذا أظهر شعائر الإسلام، ومثل أمره بالصلوات الخمس، وإيجابه لها وتعظيم شأنها، ومثل معاداته لليهود والنصارى والمشركين والصابئين والمجوس، ومثل تحريم الفواحش والربا والخمر والميسر ونحو ذلك...). «مجموع الفتاوى ٤/ ٥٤».

(١) «المستوعب» (١/ ١٤٣).

(٢) «الشرح الكبير» (١/ ٣٨٥).

(٣) «المغني» (٣/ ٣٥٩).

(٤) «الشرح الكبير» (١/ ٣٨٥).

(٥) في «المحرر» (١/ ٣٣).



الوَجِيزِ [(١)] وغَيرِهِ، وأنَّهُ لا يُقتلُ إذا قُتل إلَّا حدًّا بعدَ الاستتَابةِ منَ الإمَامِ أو نائبِهِ.

وقيلَ: يُقتلُ كفرًا؛ لأنَّهُ لا يتصورُ أنَّه يصبرُ عَلَى القتلِ بعدَ الاستتَابةِ وعرضِه عَلَى السَّيفِ إلَّا وَهُوَ جَاحِدٌ [(٢)].

وَذكرَ فِي الفرُوعِ [(٣)] أنَّه اختَارَهُ الأكثرُ، وَهَذَا يقولُهُ الأوَّلُونَ إذَا عُلِمَ جُحُودُهُ.

فالاختلَافُ فِي هَذَا لفظيٌّ، ولَمْ يختلفُوا فِي المَعْنَى إذا كَانَ قتلَهُ عَلَى هَذِهِ الحَالَةِ مِنَ الجُحُودِ.

قال ابنُ بطَّةَ: وَلَا يختلفُ المَذهبُ أنَّ تاركَ الصَّلَاةِ لَا يكفرُ لعمُومِ الأحَادِيثِ [(٤)].

---

(١) «الوجيز» (ص ٣٦).

(٢) مع التنبه إلى أن الكُفرَ غير محصورٍ بالجحود عند أهل السنة؛ كما قد يُفهم من قول المؤلف.

(٣) «الفروع» (١/ ٤٢١).

(٤) ابنُ بطة يرى تكْفِيرَ تَارِكِ الصَّلاةِ، فقال فِي «الإبانة» (٢/ ٦٨٣) بعد ذكره بعضَ الأدلة: «فَهَذِهِ الْأَخْبَارُ وَالْآثَارُ وَالسُّنَنُ عَنِ النَّبِيِّ وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ كُلُّهَا تَدُلُّ الْعُقَلَاءَ وَمَنْ كَانَ بِقَلْبِهِ أَدْنَى حَيَاءٍ عَلَى تَكْفِيرِ تَارِكِ الصَّلَاةِ، وَجَاحِدِ الْفَرَائِضِ، وَإِخْرَاجِهِ مِنَ الْمِلَّةِ، وَحَسْبُكَ مِنْ ذَلِكَ مَا نَزَلَ بِهِ الْكِتَابُ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾. ثُمَّ وَصَفَ الْحُنَفَاءَ وَالَّذِينَ هُمْ غَيْرُ مُشْرِكِينَ بِهِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: [ص:٦٨٤] ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾. فَأَخْبَرَنَا جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ أَنَّ الْحَنِيفَ الْمُسْلِمَ هُوَ عَلَى الدِّينِ الْقَيِّمِ، وَأَنَّ الدِّينَ الْقَيِّمَ هُوَ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾. فَأَيُّ بَيَانٍ رَحِمَكُمُ اللهُ يَكُونُ أَبْيَنَ مِنْ هَذَا، وَأَيُّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، وَأَنَّ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ مِنَ الْإِيمَانِ يَكُونُ أَدَلَّ مِنْ كِتَابِ اللهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِجْمَاعِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَفُقَهَائِهِمُ الَّذِينَ لَا تَسْتَوْحِشُ الْقُلُوبُ مِنْ ذِكْرِهِمْ، بَلْ تَطْمَئِنُّ إِلَى اتِّبَاعِهِمْ، وَاقْتِفَاءِ آثَارِهِمْ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَنَا مِنْ إِخْوَانِهِمْ».

وَقدِ احتجَّ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي رِوَايةِ المروذيِّ عَلَى منْ قَالَ يُقتلُ أو يَكفرُ بِتأخيرِهَا عَن وَقتِهَا بِإخبارِهِ ﷺ بتأخيرِ الأمرَاءِ لهَا عنْ وقتِهَا، وكذَا نقلَ أبُو طالبٍ[(١)]. ونقلَ أيضًا إذا تركَهَا حتَّى يصلِّي صَلاةً أخرَى فَقَدْ تركَهَا، قُلْتُ لَهُ: فَقَدْ كفرَ؟، قَالَ: لَا، الكفرُ لا يوقفُ عَلَى حدِّه، ولكِن يُستتَابُ.

قال شيخُ الإِسلَامِ ابنُ تيمية قدَّسَ اللهُ روحَهُ: «وَأَمَّا الَّذِينَ لَمْ يُكفرُوا بِتَرْكِ الصَّلَاةِ وَنَحْوِهَا؛ فَلَيْسَتْ لَهُمْ حُجَّةٌ إِلَّا وَهِيَ مُتَنَاوِلَةٌ لِلْجَاحِدِ كَتَنَاوُلِهَا لِلتَّارِكِ؛ كَاحْتِجَاجِهِمْ بِالعُمُومَاتِ الَّتِي يَحْتَجُّ بِهَا الْمُرْجِئَةُ؛ كَقَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ...»[(٢)] الحديثَ.

قال: «وَأَجْوَدُ مَا اعْتَمَدُوا عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللهُ... » إِلَى أن قَالَ: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهِنَّ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ. وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ»[(٣)].

ثمَّ ذَكَرَ كلامًا طَوِيلاً قَالَ فِيهِ: فلَمْ يَدْخلْ تَحتَ المَشِيئَةِ إِلَّا مَنْ لَمْ يُحَافِظْ لَا مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ رَأْسًا».

ثمَّ قَالَ: «فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ؛ بَلْ أَكْثَرُهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ والأَعْصَارِ لَا يَكُونُونَ مُحَافِظِينَ عَلَيهَا، وَلَا تَارِكِينَ لهَا، بَلْ يُصَلُّونَ أَحْيَانًا وَيَدَعُونَ أَحْيَانًا».

قال: «فَهَؤُلَاءِ فِيهِمْ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، وَتَجْرِي عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةُ منَ الْمَوَارِيثِ وَنَحْوِهَا»[(٤)]. انتَهى.

---

(١) انظر: «الجامع» للخلَّال (٢/ ٥٤٤).

(٢) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٣٤٣٥)، ومسلمٌ (٢٨).

(٣) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٣٤٣٥)، ومسلمٌ (٢٨).

(٤) أخرجَهُ أبو داود (١٤٢٠)، والنسائيُّ (١/ ٢٣٠)، وفِي «الكبرى» (٣٢٢)، وابنُ ماجه (١٤٠١)،
==

وقد يُفهمُ هَذَا منْ كلامِ الإمامِ أحمَدَ الَّذِي تقدَّمَ عَنْهُ، فَلأجلِ هَذَا التَّقريرِ اختارَ شيخُ الإسلَامِ أنَّهُ لا يُقتلُ بعدَ الاستتَابَةِ إلَّا كافرًا ـ يعنِي: جَاحِدًا ـ لأنَّهُ يَبعدُ أنْ يُصِرَّ عَلَى تركِهَا، ويُصِرَّ عَلَى القَتلِ، وَهُوَ لا يَكُونُ جَاحِدًا لهَا، وَهَذَا لَمْ يخَالفْ فِيهِ الأوَّلونَ، ويكُون قولُ الجَمِيعِ بِكُفْرِهِ إنَّمَا هُوَ مُركَّبٌ عَلَى الجُحودِ، فَيَرْتفِعُ الخِلَافُ.

فَهذَا معترَكُ أقوَالِ عُلَماءِ الأمَّةِ فِي عُصاتِهَا، وسيأتِي لهَذَا مزيدُ بيانٍ عِندَ الشُّروعِ فِي أخبَارِ الخَوارجِ إن شَاءَ اللهُ تَعَالَى مِن أقوَالِ الأئمَّةِ وعُلَماءِ الأمَّةِ، ولم يُجوِّزْ أحدٌ مِنْهُم الخُروجَ عَليهم بالسَّيفِ بِذَلِكَ، وَلَا تكفيرَهُ [(١)]، إلَّا أن تكُونَ حدُودًا يُمْضِيهَا عَلَيْهِم وَلِيُّ أمرِهِم ونوابُه مَع مَا فِيهَا؛ مِن شربِ الخمُورِ والمعَازفِ، وَدعوةِ غيرِ اللهِ تَعَالَى مِنْ جُهَّالِهِمْ.

ولَمْ تَزَلِ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى تزجرُ عَلَى ذَلِكَ، وتخصُّ الأئمَّةُ بِهِ، وَتصنِّفُ فِي ذَلِكَ المُصَنَّفَاتِ مِنَ التَّرغِيبِ والتَّرهِيبِ بالتَّوضِيحِ والبَيَانِ، ولكنَّهُم لا يَسْلكُونَ طَرِيقَ التكفيرِ فِيهم وعمُومهم بِذَلِكَ، وتجرِيد سَيفِ الفِتْنةِ، وإنَّمَا يجرده الخَوارجُ، أو رجلٌ يطلبُ مَسلكًا، إلا أَنْ يَكُونَ إمَامًا عَلَى بغَاةٍ، أو قُطَّاع طريقٍ ليردهُم إلَى السَّبيلِ الَّذِي خرجُوا مِنْهُ فَذَلِكَ لَهُ وللمُسلِمِينَ أَنْ يُطيعُوا أمرَهُ، وَيَتَّبعُوهُ فِي ذَلِكَ.

وأمَّا أهلُ البدَعِ فإنَّ فتنةَ قلوبِهِم تُريهم البَاطلَ فِي صُورةِ الحقِّ؛ لاتِّباعِهِم الهوَى، فالهَوَى يتجَارَى بِهِم كَمَا يتجارَى الكَلَبُ [(٢)] بصَاحِبِه، ومِن صفَاتِهِ... [(١)] فيمُوت عطشَانًا... [(٢)].

==

وأحمدُ (٥/ ٣١٥ - ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٢)، والحميديُّ (٣٨٨)، والدارميُّ (١٦١٨) وابن حبان (١٧٣١) وغيرهم. وصحَّحهُ الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «صحيحِ سنن أبي داود» (٥/ ١٦١).

(١) الأدلة الصحيحة تدل على تكفير تاركِ الصلاة كسلاً، مع الاختلاف في الحد الذي يصدق عليه الترك. انظر: رسالة "البيان والإيضاح بأن ترك الصلاة كفرٌ بواح"؛ للدكتور منصور بن عبدالعزيز السماري.

(٢) فِي «لسَانِ العَربِ» (١/ ٧٢٣): «الكَلَبُ، بِالتَّحْرِيكِ: داءٌ يَعْرِضُ للإنسانِ، مِن عَضِّ الكَلْبِ الكَلِبِ، فيُصيبُه شِبْهُ الجُنُونِ، فَلَا يَعَضُّ أَحَداً إلا كَلِبَ، ويَعْرِضُ لَهُ أَعْراضٌ رَدِيئَةٌ، ويَمْتَنِعُ مِنْ

==

وعِندَ ابنِ مَاجه فِي سُننِهِ[٣]، وابنِ أَبِي عَاصِم[٤] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «أَبَى اللهُ أَنْ يَقْبَلَ عَمَلَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حَتَّى يَدَعَ بِدْعَتَهُ».

وَقَدْ قَالَ عبَّادُ بنُ عبَّادٍ أبو عتبةَ الشَّامِي فِي رسَالتِه، وَهِيَ عِندَ الدَّارميِّ فِي مُسْنَدِهِ[٥] بسنَدِهِ عَنْهُ حَيْثُ قَالَ فِيهَا: «رُبَّ رَجُلٍ شَغَلَ قَلْبَهُ بِبِدْعَةٍ، قَلَّدَ فِيهَا دِينَهُ رِجَالاً دُونَ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ، أَوِ اكْتَفَى بِرَأْيِهِ فِيهَا لاَ يَرَى الْهُدَى إِلاَّ فِيهَا، وَلاَ يَرَى الضَّلاَلَةَ إِلَّا بِتَرْكِهَا، يَزْعُمُ أَنَّهُ أَخَذَهَا مِنَ الْقُرْآنِ، وَهُوَ يَدْعُو إِلَى فِرَاقِ الْقُرْآنِ، أَفَمَا كَانَ لِلْقُرْآنِ حَمَلَةٌ قَبْلَهُ وَقَبْلَ أَصْحَابِهِ، يَعْمَلُونَ بِمُحْكَمِهِ، وَيُؤْمِنُونَ بِمُتَشَابِهِهِ، وَكَانُوا مِنْهُ عَلَى مَنَارٍ كَوَضَحِ الطَّرِيقِ، وكَانَ الْقُرْآنُ إِمَامَ رَسُولِ الله ﷺ، وهو إِمَامٌ لأَصْحَابِهِ، وأَصْحَابُهُ أَئِمَّةٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ، رِجَالٌ مَعْرُوفُونَ مَنْسُوبُونَ فِي الْبُلْدَانِ مُتَّفِقُونَ فِي الرَّدِّ عَلَى أَصْحَابِ الأَهْوَاءِ مَعَ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الاِخْتِلاَفِ وتَسَلَّح أَصْحَابُ الأَهْوَاءِ بِأَهوَائِهِم فِي سُبُلٍ مُخْتَلِفَةٍ، جَائِرَةٍ عَنِ الْقَصْدِ، مُفَارِقَةٍ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيم، فَتَوَهَتْ بِهِمْ أَدِلاَّؤُهُمْ فِي مَهَامِهَ مُضِلَّةٍ، فَأَمْعَنُوا فِيهَا مُتَعَسِّفِينَ فِي تِيهِهِمْ، كُلَّمَا أَحْدَثَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ بِدْعَةً فِي ضَلاَلَتِهِمُ انْتَقَلُوا مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا، لأَنَّهُمْ لَمْ يَطْلُبُوا أَثَرَ السَّابِقِينَ، وَلَمْ يَقْتَدُوا بالأَنصَارِ والْمُهَاجِرِينَ».

==

شُرْب الْمَاءِ حَتَّى يَمُوتَ عَطَشاً؛ وأَجْمَعَتِ العَربُ عَلَى أن دَواءَه قَطْرَةٌ مِنْ دَمِ مَلِكٍ يُخْلَطُ بماءٍ فيُسْقاه؛ يُقَالُ مِنْهُ: كَلِبَ الرجلُ كَلَباً: عَضَّه الكَلْبُ الكَلِبُ، فأصابه مثلُ ذَلِكَ».

(١) كلمات غير واضحة.

(٢) كلمات غير واضحة.

(٣) (برقم: ٥٠).

قال البوصيريُّ (١/ ١٨): «هذا إسنادٌ رجاله كلهم مجهُولون قاله الذهبيُّ فِي الكاشفِ، وقال أبو زرعة: لا أعرف أبا زيد ولا المغيرة».

وفِي «الضَّعيفَة» (٣/ ٦٤٨) قال الشيخُ الألبانيُّ: «منكرٌ».

(٤) فِي «السُّنة» (٣٧).

(٥) (برقم: ٦٦٧).



إِلَى أن قَالَ: «وَلاَ تَكْتَفُوا مِنَ السُّنَّةِ بِانْتِحَالِهَا بِالْقَوْلِ دُونَ الْعَمَلِ، فإِنَّ ذَلِكَ مَع إِضَاعَةِ العَمَلِ كَذِبٌ بالقَولِ، وَلاَ تَعِيبُوا بِالْبِدَعِ تَزَيُّنًا بِعَيْبِهَا، فَإِنَّ فَسَادَ أَهْلِ الْبِدَعِ لَيْسَ بِزَائِدٍ فِي صَلاَحِكُمْ، وَلاَ تَعِيبُوهَا بَغْيًا عَلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ الْبَغْيَ مِنْ فَسَادِ أَنفُسِكُمْ».

إِلَى أَنْ قَالَ: «فَلْيَكُنْ أَمْرُكُمْ فِيمَا تُنْكِرُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ نَظَرًا مِنْكُمْ لأَنْفُسِكُمْ، وَنَصِيحَةً مِنْكُمْ لِرَبِّكُمْ، وَشَفَقَةً مِنْكُمْ عَلَى إِخْوَانِكُمْ».

وَهِيَ رِسَالَةٌ نَافِعَةٌ ذَكَرْنَا مِنْهَا مَا ينَاسِبُ المقَامُ.

فَصْلٌ

ومِمَّا يبيِّنُ لكَ ضَلالُ الخوَارجِ، وَإِنْ حَسُنَ قَوْلُهُم، وَمَا دَعَوا لَهُ: قولُهُ ﷺ لأصحَابِهِ: «تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ معَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ معَ صِيَامِهِمْ...»[(١)] الحَدِيثَ، وقوله عنهُم: «إنَّهم يَقُولُونَ من خيرِ قولِ البريَّة».

وقول عليٍّ رضي الله عنه لَمَّا سُئلَ: أمشركُونَ هُمْ؟ قَالَ: مِن الشركِ فَرُّوا. قِيلَ: أمُنَافِقُونَ هم؟ قَالَ: إنَّ المُنَافِقِينَ لَا يَذْكُرُونَ اللهَ إلَّا قَلِيلًا ـ وَهَؤُلَاءِ يَذْكُرُونَ اللهَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ـ[(٢)]. بأنَّهم لو وقفُوا عَلَى هَذِهِ الأعمال واقتصرُوا عَلَى الأمرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهي عنِ المُنكرِ، ولم يخرجُوا عَن جَماعةِ المُسْلِمِينَ وإِمَامِهم، ويُطلقُوا التَّكفِيرَ عَليهم مَع إيقَاعِ السَّيفِ بِهم؛ لكَانُوا منْ خيَارِ الأمَّةِ وعبَّادِهم وأوليَائِهم، ولكنَّهم غَلوا فتعدّوا وخرجُوا من الدِّينِ، وقاتلُوا المُسْلِمِينَ.

فَلَا يغرَّنكَ من شُهدَ لَهُ بحسنِ قولِهِ، وَهُوَ يقولُ ما لَا يفعلُ، ويفعلُ ما لا يؤمرُ، فإنَّ هؤلاءِ مع كَونِ النَّبيِّ ﷺ شهدَ لَهُم أَنَّهُم يَقُولُونَ من خيرِ قولِ البريَّةِ، فمنْ فعلَ فعلهُم فَهُوَ مِنْهُم كائنًا من كَانَ، وإن زخرفَ القولَ، وَقَالَ منْ خيرِ قولِ البريةِ، فإنَّهُ لولا خبرُ قولِهِ: أخبرَ أنَّهُم لا يجاوزُ حناجرهُم، وأمرَ بقتلهِم وزجرهُم إذا دعوا إِلَى مذهبِهِم، أو قاتلُوا عَلَيْهِ مع قولِهِ إنَّهُم يَقُولُونَ: كخيرِ قولِ البريةِ، لم يُقبلْ مِنهُ، ولمْ يتَّبعْ، ولم يَكُنْ لَهُ أصْحَابٌ عَلَى مذهبِهِ يتدينُونَ بِذَلِكَ؛ كَمَا فعلَ ابنُ تومرت وأصحَابهُ حتَّى سمَّى أصحابَهُ المُوحِّدِينَ، وصنّفَ لَهُم كتبًا صغارًا احتزوا بِها عن كتبِ السَّلفِ، وقصرَهُم عليها كَمَا سنذكرُ ذَلِكَ إن شاءَ اللهُ تَعَالَى، وسننبئُك عمَّا قلنَا جملةً وتفصِيلاً ما ترَى من سيرتِهم وأخبَارِهم إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

---

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٥٠٥٨)، ومُسْلمٌ (١٠٦٤).

(٢) تقدم تخريجه.



وَقَدْ قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(١)]: حدثني أبي ثَنَا إِسْمَاعِيلُ - يَعْنِي: ابْنَ عُلَيَّةَ - ثَنَا سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ - يَعْنِي: ابنَ طَرْخَان - ثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: ذُكِرَ لِي أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِيكُمْ قَوْمًا يَتعبدُونَ وَيَدْأَبُونَ حَتَّى يُعْجِبُوا النَّاسَ وَتُعجِبُهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»

وَقَالَ أيضًا[(٢)]: حَدَّثَنِي أَبُو بِشْرٍ بَكْرُ بْنُ خَلَفٍ خَتَنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُقْرِئُ وَسَأَلَهُ مَحْمُودُ بْنُ غَيْلَانَ عَنْ هَذَا الحَدِيثِ بِمَكَّةَ قَالَ: أَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَنبأَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ».

---

(١) فِي «السُّنَّةِ» (١٥٤٧)، وأبو يعلى (٤٠٦٦).
قال الشيخُ الألبانيُّ في «الصَّحيحةِ» (٤/ ٥٢٠): «وهذا إسنادٌ صحيحٌ على شرطِ مُسلمٍ».

(٢) فِي «السُّنَّةِ» (١٥٤٩).

فصل

وَحَيْثُ نَبَّهنَا عَلَى ما تقدَّمَ، فلنذكرُ مَا وعدنَا بِهِ مِنْ مَرَاتبِ الأمرِ بِالْمَعْرُوفِ والنهي عَنِ الْمُنكرِ عَلَى طريقِ الاختصارِ مع البيَانِ والتَّوضيحِ إنْ شَاء اللهُ تَعَالَى.

فنقُولُ: قَالَ شَيخُ الطَّائِفَةِ عَلَمُ العبَّادِ، وفخرُ الزُّهادِ فِي العبادِ والبِلَادِ عبدُ القادرِ الجيلانِي الحَنبلِي فِي «غنيتِه» ـ وَقَد اتَّصلَ سندُنَا بِهَا إليهِ بالأسَانيدِ العَالِيَةِ كَمَا فِي كِتَابِنَا «التُّحفَةِ الوضيَّةِ فِي الأسَانيدِ العَاليةِ المَرضيةِ»[(١)] قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي بابِ الأمرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهي عَنِ المُنكرِ: «وَقَد ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الآمرِينَ بِالمَعْرُوفِ والنَّاهينَ عَنِ المُنكرِ وَمَدَحَهُم قَالَ عزَّ مِنْ قَائِل: ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ الآية. وَقَالَ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

قَالَ: فَالأمرُ بِالمَعْرُوفِ والنَّهي عنِ المُنكرِ واجبَانِ عَلَى كُلِّ مكلَّفٍ عَالم بشرطِ القُدرَةِ عَلَى وَجهٍ لا يؤدِّي إِلَى فسَادٍ عَظِيمٍ، وضَرَرٍ فِي نَفسِهِ وَمالِه وَأَهلِهِ، وَلَا فَرقَ أَنْ يَكُونَ إمَامًا، أو عَالِمًا، أو قَاضيًا، أو وَاحِدًا مِنَ الرَّعِيةِ»[(٢)].

قَالَ: «وإنَّمَا شَرطنَا العِلْمَ بالمُنكرِ، والقَطع بِهِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الوقُوعِ فِي الإثمِ؛ لأنَّه لا يأمنُ المُنكرُ أنْ يَكُونَ الأمرُ بخِلَافِ مَا ظنَّ؛ لقولِه تَعَالَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وَلَا يجبُ عَلَيْهِ كشفُ ما سترَ اللهُ عَنهُ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى نَهى عَنْ ذَلِكَ فقَالَ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾. وإنَّمَا الوَاجِبُ عَلَيْهِ إنكارُ مَا ظَهرَ، وَفِي بَحثِ مَا سُترَ كشفُ السّترِ. وذلكَ مَمْنُوعٌ مِنْهُ فِي الشَّرعِ»[(٣)].

---

(١) ص (١٩١).

(٢) «الغنية» (١/ ١٠٩).

(٣) «الغنية» (١/ ١١١).



فصل

قَالَ: وإنَّمَا شَرطْنَا القُدرةَ عَلَى ذَلِكَ لما رُوِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ فِيهِمْ رَجُلٌ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي، وهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْه، فلا يُغيّروا عليه، إِلَّا عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا»[(١)].

فَقَدْ شَرَط ﷺ القُدرَة فِي ذَلِكَ، وَهُوَ إِذَا كانتِ الغَلَبَةُ لأهلِ الصَّلاحِ، وعَدلَ السَّلطانُ وأعانه أهلُ الخَيرِ.

وأمَّا إِذَا كَانَ الإنكارُ تَغرِيرًا بالنَّفسِ، مع لحوق ضَررٍ بِهِ وَبِمَالِهِ فَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ ذَلِكَ؛ لقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ الآيَةَ.

قَالَ: فَإِذَا ثبتَ أَنَّهُ لا يَجِبُ عَلَيْهِ الإِنْكَارُ فَهَل يجُوزُ إنكارُه إذا غَلبَ عَلَى ظَنِّه خوفٌ عَلَى نفسِهِ؟

فَعِندنَا يَجُوزُ ذَلِكَ وَهُوَ الأفضلُ إِذَا كَانَ من أهلِ العَزِيمةِ والصَّبرِ، قَالَ تَعَالَى فِي قصَّةِ لقمَانَ: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ الآيَةَ[(٢)].

قَالَ: وَلَاسيَّما إِذَا كَانَ ذَلِكَ عِندَ سُلطَانٍ جائرٍ، أو لإظهَارِ الإِيمَانِ عِندَ ظهورِ كلمَةِ الكُفرِ؛ لأنَّ الفقهَاءِ اتفقُوا عَلَى ذَلِكَ.

قَالَ: فإِنْ غَلبَ عَلَى ظنِّهِ عَدمُ زَوَالِهِ، وبقَاؤُه عَلَى ذَلِكَ، فَهَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ إنكارُه أم لَا؟ عَلَى روايتَينِ عَنِ الإمَامِ أحْمَدَ:

إِحدَاهمَا: يَجِبُ لجَوَازِ أَنْ يرتدعَ وينزجرَ ويرقَّ قَلبُهُ.

---

(١) أخرجَهُ الطبرانيُّ فِي «الكبير» (٢/ ٣٣٢) وفِي سندِهِ يحيى الحمّانيُّ وهو ضعيفٌ.

(٢) «الغنية» (١/ ١١١).

والرِّوَايةُ الأخرَى: لا يَجِبُ عَلَيْهِ إنكَارُه حتَّى يَغْلبَ عَلَى ظنِّه زَوَالُهُ؛ لأنَّ القَصدَ بالإنكَارِ زوالُ المُنكرِ، فإذا قوِيَ فِي الظَّنِّ بقَاؤُهُ كَانَ تركُه أَوْلَى.

قلتُ: وَيُستدلُّ للرِّوايةِ الأولَى بِقَوْلِهِ تَعَالَى عَنِ المُنكرِينَ عَلَى أصحَابِ السَّبت لَمَّا قيلَ لَهُم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ فأخبرَ سبُحانَهُ بنجَاتِه للنَّاهِينَ فِي مقَامِ التَّنويهِ بذكرِهِم والمَدحِ لَهُم، وبعَذابِ المُجرمِينَ تَوبيخًا لَهُم واعتبارًا لِمَنْ بعدَهُم، وسَكَتَ عَنِ المُخذِّلينَ، فكأَنَّهُ منْ بابِ قولِهِ تَعَالَى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

ومَتَى كَانَ يَحدُثُ بالإنكَارِ منكرٌ أعظم مِنَ المُنكرِ حرُم إنكَارُهُ، فإنْ كَانَ دُونه جازَ، فإنْ كَانَ مثلَهُ كُره إنكَارُهُ[1].



(١) «الغُنْيَة» (١/ ١١٢).

فَصلٌ

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: فإنْ ثبتَ وجُوبُ الإنكَارِ، فالمنكرُونَ عَلَى ثلاثَةِ أقسَامٍ:

قسمٌ يكُونُ إنكارُهم باليَدِ؛ وهُمُ الأئمَّةُ والسَّلاطِين.

والقِسمُ الثَّانِي: إنكارُهُم باللِّسَانِ دُون اليدِ؛ وهُمُ العُلَماءُ.

والقِسمُ الثَّالثُ: إنكارُهُم بالقَلبِ؛ وهُمُ العَامَّةُ، وَقَد جَاءَ فِي هَذَا المَعنَى حَدِيثٌ؛ وَهُوَ مَا رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِي ﷺ عَن رسُولِ الله ﷺ أنَّه قَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[1] يعني: أَضْعَفُ فعْلِ أَهْلِ الإيمَانِ»[2].

قَالَ: «وَيُشتَرطُ فِي الآمرِ بالمَعْرُوفِ والنَّاهي عَنِ المُنكرِ خَمسُ شَرَائِطَ:

أوَّلها: أنْ يَكُونَ عَالمًا بِمَا يأمرُ وَينهِي.

والثَّانِي: أنْ يَكُونَ قَصدُهُ وَجهَ الله عزَّ وجلَّ، وإعزازَ دينِه، وإعلَاءَ كَلمَته، وإظهارَ طاعتِهِ وأمرِهِ دُونَ الرِّياءِ والسُّمعَةِ والحميةِ.

وإنَّمَا يُنصرُ ويُوفقُ ويزولُ بِهِ المُنكرِ إِذَا كَانَ صَادِقًا مُخْلِصًا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ وإذَا اتَّقى الشركَ، وتركَ نظرَ الخلقِ فِي إنكَارِهِ، وأحسَنَ العمَلَ بإخلاصِهِ فِي ذَلِكَ كَانَ الظَّفرُ لَهُ، وإنْ كَانَ غير ذَلِكَ كَانَ الخُذلَانِ والصَّغارُ والذِّلَّةُ والمهَانَةُ، وبقَاء المُنكرِ عَلَى حَالِهِ بل زِيادَته وتفاقمه وضرَاوة أهلِ المعَاصِي، واتِّفاق شياطِين الإنسِ والجنِّ عَلَى مُخالفَةِ أمرِ الله عَزَّ وَجَلَّ وتركِ طاعتِهِ، وارتكَابِ المُحرَّمَاتِ، وفسَد الأمرِ.

(١) أخرجه مسلمٌ (٤٩).

(٢) «الغُنْيَة» (١/ ١١٣).

والثَّالِثُ: يَنبغِي أَنْ يَكُونَ أمرُه ونَهيهُ باللِّينِ والتُّؤدَةِ لا بالفَظَاظَةِ والغلظَةِ، بل بالرِّفقِ والنُّصحِ والشَّفقَةِ عَلَى أَخِيهِ المُسلِمِ، كَيفَ وافقَ عدوَّهُ الشَّيطانُ الَّذِي قَدْ استولَى عَلَى عَقلِهِ، وزيَّنَ لَهُ مَعصيةَ ربِّهِ، ومُخالفَةَ أمرِهِ، يُرِيدُ بِذَلِكَ هَلاكَهُ، وإدْخالَهُ النَّارَ؛ كَمَا قَالَ تَعالَى: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾»[1].

وَمُرَادُ الشَّيخِ: أَنَّهُ يستعملُ مع ذَلِكَ الرِّفقَ، وَلَا يعينُ عَلَيْهِ الشَّيطانُ حتَّى يُنفِّرَه.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَقَد قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لنبيِّهِ ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾.

وقال لُموسَى وهارُونُ عَليهمَا الصَّلاةُ والسَّلامُ حِينَ بَعثهُمَا إِلَى فِرْعونَ ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾.

والرَّابعُ: أَنْ يَكُونَ صبُورًا، حَكِيمًا، حمُولاً، متوَاضِعًا، زائلَ الهوَى، قَوِيَ القلبِ، ليِّنَ الجانِبِ، طَبيبًا يداوِي مَرِيضًا، حكيمًا يداوي مجنُونًا، حتَّى يكُونَ بِذَلِكَ إمَامًا هَادِيًا؛ كَمَا قَالَ تعَالَى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ﴾ يعني: عَلَى احتمَالِ الأذَى مِن قَومِهِم عَلَى نُصرَةِ دِينِ اللهِ، وإعزَازِهِ، والقيام معَه، فجعَلهُم أئمَّةً بِذَلِكَ، هداةً، أطباء للدِّينِ، قادةً للمُؤمنِينَ.

وَقَالَ تَعَالَى فِي قصَّةِ لقمَانَ: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

والخَامِسُ: أَنْ يَكُونَ عَامِلًا بِمَا يَأمرُ بِهِ، متنزهًا عمَّا ينهى عَنْهُ، غيرَ مُتلطخٍ بِهِ؛ لئلَّا يكونَ لهُم تسَلُّطٌ عليه، فيكُونَ عِندَ اللهِ مذمُومًا مُلامًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾، وَفِي ذَلِكَ حديثُ أنسٍ ﷺ ليلة

---

(١) «الغُنْيَة» (١/ ١١٢ـ ١١٣).

الإِسرَاءِ وَفِيهِ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِرِجَالٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِالْمَقَارِيضِ، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمتك مِنَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ، وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟» رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ(١).

قال: وَقَد قَالَ الشَّاعِرُ(٢):

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

قُلْتُ: وَفِي الصَّحِيحِ(٣) عَنْ أُسامَةَ بنِ زَيدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَطْحَنُ كَطَحْنِ الْحِمَارِ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ».

قَالَ الشَّيخُ عَبدُ القَادِرِ قدَّسَ اللهُ روحَهُ: «إِلَّا أَنَّ شُيوخَنَا ذَكَرُوا أَنَّ الأمرَ بِالمَعْرُوفِ والنَّهيَ عَنِ المُنكرِ؛ واجِبٌ عَلَى الفَاسِقِ بوجُوبِهِ عَلَى العَدلِ، فأَشَرْنَا إِلَى ذَلِكَ لِمَا تقدَّمَ من عمُومِ الآيَاتِ والأخبَارِ مِن غَيرِ فَرقٍ»(٤).

قُلْتُ: وَمِنْهَا قوله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ وقَولُ العَبدِ الصَّالحِ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾.

---

(١) (٢٠/ ٢٣٤ ط الرسالة) وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٢).

(٢) قَالَ العينيُّ فِي «المَقَاصِدِ النَّحويةِ» (٤/ ١٨٧٦): «قائلُه هُو أَبو الأسودِ الدُّؤلِي، ويقَالُ: الأخطلُ، وليسَ بصحيحٍ، وحَكَى أبو عبيد القَاسمُ بنُ سلامٍ أنَّه للمتوكلِ الكنانِي ثمَّ الليثيِّ».

(٣) أخرجه البخاريُّ (٣٢٦٧)، ومسلمٌ (٢٩٨٩).

(٤) «الغُنْيَة» (١/ ١١٣).

وَمَا ذكرَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عَن شُيوخِهِ هُوَ الصَّوَابُ؛ إذ هُوَ قَولُ الجُمْهُورِ، وَهُوَ الَّذِي نَقلَهُ الجَمَاعَةُ عَنِ الإمَامِ أحمَدَ، وقرَّرهُ شيخُ الإسلَامِ ابنُ تيميةَ[1] قدَّسَ اللهُ روحَهُ وَغَيْرُهُ مِنَ الأصْحَابِ، ولَكِن لا يَجْمُلُ بالإنسَانِ أن يُخَالفُ إلَى ما يَنْهى عَنْهُ، كَمَا أشَارَ إليهِ الشَّيخُ عبدُ القَادِرِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٣٤ ـ ١٣٦).

فصلٌ

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: والأولَى إنِ استطَاعَ أَنْ يَأمرَهُ وينهَاهُ سِرًّا فِي خُلْوَةٍ؛ ليكُونَ ذَلِكَ أَبلَغ وأمْكَنَ فِي المَوْعِظَةِ والزَّجرِ والنَّصِيحَةِ، وأقرب إِلَى القبُولِ والإِقْلَاعِ.

وَقَد قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ﷺ: «مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ بِالْعَلَانِيَةِ فَقَدْ شَانَهُ، وَمَنْ وَعَظَهُ سِرًّا فَقَدْ زَانَهُ»[(١)].

فإن فعلَ ذَلِكَ ولمْ ينفعْهُ أظهرَ حَينئِذٍ واستعَانَ عَلَيْهِ بأهلِ الخَيرِ، وإنْ لَمْ ينفعْ فبِأصحَابِ السُّلطَانِ.

قَالَ: «وَينبغِي أنْ لا يتركَ إنكَارَ المُنكرِ؛ لأنَّ اللهَ ذمَّ قومًا تركُوا ذَلِكَ، وَتَغَافلُوا عَنْهُ فَقَالَ: ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٩ ﴾ وَقَالَ: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝٦٣ ﴾ يقولُ: هَلَّا نَهَاهُم عُلَماؤُهُم وَفقهَاؤُهُم وقرَّاؤهُم عَنِ القَولِ الفَاحِشِ، وَأكلِ الحَرامِ»[(٢)].

قلْتُ: فإنْ عَلِمَ أنَّ أصحَابِ السُّلطَانِ لا يَستعملُونَ الإنكَارَ المَشرُوعِ، وأنَّهُم يَظلمُونَهُ لَمْ يجزْ رَفعهُ إِلَيْهِم.

وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ عَنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مَواضعَ مِن كَلَامِهِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجَاهِرًا بالفسَادِ، وَهُوَ الَّذِي يُفهمُ مِن كَلامِ الشَّيخِ عَبدِ القَادِرِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَغيرِهِ مِنْ عُلَمائِنَا.

والأحَادِيثُ فِي الأمرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهيِ عَنِ المُنكرِ كَثِيرَةٌ جدًّا، وَمَعْنَاهَا مَا ذكرْنَاهُ، فَلَا نُطِيلُ بذِكْرِهَا، وَفِي ذَلِكَ كِفَايَةٌ لِمَنِ اسْتَبْصَرَ.

---

(١) قَالَ ابنُ مفلح فِي «الآداب» (١/ ٢٨٧): «وَقَالَ فِي الْغُنْيَةِ، وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ بِالْعَلَانِيَةِ فَقَدْ شَانَهُ، وَمَنْ وَعَظَهُ سِرًّا فَقَدْ زَانَهُ. وَلَعَلَّهُ عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ».

(٢) «الغُنْيَة» (١/ ١١٤).

فصل

فلمّا اهتمَّ الأئمَّةُ فِي طَلَبِ السُّنَّةِ ببذلِ الجدِّ، وبلغُوا فِي تَحصِيلِ مَا ضلَّ مِنْهَا غَايةَ الكدِّ، إِلَى أنْ وقفُوا منَ النَّقلِ عَلَى الغضِّ والرث، وعرفُوا الثَّابتَ منَ المجتثِ، فاشتهرتْ بِهِم السُّنَنُ، وعظُمَ بِهِم اللَّسنُ، مالَ أهلُ الرِّيبِ - كالخوَارجِ - إِلَى البدَعِ، وجالُوا فِي الإفكِ بالقَولِ المخترعِ، وأبدُوا منَ التَّأويلِ مَا يدلُّ عَلَى ارتيابِهِم فِي وعدِ من لَا يخلفُ وَعدهُ، وَترددُوا فِي قبُولِ مَا بعثَ اللهُ بِهِ عبدهُ، حتَّى نبذُوا نصُوصَ صَرِيحِ الشَّرعِ ظهريًا، وَجَاءُوا منَ التَّكفِيرِ بِآرَائِهِم شَيئًا فريًا، فَقَدْ دَحَوْا منَ التَّكفيرِ زندَهُم، وفرحُوا مَع قبحِ مَا أَتَوْا بِمَا عندَهُم، إلا أنَّهُم زَاغُوا بالتَّلبيسِ فِي الإغوَاءِ، وَزَاغُوا بالتَّدليسِ للأهوَاءِ، يُبدونَ دعوَى التَّسَنُّنِ فِي المَقَالةِ، وَيَقْضونَ عَلَى علمَاءِ الأمَّةِ بالاغتوَاءِ والجهَالَةِ، وَيزخرِفُونَ لِمَن اتبعَهُم القول رَجَاءَ الاستمَالةِ؛ بأنَّ الأمَّةَ قَدْ غَشِيتَهُم الغباوَةُ والضَّلَالَة؛ ليغرُوا بِذَلِكَ مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ، وقصُرَ عَن إدرَاكِ المعَانِي فهمُه.

يردُّونَ بأهوَائِهِم من شهادةِ الحقِّ ما كَانَ عِندَ المُصطَفى مقبُولاً، ومَنْ لَم يتَّبعْ رَأيهُم فَهُوَ كائنٌ عِندَهُم مخذُولاً، إلَّا أن يحسِّنَ مَا حسنُوهُ، ويوهنَ ماَ أوهنُوهُ، ويصحِّحَ مَا صحَّحوهُ، ويرجِّحَ مِن دينِهِم مَا رجَّحوهُ، فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ قبلُوهُ، وبجَّلُوهُ، وأكرمُوهُ، وَوَازرُوهُ - وإن كَانَ عَدِيمَ العِلْمِ بِمَا أولُوهُ -، فلمَّا درجُوا فِي الأمَّةِ بِهَذِهِ المدَارجِ، سُمُّوا بالغُلَاةِ الخوَارجِ.

وَقَدْ أخبرَ المُصطَفَى زَادَهُ الله تَعظيمًا وَشَرفًا؛ بأنَّ أمَّتَهُ - يَعنِي: أمَّةَ الإجَابةِ - سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبعِينَ مِلَّةً، كَمَا قَالَ الحَافِظُ أبو دَاودَ فِي سُنَنِهِ[1]: حَدَّثنَا أحمَدُ بنُ حَنبَلٍ، وَمُحَمَّدُ بنُ يَحيَى، قَالاَ: ثَنَا أبو المُغِيرَةِ، ثَنَا صَفوَانُ، وحَدَّثنا عَمرُو بنُ عُثمَانَ، قَالَ: حَدَّثنا بَقِيَّةُ، قال: حَدَّثنِي صَفوَانُ، قَالَ: حَدَّثنِي أَزْهَرُ بنُ عَبدِ الله الحَرَازِيُّ، قَالَ أحمَدُ: عَنْ أَبِي عَامِرٍ الهَوْزَنِيِّ،

---

(١) فِي «السُّنَنِ» (٤٥٩٥)، وصحَّحهُ الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «الصَّحيحةِ» (٢٠٣).

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، ﷺ. وَقَالَ الدَّارِمِيُّ[(١)]: أَخبَرَنا أَبُو المُغِيرَةِ [حَدَّثَنَا صَفْوَانُ][(٢)]، قَالَ: حَدَّثَنِي أَزْهَرُ بْنُ عَبْدِ الله الحَرَازِيُّ، عَنْ أَبِي عَامِرٍ عَبْدِ الله بْنِ لُحَيٍّ[(٣)] الهَوْزَنِيِّ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ - واللَّفظُ لأَبِي دَاودَ - أَنَّهُ قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ، اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الجَنَّةِ، وَهِيَ الجَمَاعَةُ».

زَادَ ابْنُ يَحْيَى، وَعَمْرٌو فِي حَدِيثَيْهِمَا: «وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَتَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الأَهْوَاءُ، كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بصَاحِبِهِ»..

وَقَالَ عَمْرٌو[(٤)]: «الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ، لاَ يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ، وَلاَ مَفْصِلٌ إِلاَّ دَخَلَهُ».

وَهُوَ عِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(٥)] بِهَذَا اللفظ.

وَرَوَاهُ التِّرمِذِيُّ[(٦)] عَنْ عبدِ الله بنِ عمر ﷺ مَرْفُوعًا بنَحْوِهِ.

وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ عِندَ أَهْلِ السُّنَنِ، ولَمْ يُخَرَّجْ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» لِكَلَامٍ فِيهِ لَا يُوجِبُ ضَعفَهُ عِندَ المُحَقِّقِينَ مِنْ أَهلِ الحَدِيثِ.

وَرَوَاهُ مُحَمَّدُ بنُ طَاهِرٍ فِي كِتَابِ «الحُجَّةِ عَلَى تَارِكِ المَحَجَّةِ» مِن حَدِيثِ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ، ولَفظُهُ: «افْتَرَقَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً أو ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ، وكُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا السَّوَادَ الأَعْظَمَ» أَوْرَدَهُ بعدَ ذِكْرِهِ للخَوَارِجِ.

---

(١) فِي «السُّنَنِ» (٢٥٤٧).

(٢) من «سنَنِ الدارمِيِّ».

(٣) فِي الأَصلِ: «يحيى».

(٤) فِي الأَصلِ: «عُمَر» والصَّوابُ مَا أثبتُه كَمَا فِي مصَادر الحَدِيثِ.

(٥) فِي «المُسنَدِ» (٤/١٠٢).

(٦) فِي «الجَامِعِ» (٢٦٤٠).

قَالَ أَبُو سُلَيمَانَ الخَطَّابِيُّ: «فِيهِ دِلَالَةٌ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الفِرق كُلَّهَا غَيْرُ خَارِجِينَ مِنَ الدِّينِ؛ إذ قَدْ جَعَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ كُلَّهُم مِنْ أُمَّتِهِ.

وَالكَلَبُ قَالَ فِيهِ: دَاءٌ يَعرِضُ للإِنسَانِ مِن عضَّةِ الكَلْبِ، وَهُوَ داءٌ يُصِيبُ الكَلْبَ كَالجُنُونِ، وعَلَامتُهُ أَنْ تَحْمَرَّ عَيْنَاه، وَأَنْ لَا يزَالَ يُدخُلَ ذَنَبُهُ بَينَ رِجْلَيهِ، وإذَا رأَى إنسَانًا سَاوره، فَإِذَا عقرَ إنسانًا عرضَ لَهُ من ذَلِكَ أعراضٌ رديئةٌ؛ مِنْهَا أن يمتنعَ مِن شربِ المَاءِ حتَّى يهلَكَ عَطَشًا، وَلَا يزالُ يَسْتسقِي حتَّى إذا سُقي المَاء لم يشربْهُ؛ لأَنَّهُ يترَاءى لَهُ أنَّه دمٌ لا مَاءٌ.

ويُقالُ: إنَّ هَذِهِ العِلَّةَ إذا اسْتحكَمَتْ بِصَاحِبِهَا فقعَدَ للبَولِ خرجَ مِنْهُ هنات مثل صُورِ الكَلبِ مِن ذَكرِهِ.

فالكَلَبُ دَاءٌ عَظِيمٌ إذا تَجَارَى بالإنسَانِ تمادَى بِهِ وهَلَكَ»[(١)].

وفِي جَوابٍ لشَيخِ الإسلَامِ ابنِ تيميةَ قدَّسَ اللهُ روحَهُ قَالَ فِيهِ: «فَمَنْ كَفَّرَ الثِّنتَينِ والسَّبعِينَ فِرقَةً كُلَّهُم فَقَدْ خَالفَ الكِتَابَ والسُّنةَ وإجْمَاعَ الصَّحَابةِ والتَّابِعِينَ مَع أنَّ الحَدِيثَ ليسَ فِي «الصَّحِيحَينِ»، وَقَدْ ضَعَّفَهُ ابْنُ حَزْمٍ وَغَيْرُهُ، لَكِنْ حَسَّنَهُ غَيْرُهُ أَوْ صَحَّحَهُ، كَمَا صَحَّحَهُ الحَاكِمُ أَبو عَبْدِ الله[(٢)] وَغَيْرُهُ»[(٣)].

فإذا كَانَ هَذَا قَولُ السَّلفِ، وَتورعُهُم عنِ التَّكفِيرِ لهَذِهِ الفِرَقِ، وَعَلِمْتَ ذَلِكَ تبيَّنَ لَكَ بِهِ خَطَأُ الخَوَارِجِ، وضَلَالتهم فِي تَكفيرِهِم الأُمَّةَ، حيثُ لم يقفُوا فِي الأمَّةِ عَلَى بَابِ الأَمرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهيِ عَنِ المُنكرِ، وَهُوَ البَابُ الوَاسِعُ، قَلِيلُ الخَطَرِ، كَمَا وَقفَ فِي ذَلِكَ أَهلُ السُّنةِ والجَمَاعَةِ فِي الثنتَينِ والسَّبعِين فِي الفِرْقَةِ المَذْكُورَةِ، وَهَذَا مِنْ أَبينِ مَا يُوضِّحُ لَكَ ذَلِكَ.

---

(١) «معَالِمُ السُّننِ» (٤/ ٤٧ ـ ٤٨).

(٢) فِي «المُستَدرَكِ» (١/ ١٢٨).

(٣) «منهَاج السُّنة» (٥/ ٢٤٩) بتصرف.



وَقَد روينَا فِي كِتَابِنَا "التُّحْفَةِ الوضيةِ فِي الأسَانِيدِ العَاليةِ المَرْضِيةِ"[(١)] عَنْ بِقيةَ بنِ الوَلِيدِ قَالَ: قَالَ لِي الأَوْزَاعِيُّ: يا بَقِيةَ لا تَذْكُرْ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ نَبيِّكَ ﷺ إلَّا بِخَيرٍ، وَأَزِيدُكَ يَا بَقِيةَ: وَلَا أحدًا مِنْ أُمَّتِكَ.

وَقَد مرَّ الحَدِيثُ فِي وَعِيدِ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيْدَ شِبرٍ، فَقَدْ خَلعَ ربقةَ الإِسلَامِ مِنْ عُنقِهِ، وَقَدْ صَحَّ ذَلِكَ.

وَحَدِيثُ ابنِ عُمَرَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ[(٢)] وغَيْرِهِ مَرْفُوعًا: «إنَّ اللهَ لا يُجْمِعُ أمتِي» أو قَالَ: «أمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَى ضَلَالَةٍ، ويدُ الله عَلَى الجَمَاعَةِ، وَمَن شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ».

وَعِندَ ابنِ مَاجَه[(٣)]، وابنِ أَبِي عَاصِمٍ فِي كتَابِ السُّنَّةِ[(٤)] منْ حَدِيثِ أنسٍ[(٥)] ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اتَّبِعُوا السَّوَادَ الأَعْظَمَ، فَإِنَّه مَنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ».

والمقصُودُ عَدَمُ الخرُوجِ من غمَارِ المُسْلِمِينَ لا عَدَمُ الأمرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهي عَنِ المُنكَرِ، وَفِي البُخَارِيِّ[(٦)] ومُسْلِم[(٧)] وَغَيرِهِمَا عَن مُعَاوِيَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمرِ اللهِ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خذَلَهُمْ، ولاَ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ».

---

(١) (ص ١٦٥).

(٢) فِي «الجَامِعِ» (٢٠٩٣) وضعَّفهُ الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «تَحقِيقِ المُشكَاةِ» (١٧٣).

(٣) فِي «السُّنَنِ» (٣٩٥٠).

(٤) (٨٠) قال الشيخ الألبانِي: «إسنادُه ضعيفٌ: سليمانُ بنُ سفيانَ؛ وهُو أبُو سفيانَ المدنِي مولَى آل طلحةَ بنِ عبيدِ الله ضعيفٌ كمَا فِي التَّقريبِ، ونحوه المسيّبُ بنُ واضحٍ فإنَّه سيءُ الحِفظِ لكنَّه قد تُوبعَ كمَا يأتِي».

(٥) في المخطوط: «أنيس».

(٦) (برقم: ٣٦٤١).

(٧) (برقم: ١٠٣٧).

وَعَنْ عَبدِ الله بنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالْمُفَارِقُ لِدِينِهِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ» متَّفقٌ عَلَيْهِ[(١)].

وَعَنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[(٢)] وَغَيْرُهُ.

وَفِي حَدِيثِ[(٣)] أُسَامَةَ بنِ زَيدٍ مِنْ حَدِيثِ جُنْدَبَ بْنَ عَبْدِ الله الْبَجَلِيِّ أن رسُولَ الله ﷺ قَالَ: «كَيفَ تَصْنعُ بِلَا إله إِلَّا اللهُ إذا جَاءَتْ يومَ القِيَامَةِ» قَالَهُ ﷺ مِرَارًا. رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»[(٤)].

والخَوارِجُ وَإِنْ صَدَّقُوا بِشَيْءٍ مِمَّا ذَكرنَا فإنَّهُم لا يَجْعلُونهُ إِلَّا لَهُم، وَعَلَيْهِم، إذ هُم يحجُرُونَ الوَاسِعَ عَلَيْهِم.

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ، وأَبِي مُوسَى فِي أَسْمَاءِ الصَّحابَةِ مِنْ طَرِيقِ عبَّادِ بنِ عَبْدِ الصَّمَدِ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو سَلْمَى رَاعِي رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ سَمِعْتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَآمَنَ بِالْبَعْثِ، وَالحِسَابِ دَخَلَ الجَنَّةَ».

قُلْتُ: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ؟ فَأَدْخَلَ إِصْبَعيهِ فِي أُذُنَيْهِ وَقَالَ: سَمِعْتُ هَذَا مِنْهُ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلا مَرَّتَيْنِ وَلا ثَلاثَ وَلا أَرْبَعَ.

---

(١) البُخارِي (٦٨٧٨)، ومُسلِم (١٦٧٦).

(٢) (برقم: ٦٨٦٢).

(٣) فِي المخطُوطِ تكرار: «حديث».

(٤) (٩٧).

وقَدْ ذكَرنَا حَدِيثَ أَبِي سَعِيدٍ وأنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنهما الَّذِي عِندَ أَبِي دَاودَ[(١)] أنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: «سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي اخْتِلاَفٌ وَفُرْقَةٌ، قَوْمٌ يُحْسِنُونَ الْقِيلَ، وَيُسِيئُونَ الْفِعْلَ، وَيَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لاَ يَرْجِعُونَ حَتَّى يَرْتَدَّ السَّهْمَ عَلَى فُوقِهِ، هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ، طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ وَقَتَلُوهُ، يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ الله، وَلَيْسُوا مِنْهُ فِي شَيْءٍ، مَنْ قَاتَلَهُمْ كَانَ أَوْلَى بِالله مِنْهُمْ. قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، مَا سِيمَاهُمْ؟ قَالَ: «التَّحْلِيقُ».

وفِي «الصَّحِيحَينِ»[(٢)] عَنْ عليٍّ رضي الله عنه قَالَ سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقول: «سَيَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، حدَاثُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ، لاَ يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ، كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ».

وَقَد مَرَّ طَرَفٌ مِنْهُ، وَرَوَاهُ الإمَامُ أحمَدُ[(٣)]، وابنُهُ عَبْدُ الله مِنْ طَرِيقِه فِي كِتَابِ السُّنَّةِ[(٤)] بِهَذَا اللَّفْظِ، وَنَحوه[(٥)] مِن طُرقٍ مُتَعددةٍ بلَفْظِ: «سَيَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ»، وَفِي بَعْضِ أَلفَاظِهِ: «يكُونُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ...» الحَدِيثَ.

وكلُّهَا مَرْفُوعَةٌ بأَسَانِيدَ صِحَاح لا مَطْعَنَ فِيهَا، وَفِي جُمْلَتِهَا: قِتَالهُم حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ.

فقَدْ أَخْبرَ ﷺ أنَهُمْ بِأفعَالِهِمْ يُخَالفُونَ أَقْوَالَهُم بِحَيثُ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَلَمْ يَأمرْ ﷺ بالخُروجِ عَلَى أمَّتِهِ بالسَّيفِ مَع مَا فِيهم بَل نَهَى عَنْهُ أَشَدَّ النَّهْي.

---

(١) فِي «السُّنَنِ» (٤٧٦٥) وصحَّحه الشَّيخُ الألبَانِي فِي «صَحيحِ الجَامعِ» (١٤٤٥).

(٢) البُخارِي (٦٩٣٠)، ومُسلِم (١٠٥٥).

(٣) فِي «المُسندِ» (١/ ٨١).

(٤) (١٤٨٦).

(٥) فِي «السُّنةِ» (١٤٨٧).

وَعِندَهُ[(١)] من قَوْلِ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الآخِرَةِ، عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا الفِتنُ وَالزَّلازِلُ والْقَتْلُ».

وَعِندَ مُسْلِمٍ[(٢)] عَنْ حُذَيفَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهَدي، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ».

قَالَ حُذَيْفَةُ: قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ الله، إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ الْأَمِيرَ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»

والخَوَارِجُ لا تَرْضَى بِذَلِكَ، فَانْظُرْ كَيفَ وَصَفَهُم رسُولُ الله ﷺ بِمَا وصَفَهُم بِهِ، ثمَّ أمَرَ بالسَّمعِ والطَّاعَةِ لَهُم حَذرًا عَلَى الأمَّةِ مِنَ الفِتْنَةِ فضْلاً عَن أن يأمَرَ بالخرُوجِ عَليهم، وبقتَالِهِم، بَل نَهاهُ بصرِيحِ القَولِ، وَحَضُّه عَلَى الجَمَاعَةِ والسَّمعِ والطَّاعَةِ، مع ما يَرَى مِنَ الاختلَالِ والاحتيَالِ، والفظَاعَةِ وعدَمِ الاعْتدَالِ والإطَاعَةِ.

وَهَذَا مِنْهُ ﷺ يدلُّ أنَّ هَذَا فِي مَعْنَى قوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾، وقَولِهِ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ ﴾ الآية، ولئلَّا يكُونُوا مِنَ الَّذينَ قَالَ اللهُ فِيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾.

وفِي «صَحِيحِ مُسْلِم»[(٣)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبِيةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبِيةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عصبَةً، فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي، يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ».

---

(١) فِي «المُسْنَدِ» (٤/ ٤١٠) وصحَّحه الشَّيخُ الألبَانِي فِي «الصَّحيحةِ» (٩٥٩).

(٢) (برقم: ١٨٤٧).

(٣) (برقم: ١٨٤٨).



وَرَوَاهُ بِطُولِهِ الحَافِظُ مُحَمَّدُ بنُ طَاهرِ بنِ عَلِيٍّ المَقْدِسِي فِي كِتَابِ «الحجَّةِ عَلَى تَارِكِ المَحَجَّةِ»، أَوْرَدَهُ عِندَ قَولِهِ فِي الخَوَارِجِ.

وَأَبْرَأُ مِنْ رَأيِ الخَوَارِجِ إنَّهُمْ أَرَاقُوا دِمَاءَ المُسْلِمِينَ كَمَا اشتَهَرْ

وقال عَبْدُ الله بنُ الإمَامِ أَحْمَدَ[1]: حَدَّثَنِي أَبِي، ثَنَا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي زَائِدَةَ، عَنْ عَاصِمٍ الْأَحْوَلِ، عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: بَعَثَنِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللهُ إِلَى الْخَوَارِجِ أُكَلِّمُهُمْ، فَقُلْتُ لَهُمْ: هَلْ تَدْرُونَ مَا عَلَامَتُكُمْ فِي وَلِيِّكُمُ الَّتِي إِذَا لَقِيَكُمْ بِهَا آمَنَكُم بِهَا، وَكَانَ بِهَا وَلِيَّكُمْ؟

وَمَا عَلَامَتُكُمْ فِي عَدُوِّكُمُ الَّتِي إِذَا لَقِيَكُمْ بِهَا خَافَ بِهَا عِنْدَكُمْ، وَكَانَ بِهَا عَدُوَّكُمْ؟

قَالُوا: «مَا نَدْرِي مَا تَقُولُ»؟!

قُلْتُ: «فَإِنَّ عَلَامَتَكُمْ عِنْدَ وَلِيِّكُمُ الَّتِي إِذَا لَقِيَكُمْ بِهَا آمَنَ بِهَا عِنْدَكُمْ، وَكَانَ بِهَا وَلِيَّكُمْ أَنْ يَقُولَ: «أَنَا نَصْرَانِيٌّ أَوْ يَهُودِيٌّ أَوْ مَجُوسِيٌّ»، وَعَلَامَتُكُمْ عِنْدَ عَدُوِّكُمُ الَّتِي إِذَا لَقِيَكُمْ بِهَا خَافَ بِهَا عِنْدَكُمْ، وَكَانَ بِهَا عَدُوَّكُمْ أَنْ يَقُولَ: «أَنَا مُسْلِمٌ» !

قالَ[2]: حَدَّثَنِي أَبِي، ثَنَا رَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ، حَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ عُثْمَانُ الشَّحَّامُ، ثَنَا مُسْلِمُ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ وَسَأَلْتُهُ: هَلْ سَمِعْتَ فِي الْخَوَارِجِ، شَيْئًا؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ وَالِدِي أَبَا بَكْرَةَ، يَقُولُ: عَنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ: «أَلَا إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ أَشِدَّاءُ أَحِدَّاءُ، ذَلِيقَةٌ أَلْسِنَتُهُمْ بِالْقُرْآنِ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، أَلَا فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ، ثُمَّ إِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَأَمِيتوهُمْ[3] فَالْمَأْجُورُ قَاتِلُهُمْ»

---

(١) فِي «السُّنَّةِ» (١٥٠٢) ورجَالهُ ثقاتٌ.

(٢) فِي «السُّنَّةِ» (١٥٢١) قالَ الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «ظلالِ الجنَّةِ» (ص ٤٤٣): «إسنادُه صَحِيحٌ على شَرْطِ مُسْلِمٍ».

(٣) فِي «السُّنَّةِ»: «فَأَنِيمُوهُمْ».

وَقَالَ[(١)]: حَدَّثَنِي أَبِي، ثَنَا عفَّانُ، ثَنَا جُوَيْرِيَةُ بْنُ أَسْمَاءَ، قَالَ: زَعَمَ نَافِعٌ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ ﷺ كَانَ «يَرَى قِتَالَ الحَوَارِجِ[(٢)] حَقًّا وَاجِبًا»

وفِي حَدِيثِ عليٍّ ﷺ المَرْفُوع عِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ: قتالهُم وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ[(٣)].

قالَ عَبدُ الله بنُ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(٤)]: حَدَّثَنِي أَبِي[(٥)]، قال: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، ثَنَا مَعْمَرٌ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا غَالِبٍ، يَقُولُ: لَمَّا أُتِيَ بِرُؤوسِ الْأَزَارِقَةِ فَنُصِبَتْ عَلَى دَرَجِ دِمَشْق جَاءَ أَبو أُمَامَةَ فلَمَّا رَآهُمْ دَمَعَتْ عَيْنَهُ وقَالَ: «كِلَابُ النَّارِ. كِلَابُ النَّارِ. كِلَابُ النَّارِ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - هَؤُلَاءِ شَرُّ قَتْلَى قُتِلُوا تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، وَخَيْرُ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ هَؤُلَاءِ».

قُلْتُ: مَا شَأْنُكَ دَمَعَتْ عَيْنُكَ؟ قَالَ: رَحْمَةً لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ.

قُلْتُ: أَبِرَأْيِكَ قُلْتَ: هُمْ كِلَابُ النَّارِ أَوْ بشَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي إذن لَجَرِيءٌ. بَلْ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلَا مَرَّتَيْنِ وَلَا ثَلَاثًا.

قَالَ: ثُمَّ تَلا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ حتَّى بَلَغَ: ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الحَدِيثَ إِلَى آخِرِهِ

وَرَوَاهُ[(٦)] مِن طَرِيقٍ آخر، وَقَالَ فِي آخرِهِ: فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَرَأَيْتُكَ دَمَعَتْ عَيْنَاكَ؟

---

(١) فِي «السُّنَّةِ» (١٥٢٧) وسندُه حسنٌ؛ جُويريةُ حَسنُ الحَدِيثِ.

(٢) فِي «السُّنَّةِ»: «الحَرُورِيَّة».

(٣) تقدَّم.

(٤) فِي «السُّنَّةِ» (١٦٤٣).

(٥) فِي «المُسنَدِ» (٥/ ٢٥٣).

وقال الهيثميُّ فِي «المَجمَع» (٦/ ٢٣٤): «رَوَاهُ ابنُ مَاجَه، وَالتِّرْمِذِيُّ [٣٠٠٠] بِاختِصَارٍ. رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ» وأبو غَالِبٍ حسنُ الحديثِ.

(٦) فِي «السُّنَّةِ» (١٥٤٥) وسندُه حَسَنٌ؛ فيه عكرمةُ بنُ عمَّار: تَرجَمَ لهُ الحافظُ ابنُ حجرٍ فِي «التَّقريبِ» (ص ٦٨٧) بِقَوْلِهِ: «صَدُوقٌ يغلطُ، وفي روايتِه عن يَحيى بنِ أبي كثيرٍ اضطرابٌ، ولم يكُن لهُ كتابٌ».

فَقَالَ: رَحْمَةً رَحِمْتُهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ فَكَفَرُوا.

ثُمَّ رَوَاهُ[١] مِنْ طَرِيقٍ آخر، وَقَالَ فِي آخرِهِ، قَالَ: فَمَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاتَّخَذُوا دِينَهُمْ شِيَعًا.

وَقَدْ قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: «صَحَّ الحَدِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ عَشرَة وجُوهٍ: أنَّ الخَوَارِجَ كِلَابُ النَّارِ»[٢]؛ ذَكَرَهُ فِي «المُسْتوعِبِ».

وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»[٣] ثَنَا وَكِيعُ ثَنَا عُثْمَانُ أَبُو سَلَمَةَ الشَّحَّامُ، حَدَّثَنِي مُسْلِمُ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «سَيَخْرُجُ قَوْمٌ أَحِدَّاءُ أَشِدَّاءُ، ذَلِيقَةٌ أَلْسِنَتُهُمْ بِالْقُرْآنِ، يَقْرَؤُونَهُ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، فَأَنِيمُوهُمْ فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ قَاتِلُهُمْ».

---

(١) فِي «السُّنَّةِ» (١٥٤٦) وإسنادُه صَحِيحٌ.

(٢) نقلَهُ عنهُ محمدُ بنُ أحمدَ بنِ أبي مُوسَى الشَّريف فِي «الإرشَادِ» (ص٥١٨)، ونقلَ السامريُّ عن «الإرشَادِ» فِي «المُستوعِبِ» (٢/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤).

(٣) (٥/ ٣٦) قالَ الشَّيخُ الألبانيُّ فِي «ظلالِ الجنَّةِ» (ص ٤٤٣): «إسنادُه صَحيحٌ على شَرطِ مُسْلمٍ».

فَصْلٌ

فَإِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ وَعَلِمْتَ مَا هُنَالِكَ فَلَا يَلْتَبِسْ عَلَيْكَ أَمْرُهُمْ بِمُزخرفٍ مِنَ القَولِ، فإنَّهُ كَمْ مُرِيدٍ للخَيرِ لَمْ يُصِبْهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُم بِفِعْلِهِم قَدْ أثارُوا الفِتنةَ عَلَى المُسْلِمِينَ، وضيَّقُوا مَا وسَّعَ عَلَيْهِمْ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ كَمَا سَيأتِي مِنْ صِفَاتِهِمْ.

فَكَيْفَ والنُّصُوصُ قَاضِيةٌ بِضَلَالِهِمْ، وأقْوَالُ الأئمَّةِ مَاضِية بِإِضْلَالِهِمْ، وَمَا قَالَ مقَالتَهُم إلَّا من تحجَّرَ واسِعًا، وعَانَدَ النُّصُوصَ دَافِعًا.

أتَرَاهُم استخَانُوا رسُول الله ﷺ، فأفصَحُوا عَن ما كتَمَهُ بتسويلِهِم أمرًا استجهلُوهُ وصَحَابتهُ، فاتَّبعُوا غيرَ سَبيلِهِمْ، أَمْ كَفرُوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فأرَادُوا أن يتمُّوه بِمَا ابتدعُوه، بَل حَمَلَهُم عَلَى ذَلِكَ مَا سوَّلَ لَهُم الشَّيطانُ، وزَيَّن لَهُم من زخَارفِ البهتَانِ والهذيَانِ، فتحكمُوا عَلَى كتابِ الله وسُنَّةِ رسُولِهِ بتأويلَاتٍ لَمْ يَرِدْ بِهَا أثرٌ عن صَحَابِيٍّ مَضَى، وَلَا تابعيٍّ قفى، فَأَخرجُوا المُسْلِمِينَ منْ دَائِرةِ الإسلَامِ، وَلَمْ يَروا خَلفهُمْ صِحَّةَ الائتِمَامِ.

وَقَدْ قَالَ ﷺ كَمَا فِي «الصَّحِيحَينِ»[(١)] مِن حَدِيثِ خَادمِهِ أنسِ بنِ مَالكٍ ﷺ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ المَشْهُورِ، كَيفَ وَهُوَ فِي «الصَّحِيحَينِ» اللَّذينِ هُمَا عقدُ الإسْلَامِ، وقَاعِدَتَا الائتمَامِ: فَفيهِمَا عَنْهُ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيأْتُونَ آدمَ عليه السلام، فَيقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللهِ،

---

(١) البُخارِي (٤٧١٢)، ومُسلِم (١٩٤).

فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللهِ، وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى ﷺ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَسْتَأْذِنُ رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لاَ تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيقالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَه، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فيقالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَه، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيقالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ - أَوْ خَرْدَلَةٍ - مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ، فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَه، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فيقالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ.

ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَقُولُ الرَّب تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي، وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وفي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) أَيضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، وَقَالَ فِي آخِرِهِ فِي شَفَاعَةِ المُؤمنِينَ: «فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا

(١) البُخارِي (٨٠٦)، ومُسلِم (١٨٣).

كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا، فَيَقُولُ اللهُ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ، فَيقولُ: أَهْلُ الْجَنَّةِ؛ هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ الرَّحمنِ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: لَكُمْ مَا رأيتم ومثله معه».

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[١] عَنْ زَاذَانَ أَبِي عُمَرَ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ لُقِّنَ عِنْدَ الْمَوْتِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وَهَذَا الحَدِيثُ فِي حُكْمِ الْمَرْفُوعِ؛ لأَنَّهُ قَالَ فِيهِ: «حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ» فدلَّسَ فِي الصَّحَابِي، والتَّدلِيسُ فيهم لا يضرُّ؛ لأَنَّهُم كُلُّهُم عدولٌ ﷺ.

وزَاذَانُ وَإِنْ كَانَتْ عَادَتُهُ الإِرْسَالُ؛ فَهَذَا فِي حُكْمِ الْمَرْفُوعِ، وَهُوَ تابعِيٌّ بِلَا خِلَافٍ، وَهُوَ مِنْ رِجَال مُسْلِمٍ والسُّنَنِ، وَرَوَى لَهُ البُخَارِيُّ خَارِجَ الصَّحيحِ فِي الأدَبِ الْمُفْرَدِ.

وقَد مرَّ حَدِيثُ عُثْمَانَ بنِ عفَّانٍ ﷺ الَّذِي فِي «الصَّحِيحَينِ»[٢] أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَن لَا إِلَه إِلَّا اللهُ دَخلَ الجَنَّةَ».

وحَدِيثُ سُهَيْلِ ابْنِ بَيْضَاءَ مِنْ بَنِي عَبدِ الدَّارِ، وَهُوَ ابنُ وَهبٍ ﷺ، قَالَ: نَادَى رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، وَأَنَا رَدِيفُهُ: يَا سُهَيْلُ ابْنَ بَيْضَاءَ رَافِعًا بِهَا صَوْتَهُ مِرارًا، حَتَّى أَسمِعَ مَنْ خَلْفَنَا، وَأَمَامَنَا فَاجْتَمَعُوا، وَعَلِمُوا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتكَلَّمَ بِشَيْءٍ، فقَالَ: «إِنَّهُ مَنْ قال لاَ إِلَهَ إِلاَّ

---

(١) فِي «الْمُسندِ» (٣/ ٤٧٤).
قالَ الهَيثميُّ فِي «المَجْمَع» (٢/ ٣٢٢): «رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَفِيهِ عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ وَفِيهِ كَلَامٌ لِاخْتِلَاطِهِ» ورِوَايةُ حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ عَنهُ قبلَ اختلَاطِهِ.

(٢) أخرجه مُسلِمٌ (٢٨).

اللهُ أَوْجَبَ لَهُ بِهَا الجَنَّةَ، وَأَعْتَقَهُ بِهَا مِنَ النَّارِ» رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ[(١)].

وفِي رِوَايَةٍ للإِمَامِ أَحْمَدَ فِي هَذَا الحَدِيثِ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ... فَذَكَرَهُ.

وَحَدِيث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ الَّذِي رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ وَغَيْرُهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ نَفَعَتْهُ يَوْمًا مِنْ دَهْرِهِ يُصِيبُهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَا أَصَابَهُ»[(٢)].

وعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ[(٣)] - وَحسَّنهُ - والحَاكِمِ[(٤)] - وصحَّحهُ - عَنْ أَنسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمًا، أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ».

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(٥)] عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيَتَمَجَّدَنَّ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أُنَاسٍ لم يعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ، فَيُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا احْتَرَقُوا، فَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ بَعْدَ شَفَاعَةِ مَنْ يَشْفَعُ».

وَأَخرَجَ هنَّادُ بنُ السَّرِيِّ[(٦)] عَنْ مجاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ

---

(١) فِي «المُسندِ» (٣/ ٤٦٦). إسنادُهُ ضَعِيفٌ فيه انقطاعٌ بينَ محمَّدِ بنِ الحارثِ، وسهيلِ ابنِ بيضاءَ.

(٢) أخرجَهُ أبو نعيم فِي «الحلية» (٥/ ٤٦)، وابنُ حبَّان (٣٠٠٤) والبيهقيُّ فِي «الشعبِ» (٩٦).
قالَ الشيخُ الألبَانِيُّ فِي «الصَّحيحةِ» (٤/ ٥٦٦): «وهَذَا إسنادٌ صَحِيحٌ رجاله ثقاتٌ، رجالُ الشَّيخينِ غير عمرو بنِ خالدٍ المصريِّ وهُو ثقةٌ منْ شُيوخِ البُخَارِيِّ».

(٣) فِي «الجَامِعِ» (٢٥٩٤) وَقَالَ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ». وضعَّفه الشَّيخُ الألبَانِيُّ فِي «ضَعيفِ الجامعِ» (ص ٩٣٥)

(٤) فِي «المُسْتَدرَكِ» (١/ ٧٠).

(٥) فِي «المُسندِ» (٣/ ٤٦٦).
قالَ الهَيثميُّ فِي «المَجْمَعِ» (١٠/ ٣٨٤): «رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَفِيهِ صَالِحٌ مَوْلَى التَّوْأَمَةِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ».

(٦) فِي «الزُّهدِ» (١٥٥). سندُهُ حَسَنٌ: فيهِ خصيفُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ؛ تَرْجَمَ لهُ الحافظُ ابنُ حجرٍ فِي «التَّقريبِ» بِقَوْلِهِ: «صَدُوقٌ سَيِّءُ الحِفظِ خلطَ بأخرة وَرُمِيَ بالإِرْجَاءِ». وتابعَه عبدُ الكريمِ البصرِي وهُو ضعيفٌ أخرجَ روايتَهُ البيهقيُّ فِي «البعثِ والنشورِ» (٨٣)».

كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ قَالَ: «إِذَا خَرَجَ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وَقَدْ عدَّ السّيوطِيُّ حَدِيثَ: «مَنْ شَهِدَ أن لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ» مِنَ الأحَادِيثِ المُتَوَاتِرَةِ (١)، وَهُوَ عِندَ الشَّيْخينِ وَغَيرِهمَا.

---

(١) «قطفُ الأزهَارِ المُتنَاثرةِ» (ص ٣١).

فَصْلٌ

إذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ، وثَبتَ عِندكَ مَا مرَّ مِنَ الأحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي لَا مِرية فِيهَا؛ فَحِينَئِذٍ تَرَى الخَوارجَ كذَّبُوا اللهَ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾، وفِي قوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

وأنَّه أخرَجَ منَ النَّارِ مَن حتمَ عَليهم بالخُلُودِ فِيهَا أبدَ الآبدِينَ، وحرَّمَ عَلَيْهِم الجَنَّةَ، وأَدْخَلَهُم إيَّاهَا، فأَخْلَفَ خبَرَهَ ومِيعَادَهُ، وَقَد أخبَرَ أَنَّهُ لا يُخْلِفُ الميعَادَ، وَلَا يُخلِفُ وعدَهُ، بَل قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ سُبحَانَهُ وتَعَالَى لا يَدخُلُ خبَرهُ خُلفٌ، تعالى الله عَنْ ذَلِكَ عُلوًّا كَبِيرًا ،

أَمْ تَرَاهُم كذَّبُوا رَسُولَ الله مُحَمَّدًا ﷺ فِي هَذِهِ الأحَادِيثِ، أم أَصْحَابَهُ، أَمْ هُمُ الكَاذِبُونَ المُفْتَرُونَ الحَاكِمُونَ عَلَى الله بِآرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ؟! سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ.

فَصْلٌ

فَإِنْ قَالَتِ الخَوَارِجُ: أنتُم معَاشِر المُعَارِضِينَ لنَا تقرُّونَ وتشهدُونَ أنَّا نطلبُ الحَقَّ، ونقولُ بِهِ، ونَعدلُ عَنِ الشركِ - أَصْغَرِهِ وَأَكْبَرِهِ -، ونجَانبُ المَعَاصِي وأهلَهَا، ونُعَادِيهِم ونَمْقتُهُم عَلَيْهَا.

قِيلَ: نَعَمْ، والنَّبيُّ ﷺ كَذَلِكَ أخبرَ أَنَّكُم تقُولُونَ مِنْ خَيرِ قَولِ البريَّةِ، وأنَّ أصحَابَهُ يحقرُونَ صَلَاتَهُم مَع صَلَاتِكُم، وصيَامَهُم عِندَ صِيَامِكُم، وقرَاءتهم عِندَ قرَاءتِكُم، وَلَوْ وقفْتُم عَلَى ذَلِكَ فِي بابِ الأمرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهيِ عَنِ المُنكرِ، وَلَمْ يتَجَارَ بِكُم الهَوَى حتَّى تَعَدتْ بِكُم عَلَى الأمَّةِ منَ البَّابِ الوَاسعِ - بابِ الأمرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهي عن المُنكرِ - إِلَى بَابِ التَّكفِيرِ للأمَّةِ - الضَّيقِ - مَع إيقَاعِكُم السَّيفَ بِهِم؛ لكُنْتُم بِذَلِكَ مِنْ أَفلحِ الأمَّةِ وأعبدِهَا وَأَبعدِهَا عَنِ الشركِ والمعَاصِي.

ولكنَّكُم حجَّرتُم عَلَى الأمَّةِ البَّابَ الوَاسِعَ؛ فسفكْتُم دماءَهُم، ونهبْتُم بِذَلِكَ أموالَهُم، وحَكَمْتُم عليهم بحُكْمِ المُشركينَ وأعدَاءِ ربِّ العالِمينَ ورسُولهِ النبيِّ الأمين، فَلَمْ توَارثوهُم، ولمْ تناكحُوهُم، ولَم تُنازلُوهُم، ونُزِعَتْ مِنْ قلوبِكُم الرَّحمَةُ، وَقَد قَالَ أبو هُرَيْرَةَ ﷺ: سَمِعتُ أَبَا القَاسِمِ ﷺ يقول: «لَا تُنزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ» رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ[1]، والتِّرْمِذِيُّ[2].

وَنَحنُ لَا نَقُولُ: إِنَّ فعلَ المَعَاصِي جَائِزٌ، وَلَا إِنَّ أهلَهَا أوليَاءُ الله، بَلْ نَمْقتهُم عَليهَا، وَنَمَقتُ أيضًا أنفسَنَا عَلَى تقصِيرِنَا، ونرى الأمرَ بالمعرُوفِ والنَّهيَ عَنِ المُنكرِ مِنْ أَفضَلِ الأعمَالِ كَمَا وَصَفْنَا عَنْ عُلمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى، وأَنَّهُ وَاجبٌ عَلَيْنَا حسبَ مَا ذَكَرْنَا.

---

(١) فِي «المُسندِ» (٢/ ٣٠١).

(٢) فِي «الجَامِعِ» (١٩٢٣) وحسَّنه الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «صَحيحِ الجَامعِ» (٧٤٦٧).

وأنَّ أهْلَ الفُجُورِ أعْدَاءُ الله تَعَالَى بِفجُورِهِم، وَلَكِن لا نُخْرِجُهُم بِذَلِكَ من دائرةِ الإِسْلَامِ، وَلَا نؤَيِّسُهُمْ مِنْ رَحْمَةِ الرَّحْمَنِ، وَنخَافُ عَلينَا وَعَلَيْهِم من غَضبِهِ وعقَابِهِ، ومنْ عقُوبَةِ القُلُوبِ؛ لأنَّهُ سُبحَانَهُ يَحُولُ بَيْنَ المَرءِ وَقَلْبِهِ؛ لأنَّ المَعَاصِي تُبَاعِدُ ما بَينَ العَبدِ وَبَينَ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا.

فالصِّرَاطُ المُستَقِيمُ والدِّينُ القَوِيمُ: أنْ يَكُونَ العَبدُ بَينَ الخَوفِ والرَّجَاءِ؛ حَيثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ وَقَالَ: ﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ وَقَالَ: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾.

فلَا نَسْلُكُ مَسْلَكَ الخَوارِجِ، وَلَا مَسْلَكَ المُرجئةِ، بل الوَسَطَ بَيْنَهُمَا؛ وَهُوَ الصِّراطُ المُسْتقِيمُ فنرجُو مَع الطَّاعَةِ، ونخَافُ مَع المَعْصيةِ؛ كَمَا قَالَ الشَّابُ المُحْتَضِرُ الَّذِي حَدِيثُه فِي السُّننِ[(١)] لَمَّا دخَلَ عَلَيْهِ النبي ﷺ، فَقَالَ لَهُ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» قَالَ: أَرْجُو اللهَ يَا رَسُولَ الله، وَأَخَافُ ذُنُوبِي.

فَلَا نكُون كَالمُرجئَةِ، ونجعلُ المُتقِينَ كُالفجَّارِ، وَلَا كالخَوارِجِ، فَنُؤَيِّسُ فُسَّاقَ الأمَّةِ وَعُصَاتَهَا مِن رَحْمَةِ مَنْ وَسَعتْ رَحْمَتهُ كُلَّ شَيءٍ، فَنُحَجِّرُ وَاسِعًا.

ومَنْ أطلقَ الشَّارعُ كفرَهُ مِنَ الأمَّةِ لَمْ يُتعدَّ فِيهِ مَا قالَهُ علمَاءُ السَّلفِ كَمَا هُوَ معلومٌ فِي موَاضعِهِ.

ولا نكفِّرُ مِنْهَا مُعيَّنًا فِي دَائرةِ بِلَادِ الإسلَامِ، وَقد فَعلَ أو قَالَ ما يُوجِبُ الكُفرَ إلَّا بعدَ البيَانِ والتَّوضِيحِ بأنْ يتضحَ لَهُ أنَّ مَا يقولُهُ أو يفعلُهُ مُضَادٌّ لشهادَتِي الإخلَاصِ إلَّا بِمَا كَانَ معْلُومًا بالاضطرَارِ مضادته لهُمَا؛ كَسَبِّ الله تَعَالَى، أو استهزاءٍ بِهِ، أو بآيَاتِهِ، أو رُسلِهِ، أو

---

(١) أخرجَهُ التِّرمذيُّ فِي «الجَامِع» (٢٦٢٧)، والنَّسائيُّ فِي «الكبرى» (١١٠١٢)، وابنُ مَاجه (٤٢٦١) قالَ الشَّيخُ الألبانِيُ فِي «الصَّحيحةِ» (١٠٥١): «وهذَا سندٌ حسنٌ».

كُتبِهِ، فإنَّ فَاعِلَ شَيءٍ مِنْ ذَلِكَ يَكْفُرُ إِجْمَاعًا، سَوَاء كَانَ مَازِحًا أو جَادًا.

وَقَدْ جَزَمَ أَبُو الوَفَاءُ ابنُ عَقِيلٍ؛ بأَنَّ مَنْ وُجِدَ مِنْهُ امتهَانُ القُرآنِ، أو خفض مِنْهُ، أو طَلَبَ تناقضَهُ، أو دَعوَى أَنَّهُ مُختلفٌ، أو مقدورٌ عَلَى مثلِه، أو إسقَاطُ حُرمتِهِ، كُلُّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى كفرِهِ؛ فيقتلُ بعدَ الاستتَابَةِ.

وقالَ غَيرُه منَ الأصحَابِ: فَلَا يَكُونُ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ فِي دَائرَةِ بلادِ الإسلَام الظَّاهِر فِيهَا شعَائِرُه إِلَّا مُرتدًا بعدَمَا ذكرْنَا منَ البيَانِ والاستتَابةِ لمنْ يُعذرُ بجهلِهِ، لما يقولُه أو يفعلُه مُضَادًا لِشَهَادتِي الإخلَاصِ، وَلهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وَقَالَ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

فإِذَا تبيَّنَ لَهُ أن ما يفعلُهُ مضادٌ لأصلِ الإيمَانِ؛ استتَابَهُ الإمَامُ أو نائبُهُ، فإنْ تاب وإلَّا قُتِلَ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ ممَّا لا يُمكنُ خفاءُهُ، أو ممَّا لَيستْ فِيهِ استتابةٌ عندنَا؛ كَسَبِّ الرَّسُولِ ﷺ، وكالسِّحر عَلَى صَحيحِ المَذْهبِ، فإنَّهُ لا يُستَتَابُ صَاحِبُهُ ذَلِكَ فِي الحُكْمِ، وأمَّا عِندَ الله تَعَالَى فبابُ التَّوبةِ مفتوحٌ للعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ، أو تَطْلُعِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَلَا تَغْتَرَّ بمَنْ زَخْرَفَ القَوْلَ غرُورًا.

وَكَذَلِكَ عِندَ أَبِي دَاودَ[١]، وابنِ مَاجَه[٢] بِسَنَدٍ رجاله ثِقَات عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَعَفُّ النَّاسِ قِتْلَةً أَهْلُ الإِيمَانِ» لِمَا جَعَلَ اللهُ فِي قُلوبِهم منَ الرَّحمَةِ والشَّفقَةِ، بِخِلَافِ القَاسِيةِ قُلوبهم كالخَوَارِجِ.

وعندَ أَبِي يعلَى المَوصِلِي[٣] عَنْ حُذَيفَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ مَّا أَتخَوَّفُ

---

(١) فِي «السُّنَنِ» (٢٦٦٦).

(٢) فِي «السُّنَنِ» (٢٦٨١) وضعَّفه الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «الضَّعيفةِ» (١٢٣٢).

(٣) فِي «مُسندِهِ» - كما فِي «المطَالبِ العَاليةِ» (٧/ ٦١٠) - ومن طريقِه: ابنُ حبَّان (٨١). وحسَّنه الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «الصَّحيحةِ» (٣٢٠١).

عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى إِذَا رُئِيَتْ بَهْجَتُهُ عَلَيْهِ، انْسَلَخَ مِنْهُ وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ، وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ»، قَالَ: فقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّهُمَا أَوْلَى بِالشِّرْكِ، الْمَرْمِيُّ أَمِ الرَّامِي؟ قَالَ: «بَلِ الرَّامِي».

وفِي «شُعبِ الإِيمَانِ»[(١)] للبَيْهَقِي عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلَّ مُنَافِقٍ يَتَكَلَّمُ بِالْحِكْمَةِ، وَيَعْمَلُ بِالْجَوْرِ» وَرَوَاهُ غَيْرُهُ بِمَعْنَاهُ.

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(٢)] فِي «مُسْنَدِهِ» عَنْ أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَرْبَعًا فَأَعْطَانِي ثَلاثًا وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لاَ يَجْمَعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلاَلَةٍ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لاَ يُهْلِكَهُمْ بِالسِّنِينَ كَمَا أَهْلَكَ الأُمَمَ قَبْلَهُمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لاَ يَلْبِسَهُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِيهَا».

وفِي حَدِيثِ عبدِ الله بنِ سَلامٍ رضي الله عنه الَّذِي رَوَاهُ عَنْهُ حُمَيْدُ بْنُ هِلالٍ أَنَّهُ قَالَ أَيَّامَ حُصِرَ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ: «مَا هَلَكَتْ أُمَّةٌ قَطُّ حَتَّى يَرْفَعُوا الْقُرْآنَ عَلَى السُّلْطَانِ»[(٣)] يعنِي: يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَيْهِ، فيَرَوْنَ الْخُرُوجَ بِهِ عَلَى الْوُلاةِ[(٤)].

---

(١) (١٧٧٧) صحَّحه الشَّيخُ الألبانيُ في «الصَّحيحةِ» (١٠١٣).

(٢) فِي «مُسنَدِهِ» (٦/ ٣٩٦) وصحَّحه الشَّيخُ الألبانيُ في «الصَّحيحةِ» (١٩٥٧).

(٣) أخرجه الخلَّالُ فِي «السُّنةِ» (٧١١)، وعمرُ بنُ شبةَ فِي «تاريخِ المَدينةِ» (٤/ ١١٧٦)، وابنُ رَاهوَيه كمَا فِي «المَطَالبِ العَاليةِ» (١٨/ ٥٧) من طَرِيقِ سُلَيمَانَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلَالٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ، عنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ... به.
قالَ البُوصيريُّ فِي «إتحافِ الخيرةِ المهرةِ» (٨/ ١١): «رَوَاهُ إِسْحَاقُ، وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ».

(٤) نقلَهُ المصنفُ مِن «غَريبِ الحَديثِ» للخَطَّابِي (٢/ ٣٧٧). وانظر: «النهاية» لابنِ الأثيرِ (٤/ ١٦٥٧ ط الخراط).

وَعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ(١) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ يَذْكُرُ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةُ الْمُضِلُّونَ».

فَينبغِي للإنسَانِ ألا يغترَّ بالدَّعوى حتَّى يرَى ما العَمَلُ، فَلَا يُقنِّطُ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ الله تَعَالَى، وَلَا يُسَهِّلُ لَهُم فِي انتهَاكِ مَحَارِمِ الله؛ فَعَنْ عَلِيٍّ ﷺ مَرْفُوعًا: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِالْفَقِيهِ كُلَّ الْفَقِيهِ؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَلَمْ يُؤَيِّسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَلَا يَدع الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى مَا سِوَاهُ، أَلَا لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَفَقُّهٌ، وَلَا عِلْمٍ لَيْسَ فِيهِ تَفَهُّمٌ، وَلَا قِرَاءَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَدَبُّرٌ» رَوَاهُ ابنُ عَبدِ البَرِّ(٢) وَغَيْرُهُ.

وَقَالَ ابنُ عَبدِ البَرِّ: «لَا يَأْتِي هَذَا الْحَدِيثُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَأَكْثَرُهُمْ يُوقِفُونَهُ عَلَى عَلِيٍّ ﷺ».

قُلْتُ: هُوَ بِالموقُوفِ أَشبَه.

وذكرَ البُخَارِيُّ(٣) فِي صَحِيحِهِ عَنِ العَلَاءِ بْنِ زِيَادٍ، وَكَانَ يُذَكِّرُ النَّاسَ، فَقَالَ رَجُلٌ: لِمَ تُقَنِّطِ النَّاسَ؟ قَالَ: وَأَنَا أَقْدِرُ أَنْ أُقَنِّطَ النَّاسَ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ وَيَقُولُ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وَلَكِنَّكُمْ تُحِبُّونَ أَنْ تُبَشَّرُوا بِالْجَنَّةِ عَلَى مَسَاوِئِ أَعْمَالِكُمْ، وَإِنَّمَا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ مُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَهُ، وَمُنْذِرًا بِالنَّارِ مَنْ عَصَاهُ.

وَهَٰذَا عِندَ مُسْلِمٍ(٤) عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا».

---

(١) فِي «مُسندِهِ» (١/ ٤٢) وصحَّحه الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «الصَّحيحةِ» (١٥٨٢).

(٢) فِي «جَامعِ بيانِ العِلمِ» (٢/ ٨١١) قالَ الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «الضَّعيفةِ» (١٥٨٢): «منكرٌ».

(٣) (٦/ ١٢٢).

(٤) (برقم: ١٤٧٨).

وَقَدْ قَالَ مَكْحُولٌ: مَنْ عَبَدَ اللهَ بِالْخَوْفِ فَهُوَ حَرُورِيٌّ، أي خَارِجِيٌّ؛ لأنَّ الخَوارِجَ يَعْتقدُونَ إنفَاذَ الوعِيدِ، وَيُقَنِّطُونَ الأمَّةَ مِنْ رَحْمَةِ الله تَعَالَى.

قَالَ: وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ فَهُوَ مُرْجِئٌ؛ لأنَّ الْمُرْجِئَةَ يَرَوْنَ أنَّ الْمُؤمِنَ لَا تضرُّهُ الْمَعْصِيةُ.

وَمَنْ عَبَدَهُ بالمَحَبَّةِ فَهُوَ زِنْدِيقٌ؛ لأنَّهم لا يُثبتُونَ بَينَ الخَالقِ والمَخْلُوقِ مُناسبةً للعبَادَةِ، وَلَا متفقَ لذَّةِ إيمَانٍ حتَّى يعبدَهُ العبْدُ لهَا، وإنَّما هُوَ عِندَهُم عبدٌ وسيِّدٌ وكَامِلٌ ونَاقِصٌ وَمُقدَّسٌ وذَوا آفاتٍ، فَلَيسَ عِندَهُم إلَّا المَحَبَّةُ فقَطْ.

والمُوَحِّدُ مَنْ عَبَدَهُ بالخَوفِ والرَّجَاءِ والمَحبَّةِ، وبِذَلكَ يَخْرُجُ العَبْدُ مِنَ البدعِ.

فالخَوَارِجُ هُمْ أَقْدَمُ الخَلْقِ عَلَى تَكْفِيرِ الأمَّةِ، وَلهَذَا عَابَ العُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ عَلَى مَن تجسّر عَلَى شَيءٍ منَ الإقْدَامِ عَلَى التَّكْفِيرِ.

قَالَ الحَافِظُ ابنُ الجَوْزِيِّ فِي «السِّر المَصُونِ» - وَمَعْنَاهُ لشَيخِهِ أَبِي الوَفَاءِ ابنِ عَقِيلٍ: «رَأَيت جَمَاعَةً منَ الْعُلَمَاءِ أَقْدَمُوا على تَكْفِيرِ الْمُتَأَوِّلِينَ من أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْطَعَ بِالْكُفْرِ على من خَالَفَ إجْمَاعَ الْأُمَّةِ، ولم يَحْتَمِلْ حَالُهُ تَأْوِيلًا وَلَا جَهَالَةً».

قَالَ: «وَأَقْبَحُ حَالًا من هَؤُلَاءِ الْمُكَفِّرِينَ؛ قَوْمٌ من الْمُتَكَلِّمِينَ كَفَّرُوا عَوَامَّ الْمُسْلِمِينَ، وَزَعَمُوا أَنَّ من لَا يَعْرِفُ الْعَقِيدَةَ بِأَدِلَّتِهَا الْمُحَرَّرَةِ؛ فَهُوَ كَافِرٌ، وَهَذَا مُخَالَفَةٌ لِلشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ، فَإِنَّهَا حَكَمَتْ بِإِسْلَامِ أَجْلَافِ الْعَرَبِ الْجُهَّالِ بِمُجَرَّدِ الشَّهادَتَينِ»[١].

وَقَد حَكَى غَيْرُهُ - كَالنَّووِيِّ -؛ أنَّ هَذَا القَوْلَ للمُعْتزلَةِ أخذتْهُ عَنِ الخَوارِجِ، وَهُوَ كَمَا قَالَ.

وَعِندَ عَبْدِ اللهِ بنِ الإمَامِ أَحْمَدَ فِي «السُّنَّةِ»[٢] بِسَنَدِهِ عَنِ الشَّعْبِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: «أَرْجِئِ الْأُمُورَ

---

(١) نقلَهُ عَنْهُ ابنُ مُفلحٍ فِي «الفرُوعِ» (١١/ ٣٣٨).

(٢) فِي «السُّنَّةِ» (١٣٠٦) وإسنادُهُ ضعيفٌ؛ لجهالَةِ مَن حدَّثَ يحيى بنَ أيُّوبَ.

إِلَى اللهِ، وَلَا تَكُنْ مُرْجِئًا، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَا تَكُنْ حَرُورِيًّا - يعني: خارجيًّا -، وَاعْلَمْ: أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ مِنَ اللهِ، وَلَا تَكُنْ قَدَرِيًّا، وَأَثْبِتْ صَلَاحَ بَنِي هَاشِمٍ وَلَا تَكُنْ رَافِضِيًّا».

وَعِنْدَ ابنُ أبِي الدُّنيا[(١)] عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: «ذِرْوَةُ الْإِيمَانِ أَرْبَعٌ: الصَّبْرُ لِلْحُكْمِ، وَالرِّضَا بِالْقَدَرِ، وَالْإِخْلَاصُ بِالتَّوَكُّلِ، وَالِاسْتِسْلَامُ لِلرَّبِّ تَبَارَكَ وتَعَالَى».

وَعِنْدَ ابنِ أَبِي الدُّنيا وَغَيْرِهِ مِنْ أَهلِ السُّنَنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ يَعُودُهُ، فَقَالَ لَهُ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» قَالَ: أَرْجُو اللهَ، وَأَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ»[(٢)].

قال شيخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عِنْدَ هَذَا الحَدِيثِ: «وَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ، وَهُنَا مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ حَالُ الْخَوْفِ أَوْقَعَهُ فِي نَوْعٍ مِنَ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ، إِمَّا فِي نَفْسِهِ وَإِمَّا فِي أُمُورِ النَّاسِ، وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ حَالَ الرَّجَاءِ بِلَا خَوْفٍ أَوْقَعَهُ فِي نَوْعٍ مِنَ الْأَمْنِ لِمَكْرِ اللهِ، إِمَّا فِي نَفْسِهِ وَإِمَّا فِي النَّاسِ»[(٣)].

قَالَ: «وَلَكِنِ الرَّجَاءِ بِحَسَبِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى الَّتِي سَبَقَتْ غَضَبَهُ يَنبَغِي تَرْجِيحُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الحَدِيثِ القُدسِي الصَّحِيحِ الصَّرِيحِ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي خَيْرًا»[(٤)]. وَأَمَّا الْخَوْفُ فَيَكُونُ بِالنَّظَرِ إِلَى تَفْرِيطِ الْعَبْدِ وَتَعَدِّيهِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى عَدْلٌ لَا يَأْخُذُ

---

(١) في «الرِّضَا عن الله بقضائه» (ص ٥٨) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ.
قَالَ الشَّيْخُ الألبانِيّ رَحِمَهُ اللهُ في «الضعيفة» (٨/ ٢٥٨): «وهذا إسنادٌ جيّدٌ؛ رجاله ثقاتٌ، وبقيةُ قد صَرَّحَ بالتحديث».

(٢) تقدَّم تخريجُه.

(٣) من كلام الإمام أحمد؛ كما في " غذاء الألباب "؛ للسفاريني (١ / ٤٦٢).

(٤) أخرجَهُ البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومُسْلِمٌ (٢٦٧٥).

إلَّا بِالذَّنْبِ»[١].

وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ، وعِنْدَ الإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ عَنِ الأَعْرَابِيِّ الَّذِي سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ»[٢].

وَهَذَا عِنْدَ ابنِ أَبِي الدُّنْيَا[٣] عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قِيلَ لَهُ: إِنَّ هَاهُنَا رَجُلًا قَدْ خُولِطَ، وَلَمْ يَكُنْ بِحَالِهِ بَأْسٌ، فَظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ أَذْنَبَ ذَنْبًا يَرَى فِي نَفْسِهِ أَنَّ ذَلِكَ الذَّنْبَ لَا يُغْفَرُ، فَقَامَ عَلِيٌّ رضي الله عنه، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: اسْمَعْ مَا أَقُولُ لَكَ: إِنَّ الَّذِي أَدْرَكَ مِنْكَ عَدُوُّكَ تَقْنِيطُكَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَنْبِكَ الَّذِي أَذْنَبْتَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: هَاهُوَ ذَا، فَأَفَاقَ.

فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَلَّا يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَا يَيْأَسَ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وليَعْلَمَ أَنَّ رَبَّهُ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ، فَلَا يُحَجِّرُ مَا وَسَّعَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِذَلِكَ، ولَمْ يُمَلِّكْ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ رَحْمَتَهُ ومَغْفِرَتَهُ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ بَلْ يَنْظُرُ الإنسانُ إلى سِيرَةِ نَبِيِّهِ ﷺ فِي أُمَّتِهِ.

فعِنْدَ ابنِ مَاجَه[٤] فِي «سُنَنِهِ» عنِ ابنِ عَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ السُّلَمِيِّ، رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَا لأُمَّتِهِ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ بِالمَغْفِرَةِ، فَأُجِيبَ: أَنْ قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، مَا خَلَا المَظَالِمَ، فَإِنِّي آخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنْهُ، قَالَ: أَيْ رَبِّ إِنْ شِئْتَ أَعْطَيْتَ المَظْلُومَ مِنَ الجَنَّةِ، وَغَفَرْتَ لِلظَّالِمِ، فَلَمْ يُجَبْ عَشِيَّتَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ بِالمُزْدَلِفَةِ، أَعَادَ الدُّعَاءَ، فَأُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ، قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ

---

(١) نقلَهُ عنْهُ تلميذُه ابنُ مُفلحٍ في «الفروعِ» (٣/ ٢٥٩)، وهُوَ في «المُستدركِ» (١/ ١٤٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (٣٤١)، وأحمدُ (٤ / ٣٣٨) وحسَّنه الشيخُ الألبانيُّ في «صحيحِ الأدبِ المفردِ».

(٣) في «حُسنِ الظَّنِّ باللهِ» (٩٥) وصالحٌ المريُّ ضعيفٌ.

(٤) في «السُّنَنِ» (٣٠١٣) وضعَّفَهُ الشيخُ الألبانيُّ في «ضَعيفِ التَّرغيب والتَّرهِيبِ» (٢/ ٣٦٨).

ﷺ، أَوْ قَالَ: تَبَسَّمَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنَّ هَذِهِ لَسَاعَةٌ مَا كُنْتَ تَضْحَكُ فِيهَا، فَمَا الَّذِي أَضْحَكَكَ؟ أَضْحَكَ اللهُ سِنَّكَ، قَالَ: إِنَّ عَدُوَّ اللهِ إِبْلِيسَ، لَمَّا عَلِمَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدِ اسْتَجَابَ دُعَائِي، وَغَفَرَ لِأُمَّتِي، أَخَذَ التُّرَابَ، فَجَعَلَ يَحْثُوهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَيَدْعُو بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ، فَأَضْحَكَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ جَزَعِهِ».

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ بِنَحْوِهِ فِي كِتَابِ «الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ».

وَعِنْدَ مُسْلِمٍ فِي «صَحِيحِهِ»(١) عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه، قَالَ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلِّي، فَقَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ قِرَاءَةً سِوَى قَرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ دَخَلْنَا جَمِيعًا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا قَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، وَدَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَرَآ، فَحَسَّنَ النَّبِيُّ ﷺ شَأْنَهُمَا، فَسَقَطَ فِي نَفْسِي مِنَ التَّكْذِيبِ، وَلَا إِذْ كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَدْ غَشِيَنِي، ضَرَبَنِي فِي صَدْرِي، فَفِضْتُ عَرَقًا، وَكَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرَقًا، فَقَالَ لِي: «يَا أُبَيُّ إِنَّ اللهَ أَرْسَلَ إِلَيَّ أَنِ اقْرَأِ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، وَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنِيهَا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ، حَتَّى إِبْرَاهِيمُ عليه السلام».

والخَوَارِجُ لَا تَسْمَحُ بِذَلِكَ، وَإِنْ سَمَحَتْ بِالقَولِ، فَفِعْلُهَا فِي الأُمَّةِ يُكَذِّبُ قَوْلَهَا، فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا تقدَّمَ أَنَّهُم يَقُولُونَ مِنْ خَيرِ قَولِ البَرِيَّةِ، وَلَكِن أَخْبَرَ أَنَّ هَذَا القَولَ لَا يُجَاوِزُ حنَاجِرَهُم بِحَيْثُ لا يَصِلُ إِلَى قُلُوبِهِمْ، وَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ، بَل يَرْجِعُ فَعْلُهُم إِلَى قَتْلِ الأُمَّةِ، وتَكفيرِهِمْ ونَهْبِ أَموالِهِمْ، واستحلَالِ دمَائِهِم وأموالِهِم، ويَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ شَهِدَ شهَادتِي الحَقِّ بالكُفرِ، والخُلُودِ فِي النَّارِ.

وَقَدْ قَالَ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»(٢) مِنْ حَدِيثِ الصُّنَابِحِيِّ عَن عبادَةَ بنِ

(١) (برقم: ٨٢٠).

(٢) (برقم: ٢٩).

الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ» لَمْ يَزِدْ. يَعْنِي: عَلَى هَذَا اللَّفْظِ.

وَهُمْ يُكَفِّرُونَ الأُمَّةَ عَلَى الخَطَأِ الَّذِي يَقَعُ مِنْهَا، وَقَدْ رُفِعَ عَنْهَا، وَكَذَلِكَ هِيَ مَعْذُورَةٌ بِالجَهْلِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فَهِيَ مَعْذُورَةٌ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهَا أَنَّ مَا تَفْعَلُهُ يُخَالِفُ أَمْرَ فَاطِرِهَا، وَيُضَادُّ أَصْلَ الإِيمَانِ؛ وَهُوَ الشَّهَادَتَانِ اللَّتَانِ بَعَثَ اللهُ بِهِمَا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا الرَّسُولَ الأَمِينَ ﷺ.

وَهَذَا لَمْ يُكَفِّرِ الَّذِي وَصَّى بَنِيهِ أَنْ يُحَرِّقُوهُ وَيَذْرُوهُ فِي البَحْرِ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ اللهَ لَا يَقْدِرُ عَلَى بَعْثِهِ إِذَا فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، وَقَدْ سُقْنَا القِصَّةَ، وَأَوْضَحْنَاهُ فِي «شَرْحِ التَّوْحِيدِ» فَلْيُنْظَرْ هُنَاكَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ مُكَذِّبٌ بِالبَعْثِ، أَوْ بِقُدْرَةِ اللهِ، وَقَدْ عَذَرَهُ اللهُ تَعَالَى، وَحَدِيثُهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] وَغَيْرِهِمَا ثَابِتٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى بَعْدَ بَعْثِهِ وَسُؤَالِهِ عَنْ سَبَبِ فِعْلِهِ أَدْخَلَهُ جَنَّتَهُ.

وَهَذَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ﷺ سَيِّدُ القُرَّاءِ يَقُولُ فِي هَذَا الحَدِيثِ: «فَسَقَطَ فِي نَفْسِي مِنَ التَّكْذِيبِ، وَلَا إِذْ كُنْتُ فِي الجَاهِلِيَّةِ»، وَلَمْ يَكْفُرْ بِذَلِكَ، وَلَا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّكَ خَرَجْتَ مِنَ الإِسْلَامِ، وَكُنْتَ بِذَلِكَ مُرْتَدًّا.

وَلَعَلَّ الخَوَارِجَ يَقُولُونَ: إِنَّكُمْ بِكَلَامِكُمْ هَذَا تُجِيزُونَ الكُفْرَ وَالمَعَاصِيَ وَتَرْضَوْنَ بِذَلِكَ، وَلَا تُفَرِّقُونَ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ، وَلَا بَيْنَ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ وَمَا عَلَيْهِ المُشْرِكُونَ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ، فَأَنْتُمْ بِذَلِكَ كُفَّارٌ أَيْضًا! فَيُرَوِّجُونَ عَلَى السَّامِعِ بِقَوْلِهِمْ هَذَا.

فَنَقُولُ: كَلَّا، وَلَكِنْ لَسْنَا كَأَنْتُمْ، بَلْ نَحْنُ نُخَطِّئُ، وَنَنْصَحُ، وَلَا نُكَفِّرُ، وَأَنْتُمْ تُعَيِّرُونَ وَتَفْضَحُونَ، وَلِأَهْلِ القِبْلَةِ تُكَفِّرُونَ، وَلَا تَقْبَلُونَ مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَتَيْنِ إِلَّا مَا تَرْضَوْنَ، فَقَبُولُ الشَّهَادَتَيْنِ، وَصِحَّتُهُمَا عِنْدَكُمْ مَوْقُوفٌ عَلَى رِضَاكُمْ، وَغَوْرُ رِضَاكُمْ بِالهَوَى بَعِيدٌ قَعْرُهُ لَا يُدْرَكُ، وَلَيْسَ لَهُ جِهَةٌ عِنْدَ أَهْلِ العُقُولِ تُسْلَكُ؛ إِذْ عَيْنُ الهَوَى فِي الهُدَى عَمْيَاءُ، فَالخَوَارِجُ

---

(١) البخاري (٣٤٧٨)، ومسلم (٢٧٥٧).

يَقُولُونَ ما لا يفعَلُونَ، ويفعلُونَ مَا لا يؤمرُونَ.

وَهَذَا فِي البُخَارِيِّ[(١)] عن مُصعبِ بنِ سَعدِ بن أبِي وقَّاصٍ ﷺ قَالَ: سألتُ أبِي، يعني عَن قولِه تَعالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾: أهُمُ الحَرُورِيَّةُ؟ قَالَ: لا هُمُ اليَهُودُ وَالنَّصارَى، أمَّا اليَهُودُ فكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ، وَأمَّا النَّصارَى كَذَّبُوا بِالجَنَّةِ قَالُوا: لاَ طَعَامَ فِيهَا وَلاَ شَرَابَ، وَالحَرُورِيَّةُ - يعني الخَوارِجَ - هُمُ ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وَكَانَ سَعْدٌ ﷺ يُسَمِّيهِمُ الفَاسِقِينَ.

وَعِندَ مُسْلِمٍ[(٢)] عَن زَيدِ بنِ وهبٍ أنَّهُ كَانَ فِي الجَيشِ الَّذِي كَانُوا مَعَ عَلِيٍّ ﷺ، فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ أيُّها النَّاسُ إنِّي سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ».

لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ، مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ، لَاتَّكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ، وَلَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ، عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ، عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ.

فَتَذْهَبُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ وَتَتْرُكُونَ هَؤُلَاءِ يَخْلُفُونَكُمْ فِي ذَرَارِيِّكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَاللهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ، وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ النَّاسِ، فَسِيرُوا.

قَالَ سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ: فَنَزَّلَنِي زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ مَنْزِلًا، حَتَّى قَالَ: مَرَرْنَا عَلَى قَنْطَرَةٍ، فَلَمَّا

---

(١) (برقم: ٤٧٢٨).

(٢) (برقم: ١٠٦٦).

الْتَقَيْنَا وَعَلَى الْخَوَارِجِ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ الرَّاسِبِيُّ، فَقَالَ لَهُمْ: أَلْقُوا الرِّمَاحَ، وَسُلُّوا سُيُوفَكُمْ مِنْ جُفُونِهَا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَاشِدُوكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَرُورَاءَ، فَرَجَعُوا فَوَحَّشُوا بِرِمَاحِهِمْ، وَسَلُّوا السُّيُوفَ، وَشَجَرَهُمُ النَّاسُ بِرِمَاحِهِمْ.

قَالَ: وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَمَا أُصِيبَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إِلَّا رَجُلَانِ، فَقَالَ عَلِيٌّ: الْتَمِسُوا فِيهِمُ الْمُخْدَجَ، فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَقَامَ عَلِيٌّ بِنَفْسِهِ حَتَّى أَتَى نَاسًا قَدْ قُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فقَالَ: أَخِّرُوهُمْ، فَوَجَدُوهُ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ، فَكَبَّرَ، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللهُ، وَبَلَّغَ رَسُولُهُ.

قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ عَبِيدَةُ السَّلْمَانِيُّ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اللهَّ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَسَمِعْتَ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: إِي، والَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، حَتَّى اسْتَحْلَفَهُ ثَلَاثًا، وَهُوَ يَحْلِفُ لَهُ.

ففِي قَولِهِ ﷺ: «يَخْرُجُ قَومٌ مِن أُمَّتِي» دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ كُفْرِهِمْ وخرُوجِهِم مِن دائرَةِ الإسلَامِ، حيثُ أضَافَهُم إِلَى نَفسِهِ، وَهَذَا أَبْلَغُ منْ قَولِهِ ﷺ: «وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسِبعِينَ فِرْقَة... » الحَدِيثَ.

وأنَّ أهلَ السُّنةِ والجَمَاعَةِ لا يُخرِجُونَهم بِهَذَا اللَّفظِ مِنْ دَائرَةِ الإسلَامِ، وأنَّ الخَوارِجَ مِنْ هَذهِ الفِرَقِ.

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»(١) أيضًا عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ؛ أَنَّ الْحَرُورِيَّةَ لَمَّا خَرَجَتْ، عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ معَه، فقَالُوا: لَا حُكْمَ إِلَّا للهِ، قَالَ عَلِيٌّ: كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ، وإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَصَفَ نَاسًا، إِنِّي لَأَعْرِفُ صِفَتَهُمْ فِي هَؤُلَاءِ، «يَقُولُونَ الْحَقَّ بِأَلْسِنَتِهِمْ لَا يَجُوزُ هَذَا، مِنْهُمْ، - وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ - مِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى إِلَيْهِ...» الحَدِيثَ.

---

(١) (برقم: ١٠٦٦/ ١٥٧).

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ بِأَنَّ مَن اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَهُوَ مِنْهُم؛ لأنَّهم لا يُعرَفُونَ إلا بِهَا، فمتى كَانَ قَومٌ بِهَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي قَالَ عَلِيٌّ ﷺ عَن الرَّسُولِ ﷺ.

فهم خَوَارِج يُعطونَ حُكمَهُم؛ لأنَّهُ ثبتَ أنَّهم لا يزالُونَ يَخرجُونَ إلى يومِ القيامة كما في حَدِيثِ شَرِيكِ بنِ شِهَابٍ عن أبي بَرزَةَ ﷺ في سُؤالِه إيَّاه عَن الخوارِجِ، وذِكرِه الرَّجلَ الَّذي قَالَ يَا مُحمَّدُ مَا عَدَلتَ فِي القِسْمَةِ، وقَولِ النبي ﷺ: «واللهِ لا تَجِدُونَ رَجُلًا بَعدِي هُوَ أعدَلُ مِنِّي».

ثمَّ قَالَ: «يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَومٌ كَأَنَّ هَذَا مِنْهُم، يَقرَؤُونَ القُرآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسلامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، سِيمَاهُمُ التَّحْلِيقُ، لا يَزالُونَ يَخْرُجُونَ حَتَّى يَخْرُجَ آخِرُهُم مَعَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُم فَاقْتُلُوهُم، هُم شَرُّ الخَلْقِ وَالخَلِيقَةِ» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ[(١)] بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَقَد تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ «الصَّحِيحَينِ» أنَّه قَالَ ﷺ حِينَ قَالَ لَهُ ذُو الخُوَيصِرَةِ التَّمِيمِيُّ مَا قَالَ: «يَخرُجُ مِن ضِئْضِئِ هَذَا قَومٌ...» الحديث، يقول: يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِ هَذَا، أو جِنْسِ هَذَا.

قَالَ السُّهَيلِيُّ[(٢)]: «وَكَانَ كَمَا قَالَ ﷺ».

قَالَ: «وَظَهَرَ صِدْقُ الحَدِيثِ فِي الخَوَارِجِ، وَكَانَ أَوَّلُهُم مِنْ ضِئْضِئِ ذَلِكَ الرَّجُلِ، أي: مِنْ أَصْلِهِ».

قَالَ: وَكَانُوا مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ: «وَفِيهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيطَانِ»[(٣)] فَكَانَ بَدْؤُهُم مِن ذِي الخُوَيصِرَةِ». انتهى كلامُ السُّهَيلِيِّ[(٤)].

---

(١) في «المجتبى» (٦/ ٥٥٢) وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ١٣٣٨).

(٢) في «الرَّوض الأُنُف» (٧/ ٣٦١).

(٣) أخرجه البخاريُّ (١٠٣٧)، ومسلمٌ (٢٩٠٥).

(٤) «الرَّوض الأُنُف» (٧/ ٣٦٢).

فَإِذَا ثبتَ أَنَّهُم لا يزَالُونَ يخرجُونَ حتَّى يخْرُجَ آخرُهُم مَع المَسيحِ الدَّجالِ؛ يعني: مَع وَقتِ خرُوجِهِ، لا أَنَّهُم يجَامعُونَهُ؛ لأنَّ أتباعَهُ كفَّارٌ، فَقَدْ ثبتَ فِي الصَّحِيحِ أنَّ خِلَافَةَ هَذِهِ الأمَّةِ لا تَزَالُ قَائمَةً فِيهِم يقاتلُونَ عليهَا بالحَقِّ الظَّاهِرِ عَدُوَّهُم؛ كَمَا عِندَ مُسْلِمٍ فِي صَحيحِهِ[(١)] عَنْ جَابرِ بنِ عَبدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»، قَالَ: «فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ مكرمَة الله لهَذِهِ الأُمَّةِ».

وَعندَ البُخَارِيِّ[(٢)] ومُسْلِمٍ[(٣)] منْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ؟»

ومَنْ قَالَ: إن خِلَافَةَ المُسْلِمِينَ قَدِ انقطَعتْ، فَلَا سُلطَانَ لَهُم تَجِبُ طاعتُه والاجتماعُ عَلَيْهِ؛ لزِمَهُ تكذِيبُ الرَّسُولِ ﷺ فِيمَا أخبرَ، فإنَّ الأخبَارَ لا يتعرضهَا نسخٌ، وَقَدْ أَخبرَنَا أنَّ خِلَافَةَ هَذِهِ الأُمَّةِ وإِمَامتِهَا قَائِمةٌ تجاهدُ عليهَا من أنكرَ رِسَالتَهَا، وعاندَهَا فِي أمرِ رَبِّهَا تَبَاركَ وتَعَالَى، فهي تُجَاهدُه عَلَى ذَلِكَ برها وفاجِرهَا هَذَا فِي زمَانِ الأمَّةِ المَرْحُومةِ.

وأمَّا أماكنُهَا فإنَّهُ ﷺ فضَّلَ بعضَهَا عَلَى بعضٍ، وَهُوَ لا ينطقُ عَنِ الهَوَى، وأخبرَ بتَمكنِ الإِيمَانِ فِي بعضِهَا دُوَن بعضٍ، وَورُوزه إِليهِ؛ فعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(٤)]، والبُخَارِيِّ[(٥)]، وَمُسْلِمٍ[(٦)] فِي صَحيحيهِمَا عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى المَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا».

---

(١) (برقم: ١٥٦).

(٢) (برقم: ٣٤٤٩).

(٣) (برقم: ١٥٥).

(٤) فِي «مسندِه» (٢/ ٢٨٦).

(٥) (برقم: ١٨٧٦).

(٦) (برقم: ١٤٧).

وَعِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ فِي الأَوْسَطِ(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ مَرْفُوعًا: «الْمَدِينَةُ قُبَّةُ الإِسْلَامِ، وَدَارُ الإِيمَانِ، وَأَرْضُ الهِجْرَةِ، وَمُبَوَّأُ الحَلَالِ وَالحَرَامِ».

وأحاديثُ النَّبِيِّ ﷺ للمدينةِ متواترةٌ، وكذا تحريمه لها وشفاعته لِمَنْ صَبَرَ عَلَى لأْوائِها، ولِمَنْ مَاتَ بِهَا.

وَفِي مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَدَ(٢) عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَخَافَ الْمَدِينَةَ، فَقَدْ أَخَافَ مَا بَيْنَ جَنْبَيَّ».

وَهُوَ عِنْدَ ابن حبَّان(٣) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عن جابر مَرْفُوعًا: «مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَخَافَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ».

وعِنْدَ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ(٤) عن جَابِرٍ ﷺ مَرْفُوعًا «مَنْ سَمَّى الْمَدِينَةَ يَثْرِبَ، فَلْيَسْتَغْفِرِ اللهَ تَعَالَى، هِيَ طَابَةُ هِيَ طَابَةُ».

وفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٥) عنْ سَعدِ بنِ أبِي وقاص ﷺ قَالَ سمعت النبي ﷺ يقول: «لاَ يَكِيدُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَحَدٌ، إِلَّا انْمَاعَ كَمَا يَنْمَاعُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ» هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ.

---

(١) (٥٦١٨).
وقال: «لا يُرْوَى هَذَا الحَدِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا بِهَذَا الإِسْنَادِ، تَفَرَّدَ بِهِ: قَالُونُ» وضعفه الشَّيخ الألبانيُّ في «الضَّعيفة» (٧٦١).

(٢) في «مسنده» (٣/ ٣٥٤) قال الشَّيخ الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٥/ ٣٨٤): «ورجاله رجال الشَّيخين غير أنَّ زيدًا هذا لم يسمع من جابر كما قال ابنُ مَعِين» وصحَّحهُ بمجموعِ طرقِهِ.

(٣) في «صحيحه» (٣٧٣٨) وصحَّحهُ الشَّيخ الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٢٣٠٤).

(٤) في «مسنده» (٤/ ٢٨٥) وضعَّفه الشَّيخ الألبانيُّ في «الضَّعيفة» (٤٦٠٧).

(٥) البخاري (١٨٧٧)، ومسلم (١٣٨٧).

وهو عِندَ مُسْلِم [(١)] بِمَعْنَاهُ، ولفظُهُ بعدَ تَحْرِيمِ النبيِّ ﷺ ما بَينَ لَابتي المَدِينَةِ قَالَ: «وَلَا يُرِيدُ أَحَدٌ أَهْلَ المْدِينَةِ بِسُوءٍ إِلَّا أَذَابَهُ اللهُ فِي النَّارِ ذَوْبَ الرَّصَاصِ، أَوْ ذَوْبَ المِلْحِ فِي الماءِ».

وهُو فِي أفرَادِ مُسْلِم [(٢)] منْ حَدِيثِ سَعْدٍ أيضًا وأبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما أنَّهُ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لأَهْلِ المْدِينَةِ فِي مُدِّهِمْ» وَفِيهِ: «مَنْ أَرَادَ أَهْلَهَا بِسُوءٍ، أَذَابَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي الماءِ».

والأحَادِيثُ فِي هَذَا المَعْنَى كَثِيرَةٌ شَهِيرَةٌ، وَهَذَا يُؤْذِنُ بِقِيَامِ الدِّينِ فِيهَا إِلَى أنْ يَمْنَعَ اللهُ أهْلَهَا بالمَلَائِكَةِ مِنَ الدَّجالِ.

وفي «الصَّحِيحَينِ» [(٣)] عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «عَلَى أَنْقَابِ المَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ لاَ يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ، وَلاَ الدَّجَّالُ».

وَفِيهِمَا [(٤)] عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ، إِلَّا مَكَّةَ، وَالمَدِينَةَ، لَيْسَ نَقْبٌ مِنْ أنقابِهَا، إِلَّا عَلَيْهِ المَلَائِكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا، فَينزِلُ بسِبخِهِ فتَرْجُفُ المَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، فَيخرجُ إليهِ كُلُّ فَاجِرٍ وَمُنَافِقٍ».

وَيَكفِي فِي هَذَا المَعَنى منَ الحَديثِ الصَّحيحِ الشَّاهِدُ، فلَو اسْتقصَيْنَا لأكثَرنَا.

وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ [(٥)] وحسَّنَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «آخِرُ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى الإِسْلَامِ خَرَابًا المَدِينَةُ».

---

(١) (برقم: ١٣٦٣).

(٢) (برقم: ١٣٨٧).

(٣) البخاري (١٨٨٠)، ومسلم (١٣٧٩).

(٤) البخاري (١٨٨١)، ومسلم (٢٩٤٣).

(٥) في «الجامع» (٣٩١٩) وضعَّفه الشَّيخ الألبانيُّ في «الضَّعيفة» (١٣٠٠).

والخَوارجُ لا تُصيخ بِهَا فِي ضِمنِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ، وأنَّها من قُرى الإسلَام، بَلْ هِيَ أفضلُهَا وأعزُّها وأكرمُهَا وأطيبُهَا ما خلَا البيتِ الحَرام، وأهلُهَا لَهُم الحقوقُ الوَافِرَةُ؛ لمُجاورَتِهم لَهُ ﷺ؛ لأنَّ حُرمتَه ميتًا كحُرمتِهِ حيًّا، وَلهَذَا ثبتَ عَنْهُ ﷺ أنه يشفع لمن صبر عَلَى لأوائِهَا، ولِمَنْ مَاتَ بِهَا، وقولُه حَقٌّ، وَوَعدُهُ صِدقٌ ﷺ؛ فإنَّهُ لا ينطقُ عَنِ الهَوَى.

وَقَالَ ﷺ فِي حديث أبي هُرَيْرَةَ الَّذي فِي «الصَّحِيحَينِ»[(١)]: «رَأسُ الكُفْرِ نَحْوَ المَشْرِقِ، وَالفَخْرُ وَالخُيَلاءُ فِي أَهْلِ الخَيْلِ وَالإِبلِ، وَالفَدَّادِينَ أَهْلِ الوَبَرِ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الغَنَمِ».

وَعِندَ مُسْلمٍ[(٢)] عَن جَابرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «غِلَظَةُ القُلُوبِ، وَالجَفَاءُ فِي أهلِ المَشْرِقِ، وَالإِيمَانُ فِي أَهْلِ الحِجَازِ».

وَقَالَ ﷺ فِي حَدِيث ابنِ عمَرَ ﷺ الَّذِي فِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ[(٣)]: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَفِي نَجْدِنَا؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا» وَفِي نَجْدِنَا؟ «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَفِي نَجْدِنَا؟ فَأَظُنُّهُ قَالَ فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ: «هُنَاكَ الزَّلَازِلُ وَالفِتَنُ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ».

وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ[(٤)] عِن عِمرَانَ بنِ حُصينٍ ﷺ قَالَ: مَاتَ النبيُّ ﷺ وَهُوَ يَكْرَهُ ثَلاثَةَ أَحْيَاءٍ: ثَقِيفًا، وَبَنِي حَنِيفَةَ، وَبَنِي أُمَيَّةَ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ المُتَّفقِ عَلَيْهِ[(٥)] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ اليَمَنِ، هُمْ

---

(١) البخاري (٣٣٠١)، ومسلم (٥٢).

(٢) (برقم: ٥٣).

(٣) (برقم: ٧٠٩٤).

(٤) فِي «الجامِع» (٣٩٤٣) وضعَّفه الشَّيخ الألبانيُّ فِي «ضعيفِ سُننِ الترمذيِّ» (ص ٥٢٢).

(٥) البخاري (٤٣٨٨)، ومسلم (٥٢).

أَرَقُّ أَفْئِدَةً، وَأَلْيَنُ قُلُوبًا، الإِيمَانُ يَمَانٍ وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، وَالفَخْرُ وَالخُيَلاءُ فِي أَصْحَابِ الإِبِلِ، وَالسَّكِينَةُ وَالوَقَارُ فِي أَهْلِ الغَنَمِ».

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ (١)، والتِّرْمِذِيِّ فِي جَامِعِه (٢) عن زَيدِ بنِ ثَابتٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «طُوبَى لِلشَّامِ»، قُلْنَا: لأيِّ شَيءٍ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «لأَنَّ مَلائِكَةَ الرَّحمَنِ بَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهَا».

وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ (٣) عن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَتَخْرُجُ نَارٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ، أَوْ مِنْ نحو بحرِ حَضْرَمَوْتَ تَحْشُرُ النَّاسَ»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَقَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ».

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ (٤)، وأَبِي دَاودَ (٥) عنِ ابْنِ حَوَالَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَيَصِيرُ الأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً، جُنْدٌ بِالشَّامِ، وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ، وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ» قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ: خِرْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ، فَقَالَ: «عَلَيْكَ بِالشَّامِ، فَإِنَّهَا خِيرَةُ اللهِ مِنْ أَرْضِهِ، يَجْتَبِي إِلَيْهَا خِيرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ، فَأَمَّا إِنْ أَبَيْتُمْ، فَعَلَيْكُمْ بِيَمَنِكُمْ، وَاسْقُوا مِنْ غُدُرِكُمْ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ توكل لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ».

وَفِي لفظٍ عِندَ الطَّبَرَانِيِّ (٦) عن واثِلَةَ: « وَلْيَسْتَقِ من غُدَرِهِ».

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا إِلَّا أَنَّ اللهَ سبحَانَهُ وصَفَهَا بأنَّها أرضٌ مُبَارَكَةٌ، والأرضُ المُبارَكَةُ لا

---

(١) «المسند» (٥/ ١٨٥).

(٢) «الجامع» (٣٩٥٤) وَصحَّحهُ الشَّيخ الألبانِيُّ فِي «الصَّحيحة» (٥٠٣).

(٣) فِي «الجَامِعِ» (٢٢١٧) وَصحَّحهُ الشَّيخ الألبانِيُّ فِي «صَحيحِ الجامعِ» (١/ ٦٧٥).

(٤) فِي «المُسْنَدِ» (٤/ ١١٠).

(٥) فِي «السُّنَنِ» (٢٤٨٣) وَصحَّحهُ الشَّيخ الألبانِيُّ فِي «صَحيحِ الجامعِ» (١/ ٦٨٢).

(٦) فِي «الكَبيرِ» (١٨/ ٢٥١).

تخرجُ إلَّا طيبًا فِي الجُملَةِ، والخبيثُ يكُونَ فِيهَا نادرًا، والأرضُ الخبيثةُ بالعَكسِ؛ كَمَا مثَّلَ اللهُ بِذَلِكَ فِي كتَابِهِ العَزِيزِ بقَولِهِ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾.

ولا أظنُّ الخوَارجَ يوقنُونَ بِهَذِهِ الأشياءِ، بل يَسْعَوْنَ هَا بالتَّأويلاتِ الباطِلَةِ، كَمَا سَعَوا للأمَّةِ بالتَّأويلاتِ المُكفِّرَاتِ، مَع أنَّا لا نقُولُ: إنَّ الأمَّةَ معصُومةٌ منَ المَعَاصِي، ولَا أنَّه لا يكُونُ فِيهَا منْ يعملُ عمَلًا، أو يقُولُ قوْلاً يستوجِبُ بِهِ الكفرَ، والارتدادَ عنِ الإسْلَامِ، بلْ نقولُ ذَلِكَ يُوجَدُ فِي الأمَّةِ، وَلَا زَالَتِ الأمَّةُ، والعُلَماءُ يَسْعَونَ فِي حَسْمِ مَوَادِ ذَلِكَ بالمَوَاعِظِ وإقَامَةِ الحدُودِ الَّتِي رتَّبهَا أَهْلُ العِلْمِ عَلَى ما تَضمَّنهُ الكِتَابُ والسُّنةُ وإجمَاعُ الأمَّةِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الأمرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهيِ عَنِ المُنكرِ، فبيَّنوا الحُدودَ، والمُوجب هَا، ولَمْ يزالُوا يقيمُونَهَا ويَدينُونَ بالطَّاعَةِ لسلطَانِهِم.

فإذَا فَهِمْتَ ما ذكَرْنَا وَوَصَفْنَا وَحَقَّقنَا، فَتَسمَّعْ لأَخْبَارِهِمْ فِي الأمَّةِ، وتسيارهم، ممَّا ستقفُ عَلَيْهِ من كتابِنَا هَذَا فتَجِدْ مَا ذَكَرْنَا لَكَ فِيهِم، وتابعيهم عَلَى دينهم حقًّا، فَاحْذَرْ طَرِيقًا حَذَّرَ مِنْهُ النَّبيُّ ﷺ، وقبَّحَ فِعْلَ أهلِهِ.

وفِي «الصَّحِيحَينِ»[1] من حَدِيثِ سَهلِ بنِ حنيفٍ ﷺ فِي حَدِيثِ الخوارِجِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّهُ قَالَ: «يَأْتِي قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ المَشْرِقِ مُحلَّقَةٌ رُؤوسُهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ».

(١) البخاري (٧٥٦٢)، ومسلم (١٠٦٨) بنَحوِه.



فَصْلٌ

إذَا ثبتَ هَذَا فأنتَ ترَى الخوارجَ كَمَا سيتقرر عندكَ مِن أخبَارِهِم، وبيان ديارِهِم فِي كتَابِنَا هَذَا أنّه لَمْ يُوجدْ خرُوجُهم إلّا منَ المَشرقِ وجوانبِه، فلَمْ يكُنْ لَهُم أصلُ خرُوجٍ إلّا مِنَ العرَاقِ واليَمامةِ وحضرموت إلَى عُمانَ إلَى هَجَرٍ والقطيفِ، وَمَا حولَ هَذِهِ الأعمالِ، حتَّى القرَامطةُ الَّذِينَ قلعُوا الحجرَ الأسودَ، ونقلُوه إليهم ليحجَّ الناسُ إليهم، إنَّمَا خرُوجُهم منَ القَطيفِ، وإليهِ نقلُوا الحَجَرَ الأسودَ.

وأمَّا الشَّام واليمنُ والحرَمَانِ الشَّريفَانِ؛ فإنَّهُم لَمْ يأتُوا شيئًا منْ ذَلِكَ إلا عارضًا باستيلَائِهِم عَلَى أهلِهِ؛ إمَّا منْ جهةِ حَضْرَمَوت، وإمَّا مِن جهةِ اليَمامَةِ، أو مِنْ صرَايب خَوارِجِ العِرَاقِ.

وبالعَادَةِ: أنَّ مقامَهُم لا يطولُ بالحرمينِ خصُوصًا المَدِينَةَ المُنوَّرَة كَمَا وقعَ لأبِي حَمْزَةَ، وأضرابِهِ وأشكَالِهِ، وَقَد قَالَ ﷺ عَنِ المَدِينَةِ: «المَدِينَةُ كَالكِيرِ، تَنْفِي خَبَثَهَا، وَيَنْصَعُ طِيبُهَا»[١].

فَهِيَ لا تقبلُ إلَّا الطيبَ، وَلَا تخرجُ بإذْنِ ربِّهَا إلَّا الطيبَ، والخَبِيثُ نادِرٌ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ فَالغَالبُ عَلَيهَا بنصِّ الرَّسُولِ ﷺ كَمَا تقدَّمتِ الإشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ: الطَّيبِ، وأنَّ الإيمَانَ يأرزُ إليهَا كَمَا تأرزُ الحيَّة إِلَى جُحرِهَا، وَذَلِكَ لِطيبِهَا؛ فعِندَ الإمَامِ أَحْمَدَ[٢]، والبُخَارِيِّ[٣]،

(١) أخرجه البخاريُّ (١٨٨٣)، ومسلمٌ (١٣٨٣).

(٢) في «المسند» (٢/ ٢٣٦).

(٣) (برقم: ١١٩٥).

وَمُسْلِم[(١)]، وابنِ مَاجَه عن عبدِ الله بنِ زَيدٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ما بَينَ بيتِي ومنبرِي روضةٌ من رِياضِ الجنَّةِ».

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(٢)] بِسَندٍ صَحِيحٍ رجاله رجال «الصَّحِيحَينِ» عن أم سلمة رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَوَائِمُ مِنبَرِي رَوَاتِبُ فِي الجَنَّةِ» وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ[(٣)]، وابنُ حبَّانَ[(٤)]، ولفظُهُ: «قَوَائِم منبَرِي».

وَهُوَ عِندَ الطبرانِيِّ في الكَبِيرِ[(٥)]، والحَاكِم[(٦)] وَقَالَ: صَحِيحُ الإِسْنَادِ عَنْ أَبِي واقِدٍ.

وَيكْفِيكَ أنَّ مِنْ أَسْمَائِهَا طيبَة.

وبِهذَا صرَّحَ العُلَمَاءُ رحمهم الله تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ سَبُّ حصَاهَا، وَلَا تَرابِهَا، فكيف بلدِ هَذِهِ حالها، وَهَذَا قولُ رسُولِ ربِّ العالمِينَ محمَّدٍ ﷺ فِيهَا، يُحكَمُ عليها بخلوِّهَا منَ الإِسلامِ والمُسْلِمِينَ؟! وسيأتِي كلامُ أبي حمزةَ الخَارِجِي عَلَى منبرِ المَدينةِ، وقولُه لَهُم، وقصدُ نجدة صَاحبِ اليَمامة لها حتَّى صدَّهُ اللهُ تَعَالَى عنهَا.

وهَلْ هَذَا إِلَّا قولٌ مبتدعٌ، ومذهبٌ مخترعٌ، وَكَذَلِكَ سائرُ بلادِ الأمَّةِ الظَّاهرُ فِيهَا شعائرُ الإِسلَامِ، والنُّطقُ بشهَادتِي الإِيمَانِ والدُّعاء لهُمَا.

وإِنْ كَانَ قَدْ يوجدُ فِي تلكَ الثُّغورِ منْ شربِ الخُمُورِ، وعظائمِ الأمورِ ما يوجدُ، فإنَّ الأمَّةَ لا يزالُ الفسوقُ والفجُورُ فِيهَا يوجدُ، ولَو لَم يكُنِ اللهُ قَدْ عَلِمَ أنَّ ذَلِكَ سيوجدُ لَمَا

---

(١) (برقم: ١٣٩٠).

(٢) فِي «المُسندِ» (٦/ ٢٩٢) وَصحَّحهُ الشَّيخ الألبانِيُّ فِي «الصَّحيحِة» (٢٠٥٠).

(٣) فِي «المُجتبى» (٢/ ١٧٦).

(٤) فِي «صَحيحِهِ» (٣٧٤٩).

(٥) فِي «الكبير» (٣/ ١٣).

(٦) فِي «المُستَدرَكِ» (٣/ ٥٣٢).

حدَّد الحدُودَ، ونصبَ الشُّهودَ، وميَّز بَينَ الحدودِ ما بَينَ ضربٍ للرقابِ، وجلدٍ للجلُودِ، بإمضَاءِ تلكَ المقدرةِ منَ الحدُودِ. وَكَذَلِكَ رسُول الله ﷺ.

فلمَّا بَيَّنَ اللهُ ذَلِكَ ورسُولهُ ﷺ، وَدَوَّنهُ العُلمَاءُ رَحِمَهُم اللهُ تَعَالَى وتبيّنوا الشركَ والكفرَ الَّذِي لا يغفرُهُ اللهُ إلَّا بالتوبةِ، وَمَا كَانَ من ذَلِكَ تحتَ المشيئةِ، وَكَذَلِكَ الكبَائر ممَّا فِي الكتابِ والسُّنةِ، وحذَّرُوا عنِ الجَميعِ، ورغَّبوا ورهَّبوا بِمَا فِي النُّصوصِ لزمَ من كَانَ قصدُه النَّجَاة والهَدى؛ الاقتدَاءُ بالسَّلفِ الَّذِينَ شَهِدَت لَهُم الأمَّة بالاهتدَاءِ.

وَقَدْ بسطْنَا القولَ بِمَا عَلَيْهِ السَّلف فِي كتَابِنَا «فتح الحَمِيدِ فِي شَرحِ التَّوحيدِ»؛ قصدًا للبيَانِ لذوِي الألبَابِ والأذهَانِ مما يرغبُ إليهِ منْ لَهُ القدمُ الرَّاسخة فِي هَذَا الشَّأنِ؛ لما أودعْنَا فِيهِ منَ النُكتِ والبُحوثِ حتَّى أطلنَا المَيدَان وأرخنَا فِي ذَلِكَ العنَانَ؛ رجاءَ دعوةٍ منْ ذوِي الإحسَانِ، واحتسَابًا للأجرِ من المَوْلَى الكَريم المنَّانِ، وَقَد أخبَرَ ﷺ فِي حَدِيثِ أبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن الإيمَانِ أَنَّهُ: «بِضعٌ وَسَبعُونَ شُعْبَةٌ»[(١)]، وفِي رِوَايةٍ: «بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةٌ، أَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ»[(٢)] رَوَاهُ الجَمَاعَةُ.

وَزَادُوا إلا التِّرمذِيَّ: «وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ».

فالإيمَانُ الكَامِلُ: استكمَالُ شُعبه، فمَنِ استكمَلهَا؛ فَقَدِ استكمَلَ الإيمَانَ، ومن نقصَ مِنْهَا شيئًا نقصَ مِن إيمَانِهِ بقدرِ ذَلِكَ.

فَإِذَا دخلَ الإنسَانُ فِي الإسلَامِ بشهادَتي الحقِّ لم يخرجْ منْ أصلِ الإيمَانِ بعمَلٍ إلَّا عمَلاً يضادُّ لهُمَا، وحالُ صاحبِهِ لا تحتملُ تَأويلاً وَلَا جهَالَةَ، وأحوالُ الخَوارج بخلافِ ذَلِكَ كَمَا سنبيِّنُ أصلَ مذهبِهم فِي الإيمَانِ إن شَاءَ اللهُ تَعَالَى قريبًا عِندَ الشُّروعِ فِي أخبَارِهِمْ وسِيَرهِم، فهم يَقُولُونَ منْ خيرِ قولِ البريةِ كَمَا ذكرَ ذَلِكَ عنهُم رسُولُ الله ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٥).

(٢) البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، والترمذي (٢٨٠١)، والنسائي (٨/ ١١٠)، وابن ماجه (٥٧).

فمعلومٌ أنَّ دعوَاهُم من أَحسنِ الدَّعاوي، لولا أنَّهُم يَقُولُونَ ما لا يفعلُونَ، ويفعلُونَ مَا لا يُؤمرُونَ.

وَلهَذَا حَكمَ ﷺ بعدَ مَا وصفَهُم بحسنِ القَولِ والصَّلاةِ والصِّيامِ والقِرَاءةِ؛ بأنَّ إيمَانَهُم لا يجَاوزُ حنَاجرهُم ـ يعني: إلَى قلوبِهِم؛ لأنَّ الحنجرَةَ دُونَ القَلبِ، فَإيمَانُهُم لا يَصِلُ إلَى قُلوبِهِم؛ لأَنَّهُ لا يتعدَّى حنَاجرَهُم بقول أصدقِ القَائِلينَ ﷺ، وَلهَذَا قَالَ ﷺ: «يمرقُونَ منَ الدِّينِ مرُوق السَّهمِ مِنَ الرَّميةِ».

فَهُم لا يَرضونَ قولَهُ ﷺ فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ بن الدُّخشم كَمَا فِي «الصَّحِيحَينِ»[1] حَيث قَالَ: «أَلَيْس يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟»، قَال: إِنَّهُ يَقُولُ ذَلِكَ، وَمَا هُوَ فِي قَلْبِهِ، قَالَ: «لَا يَشْهَدُ أَحَدٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَيَدْخُلَ النَّارَ».

وفِي حَدِيثِ المُنَافقِينَ الَّذِي فِي «الصَّحِيحَينِ» «أُولئكَ الَّذِينَ نَهَانِي اللهُ عَنْ قَتلِهِم»[2].

وفِي حَدِيثِ ابنِ مَسعودٍ ﷺ عِندَ مُسْلِمٍ فِي صَحيحِهِ[3] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ منْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ».

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[4]، والبُخَارِيِّ[5]، وَمُسْلِمٍ[6]، والتِّرمِذِيِّ[7] عَن عبادَةَ بْنِ الصَّامتِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ شَهدَ أن لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وأن محمَّدًا رسُولُ اللهِ حرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ».

---

(١) البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).
(٢) تقدَّم.
(٣) (برقم: ٩١).
(٤) فِي «المُسندِ» (٥/ ٣١٨).
(٥) (برقم: ٣٢٠٤).
(٦) (برقم: ٣٠).
(٧) فِي «الجامِع» (٢٥٨١).

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[١] بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ كَانَ يُغِيرُ عِنْدَ صَلاَةِ الْفَجْرِ، وكان يَسْتَمِعُ، فَإِذَا سَمِعَ أَذَانًا أَمْسَكَ، وَإِلاَّ أَغَارَ. وَاسْتَمعَ ذَاتَ يَوْم فَسَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ. فَقَالَ: «عَلَى الْفِطْرَةِ». فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فَقَالَ: «خَرَجْتَ مِنَ النَّارِ».

فلمَّا قبلتِ الخوارجُ صحَّةَ شهادةِ الحقِّ إليهم، وأنَّ قولَها منوطٌ برضَاهُم كانوا بِذَلِكَ يقاتلُونَ أهلَ الإيمانِ، ويَدَعونَ أهلَ الصَّليبِ والعجلِ والأوثَانِ، ويتحكَّمونَ عَلَى الله فِي خلقِهِ، فيُكفِّرُونَ بأهوَائِهم كلَّ من سوَاهُم ممَّن كَانَ بَينَ غربِهِ وشرقِهِ، يشنُّونَ عليهم الغارَاتِ بالعشوَاتِ والبكرَاتِ، لا تعصمُهم مِنْهُم شهادَةٌ، وَلَا يورعهم عنهُم آذانٌ، أو صلاةٌ أو عبادةٌ، إِلَى أن يجَابُوا إِلَى مَا هُم عَلَيْهِ من التَّكفيرِ، وأنَّ مَن سوَاهُم ليسَ عَلَى شيءٍ من دينِ العَلي الكَبيرِ، وبحيثُ لا يعتقدُونَ إيمَانًا فِي غَيرِ مَنْ يرضونَهُ موجُودًا، وَلَا أنَّ الرَّبَّ جلَّ جلالُه كَانَ عِندَ سوَاهُم مُوحَّدًا معبُودًا.

وَقَدْ جَلَّتْ مُصيبتُهم عَلَى أهلِ الإسلامِ، وتبهَّج بِهَا عبادُ الأوثَانِ والأصنَامِ، ويدعونَ إِلَى التَّوحيدِ والهدَى، ويسبقونَ الشَّيطانَ إِلَى البَاطلِ والهوَى، قَدْ جَالَ فِي عقُولِهم بخيلِهِ ورجلِهِ، وتمكَّنَ من قلُوبِهم بشُبهِهِ وجدلِهِ، فَهُوَ يُكرِّرُ ذَلِكَ عَليهم فِي كلِّ رَوحةٍ وغداةٍ، ويفديهم بأبيهِ وأمِّه كُلّ تفداةٍ، يُقبِّلُ مَا بَينَ أعينِهم ولحِاهُم؛ لعلمِهِ بمَا حَالَ بِهِ بينهُم وبينَ هدَاهُم، ويحسِّنُ عندَهُم الضَّلالة؛ ليفَارقُوا بها أهلَ السُّنةِ والجمَاعةِ، لمَا للهِ فِي ذَلِكَ منَ القدَرِ السَّابقِ والقَضَاءِ العَائقِ، فلَهُ الحمدُ عَلَى تدبيرِهِ، والشُّكرُ عَلَى تقْديرِهِ.

اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ، أَوْ أُضِلُّ ، أَوْ أَزِلَّ، أَوْ أُزِلُّ، أَوْ أَظْلِمَ، أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ، أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ، عَزَّ جَارُكَ، وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ، وَلَا إله غيرُكَ.

فَعِندَ الطَّبَرَانِي فِي «الكَبِيرِ»[٢] عنِ ابنِ عبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا مِنْ

---

(١) فِي «المُسند» (٣/ ١٣٢)، ومسلم (٣٨٢).

(٢) «المعجم الكبير» (١١/ ٤٤).

==

أَحَدٍ يُحْدِثُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ حَدَثًا فَيَمُوتُ حَتَّى يُصِيبَهُ ذَلِكَ».

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(١)]، والبُخَارِيِّ[(٢)] فِي «صَحيحِهِ» عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا».

وَرَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ[(٣)]، وَمُسْلِمٌ[(٤)] عَنْ سَلَمَةَ بنِ الأَكوعِ رضي الله عنه ولفظه «مَنْ سَلَّ عَلَيْنَا السَّيْفَ فَلَيْسَ مِنَّا».

وفِي «الصَّحِيحَينِ»[(٥)]، ومُسندِ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(٦)]، والتِّرْمِذِيِّ[(٧)] عن جَرِيرِ[(٨)] بنِ عبدِ الله رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمْهُ اللهُ تَعَالَى» وَهُوَ عندَهُمْ مِنْ حَدِيثِ أبي هُرَيْرَةَ بمعناهُ.

وللطَّبَرَانِي فِي «الكَبيرِ»[(٩)] عَنْ أنسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نُهِيتُ عَنْ قَتْلِ الْمُصَلِّينَ» وسَندُهُ صَحِيحٌ، وَهُوَ فِي السُّنَنِ عِندَ أَبِي دَاود[(١٠)].

==

قال فِي «الأوسطِ»: (٣٥٤٧): «لَا يُرْوَى هَذَا الْحَدِيثُ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ، تَفَرَّدَ بِهِ: الْحُمَيْدِيُّ» وضعَّفه الشَّيخُ الألبَانِي فِي «الضعيفة» (٤٤٧٢).

(١) فِي «المُسندِ» (٢/ ٥٣).

(٢) (برقم: ٦٨٧٤).

(٣) فِي «المُسندِ» (٤/ ٤٦).

(٤) (برقم: ٩٩).

(٥) البخاري (٧٣٧٦)، ومسلم (٢٣١٩).

(٦) (٤/ ٣٦٦).

(٧) فِي «الجامِعِ» (١٩٢٢).

(٨) فِي المخطوط: «جابر».

(٩) «الكبير» (١٨/ ٢٦).

(١٠) فِي «السُّنَنِ» (٤٩٢٨) وصحَّحه الشيخ الألبانِي فِي صحيح الجامع (١/ ١٩٤).

فصلٌ

فِي بيانِ خطأَ الخوَارجِ عَلَى أهلِ شهادَتَي الحق، وعدَم احترَامِهم لمَنْ شهدَ بِهمَا، وبقِيَ عَلَى ما ظهرَ مِنْهُ مَع عَدَمِ مُخالفتِه لهُما عنادًا، إلَّا أنْ يَكُونَ مِنْهُ خطأ لا يُعلمُ أنَّه يضادُّ لهُما، بَلْ لَو طُلِبَ مِنْهُ إنكَارُ أحدِهِما لاختَارَ القَتلَ عَلَيْهِ.

فعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[1]، والدَّارمِيِّ[2] بِسَنَدٍ صَحِيحٍ رجاله رجَال الصَّحِيحِ فِيهِ غندرٌ وَشُعْبَةُ عَنْ أوسِ بنِ أبِي أوسٍ الثَّقفِي ﷺ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فِي وَفْدِ ثَقِيفٍ، فَكُنَّا فِي قُبَّةٍ، فَقَامَ مَنْ كَانَ فِيهَا غَيْرِي وَغَيْرَ رَسُولِ الله ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَسَارَّهُ[3]، فَقَالَ: «اذْهَبْ فَاقْتُلْهُ» ثُمَّ قَالَ: «أَلَيْس يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟» قَالَ: بَلَى، وَلَكِنَّهُ يَقُولُهَا تَعَوُّذًا فَقَالَ: «رُدَّهُ» ثُمَّ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا حُرِّمَتْ عَلَيَّ دِمَاؤُهُمْ، وَأَمْوَالُهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا».

قَالَ غُنْدَرٌ مُحَمَّدُ بنُ جَعْفَرٍ: فَقُلْتُ لِشُعْبَةَ: أَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَيْس يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟» قَالَ شُعْبَةُ: أَظُنُّهَا مَعَهَا وَمَا أَدْرِي

ثم رَوَاهُ الإمامُ أَحْمَدُ[4] من وجْهٍ آخر عَنْ عَمرو بْنِ أَوْسٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ، أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّا لَقُعُودٌ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فِي الصُّفَّةِ، وَهُوَ يَقُصُّ عَلَيْنَا وَيُذَكِّرُنَا إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَسَارَّهُ، فَقَالَ: «اذْهَبُوا فَاقْتُلُوهُ» فَلَمَّا وَلَّى الرَّجُلُ، دَعَاهُ رَسُولُ الله ﷺ فقَالَ: «هل يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» قَالَ الرَّجُلُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «اذْهَبُوا فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَإِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ

---

(١) فِي «المُسْنَدِ» (٤/ ٣٩٠) قال الشيخ الألبانِيُّ فِي «الصحيحةِ» (١/ ٧٦٨): «وهَذَا سَندٌ صحيحٌ على شَرطِ مُسلمٍ».

(٢) فِي «السُّنَنِ» (٢٤٩٠).

(٣) قال السنديُّ: قوله: «فسارَّه» أي: تكلَّمَ معه سرًّا.

(٤) فِي «المُسندِ» (٤/ ٨) وإسنادُه صحيحٌ.

النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، قَالَ: «فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ حُرِّمَتْ عَلَيَّ دِمَاؤُهُمْ، وَأَمْوَالُهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا».

فَإِنْ قِيلَ: قَدْ قَاتَلَ الصِّدِّيقُ ﷺ مَانِعِي الزَّكَاة، واستدلَّ بِهَذَا الحَدِيثِ لَمَّا عارَضَهُ الفَارُوقُ ﷺ.

قيلَ: إِنَّمَا اختَلَفَا فِي إِبَاحَةِ دَمِ مَانِعِهَا، والمُبَاحُ لَهُ القِتَالُ عَلَى مَنعِهَا، إِنَّما هُوَ الخَلِيفَةُ الَّذِي يَضعُهَا حَيثُ وضَعَهَا اللهُ تبَارَكَ وتَعَالَى، وأمَّا مَنْ لا يَضعها مَوضِعَهَا، فَلَا يَحِلُّ لَهُ أن يُقَاتِلَ عَليهَا.

فَإِنْ قَاتَلَ عَلَى هَذِهِ الحَالِ؛ فَهُوَ سَافِكٌ للدَّمِ بغيرِ حقٍّ؛ صرَّحَ بذَلِكَ عُلَمَاءُ الأمَّةِ ﷺ، وإِنْ كَانَ الدَّافعُ يبرأُ مِنْهَا بذَلِكَ.

وأمَّا تكفِيرُ المَانعِ بِذَلِكَ؛ فَلَمْ يَقُلْ بِهِ أحدٌ منَ الصَّحَابةِ ﷺ، وَلَمْ يَختلفُوا فِي ذَلِكَ، وقولُ أبي بكرٍ يدلُّ عَلَى ذَلِكَ، ومَنْ فَهِمَ التَّكفِيرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيل.

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[1] بِسَنَدٍ صَحِيحٍ حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بنُ سَعِيدٍ، وإِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَا: ثَنَا هِشَامٌ الدَّسْتُوَائِيُّ، ثَنَا يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ هِلَالِ بْنِ أَبِي مَيْمُونَةَ، قال: أنا عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، أَنَّ رِفَاعَةَ الجُهَنِيَّ حدَّثَهُ، قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْكَدِيدِ - أَوْ قَالَ: بِقُدَيْدٍ - جَعَلَ رِجَالٌ مِنَّا يَسْتَأْذِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ فَيَأْذَنُ لَهُمْ، قَال: فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ خيرًا، ثُمَّ قَالَ: «مَا بَالُ رِجَالٍ يَكُونُ شِقُّ الشَّجَرَةِ الَّتِي تَلِي رَسُولَ الله ﷺ، أَبْغَض إِلَيْهِمْ مِنَ الشِّقِّ الْآخرِ»، قَالَ: فَلَمْ نَرَ عِنْدَ ذَلِكَ مِنَ الْقَوْمِ إِلَّا بَاكِيًا، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الَّذِي يَسْتَأْذِنُكَ بَعْدَ هَذَا لَسَفِيهٌ. فَحَمِدَ اللهَ، وَقَالَ خيرًا، وقالَ: «أَشْهَدُ عِنْدَ الله لَا يَمُوتُ عَبْدٌ شهد أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ الله صِدْقًا، ثُمَّ يُسَدِّدُ إِلَّا سُلِكَ فِي الْجَنَّةِ»، ثُمَّ قَالَ: «قَدْ وَعَدَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلَا عَذَابٍ،

(١) فِي «المسندِ» (٤/ ١٦) وسندُه صحيحٌ.

وَإِنِّي لَأَرْجُو اللهَ تدْخُلُوهَا حَتَّى تبوأوا أَنْتُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِكُمْ وَأَزْوَاجِكُمْ وَذُرِّيَّاتِكُمْ مَسَاكِنَ فِي الْجَنَّةِ».

وَقَالَ: «إِذَا مَضَى نِصْفُ اللَّيْلِ - أَوْ: ثُلُثَا اللَّيْلِ - يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي أَحَدًا غَيْرِي، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، مَنِ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ، حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ».

ثُمَّ رَوَاهُ(١) مِن وَجْهٍ آخر فَقَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْمُغِيرَةِ، حَدَّثَنِي الْأَوْزَاعِيُّ، ثَنَا يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ بِهِ، وفِيهِ قَالَ: صَدَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَسْتَأْذِنُونَهُ... فَذَكَرَ الْحَدِيثَ

وقَدْ أَخْبَرَ ﷺ أَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُوفِّي سَبعِينَ أُمَّةً هُمْ خَيْرها وَأَكرَمَهَا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَيثُ قَالَ الدَّارِمِيُّ فِي مُسْنَدِهِ(٢) أَخْبَرَنَا النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ، ثَنَا بَهْزُ بْنُ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّكُمْ وَفَّيْتُمْ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ آخِرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ عزَّ وجلَّ».

وَقَد مرَّ هَذَا الحَدِيثُ، وَفِيهِ: «أَنتُم خَيْرُهَا وَأَكرَمَهَا عَلَى اللهِ عزَّ وجلَّ».

وَقَالَ الدَّارِمِيُّ(٣): ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ».

وَهَذَا سندٌ صحيحٌ، وَهُوَ عِندَ غيرِهِ بِهَذَا اللَّفظِ.

---

(١) فِي «الْمسندِ» (١٦/٤).

(٢) فِي «السُّنَنِ» (٢٧٩٠) وحسَّنه الشيخ الألبانيُّ فِي صحيح ابن ماجه (٤٢٨٧).

(٣) فِي «السُّنَنِ» (٢٨٣٦).

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(١)]، وأَبِي دَاودَ[(٢)]، والتِّرْمِذِيِّ[(٣)]، وابنِ حبَّانَ[(٤)]، والحَاكِمِ[(٥)] عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا».

وهُو أيضًا عِندَ الدَّارمِيِّ[(٦)] بِهَذَا اللَّفظِ بِسَندٍ صَحِيحٍ إِلَى أبي هُرَيْرَةَ.

وَمِنْ أَقْبَحِ مَا فِي الخَوَارجِ سُوء أخلاقِهِمْ، وغلظِهِمْ عَلَى المُسْلِمِينَ، وَيَتَّخذُونَ ذَلِكَ دِينًا يَتقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى الله تَعَالَى.

وَقَدْ قَالَ الإمَامُ أَحْمَدُ[(٧)]: ثَنَا حَسَنُ بْنُ مُوسَى، ثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ زَاذَانَ أَبِي عُمَرَ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ لُقِّنَ عِنْدَ المَوْتِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ».

وَرَوَاهُ أَبُو نُعيمٍ، وابنُ مَنْدَه من حَدِيثِ حمَّادِ بنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَطَاءِ بنِ السَّائِبِ، عَنْ

---

(١) فِي «المُسندِ» (٢/ ٢٥٠).

(٢) فِي «السُّنَنِ» (٤٦٨٢) وصحَّحه الشَّيخُ الألبَانِي فِي «الصَّحيحةِ» (٢٨٤).

(٣) فِي «الجَامعِ» (٢٦١٢) قَالَ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَلاَ نَعْرِفُ لأَبِي قِلاَبَةَ سَمَاعًا مِنْ عَائِشَةَ.
وَقَدْ رَوَى أَبُو قِلاَبَةَ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ يَزِيدَ، رَضِيعِ لِعَائِشَةَ عَنْ عَائِشَةَ، غَيْرَ هَذَا الحَدِيثِ وَأَبُو قِلاَبَةَ اسْمُهُ عَبْدُ الله بْنُ زَيْدٍ الجَرْمِيُّ».

(٤) فِي «صَحيحِهِ» (٤٧٩).

(٥) فِي «المُستَدرَكِ» (١/ ٣) قَالَ: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ لَمْ يُخَرَّجْ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَهُوَ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمِ بْنِ الحَجَّاجِ، فَقَدِ اسْتَشْهَدَ بِأَحَادِيثَ لِلْقَعْقَاعِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَمُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، وَقَدِ احْتَجَّ بِمُحَمَّدِ بْنِ عَجْلاَنَ.
وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الحَدِيثُ أَيْضًا، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَشُعَيْبِ بْنِ الحَبْحَابِ، عَنْ أَنَسٍ. وَرَوَاهُ ابْنُ عُلَيَّةَ، عَنْ خَالِدٍ الحَذَّاءِ، عَنْ أَبِي قِلاَبَةَ، عَنْ عَائِشَةَ. وَأَنَا أَخْشَى أَنَّ أَبَا قِلاَبَةَ لَمْ يَسْمَعْهُ، عَنْ عَائِشَةَ».

(٦) فِي «السُّنَنِ» (٢٨٣٤).

(٧) فِي «المُسندِ» (٣/ ٤٧٤).

زَاذَان عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ بِلفْظِ الإِمَامِ أَحْمَدَ المُتَقَدِّم.

وَهَذَا فِي حُكْمِ المَرفُوعِ، والتَّدلِيسُ مِنَ الثِّقَةِ فِي الصَّحَابَةِ لا يضرُّ؛ لأنَّ زَاذَانَ ثقةٌ، وَقَدْ زَالَ تَدليسُهُ وإرسالُهُ؛ بقولِهِ: حدَّثنِي مَنْ سمِعَ النبيَّ ﷺ، والإِسْنَادُ صَحِيحٌ.

وَقَدْ عُلِمَ بالاضطرَارِ فِي جَمِيعِ الأمصَارِ والأعصَارِ مِنْ بِلَادِ الإسلَامِ؛ أنَّ مَا مِنْ ميتٍ يحتضرُ فِيهَا منْ أهلِ القبلَةِ من هَذِهِ الأمَّةِ إلَّا ومَنْ حضَرَهُ يَسْعَى بتلقينِهِ سَوَاءٌ مِن أهلِهِ، أو مِنْ غَيرِهِمْ، وَمَنْ هَذِهِ حَالهُم عِندَ نطقِ مَولُودِهِم، واحتضَارِ ميتِّهِم ليسَ لَهُم عِندَ الخَوَارجِ حُرْمَةٌ.

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(١)] أيضًا من حَدِيثِ أَبِي رزين العُقيلي رضي الله عنه حِينَ سَأَلَهُ عَنِ الإِيمَانِ، وَفِي آخرِهِ قلتُ: يَا رسُولَ الله: كَيْفَ لِي بِأَنْ أَعْلمَ أَنِّي مُؤمِنٌ؟

قَالَ: «مَا مِنْ أُمَّتِي، أَوْ هَذِهِ الأُمَّةِ - عَبْدٌ يَعْمَلُ حَسَنَةً، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا حَسَنَةٌ، وَأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَازِيهِ بِهَا خَيْرًا، وَلاَ يَعْمَلُ سَيِّئَةً فَيَعْلَمُ أَنَّهَا سَيِّئَةٌ، وَيَسْتَغْفِرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهَا، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ يَغْفِرُ إِلاَّ هُوَ، إِلاَّ وَهُوَ مُؤْمِنٌ».

رَوَاهُ الإِمَامِ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيقِ عَبدِ الله بنِ المُبَارَكِ مُتَّصلًا.

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(٢)] أيضًا بِسندٍ رجاله رجَال الصَّحيحِ عَنْ أَنَسٍ بن مالكٍ أَنَّ عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه ذَهَبَ بَصَرُهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، لَوْ جِئْتَ صَلَّيْتَ فِي دَارِي، أَوْ قَالَ: فِي بَيْتِي - لاتَّخَذْتُ مُصَلَّاكَ مَسْجِدًا، فَجَاءَه النَّبِيُّ ﷺ فَصَلَّى فِي دَارِهِ، أَوْ قَالَ: فِي بَيْتِهِ - وَاجْتَمَعَ قَوْمُ عِتْبَانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَكَرُوا مَالِكَ بْنَ الدُّخْشُمِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُ وَإِنَّهُ يُعَرِّضُونَ بِالنِّفَاقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يَقُولُهَا عَبْدٌ صَادِقٌ بِهَا إِلاَّ حُرِّمَتْ عَلَيْهِ النَّارُ».

(١) فِي «المُسندِ» (٤/ ١١) وسندُه ضَعيفٌ: سُليمَانُ بنُ موسى لَم يُدْرِكْ أحدًا مِنَ الصَّحابةِ.

(٢) فِي «المُسندِ» (٣/ ١٧٤).

فمنعَهُم رسُولُ الله ﷺ عَن تعرُّضِه بمجرَّدِ شهادتِي الإخْلَاصِ.

وقد مرَّ فِي لَفظِ: «الصَّحِيحَينِ» أنَّهُم قَالُوا: إنَّه يَقول ذَلِكَ ومَا هُو فِي قَلبِهِ قَالَ: «لَا يَشْهَدُ أحَدٌ أن لَا إلَه إلَّا اللهُ وأنِّي رَسُولُ الله فَيَدْخُل النَّارَ».

والخَوَارِجُ لَا تُوَافِقُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا تَرَى لشَهادتِي الإخلَاصِ عِصمَةً إلا ممَّن اتبعَ طَاعتَهَا وَرِضَاهَا، فَإنَّ الدِّينَ عِندَهُم مَا أصَّلُوهُ، فَلَا يَقْبَلُونَ مِن أهْلِ شهادتِي الإخلَاصِ إلَّا مَنْ رَضوهُ وقبلُوهُ، فَلَا إلَه إلَّا اللهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قوةَ إلَّا بالله، اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ.

وفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ[1] وَمُسْلِمٍ[2] عَنْ أنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَمُعَاذَ بنَ جَبلٍ رَدِيفه عَلَى الرحل قَالَ: «يَا مُعَاذُ» قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله وَسَعْدَيكَ، ثمَّ قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلَّا اللهُ وَأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، إلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهَ: أفَلاَ أُخبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ: «إذن يَتَّكِلُوا» فَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا.

وفي «الصَّحِيحَينِ» مِنْ حَدِيثِ أبِي هُرَيْرَةَ ﷺ حِينَ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ بالنَّعْلَينِ يُبشِّرُ مَنْ لَقِيَهُ يَشْهَدُ أن لَا إلَه إلَّا اللهُ بالجنَّةِ، وَفِيهِ قِصَّة مُلَاقَاته لعمرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ، وردّه إيَّاهُ مخافَةَ الاتِّكَالِ.

إذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ؛ فَإنَّ الخَوَارِجَ لَا يُسَلِّمُونَ فِي هَذَا، وَيُقَيِّدُونَ الأشياءَ بِأَهْوَائِهِمْ الَّتِي رَكبُوهَا لِتَكفيرِ الأُمَّةِ، ويَقُولُونَ: إنْ كَانَ يَقُولهَا فَهُوَ يَنقضُهَا كُلَّ حِينٍ.

فيُقَالُ أوَّلًا: إذَا أقررتم بِأنَّ الشَّهادَتينِ عَاصِمَةٌ لَهُ، وأنَّ الأمَّةَ تقُولهُمَا وَتُقِرّ بهمَا وَتَعْتَقِدُهُمَا حَقًّا، وَأنَّهمَا مبنَى دِينِ الإسلَامِ، وأَصْلُ الإيمانِ، فيَلْزَمُكُمْ أنَّكُمْ لا تُخرِجُونَ صَاحِبَهُمَا إلَّا بِمَا يَفعلُهُ أو يقولُهُ ممَّا يضادُّهُمَا؛ وَهُوَ الجُحُودُ لَهمَا[3].

---

(١) (برقم: ١٢٨).

(٢) (برقم: ٣٢).

(٣) سيأتي قولُ المؤلِّف بأن الكفرَ كما يكون بالجحود، يكون بالأفعال أو بالأقوال.

وأمَّا كَونُهُ يَفْعَلُ مَا قَدْ يضادُّهُما مُتأوِّلًا أو جهالَةً، وَهُوَ لا يَعْلَمُ أنَّ ذَلِكَ يَنقضهُما عَلَيْهِ، بل يفرُّ مِنْ ذَلِكَ لو عَلِمَه غَايَةَ الفِرَارِ، فإنَّ العُلَماءَ قَدْ صرَّحُوا أنَّهُ لا يَكْفُرُ بِذَلِكَ[١].

وَهَذَا لَو طَالبَهُ بإنكَارِ شهَادَةِ أن لَا إِلَه إلَّا اللهُ، أو بإنكَارِ أنَّ محمَّدًا رسُولُ الله ﷺ لنفرَ مِنَ ذَلِكَ غايةَ النُّفورِ، بل لأحبَّ أن يُقتلَ وَلَا ينكرهُمَا.

فإذَا عَلمتَ ذَلِكَ، وأنه ينفر مِنْهُ غايةَ النُّفورِ، بَلْ قَدْ يختارُ القتلَ عَلَيْهِ علمتَ الفرقَ بينَهُ وبينَ الَّذِينَ بُعِثَ إليهم النبيُّ ﷺ مِن مشركِي العَربِ وكفَّارِهِم، فإنَّهُم لَّما طلبَ مِنْهُم النبيُّ ﷺ بِأَنْ يقولُوا: لَا إله إلَّا اللهُ صفقُوا بأيدِيهم وَقالُوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ ﴾.

فيَالله العَجَب كَيْفَ يُجعلُ مَنْ أقرَّ بالشهادتَينِ، وشهدَ بِهِما ونفر منْ إنكارِهِمَا غايةَ النفُورِ مِثلَ مَنْ أنكرَهُما غايةَ الإنكارِ؟!، ويُعجب كيفَ يطلبُ مِنْهُ رسولُ ربِّ العالِمَينَ صَلَوات الله وسَلَامه عَلَيْهِ إِلَى يوم الدِّينِ أن يقولَهُما؟!

فالمسَاوِي بَينَ هذينِ كَمَن يجعلُ المُسْلِمِينَ كالمُجرمِينَ، ويجعلُ المُتَّقِينَ كالفجَّارِ، فَلَا عجبَ بأعجبَ منْ حَالِ الخَوَارجِ حَيْثُ قالُوا بخيرِ القَولِ، وعادَوا أهلَهُ، وقاتلُوهُم، وحَكَمُوا عَلَيْهم بالكُفرِ، والخرُوجِ منْ دَائرَةِ الإيمَانِ.

وقَدْ مرَّ أنَّه لَّما أشكلَ عَلَى أَبِي رَزين العُقيلِي ﷺ كَيفَ يعلمُ أنَّهُ مؤمنٌ؛ مثَّلَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ بقَولِهِ: «مَا مِنْ أُمَّتِي، أَوْ هَذِهِ الأُمَّةِ - عَبْدٌ يَعْمَلُ حَسَنَةً، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا حَسَنَةٌ، وَأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَازِيهِ بِهَا خَيْرًا، وَلاَ يَعْمَلُ سَيِّئَةً فَيَعْلَمُ أَنَّهَا سَيِّئَةٌ، وَيَسْتَغْفِرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهَا، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ يَغْفِرُ إِلاَّ هُوَ، إِلاَّ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[٢].

---

(١) أمور التوحيد الظاهرة لا يُعذر فيها بالجهل؛ لأنها جليّة في القرآن والسنة.

(٢) أخرجهُ أحمدُ (٤/ ١١) وسندُه ضَعيفٌ: سُليمَانُ بنُ موسى لَم يُدْرِكْ أحَدًا مِنَ الصَّحابةِ.

فَلَا تَجِدُ مِنَ الأُمَّةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا؛ إِلَّا وَهُوَ يعلمُ ذَلِكَ فضْلًا عَن إنكَارِ الشَّهادَتين.

وَأَنشَدُوا فِي ذَلِكَ:

أَنَا المُذْنِبُ الخَطَّاءُ والعَفْوُ وَاسِعٌ   وَلَو لَمْ يَكُنْ ذَنبٌ لَمَا وَقَعَ العَفْوُ

وأَمَّا المَعَاصِي والفُجُورُ - نَعُوذُ بِالله مِنْ ذَلِكَ - وَكَذَلِكَ الجَهَالَةُ؛ فَالأُمَّةُ مَعْمُورَةٌ بِذَلِكَ إِلَّا مَنْ أَرَادَ اللهُ صَلَاحَهُ، وَلَا يَزَالُ فِيهَا مَنْ يجدِّدُ لهَا دِينَهَا، ويبيِّنُ لها طَرِيقَهَا، وَيَأمرُ فِيهَا بِذَلِكَ، وَيَنْهى حتَّى ينزلَ فِيهَا روحُ الله عِيسَى بنُ مَريم عليه السلام؛ فَيَكْسِر الصَّلِيبَ، ويقتل الخنْزِيرَ.

وَكُلُّ مُجَدِّدٍ يظهرُ فِيهَا يكُونُ عَلَى سُنتِها وصِرَاطِهَا لا يَحْكُمُ عَلَيْهَا بالكُفْرِ، وَلَا أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مُسْلِمٌ فِيهَا يَدْعُو إِلَى الله إلا هُوَ وَمَنْ تبعَهُ، وَلَا يعتقدُ أَنَّ سُلطَانَ الأُمَّةِ مُنْقَطِعٌ قَبلهُ، فإنَّهُ لَوِ اعتقَدَ ذَلِكَ؛ لكَانَ مُكذِّبًا للرسُولِ ﷺ فِي الحَقِيقَةِ قَطْعًا.

وَإِنْ كنَّا لا نَحملُهُ إِلَّا عَلَى الجَهلِ بِمَا يَؤُولُ إليهِ قولُهُ، فَلَا يَكفرُ بِذَلِكَ؛ لجَهلِهِ: لأنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ يفرُّ منْ تكذِيبِ الرَّسُولِ ﷺ، كَمَا أن السَّلفَ لَمْ يكفِّرُوهُ بِحُكْمِهِ عَلَى الأُمَّةِ بالكُفْرِ، وَلَا مَنْ تَبعَهُ عَلَى رَأيِهِ.

وَكُلُّ مَا ذكَرْنَا قَدْ فَعَلتهُ الخَوَارِجُ فِي ظُهورِهَا عَلَى الأُمَّةِ وَقِتَالِهَا لَهُم فِيمَا بَينَ العِرَاقِ إِلَى عمانَ إِلَى حَضْرَمَوْت إِلَى اليَمامةِ، كَمَا ستَأتِي أخبَارُهُم، وَمَواضِعُهُم الَّتِي خرَجُوا مِنْهَا وَإِلَيْهَا مُفَصَّلةً إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَبُحسْنِ قَولِهِم وَتَعبُّدِهِم فَتَنُوا العِبَادَ، وَبِقُبحِ فِعْلِهِم قتَلُوا الرِّجَالَ، وَنَهبُوا الأَموَالَ، ودَمَّرُوا البِلَادَ، فهُم يَقُولُونَ مَا لَا يفعَلُونَ، ويفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، أقوالُهُم مَرْضِيةٌ، وَسِيرتُهُم جَبروتيةٌ، وَأَهوَاؤهُم شَيطانيةٌ، وسَورتهُم عَلَى الأُمَّةِ سورةُ الكَلبِ المكلُوبية، فهُم يَقُولُونَ مِنْ خَيرِ قَولِ البَرِيةِ، وبوَاطِنُ ضغَائنِهِم فِيهَا عَلَى الأُمَّةِ المَرحُومَةِ كُلَّ غَائِلَةٍ وَبَلِيةٍ، كَمَا سترى ذَلِكَ فِي أخبَارِهِم مَسطُورًا، بحيثُ مَا مِنهُم أحدٌ إِلَّا وَهُوَ يرَى نفسَهُ عَلَى ذَلِكَ مفطُورًا، ويرجُو بِمَا هُوَ عَلَيْهِ من سفْكِ الدِّماءِ، ونهبِ الأموَالِ فِي الأُمَّة جنَّةً وقصُورًا، وجزَاءً جَزِيلاً مشكُورًا، وَحَظًّا مَوْفُورًا.

فَيالله العَجَب مَا أَسْوأ حَالَهُم، وأكثَرَ تَقَلبهُم فِي أقوَالِهِمْ!

وَمَا قلْنَا: إنَّ القَولَ بانقطَاعِ سُلطَانِ هَذِهِ الأُمَّةِ وَخَلِيفَتِهَا - كَمَا تقُولُ الخَوَارِجُ - تَكذِيبٌ للرسُولِ ﷺ، قُدِّمَ مَا يُحَقِّقُ ذَلِكَ مِنَ الأحَادِيثِ الصَّحيحةِ الصَّرِيحَةِ بأنَّ أمرَ هَذِهِ الأُمَّةِ لَا يزَالُ قَائِمًا إِلَى أن تقاتلَ آخرُ هَذِهِ الأُمَّةَ الدَّجالَ.

وفِي لفظٍ: «إِلَى أَن تَقُومَ السَّاعَةُ» كَمَا مرَّ إيرَادُهُ بألفَاظِهِ الصَّحِيحَةِ.

وفِي صَحيحِ مُسْلِمٍ[1] بالسَّندِ الصَّحِيحِ المتَّصلِ إِلَى جَابرِ بنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا، يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

وَفِي لفْظٍ: «لَا يَزَالُ الدِّينُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

وممَّا يبيِّنُ ضَلَالَ الخَوَارِجِ وخَطَأَهُم فِي تَكفِيرِ الأمَّةِ: أَنَّكَ إذا عِلِمْتَ بالاضطِرَارِ أَنَّ أهلَ القِبلَةِ فِي جَمِيعِ الأمصَارِ والأعصَارِ إذا استحضَرَ ميتهُم بادرُوا إِلَى تلقينِهِ شهادَتي الإخلَاصِ، وَهُوَ أيضًا يُوصِيهُم أَلَّا يغفلُوا عَنْهُ بذَلِكَ، وَمَا زَالَتْ علمَاؤُهُم يحضُّونَهُم عَلَى ذَلِكَ، ويُعلِّمُونَهُم أنَّ منْ كَانَ آخر كَلَامِهِ: لا إلَه إلَّا اللهُ دَخَلَ الجنَّةَ، وأهْلُ الميتِ جَمِيعًا يَسْتبشِرُونَ بُحِسْنِ تلقنِهِ للشَّهادَةِ، ويبتهجُونَ بِذَلِكَ.

وَهُمْ فِي مَولُودِهِمْ مِنْ قَبْل أن ينطقَ بأبِيهِ وأمِّهِ: يلقِّنُونهُ شهادتَي الإخلَاصِ، لا يُقدمونَ عَلَى تلقينِهِ لهُمَا شيئًا منَ الكَلَامِ، وَقَد قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي الكفَّارِ: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ فأخبرَ تَعَالَى - وخبرُه هُوَ الصِّدقُ، لا مَا تقولُهُ الخَوَارِجُ فِي أهْلِ القبلَةِ - بأنَّ نفوسَ الكفَّارِ والمشركين وطبَائعِهم لا تقتضِي غَيرَ الكُفرِ والشركِ، وأنَّها غيرُ قابلةٍ للإيمَانِ أصلاً، وأنَّ ضَلالَهُم وعمَاهُم عنِ الهُدَى دائمٌ لا يزُولُ، حتَّى مَع معَاينةِ الحقَائقِ.

---

(١) (برقم: ١٩٩٢).

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣﴾ وأهلُ القبلَةِ أهلُ شهادتَي الإخلاصِ مَع مَا فِيهم مِنَ الذُّنوبِ والمعَاصِي والفُجورِ يحضُونَ عِندَ المَوتِ ميتَهُم عَلَى شهادتَي الإخلَاصِ ويلقّنونَهُ إياهُما، ويرفقُونَ بِهِ لينقطعَ كَلَامُه عليهمَا، ويعملُونَ معَه المشرُوع مِن استقبالِهِ للقبلَةِ، وتَغسيلِهِ، وتكفينِه والصَّلاةِ عَلَيْهِ ودفنِهِ والدُّعاءِ لَهُ، وإهداء القرب المَالية والبَدنية وَجَميع ما يظنُّونَ أنَّه ينفعُه فِي الآخرَةِ، عَلَى ما فِي ذَلِكَ منَ اختلافِ العُلماءِ، يُقدمون القَول بأَنَّهُ يصلُ إليهِ، والخَوارِجُ يحكمُونَ عَلَى جميعِ الخَارِجينَ عَن مذهبِهِم مِن أهلِ القِبلَةِ بالكُفرِ، والخرُوجِ مِنَ الإيمَانِ.

وقَد أخبرَ ﷺ فِيمَا صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ يخرُجُ منَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلبِهِ أدْنَى أَدْنَى مثقَالِ ذرةٍ مِنْ خيرٍ، والكفَّارُ يفرُّونَ مِن شهَادتَي الإخلاصِ، أو أحدِهِمَا غايَةَ الفِرَارِ كَمَا ذَكَرْنَا.

وقَدْ ذكَرْنَا الَّذِي أَوْصَى أهلَهُ أَن يُحرِّقُوهُ بالنَّارِ، وَيذرُوهُ فِي البَرِّ والبَحْرِ زعمًا مِنْهُ بأَنَّهُ يفوتُ اللهَ سبحانَهُ؛ لأَنَّهُ لم يَعْمَلْ خيرًا قطُّ، وَهُوَ بِهَذَا قَدْ شكَّ فِي الميعادِ والقُدرةِ، فأمرَ اللهُ البرَّ والبَحرَ أنْ يجمَعَا مَا فيهما مِنْهُ،وكَذَا الرِّيحَ، فأحيَاهُ تَبارَكَ وتَعَالَى، وَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى ما صَنَعْتَ؟، قَالَ: خَشْيتكَ، وأنتَ أعلمُ، فَمَا تلَافاهُ أَنْ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وَحَدِيثُه فِي «الصَّحِيحَينِ»[1] وغيرِهِمَا كَمَا وضَّحْنَاهُ فِي شَرحِ التَّوحِيدِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي حَدِيثِ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ أن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «يقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: أخرِجُوا منَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمًا، أو خَافَنِي فِي مَقَامٍ»[2].

قَالَ شَمْسُ الدِّينِ ابنُ القيِّم: «قَالَ العُلمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى: وَمَنْ ذَا الَّذِي فِي مُدَّةِ عُمْرِهِ

---

(١) البُخاري (٣٤٧٨)، ومسلِم (٢٧٥٧).

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٢٥٩٤) وَقَالَ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ». وضعّفه الشَّيخُ الألبَانيُّ فِي «ضَعيفِ الجامعِ» (ص ٩٣٥)

كُلِّهَا مِنَ أَوَّلِهَا إِلَى آخرِهَا لَمْ يَذكرْ رَبَّهُ يومًا واحِدًا، وَلَا خَافَهُ سَاعَةً وَاحِدَةً»[١].

فيَاللهِ العَجَب مَا أَعْمَى هَذِهِ الفِرْقَةَ عَنِ الحَقِّ والهدَى، وأسرعَ ألسنتهَا فِي تَكْفِيرِ الأمَّةِ، واتِّخَاذهَا ذَلِكَ دِينًا لازمًا وَحقًّا واجِبًا عَلَيْها!

وَهَلْ هَذَا إِلَّا تحكُّمٌ عَلَى اللهِ فِي عبادِهِ بغيرِ هدًى مِنَ اللهِ، وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ؟!

وَقَدْ قَالَ ابنُ أَبِي الدُّنيَا[٢]: كَانَ لبَعضِ السَّلفِ أَخٌ لَهُ فِي اللهِ يَستَأْنسُ بِهِ، فغابَ عَنْهُ مدَّةً فلمَّا حَضرَ سَأَلَهُ فَقَالَ: كَانَ لِي وَلَدٌ مُسْرِفٌ فَمَاتَ وَأَنَا مِنْ أجلِهِ فِي وَجلٍ، فَقَالَ: إِنَّ وَرَاءَ ابْنِكَ ثَلاثَ خِلالٍ: أَوَّلُهَا شَهادَةُ أَلا إِلَهَ إِلا اللهُ، الثَّانِيَةُ شَفَاعَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، الثَّالِثَةُ رَحْمَةُ اللهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

وذكَرَ أَبُو اللَّيثِ فِي تَفسِيرِهِ عَلَى قوله تعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ إِلَى قَولِهِ: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ الآياتِ، عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ عبدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ يقُولُونَ: المَلَائِكَةُ خيرٌ للمُسْلِمِينَ مِنَ ابنِ الكواءِ، لأنَّ المَلَائِكَةَ عليهم السَّلامُ يستغفرُونَ لمَنْ فِي الأَرضِ، وابنُ الكواء يشهدُ عَليهم بالكُفرِ، وكَانَ ابنُ الكواءِ رَجُلاً خَارِجيًّا[٣] مِنْ فقهَاءِ الخَوارجِ وقرَّائهم وَزُهَّادِهِم مِنْ أَصْحَابِ عَبدِ اللهِ بنِ وَهبٍ الرَّاسِبِي.

وعندَ ابنِ أَبِي الدُّنيا[٤] وَغَيْرِهِ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، قَالَ: «قَالَ مُوسَى عليه السلام: يَا رَبِّ، مَنِ الأُمَّةُ الْمَرْحُومَةُ؟، قَالَ: أُمَّةُ أَحْمَدَ يَرْضَوْنَ بِالْقَلِيلِ مِنَ الْعَطَاءِ، وَأَرْضَى مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ مِنَ الْعَمَلِ، وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ بِأَنْ يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلا اللهُ».

---

(١) «حادِي الأرواح» (ص ٣٨١ ط المدني)

(٢) فِي «حسنِ الظنِّ باللهِ» (١٠٦) بنحوِهِ.

(٣) «بحر العلوم» (٣/ ١٩٩).

(٤) فِي «الرِّضا بقضَاءِ اللهِ» (ص ٧٨ ـ ٧٩).

وَعِندَهُ عنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا ابْتَلَعَ الحوتُ يُونسَ ﷺ أَهْوَى بِهِ إِلَى قَرَارِ البَحْرِ، فَسَمِعَ يُونُسُ بأُذنِهِ تَسْبِيحَ الحَصَى فَنَادَى فِي ظلُماتٍ ثلاَثٍ، ظُلْمَة بَطنِ الحُوتِ، وَظُلْمَةُ اللَّيْلِ، وَظُلْمَة البَحْرِ ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ ﴾ الآية، فنبذَهُ الحُوتُ كالفَرْخِ المَمْعُوطِ الَّذِي لَيْسَ عليه رِيشٌ[1].

ولَمَّا ذكَرَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى جُمْلَةَ مَا عَلَيْهِ أهلُ السُّنةِ والجَماعَةِ، ذكَرَ مِنْ جُملَةِ ذَلِكَ أَنَّهُم يَرَوْنَ الدُّعاءَ لأئمَّةِ المُسْلِمِينَ بالصَّلاحِ، وَأَن لَا يُخْرَجَ عَليهم بالسَّيفِ، وَيَرَوْنَ الصَّلاةَ عَلَى كُلِّ مَنْ مَاتَ مِنْ أهلِ القبلَةِ مُؤمنهم وفَاجِرِهِم.

وذكرَهُ عَنْ أَبِي الحَسَنِ الأشعرِيِّ حِكَايَةً مِنْهُ عَنْ جَمِيعِ أهلِ السُّنَّةِ، قَالَ: «وَبِكُلِّ مَا ذَكَرْنَا مِنْ قَولِهِم نقُولُ، وإِليهِ نَذْهَبُ»[2].

والمَقْصُودُ هُنَا ذِكْرُ الإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّهُم يرَوْنَ الصَّلَاةَ عَلَى مَن مَاتَ مِن أهلِ القبلَةِ، وأَنَّهُم لَا يَرَوْنَ الخُرُوجَ عَلَى السُّلطَانِ، خِلَاف مَا تَرَاهُ الخَوَارِجُ وَتعتقدُهُ فِي ذَلِكَ مِنْ تكْفِيرِهِمْ لأهلِ القِبْلَةِ، وَعَدَم رِضَاهُم بالدُّخُولِ تَحتَ أمرِ سُلطانِهِم؛ لأَنَّهُم لا يَرَوْنَ أنَّ أهلَ القبلَةِ عَلَى شيءٍ، وأَنَّهُم كُفَّارٌ، وَهَذَا لا يَخْفَى مِن حَالِهِمْ، وَإِنْ لوَّذُوا بمقَالِهِمْ.

فَإِذَا كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ عَتبَ عَلَى نبيٍّ منَ الأنبيَاءِ عَليهم السَّلامُ فِي إِحرَاقِ قَرْيةِ نَملٍ؛ لأَجلِ تَسبيحِهَا، كَمَا عِندَ البُخَارِيِّ[3]، وَمُسْلِمٍ[4]، وأَبِي دَاودَ[5]، والنَّسَائِيِّ[6]، وابنِ

---

(١) أخرجه ابنُ أبي شيبةَ في «المصنَّفِ» (٦/ ٣٣٨).

(٢) «حادِي الأرواح» (ص ١٥)

(٣) (برقم: ٣٠١٩).

(٤) (برقم: ٢٢٤١).

(٥) فِي «السُّنَنِ» (٥٢٦٦).

(٦) فِي «المُجتبَى» (٧/ ١٠٨).



مَاجَه [(١)] عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ نَمْلَةً قَرَصَتْ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: إنَّ قَرَصَتكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ؟».

فَكَيفَ بقَتلِ الخَوارِجِ لأُمَّةٍ قَدْ مَلَأَتْ مسَاجِدَهَا تَسْبِيحًا وَتَهْلِيلًا، وأعْلنَتْ بمنَارِهَا بالأَذَانِ دعَاءً وتنْويهًا، وهُم مَع ذَلِكَ عِندَهُم كفَّارٌ لَا يُورثُونَهُم وَلَا يُصلَّى عَليهم وَلَا يورثُونَ.

وَقَدْ رَوَى الدَّارَقُطْنِيُّ [(٢)] وَغَيرُهُ أَحَادِيثَ مَرْفُوعَةً فِيهَا مَقَالٌ: «صَلُّوا عَلَى مَنْ قَالَ لَا إِلَه إِلَّا اللهُ»، وإِنْ كَانَ إجمَاعُ أهلِ السُّنةِ والجَمَاعَةِ كَافٍ فِي ذَلِكَ؛ إِذْ هُوَ مبطلٌ للقَولِ الخَارِجِ عَنْهُ فِي هَذَا المقَامِ.

وفِي كتَابِ «صفَةِ الجَنَّةِ» [(٣)] لأَبِي نُعيمٍ مِنْ حَدِيثِ أبانَ بنِ عثمَانَ عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِي إِلَى رسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: يَا رسُولَ الله مَا ثَمن الجنة؟ قَالَ: «لا إله إلا الله» وَلَهُ شَوَاهِد كَثِيرَةٌ.

وقَدْ تقدَّمَ حَدِيثِ عُثمَانَ بنِ عفَّانَ ﷺ أنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ: «مَن مَاتَ وَهُوَ يعلمُ أَن لَا إِلَه إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ» وَهُوَ فِي صَحيحِ مُسْلِمٍ.

وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ معَاذٍ ﷺ عِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ [(٤)]، وأبي دَاودَ فِي سُننه [(٥)] أَنَّهُ قَالَ:

---

(١) فِي «السُّنَنِ» (٣٢٢٥).

(٢) فِي «السُّنَنِ» (١/ ٤٠١ـ ٤٠٢).

(٣) «صفة الجنة» (١/ ٧٣ رقم: ٥١).
قال الشيخ الألبانيُّ فِي «الضَّعيفة» (٧/ ٤٥٩): «قلتُ: وهذا إسنادٌ هالكٌ؛ أبان - وهو ابنُ أبي عياشٍ - متروكٌ.
وأسيدُ بنُ زيدٍ، قال الحافظُ: «ضعيفٌ، أفرطَ ابنُ معينٍ فكذَّبه، وما له فِي البخاريِّ سوَى حديثٍ واحدٍ مقرون بغيرِه». ثمَّ رواه أبو نعيمٍ بسندٍ صحيحٍ عن الحسنِ موقُوفاً عليه، وهو الصَّوابُ».

(٤) (٢١٩٩٨).

(٥) فِي «السُّنَنِ» (٣١١٦).

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ كَانَ آخر كَلَامِهِ لا إله إلا اللهُ دَخَلَ الجنَّةَ».

وقال الحَاكِمُ[(١)] أَبُو عَبدِ الله بَعدَ رِوَايتِهِ لَهُ فِي «مُسْتَدركِهِ»: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسنَادِ».

والأحادِيثُ فِي هَذَا كثيرةٌ جدًّا مرَّ جُمْلَتُهَا.

والخَوارِجُ لا تُدخلُ فِي دِينِهَا مِن أَهْلِ القِبلَةِ، إلَّا مَنْ رَضِيَ قَوْلَهُم وصوَّبهم عَلَيْهِ، ولَو كَانَ مِنْ أَعْبدِ أَهْلِ القِبلَةِ وَأَزْهَدِهِمْ، فقبُول شهادتَي الحَقِّ عندَهُم موكولٌ إِلَى رِضَاهُم وقبُولِهِمْ.

وذلكَ مَعلُومٌ لا يَخفَى مِن حَالِهِمْ كَمَا سَتَرَاهُ، والَّذِي حَمَلَهُم عَلَى ذَلِكَ الغُلو فِي الدِّينِ، وذَلِكَ مِن تَسْوِيلِ الشَّياطِينِ، وَقَد نَهَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ.

فلَولا أنَّ الأمَّةَ تُذنبُ الذنُوبَ الكبَارَ لصَافحتهُم المَلائِكَةُ، ولمَا أَرْشَدَهُم اللهُ إِلَى الاستغفَارِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ وَهَذَا خطابٌ لأمَّتِهِ ﷺ بوَاسطتِه وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الآيةِ الأخرَى: ﴿ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ ﴾.

وفِي «مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَدَ»[(٢)] بِسَندٍ جيِّدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ مَرْفُوعًا: «جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ نُجَدِّدُهُ؟ قَالَ: «أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُّ».

وَرَوَاهُ الحَاكِمُ[(٣)] أيضًا، وَقَالَ: «صَحِيحُ الإِسْنَادِ».

قال الذَّهبيُّ: «وَفِي سندِ الحَاكمِ صَدَقَةُ بنُ مُوسَى ضعَّفُوهُ، وَرِجَال الإِمَامِ أَحْمَدَ كُلُّهم ثقَاتٌ».

---

(١) فِي «المُستَدرَكِ» (١/ ٣٥١).

(٢) «المُسند» (٢/ ٣٥٩) وضعَّفه الشيخُ الألبانِيُّ فِي «الضَّعيفةِ» (٨٩٦).

(٣) فِي «المُستَدرَكِ» (٤/ ٢٥٦).

وقد قَالَ الإمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»[1]: ثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، أنبأَنَا أَبُو مَالِكٍ، عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا أَتَى بِهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: مَا عَمِلْتُ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، قَالَ لَهُ ذَلِكَ ثلاثًا، فَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: أَنِي كُنْتَ أَعْطَيْتَنِي فَضْلًا مِن المَال فِي الدُّنْيَا، فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ، فكُنْتُ أُيَسِّرُ عَلَى المُوسِرِ، وَأُنْظِرُ المُعْسِرَ، فَقَالَ تَبَارَكَ وتَعَالَى: «نَحْنُ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي، فَغُفِرَ لَهُ».

وَقَدْ مرَّ نَحْوُهُ مَرْفُوعًا إِلَى النبيِّ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودٍ، وعُقْبَةَ بن عَامِرٍ مِنْ تَخْرِيجِ البُخَارِيِّ ومسْلِمٍ منْ حَدِيثِ حُذَيفَةَ أيضًا.

وَقَدْ قَالَ ابنُ الجَوْزِيِّ فِي «تَلْبِيسِ إِبْلِيس عَلَى النَّاسِ»: «وَقَد زَعَمَ أَرْبَابُ الكَلَام أَنَّهُ لَا يتمُّ الإيمَانُ إلَّا بِمَعْرِفَةِ مَا رَتَّبوهُ مِنَ الأدلَّةِ، وهَؤُلَاءِ عَلَى الخَطَأ قطعًا؛ لأنَّ الرَّسُولَ ﷺ أمَرَنَا بالإِيمَانِ، ولَمْ يَأمرْ بِبَحْثِ المتكلمِينَ، ودرَجَ الصَّحابَةُ ﷺ الَّذِينَ شَهدَ لَهُمُ الشَّارعُ بِأَنَّهم خَيْرُ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ»[2].

وَقَالَ مَعْنَاهُ النَّوويُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَغَيْرُهُ، وَذَكَرَ شَيخُ الإِسْلَامِ ابنُ تيميَّةَ أَنَّ هَذَا المَذْهَبَ تَلَقَّتهُ المُعْتزلَةُ عَنِ الخَوَارِجِ.

وَقَالَ الإِمَامُ الحَافِظُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَلِيُّ بنُ أحْمَدَ بنِ حَزمِ الظَّاهِرِيُّ: «وَمَنِ اعْتَقَدَ الْإِيمَانَ بِقَلْبِهِ، وَنَطَقَ بِهِ بِلِسَانِهِ؛ فَقَدْ وُفِّقَ، سَوَاء اسْتَدَلَّ أَوْ لَمْ يَسْتَدِلَّ، هُوَ مُؤْمِنٌ عِنْدَ اللهَّ وَعِنْدَ المُسْلِمِينَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾، وَقَالَ فِي الآيةِ الأخرَى: وَلَمْ يَشْتَرِطْ جلَّ ثناؤُهُ اسْتِدْلَالًا، وَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهَّ ﷺ مُنذُ بَعَثَهُ اللهُّ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ يُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يُقِرُّوا بِالْإِسْلَامِ وَيَلْتَزِمُوهُ، وَلَمْ يُكَلِّفْهُمْ اسْتِدْلَالًا، وَلَا سَأَلَهُمْ هَلْ اسْتَدَلُّوا أَمْ لَا؟ وَعَلَى هَذَا جَرَى جَمِيعُ

---

(١) «المسند» (٤/ ١١٨) صحَّحه الشيخُ الألبانِيُّ فِي «صحيح التَّرغيبِ والتَّرهيبِ» (١/ ٨٧).

(٢) «تَلبِيس إِبلِيس» (٢/ ٤٩٧).

الْإِسْلَامِ إِلَى الْيَوْمِ. وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ»[(١)].

قُلْتُ: فَهَؤُلَاءِ وَمَنْ هُمْ سَلَفُهُ هُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآيَةَ.

فَهَذَا قَوْلُ عُلَمَاءِ الإِسْلَامِ ﷺ المَرضِي عِندَ الأمَّةِ قولهُم، وهُم سَلَفُ الأُمَّةِ الَّذِينَ وصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

وأنتَ تَرَى الخَوَارجَ يخرجُونَ عَلَى أمَّةٍ قائِمةٍ قابلةٍ للإسلَامِ يدعُونَ بداعِي الفلَاحِ عَلَى رُؤوسِ المَنابرِ، وينصِبونَ القضَاةَ لفصلِ الحُكومَاتِ فِي جَميعِ القرَى والأمصَارِ، يعمِّرُونَ بتدريسِ العِلْمِ فِيهَا المَدارِس، ويُفصِحُونَ بالشَّهادتَينِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وزَمانٍ حديثٍ ودَارسٍ، يُشمرُّ صُلحَاؤُهم إِلَى كلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ، ويتجنبُ للرَّذيلِ مِنْهَا والطَّالحِ، فَلَمْ يشعرْهُم وَهُم عَلَى ذَلِكَ إلَّا والخَوَارجُ لَهُم بالمَدارِكِ، فهَلْ يحسنُ بطائفتَينِ تلاقتَا كُلٌّ منهمَا، يُعْلَنُ بالأَذَانِ للصَّلاة فِي أوقَاتِهَا، ويُفصحُ كُلٌّ منهمَا باللَّيلِ تحارسًا بلَا إلَه إلَّا اللهُ خوف دهاتِها، إلَّا أَنْ يَكُونَ أحدُ الطَّائفتَينِ خَارجيًّا يُفصحُ بالتَّكفيرِ للآخرِ، ويعلنُ، أو باغيًا يطلبُ ملكًا، وذلكَ فِي تَحقيقِهِ عَلَى الأمَّة أهونُ، فإنَّ الخَوَارجَ لا تعصمُ مِنْهُم الشَّهادةُ، وَلَا يمنعُ مِنْهُم الهوادة، وذلكَ لأمرٍ منَ الله تَعَالَى قَدْ مضَى، وقدرٌ لا يصلحُ معَهُ للمُؤمنِ إلَّا الرِّضَى، فنَسأَلُ اللهَ تَعَالَى العَفْو والعَافِيةَ، مِنَ الفتنِ المتَتابعَة المتلَاقيةِ.

فَإِذَا تقرَّر ذَلِكَ عِنْدَكَ؛ فاقْدحْ بِفِكْرِ الفَهمِ زِنْدَكَ، بَعدَ مَا تَختمُ كُلَّ غَدَاةٍ وعَشيةٍ وَرَددَ قائلًا: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، مَع اسْتفتَاحِكَ وَخَتْمِكَ بالصَّلَاةِ والسَّلَامِ عَلَى سيِّدِ المُرْسَلِينَ ﷺ، فإنَّهُ حَرِي أنْ توفقَ وتُميِّزَ بَينَ القَولَينِ، والطَّائفتَينِ، وَبَيْنَ أَهلِ السُّنَّةِ

---

(١) «المحلى» (١/ ٦١ـ ٦٢).

والجَماعَةِ، وَمَنْ كَانَ خَارِجًا عَنْهُم مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائفِ مِنَ الفِرقِ الَّذِينَ قَدْ ضَلُّوا، وأَضَلُّوا عن سَواءِ السَّبيلِ، وَذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ مِنَ اللهِ مُسْبَقٌ فِيهِمْ.

قَالَ الله تَعَالَى فِيمَن أَعْرَضَ عَنْ هُدَاه واتَّبعَ هوَاهُ: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ فَقَدْ أَضلهُم اللهُ تبارَكَ وتَعَالَى عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بأَنَّهُم لا يصلحُونَ للهِدَايَةِ.

فصلٌ

وَمَع ما ذكرْنَا فِي الخَوَارجِ، وحذَّرنَا عنهُم، فالرَّافضةُ شرٌّ مِنْهُم حَالاً ومَآلاً.

وأمَّا المُرجئةُ: المقَابلُونَ للخَوارجِ فِي مذهبِهِم؛ فإنَّهُم أحْسَن حَالاً مِن الخوارجِ، وأقلّ ضَررًا عَلَى العبَادِ فِي البلادِ، ولأنَّ فيهم علماءَ وصلحاءَ وعبَّادًا وزهَّادًا، وهمُ أقربُ مِن ذنيكَ الفرقتَينِ لعِلمِ الكتَابِ، وَمَا بِهِ يُرادُ، إلَّا أنَّ البدعَ كلَّها قبيحةٌ مذمومةٌ، ولكِن بعضهَا أقبحُ منْ بعضٍ، فهُم أقلُّ فِي الأمَّةِ مِنَ الخوارِجِ فسَادًا وعِنَادًا.

وأمَّا المُعْتزلةُ: فغَالبُ مَذْهَبِهِم فِي الأمَّةِ مُكتسبٌ مِن مذهَبِ الخَوارجِ إلَّا أنَّهُم أحْسَنُ حَالاً مِنْهُم فِي عَدمِ التَّكفيرِ؛ لأنَّهُم يجعلُونَ العُصاةَ بمنزلَةٍ بَينَ المنزلتَينِ، لكنَّهم فِي صِفاتِ الرَّب جَلَّ جَلالَهُ، وتقَدَّستْ أسمَاؤُهُ أقبح مقَالاً مِنَ الخَوارجِ؛ لأنَّ الخَوارجَ لم يُحفظْ عنهم تعطيلٌ فِي صِفَاتِ البَارِي عزَّ وجلَّ، وسَيأتِي قَولُ عبيدةُ بنُ هلالِ الخَارِجي:

عَلَا فَوْقَ عَرْشٍ فَوْقَ سَبْعٍ وَدُونَهُ ... سَمَاءٌ يَرَى الأَرْوَاحَ مِنْ دُونِهَا تَجْرِي

إذ قَالَ لَهُ العبديُّ ـ أحدُ غُلاةِ الخَوارِجِ ـ: كَفرتَ إلَّا أن تأتِيَ بالمَخْرَجِ، فَقَالَ: نَعَمْ؛ روحُ المُؤمنِ تعرجُ إِلَى السَّماءِ، قَالَ: صَدَقْتَ[1]!

فالحَاصِلُ: أنَّ الَّذِي يَقُومُ بتكفيرِ أمَّةٍ قائمَةٍ ظَاهِرَةٍ فِيهَا شَعَائر دَينِهَا كالشَّهادتَينِ والدُّعاءِ بالأذانَينِ عَلَى رُؤوسِ منارِهَا، إِلَى صَلاتِهَا، وصِيَامِ رَمَضَانِهَا، وَحجِّ البيتِ مَع استطَاعتِهَا، ونصبِ قضَاتِهَا فِي جَميعِ أعصَارِهَا وأمصَارِهَا، ويسلُّ بِذَلِكَ عَليها سيفَهُ؛ إنَّهُ بِذَلِكَ لَمْ يَتَّقِ حُرْمتَهَا، وَلَمْ يخلفْ رسُولَهُ ﷺ فِي أمَّتِهِ بِخَيرٍ.

فهَلا جعلَ خشُونتَهُ فِي أعداءِ الأمَّةِ الكُفارِ، وَكَسر صَلِيبهم، وَمَا كَانَ لَهُم منَ الكنَائسِ الكبَارِ، فَإِنْ عَظُمَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَلَمْ يُدْرِكْ مَا هنَالكَ؛ فعَليهِ بالغُلاةِ الرَّوافضِ ـ الَّذِينَ هُم لدينِ

(١) ذكرَهَا المبرِّد فِي «الكامل فِي اللُّغةِ والأدبِ» (٣/ ٢٩١) بصيغة التَّمريضِ.

الله رَوَافِض - بِأنْ يمنعَهُم مِن بِدعتِهم الخَبيثةِ المكيثةِ، وأن يَتورَّعَ عن تكفِير أمَّةٍ ترجُوا منَ الله الرَّحمةَ مَع مَا فِي ذَلِكَ من وعدِ الله لنبيِّهِ ﷺ.

فَعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(١)]، وَمُسْلِمٍ[(٢)]، وأَبِي دَاودَ[(٣)]، والنسائي[(٤)] عَنْ عمَارَةَ بنِ رُؤيبةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا».

وَقدْ مرَّ فِي الحَدِيثِ المَرْفُوعِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى الصُّبحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ الله تَعَالَى».

وقولُه ﷺ فِي حديثِ أنسٍ رضي الله عنه عن البُخَارِيِّ[(٥)] وغيره «مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا؛ فَذَلِكَ المُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلاَ تُخْفِرُوا اللهَ فِي ذِمَّتِهِ».

وَقَدْ جَعَلَتِ الخَوارِجُ الأذانَ الَّذِي هُوَ من شَعائِرِ الإسلَامِ وسيلةً إِلَى قتلِ المُصلينَ؛ كَمَا فعَلُوا ذَلِكَ بالكُوفةِ يُؤذِّنُونَ فِي المَسجِدِ آخر اللَّيلِ حتَّى إذا جَاءَهُم من يريدُ التقدُّمَ؛ قتلُوهُ فِي المَسْجِدِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيلِ.

وَقَدْ قَالَ الطَّبَرَانِيُّ[(٦)]: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْمُعَلَّى الدِّمَشْقِيُّ، وَالْحُسَيْنُ بْنُ إِسْحَاقَ التُّسْتَرِيُّ قَالَا: ثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ، ثنا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاشٍ، أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادٍ الأَلْهَانِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ رضي الله عنه، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله يَقُولُ: «وَعَدَنِي رَبِّي: أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، وَثَلَاثَ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ ربي».

وَهَذَا إِسْنادٌ صَحِيحٌ حَيْثُ صرَّحَ إِسْمَاعِيلُ بنُ عيَّاشٍ بالتَّحْدِيثِ عَنِ الشَّامِيينَ.

---

(١) فِي «المُسْندِ» (٤/ ١٣٦).

(٢) فِي «صَحِيحِهِ» (١٣٨٠).

(٣) فِي «السُّنَنِ» (٣٦٢).

(٤) فِي «المجتبى» (١/ ٥٧١).

(٥) (برقم: ٣٩١).

(٦) فِي «الكبير» (٨/ ١١٠) صحَّحه الشيخ الألباني فِي «الصَّحيحةِ» (٤/ ٥٤١).

وقَالَ أَبُو بَكر ابنُ أَبِي شَيْبَةَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بنُ أَبِي عَيَّاشٍ عَن مُحَمَّدِ بنِ زِيَادٍ فَذَكَرَهُ بِسَنَدِهِ وَمتنِهِ، إِلَّا أَنَّ ابنَ عيَّاشٍ لمْ يصرِّحْ بِالتَّحدِيثِ، وصرَّحَ بِهِ فِي روايةِ الطَّبرانِي فزَالَ التَّدليسُ، والحَدِيثُ لَهُ شَواهد كثيرةٌ، وَرَوَاهُ التِّرمِذِيُّ[1] وحسَّنهُ عَنْ أَبِي أمَامَةَ ﷺ مَرْفُوعًا بِهَذَا اللَّفْظِ.

قال أَبُو بَكْر ابنُ أَبِي عَاصِمٍ[2]: ثنا دُحَيْمٌ، ثنا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، ثنا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو، عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ، عَنْ أَبِي الْيَمَانِ الْهَوْزَنِيِّ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ» قَالَ يَزِيدُ بْنُ الْأَخْنَسِ: وَاللهِ مَا أُولَئِكَ فِي أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ إِلَّا مِثْلُ الذُّبَابِ الْأَصْهَبِ فِي الذِّبَّانِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَإِنَّ اللهَ وَعَدَنِي سَبْعِينَ أَلْفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَزَادَنِي ثَلَاثَ حَثَيَاتٍ»

فدُحَيمٌ هُوَ: عَبدُ الرَّحْمَنِ بنُ إبرَاهِيمَ بنِ عَمْرو العُثمَانِي مَوْلَاهُم الأمويُّ الدِّمشقِي، شَيخُ البُخَارِيِّ، وَدُحَيمٌ لَقبٌ لَهُ.

والوَلِيدُ بنُ مُسْلِمٍ: هُوَ القرشِي مَولَاهُم الدِّمشقِي مِنْ رِجَالِ «الصَّحِيحَينِ» وَقَد زَالَ مَا يُعَابُ بِهِ مِنَ التَّدليسِ بالتَّحدِيثِ.

وَصَفْوَانُ بنُ عَمْرو السّكسكِي الحِمْصِي: مِن رِجَالِ مُسْلم بنِ وسيم بنِ عَامر هُوَ الكلاعِي أبو يَحيى الحمصِي أيضًا، ثقةٌ مِنْ رِجَالِ مُسْلِمٍ، قَالُوا: وَغَلطَ مَنْ قَالَ: إنَّه أدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ.

وأَبُو اليَمَانِي: هُوَ عَامِرُ بنُ عَبدِ الله بنِ يَحْيَى الهوزنِي مِنْ رِجَالِ السُّننِ، روى لَهُ أَبُو دَاودَ فِي سُننِهِ مِن صِغَارِ التَّابِعِينَ.

---

(١) فِي «الجَامِع» (٢٤٣٧).

(٢) فِي «السُّنةِ» (ص ٢٦١) قال الشَّيخُ الألبانِيُّ: «إسنادهُ صحيحٌ، ورجاله كُلُّهم ثقاتٌ، والوليدُ بنُ مسلمٍ وإنْ كَان يخشَى منْ تدليسِهِ تدليس التَّسويةِ، فقَد تُوبعَ كَما يأتِي، فأمنَّا بذلكَ تدليسَهُ».

قَالَ أَبُو عَبدِ اللهِ مُحَمَّد بنُ عَبدِ الوَاحِدِ المَقْدِسِي: لَا أَعْلَمُ فِيهِ جَرْحًا.

وَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ(١): حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ خُلَيْدٍ، ثَنَا أَبُو تَوْبَةَ، ثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ سَلَّامٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ سَلَّامٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلَّامٍ، يَقُولُ: حَدَّثَنِي عَامِرُ بْنُ زَيْدٍ الْبِكَالِيُّ، أَنَّهُ سَمِعَ عُتْبَةَ بْنَ عَبْدٍ السُّلَمِيِّ يقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَنِي أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، يَشْفَعُ كُلُّ أَلْفٍ لِسَبْعِينَ أَلْفًا، ثُمَّ يَحْثُو رَبِّي تبَارَكَ وتَعَالَى بِكَفَّيْهِ ثَلَاثَ حَثَيَاتٍ» فَكَبَّرَ عُمَرُ، وَقَالَ: إِنَّ السَّبْعِينَ الْأُوَلَ يُشَفِّعُهُمْ اللهُ فِي آبَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ، وَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِحْدَى الْحَثَيَاتِ الأَوَاخِرِ.

قَالَ أَبُو عَبدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الوَاحِدِ المَقْدِسِي: لَا أَعْلَمُ لِهَذَا الإِسْنَادِ علَّة.

وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ نحوَهُ عن أَبِي سَعِيدٍ الأَنمَارِيِّ مَرْفُوعًا.

وعندَ أَبِي نُعيمٍ فِي الحليةِ(٢) بِسندٍ فِيهِ سُليمَانُ بنُ حَربٍ عَنْ أَنَسٍ ﷺ مَرْفُوعًا «وَعَدنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدخلَ الجَنَّةَ مِن أمَّتِي مائةَ ألفٍ» فَقَالَ أَبُو بكرٍ: يا رسولَ الله زِدْنَا قَالَ: «وَهَكَذَا». وَأَشَارَ سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ بِيَدِهِ كَذَلِكَ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنَا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَادِرٌ أَنْ يُدْخِلَ النَّاسَ الْجَنَّةَ بِحَثْيَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «صَدقَ عُمَرُ» رَوَاهُ أَبُو نُعَيمٍ عَنْ إِبرَاهِيمَ بنِ الهَيثمِ البلويِّ وفيهِ ضَعفٌ.

وقالَ عَبْدُ الرَّازقِ فِي مُصَنَّفِهِ(٣): أَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنِ النَّضْرِ بْنِ أَنَسٍ، [عَنْ

---

(١) فِي «الأوسطِ» (٤٠٢).
قَالَ الهيثميُّ فِي «المَجمعِ» (١٠/ ٤١٤): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَاللَّفْظُ لَهُ، وَفِي الْكَبِيرِ، وَأَحْمَدُ بِاخْتِصَارٍ عَنْهُمَا، وَفِيهِ عَامِرُ بْنُ الْبَكَالِيُّ، وَقَدْ ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَلَمْ يَجْرَحْهُ وَلَمْ يُوَثِّقْهُ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ».

(٢) (٢/ ٣٤٥).

(٣) «المصنَّف» (٢٠٥٣٥) ومن طريقه: أحمد (٣/ ١٦٥).
قَالَ الهيثميُّ فِي «المَجمعِ» (١٠/ ٤٠٤): «رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَرِجَالُهُمَا رِجَالُ الصَّحِيحِ».

أَنَسٍ] (١) ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ»

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: زِدْنَا يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «وَهَكَذَا» وَجَمَعَ كَفَّهُ، قَالَ: زِدْنَا يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «وَهَكَذَا»، فَقَالَ عُمَرُ: حَسْبُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا عَلَيْكَ أَنْ يُدْخِلَنَا اللهُ الْجَنَّةَ كُلَّنَا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنْ شَاءَ أَدْخَلَ خَلْقَهُ الْجَنَّةَ بِكَفٍّ وَاحِدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ».

وَهَذَا سَنَدٌ صَحِيحٌ كَمَا تَرَى إِلَّا أَنَّ عَبدَ الرَّازِقِ تَفَرَّدَ بِهِ؛ وَهُوَ حَافِظٌ مِنْ حفَّاظِ الأُمَّةِ، كَيْفَ وَهُوَ مِن شُيوخِ الإِمَامِ أَحْمَدَ وَيَحْيى بنِ مَعِينٍ رَحَلَا إِليهِ مِنَ العِرَاقِ عَلَى أَرجلِهِمَا إِلَى صنعَاءَ.

وَقَالَ أَبُو يَعْلَى المَوْصِلِي فِي مُسْنَدِهِ (٢): حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْقَاهِرِ بْنُ السَّرِيِّ السُّلمِي، ثَنَا حُمَيْدٌ، عَنْ أَنسٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا»، قَالُوا: زِدْنَا يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ: «وهَكذَا» وَحَثَا بِيَدِهِ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَبْعَدَ اللهُ مَنْ دَخَلَ النَّارَ بَعْدَ هَذَا.

وَعَبدُ القَاهِرِ: هَذَا مِنْ رِجَالِ أَبِي دَاودَ، وابنِ مَاجه، وسُئلَ عَنْهُ يَحْيى بنُ مَعِينٍ، فَقَالَ: صَالِحُ الحَدِيثِ.

قال مُحَمَّد بنُ عَبدِ الوَاحد المَقْدِسِي: لَا أعلمُه رُوِيَ عَن أَنسٍ إِلَّا بِهَذَا الطَّرِيقِ.

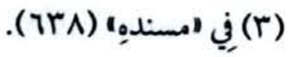
وَعِندَ البَزَّارِ (٣)، والطَّبَرَانِي (١)، وأَبِي نُعيمٍ (٢) بسنَدٍ حَسَنٍ كَمَا قَالَ المُنذِرِيُّ (٣) عَنْ عَلِيِّ بنِ

---

(١) غير موجودة في المخطوط، واستدركتها من المصنَّف.

(٢) «المسند» (٣٧٨٣).

قالَ البوصيريُّ فِي «الإتحافِ» (٨/ ٢٥٥): «رَوَاهُ أَبو يَعْلَى المَوْصِلِيُّ وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ».


(٣) فِي «مسندهِ» (٦٣٨).

==



أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَشْفَعُ لِأُمَّتِي حَتَّى يُنَادِيَنِي رَبِّي تبارك وتَعَالَى: أَرَضِيتَ يَا مُحَمَّدُ؟ فَأَقُولُ: نَعَمْ، رَضِيتُ»

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(٤)]، والطَّبرانِي[(٥)] بسندٍ لَا بَأسَ بِهِ عَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامتِ ﷺ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ: «إن اللهَ تَعَالَى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لَمْ أَبعثْ نَبيًّا وَلَا رَسُولًا إِلَّا وَقَدْ سَأَلَنِي مَسْأَلَةً أَعْطَيْتُهَا إِيَّاهُ، فَسَلْ: يَا مُحَمَّدُ تُعْطَ. فَقُلْتُ: مَسْأَلَتِي شَفَاعَةٌ لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ الله، وَمَا الشَّفَاعَةُ؟ قَالَ: «أَقُولُ يَا رَبِّ شَفَاعَتِي الَّتِي اخْتَبَأْتُ عِنْدَكَ، فَيَقُولُ الرَّبُّ: نَعَمْ. فَيُخْرِجُ رَبِّي بَقِيَّةَ أُمَّتِي مِنَ النَّارِ فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ».

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ، والطبرَانِيِّ فِي «الأَوْسَطِ»[(٦)]، والبَيْهَقِيِّ فِي «البَعثِ والنُّشُورِ» عن بُرَيدَةَ[(٧)] ﷺ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «إِنِّي لَأَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لأَكْثَرَ مِمَّا عَلَى وَجْهِ

==

قَالَ الهيثميُّ فِي «المَجمعِ» (١٠/ ٣٧٧): «رَوَاهُ الْبَزَّارُ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَفِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ زَيْدٍ الْمَدَارِيُّ، وَلَمْ أَعْرِفْهُ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ وُثِّقُوا عَلَى ضَعْفٍ فِي بَعْضِهِمْ».

وقال الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «الضَّعيفة» (١٤/ ٤٤٤): «منكرٌ».

(١) فِي «الأوسطِ» (٢٠٦٢).

(٢) فِي «الحليةِ» (٣/ ١٧٩).

(٣) فِي «التَّرغيبِ والتَّرهيبِ» (٤/ ٤٤٦).

(٤) فِي «مُسندهِ» (٥/ ٣٢٥).

قَالَ الهيثميُّ فِي «المَجمعِ» (١٠/ ٣٦٨): «رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُ أَحْمَدَ ثِقَاتٌ عَلَى ضَعْفٍ فِي بَعْضِهِمْ».

(٥) فِي «الشَّامِيين» (١١٠١).

(٦) (٥٣٦٠)

قَالَ الهيثميُّ فِي «المَجمعِ» (١٠/ ٣٧٩): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَفِيهِ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو صَاحِبُ عَلِيِّ بْنِ الْمَدِينِيِّ، وَيُعْرَفُ بِالْقِلَوْرِيِّ وَلَمْ أَعْرِفْهُ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ وُثِّقُوا عَلَى ضَعْفٍ فِي بَعْضِهِمْ».

(٧) فِي «الأوسط»: «أنيس».

الأَرْضِ، مِنْ حَجَرٍ وَمَدَرٍ».

وَعِنْدَ الطَّبَرانِيِّ (١)، وأَبِي نُعَيمٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي».

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «السَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَالْمُقْتَصِدُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَةِ اللهِ، وَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ وَأَصْحَابُ الأَعْرَافِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ».

وَعِنْدَ البَيْهَقِيِّ (٢) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْنَا: يا رسُولَ الله لِمَنْ تَشْفَعُ؟ قَالَ: «لأَهلِ الكبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي وَأَهْلِ العَظَائِمِ» وَرَوَى البَيْهَقِيُّ نَحْوَهُ عَنْ طاوسٍ مُرْسلًا، وَقَالَ: وَهَذَا يَشْهدُ لكَون هَذَا اللَّفظ شَائعٌ فِيمَا بَيْنَ التَّابِعِينَ رحمهم الله.

وَعِندَ ابنِ أَبِي عَاصِمٍ فِي السُّنَّةِ (٣) عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه يَرْفَعُهُ إِلَى رسُولِ الله ﷺ قَالَ: «مَا زِلْتُ أَشْفَعُ إِلَى رَبِّي وَيُشَفِّعُنِي، وَأَشْفَعُ وَيُشَفِّعُنِي، حَتَّى أَقُولَ: أَيْ رَبِّ شَفِّعْنِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَيَقُولُ: هَذا لَيْسَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ وَلَا لِأَحَدٍ، هَذِهِ لِي، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَرَحْمَتِي، لَا أَدَعُ فِي النَّارِ أَحَدًا يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وتقدَّمَ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه نَحْوُ ذَلِكَ عَنِ «الصَّحِيحَيْنِ».

وَعِندَ الحاكم (٤)، والبَيْهَقِيِّ (١) وصحَّحَاهُ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ رضي الله عنها عَنْ رسُولِ الله ﷺ قَالَ:

---

(١) فِي «الكبير» (١١/ ١٨٩).
قَالَ الهيثميُّ فِي «المَجمع» (١٠/ ٣٧٨): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، وَالأَوْسَطِ بِاخْتِصَارٍ عَنْهُ، وَفِيهِ مُوسَى بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الصَّنْعَانِيُّ، وَهُوَ وَضَّاعٌ».

(٢) فِي «البعث» كما فِي «الاستدراكات» (ص ١٧٦).

(٣) (برقم: ٨٢٨) قال الشيخُ الألبانيُّ: «حديثٌ صحيحٌ، ورجالُه ثقاتٌ، رجالُ مسلمٍ غير عمرَانَ وهو ابن داور القَطَّان العمي، وهو صدوقٌ يهمُ لكنَّه قد تُوبعَ كَمَا يَأتِي».

(٤) فِي «المُسْتَدرَكِ» (١/ ٨٦).

قَالَ: «أُرِيتُ مَا يَلْقَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي وسَفْك بَعْضِهِمْ دَمَ بَعْضٍ، فَأَحْزَنَنِي وَسَبَقَ ذَلِكَ مِنَ اللهِ كَمَا سَبَقَ فِي الأُممِ قبْلَهُمْ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يُوَلِّيَنِي فِيهِمْ شَفَاعَة يَوْم الْقِيَامَةِ، فَفَعَلَ».

وأهلُ هَذِهِ الشَّفاعَةِ المُولَّى النبي ﷺ الشَّفاعَة لَهُم مِن ربِّه تبَارَكَ وتَعَالَى تفضلًا بِذَلِكَ عَلَيْهِ، وتكريمًا لَهُ بِهَا، إنَّمَا هُمْ عِندَ الخَوارجِ كفَّارٌ لا يَحكمُونَ لأَحَدٍ مِنْهُم بالإِسْلامِ إلَّا أن يهَاجِرَ إليهم، فإنْ أقرُّوا بِشَيءٍ مِنْهَا ابتغُوا منَ التَّأويلَاتِ للشَّفاعَةِ مَا يُسَاوِيهَا بالعَدَمِ، وإنْ أثبتُوا شيئًا مِنْهَا، فإنَّمَا هُوَ لفسَّاقِهِم وعُصَاتِهِم لَا للأمَّةِ الَّتِي قَدْ طبقتْ ما بَينَ الخَافقينِ؛ إذْ هُم عِندَهُم كفَّارٌ وهُم منْ أَهْلِ الخُلودِ فِي النَّارِ، وَذَلِكَ مَعْلُومٌ مِنْ مَذْهبِهِم وَسِيرتِهِمْ فِي الأُمَّةِ، غَير خافٍ مِنْ حَالِهِمْ ومقَالِهِمْ.

ومِنْ مذَاهبِهِم: أنَّهُم يوجبُونَ الاجتهَادَ المُطلَقَ مَع الجَهَالةِ بالكتَابِ والسُّنَّةِ واللُّغةِ والأصُولِ.

وَعِندَ البُخَارِيِّ[٢]، وَمُسْلِم[٣] عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ خَطبَ فَقَالَ: إِنَّهُ سَيَكُونُ قَوْمٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يُكَذِّبُونَ بِالرَّجْمِ، وَيُكَذِّبُونَ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَيُكَذِّبُونَ بِعَذَابِ الْقَبْرِ، وَيُكَذِّبُونَ بِالشَّفَاعَةِ؛ وَيُكَذِّبُونَ بِقَوْمٍ يُخْرَجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا امْتَحَشُوا.

وَعِندَ سَعِيدِ بنِ منصُورٍ فِي سُننِه، والبيهقيِّ، وهنَّاد بنِ السريِّ[٤] عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: مَنْ كَذَّبَ بِالشَّفَاعَةِ فَلا نَصِيبَ لَهُ فِيهَا، وَمَنْ كَذَّبَ بِالْحَوْضِ فَلَيْسَ لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ.

==

(١) قالَ المنذريُّ فِي «الترغيبِ» (٤/ ٤٣٢):«رواهُ البيهقيُّ فِي البعثِ وصحَّح إسنادَهُ» وصحَّحه الشيخُ الألبَانيُّ فِي «صحيحِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ» (٣/ ٤٥٠).

(٢) لم أجدْهُ فيها، لكِن أخرجَه أحمدُ (١/ ٢٣)، قال البُوصيريُّ فِي «الإتحافِ» (١/ ١٨٢): «مَدَارُ هَذَا الْحَدِيثِ عَلَى عَلِيِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ جُدْعَانَ، وَهُوَ ضَعِيفٌ».

(٣) (برقم:).

(٤) فِي «الزُّهدِ» (١٨٩) ورجاله ثقات، ومن طريقِه: الآجريُّ فِي «الشريعة» (٣٣٧).

وَعِندَ البَيْهَقِيِّ أيضًا عَنْ أَنسٍ ﷺ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: إِنَّ قومًا يُكذِّبُونَ بالشَّفَاعَةِ، قَالَ: فَلَا تُجالِسُوا أُولَئِكَ[(١)].

وَعِندَهُ[(٢)] أيضًا مِنْ طَرِيقٍ آخر عَنْهُ ﷺ قَالَ: يَخْرُجُ قومٌ مِنَ النَّارِ وَلَا نكذِّبُ كَمَا يُكذِّبُ بِهَا أَهْلُ حرُوراء - يعنِي: الخَوَارجَ - لأَنَّهُم يَحْكُمُونَ عَلَى فُجَّارِ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَمُذْنِبِيهَا بالكُفْرِ، فَلَا يَرَوْن مِنَ الأُمَّةِ مُسْلمًا إلَّا هُم، وأنَّ شهادتِي الحَقِّ مَشْرُوطُ قبُولِهَا بِرِضَاهُمْ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِن أَحْوَالِهِمْ، وأقْوَالِهِمْ لا يَخْفَى ذَلِكَ عَلَى مَنْ لَهُ مسكةُ عَقلٍ، أو دِينٍ، وَمَنْ لَمْ يَرْضوهُ فَهُوَ مِن جُمْلَةِ الكُفَّارِ المخلَّدِينَ فِي النَّارِ الوَاجِبِ عَلَيْهِم جهادُهُ ومنابذتهُ وعدَاوتهُ والبرَاءةُ مِنْهُ باطنًا وظاهرًا، فَلَا يرفعُونَ عَنْهُ السَّيفَ حتَّى يأتِيَ بِمَا يَرْضَونهُ مِنْ تَكفِيرِ الأُمَّةِ المَرْحُومَةِ.

فَعِندَ ابنِ مَاجَه[(٣)]، والبَيْهَقِيِّ عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مَرْحُومَةٌ عَذَابُهَا بِأَيْدِيهَا فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ رَجُلٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ، فَيُقَالُ: هَذَا فِدَاؤُكَ مِنْ النَّارِ».

وَعِندَ ابنِ مَاجَه[(٤)]، والطَّبرانِيِّ[(٥)] عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا جَمَعَ اللهُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُذِنَ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ بالسُّجُودِ فَيَسْجُدُونَ لَهُ طَوِيلًا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُم: ارْفَعُوا رُءُوسَكُمْ قَدْ جَعَلْنَا عِدَّتَكُمْ فِدَاءَكُم مِنْ النَّارِ».

---

(١) أخرجه مسددٌ كما فِي «المطالبِ العالية» (١٨/ ٤٨١) وسنده صحيحٌ.

(٢) عزاهُ إليهِ الحافظُ فِي «الفتحِ» (١١/ ٤٣٤)، والطبعةُ الموجودةُ من «البعثِ والنُّشور» غيرُ كاملةٍ.

(٣) فِي «السُّنَنِ» (٤٢٩٢) وصحَّحه الشَّيخُ الألبَانِي فِي «الصَّحيحَةِ» (١٣٨١).

(٤) فِي «السُّنَنِ» (٤٢٩١) قال الشَّيخُ الألبَانِيُّ فِي «الضعيفة» (٢٠٤٩): «ضَعِيفٌ جِدًّا».

(٥) فِي «الأوسطِ» (٨٦٩٩).

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ(١)، والطَّبرانِيِّ(٢) عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَلَا عَذَابَ مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا».

وَرَوَى الإمامُ أَحْمَدُ(٣) أيضًا، هُوَ وأبو يعْلَى المَوْصِلِي عَنْ أَبِي بَكْر الصِّديقِ نحوَهُ، وَفِي آخره: قَالَ أَبُو بكرٍ ﷺ: فَرَأَيْتُ أَنَّ ذَلِكَ يَأْتِي عَلَى أَهْلِ القُرَى، وَيُصِيبُ مِنْ حَافات البَوَادِي.

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ أيضًا(٤)، والبَزَّارُ(٥) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنُ أَبِي بَكْرٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ رَبِّي أَعْطَانِي سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ»، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله، فَهَلا اسْتَزَدْتَهُ؟ قَالَ: «قَدِ اسْتَزَدْتُهُ، فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ سَبْعِينَ أَلْفًا»، قَالَ

---

(١) فِي «مُسندِه» (٣٧/ ٣٩) وصحَّحه الشيخُ الألبانِيُّ فِي «الصَّحيحةِ» (٢١٧٩).

(٢) فِي «الكَبيرِ» (١٤١٣).

(٣) فِي «مُسندِه» (١/ ٦).
قال الشيخُ الألبانِيُّ فِي «الصَّحيحةِ» (٣/ ٤٧٣): «وهذَا سندٌ ضَعِيفٌ مِنْ أَجلِ الرَّجُلِ الَّذِي لَمْ يُسَمَّ. والمَسْعُودِي كَانَ اختلطَ واسمُه: عَبْدُ الرَّحمنِ بنُ عَبدِ الله بنِ عُتبةَ بنِ عَبدِ الله بنِ مَسْعُودٍ. لَكِنِ الحَدِيثُ صَحِيحٌ فإنَّ لَهُ شَوَاهِدُ كثِيرَةٌ عَنْ جمعٍ مِنَ الصَّحَابَةِ».

(٤) فِي «مُسندِه» (١/ ١٩٥) إسنادهُ ضَعِيفٌ، فيهِ: القاسمُ بن مهرَان وهو مجهُولٌ كما فِي المِيزَانِ» (٣/ ٣٨٥، وفيهِ: مُوسى بنُ عبيدٍ: جَهَّلَهُ الحُسينِي كَمَا فِي «التَّعجيل» (ص ٤١٥).
قَالَ الهَيْثَمِيُّ فِي «المَجمعِ» (١٠/ ٤١٠): «رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالْبَزَّارُ بِنَحْوِهِ، وَالطَّبَرَانِيُّ بِنَحْوِهِ وَفِي أَسَانِيدِهِمُ الْقَاسِمُ بْنُ مِهْرَانَ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُبَيْدٍ، وَمُوسَى بْنُ عُبَيْدٍ هَذَا هُوَ مَوْلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَسَيْدٍ، ذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثِّقَاتِ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مِهْرَانَ ذَكَرَهُ الذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَرْوِ عَنْهُ إِلَّا سُلَيْمُ بْنُ عَمْرٍو النَّخَعِيُّ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَقَدْ رَوَى عَنْهُ هَذَا الْحَدِيثَ هِشَامُ بْنُ حَسَّانَ، وَبَاقِي إِسْنَادِهِ مُحْتَجٌّ بِهِمْ فِي الصَّحِيحِ».

(٥) فِي «مسندِهِ» (٢٢٦٨).

عُمَرُ: فَهَلا اسْتَزَدْتَهُ؟ قَالَ: «قَدِ اسْتَزَدْتُهُ، فَأَعْطَانِي هَكَذَا» وَفَرَّجَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَبَسَطَ ذِرَاعيه، وَحَثَا، قَالَ هِشَامٌ: وَهَذَا مِنَ الله لَا يُدْرَى مَا عَدَدُهُ.

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(١)] أيضًا بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ رَبِّي اسْتَشَارَنِي فِي أُمَّتِي مَاذَا أَفْعَلُ بِهِمْ، فَقُلْتُ: مَا شِئْتَ رَبِّ، هُمْ خَلْقُكَ وَعِبَادُكَ، فَقَالَ: لَا نُحْزِنُكَ فِي أُمَّتِكَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، لَيْسَ عَلَيْهِمْ حِسَابٌ».

وَعِندَ الطَّبَرَانِي[(٢)]، وابنِ أبِي عَاصِمٍ فِي «السُّنَّة» عَنْ أبي سَعِيدِ الأنصَارِي أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ رَبِّي وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَيُشَفِّعَ كُلَّ أَلْفٍ لِسَبْعِينَ أَلْفًا، ثُمَّ يَحْثِي رَبِّي ثَلَاثَ حَثَيَاتٍ بِكَفَّيْهِ»

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَحَسَبْنَا عِندَ رَسُولِ الله ﷺ فبلغَ أَرْبعمِائَة ألفِ ألفٍ وَتَسعمِائَة ألف ألفٍ.

وَمِنْ ذَلِكَ الحَدِيثُ المَشْهُورُ فِي بَعضِ السُّنَنِ والمَسَانِيدِ عَنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما وَغَيْرِه مَرْفُوعًا: «إنا لله تَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ أَلف أَلفِ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ، فإذَا كَانَ آخرُ لَيْلَةٍ مِنْهُ أَعْتَقَ فِيهَا عَدَدَ مَنْ أَعْتَقَ فِي لَيَالِي الشَّهْرِ»[(٣)] وَهُوَ حَدِيثٌ شُهْرَتُهُ فِي الأُمَّةِ تُغْنِي عَنْ إِسْنَادِهِ.

وعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ[(٤)] وابنِ مَاجه[(٥)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا كَانَ

---

(١) فِي «مُسنده» (٥/ ٣٩٣) إسنادهُ ضَعيفٌ، فيه: عبدُ الله بنُ لَهِيعَةَ ضَعِيفٌ.

(٢) فِي «الكبير» (٢٢/ ٣٠٤).

(٣) أخرجهُ ابنُ خزيمةَ (١٨٨٧)، والبيهقيُّ فِي «الشعبِ» (٣٣٣٦).
قالَ الحافظُ فِي «إتحافِ المهرةِ» (٥/ ٥٦٠): «وَمَدَارُهُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، وَهُوَ ضَعِيفٌ».

(٤) فِي «السُّنَنِ» (٦٨٢).

(٥) فِي «السُّنَنِ» (١٦٤٢) وصحَّحه الشَّيخُ الألبانيُّ فِي «صَحيحِ الجَامعِ» (١/ ١٩٢).

أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ، وَمَرَدَةُ الجِنِّ...» الحَدِيث.

وَفِي آخرِهِ: «وَللهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ» وَرَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ[(١)] عَنْ رَجُلٍ لَمْ يُسَمِّهِ.

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(٢)] أيضًا فِي مُسْنَدِهِ عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ: «يُغْفَرُ لأُمَّتِي فِي آخِرِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ» قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، أَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنَّ الْعَامِلَ إِنَّمَا يُوَفَّى أَجْرَهُ إِذَا قَضَى عَمَلَهُ».

قالَ الإمامُ الحَافِظُ مُحَمَّدُ بنُ نَاصِرٍ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وإسنَادُهُ كلُّهم عدُولٌ.

وعندَ أبي دَاودَ[(٣)]، والتِّرْمِذِيِّ[(٤)]، والنَّسَائِيِّ[(٥)]، وابنُ مَاجَه[(٦)] والدَّارِمِيِّ[(٧)] عَنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ الهِلَالَ - يَعنِي: هِلَالَ رَمَضَانَ - فقَالَ: «أَتَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «يَا بِلَالُ، أَذِّنْ فِي النَّاسِ أَنْ يَصُومُوا غَدًا».

وَهُو أيضًا عِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ طُرقٍ كَثِيرَةٍ.

فانظرْ كيفَ أدَّتِ الشهادَتانِ والنُّطقُ بِهِمَا إِلَى قبُولِ خَبرِ مَنْ نطَقَ بِهِا وتكليف الأمَّة بصيامِ رِمضَانَ بِخبرِهِ، وإِلَى مَنْ هُوَ القَائِلُ لذَلِكَ.

---

(١) فِي «المسند» (٤/ ٣١١).

(٢) فِي «المُسندِ» (٢/ ٢٩٢) وضعَّفه الشيخُ الألبانِيُّ فِي «ضَعِيفِ التَّرغِيبِ والتَّرهِيبِ» (١/ ١٩٢).

(٣) فِي «السُّنَنِ» (٢٣٤٠) وضعَّفه الشيخُ الألبانِيُّ فِي «ضَعِيفِ أبِي دَاودَ» (٤٠٢).

(٤) فِي «السُّنَنِ» (٦٩١).

(٥) فِي «الكبرى» (٢٤٣٣).

(٦) فِي «السُّنَنِ» (١٦٥٢).

(٧) فِي «السُّنَنِ» (١٧١٨).

وَعندَ أبي يَعْلَى المَوْصِلِي فِي مُسْنَدِهِ[(١)] عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ لله تَعَالَى فِي كُلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ سِتَّمِائَةِ أَلْفِ عَتِيقٍ يَعْتِقُهُمْ مِنَ النَّارِ، كُلُّهُمْ قَدِ اسْتَوْجَبُوا النَّارَ».

وَمِنْ ذَلِكَ شَفَاعَةُ القُرآنِ كَمَا عِندَ مُسْلِمٍ[(٢)] عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ» وَهُوَ عِندَ غَيرِهِ بِهَذَا اللَّفْظِ.

إِذَا علمتَ مَا ذُكِرَ مِن كثرَةِ عُتقَاءِ البَارِي جلَّ وعلَا مِن هَذِهِ الأمَّةِ فِي كُلِّ رمضانَ وأسبُوعٍ، وعلمْتَ مَا الَّذِي أوجبَ قبُولَ خَبرِ الأعرَابِي حتَّى وَجبَ بِقَوْلِهِ عَلَى الأمَّةِ الشُّروع بِصِيامِ رِمضَانَ؛ عَرِفْتَ خطَأَ الخَوَارِجِ.

فأَينَ يقعُ هَذَا العِتقُ مِن فرقةٍ خرَجَتْ فِي الأمَّةِ لا ترَى ذَلِكَ العِتقَ والمَغفرةَ إلَّا لهَا، وهِيَ لَو أرَادَ إنسَانٌ أنْ يحصِرَ عددهَا لفعلَ، وتمرُّ عليها دهورٌ وشهورٌ لَو كررَ ما ذُكِرَ مِنَ العِتقِ عليهم لَمَا وَسعوهُ قطعًا.

أفترَاهُم كذَّبوا الرَّسُولَ ﷺ بِمَا أخبرَ؟ أم مَاذا يَقُولُونَ فِيمَا يؤولُونَ؟ فهلْ لَهُم استطاعةٌ أنْ يُأولوهُ كَمَا أَوَّلوا القرآنَ عَلَى تكفيرِ أهلِ القبلةِ، أم ماذَا يفترُونَ؟

وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ[(٣)] والحَاكِمِ[(٤)] ـ وصحَّحَاهُ ـ والبيهقيِّ عن عبدِ الله بنِ أبِي الجدعَاءِ قَالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقُولُ: «لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ» قالُوا: سِوَاكَ يا رسُولَ الله؟ قَالَ: «سِوَايَ».

---

(١) «المُسند» (٣٤٣٤) قالَ الشيخُ الألبانيُّ فِي «الضعيفةِ» (٦١٤): «منكرٌ».

(٢) (٨٠٤).

(٣) فِي «الجامِعِ» (٢٤٣٨) وصحَّحه الشيخُ الألبانيُّ فِي «الصَّحيحةِ» (٢١٧٨).

(٤) فِي «المُستَدرَكِ» (١/ ٧٠).



وعِندَ الحَاكِم [١] أيضًا، وَقَالَ: «صَحِيحُ الإِسنَادِ» والبيهقي، وهناد بن السري [٢] عَنِ الحَارِثِ بْنِ أُقَيْشٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ مُضَرَ».

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ [٣] مثلهُ مِنْ حَدِيثِ أبي برزَةَ.

وعندَ هنَّاد بنِ السري [٤] مثلهُ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ [٥]، والطَّبرانِي [٦]، والبيهقيِّ بِسَندٍ صَحِيحٍ عَن أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِي رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ يقُولُ: «لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ لَيْسَ بِنَبِيٍّ مِثْلُ الحَيَّيْنِ: رَبِيعَةَ وَمُضَرَ... » الحَدِيثَ.

فقُلْ لِي: الخوَارِج منْ أوَّلِهِم إِلَى آخرِهِم: هَل يَكُونُونَ عُشْرَ مُعْشَارِهَا بَينَ القبيلتَينِ اللتَّين هُمَا غَالِبُ بني إِسْمَاعِيلَ عليه السلام فضلاً عَن شَفَاعةِ سيِّدِ البَشَرِ، وجَمِيعِ الأوليَاءِ والشُّهدَاءِ والأطفَالِ والعُتقَاءِ.

وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ [٧] وحسَّنهُ، والبَيْهَقِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ فِي أُمَّتِي لَرِجَالًا يَشْفَعُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ فِي الْفِئَامِ مِنَ النَّاسِ، فيَدْخُلونَ الجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ وَيَشْفَعُ الرَّجُلُ مِنهُمْ للقَبِيلَةِ، فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ».

---

(١) فِي «المُسْتَدرَكِ» (١/ ٧١) وصحَّحه الشيخُ الألبانِيُّ فِي «صحيحِ الترغيبِ» (٢/ ٤٤٤).

(٢) فِي «الزهد» (١٨٤).

(٣) (٤/ ٢١٢).

(٤) فِي «الزهد» (١٨٥).

(٥) فِي «المُسندِ» (٥/ ٢٥٧) قالَ الشيخُ الألبانِيُّ فِي «الصَّحيحةِ» (٢١٧٨): «وهذا إسنادٌ حسنٌ».

(٦) فِي «الكَبيرِ» (٧٦٣٨).

(٧) فِي «الجَامعِ» (٢٤٤٠) وضعَّفه الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «ضَعيفِ الجَامعِ» (٢٠٠٢).

وَعِندَ الطَّبَرَانِيِّ[(١)] عَنْ جَابِرِ بنِ عَبدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخَرَ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخَرَ، وَأَوَّلُ مَنْ يُنْفَضُ التُّرَابُ عَنْ رَأْسِهِ وَلَا فَخَرَ، وَأَوَّلُ من أدخل الْجَنَّةَ وَلَا فَخَرَ، إِنِّي لَأَشْفَعُ، فَأُشَفَّعُ حَتَّى إِنَّ مَنْ أَشْفَعُ لَهُ لِيَشْفَعَ فَيُشَفَّعُ، حَتَّى إِنَّ إِبْلِيسَ لَيَتَطَاوَلُ فِي الشَّفَاعَةِ».

وَعِندَهُ[(٢)] عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَا تَزَالُ الشَّفَاعَةُ بِالنَّاسِ وَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ حَتَّى إِنَّ إِبْلِيسَ الْأَبَالِسِ لَيَتَطَاوَلُ لَهَا رَجَاءَ أَنْ تُصِيبَهُ».

وَعِندَ أَبِي دَاودَ[(٣)]، وابنِ حبَّانَ[(٤)] عَنْ أَبِي الدَّردَاءِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «الشَّهِيدُ يَشْفَعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ».

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(٥)]، والطَّبَرَانِي[(٦)] مثلهُ مِنْ حَدِيثِ عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ، ومثلهُ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ[(٧)] وابنِ مَاجَه[(٨)] مِن حَدِيثِ المِقدَامِ بنِ معدي كرب.

---

(١) فِي «الأوسطِ» (٥٠٨٢).

قَالَ الهَيْثَميُّ فِي «المَجمَع» (١٠/ ٣٧٥): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَرِجَالُهُ وُثِّقُوا عَلَى ضَعْفٍ كَثِيرٍ فِي عُبَيْدِ بْنِ إِسْحَاقَ الْعَطَّارِ، وَالْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ».

(٢) فِي «الكَبِيرِ» (١٠/ ٢١٥).

قَالَ الهَيْثَميُّ فِي «المَجمَع» (١٠/ ٣٨٠): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ مَوْقُوفًا، وَفِيهِ كَثِيرُ بْنُ يَحْيَى صَاحِبُ الْبَصْرِيِّ، وَهُوَ ضَعِيفٌ».

(٣) فِي «السُّنَنِ» (٢٥٢٢) وصحَّحه الشَّيخ الألبانِيُّ فِي «صَحيحِ أبي دَاودَ» (٢٢٧٧).

(٤) فِي «صحيحه» (٤٦٦٠).

(٥) فِي «مُسندِهِ» (٤/ ١٣١).

(٦) فِي «الكبيرِ» (٢٠/ ٢٦٦ - ٢٦٧).

(٧) فِي «الجَامِعِ» (١٦٦٣).

(٨) فِي «سننه» (٢٧٩٩).

وَعِندَ البزَّارِ [(١)]، والبيهقِي بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عن أنس ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إن الرَّجُلَ ليشفعَ فِي الرَّجُلِ والرَّجُلَينِ والثَّلاثة يوم القيامة».

والأحاديثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جدًّا، وهِيَ أخبَارٌ مِنْهُ ﷺ لا يَدْخُلهَا النَّسْخُ.

فَحَقِيقَةُ أمرِ الخَوارِجِ التَّكْذِيبُ بِهَا، وَإِنْ لَمْ ينطقُوا بالتَّكذِيبِ، فَكُلُّ عَاقِلٍ يعلمُ، وَيتحقَّقُ أن ذَلِكَ لازمٌ لِمَذهبِهِمْ لزُومًا لا يَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ.

وَقَدْ قَدَّمنَا مَا رَوَى سَعِيدُ بنُ مَنصُورٍ [(٢)]، والبَيْهَقِيُّ، وهنَّاد بنُ السري [(٣)] عَن أنسٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ كَذَّبَ بِالشَّفَاعَةِ فَلَا نَصِيبَ لَهُ فِيهَا، وَمَنْ كَذَّبَ بِالْحَوْضِ فَلَيْسَ لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ.

وما عِندَ البَيْهَقِيِّ عَنْهُ ﷺ أنه قيل لَهُ: إنَّ قومًا يكذِّبونَ بالشَّفاعةِ قَالَ: فَلَا تجالسُوا أولئكَ.

وعِندَ البَيْهَقِيِّ عَنْهُ ﷺ أنه قَالَ: ويخرج قومٌ من النَّار، وَلَا نكذبُ كَمَا يكذِّبُ بِهَا أهل حرُورَاء.

وَرَوَى البَيْهَقيُّ [(٤)]، والطَّبَرانِي [(٥)] بَسَندٍ جَيِّدٍ عَنْ مَعْقِلِ بن يَسَارٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «رَجُلَانِ لَا تَنَالُهُمَا شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِمَامٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وَآخَرُ غَالٍ فِي الدِّينِ مَارِقٌ مِنْهُ»

---

(١) فِي «مسندِهِ» (٦٩٢١) صحَّحه الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «صحيحِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ» (٢/ ٣٦٤).

(٢) فِي «سننه» (١٧٩٠).

(٣) فِي «الزهد» (١٨٩) ورجاله ثقات.

(٤) فِي «البَعثِ والنُّشورِ» (١٨).
قال البيهقيُّ: «تَفَرَّدَ بِهِ مَنِيعُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبَصْرِيُّ، وَرُوِيَ مِنْ أَوْجُهٍ أُخَرَ ضَعِيفَةٍ»، وصحَّحه الشَّيخُ الألبانِيُّ بِمَجمُوعِ طُرقِهِ فِي «ظلَالِ الجنَّةِ» (١/ ٢٣).

(٥) قالَ الهيثميُّ فِي «المَجمعِ» (٥/ ٢٣٥): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ وَرِجَالُ الْكَبِيرِ ثِقَاتٌ».

وَعِندَ البُخَارِيِّ[١] ومُسْلم[٢] عن جَابرِ بنِ عَبدِ الله ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ يُخْرِجُ قَوْمًا مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ».

وَهَذَا الحَدِيثُ يَعمُّ شَفَاعتهُ ﷺ لأُمَّتِه وَغَيرِه ممَّن ذكرَ وَهُوَ فِي «الصَّحِيحَينِ» كَمَا ترَى.

وعِندَ البَيْهَقِيِّ[٣] وغيره مِنْ طَرِيقِ ابنِ أَبِي طَلحَةَ عَنِ ابنِ عبَّاسٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ إِلَى ابنِ أَبِي طَلحَةَ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ قَالَ: الَّذِينَ ارتضَاهُمْ بشهادَةِ أن لَا إِلَه إِلَّا اللهُ.

قَالَ: وَقَد يَكُون المُرادُ بالآيَةِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أن يشفعُوا لَهُ كقَولِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

وَعِندَهُ[٤] عن مُجَاهِدٍ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾. قالَ: لا يشفعُ أحدٌ إلَّا بإذْنِهِ.

ثم قَالَ: وأَمَّا قولُه تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ فَإِنَّهُ لَا يَدْفَعُ الشَّفَاعَةَ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُلْكِ الدَّفْعَ بِالْقُوَّةِ كَمَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَدْفَعَ النَّاسُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَعَنْ أَنْفُسِهِمْ بِالْقُوَّةِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ يَوْمَ الدِّينِ. وَالشَّفَاعَةُ لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْبَابِ؛ لِأَنَّهَا تَذَلُّلٌ مِنَ الشَّافِعِ لِلْمَشْفُوعِ عِنْدَهُ، وَإِقَامَةُ الشَّفِيعِ تَذَلُّلٌ مِنَ الْمُشْفُوعِ لَهُ فَلَا يَوْمَ هِيَ أَلْيَقُ بِهِ وَأَشْبَهُ بِأَحْوَالِهِ مِنْ يَوْمِ الدِّينِ[٥].

---

(١) (برقم: ٦٥٥٨).

(٢) (برقم: ١٩١).

(٣) في «البَعث والنُّشور» (٢)، وفي «الاعتقاد» (ص ٢٣٧).
وإسنادُهُ ضَعيفٌ: عبدُ الله بنُ صَالح ضَعيفٌ، وعليُّ بنُ أبي طلحةَ لَم يسمعْ مِنَ ابنِ عبَّاسٍ.

(٤) في «البَعث والنُّشور» (٣).

(٥) «البَعث والنُّشور» (ص ٥٦).

قلت: وَقَد يكُون المَعْنَى لَا تَمْلُكُ نَفْسٌ لنفسٍ شَيئًا مِن دُونِ الله تَعَالَى كَمَا فِي الدُّنيا، فيَكُونُ فِي مَعْنَى قولِهِ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

وفِي «الصَّحِيحَينِ» عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟» فكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟» قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، مَا المُسْلِمُونَ فِي الْكُفَّارِ إِلَّا كَشَعْرَةٍ بَيْضَاءَ فِي ثَوْرٍ أَسْوَدَ، أَوْ كَشَعْرَةٍ سَوْدَاءَ فِي ثَوْرٍ أَبْيَضَ» هَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ[(١)].

وعند البُخَارِيِّ[(٢)]: «وكَشَعرةٍ سوداء» بغيرِ ألفٍ.

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(٣)]، والتِّرْمِذِيِّ[(٤)] بإسنادٍ على شَرطِ الصَّحيح عن بُرَيْدَةَ بن الحصيبِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَهْلُ الجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الأُمَمِ».

وهو عِندَ الطَّبَرانِي[(٥)] عنِ ابنِ عباسٍ مَرْفُوعًا بِمَعْنَاهُ إِلَّا أَنَّ فِي إسنَادِهِ خالدُ بنُ يزيدَ البَجْلي: «هَذِهِ الأُمَّةُ ثَمَانُونَ صَفًّا» وَرَوَاهُ الحاكم[(٦)]، والبيهقي عَن بُرَيْدَةَ، ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَ ﷺ: «أَهْلُ الجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ».

وَرَوَاهُ أيضًا[(٧)] مِنْ حَدِيثِ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهَ بْنِ مَسْعُودٍ

---

(١) (برقم: ٢٢١).

(٢) (برقم: ٦٥٢٨).

(٣) فِي «المسندِ» (٥/ ٣٥٥).

(٤) فِي «الجامعِ» (٢٥٤٦) وصحَّحه الشيخُ الألبانِيُّ فِي «صَحيحِ الجامعِ» (١/ ٤٩٥).

(٥) فِي «الأوسط» (٨٤٩٣).

(٦) فِي «المُسْتَدرَكِ» (١/ ٨٢) وصحَّحه الشيخُ الألبانِيُّ فِي «صَحيحِ الجامعِ» (١/ ٤٩٥).

(٧) أخرجه أحمَدُ (١/ ٤٥٢)، والطبرانِيُّ فِي «الأوسط» (٨٤٩٣).

==

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْتُمْ وَرُبُعُ الجَنَّةِ لَكُمْ، وَلِسَائِرِ النَّاسِ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِهَا؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «كَيْفَ أَنْتُمْ وثلثها لَكُمْ؟»

قَالُوا: ذَاكَ أَكْثَرُ، قَالَ: «كَيْفَ أَنْتُمْ والشطرُ لَكُمْ؟» قَالُوا: ذَاكَ أَكْثَرُ معا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَهْلُ الجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، لَكُمْ مِنْهَا ثَمَانُونَ صَفًّا».

قَالَ الطَّبَرَانِيُّ: «وَهَذَا الحَدِيثُ لَمْ يَرْوِه عَنِ القَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِلَّا الحَارِثُ بْنُ حَصِيرَةَ، انفردَ بِهِ عَنْهُ: عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زِيَادٍ».

قلتُ: أما عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زِيَادٍ: فَهُوَ العبدِي مَولاهُم بصريٌّ، ثقةٌ فِي حديثِه عَن غَيرِ الأَعْمَشِ، وهُو مِنْ رِجَالِ الصَّحيحينِ.

والحَارِثُ بْنُ حَصِيرَةَ؛ مُكبَّرُ المُهْمَلتَينِ فِي أَوَّلِ حصيرة فَهُوَ مِن رجَالِ النَّسائِيِّ على تَعنتِهِ، وَشدتِهِ فِي الرِّجَالِ، وَلَهُ ذكرٌ فِي مُقدَّمَةِ صَحِيح مُسْلِمٍ، ورقَّمَ عَليهِ الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ بِعَلَامَة: (رِوَايَة الجَمَاعَةِ لَهُ)، وَلَمْ يُخْتَلَفْ فِي صِدْقِهِ إِلَّا أَنَّهُ رُمِيَ بِالرَّفضِ، وَلَا يَضرُّه إِذَا كَانَ صَدُوقًا.

وقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الإمام أَحْمَدَ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ غَيْلَانَ، ثَنَا هَاشِمُ بْنُ مَخْلَدٍ، ثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ، عَنْ سُفْيَانَ، يعني: الثوري، عَنْ بَهزِ بنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنْتُمْ رُبْعُ أَهْلِ الجَنَّةِ، أَنْتُمْ ثُلُثُ أَهْلِ الجَنَّةِ، أَنْتُمْ نِصفُ أَهْلِ الجَنَّةِ، أَنْتُم ثُلُثَا أَهْلِ الجَنَّةِ».

وَرَوَاهُ أَيضًا الطَّبَرانِي، وَقَالَ: «تَفرَّدَ بِرَفْعِهِ ابْنُ المُبَارَكِ عَنِ الثَّوْرِيِّ»[(١)].

==

قَالَ الهَيثميُّ فِي «المَجمَعِ» (١٠/ ٤٠٣): «رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبو يَعْلَى، وَالْبَزَّارُ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الثَّلَاثَةِ، وَرِجَالُهُمْ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ الحَارِثِ بْنِ حُصَيْرَةَ، وَقَدْ وُثِّقَ».

(١) نقلَهُ أَبو نعيمٍ فِي «الحلية» (٧/ ١٠١).

وَلَيْسَ كَمَا قَالَ، فَقَدْ قَالَ خَيْثَمَةُ بنُ سُليمَانَ القُرشِي[١]: حَدَّثَنَا أَبُو قِلَابَةَ - هو: عَبدُ المَلكِ بنُ مُحَمَّدٍ الرقَاشِي -، ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكَّارٍ الصَّيْرَفِيُّ، ثَنَا حَمَّادُ بْنُ عِيسَى، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، أَنْتُمْ مِنْهُمْ ثَمَانُونَ صَفًّا».

فَليسَ فِيهِ إلَّا أنه أبدلَ الصَّحَابِيّ، وذلكَ لا يضرُّ؛ لأنَّ الصَّحَابةَ ﷺ كلّهم عدُولٌ، إذَا حَفظ الحَدِيثَ عنهُم، أو حَكَى - رَوَى - ذلكَ عَنْهُمَا محدِّثٌ بِهِ عَن كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا.

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ - كَمَا تَرَى - قَدْ تَعَدَّدَتْ طُرُقُهَا، وَاخْتَلَفَتْ مَخَارِجُهَا، وَصَحَّ سَنَدُ بَعْضِهَا؛ فدل ذلك على صِحَّتِهَا مع عَدم مُنافاتِهَا لحَدِيثِ الصَّحيحَينِ؛ فإنه ﷺ رَجَا - كَمَا في حَدِيثِيهِمَا - أَنْ يَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَأَعْطَاهُ جل وعلا بفضله ما رَجَا، وَزَادَهُ عَلَيْهِ سُدسًا آخرَ[٢].

فصَارَتْ أمَّتهُ ﷺ ثلثي أهلِ الجنَّةِ، فكَيفَ يُحملُ فِي أمَّةٍ ذَكرَهَا اللهُ سُبحَانَهُ فِي كِتَابِهِ بقَولِهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فخيَّرهَا اللهُ جلَّ وعَلَا على جَميعِ الأممِ السَّالفَةِ مَع كثرةِ مَا تقدَّمهَا منَ الأممِ كمَا تقدَّمَ فِي حَدِيثِ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقول: في قَوْلِهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: «أَنْتُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى تَعَالَى».

والحَدِيثُ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ[٣] وابنِ مَاجَه[٤] والدَّارمِي[٥] فِي مُسْنَدِهِ، وحسنه التِّرمِذِيُّ -

---

(١) فِي «جزئه» (ص ٧٨).

(٢) هَذا كلامُ العَلامةِ المُحقّقِ ابنِ القيِّم رحمه الله فِي «حَادي الأروَاح» (١/ ٢٥٤) بتصرف.

(٣) فِي «الجامعِ» (٣٠٠١).

(٤) فِي «السُّنَنِ» (٤٢٨٨) صحَّحهُ الشَّيخُ الألبانِي فِي «صحيحِ الجامعِ» (١/ ٤٥٦).

(٥) فِي «السُّنَنِ» (٢٧٦٣).

بأنْ تخرجَ فِرْقَةٌ فِيهَا قَلِيلَةُ العَدَدِ، ثمَّ تضعُ بها السَّيفَ، وتحكمُ عَليهَا بالكُفرِ.

فيالله العَجَبُ ! كيْفَ تقعُ هَذِهِ الفِرْقَةُ فِي هَذِهِ الأممِ السَّالفَةِ فضْلًا عَنْ هَذِهِ الأمَّةِ؟ أم كَيفَ تقعُ فِي جنَّةٍ عرَضهَا السَّموَات والأرض الَّتِي هَذِهِ الأمَّة ثلثا أهلِهَا؟! فمَا أقبحَ الجهلَ بِأهلِهِ، ومَا أعمَى عينَ الهَوى عَنِ الحقِّ، ومَا أبلطَ أهلَ الأهواءِ والبدعِ، وأجرَأهُم على الجَدلِ بالبَاطلِ !

وَمَع ذَلِكَ الخَوَارِج يهزأونَ ويتهكمُونَ بأهلِ القِبْلَةِ، قَالَ أَبُو عبدِ الرَّحمَنِ عَبْدُ الله بنُ الإمَامِ أحْمَدَ[(١)] : حَدَّثَنِي أَبِي، ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، ثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، قَالَ: تَكَلَّمَ عِنْدَهُ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ بِكَلَامٍ كَرِهَهُ فَقَالَ عَلْقَمَةُ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ فَقَالَ لَهُ الخَارِجِيُّ: أَوَ مِنهُمْ أَنتَ؟ قَالَ عَلْقَمَةُ: «أَرْجُو».

فالخَارِجِي بكَلَامِهِ هَذا يَسْتَهزِئُ بِقَوْلِهِ لعَلْقَمَةَ: أَوَ مِنْهُمْ أَنتَ؟ لأنَّ الخَارِجِي لا يرَى الإيمَانَ إلَّا لَهُم. وأهْل السُّنةِ والجَماعَةِ يخَافُونَ على أنفسِهِمْ ويَقُولُونَ: نرجُو، فهُم بَينَ طرفي المُرجئَةِ والخَوَارِجِ.

وَلهَذَا قَالَ أَبُو عَبدِ الرَّحْمَنِ ابنِ الإمَامِ أَحْمَدَ[(٢)] : حَدَّثَنِي أَبِي، ثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، يعني: ابن مهدي، حَدَّثَنِي سُفْيَانُ، يعني: الثوري، عَنِ الحَسَنِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ إِبْرَاهِيمَ يعني: النخعي، قَالَ: إِذَا قِيلَ لَكَ أَمُؤْمِنٌ أَنتَ؟ فَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وقال ابنُ الإمامِ أحْمَدَ[(٣)] : حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنِي سُفْيَانُ، عَنِ الحَسَنِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: إِذَا قِيلَ لَكَ أَمُؤْمِنٌ أَنتَ؟ فَقُلْ: أَرْجُو.

---

(١) فِي «السُّنَّةِ» (٦٥٧) وإسْنادُه صَحِيحٌ.

(٢) فِي «السُّنَّةِ» (٦٥١) وإسْنادُه صَحِيحٌ.

(٣) فِي «السُّنَّةِ» (٦٥٢) ورجاله ثقات.



وقال أيضًا[1]: حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنِي حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ عَتِيقٍ، وَحَبِيبِ بْنِ الشَّهِيدِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، قَالَ: إِذَا قِيلَ لَكَ أَمُؤْمِنٌ أَنْتَ؟ فَقُلْ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الخَوَارِجَ بدعواهُم مَنْ أجرأ الخَلقِ على نبيِّهم، ومولاهُم، فما أكبَرَ دَعواهُم، وأكثرَ شرَّهُم عَنِ المُسْلِمِينَ، وأذاهُم! فإنَّهُم كالأفاعِي لا يُبل بلعابِها، وَلَا يُمسكُ بِأَذنابِها، بَل لَا يؤمنُ من مكانِ أسلابِها عِندَ بابِها، أو مطرحِ نابِها، حتَّى مِنْ سَامِّ أبرصٍ حَيثُ سقته من لُعَابِ صَابِها، فَلَا يَكْفِيهِم تَزْكيةُ أنفسِهِم عَن تكفيرِهِم الأمَّة، وَقَد قَالَ تَعَالَى فِي كتابِهِ العَزِيزِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾، وَقَدْ قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ الإمَامِ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ[2]: قَالَ الفُضَيلُ بن عياضٍ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ يَقُولُ: مَنْ صَلَّى إِلَى هَذِهِ الْقِبْلَةِ فَهُوَ عِنْدَنَا مُؤْمِنٌ، وَالنَّاسُ عِنْدَنَا مُؤْمِنُونَ بِالإِقْرَارِ وَالْمَوَارِيثِ وَالْمُنَاكَحَةِ وَالْحُدُودِ وَالذَّبَائِحِ وَالنُّسُكِ وَلَهُمْ ذُنُوبٌ وَخَطَايَا اللهُ حَسِيبُهُمْ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ، لَا نَدْرِي مَا هُمْ عِندَ اللهِ تَعَالَى.

وَعِندَهُ أيضًا عَنْهُ مِنْ طريقٍ آخر[3] قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ ثَنَا وَكِيعٌ، قَالَ: قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «النَّاسُ عِنْدَنَا مُؤْمِنُونَ فِي الأَحْكَامِ وَالْمَوَارِيثِ وَنَرْجُو أَنْ يَكُونُوا كَذَلِكَ وَلَا نَدْرِي مَا لَنَا عِندَ اللهِ تَعَالَى».

فانظُرْ إِلَى قَولِ هَذَا الإمَامِ الَّذِي قَالَ فِيهِ مُؤرخُ الإسلَامِ وَحَافِظُه أَبُو الفَرجِ ابنُ الجَوْزِيِّ: «لقدْ سَبرتُ السَّلَفَ كُلَّهُم، فَأَردتُ أَن اسْتَخرِجَ مِنهُم مَنْ جَمَعَ بَيْنَ العِلْمِ حتَّى

---

(١) فِي «السُّنَّةِ» (٦٤٨) وإسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

(٢) فِي «السُّنَّةِ» (ص ٢٣٩).

(٣) فِي «السُّنَّةِ» (٦٠٩) وإسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

صَارَ مِنَ المُجْتَهِدِينَ، وَبَيْنَ العَمَلِ حتَّى صَارَ قُدوةً للعَابدِينَ، فَلَمْ أرَ أكثرَ مِنْ ثَلَاثَةٍ: الحَسَنُ البَصرِي وسُفيانُ الثَّورِي وأحمدُ بنُ حنبلٍ».

قَالَ: «وَلَا أُنكرُ عَلَى مَنْ ربَّعهُم بِسعيدِ بنِ المُسيبِ»[١].

ومَنْ طَالعَ شَرحَنا للتَّوحِيدِ عَلَى تَرجمتِهِ عَرفَ فَضْلَهُ عِندَ السَّلفِ ﷺ، فانظر إِلَى قولِهِ ﷺ: من صلى إِلَى هَذِهِ القبْلَةِ فَهُوَ عِندنَا مؤمنٌ؛ إذ هُوَ يعنِي بِقَوْلِهِ: عِندنَا مَعْشَر أَهْلِ السُّنةِ والجَماعَةِ.

فَاحذَرْ أَنْ تخرجَ عَنهُم بتكفِيرِ أهْلِ القبلَةِ، مَع مَا فِيهِم مِنَ الذُّنوبِ والخَطَايَا والاجترَاحِ الَّذِي لا يحصرُ بِسبيلِ الله لنَا، ولهُم العَفْو والعَافِيةُ والمُعافَاةُ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ، فَلَا أضرَّ من هَذَا الكَلَامِ فِي الأمَّةِ مِنْ هَذَا الحبرِ الَّذِي فضَّلهُ بعضهُم عَلَى إمَامِ دَارِ الهِجْرَةِ مَالكِ بنِ أنسٍ ﷺ، كَيفَ وَقد قَالَ فِيهِ إمَامُ السُّنَّةِ أَحْمَدُ بنُ حَنبلٍ: لا يتقدَّمُ سُفيَانُ الثَّورِي فِي قِبلِي أحدٌ؟

وَقَالَ عبدُ الله بْنُ المُبَارَكِ: لَا أَعْلَمُ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَعْلَمَ مِنْ سُفْيَانَ الثَّورِيِّ.

وَكَلَامُ سُفيَانَ هَذَا يُصدِّقُ مَا مَضَى فِي كِتَابِنَا هَذَا مِنْ تَخْطِئَةِ قَولِ مَنْ قَالَ بقولِ الخَوَارِجِ، أو شاركهُم فِي قَيلِهِمْ.

وَممَّا يُبيِّن قول الإِمَامِ القُدْوةِ سفيانَ الثورِيِّ مَا روَى عَبْدُ الله بنُ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي كتَابِ السُّنَّةِ[٢] حَيثُ قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي، حدَّثَنَا الْوَلِيدُ بنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ حَرْبٍ، حَدَّثَهُمْ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً فَكُلَّمَا انْتُقِضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، أَوَّلُهُنَّ الحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ»



(١) «صيد الخاطر» (ص ٧٠ ـ ٧١).

(٢) فِي «السُّنَّةِ» (٧٦٤) وصحَّحهُ الشَّيخُ الألبانيُّ فِي «صحيحِ التَّرغيبِ» (٥٧١).

فَهَذَا أَوْضَح دَلِيلٍ أَنَّ الأُمَّةَ مَا دَامتْ مُسْتقبلةَ القِبلةِ بِصَلاتِهَا وَمَوتَاهَا ونحرِهَا، فهي مستمسكةٌ بعُروةٍ من عُرى الإسلَامِ لا يحلُّ تكفيرُهَا، والخُرُوجُ عَليهَا، وَعَلَى إمَامِهَا وَسُلطَانِهَا بِذَلِكَ إلَّا ممَّنْ قَدْ زَاغُوا فأزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُم، فَلَا أقربَ شبهًا بالخَوَارجِ مِنْ إبلِيس حِينَ تشبَّه بالمُخلصِين فِي قَولِهِ لَمَّا أُمِرَ بالسجُودِ لآدمَ عليه السلام: لَا أَسْجُد إلَّا لله تَعَالَى.

فلَمَّا كانَتْ محَبَّةُ آدمَ للحَقِّ تَعَالَى أصليةٌ، وتعبَّد إبليسُ بادِّعَائِهِ الإخلَاصَ تكلُّفًا كتكلُّفِ الخَوَارِجِ ذَلِكَ مَع أهلِ القبلَةِ تعبُّدًا لله تَعَالَى، طرده ووضعه، وعطف آدم عَلَى التَّوبة مَع المَعصيةِ، فقبلُه ورفعُه وجعلَ صالحَ ذريته أهل ولايته وسكَّان جنتهِ.

فانظُرْ إلَى ما آلَ بكُلٍّ منهُمَا فعلُه وطبعُه، ومِثل دعوَى الفَرِيقَينِ كالعنكبُوتِ مَع دُودِ القَزِّ كُلٌّ مِنهُمَا يدَّعِي النَّسجَ، وَبَيْنَهُمَا مثلَ ما بَينَ السَّمَاءِ والأرضِ، فَنَسجُ دُودُ القزِّ لَمَّا فِيهِ مِنَ الرِّفعَةِ والاستحسَانِ، وُصفَ لنَا بِهِ لبَاسُ أهلِ الجِنَانِ، ونَسجُ العنكبُوتِ شبكةُ الذبَانِ أَخَسُّ الحيوَانِ، وُصِفَ لنَا بأَوْهَنِ البنيَانِ.

فالخوارِجُ تُغَالطُ أهلَ القبلَةِ، كمُغالطَةِ إبليسَ لآدَمَ والمَلَائكَةِ، والعنكبُوت لدُود القزِّ ينسجُهَا، وكمُغَالطَة الدُّب للآدمِي يَمْشِي الدُّب عَلَى رِجْلَيهِ، ولو صُدِمَ صَدْمَةً لَمْ يَسْتَمْسكْ عَنْ أن يُردَّ إلَى رِجليهِ بيَديهِ فيَرجعُ إلَى أربعٍ، فَإِذَا تحقَّقتَ الحقائق، فلَابدَّ أَنْ يقُولَ اللَّبيبُ الحَاذِقُ للخَارِجِي: لا تَبعْ مَا لَيسَ عِندَكَ.

وممَّا يشهدُ لَمَا قدَّمنا مِن قَولِ سُفيَانِ الثَّورِيِّ رضي الله عنه؛ مَا رَوَاهُ الإمَامُ أَحْمَدُ بِأَسَانِيدَ صِحَاح لَا مَطْعَنَ فِيهَا مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه وَهُوَ فِي صحيح البُخَارِيِّ[(١)] أيضًا وفيه بعد قوله صلى الله عليه وسلم: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا، وَأَكَلُوا ذَبِيحَتَنَا، وَصَلُّوا صَلَاتَنَا حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ».

---

(١) (برقم: ٢٦٠٩).

وَعِندَ ابنِ حِبَّانَ[(١)]: «فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ».

ويبيِّنُ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ الفُقَهَاءُ رَحِمَهُمُ الله تَعَالَى مِنْ أنَّ الكَافِرَ إذَا صلَّى فِي جَمَاعَةٍ، أو منفردًا يكُونُ مُسْلِمًا بِهَا بحيثُ يُحقنُ دمُهُ، ويُوفرُّ مَالُه، كَمَا هُوَ مذهبُ الإمَامِ أحمَدَ عِندَ جَمِيعِ الأصْحَابِ، وجزَمَ بِهِ أكْثرُهُم.

هَذَا إذَا لَمْ يتقدَّمْ ذَلِكَ الشَّهادَتانِ، فَكَيْفَ بِمَنْ قَدْ وُجِدَ مِنْهُ القَطعُ بِهما، وَهُوَ عليهما مقرٌّ بِهما لا يُنكرُهُمَا، بل هُوَ شَاهِدٌ بِهمَا، ولو طُلب مِنْهُ إنكارُهُمَا لامْتَنَعَ من ذَلِكَ غَايَةَ الامتنَاعِ؟!

وفِي حَدِيثِ أسَامةَ بنِ زيدٍ ﷺ ـ واللَّفظُ لِمُسْلِمٍ[(٢)] ـ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَصَبَّحْنَا الحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَقَتَلْتَهُ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلَاحِ، قَالَ: «أَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟» فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ.

والمعنَى: أنِّي تَمَنَّيْتُ أنِّي لمْ أُسلِمْ إلَّا يَوْمَئِذٍ؛ وذَلِكَ أنَّه لَمَّا قايسَ بَينَ ما وَقعَ مِنْهُ بقتلِ هَذَا الرَّجلِ الَّذِي قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وبينَ جهَادِهِ مَع رسُولِ الله ﷺ وهجرتِهِ معَهُ خَافَ ألا يقَاومَ هَذَا الذَّنب الَّذِي هُوَ قتل مَن شهدَ أن لَا إِلَه إِلَّا اللهُ بعدَ أن كَانَ كَافرًا بِهَا، ممَّا رأى مِن إعظَامِ النبيِّ ﷺ لقتلِه إيَّاهُ، وتكريرهُ لِذَلِكَ بقوله: «أَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ...» الحَدِيثَ.

وَفِي غيرِ هَذَا اللفظِ «فَمَا تَصنعُ بِلَا إلَه إلا اللهُ إذا جَاءَتْ يَومَ القِيَامةِ» فلمَّا سَمعَ ذَلِكَ منَ النبيِّ ﷺ، وعَلِمَ خَطأَهُ فِي ذَلِكَ تمنَّى أنَّهُ لَمْ يسلمْ إلَّا يَوْمَئِذٍ لينجُو مِن ذَلِكَ الذَّنبِ العَظِيمِ.

---

(١) (برقم: ٥٨٩٥).

(٢) (برقم: ٩٦).



والخَوارِجُ يتقرَّبُونَ بقتلِ أهلِ شهادَةِ أن لَا إِلَه إِلَّا اللهُ مَع صَلاتِهِم واستقبَالِهِمُ القبلَةَ بِهَا، وبذَبَائِحِهِم وبمَوتَاهُم.

وفِي «الصَّحِيحَينِ» مِن حَدِيثِ المقدَادِ ﷺ حِينَ سئلَ النَّبي ﷺ نحو حدِيثِ أسامة.

وفيهِمَا[(١)] مِن حَدِيثِ أبي ذرٍّ ﷺ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ فِي الرَّابِعَةِ: «عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ».

وعِندَ مُسْلِمٍ فِي صَحيحِهِ[(٢)] عن أُمِّ سلمَةَ ﷺ، أنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: «سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: «لَا، مَا صَلَّوْا».

وقَدْ صَحَّ فِي «الصَّحِيحَينِ»[(٣)] وغيرِهِمَا عَنْ أَنَسٍ ﷺ أنه قَالَ: كَانَ رسول الله ﷺ كَانَ إِذَا غَزَا بِنَا قَوْمًا، لَمْ يَكُنْ يَغْزُو بِنَا حَتَّى يُصْبِحَ وَيَنْظُرَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا كَفَّ عَنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا أَغَارَ عَلَيْهِمْ».

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(٤)]، وأَبِي دَاودَ[(٥)]، والتِّرْمِذِيِّ[(٦)] عَنْ عصَام المزني ﷺ قَالَ بعثَنَا رسُولُ الله ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَقَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمْ مَسْجِدًا، أَوْ سَمِعْتُمْ مُؤَذِّنًا، فَلَا تَقْتُلُوا أَحَدًا».

والخوارجُ يُقبلونَ عَلَى البلدِ آخر الليلِ، وهي معمورةُ المساجدِ، يقيم أهلُها الأركانَ،

---

(١) البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤).

(٢) (برقم: ١٨٥١).

(٣) البخاري (٦١٠)، ومسلم (١٨٠٣).

(٤) فِي «المسندِ» (٣/ ٤٤٨).

(٥) فِي «السُّنَنِ» (٢٦٣٥) وضعَّفه الشَّيخ الألبانِيُّ فِي «ضَعيف أبي داودَ» (٤٥٤).

(٦) فِي «الجامعِ» (١٥٤٩).

ويعلنونَ فِي نواحِيهَا بالأَذَانِ، ثم يُغيرونَ عليهم ومسامعهُم ممتلئات من ذَلِكَ، فيقتلونَ الرِّجالَ، وينهبونَ الأموالَ، ويعقرونَ البهائمَ، ويُشعلونَ النَّارَ فِي الثِّمارِ، ويفعلُونَ بهم كلّ ما أمكنهُم فيهم مِنَ الاحتِيَالِ، لا يرَوْنَ لَهُم فِي ذَلِكَ حُرمةً، وَلَا لشهادةِ لا إله إلا اللهُ، بل وَلَا للصَّلاة عِصمة، فهُم لا يرجعُونَ فِي مذاهبِهم وأقوالِهم إِلَى قول سلفٍ مضى، ولا خَلَفٍ قفا، بَل لا يعبؤون، بشيءٍ من قولِ الفُقها.

وقد قَالَ صَاحبُ «الإنصَافِ» ـ فِي الكَافِرِ ـ: «والمَذهبُ أنَّه يُسْلِمُ إذا أذَّنَ في وَقْتِه ومحلِّه. لا أعلمُ فيه نِزاعًا».

قَالَ: «ويُحْكَمُ بإسْلامِه أيضًا إذا أذَّنَ في غيرِ وَقْتِه ومَحَلِّه عَلَى الصَّحيحِ مِنَ المَذهبِ»[(١)].

وَقَالَ: عن قولِ الموفَّقِ فِي «المُقنعِ»: «وَإِذَا صَلَّى الْكَافِرُ حُكِمَ بِإِسْلَامِهِ». قالَ: «هَذَا المَذْهَبُ مُطلَقًا، نُصَّ عَلَيْهِ ـ يعني: الإمامَ أحمدَ ـ وَعَلَيْهِ الأَصْحَابُ»[(٢)].

ومقصودُه بالإطلاقِ سَوَاء صَلَّى مُنفرِدًا، أو فِي جماعَةٍ.

قالَ صَاحِبُ المُنتهى فِي شَرحِهِ: «وَمَعْنَى الحُكْمِ بِإسْلَامِهِ أَنَّهُ لَوْ مَاتَ عَقِبَ الصَّلَاةِ أَوْ الأَذَانِ، فصحَّ، وتَرِكَتُهُ لِأَقَارِبِهِ منَ المُسْلِمِينَ، دُونَ الْكُفَّارِ وَيُدْفَنُ فِي مَقَابِرِ المُسْلِمِينَ، وَإِنَّهُ لَوْ أَرَادَ البَقَاءَ عَلَى الْكُفْرِ، وَقَالَ إِنَّمَا صَلَّيْت، أَوْ إِنَّمَا أَذَّنْت مُتَلَاعِبًا، أَوْ مُسْتَهْزِئًا لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، كَمَا لَوْ أَتَى بِالشَّهَادَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: إنَّما قلتُ ذَلِكَ مُتَلَاعِبًا، أَوْ مُسْتَهْزِئًا»[(٣)].

قَالَ: أمَّا كَون الكافرِ يُحكمُ بإسلَامِهِ إذا صلَّى، فكَمَا يروِي أَبُو دَاودَ[(٤)] مِن حدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نُهِيتُ عَن قَتْلِ المُصَلِّينَ» ولمَا رَوَى البُخَارِيُّ عن أَنَس

(١) «الإنصاف» (٣/ ١٨ ط هجر).

(٢) «الإنصاف» (٣/ ١٧).

(٣) «كشاف القناع» (٢/ ١٦) بتصرف.

(٤) فِي «السُّنَنِ» (٤٩٢٨) وصحّحه الشيخ الألبانيُّ فِي «صحيحِ الجامعِ» (١/ ٤٩١).

ﷺ، وذكرَ حَدِيثَهُ بنَحوِ لفظِ ابنِ حبَّانَ المتقدمُ ذكرهُ.

وذكرَ أيضًا صَاحِبُ المنتهَى فِي شَرحِهُ: أنه لا يُحكمُ بإسلَامِه حتَّى يصلِّي ركعةً.

قَالَ: وأمَّا كُونهُ يُحْكَمُ بإسْلَامِهِ بالأَذَانِ؛ فلإتيَانِه بالشَّهادتَينِ طَائِعًا.

قلت: وَهَذَا جَعلَ رسُول الله ﷺ الأذَانَ حدًّا للكَفِّ عَنِ الغَارةِ عَلَى مَن سَمعَ الأذَانَ مِنهُم كفًّا مُطْلقًا، فإنَّهُ لم يُنقلْ عَنهُ ﷺ أنَّه بحث عَن حَالِ مَن سَمِعَ الأذَانَ مِنهُم بعدَ أن يُصْبِحَ هَل كَانُوا مُسْلِمِينَ أم لَا؟ كَمَا تقولُه الخَوارِجُ مَع عَدمِ كفِّهِم بسَماعِ الأذَانِ، وعُمَّارِ المَساجِدِ، وإقامة الصَّلاة فِيهَا، إذ هُوَ معلُومٌ مِن مَذهبِهِم أنَّ ذَلِكَ لا يكفُّهُم مِنَ المُسْلِمِينَ عن دمٍ وَلَا مالٍ؛ لأنَّ مذاهبَهُم جَمِيعًا قتلُ المُصلِّينَ الَّذِينَ نَهى النبيُّ ﷺ عَن قتلِهِم؛ إذْ هُم لا يقنَعُونَ بِهديه ﷺ فِي أمَّتِهِ حتَّى يتحكمُوا فِيهَا بآرَائِهِم البَاطلةِ، وأهوَائِهِم الَّتِي هِيَ عَنِ الحَقِّ غائلَةَ مَائِلة، حَيثُ لَمْ يقنعْ متقدمِهِم بعدلِ النبيِّ ﷺ، وإخلاصه عَلَى الوجْهِ المرضِي لله تَعَالَى فِي قِسمَةِ غنائِم حُنينٍ؛ حتَّى قَالَ للنَّبيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ: «هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ»[١]، وَفِي لفظٍ: مَا عُدلَ فِيهَا، وَفِي لفظٍ قَالَ لَهُ: اعدلْ يَا مُحَمَّدُ، فإنَّك لَمْ تعدلْ.

وصحَّ مِنْ أفعَالِهِم الذَّميمةِ؛ أنَّهُم يأتُونَ المَسجدَ مِن مَسَاجِدِ المُسْلِمِينَ فيؤذِّنُونَ بِهِ آخر الليلِ، ثم يرصدُونَ حتَّى يأتيَهُم مَن يتقدمُ إِلَى الصَّلاةِ فِي ظُلمَةِ الليلِ يَرجُو مِنَ اللهِ الزُّلفَى لديهِ، فيقتلُونَهُ فِي جَوفِ المَسجدِ تقربًا بدمِهِ؛ لاعتقادِهِم كُفرَهُ؛ كَمَا فعَلُوا ذَلِكَ فِي مَساجِدِ الكُوفةِ وَغيرِهَا، فلَمْ تعصم الصَّلاةُ مِنهُم جوفَ المَسَاجِدِ.

وصحَّ فِي الصَّحيحِ عَن جَابرِ بنِ عبدِ الله وبريدةَ بنِ الحصيبِ عن رسُولِ الله ﷺ أنَّه قَالَ: «لَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ إِلاَّ تَرْكُ الصَّلاةِ»[٢].

---

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٣١٥٠)، ومُسْلمٌ (١٠٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٥).

هَذَا لفظُ حَدِيثِ جابرِ بنِ عبدِ الله ﷺ حيثُ قَالَ: قَالَ الإِمَامُ أحمد[1] ثَنَا عَبدُ الله بنُ الوَلِيدِ العدنِي ثَنَا سُفيَانُ عَنِ الأعمَشِ عَن أبِي سُفيَانَ عَن جابرِ بنِ عَبدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ... فذَكَرَهُ.

وقالَ[2] أيضًا: ثَنَا وَكيعٌ ثَنَا سفيانَ عَن أبِي الزُّبيرِ عن جَابرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ... فذكرَهَ بلفظِهِ المُتقدِّمِ مِن روايةِ العدنِي.

وأبو سُفيانَ الرَّاوِي عَن جَابرٍ ﷺ هُوَ طَلحةُ بنُ نافعٍ الوَاسطِي الإسكَاف.

ولفظُ حَدِيثِ بُريدَةَ قَالَ الإِمامُ أحْمَدُ[3]:حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ، حَدَّثَني حُسَيْنُ بْنُ وَاقِدٍ، حَدَّثَني عَبْدُ الله بْنُ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ تَرْكُ الصَّلَاةِ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ».

وَهُوَ عِندَ غيرِ الإمامِ أحْمَدَ بطُرقٍ أيضًا صَحيحةٍ، وَقَد مَضَى بيانُ مَعنَى التَّركِ الَّذِي يكفرُ بِهِ صَاحبهُ فِي كِتَابِنَا هَذَا مِنْ كَلامِ الإِمَامِ أحمَدَ واحتجَاجه عَلَى عدمِ كُفرِ الأئمَّةِ الَّذِينَ يؤخِّرُونهَا عَن وَقتِهَا، وأنَّ ذَلِكَ لَيسَ تركًا.

ومِنْ كَلَامِ شَيخِ الإِسلَامِ ابنِ تيميَّةَ[4]، وأنَّ مَنْ يتركُهَا بعضَ الأحيَانِ، وَيُصليهَا بعضًا لا يَصدقُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ تاركًا؛ لكثرَةِ هَذَا التَّركِ فِي بِلَادِ المُسْلِمِينَ، فَلَا يكُونُ كافرًا بِذَلِكَ.

هَذَا مَعنَى مَا ذَكرْنَا عَنْ شَيخِ الإسْلَامِ فِيمَا أجَابَ بِهِ عن هَذِهِ المَسْألَةِ، إذَا لَمْ يَكُنِ التَّركُ جُحُودًا، وَقَدْ تقَدَّمَ عَنْهُ بِلَفظِهِ عِندَ إيرَادِنَا لكَلَامِ الإمَامِ أحمَدَ وَغَيرِهِ فِي ذَلِكَ، فَلَا نُعِيدُهُ

(١) في «المسند» (٣/ ٣٧٠).

(٢) في «المسند» (٣/ ٣٧١).

(٣) في «المسند» (٥/ ٣٥٥).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦١٦ ـ ٦١٧).



لقُرْبِهِ، وإنَّما المَقصُودُ بيانُ مَعنَى حَدِيثِ أبِي أُمَامَةَ ﷺ فِي عَدمِ تَكفيرِ أهلِ القبلَةِ، وأنَّهُ لَا يحلُّ تَكفيرُهُم مَا استقبلُوا القِبلَةَ، وأنَّهُم لا يكفرونَ بَعدَمِ المُحَافظَةِ؛ لأنَّ مثلَ هَذَا يقعُ كثيرًا فِي الأمَّةِ كَمَا قَالَ شَيخُ الإِسلَامِ ابنُ تيميةَ قدَّسَ اللهُ روحَهُ.

وَهُو مَعنَى كَلامِ إِمَامِ السُّنةِ أحمَدَ بنِ حَنبلٍ ﷺ؛ لأنَّ هَذَا لا يسمَّى شَرطٌ بِالكُليةِ حتَّى يصدقَ عَلَيْهِ الحَديثُ الصَّحيحِ، إذا حملنَا الكُفرَ فِي الحَديثِ عَلَى الحَقِيقَةِ، وأنَّه كفرٌ يخرجُ مِنَ المِلَّةِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ كَلامِ جَمَاعةٍ مِنَ الأصحَابِ، ومنَ السَّلفِ خرُوجًا عَن مَذهبِ المُرجئةِ، فإنَّا لا نَذهبُ مذهبَهُم، وَلَا مَذهبَ الخوَارجِ بتكفيرِ الأمَّةِ، وتَحميل النُّصوصِ ما لا تحتملُ، بل يَكْفِينَا فِي ذَلِكَ ألفَاظِ السَّلفِ ﷺ وهُم قُدوةُ الأمَّةِ الَّتِي عصمَهَا اللهُ مِنَ الاجتمَاعِ عَلَى ضَلالَةٍ، وَسَيأتِي لهَذَا مزيدُ بيانٍ إنْ شاء اللهُ تَعَالَى، وأنَّ تاركَهَا رأسًا لا يكفرُ، وأنَّه قولُ أكثرِ الفقهَاءِ، ويأتِي ذكرُ القَائلِ بِذَلِكَ مِن جمْلَةِ أصْحَابِنَا الحنابلَة رَحِمَهُمُ الله تَعَالَى وفاقًا للأئمَّة الثَّلاثَة.

وَقَدْ قَالَ عَبْدُ الله بنُ الإمَامِ أحْمَدَ[1] فِيمَا حدَّثهُ عَن أبيهِ ممَّا يبيِّنُ مَا ذَكرْنَا حيثُ قَالَ حَدَّثنِي أَبِي، ثنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، ثنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ، عَنِ الْفُضَيْلِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ: «هَذَا الْإِسْلَامُ» وَدَوَّرَ دَائِرَةً فِي وَسَطِهَا دَائِرَةٌ أُخْرَى، وَهَذَا الْإِيمَانُ الَّتِي فِي وَسَطِهَا مَقْصُورٌ فِي الْإِسْلَامِ، يعنِي: هَكَذَا[2].

قَالَ: فَقَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ» يَخْرُجُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْإِسْلَامِ، فَإِذَا تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ قَالَ: رَجَعَ إِلَى الْإِيمَانِ».

---

(١) فِي «السُّنَّة» (٧٥٧) وسندُه ضعيفٌ؛ لجهالَة الفُضيلِ بنِ يسَارٍ.

(٢) في هامش الأصل: «بلغ مقابلة على أصل على مؤلفه عفا الله عنه» فصحَّ.

وقال عَبْدُ الله بنُ الإمَامِ أَحْمَدَ(١) أيضًا: حَدَّثَنِي أَبِي، ثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عِيسَى، ثَنَا ثَوْرُ بْنُ يَزِيدَ، عَنْ أَبِي عَوْنٍ، عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ، قَالَ: سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ ـ يعنِي: ابنَ أَبِي سُفيَانَ ـ ﷺ، قَالَ: وَكَانَ قَلِيلَ الحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا الرَّجُلُ يَمُوتُ كَافِرًا، أَوِ الرَّجُلُ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا».

فهَذَا حَدِيثٌ مَرفُوعٌ بأنَّ مَا سِوَى الكُفرِ مِنَ الأعمَالِ تَحْتَ المَشِيئةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

والقَتلُ للمُؤمِنِ وَإِنْ كَانَ مِنَ الذُّنُوبِ، وتَحْتَ المَشيئةِ، فإنَّمَا المُرَادُ حَقُّ المُسْلِمِ؛ لأَنَّهُ سُبحَانَهُ حَكَمٌ قسطٌ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فأمَّا حقُّه سُبْحَانَهُ فَهُوَ يَغْفِرُهُ إِذَا شَاءَ أو يُعذِّبُ.

وأمَّا حَقُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ فَهُوَ يَسْتَوْفِيهِ لَهُ مِنْ صَاحِبِهِ يَومَ القِيَامَةِ، وَلَا يَغْفِرُهُ؛ لأنَّه مِن ديوَانِ العِبادِ الَّذِي لَا يُغفرُ إِلَّا أن يجَازِي اللهُ سُبْحَانَهُ صَاحِبُ الحقِّ عَن حَقِّه الَّذِي لَهُ عَلَى أخِيهِ المُسْلِمِ مِنْ عِندهِ سُبحانَهُ تفضلاً عَلَى المطلُوبِ مِنْهُ الحَق، وأمَّا أنَّه يسقطُه عَنِ المَطلُوبِ مِنهُ، فَلَا، هَذَا مَعنَى الحَدِيثِ مَع قَولِ ابنِ عبَّاسٍ ﷺ المتقدِّم، لَا أنَّ القَاتلَ يخَلَّدُ أبدَ الآبدِينَ فِي النَّارِ كالكُفَّارِ هَذَا لا يقُولهُ أهلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، وإنَّمَا هُوَ قَولُ الخَوارجِ قَاتَلَهُم اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ.

فلَمَّا كَانتِ الخَوَارِجُ فِي طَرَفٍ عَن المُرجِئةِ، وأنَّ الأعمَالَ عندَهُم مِنَ الإيمَانِ، قالَوا: إذَا ذَهَبَ بعضُ الإيمَانِ ذهبَ كُلُّهُ، فكفَّروا بِذَلِكَ أهلَ القبلَةِ، وَقَد مرَّ تَفسِيرُ أبي جَعفرٍ مُحَمَّدِ بنِ عَليٍّ سيِّد أهلِ بيتِ النُّبوةِ للإيمَانِ والإِسْلَامِ.

---

(١) فِي «السُّنَّةِ» (٧٤٩) وصحَّحهُ الشَّيخُ الألبَانِيُّ فِي «الصَّحيحةِ» (٥١١).



وَقَدْ رَوَاهُ عبدُ الله أيضًا مِنْ طريقٍ آخر حيثُ قَالَ[1]: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ حَبِيبٍ الْأَسَدِيُّ لُوَيْنٌ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ، عَنْ فُضَيْلِ بْنِ يَسَارٍ[2]، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، قَالَ: «الْإِيمَانُ مَقْصُورٌ فِي الْإِسْلَامِ»، ثُمَّ خطَّ هَكَذَا حدًّا أرانا حَمَّادٌ دَوَّرَ دَائِرَةً، وَقَالَ: هَذَا الْإِسْلَامُ، ثُمَّ دَوَّرَ دَائِرَةً صَغِيرَةً، فَقَالَ: هَذَا الْإِيمَانُ، فِي تفسيرِ الْحَدِيثِ «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَإِذَا زَنَى خَرَجَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْإِسْلَامِ».

فالإِيمَانُ عِندَ أهلِ السُّنةِ والجَماعةِ يَزِيدُ وَينقصُ، وَعِندَ الخَوارِجِ إِذَا ذَهَبَ بعضُهُ ذهب كُلَّهُ، وَعِندَ المُرجئةِ هُوَ الإقرارُ والقَولُ، والأعمَالُ عِندَهُم لَيسَتْ مِن الإيمانِ، فَهُوَ لا يزيدُ وَلَا ينقصُ، فإِيمَانُ جِبرَائيلَ ﵇، وَأَفجَرُ الأمَّةِ عِندَهُم وَاحِدٌ.

وَأَهلُ الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ هُمُ الوَسَطُ بَينَ الطَّرفَينِ، وهُم سَالكُونَ بَينَ الخَوفِ والرَّجَاءِ لا يوئَّسُونَ، وَلَا يُقنطُونَ مِن رَحمَةِ الله تَعَالَى، وَلَا يُؤمِّنُونَ مِن مكرِه جَلَّ وعلا، وَلَا من مقتِه وغضبِه وعقابِه، بل مقامُهم فِي أنفسِهم، وَفِي أمَّتِهم، بَينَ الخَوفِ والرَّجَاءِ.

وَقَد مَضَى حَدِيثُ أبي رزين العقيلي ﵁ فِي قولِه للنَّبيِّ ﷺ: كيفَ يعلمُ أنَّه مؤمنٌ بِمَا أغنَى عَن إعَادتِه.

وَهُوَ مَعنَى مَا رُوِيَ عَن الفَارُوقِ عُمرَ بنِ الخَطَّاب وأمِّ المُؤمنينَ عَائشةَ ﵄ فِي ذَلِكَ؛ حيث قَالَ عَبْدُ الله بنُ الإمَامِ أَحْمَدَ فِي كتَابِ السُّنَّةِ[3]: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْأَعْلَى، ثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أُمِّ مُحَمَّدٍ: أَنَّ رَجُلًا، سَأَلَ عَائِشَةَ ﵂ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَتْ: «أُفَسِّرُ أَمْ أُجْمِلُ؟» فَقَالَ: بَلْ أَجْمِلِي، فَقَالَتْ: «مَنْ سَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ وَسَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ».

---

(١) فِي «السُّنَّةِ» (٧٢٥).

(٢) فِي الأصل: «بشار»!.

(٣) فِي «السُّنَّةِ» (٦٨١) وإسناده ضعيفٌ: فِيهِ عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ وهُو ضعيفٌ، وَفيهِ: أُمُّ مُحَمَّدٍ زَوجةُ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ مَجْهُولَةٌ.

وَعِندَ ابنِ أَبِي الدُّنيَا عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الخولَانِي أنَّه قَالَ: لا يَهْلَكُ عَلَى اللهِ عبدٌ، وَفِي قَلبِهِ مثقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيرٍ.

وقَدْ صحَّ عَنْهُ ﷺ من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنه قَالَ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»

وَفِي لَفظٍ: «أَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

فهَذِهِ الشُّعبُ مَنِ اسْتكمَلَهَا فقَدْ اسْتكمَلَ الإِيمَانَ، ومَنْ نقصَ مِنْهَا شَيئًا نقصَ مِنْ إِيمَانِهِ بِحَسبِهِ، وَلَا يخرجُ صَاحِبُهَا مِنَ الإسلَامِ إِلَّا أَن يأتِي بِمَا يضادُّ أصلَه عَالمًا بِذَلِك بأنَّهُ يضَادُّ شهادتَي الإخلَاصِ، وَهُوَ الَّذِي دَخلَ فِي الإسلَامِ بِهِمَا، وَلَمْ يُخَالفْ فِي ذَلِكَ إِلَّا الخوَارج كَمَا صرَّحَ بِذَلِكَ غيرُ وَاحِدٍ؛ مِنهُم شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ قدَّسَ اللهُ روحَهُ.

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[1] فِي ثُلَاثياتِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بنُ هَارُونَ، أنبأنَا حُمَيْدٌ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ لَيُعْجِبُنَا الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ يَجِيءُ فَيَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟ وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَنَهَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ؟» فَقَامَ الرَّجُلُ فَقَالَ: أَنَا. قَالَ: «وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟» قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَلَاةٍ، وَلَا صِيَامٍ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ».

قَالَ أنسٌ: فَمَا رَأَيْتُ الْمُسْلِمِينَ فَرِحُوا بِشَيْءٍ بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحَهُمْ بِذَلِكَ.

وَفِي لفظ: «مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ عَمَلٍ».

وَقالَ فِي آخرِهِ: «فَنَحْنُ نُحِبُّ اللهَ ورَسُولَه، وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْمَلَ عَمَلَهُ، فَإِذَا كُنَّا مَعَهُ فَحَسْبُنَا»[2].

---

(١) فِي «المُسندِ» (٣/ ٢٠٠) وأخرجَهُ مسلمٌ (٢٦٣٩) منْ طَرِيقِ إِسْحَاقَ بنِ عَبدِ اللهِ، عَن أنسٍ.

(٢) «المُسندِ» (٣/ ٢٢١).

وَعِندَ عَبْدِ الله بنِ الإمَامِ أَحْمَدَ[1] عَنْ أَبِيهِ قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنِي رَبَاحٌ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «مَثَلُ الْإِيمَانِ كَشَجَرَةٍ، فَأَصْلُهَا الشَّهَادَةُ وَسَاقُهَا وَوَرَقُهَا كَذَا، وَثَمَرُهَا الْوَرَعُ، وَلَا خَيْرَ فِي شَجَرَةٍ لَا ثَمَرَ لَهَا، وَلَا خَيْرَ فِي إِنْسَانٍ لَا وَرَعَ لَهُ».

فَهَذَا قَولُ طَاوسٍ - كَمَا تَرَى - يُصَرِّحُ بِمَعْنَى مَا ذَكَرْنَا، وَهُوَ مِنْ أَئمَّةِ السَّلفِ الصَّالِحِ مِنْ أعيَانِ التَّابِعِينَ ﷺ.

وَيَكْفِيكَ رَدعًا عَنْ تَكفِيرِ الأُمَّةِ: أَنَّ السَّلفَ الصَّالِحَ - أَهْلَ السُّنةِ والجَمَاعَةِ - لَمْ يُكَفِّرُوا المُرْجئَةَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: «الإيمَانُ إنَّمَا هُوَ قَولٌ بِلَا عَمَلٍ»، وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَنكَرُوا قَوْلَهُم، وشَنُّوا عَلَيْهِم الغَارَاتِ بالحُجَجِ، وشنَّعوا فهُم لا يكفِّرونَ مَن وقفَ فِي الإيمَانِ عَلَى ذَلِكَ.

كَمَا حَكَى عَبْدُ الله بنُ الإمَامِ أَحْمَدَ فِي «السُّنَّةِ»[2] عَنِ الفُضَيلِ بنِ عِيَاضٍ أَنَّهُ قَالَ: «يقُولُ أَهْلُ الْإِرْجَاءِ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ بِلَا عَمَلٍ، وَتَقُولُ الْجَهْمِيَّةُ: الْإِيمَانُ الْمَعْرِفَةُ بِلَا قَوْلٍ وَلَا عَمَلٍ، وَيَقُولُ أَهْلُ السُّنَّةِ: الْإِيمَانُ الْمَعْرِفَةُ وَالْقَوْلُ وَالْعَمَلُ».

قَالَ: «فَمَنْ قَالَ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ فَقَدْ أَخَذَ بالتَّوْثِقَةِ، وَمَنْ قَالَ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ بِلَا عَمَلٍ فَقَدْ خَاطَرَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي أَيُقْبَلُ إِقْرَارُهُ أَوْ يُرَدُّ عَلَيْهِ بِذُنُوبِهِ».

وَقَالَ - يَعْنِي فُضَيْلًا -: «قَدْ بَيَّنْتُ لَكَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ أَعْمَى».

إِذَا عَلِمْتَ هَذَا؛ فَهَذَا دَأْبُ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي أُمَّتِهَا يُخَطِّئُونَ، وَلَا يُكَفِّرُونَ، وَينصَحُونَ، وَلَا يُعيِّرُونَ، وَأَهلُ البدعِ بِخِلَافِ ذَلِكَ خصُوصًا الخَوَارِج.

وَمَنْ دَخَلَ عَلَى هَذِهِ الأمَّةِ بِغَيرِ علْمٍ تلقَاهُ عنهَا كابرًا عَن كَابرٍ بالبَلَاغِ مِنْ أَفوَاهِهَا

---

(١) فِي «السُّنَّةِ» (٦٣٥) وإسنادُه صَحيحٌ.

(٢) فِي «السُّنَّةِ» (٥٩٤).

حَيْثُ قَالَ ﷺ: «فليُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الغَائِبَ»[(١)] فَقَدْ أَفْسَدَ نَفسَهُ، وَأَفْسَدَ عَلَى الأمَّةِ دِينَهَا، وَسَعَى فِي إِضْلَالِهَا بِسَفكِ دِمَائِهَا، وَنَهْبِ أموالِهَا، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ كَمَا عِندَ البُخَارِيِّ فِي صَحِيحِهِ[(٢)] عَنْ عَبدِ الله بنِ عُمَرَ: «لَنْ يَزَالَ المُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا».

وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ[(٣)]، والنَّسَائِيِّ[(٤)] مَرْفُوعًا، ووقفه بعضُهُم، عنِ عَبدِ الله بنِ عمرو رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ» وَهُوَ عِندَ ابنِ مَاجه[(٥)] عَنِ البَرَاءِ بنِ عَازِبٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا.

و عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ[(٦)] عن أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ الأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ، لأَكَبَّهُمُ اللهُ فِي النَّارِ».

والخَوَارِجُ تَسْفِكُ دِمَاءَ الأمَّةِ بالمِرَاءِ والمُجادلَةِ، إِذِ المِرَاءُ فِي دينِ الله تَعَالَى، والمُجادلَةُ بغيرِ الحقِّ هُوَ الَّذِي شَوَّشَتِ الخَوَارِجُ دِينَهَا عَلَيْهِ، وَقَد حذَّرَ مِنْهُ النبيُّ ﷺ، وَوَعدَ مَن تَرَكَهُ رغبةً عَنْهُ بِمَنزلَةٍ فِي الجنَّةِ.

---

(١) أخرجَهُ البخاريُّ (١٠٥).

(٢) (برقم: ٦٨٦٢).

(٣) في «الجامعِ» (١٣٩٥) وصحَّحه الشيخُ الألبانيُّ في «صحيحِ الترغيبِ والترهيبِ» (٢/ ٦٢٩).

(٤) في «المُجتبى» (٧/ ٧٦) وفي «الكُبرى» (٣٤٤٩).

(٥) في «السُّنَنِ» (٢٦١٩).

(٦) في «الجامعِ» (١٣٩٨)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ» وصحَّحه الشيخُ الألبانيُّ في «صحيحِ الترغيبِ والترهيبِ» (٢/ ٦٣٠).

فَعِندَ أَبِي دَاودَ[(١)]، والتِّرْمِذِيِّ[(٢)] ـ وحسَّنَهُ ـ وابنِ مَاجه[(٣)] عَنْ أَبِي أُمَامَةَ[(٤)] ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مبطلٌ، بُنِيَ لَهُ بيتٌ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَه وَهُوَ مُحِقٌّ، بُنِيَ لَهُ فِي وَسَطِهَا، وَمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ، بُنِيَ لَهُ فِي أَعْلاَهَا».

وأَمَّا أهلُ القبلَةِ؛ فإنَّمَا وَظِيفَةُ عُلمَائِهَا: تَجدِيدُ دينِهَا بالأمرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهيِ عَنِ المُنكرِ، والبيانِ، وتَوضيحِ السُّنَنِ، وتقبيحِ البدعِ، وردعِ أهلِهَا بالحججِ القَامعةِ والبراهِينِ القَاطعةِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّه قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا» رَوَاهُ أَبُو دَاودَ فِي سُننِه[(٥)]، والحَاكِمُ[(٦)] وصحَّحهُ، وَرَوَاهُ البَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ المَعْرِفَةِ[(٧)].

ومنْ قامَ فِيهَا بالسَّيفِ يقتلُ برَّهَا وفَاجرَهَا، وَلَا يتحَاشَى لَهَا فِي حُرمتِهَا، فَقَدْ أَفْسَدَهَا وفرَّقَهَا، حيثُ أكفرهَا وَزَكَّى نفسَهُ مِنْ بيْنِهَا.

فيَا للهِ العَجب كَيْفَ يَكُونُ هَذَا مُجَدِّدًا وَهِيَ بِأَسرِهَا تنكرُ قولَهُ، وتفرُّ مِنْهُ؟!

أترَىَ الأُمَّةَ قَدِ انقطعتِ وخَلا الصِّراط المُستقيم مِنهَا ولم يبقَ عَلَيْهِ إِلَّا هُوَ ومن تبعَهُ عَلَى قولِهِ؛ حتَّى يكونُوا أعداءَ لَهُ عَلَى الحَقِّ الَّذِي مَعَهُ، وأنَّ قَولَ رسُولِهَا ﷺ لا يعبأُ بِهِ عَلَى بقَائِهَا عَلَى الحَقِّ قَائِمَة حتَّى تقُومَ السَّاعَةِ!

---

(١) فِي «السُّنَنِ» (٤٨٠٠) ولفظُه: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ، وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ، وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ».

(٢) فِي «الجَامِعِ» (١٩٩٤).

(٣) فِي «السُّنَنِ» (٥١).

(٤) كذا فِي الأصلِ، وهُو متابعٌ للمنذريِّ فِي هَذا والصَّواب: «أنس» وأبو داود فقط هو من رواه عن أبي أمامة، وانظر: «الضَّعيفة» (٣/ ١٦٨ ـ ١٦٩) وقال: «منكرٌ بِهذا السِّياقِ».

(٥) فِي «السُّنَنِ» (٤٢٩١) وصحَّحه الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «الصَّحيحةِ» (٥٩٩).

(٦) فِي «المُستَدرَكِ» (٤/ ٥٢٢).

(٧) «معرفة السُّنن والآثار» (١/ ١٠٩).

فما أعجبَ حَالَ أهلِ البدعِ، وأقبلَ نفوسَهُم للبَاطلِ مَع مخالفِتِهم للحَقِّ صرَاحًا.

وَقَدْ قَالَ أَبُو سُليمَانَ الخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عِندَ حَدِيثِ المِقْدَادِ بنِ معدي كَرب عَنْ رَسُولِ الله ﷺ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاودَ[(١)] وَغَيْرُهُ وَفِيهِ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيُوشِكُنَّ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ...» الحَدِيثَ.

«وَفِي لفْظٍ عِندَ أَبِي دَاود: «يَدْعُو إِلَى القُرآنِ وَقَد نَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ» يُحَذِّرُ ﷺ بِذَلِكَ عَنْ مُخَالفَةِ السُّننِ الَّتِي سنَّهَا رسُولُ الله ﷺ ممَّا لَيسَ لَهُ فِي القُرآنِ ذكرٌ؛ كَمَا ذَهَبَتْ إِليهِ الخَوَارجُ والرَّوافضُ، فإِنَّهُم تَعلَّقُوا بظَوَاهِرِ القُرآنِ، وتَركُوا السُّننَ الَّتِي تَضَمَّنَتْ بيانَ الكِتَابِ فتحيَّرُوا وضَلُّوا»[(٢)].

قَالَ: «وإنَّمَا أَرَادَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ أَصْحَابَ التَّرَفَةِ والدَّعةِ الَّذِينَ لزَمُوا البيُوتَ، وَلَمْ يَطْلُبُوا العِلْمَ، وَلَمْ يَغْدُوا، ولَمْ يَرُوحُوا فِي طَلَبِهِ مِنْ مظَانِّهِ، واقتبَاسِهِ مِنْ أَهلِهِ وَحَمَلَتِهِ»[(٣)].

قال: «وَفِي الحَدِيثِ دليلٌ عَلَى أَنَّه لا حَاجَةَ بِالحَدِيثِ إِلَى أن يُعْرَضَ عَلَى الكتَابِ، وأَنَّهُ مَهْمَا ثَبَتَ عَنْ رسُولِ الله ﷺ كَانَ حُجَّةً بِنفسِهِ، فأمَّا مَا رَوَاهُ بَعضُهُمْ أَنَّه قَالَ: «إذَا جاءكم الحديث فاعرضوه عَلَى كتاب الله فإن وافقه فخذوه»[(٤)] فإِنَّهُ حَدِيثٌ بَاطِلٌ لَا أَصْلَ لَهُ»[(١)].

---

(١) فِي «السُّنَنِ» (٤٦٠٤) وصحَّحه الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «صَحيحِ الجامعِ» (١/ ٥١٦).

(٢) «مَعَالِمُ السُّنَنِ» (٤/ ٥١).

(٣) «مَعَالِمُ السُّنَنِ» (٤/ ٥٢).

(٤) أخرجَهُ ابنُ بطة فِي «الإبانة» (١٠٢).

قَالَ ابْنُ السَّاجِيِّ: قَالَ أَبِي رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا حَدِيثٌ مَوْضُوعٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ: وَبَلَغَنِي عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْمَدِينِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ لِهَذَا الْحَدِيثِ أَصْلٌ، وَالزَّنَادِقَةُ وَضَعَتْ هَذَا الْحَدِيثَ.

قَالَ ابنُ بطَّةَ: «وَصَدَقَ ابْنُ السَّاجِيِّ، وَابْنُ الْمَدِينِيِّ رَحِمَهُمَا اللهُ، لِأَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ كِتَابُ اللهِ يُخَالِفُهُ، وَيُكَذِّبُ قَائِلَهُ وَوَاضِعَهُ، وَالْحَدِيثُ الصَّحِيحُ، [ص:٢٦٧] وَالسُّنَّةُ الْمَاضِيَةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَرُدُّهُ

==

قَالَ «وَقَد حَكَى زَكَرِيَا السَّاجِي عَن يَحْيَى بنِ مَعِينٍ أَنَّهُ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ وَضَعَتْهُ الزَّنَادِقَةُ»[٢].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[٣] عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ وَرَوَاهُ أبو داود[٤] واللَّفْظُ لَهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

قَالَ أَبُو سُلَيمَانَ الخَطَّابِي فِي «معَالِمِ السُّنَنِ»: «الْمُتَنَطِّعُ: الْمُتَعَمِّقُ فِي الشَّيْءِ، الْمُتَكَلِّفُ لِلْبَحْثِ عَنْهُ عَلَى مَذَاهِبِ أَهْلِ الْكَلَامِ الدَّاخِلِينَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِم، الْخَائِضِينَ فِيمَا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ»[٥].

ذَكَرَهُ فِي أَهلِ الأهوَاءِ، والنَّهي عَنْ مُجَانَبتِهِمْ، وَعَنِ الجدَالِ فِي القُرْآنِ، وَمَا يُوجِبُهُ ضَلَاهُم وإِضْلَاهُم، كَالخَوَارِجِ والمُرْجِئَةِ وَأَشْكَالِهِمْ.

فَإِنَّ بدعَهُم مَبْدَأُهَا، وأَسَاسُهَا: التَّنَطعُ والتَّعمقُ، ومِنْ ذَلِكَ سُؤالُ أَهْلِ العِرَاقِ لابنِ

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ "وَالَّذِي أَمَرَنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ نَسْمَعَ وَنُطِيعَ، وَلَا نَضْرِبَ لِمَقَالَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ المَقَايِيسَ، وَلَا نَلْتَمِسَ لَهَا الْمَخَارِجَ، وَلَا نُعَارِضَها بِالْكِتَابِ، وَلَا بِغَيْرِهِ، وَلَكِنْ نَتَلَقَّاهَا بِالإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّسْلِيمِ إِذَا صَحَّتْ بِذَلِكَ الرِّوَايَةُ. وَأَمَّا السُّنَّةُ الْوَارِدَةُ عَنْهُ ﷺ الَّتِي تُخَالِفُ هَذَا الْحَدِيثَ الْمَوْضُوعَ الَّتِي نَقَلَهَا أَهْلُ الْعَدَالَةِ وَالأَمَانَةِ، فَهُوَ: مَا حَدَّثَنَا».

وقَال الشَّيخُ الألبَانِيُّ فِي «الضَّعِيفَةِ» (١٣/ ٦٥٨): «صرَّحَ بعضُ أئمتِنَا بأنَّهُ حَديثٌ باطلٌ؛ مِن وضعِ الزَّنادقَةِ».

(١) «مَعَالِمُ السُّنَنِ» (٤/ ٥٢).

(٢) «مَعَالِمُ السُّنَنِ» (٤/ ٥٤).

(٣) (برقم: ٢٦٧٠).

(٤) فِي «السُّنَنِ» (٤٦٠٨).

(٥) «مَعَالِمُ السُّنَنِ» (٤/ ٥٥).

عُمَرَ رضي الله عنهما عَنْ نَجَاسَةِ دَم البَعُوضِ مَع اسْتحلَالِهِم دَمَ ابنِ رسُولِ الله ﷺ بِقَتْلِهِمْ لَهُ!

وَقَدْ رَوَى الطَّبَرَانِي فِي الأَوْسَطِ[(١)] عَنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما مَرْفُوعًا: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الْإِيمَانِ أَنْ يَقُولَ: رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا».

وَقَد مرَّ ذِكْرُ الاخْتلَافِ فِي كُفْرِ تَارِكِ الصَّلَاةِ، وأنَّ تَارِكَهَا جُحُودًا يَكْفُرُ بالإجمَاعِ، وَنِسْيَانًا لَا يَكْفُرُ بالإِجْمَاعِ.

وَقَدْ ذَكرَ إِجْمَاعَ الأُمَّةِ عَلَى ذَلِكَ الخطابيُّ رَحِمَهُ اللهُ وَغَيرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ الأُمَّةِ فَهَذَانِ ضَرْبَانِ مِنْ تَركِ الصَّلَاةِ.

قال الخطابي[(٢)]: وَمِنْهَا تَركُهَا عَمْدًا مِن غَيرِ جَحدٍ، فهذَا اخْتَلفَ النَّاسُ فِيهِ؛ فذهبَ الحنفِي وابنُ المبَارَكِ وأحمَدُ بنُ حَنبلٍ وابنُ رَاهَوَيه إِلَى أنَّ تارِكَهَا عَمْدًا مِنْ غَيرِ عُذرٍ حتَّى يَخْرُجَ وَقتُهَا كَافِرٌ.

قال: وَقَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنبلٍ: لا يَكْفُرُ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذَنبٍ إلَا تَارِكَ الصَّلَاةِ.

وقالَ مَكْحُولٌ والشَّافِعِيُّ: تاركُ الصَّلَاةِ مقتولٌ كَمَا يُقتلُ الكَافِرُ، وَلَا يخرجُ بِذَلِكَ من المِلَّةِ، ويُدفنُ فِي مقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ ويرِثُهُ أهلُهُ.

قالَ: وَاخْتَلَفَ أَصْحَابُ الشافعيِّ فِي كَيفيةِ قتلِهِ، فذهبَ أكثرهُم إِلَى أنَّه يُقتلُ صَبرًا بالسَّيفِ. يعنِي: بعدَ الاستتَابةِ مِنَ السُّلطَانِ أو نَائبِهِ.

وَقالَ ابنُ سُريجٍ: لا يُقتلُ صَبْرًا بالسَّيفِ لكن يُضربُ حتَّى يصلِّيَ[(٣)]، أو يأتِيَ الضَّربُ عَلَيْهِ فيموت.

---

(١) «الأوْسَط» (٧٤٧٢) قالَ الشَّيخُ الألبَانِي فِي «الضَّعيفَةِ» (٣٣٣٤): «مُنكَرٌ بِهذَا اللَّفظِ».

(٢) انظر: «معالم السنن» (١/ ٢٢٥).

(٣) قال الروياني في «البحر» (٢/ ٥٢٣): «وبِهِ قالَ المُزنِي» ثم غلَّطه.

قَالَ: وَقَالَ أصحَابُ الرَّأي: تاركُ الصَّلاةِ لا يَكفرُ، وَلَا يُقتلُ ولكن يُحبسُ ويُضربُ حتَّى يصلِّيَ، وتأوَّلُوا الخبرَ عَلَى مَعنَى الإغلَاظِ، والتَّوعدِ عَلَيْهِ، وَقَد تقدَّمَ ما نُقلَ عَنِ الإمَامِ أحْمَدَ أنهُ لا يَكفرُ، وتقدَّمَ ذِكْرُ توجيهِ شيخِ الإسلامِ قدَّس الله روحَه لمَعنَى قولِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إنَّه لا يُقْتَلُ بَعدَ الاستَابةِ ثلَاثًا، وعرضه عَلَى السَّيفِ إلَّا كافرًا؛ لأنَّهُ لَا يُتصورُ أنّه يُصِرُّ وَيَضبرُ عَلَى القَتلِ إلَّا وَهُوَ جَاحِدٌ، وَهَذَا معْلُومٌ بالإجْمَاعِ إذَا كَانَ جَاحِدًا أنَّه لَا يُقتل إلَّا كَافرًا.

هَذَا مَعْنَى الرِّوَايةِ الأُولَى عَنِ الإمَامِ أَحْمَدَ الَّتِي اختَارَها ابنُ شاقلا وابنُ حامدٍ وابنُ عقيلٍ وَغيرُهِمْ منَ الأصْحَابِ.

والرِّوايةُ الثَّانيةُ: يُقتل حدًّا مع الحكمِ بإسلامِه كالزَّانِي المُحصنِ.

قال شمسُ الدِّينِ ابنُ أبِي عُمرَ [(١)]، وعمُّه مُوفَّقُ الدِّينِ [(٢)]: وهذا اخْتِيارُ أبِي عبدِ الله بن بَطَّةَ، قَالَ: وأنكرَ قوْلَ من قال: إنَّه يَكْفرُ. وذَكَر أن المَذْهَبَ على هذَا، لم يَجِدْ في المَذْهَبِ خِلافًا فيه.

قالَا: وهو قوْلُ أكْثَرِ الفُقَهاء؛ منهُم أبو حنيفةَ، ومالكٌ، والشافعيُّ لقَوْلِ النبيِّ ﷺ: «إن الله حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قال: لَا إلَه إلَّا الله يَبْتَغِي بذَلِكَ وَجْهَ الله». وذكرَا حديثَ عبادةَ بنِ الصَّامتِ.

وحَدِيثَ أنسِ بنِ مالكٍ ﵁ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إلَهَ إلا الله، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيرِ ما يَزن برَّةً». وأنَّه مُتَّفقٌ عَلَيهِ.

وَحَدِيثَ أبِي هُرَيْرَةَ ﵁ فِي أنَّه اختبأَ دعوتَهُ ﷺ شفاعةً لأمَّتِهِ، وَهُوَ فِي صَحيحِ مُسلِمٍ.

وَقَدْ مرَّ حَدِيثُ عبادةَ بنِ الصَّامتِ أيضًا فِي قوله ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللهُ عَلَى العِبَادِ...» الحَدِيثَ، وَقَد تقدَّمَ.

---

(١) فِي «الشرح الكبير» (٣/ ٣٦).

(٢) فِي «المغني» (٣/ ٣٥٩).

وتقدَّمَ كلامُ شيخِ الإِسْلَام ابنِ تيميةَ عَلَيْهِ بأوْضحِ عبارةٍ، وأجلَى بيانٍ بأنه لا يكُونُ إلا فيمن تركَ رأسًا، وأمَّا من يصلِّي ويتركُ، فإنَّه لا يتناولُه الحَدِيثُ لكثرَةِ مَا يقعُ من ذَلِكَ فِي أهلِ القِبْلَةِ.

قال ابنُ أبِي عُمرَ[1]: «وَلو كَانَ كافِرًا، لَمْ يُدْخِلْهُ فِي المَشِيئَةِ»[2].

قال: وَرَوَى ابنُ مَاجه[3] عَن حُذيفَةَ ﷺ أنَّه قَالَ: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مَعَهُمْ مِنْ الْإِسْلَامِ إِلَّا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَقِيلَ لَهُ: وَمَا يَنْفَعُهُمْ؟ قَالَ: تُنْجِيهِمْ مِنْ النَّارِ، لَا أَبَا لَكَ.

وَقَالَ ﷺ: «صلُّوا عَلَى من قَالَ لَا إله إلَّا اللهُ» رَوَاهُ الخَلَّالُ.

قلتُ: وَرَوَاهُ الدارقطنيُّ[4] مِن طُرقٍ مُتَعددةٍ مُختَلِفَةِ المخَارجِ إلَّا أنَّ فِيهَا مقَالًا.

ثمَّ قَالَ ابنُ أبِي عُمَر - وَمَعْنَاهُ لعمِّه مُوفَّق الدِّينِ -: «ولأنَّ ذلك إجماعُ المُسْلِمِين، فإنَّنا لا نَعْلَمُ فِي عَصْرٍ مِن الأعْصَارِ أحَدًا مِن تارِكِي الصلاةِ تُرِك تَغْسِيلُه، والصلاةُ عليه، ولا مُنِع ميراثُ مَوْرُوثِه منهُ، ولا فُرِّق بينَ الزَّوْجَين لتَرْكِ الصلاةِ مِن أحَدِهما، معَ كثْرةِ تارِكِي الصلاةِ»[5].

---

(١) فِي «الشَّرح الكَبِير» (٣/ ٣٦).

(٢) «الشَّرحُ الكَبِيرُ» (٣/ ٣٨).

(٣) فِي «السُّنَنِ» (٤٠٤٩) بنحوِه، وصحَّحه الشيخُ الألبانِيُّ فِي «الصحيحة» (٨٧).

(٤) فِي «السُّنَنِ» (١/ ٤٠١ - ٤٠٢).
قَالَ الشيخُ الألبانِيُّ فِي «الإرواء» (٢/ ٣٠٦): «وهذا سندٌ واهٍ جدًّا، عثمانُ بنُ عبدِ الرحمنِ هو الزهريُّ الوقاصي متروكٌ، وكذبه ابنُ معينٍ».

(٥) «الشَّرحُ الكَبِيرُ» (٣/ ٣٩).



قالَ: «ولو كَفَر لثَبَتَتْ هذه الأحْكامُ»[١].

قَالَ: «ولا نَعْلَمُ خِلافًا بينَ المُسْلِمِين أنَّ تارِكَ الصلاةِ يجِبُ عليه قَضاؤُها، مع اخْتِلافِهم في المُرْتَدِّ»[٢].

قال: «وأمّا الأحادِيثُ المُتَقَدِّمَةُ فهي على وَجْهِ التَّغْلِيظِ، والتَّشْبِيهِ بالكُفَارِ، لا عَلَى الحَقِيقَةِ؛ كقَوْلِه ﷺ: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[٣]. وقَوْلِه: «مَنْ قَال لِأخِيهِ: يا كَافِرُ، فقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»[٤]. وقولِه: «مَنْ حَلَفَ بِغيرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ»[٥]. وقَوْلِه ﷺ: «كُفْرٌ بِالله تَبَرُّؤٌ مِنْ نَسَبٍ، وإِنْ دَقَّ»[٦]. وأشْبَاهِ هَذَا مِمَّا أُرِيدَ به التَّشْدِيدُ في الوَعِيدِ»[٧].

قالَ: «وقَالَ شيخُنَا - يعنِي: عمَّه موفَّق الدِّينِ[٨] -: «وهذا أَصْوَبُ القَوْلَيْنِ»[٩]، يعنِي: عَدَمَ التَّكفيرِ لتَاركِي الصَّلاةِ.

وَلهَذَا احتجَّ الإمَامُ أحْمَدَ - كَمَا قَالَ فِي الفُروعِ[١٠] فِي رِوَايَةِ المَرْوذِيِّ - عَلَى من قَالَ: يُقتلُ أَو يكفرُ بتَأخِيرِهَا عَنْ وقْتِهَا بإخبَارِهِ ﷺ بتَأخيرِ الأمرَاءِ لَهَا عَن وَقْتِهَا، وكَذَا نَقَلَ أَبُو طَالِبٍ،

---

(١) «الشَّرحُ الكَبِيرُ» (٣/ ٣٩).

(٢) «الشَّرحُ الكَبِيرُ» (٣/ ٣٩).

(٣) أخْرَجَهُ البخاريُّ (٦٠٤٤)، ومسلمٌ (٦٤).

(٤) أخْرَجَهُ البخاريُّ (٦١٠٤)، ومسلمٌ (٦٠).

(٥) أخْرَجَهُ أبو داود (٣٢٥١) وصحَّحه الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «الصَّحيحة» (٢٠٤٢).

(٦) أخْرَجَهُ البزَّارُ (١/ ٤٠٢) حسَّنه الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «صحيح الجامع» (٢/ ٨٢٧).

(٧) «الشَّرحُ الكَبِيرُ» (٣/ ٤٠).

(٨) فِي «المُغني» (٣/ ٣٥٩).

(٩) «الشَّرحُ الكَبِيرُ» (٣/ ٤٠).

(١٠) «الفروع» (١/ ٤٢٣).

ونَقَلَ أيضًا إِذَا تَرَكَهَا حتَّى يصلِّيَ صلاةً أُخرَى فَقَدْ تَرَكَهَا.

قُلْتُ: فَقَدْ كَفرَ؟ قَالَ: لَا، الكُفْرُ لَا يوقفُ عَلَى حَدِّهِ، ولَكِن يُسْتَتَابُ[(١)].

فإِذَا كَانَ هَذَا تورعُ السَّلفِ ـ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ ـ وفُقهَائِهِمْ فِي عَدمِ تكفِيرِ تَاركِ الصَّلاةِ رأسًا، وفيهَا مِنَ النُّصُوصِ ما قَدْ مرَّ بكَ ـ وهمُ القُدوةُ ـ؛ عَلِمْتَ عَلمًا يَقِينًا خَطأَ الخَوَارِجِ، وضَلَالَهُم بِأهوَائِهِم وحُكمِهِم فِي الأمَّةِ بآرائِهِم مِن سَفْك دِمَائِهِم، وَنَهبِ أموَالِهِم، يعترضُونَ بِذَلِكَ البرَّ، والفَاجرَ، والأعرابيَّ، والمهاجرَ، والمُصلِّي، والصَّائِمَ، والقَاعِدَ عنهُم، والقائمَ.

فسَيْفُهُم عَلَى الأمَّةِ قائمٌ، وتكفِيرُهُم لَهُم دائمٌ، ساءَ ما يَحكمُونَ، وبئسَ مَا كانُوا يفعَلُونَ، فطبَاعُهُم على ذَلِكَ عاصيةٌ، وقلوبُهُم على الأمَّةِ قاسِيَةٌ؛ إذ هي منَ الإيمانِ عَاريةٌ غَيْرُ كَاسِيَةٍ.

فالخَوَارِجُ تركضُ بِذَلِكَ عَلَى الأمَّةِ فِي مِيدَانِ غيِّها، وتمرحُ، وتغضبُ بَزَيغِهَا لهَوَاهَا وتفرح، كَأَنَّ اللهَ وكَّلَ إِليهَا فِي الأمَّةِ التَّشْرِيعَ، أَو أَنْ تُميزَ الشَّقِي مِنْهَا والمُطِيعَ.

---

(١) انظر: «الإرشاد» (ص ٤٦٧).



فَصْلٌ

إِذَا علمتَ ذَلِكَ فِي تَارِكِ الصَّلاةِ؛ فاعلمْ أنَّ الدَّاعِي لَهُ إِنَّما هُوَ الإِمَامُ الأعظمُ الَّذِي هُوَ السُّلطانُ أو نائبُه، نصَّ عَلَيْهِ الإمامُ أحمَدُ والأَصْحَاب حَذرًا من الافتئاتِ عَلَى الإمامِ، وَمِن وقوعِ الفتنةِ بذَلِكَ.

قال فِي «الإنصَافِ»: «فَلو ترَك صلَواتٍ كثيرةً قبلَ الدُّعاءِ ـ يعنِي: منَ الإمَامِ أو نائبِه ـ لَم يجِبْ قتلُه، ولا يكفرُ، على الصَّحيحِ مِنَ المذهبِ، وعليه جماهيرُ الأصحابِ، وقطَع به كثيرٌ منهم»[(١)].

وأنَّه لا يُقتلُ ـ عَلَى روايةٍ ـ إلَّا بعدَ استتَابتِه ثلاثًا، كُل يومٍ يُعرضُ عَلَى السَّيفِ إنْ لَم يصلِّ، ويضيَّقُ عَلَيْهِ حتَّى فِي المَعِيشَةِ ليرجعَ فَيصلِّي.

قالَ فِي «الإِنْصَافِ» عن قَولِ موفَّقِ الدِّينِ: «وَظاهرُ قولِه: أنَّه لا يَكْفُر بتَرْكِ شيءٍ مِنَ العِباداتِ تَهاوُنًا غيرُها». يعنِي: الصَّلاةَ.

قالَ: «وهو صحيحٌ، وهُو المَذهبُ، وعليهِ جُمهُورُ الأَصْحَابِ».

قال في «الفُروعِ»: «اخْتارَه الأكثرُ. قال ابنُ شِهَابٍ وغيرُه: هو ظاهرُ المذهبِ، فلا يَكْفُرُ بتَرْكِ زكاةٍ، ولا بتَرْكِ صوْمٍ وحَجٍّ يحرمُ تأْخيرُه تَهاوُنًا»[(٢)].

قُلْتُ: والقَولُ بقتلِ تَارِكِ الصَّلَاةِ تهاونًا بعدَ الاستتَابة منَ الإمَام أو نائبِه كفرًا إنَّما هُوَ مِنْ مُفردَاتِ المَذْهَبِ؛ ذكرَهَ صَاحبُ الإنصَافِ[(٣)] وَغَيرُهُ.

---

(١) «الإنصاف» (٣/ ٣٠).

(٢) «الإنصاف» (٣/ ٣٤).

(٣) «الإنصاف» (٣/ ٣٨).

وَلهَذَا وجَّه شيخُ الإسلام هَذِهِ الرِّوَايةَ عَلَى الجَاحِدِ، وأنَّهُ يمتنعُ أنَّه يَعْلَمُ أنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَهَا عَلَيْهِ وَهُوَ يعرضُ عَلَى السَّيفِ ثلاثةَ أيامٍ، وَلَا يَفعلهَا، ويصبرُ عَلَى القتلِ.

قَالَ: «وَهَذَا لَا يفعلهُ أحدٌ قطُّ»[(١)].

وصوَّبهُ فِي «الإنصَافِ»[(٢)] وَقطعَ بِهِ.

فتكونُ المسألةُ فِي التَّارِكِ لهَا تهاونًا وكسلاً رواية واحدة أنه لا يَكفر كَمَا ذكرَه أبو عبدِ اللهِ بنُ بَطَّةَ، وأنَّه لَمْ يجِدْ فِي المذهبِ خِلافَه، وَهُوَ الَّذِي صوَّبه موفقُ الدِّين ابنُ قدامَةَ، ومالَ إليهِ صَاحبُ الشَّرحِ، واختارَهُ - فِيمَا ذكرَهُ صَاحِبُ «الإنصَافِ»[(٣)] - ابنُ عَبْدُوسٍ في «تَذْكِرَتِه»، وابنُ عَبْدُوسٍ المُتقدِّمُ. وصَحَّحَه المَجْدُ، وصاحِبُ «المُذْهَبِ»، و«مَسْبوكِ الذَّهَبِ»، وابنُ رَزِين، وصاحِبُ «النَّظْمِ»، و«التَّصْحيحِ»، و«مجْمَعِ البَحْرَين».

وجزَم به في «الوَجيزِ»، و«المُنوِّرِ»، و«المُنْتَخَبِ»، وقدَّمه فِي «المُحَرَّرِ»، و«ابنِ تَميمٍ»، و«الفائقِ».

وظاهرُ مَا قرَّرَهُ شَيخُ الإِسْلَامِ بِالتَّوجِيهِ سَابِقًا، وَتَصويبُ صَاحِبِ الإنصَافِ لَهُ أنَّ التَّاركَ لهَا تَهاونًا وَكَسَلًا لَا يكفُر رِوَايةً واحدةً تبعًا للأئمَّةِ وجمهُورِ الأمَّةِ، وإنَّما يُقتلُ بِكفرِهِ جَاحِدًا، وَهَذَا هُوَ الحَقُّ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى لمُوافقتِهِ للأئمَّةِ والجمهُورِ.

وَبِهذَا يُعْلَمُ عِلْمًا مُحقَّقًا أنَّ الخَوَارجَ بِتكفيرِهِمُ الأمَّة ليسُوا عَلَى شيءٍ، وإن أوسعُوا القَولَ، وأكثرُوا الجدلَ، فَلَا أعظمَ ممَّا أدَّتهُ إليهم عقُولُهم بأنْ قَالوا فِي النَّبيِّ ﷺ ما أخلصَ للهِ، وَلَا عدلَ، حِينَ قَالَ إمَامُهُم فِي هَذَا المَذْهَبِ «إنَّ هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجهُ اللهِ»[(٤)].

---

(١) «الفتاوي الكبرى» (٥/ ٣١٨).

(٢) «الإنصاف» (٣/ ٤٠).

(٣) «الإنصاف» (٣/ ٣٨ـ ٤٠).

(٤) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٣١٥٠)، ومُسْلمٌ (١٠٦٢).



وقوله للنَّبيِّ ﷺ: اعْدِلْ يَا محمَّدُ فإنَّك لم تعدلْ، وذلكَ ذُو الخُوَيْصِرَةِ قالَهُ فِي قِسْمَةِ غنَائم حُنينٍ، فوصَفَ النَّبيَّ ﷺ بعدمِ الإِخْلَاصِ فِي قولِهِ: «هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ»[(١)] وَبِعَدمِ العَدلِ بِقَولِهِ: «اعْدِلْ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ»[(٢)] وفي لَفظٍ: «هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا».

وَلهَذَا وُصفوا بالكِلَابِ؛ كَمَا روى الإِمَامُ أحمَدَ عَنِ ابنِ أَبِي أَوْفَى ﷺ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «الخَوَارِجُ هُم كِلَابُ النَّار» وَرَوَاهُ عَنْهُ ابنُ مَاجه[(٣)]، والحَاكِمُ[(٤)] وَصَحَّحهُ.

وقال عَبْدُ الله بنُ الإمَامِ أَحْمَدَ[(٥)] فِيمَا حدَّثَهُ أَبُوهُ فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، ثَنَا أَبُو كَامِلٍ، ثَنَا حَمَّادٌ ـ يَعْنِي: ابْنَ سَلَمَةَ ـ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُمْهَانَ، قَالَ: «كَانَتِ الْخَوَارِجُ تَدْعُونِي حَتَّى كِدْتُ أَنْ أَدْخُلَ مَعَهُمْ، فَرَأَتْ أُخْتُ أَبِي بِلَالٍ فِي النَّوْمِ أَنَّ أَبَا بِلَالٍ ـ يعنِي: ابنَ مردَاسٍ ـ كَلْبٌ أَسْوَدُ أَهْلَبُ عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، فَقَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ يَا أَبَا بِلَالٍ مَا شَأْنُكَ أَرَاكَ هَكَذَا؟ قَالَ: جُعِلْنَا بَعْدَكُمْ كِلَابَ النَّارِ، وَكَانَ أَبُو بِلَالٍ مِنْ رُؤُوسِ الْخَوَارِجِ.

قُلْتُ: وَهُوَ من عبَّادِهِمْ أيضًا كَمَا سيأتِي إِنْ شَاءَ اللهُ فِي أخبَارِهِ.

وعِندَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(٦)] أيضًا عَن أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الخَوَارِجُ كِلَابُ النَّارِ» وَرَوَاهُ الحاكِمُ[(٧)] وَقَالَ: صَحِيحُ الإِسنَادِ.

---

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٣١٥٠)، ومُسْلمٌ (١٠٦٢).

(٢) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٣١٣٨)، ومُسْلمٌ (١٠٦٣).

(٣) فِي «السُّنَنِ» (١٧٣) وصحَّحه الشيخُ الألبانِيُّ فِي «ظلَالِ الجنَّة» (٩٠٤).

(٤) فِي «المُسْتَدرَكِ» (٢/ ١٤٩).

(٥) فِي «السُّنَّةِ» (١٥٠٩) ورجَاله ثقاتٌ.

(٦) فِي «المُسندِ» (٥/ ٢٥٦).

(٧) فِي «المُسْتَدرَكِ» (٢/ ١٤٩).

قالَ عَبْدُ الله [١]: حَدَّثَنِي أَبِي، ثَنَا عَفَّانُ، ثَنَا سَلَّامٌ أَبُو الْمُنْذِرِ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ، قَالَ: خَرَجَ خَارِجِيٌّ بِالْكُوفَةِ فَقِيلَ: يَا أَبَا وَائِلٍ، هَذَا خَارِجِيٌّ خَرَجَ فَقُتِلَ؛ قَالَ: «وَاللهِ مَا أَعَزَّ هَذَا اللهُ مِنْ دِينٍ، وَلَا دَفَعَ عَنْ مَظْلُومٍ، هَذَا وَأَبِيكَ الْخَيْرُ».

قلتُ: وَلَا نعلَمُ خَارِجيًا خرَجَ أوَّلَ زمَانٍ وَلَا آخرَه، إلَّا يدعُو إلَى الهِجْرَةِ إليهِ، وَمَنْ لَمْ يُهَاجِرْ إليهِ مِنَ الأُمَّةِ فَهُوَ كَافِرٌ، ويحملُونَ النَّاسَ مع جَهلِهِم عَلَى الاجتهادِ المُطلقِ مِن غَيرِ عِلْمٍ بتَرْكِيبِ الأَدلةِ، بحيثُ يأخذُونَ، ويختارُونَ بأهوَائِهِم مَا شَاءُوا مِن غَيرِ تمَكنٍ مِنَ اللُّغةِ والأُصُولِ مِنْ خَاصٍّ، وعامٍ، ومُطلقٍ، ومُقيدٍ، ونَاسخٍ، ومنسُوخٍ، ودَليلِ خِطَابٍ، ومفهُومِ مخَالفَةٍ أو موَافقةٍ، ومِن غَيرِ عَلمٍ بطُرقِ الأَحَادِيثِ صَحيحِهَا وَسَقِيمِهَا وأفرَادِهَا.

وقالَ عَبْدُ الله [٢]: حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا بَهْزٌ، وَعَفَّانُ، قَالَا: حَدَّثَنَا حَمَّادٌ يَعْنِي: ابْنَ سَلَمَةَ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ جُمْهَانَ، قَالَ: كُنَّا مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى ﷺ نُقَاتِلُ الْخَوَارِجَ، وَقَدْ لَحِقَ غُلَامٌ لِابْنِ أَبِي أَوْفَى بِالْخَوَارِجِ، فَنَادَيْنَاهُ يَا فَيْرُوزُ هَذَا ابْنُ أَبِي أَوْفَى فَقَالَ: نِعْمَ الرَّجُلُ لَوْ هَاجَرَ قَالَ: «مَا يَقُولُ عَدُوُّ اللهِ» قُلْنَا: يَقُولُ: نِعْمَ الرَّجُلُ لَوْ هَاجَرَ فَقَالَ «أَهِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَتِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ» قَالَ: بَهْزٌ فِي حَدِيثِهِ: يُرَدِّدُهَا ثَلَاثًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ».

وَقَالَ عَفَّانُ وَيُونُسُ: «لِمَنْ قَتَلَهُمْ وَقَتَلُوهُ» ثَلَاثًا.

وَقَالَ عَبْدُ الله [٣]: حَدَّثَنِي أَبِي، ثَنَا وَكِيعٌ، ثَنَا ابْنُ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: ذُكِرتْ عِنْدَهُ الْخَوَارِجُ فَقَالَ: «هُمْ قَوْمٌ زَاغُوا فَأَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ».

ثمَّ رَوَى عَنْ عَبدِ الله بنِ أَبِي أَوْفَى ﷺ فِيهِم مِثلَهُ.

---

(١) فِي «السُّنَّةِ» (١٥٣١) وسندُه حسنٌ؛ عاصمُ بنُ بهدلةَ حسنُ الحديثِ.

(٢) فِي «السُّنَّةِ» (١٥٢٠) وسندُه حسنٌ.

(٣) فِي «السُّنَّةِ» (١٥٢٥) وَسَندُهُ صَحِيحٌ.



وَقَالَ عبدُ الله [١] أيضًا: حَدَّثَنِي أَبِي، ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بِشْرٍ، ثَنَا عُبَيْدُ اللهِ، عَنْ نَافِعٍ، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ «أَرَادَ أَنْ يُقَاتِلَ نَجْدَةَ - يَعنِي: ابنَ عويمرٍ صَاحِبَ اليَمَامَةِ - حِينَ أَتَى الْمَدِينَةَ يُغِيرُ عَلَى ذَرَارِيهِمْ» فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ لَا يُبَايِعُونَكَ عَلَى هَذَا، ونخافُ أَنْ يَتركوك فتُقتل قَالَ: «فَتَرَكَهُ» وَهَذَا بِمَعْنَاهُ فِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ.

وَفِي رِوَايَةٍ [٢] عَنْ يَزِيدَ بْنَ أَبِي عُبَيْدٍ، قَالَ: لَمَّا ظَهَرَ نَجْدَةُ الْحَرُورِيُّ - يعني: فِي اليَمَامَةِ - وأَخَذَ الصَّدَقَاتِ قِيلَ: لِسَلَمَةَ: أَلَا تباعَدُ مِنْهُمْ؟ قَالَ: فَقَالَ: «وَاللهِ لَا أُبَايِعُهُ وَلَا اتَّبِعُهُ أَبَدًا» قَالَ: «وَدفَعَ صَدَقَتَهُ إِلَيْهِمْ».

وَقَالَ [٣]: حَدَّثَنِي أَبِي، ثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ، أَنَا عُبَيْدُ اللهِ، عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: لَمَّا سَمِعَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما بِنَجْدَةَ قَدْ أَقْبَلَ - يعني: مِنَ اليمامةِ - وَأَنَّهُ يُرِيدُ الْمَدِينَةَ وَأَنَّهُ يَسْبِي النِّسَاءَ وَيَقْتُلُ الْوِلْدَانَ.

قَالَ: إِذن لَا نَدَعُهُ وَذَاكَ، وَهَمَّ بِقِتَالِهِ، وَحَرَّضَ النَّاسَ؛ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ لَا يُقَاتِلُونَ مَعَكَ وَنَخَافُ أَنْ تُتْرَكَ فَتُقْتَلَ، فَتَرَكَهُ.

وقَد تقدَّمَ مَا رَوَاهُ الإِمَامُ أحمَدُ وابنُهُ عَن نَافعٍ حَيْثُ قَالَ الإمَامُ أحمَدُ حَدَّثَنَا عَفَّانُ، ثَنَا جُوَيْرِيَةُ بْنُ أَسْمَاءَ، قَالَ: زَعَمَ نَافِعٌ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ «يَرَى قِتَالَ الْحَرُورِيَّةِ حَقًّا وَاجِبًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ».

---

(١) فِي «السُّنَّةِ» (١٥٢٨) ورجاله ثقاتٌ.

(٢) فِي «السُّنَّةِ» (١٥٢٦) وَسَندُهُ صَحِيحٌ.

(٣) فِي «السُّنَّةِ» (١٥٣٧) وَسَندُهُ صَحِيحٌ.

فَصْلٌ

فِي ذِكرِ قَاعِدةٍ فِي الإيمَانِ نَشَأتْ عَنْهَا مَذاهِبُ الخَوارجِ، بَل وَكُلُّ مُبتدعٍ:

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ مُطْلَقُ الإِيمَانِ عِندَ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ يَتَناولُ جَمِيعَ مَا أمرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ﷺ، وَأصلُ ذَلِكَ الكَلِمَة الطَّيبةُ؛ وَهِيَ كَلمَةُ الإخلَاصِ الَّتِي هِيَ مِفتَاحُ الجَنَّةِ، لَا إلَه إِلَّا اللهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

فَلَا إِلَه إِلَّا اللهُ كَالشَّجرَةِ، والأَعمَالُ ثِمارُهَا فِي كُلِّ وَقتٍ، فَجِميعُ الأعمَالِ الصَّالحَةِ تحقّقُ قولَ لَا إلَه إلَّا اللهُ، فإِنَّ الإيمَانَ قولٌ وعملٌ بالقَلبِ والجَوَارِحِ كَما صحّ عَنْهُ ﷺ فِيما قدمنا أنه قَالَ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً» أَوْ «بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ أي: صَلَاتكُم إِلَى البَيْتِ المَقْدسِ، كَما هُوَ مَعلُومٌ عِندَ السَّلَفِ ﵃.

وَقد تَوَاترتِ الأخبَارُ والأحَادِيثُ الصَّحيحةُ، ومرَّ بعضُهَا بأَنَّهُ يَخرجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَه إلَّا اللهُ، وكَانَ فِي قَلبِهِ مِنَ الخَيرِ مَا يَزِنُ شعِيرَةً، وَمَا يَزِنُ خَرْدَلَةً، وَمَا يَزِنُ ذَرَةً، وَتَوَاترتِ الأحَادِيثُ بأَنَّهُ يَحرمُ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَه إِلَّا اللهُ، وَمَنْ شَهدَ أَنَّ لَا إِلَه إِلَّا اللهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

فلَمَّا كَانَ الأمرُ كَذَلِكَ، وكانَ الإيمَانُ عِندَ الخَوارجِ هُوَ مجمُوعُ مَا أمرَ اللهُ بِهِ ورَسُولُه ﷺ كَما قالَهُ السَّلفُ مِنْ أهلِ الحَدِيثِ وَغَيرِهِمْ، فَعِندَ ذَلِكَ فَارَقتهُم الخَوَارِجُ، وقَالُوا: إِذَا ذَهَبَ شيءٌ مِنَ الإيمَانِ لَم يَبْقَ مَع صَاحبِهِ شَيءٌ مِنهُ، فَيُخَلَّدُ صَاحبهُ فِي النَّارِ، وحَكمُوا عَلَيْهِ بالكُفرِ بِذَلِكَ.

وَقَالَتِ المُعتزلةُ: إِذَا ذَهبَ مِنْهُ شَيءٌ سُلِبَ اسمُ الإِيمَانِ مِنْهُ بالكُلية، ويكُونُ بِمَنزلةٍ بَينَ المَنزلَتَينِ الكُفرِ والإِيمَانِ.

وأمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ فإنَّهُم لا يخرجُونَه منَ الإِيمَانِ مَا دَامَ مَعَهُ أصلُهُ الَّذِي دَخلَ بِهِ فِيهِ، فَلَا يَكفرُ بِتَركِ شُعبةٍ من شُعبِ الإيمان كَمَا أَنَّه لا يَكفرُ بشُعبةٍ مِن شُعبِ الكُفرِ مَا دَامَ مَعَهُ أَصلُ الإِيمَانِ.

قَالَ شيخُ الإِسْلَام ابنُ تيميةَ قدَّسَ اللهُ روحَهُ: «وَقَد اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَسَائِرُ أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّهُ لَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ أَحَدٌ مِمَّنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ»[(١)].

«وَقَالَتْ المُرْجِئَةُ عَلَى اخْتِلَافِ فِرَقِهِمْ: لَا تُذْهِبُ الْكَبَائِرُ وَتَرْكُ الْوَاجِبَاتِ الظَّاهِرَةِ شَيْئًا مِنْ الْإِيمَانِ إِذْ لَوْ ذَهَبَ شَيْءٌ مِنْهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ، فَيَكُونُ شَيْئًا وَاحِدًا يَسْتَوِي فِيهِ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ وَنُصُوصُ الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ تَدُلُّ عَلَى ذَهَابِ بَعْضِهِ وَبَقَاءِ بَعْضِهِ؛ كَقَوْلِهِ: «يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ»»[(٢)].

وَقَد صرَّحَ بِهَذَا شَيخُ الإِسلَامِ ابنُ تيميةَ فِي كِتَابِ «الإِيمَانِ الكَبِيرِ» وَبَالغَ فِي تَقْرِيرِهِ، وبيَّنَ ضَلَالَ الخَوَارجِ فِي ذَلِكَ والمُعتزلةِ، وبيَّنَ خطأَ مُقَابلِيهم كَالمُرْجِئَةِ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ.

وَنَقَلَ تَقِي الدِّينِ ابنُ قندسَ فِي «حَوَاشِي الفرُوعِ»[(٣)] طَرفًا من ذَلِكَ فِي حُكْمِ المُرْتَد.

إِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ فأهلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ من جَمِيعِ الطَّوَائفِ؛ مطبقُونَ عَلَى ذمِّ الخَوَارِجِ، وأنَّ أقوَالَهُم مِنَ البدعِ المَشهُورَةِ فِي الإِسْلَامِ، وأنَّ قولَهُم فِي الأمَّةِ - هُمْ والمُعْتَزلَة - شرٌّ مِنَ المُرْجِئَةِ.

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٢٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٢٣).

(٣) (١٩/ ١٩٥-١٩٧).

فإنَّ المرجئةَ أقلُّ ضررًا على الإسلامِ والمسلمينَ، فإنَّ منهم جماعةً من العلماءِ والعبادِ المذكورينَ عندَ الأمةِ بخيرٍ، بخلافِ الخوارجِ؛ فإنَّهم لا يُذكرونَ إلا بالشرِّ، والإفسادِ على البلادِ والعبادِ؛ لِسعيهم فيهم بالتكفيرِ، وسوءِ المسيرِ؛ لأنَّ أمةَ الإجابةِ لها حرمةٌ، فهم أهلُ القبلةِ المتوقى تكفيرهم، وأنَّهُ لا يجوزُ الخروجُ عليهم بذلكَ، فمنْ فعلهُ كانَ خارجيًّا، وهذا كانَ السلفُ والعلماءُ بعدهُم يتورَّعونَ عن تكفيرِ مَنْ يفعلُ ما هُوَ كفرٌ صريحٌ.

وَمِنْ ذَلِكَ لَمَّا ذكرَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ قدَّسَ اللهُ روحَهُ كلامَ السلفِ عَلَى قولِهِ تَعالَى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

وَذَكَرَ اختِلافَ أقوالِهِمْ فِي السَّيئةِ[1]، قَالَ: وَعَلَى هَذَا فالخُلودُ مجملٌ؛ خُلودُ أهلِ الشركِ نوعٌ، وخُلودُ أهلِ القِبْلَةِ نوعٌ كَمَا فسَّرتِ النُّصوصُ النبويَّةُ هَذَا وَهَذَا.

وَذَلِكَ بعدَ مَا ذكرَ أهلَ شهادةِ أن لَا إلَه إلَّا اللهُ، وأنَّهم يَخرجُونَ مِنَ النَّارِ بالشَّفَاعَةِ وَغَيْرِهَا.

وذَكرَ قَوْلَ الخَوارِجِ فِي أهْلِ القِبْلَةِ، وَقَوْلَ المُعْتَزِلَةِ.

فانظُرْ إلَى تورعِهِ وتوقِّيهِ لتكفيرِ أهْلِ القِبْلَةِ، وَهُوَ مِنْ أشدِّ الخلقِ فِي الأمرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهيِ عَنِ المُنكرِ، وَأقوَمِهِم فِي دينِ الله تَعالَى؛ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ مِن سَجِيَّتِه حَتَّى تَعْلَمَ أنَّ الخَوارِجَ لا يَحْترِمُونَ أهْلَ القِبْلَةِ، وَلَا يَرَوْنَ أنَّهُمْ عَلَى شَيءٍ، بَلْ لَا يَرَوْنَ أنَّهُم مُسْلِمُونَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ حَالِهِمْ.

وَأبلَغُ مِن هَذَا الكَلامِ لشَيخِ الإِسْلَامِ ابنِ تيميةَ، كلامٌ لَهُ فِي جَوَابِ سُؤَالٍ، وَذَلِكَ أنَّه لَمَّا ذَكَرَ «مِثْلَ مَنْ يَعْتَقِدُ - مِنْ أهْلِ القِبْلَةِ - أنَّ شَيخَهُ يَرْزُقُهُ، أوْ يَنْصُرُهُ، أوْ يَهْدِيهِ، أوْ يُعِينُهُ، أوْ كَانَ يَعْبُدُ شَيخَهُ، أوْ يَدْعُوهُ، وَيَسْجُدُ لَهُ، أوْ يُفَضِّلُهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ تَفضِيلًا مُطْلَقًا، أوْ مُقَيَّدًا

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٨ - ٥٠).



فِي شَيْءٍ مِنْ الْفَضْلِ، وأَشْبَاه ذَلِكَ»[١].

فَذَكَرَ «أنَّ هَؤُلَاءِ كُفَّارٌ إنْ أَظْهَرُوا، وَمُنَافِقُونَ إنْ أبْطَنُوا».

«وَهَؤُلَاءِ الْأَجْنَاسُ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ كَثُرُوا فِي هَذَا الأزمَانِ، فَلِقِلَّةِ دُعَاةِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَفُتُورِ آثَارِ الرِّسَالَةِ فِي أَكْثَرِ الْبُلْدَانِ، وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ لَيْس عِنْدَهُمْ مِنْ آثَارِ الرِّسَالَةِ، وَمِيرَاثِ النُّبُوَّةِ مَا يَعْرِفُونَ بِهِ الْهُدَى، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَمْ يَبْلُغْهُمْ ذَلِكَ.

وَفِي أَوْقَاتِ الْفَتَرَاتِ، وَأَمْكِنَةِ الْفَتَرَاتِ: يُثَابُ الرَّجُلُ عَلَى مَا مَعَهُ مِنْ الْإِيمَانِ الْقَلِيلِ، وَيَغْفِرُ اللهُ فِيهِ لِمَنْ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ مَا لَا يَغْفِرُه بِهِ لِمَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ»[٢].

يَعنِي بِهِ: بِحَيْثُ لا يَعْلَمُ أَنَّ مَا فعلَهُ يُنَاقِضُ شهَادتِي الإِخلَاصِ، فإِنَّكَ لَوْ طَالبتَهُ بِإنْكَارِ شَهادتِي الإِخْلَاصِ لامْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ غَايَةَ الامْتِنَاعِ.

فَهَذَا لا يكُونُ إلا مُخْطِئًا جَاهِلًا، وَقَد رُفِعَ عن هَذِهِ الأُمَّةِ الخَطَأ والنِّسيانُ، وَقَد قَالَ تَعَالَى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾[٣].

قَالَ: «وَذَلِكَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمَعْرُوفِ ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَعْرِفُونَ فِيهِ صَلَاةً، وَلَا صِيَامًا، وَلَا حَجًّا، وَلَا عُمْرَةً، إلَّا الشَّيْخَ الْكَبِيرَ، وَالْعَجُوزَ الْكَبِيرَةَ. يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا وَهُمْ يَقُولُونَ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ».

فَقِيلَ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: مَا تُغْنِي عَنْهُمْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ؟ فَقَالَ: «تُنْجِيهِمْ لَا أبا لَكَ مِنْ النَّارِ»[٤].

---

(١) «مجمُوع الفتَاوَى» (٣٥/ ١٦٤).

(٢) «مجمُوع الفتَاوَى» (٣٥/ ١٦٥).

(٣) سبق أن ذكرتُ أن أمور التوحيد الظاهرة لا يُعذر فيها بالجهل.

(٤) أخرَجَهُ فِي «السُّنَنِ» (٤٠٤٩) وصحَّحه الشيخُ الألبانيُّ فِي «الصحيحة» (٨٧).

وفي «مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَدَ»[(١)] مِنْ حَدِيثِ عثمَانَ بنِ عَفَّانَ ﷺ في قصَّة مَوْتِ النَّبيِّ ﷺ.

وَفِيهَا: أنَّ عُمَرَ مَرَّ عَلَيْهِ فَسَلَّمَ فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ، وَلَمْ يردْ عَلَيْه، فَشَكَى عُمَرُ ذَلِكَ مِنْ عُثمَان لأَبِي بكرٍ، فعَاتَبَهُ أَبو بَكرٍ، فَقَالَ عُثْمَانُ لِعُمَرَ: والله مَا شَعرْتُ إنَّكَ مَررتَ وَسلَّمتَ، فقال أبو بَكرٍ: صَدَقَ عُثْمَانُ، وَقَدْ شَغَلَهُ عَنْ ذَلِكَ أمرٌ، فقَالَ عثمان: أَجلْ، قَالَ أَبو بَكْرٍ: مَا هُوَ؟

قُلْتُ: تَوَفَّى رَسُولُ الله ﷺ قَبلَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ نَجَاةِ هَذَا الأَمْرِ، فَقَالَ أَبو بَكْرٍ: قَدْ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَامَ إِلَيْهِ عُثْمَانُ وَقَالَ لَهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَنْتَ أَحَقُّ بِهَا، قَالَ أَبو بَكْرٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مَا نَجَاةُ هَذَا الأَمْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ قَبِلَ مِنِّي الْكَلِمَةَ الَّتِي عَرَضْتُها عَلَى عَمِّي فَرَدَّهَا، فَهِيَ لَهُ نَجَاةٌ».

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «وَأَصْلُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَقَالَةَ الَّتِي هِيَ كُفْرٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ يُقَالُ: هِيَ كُفْرٌ، قَوْلًا مُطْلَقًا كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ؛ فَإِنَّ الْإِيمَانَ والتَّكفِيرَ مِنْ الْأَحْكَامِ الْمُتَلَقَّاةِ عَنْ اللهِ وَرَسُولِهِ، لَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْكُمُ فِيهِ النَّاسُ بِظُنُونِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ»[(٢)].

كَفِعْلِ الخَوَارِجِ.

قَالَ: «وَلَا يَجِبُ أَنْ يُحْكَمَ فِي كُلِّ شَخْصٍ قَالَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَافِرٌ حَتَّى يَثْبُتَ فِي حَقِّهِ شُرُوطُ التَّكْفِيرِ، وَتَنْتَفِي مَوَانِعُهُ مِثْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْخَمْرَ،وإِنَّ الرِّبَا حَلَالٌ؛ لِقُرْبِ عَهْدِهِ بِالْإِسْلَامِ، أَوْ لِنُشُوئِهِ فِي بِلَادٍ بَعِيدَةٍ، أَوْ سَمِعَ كَلَامًا أَنْكَرَهُ، وَلَمْ يَعْتَقِدْ أَنَّهُ مِنْ الْقُرْآنِ، وَلَا مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَمَا كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَشكُّ أَشْيَاءَ مِثْلَ رُؤْيَةِ اللهِ تَعَالَى، وَغَيْرِ ذَلِكَ، حَتَّى يَسْأَلُوا عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَمِثْلَ الَّذِي قَالَ: إذَا أَنَا مُتُّ فَاسْحَقُونِي وذرُوني فِي الْيَمِّ؛ لَعَلِّي أُضِلُّ اللهَ وَنَحْوَ ذَلِكَ.

فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يُكَفَّرُونَ، وَلَا يُخْرَجُونَ عَنْ أَهْلِ القِبْلَةِ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الرِّسَالِيةِ،

---

(١) في «المُسْنَدِ» (١/ ٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٦٥).

وَيَتَبَيَّنُ لَهُمْ خطَأوهُم، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.

وَقَدْ عَفَا اللهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ الْخَطَإِ وَالنِّسْيَانِ، وَقَدْ أَشْبَعْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذَا فِي غَيرِ هَذَا المَوْضِعِ مِنَ القَوَاعِدِ»[١]. يعني: قوَاعِدَ الدِّينِ.

فَقَدْ صرَّحَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَنَّ لتكفِيرِ الشَّخصِ المُعيَّنِ الفَاعِلِ لَمَا ذُكِرَ شرُوطًا، وموَانعًا، إذا كَانَ ذَلِكَ الشَّخْصُ مِنْ أَهلِ القِبلَةِ، فَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ التَّكفِيرُ، وإِنْ كَانَ مَا يفعلُهُ أو يقولُهُ كفرًا حتَّى تُوجدَ تِلك الشُّرُوطُ، وَتَنتَفِي عَنْهُ تِلْكَ المَوَانعُ.

وَمِنَ المَعْلُومِ أيضًا أنَّه لَا يُطلقُه عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ هُوَ عَلِيمٌ بِذَلِكَ رَاسِخًا فِي العِلْمِ الَّذِي بعثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ، فَإِذَا وُجِدَتْ تِلْكَ الشُّرُوطُ، وانْتَفَتْ تِلْكَ المَوَانعُ، فَحِينَئِذٍ يُطْلَقُ عَلَيْهِ التَّكفِيرُ، وتَلْزَمُ فِيهِ الاسْتتَابَةُ المَعْلُومَةُ عِندَ العُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِحُدُودِهَا مِنَ الإِمَامِ أَو نَائبِهِ، لا غَيْرُ، لئلَّا يُفتَاتَ عَلَيْهِ، وَيحدث بِذَلِكَ فِتْنَةٌ عَرِيضَةٌ فِي الأُمَّةِ.

كما قَالَ جَرِيرُ بنُ عَطيةَ[٢]:

لَوَلَا الخَلِيفَةُ والقُرْآنُ يقرَأُه ... مَا قَامَ للنَّاسِ أحكَامُ وَلَا جُمَعُ

فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ وَصَحَّ عِندَكَ مَا هُنَالكَ؛ عَلِمْتَ يَقِينًا أَنَّ الخَوَارِجَ قَدْ أَخْطَأَتْ عَلَى الأُمَّةِ بِتَكْفِيرِهَا، وَوَضعِ السَّيفِ فِي رِقَابِهَا.

فمِنَ المَوانعِ أَلَّا يعلمَ الفَاعِلَ لذلكَ أن مَا يفعلُهُ، أو يقولُهُ يضادُّ أَصلَ الإِيمَانِ - وهُمَا الشَّهادَتَانِ -.

فَكُلُّ مَا لَا يُعْلَمُ أَنَّهُ يُضَادُّ لَهُمَا لا يُطْلَقُ بِهِ الكُفْرِ عَلَيْهِ؛ لأَنَّ بِذَلِكَ يُحْكَمُ عَلَيْهِ بالخلُودِ فِي النَّارِ وَهُوَ يفرُّ مِنْهُ بِحَيثُ لَو طُلِبَ مِنْهُ أَنْ يُنكِرَ شَهادتَي الإخلَاص؛ لامتنعَ مِنْ ذَلِكَ، وفرَّ مِنْهُ غَايَةَ الفِرَارِ.

---

(١) «مجمُوع الفتَاوَى» (٣٥/ ١٦٦).

(٢) فِي «ديوانِه» (٢/ ٢٩٥).

وَقَدْ قَالَ أَبُو الوَفاءِ ابنُ عَقِيلٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: نعُوذُ بِاللهِ أَن نُلْزِمَ إِنسَانًا بِلَازِمِ قَولٍ، أو فِعْلٍ، وَهُوَ يفرُّ مِنْهُ.

وَبِهَذَا فَارَقَ الكُفَّار الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِم رَسُولُ الله ﷺ، فإنَّهُم إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُهُمْ، ولَمَّا دَعَاهُم رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الله تَعَالَى، وَطَلَبَ مِنْهُم أَنْ يقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ صفَّقُوا بِأيدِيهِم، وَقَالُوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾.

فَأينَ هَؤُلَاءِ مِنْ أَهلِ القِبْلَةِ أَهْل لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الَّذِينَ يُقرِّوُنَ بِالرَّسُولِ ﷺ، ويشهدُونَ بِهِ وَلَهُ بالرِّسَالَةِ، وَيَعتقدُونَ ذَلِكَ إِلَّا أنَّهُم أخطَأوا طَرِيقَهُ.

فَوَظِيفَةُ عُلَمَاءِ الأُمَّةِ فيهم؛ مَعَالجتهم بالأمرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهي عن المُنكرِ، وَمُدَاوَاة قُلوبِهِم بالرِّفقِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ ﴾ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قبلَ البَيَانِ فِي رُتبةِ العَفْوِ الَّذِي أمرَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ؛ كَمَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ شيخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيْميَّة قدَّسَ اللهُ رَوحَهُ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا قَوْلُ هَذَا الحَبرِ الإِمَامِ الَّذِي قَدْ أَقرَّتْ لَهُ الأُمَّةُ بَعْدَهُ بِاسْتكمَالِ آلاتِ الاجْتِهَادِ المُطْلَقِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الحَافِظُ الكَبِيرُ المُعَاصِرُ لَهُ أَبُو الحَجَّاجِ المِزِّيُّ وَتِلْمِيذَيهِ الحَافِظُ الذَّهبِيُّ وابنُ كَثِيرٍ وتَاجُ الدِّينِ ابنُ الفِرْكَاحِ الفزَارِيُّ الشَّافِعِيُّ، والحسينِي تِلْمِيذُ الحَافِظُ الذَّهبِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ المَذَاهِبِ، فَضلًا عَنْ أَصْحَابِنَا مَعْشَر الحنَابِلَةِ.

فبذَلِكَ يُعْلَمُ خَطَأ الخَوَارِجِ، وَمَنْ شَاكَلَهُم فِي الأُمَّةِ بتكفِيرِهِمْ لأَهلِ القِبْلَةِ، وأنَّهُم مُخْطِئُونَ بِذَلِكَ، بَلْ إِنَّمَا وَظِيفَةُ مَنْ يدَّعِي النُّصحَ لنَفْسِهِ وللأُمَّةِ هِيَ الأمر بِالمَعْرُوفِ والنَّهي عنِ المُنكرِ بالشُّرُوطِ الَّتِي قرَّرنَا قَبلُ، وَذَكَرْنَا غَالبَهَا عَن شَيخِ الطَّائِفَةِ الحنبلية، الآمِرِينَ بِالمَعْرُوفِ والنَّاهِينَ عَنِ المُنكرِ، عَبْدِ القَادِرِ الجيلَانِي الحَنْبَلِي قدَّسَ اللهُ رَوحَهُ ونوَّرَ ضَرِيحَهُ.

وَلِهَذَا قَالَ مُوفَّقُ الدِّينِ ابْنُ قُدَامَةَ ـ الَّذِي هُوَ مِنْ شُيوخِ مَذْهَبِ الإِمَامِ أَحْمَدَ، بَلْ هُوَ طوده وَحامِلُ لِوَائِهِ ـ: «فَصْلٌ: مَنِ اعْتَقَدَ حِلَّ شَيْءٍ أُجْمِعَ عَلَى تَحْرِيمِهِ، وَظَهَرَ حُكْمُهُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَزَالَتِ الشُّبْهَةُ فِيهِ لِلنُّصُوصِ الوَارِدَةِ فِيهِ، كَلَحْمِ الخِنْزِيرِ، وَالزِّنَى، وَأَشْبَاهِ هَذَا،

مِمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ، كَفَرَ؛ لِمَا ذَكَرْنَا فِي تَارِكِ الصَّلَاةِ.

وَإِنِ اسْتَحَلَّ قَتْلَ الْمَعْصُومِينَ، وَأَخْذَ أَمْوَالِهِمْ، بِغَيْرِ شُبْهَةٍ وَلَا تَأْوِيلٍ، فَكَذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ بِتَأْوِيلٍ، كَالْخَوَارِجِ، فَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ أَكْثَرَ الْفُقَهَاءِ لَمْ يَحْكُمُوا بِكُفْرِهِمْ مَعَ اسْتِحْلَالِهِمْ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالَهُمْ، وَفِعْلِهِمْ لِذَلِكَ مُتَقَرِّبِينَ بِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى

ولِذَلِكَ لَمْ يُحْكَمْ بِكُفْرِ ابْنِ مُلْجَمٍ مَعَ قَتْلِهِ أَفْضَلَ الْخَلْقِ فِي زَمَنِهِ، مُتَقَرِّبًا بِذَلِكَ، وَلَا يُكَفَّرُ الْمَادِحُ لَهُ عَلَى هَذَا، الْمُتَمَنِّي مِثْلَ فِعْلِهِ، فَإِنَّ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانَ قَالَ فِيهِ يَمْدَحُهُ لِقَتْلِ عَلِيٍّ رضي الله عنه:

يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا ... إِلَّا لِيَبْلُغَ عِنْدَ اللهِ رِضْوَانَا
إِنِّي لَأَذْكُرُهُ يَوْمًا فَأَحْسَبُهُ ... أَوْفَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللهِ مِيزَانَا[(١)]

قَالَ: «وَقَدْ عُرِفَ مِنْ مَذْهَبِ الْخَوَارِجِ تَكْفِيرُ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ، وَاسْتِحْلَالُ دِمَائِهِمْ، وَأَمْوَالِهِمْ، وَاعْتِقَادُهُمُ التَّقَرُّبَ بِقَتْلِهِمْ إِلَى رَبِّهِمْ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَحْكُمِ الْفُقَهَاءُ بِكُفْرِهِمْ؛ لِتَأْوِيلِهِمْ»[(٢)].

قَالَ: «وَكَذَلِكَ يُخَرَّجُ فِي كُلِّ مُحَرَّمٍ اُسْتُحِلَّ بِتَأْوِيلٍ مِثْلِ هَذَا.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ قُدَامَةَ بْنَ مَظْعُونٍ رضي الله عنه شَرِبَ الْخَمْرَ مُسْتَحِلًّا لَهَا، فَأَقَامَ عُمَرُ عَلَيْهِ الْحَدَّ[(٣)]، وَلَمْ يُكَفِّرْهُ.

وَكَذَلِكَ أَبُو جَنْدَلِ ابْنُ سُهَيْلٍ رضي الله عنهما[(٤)]، وَجَمَاعَةٌ مَعَهُ، شَرِبُوا الْخَمْرَ بِالشَّامِ مُسْتَحِلِّينَ لَهَا، مُسْتَدِلِّينَ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾

---

(١) انظر: «الكامل» (١/ ١٦٩)، و«الأغاني» (١٦/ ١٤٧).

(٢) «المُغني» (٩/ ١١ - ١٢).

(٣) أخرجه عبدُ الرزاق (٩/ ٢٤٠ - ٢٤١)، وابنُ أبي شيبة (١٠/ ٣٩).

(٤) أخرجَ عبدُ الرزاق (٩/ ٢٤٢ - ٢٤٣) قصته.

الْآيَةِ، فَلَمْ يُكَفَّرُوا، وَعُرِّفُوا تَحْرِيمَهَا، فَتَابُوا، وَأُقِيمَ عَلَيْهِم الحَدُّ»[(١)].

قَالَ: «فَيَخْرُجُ فِيمَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ مِثْلُ حُكْمِهِمْ.

وَكَذَلِكَ كُلُّ جَاهِلٍ بِشَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ يَجْهَلَهُ، لَا يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ حَتَّى يُعَرَّفَ ذَلِكَ، وَتَزُول عَنْهُ الشُّبْهَةُ، وَيَسْتَحِلَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ»[(٢)].

فَانظُرْ إِلَى قَولِ هَذَا الإِمَامِ المُوفَّقِ حَامِلِ لوَاءِ المَذْهَبِ الَّذِي هُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ لَقبِهِ كَيْفَ يَقُولُ.

وَكَذَلِكَ كُلُّ جَاهِلٍ بشَيءٍ يُمْكِنُ أَنْ يعملَهُ لَا يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ حتَّى يعرِفَ ذَلِكَ، وتزُولُ عَنْهُ الشُّبهةُ مَع مَا تَقَدَّمَ مِن كَلَامِ شَيخِ الإِسْلَامِ ابنِ تَيميةَ.

وَانظُرْ أيضًا إِلَى تَعبيرِهِ بِكُلِّ شَيءٍ الَّتِي هِيَ عِندَ أَهلِ الأَصُولِ مِنْ أدوَاتِ العمُومِ، بَل هِيَ مِنْ أَعَمِّهَا فِي قَولِهِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ جَاهِلٍ بِشَيْءٍ يُمْكِنُ أن يَجْهَلَهُ، لكِن يتضحُ لَكَ مَا قَدَّمنَاهُ عَلَى جليتِهِ إِيضَاحًا وَاضِحًا.

ثمَّ قَالَ: - عَنْ قَولِ الإِمَامِ أَحْمَدُ: فيمَنْ قَالَ: الخَمْرُ حَلَالٌ. فَهُوَ كَافِرٌ يُسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ، وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ - «هَذَا مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ لَا يَخْفَى عَلَى مِثْلِهِ تَحْرِيمُهُ؛ لِمَا ذَكَرْنَا»[(٣)].

فَإِذَا عَرضتَ أَفْعَالَ الخَوَارِجِ عَلَى أَقْوَالِ السَّلفِ اتَّضَحَ لَكَ خطؤُهُم، وَمُبَاينتُهُم للسَّلَفِ، وَأَنَّهُم لَمْ يشَارِكُوهُم إِلَّا فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّ مَجْمُوعَ مَا أمرَ اللهُ بِهِ ورسُولُهُ ﷺ منَ الإِيمَانِ، ويفَارِقُونَهُم بِمَا ذَكَرْنَا؛ فَاسْتَحَلُّوا بِذَلِكَ دِمَاءَ أَهْلِ القِبْلَةِ، وَأَمْوَالَهُم بِغَيرِ هُدًى مِنْ اللهِ، وَلَا بُرْهَانٍ جَلي.

---

(١) «المُغني» (٩/ ١٢).

(٢) «المُغني» (٩/ ١٢).

(٣) «المُغني» (٩/ ١٢).



وَقَدْ قَالَ ابنُ قيِّم الجَوْزِيَّةِ: «اعْلَمْ؛ أنَّ الكُفْرَ والإِيمَانَ مُتقَابلَانِ إِذَا زَالَ أَحَدُهُمَا خَلَفَهُ الآخرُ».

قَالَ: «فلمَّا كَانَ الإِيمَانُ أَصْلاً لَهُ شُعَبٌ مُتعددةٌ، وَكُلُّ شُعْبةٍ فِيهِ تسمَّى إِيمَانًا كالصَّلاةِ والزَّكَاةِ والصِّيامِ والحجِّ، والأعمَال البَاطِنَة؛ كالحَيَاءِ والتَّوكلِ والخَشْيَةِ مِنَ اللهِ والإِنَابةِ إِلَيْه، حتَّى تَنتَهِي هَذِهِ الشُعَبُ إِلَى إِمَاطَةِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»[١].

قَالَ: «وَهَذِهِ الشُّعَبُ:

مِنْهَا: مَا يزول الإيمان بزوالها؛ كشُعبة الشهادتين.

وَمِنْهَا: مَا لَا يزُولُ بزَوالِهَا؛ كإِمَاطةِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وبَيْنَهُمَا شُعَبٌ مُتفَاوتَةٌ تفَاوتًا عَظِيمًا، وَكَذَلِكَ الكُفْرُ ذُو أَصْلٍ، وشُعَبٍ، فكَمَا أَنَّ شُعبَ الإِيمَانِ إِيمَانٌ، فشُعَبُ الكُفْرِ كُفْرٌ».

إِلَى أَنْ قَالَ: «وهُنَا أَصْلٌ آخر؛ وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ قِيامِ شُعْبَةٍ مِنْ شُعَبِ الإِيمَانِ بِالعَبدِ أَنْ يُسَمَّى مُؤمنًا، وَإِنْ كَانَ مَا قَامَ بِهِ إِيمَانًا حتَّى يَقُومَ بِهِ أَصْل الإِيمَانِ؛ وَهُوَ الشَّهادتَانِ، وَلَا مَنْ قَامَ بِهِ شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ الكُفرِ بَعْدَ أَن يَدْخُلَ فِي الإِيمَانِ بالشَّهادتَينِ أَن يسمَّى كافرًا، وَإِنْ كَانَ مَا قَامَ بِهِ كُفْرٌ».

قَالَ: «وَقَد يُطْلَقُ عَلَيْهِ الفِعْلُ؛ كَقَوْلِهِ ﷺ: «فَمَنْ تَركَهَا فقَدْ كفرَ، وَمَنْ حلفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ أو كَفرَ»، وَ«مَن أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقهُ بِمَا يَقُولُ فقَدْ كَفرَ» ونَحْو ذَلِكَ».

قَالَ: «فَمَنْ صَدرَ مِنْهُ خُلَّةٌ مِنْ خللِ الكُفْرِ، أو الشّركِ، فَلَا يَسْتحقّ اسْم كَافِر أو مُشْرِك عَلَى الإِطْلَاقِ؛ لأَنَّ مَعَهُ أَصلَ الإِيمَانِ، وإِنَّمَا قَامَ بِهِ شُعْبَةٌ مِن شُعبِ الكُفْرِ».

إِلَى أَنْ قَالَ: «وَهُهنَا أَصلٌ آخر؛ وَهُوَ أَنَّ الكُفْرَ نَوْعَانِ: كُفْرُ عَمَلٍ، وَكُفْرُ جُحودٍ، فكُفْرُ الجُحودِ أَن يَكفرَ بِمَا قَدْ عَلمَ هُوَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَاءَ بِهِ مِنْ عِندَ اللهِ جُحودًا وَعِنَادًا،

---

(١) «الصَّلاة» (ص ٥٥).

وَهَذَا الكُفْرُ يُضَادُّ الإيمَانُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ»[١].

قَالَ: «وأمَّا كُفْرُ العَمَلِ؛ فَيَنقَسِمُ إِلَى مَا يضادُّ الإيمان، وإِلَى مَا لا يضادُّه، فالسُّجودُ للصَّنمِ، والاستهانَةُ بالمُصْحَفِ، وقتلُ النَّبيِّ، وسبُّه؛ يضادُّ الإيمانَ، وأمَّا الحُكْمُ بغَيرِ مَا أنزلَ اللهُ، وتَرْكُ الصَّلاةِ؛ فَهُوَ مِنَ الكُفْرِ العَمَلي قَطعًا، فالحَاكِمُ بِغَيرِ مَا أَنزَلَ اللهُ كَافِرٌ، وتَارِكُ الصَّلاة كَافِرٌ بنصِّ رَسُولِ الله ﷺ، لَكِن هُوَ كُفْرُ عَمَلٍ لا كُفْرُ اعْتِقَادٍ»[٢].

وَقد نَفَى النَّبيُّ ﷺ الإيمَانَ عَنِ الزَّانِي والسَّارِقِ وشَارِبِ الخَمرِ، وَعَن مَن لَمْ يَأْمَنْ جارهُ بوَائقِهِ، فَهُوَ كَافِرٌ مِنْ جهةِ العَمَلِ، وَإِنِ انتفَى عَنْهُ كُفْرُ الجُحودِ والاعتقَادِ، وَكَذَا قوله ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[٣] فَهَذَا كُفْرٌ عَمَلِي»[٤].

وَقَدْ ذَكَرَ مُوفَّقُ الدِّينِ نَحْوَ هَذَا، وَمُرَادُهُ أَنَّ هَذَا مِنَ الكُفْرِ العَمَلِي الَّذِي لَا يُخْرِجُ مِنَ المِلَّةِ، وَسبِيلُ عَامِلِهِ سَبِيلُ أَهْلِ الكَبَائِرِ فِي عَدَمِ التَّخْلِيدِ فِي النَّارِ، وأَنَّهُمْ مِنَ الَّذِينَ هُم تَحْتَ المَشِيئَةِ مِن أهلِ القِبْلَةِ.

وَقَدْ قَالَ ابنُ بطَّالٍ ـ عِندَ ذِكْرِ الخَوَارِجِ ـ: «ذَهَبَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ الْخَوَارِجَ غَيْرُ خَارِجِينَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُسْلِمِينَ».

قَالَ: «لأنَّ مَنْ ثَبَتَ لَهُ عقدُ الإِسْلَامِ بِيَقِينٍ لَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا بِيَقِينٍ»[٥].

وخطَّأَ شيخُ الإِسْلَامِ مَنْ نَقَلَ عَنْ أَحْمَدَ فِي تَكْفِيرِ أَهْلِ البِدعِ رِوَايتَينِ.

---

(١) «الصَّلاة» (ص ٥٦).

(٢) «الصَّلاة» (ص ٥٦).

(٣) أخرجهُ البخاريُّ (١٢١)، ومسلمٌ (٦٥).

(٤) «الصَّلاة» (ص ٥٧).

(٥) «الكواكب الدراري» (١/ ١٧٣).



وَقَالَ: «لَيْسَ هَذَا مَذْهَبًا لَهُ وَلَا غَيْره مِنْ الأَئِمَّةِ، ولَا يَخْتَلِفُ قَوْلُهُ أَنَّهُ لَا يُكَفِّرُ الْمُرْجِئَةَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ بِلَا عَمَلٍ»(١).

قَالَ: «وَأَمَّا الدَّاعِيَةُ لِلْبِدَعِ؛ فَقَدْ يُقْتَلُ لِكَفِّ شَرِّهِ وضَرَرِهِ عَلَى النَّاسِ، كَمَا يُقْتَلُ الْمُحَارِبُ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ كَافِرًا، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ أَمَرَ الشَّارِعُ بِقَتْلِهِ يَكُونُ قَتْلُهُ لِرِدَّتِهِ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَتْلُ غَيْلَانَ الْقَدَرِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ»(٢).

وَقَالَ الحَافِظُ أَبُو حَاتِمٍ مُحَمَّدُ بنُ حبَّانَ البُسْتِي عِندَ ذِكْرِ هَذَا الخَبَرِ: «إِنَّ مَعْنَاهُ:

أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَانَ لَهُ أَجْزَاءٌ يُطْلَقُ اسْمُ الْكُلِّ عَلَى بَعْضِ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ، فَكَمَا أَنَّ الْإِسْلَامَ لَهُ شُعَبٌ، وَيُطْلَقُ اسْمُ الْإِسْلَامِ عَلَى مُرْتَكِبِ شُعْبَةٍ مِنْهَا لَا بِالْكُلِّيَّةِ، كَذَلِكَ يُطْلَقُ اسْمُ الْكُفْرِ عَلَى تَارِكِ شُعْبَةٍ مِنْ شُعَبِ الْإِسْلَامِ، لَا الْكُفْرِ كُلِّهِ.

وَلِلْإِسْلَامِ مُقَدِّمَتَانِ لَا تُقْبَلُ أَجْزَاءُ الْإِسْلَامِ إِلَّا مِمَّنْ أَتَى بِمُقَدِّمَتِهِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْ حُكْمِ الْإِسْلَامِ مَنْ أَتَى بِجُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْكُفْرِ، إِلَّا مَنْ أَتَى بِمُقَدِّمَةِ الْكُفْرِ؛ وَهُوَ الإِنْكَارُ والجَحْدُ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ(٣) فِي الإِسْلَامِ إِلَّا مَنْ أَتَى بِمُقَدِّمَتِهِ؛ وَهُوَ الشَّهادَتَانِ»(٤).

فَهَذَا مُلَخَّصُ قَولِ أئمَّةِ السَّلفِ ﷺ، وَلَو ذَهَبْنَا نعدُّ أقْوالَهُم؛ لطَالَ بنَا المَدَى، وإنَّمَا المُرَادُ: إيرَادُ مَا يَصِحُّ بِهِ المَقْصُودُ، وبيَانُ غوَايةِ المُكفِّرِ لأَهلِ القِبلَةِ، وأنَّه بذَلِكَ خارجٌ مِنْهُم إِلَى مَذهبِ الخَوارجِ، نَسْأَلُ اللهَ العَفْوَ والعَافِيَةَ، والمُعَافَاةَ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣٤٨).

(٢) «مجمُوع الفتاوى» (٢٣/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠).

(٣) «صَحِيح ابنِ حبَّان» (١٣/ ٢٦٩).

(٤) فِي الأصلِ تكرار: «لا يدخل».

فَصْلٌ

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَدْ لاحَ فِي عين بَصر بَصِيرته مَذْهبُ الخوارج: إنَّه لَمْ يبْقَ بِكَلامِكُم مَعْشَرَ المُعَارِضِينَ للخَوَارِجِ فِي الأُمَّةِ مَن هُوَ كَافِرٌ، ولَمْ تُبْقُوا للتكفيرِ فِي الجُمْلَةِ مَوْضِعًا فِي أهلِ القِبلَةِ.

قِيلَ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: إنَّ التكفِيرَ لَيْسَ هُوَ طعامًا وَلَا شرابًا يُتغذَّى بِهِ، حتَّى إذَا فَقدتهُ حَلَّ بكَ الهلاكُ مِنْ فَقدِه، كَمَا أنَّه للخَوَارجِ بأيدِيهِم وأفواهِهِم كَالغذَاءِ لا يَصْبِرُونَ عَنْه فَيتخذُونَ التَكفِيرَ للأُمَّةِ دينًا يتقرَّبُونَ بِهِ إِلَى الله تَعالَى كَمَا يتقرَّبُ الذَّاكِرُ لله بِذِكْرِه.

الوَجْهُ الثَّانِي: إنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بقربةٍ فِي الأُمَّةِ، وَقَدْ أَوْضَحْنَا تَحْذِيرَ النَّبِيِّ ﷺ وَصالِحِ أُمَّته وسَلَفِهِم عَنْ ذَلِكَ، وأنَّ ذَلِكَ منَ التَّعمقِ، والغُلو فِي الدِّينِ المَنهِي عَنْهُ، وأنَّهم نُهوا أن تُذكرَ الأُمَّةُ إِلَّا بِخيرٍ، وَسيَأتِي مِن كَلامِ عُمَرَ بنِ عَبدِ العَزِيزِ الخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ رَحمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي فَصْلِ مُحَاجَّتِهِ للخَوَارجِ فِي أَخبَارِهِم مِن آخرِ الكِتَابِ مَا يُصَدِّقُ لِمَا قلْنَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

الوَجْهُ الثَّالِثُ: أنَّ بابَ التَّكفِيرِ للأُمَّةِ خطرٌ عظِيمٌ، وأنَّ السَّالكِينَ لَهُ قَدْ مقتهُم الصَّحابَةُ والتَّابعُونَ لَهُم بِإحسَانٍ، وشنَّعوا عَلَيْهِم، وقبحُوا فِعْلَهُم، وَحَكمُوا عَلَيْهِم بالابتدَاعِ، وأمَرُوا بِقتَالِهِم وَقَتْلِهِم إذَا أعلنُوا بِبِدْعتِهِم وَدَعَوْا إِلَيْهَا، فَكَيْفَ إِذَا قَاتلُوا عَلَيْهَا؟ فإنَّهم أجْمَعُوا عَلَى قتْلِهِم وقتَالِهِم حتَّى يكفُّوا عَن ذَلِكَ، وإنْ لَمْ يَكُونُوا بِذَلِكَ كفارًا كَمَا ذكرنَا.

فَكَيْفَ أَنَّ السَّلفَ ﷺ لا يُكفِّرُونَهُم كَمَا ذَكَرْنَا باسْتحلَالِهِم دِمَاءَ المُسْلِمِينَ وأموالَهُم، واستحلَالِ سَبْيِ ذَرَارِيهِم، إِلَّا أَنَّ بعْضَهُم يتركُ السَّبي مَخَافَةَ التَّشنِيعِ والتَّنفِيرِ عَن دِينِهِم - كَمَا سَيأتِي فِي أخبارِهِم إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى - وهُم يكفِّرُونَ الأُمَّةَ بِشَيءٍ منَ المَعَاصِي والكبائِرِ، ويشنِّعُونَ عَلَيْهِم بِذَلِكَ؟ وَقَد نُهوا عن إشَاعَةِ الفَاحِشَةِ فِي المُؤْمِنِينَ، والأُمَّةُ قَدْ جَمَعَهُم الإيمانُ كَمَا وَصَفْنَا فِي أَحَادِيثِ الشَّفَاعَةِ، وحُكْم تَارِكِ الصَّلاةِ عَنِ العُلمَاءِ ﷺ، أو يُكفِّرُونَهُم أيضًا بِشَيءٍ قَدْ عُذِرُوا فِيهِ، والعَاذِرُ لَهُم الَّذِي أَنزلَ الكِتَابَ بالهُدَى، ودينِ الحَقِّ جلَّ وعلَا

كَمَا مرَّ التَّنبيهُ عَلَيْهِ مِنْ كَلامِ السَّلفِ فِي مَعنَى البيَانِ للجَاهِلِ والمُخطِئِ.

فَلَيْتَ الخَوَارجَ تورَّعُوا عَن تكفِيرِ الأمَّةِ كَمَا تورَّعتِ الأمَّةُ عَن تكفِيرِهِم، فَلَمْ يُقَابلُوهُم مِنَ التَّكفِيرِ بِمَا قابلُوهُم بِهِ، واقتصَرُوا فيهم عَلَى أمرِ نبيِّهِم ﷺ بقتالِهِم كفًّا لشَرِّهِم لا لِكُفْرِهِم إذا دعوا إِلَى بِدعتِهِم وقاتلُوا عَلَيْهَا.

الوَجْهُ الرَّابِعُ: أنَّ الإِنسَانَ إذَا تورَّعَ عَنِ التَّكفِيرِ يحملُ مِن فَعَلَ كُفْرًا عَلَى الخَطَأ والجَهلِ؛ لأنَّهُ مَأمُورٌ أن يحملَ أمرَ الأمَّةَ فِي جَمِيعِ أمُورِهَا عَلَى أجْمَلِ محملٍ وَأحْسَنه لَمْ يضرّهُ ذَلِكَ فِي دِينِهِ، بَلْ هُوَ مَأمُورٌ بِذَلِكَ مَنْهِي عَن ضَدِّهِ، وَذَلِكَ فِيهِ سَلَامَةٌ للإِنسَانِ فِي دِينِهِ وَدنيَاهُ، كَمَا قدَّمنَاهُ عَنِ ابنِ الجَوزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، فبَابُ التَّكفِيرِ خَطرٌ عَظِيمٌ، وَلَا يُعدلُ بالسَّلامةِ شَيءٌ.

فعِندَ الإِمَامِ أحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عن ثَابِتِ بنِ الضَّحاكِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ شَهِدَ عَلَى مُسْلِمٍ - أَوْ قَالَ مُؤْمِنٍ - بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ»(١).

وفِي لَفْظٍ لَهُ: «وَمَنْ رَمَى مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ»(٢).

الوَجْهُ الخَامِسُ: أنَّ الآمرَ والنَّاهِي فِي الأمَّةِ إنَّمَا وَظِيفتُه فِيهَا الأمرُ بِالمَعْرُوفِ والنَّهي عَنِ المُنكرِ بالبيَانِ والبُرهَانِ، وتَوضِيحِ الحججِ باللِّسَانِ، والتَّغلِيظِ عَلَى مَنْ سَلكَ غَيرَ سَبيلِ المُؤمِنِينَ مِن تَعْظِيمِ القبُورِ، واتِّخَاذِ المسَاجِدِ عَلَيْهَا والسُّرُجِ، وَمِنَ اتِّخَاذِهَا أعيَادًا كَمَا يُتخذُ بيتُ اللهِ الحَرَام، وَجَعلِ النُّذور لَهَا والتقربَاتِ الَّتِي لا تصلحُ إلَّا للهِ جلَّ وعلَا، وإنَّمَا هِيَ مِن فعلِ الكُفَّارِ لآلهتِهِم وأصنامِهِم ومعبودَاتِهِم حِين اجتالتهُم الشَّياطِين عَن دينِهِم الَّذِي خُلقُوا لَهُ، حتَّى غيَّروا بِذَلِكَ دينَ الرُّسلِ عَلَيْهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وَأخْبرَ ﷺ أنَّ هَذِهِ الأمَّةَ سَتتبعُ سَنَنَ مَنْ كَانَ قبلها حَذْوَ القُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، وَحَذْوَ النَّعْلِ

(١) «المُسنَد» (٤/ ٣٤) وصحَّحهُ الشيخُ الألبانيُّ فِي «صَحيح الجامع» (٢/ ٩٥٢).

(٢) «المُسنَد» (٤/ ٣٣).

بِالنَّعْلِ [١]، وَمَع هَذَا فَهُوَ ﷺ أَضَافَهَا إِلَى نفسِهِ إِضَافَةَ تكرِيمٍ وَتَشْرِيفٍ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكُ الأَصْغَرُ» [٢]، «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةُ المُضِلِّينَ» [٣]، «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كَذَا وَكَذَا».

وَفِي هَذَا كثيرٌ مِنْ كَلَامِهِ ﷺ، وَذَكَرْنَا بعْضَهُ فِيمَا تقدَّمَ، وبعضَهُ فِي شَرحِ التَّوْحِيدِ وأَغْفَلْنَا مِنْهُ الكَثِيرَ.

فَكَيْفَ أُمَّةٌ أَضَافَهَا رسُولُ الله ﷺ إِلَى نَفسِهِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا لا تَجْتَمعُ عَلَى ضَلَالَةٍ، واجْتَمَعَتْ هِيَ أيضًا عَلَى ذَلِكَ، وَأَخْبَرَ أَنَّها باقيةٌ عَلَى الحَقِّ ظَاهرة لا يضرُّهَا مَنْ خَذَلهَا، وَلَا مَنْ خَالفَهَا إِلَى يوم القِيامَةِ، وإِلَى أن يقَاتلَ آخرُها الدَّجالَ، ثمَّ تخرجُ عَلَيْهَا فرقةٌ قَلِيلَةٌ مُنقطعةُ الأوَّلِ، بَلْ والآخرِ، بِلَا محَالَةَ، فتُكفرهَا جَمِيعًا، وتدَّعِي أن لَا حقَّ إِلَّا مَعَهَا؟!

قُلْ: فَمَنْ كَانَ هَذَا الحقُّ مَعَهُ قَبلَهَا وَممَّنْ تلقُوهُ؟

فَإِنْ قَالُوا: قَدْ أُلهمنَاهُ إلهَامًا، وكانَ معدُومًا قبلَ رَئيسِنا، فَقَدْ كذَّبُوا بقَولِ أَصْدَقِ القَائلِينَ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ المُرْسَلينَ، وَرَسُولِ ربِّ العَالِمِينَ صَلَوَات اللهُ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ المُرْسلِينَ، بَل إِنَّمَا خَلفُوهُ فِي أُمَّتِهِ بِمَا نَهَى عَنْهُ وَحذَّرَ، فَلَا ضَيرَ، وَقَد قَالَ مُقَدّمهُم فِي هَذَا المَذْهَبِ حِينَ طعنَ عَلَى النَّبِيِّ المُختَارِ بِقِلَّةِ الإِخْلَاصِ فِي القِسْمَةِ: «هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ» [٤] وَوَصفهُ أيضًا - ﷺ وَصَانَ جنابهُ عمَّا قَالَ - بقِلَّةِ العَدلِ حينَ قَالَ لَهُ: «اعْدِلْ

---

(١) أَخرَجَهُ الترمذِيُّ (٢٦٤١) وصحَّحهُ الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «الصَّحيحة» (٧/ ٩١٧).

(٢) أَخرَجَهُ أحمدُ (٥/ ٤٢٨) قالَ الشيخُ الألبانِيُّ فِي «تحقيقِ الإيمان» لأبي عبيدٍ (ص ٧٢): «رجالُه ثقات».

(٣) أَخرَجَهُ أبو داودَ (٤٢٥٢)، والترمذِيُّ (٢٢٢٩) وصحَّحهُ الشَّيخُ الألبانِيُّ فِي «الصَّحيحةِ» (٤/ ١١٠).

(٤) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٣١٥٠)، ومُسْلمٌ (١٠٦٢).

فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ»(١).

فلَمَّا سَمعَ مِنْهُ منَ التَّنطعِ مَا سَمعَ تمعَّر وجهُهُ ﷺ، وَأَخْبَرَ عن عِلم الله تَعَالَى بِمَا سيقعُ مِن جِنسِ هَذَا ممَّا وقعَ بِقَوْلِهِ ﷺ أنَّه «سَيَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ، تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ عِندَ صَلَاتِهِمْ... »(٢) الحَدِيثَ المُتقَدِّمَ فِي هَذَا الكِتَابِ.

إِلَى أَنْ قَالَ: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، أو كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ».

فنبَّه ﷺ أصحَابَهُ ﵃ وأمَّتَهُ المَرْحُومَة بِذَلِكَ؛ لئلَّا يَغروهُم بِحُسنِ قَولِهِم وَدعوَاهُم بِمَا يفْعَلُونَهُ مِنَ التَّكلفِ والتَّنطعِ فِي العبادَةِ، وتعمُّقهم فِي دَعوى الإخلَاصِ، وإظهَارِ العَدلِ بَيْنَ النَّاسِ، وأن مقصودَهُم التَّوحيد لله تَعَالَى، وَمَع قولِهِ هَذَا للنبيِّ ﷺ لمْ يأمرْ بقتلِه، بل كفَّ عَنْهُ، وَقَالَ لمَن أرَادَ قتلَهُ: «دَعْهُ».

فَلَو قَالَ إنسَانٌ مِن أهلِ القِبلَةِ لرئيسٍ مِن رُؤسَاءِ الخَوَارِج مَا قَالَ مَقْدمهُم هَذَا وَسَلفُهُم للنَّبيِّ ﷺ لَمْ يُبَادرُوه إلَّا بالقَتلِ، فإنَّهُم يَعْمَلُونَ ويَحْكمُونَ فِي أهلِ القبلَةِ حُكْمَ الكُفَّارِ الأَصْلِيينَ مِنَ القَتلِ والقِتَالِ؛ إِذْ هُم يَجْعَلُونَ بِلَادَ أهلِ القِبْلَةِ بلَادَ حَربٍ، وحُكْمَهُم حُكْم الكَافِرِ الأَصلِي، فَحُكْمُ بِلَادِهِمْ عِنْدَهُم حُكْم بِلَادِ الكُفَّارِ يوجبُونَ لمَنْ أَجَابَهُم مِنْهَا إِلَيْهِم الهِجْرَة ويصرِّحون بِذَلِكَ بلا شكٍّ وَلَا مريةٍ، نسأَلُ اللهَ تَعَالَى الحِمَايَةَ والهِدَايَةَ.

وَقَدْ حَكَى شَيخُ الإسلَامِ ابنُ تَيميةَ أَنَّ مِنْ مَذهبِ المُعتزلَةِ تكفِيرَ خصُومِهِم، وتكفِيرَ كُلِّ فَرِيقٍ مِنهُم الآخر(٣).

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٣١٣٨)، ومُسْلمٌ (١٠٦٣).

(٢) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٥٠٥٨)، ومُسْلمٌ (١٠٦٤).

(٣) انظرْ: «البحر المُحيط» (٨/ ٢٨٠) للزركشِي.

وَصَارَ أَبو الحَسَنِ الأشعريُّ إلى تركِ التَّكفيرِ لمَنْ قالَ قولاً يعودُ إلى الكُفرِ أو يلزمُهُ[1].

قَالَ الشَّيخُ: «واختَارَ القَاضِي[2] في كِتَابِ الكُفَّارِ المُتأوِّلين: أنَّ مَنْ فعَلَ فعلًا، أو قالَ قولًا أجْمَعَتِ الأمةُ عَلَى أنَّهُ لا يصدرُ إلَّا مِن كَافِرٍ أنَّهُ لا يَكْفُرُ بِذَلِكَ».

قَالَ: «وَمُعْظَمُ كَلَامِ أبِي الحَسَنِ يدلُّ عَلَى هَذَا خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ» فَضْلًا الخوارجِ.

الوَجْهُ السَّادِسُ: أنَّا لَا نقُولُ إنَّ الكُفرَ لا يُوجدُ وَلَا يَحدثُ فِي أهلِ القِبلَةِ؛ إذ لَا يَنفِي ذَلِكَ إلَّا مُكَابِرٌ مُعَانِدٌ، بَلْ يُوجدُ ويحدثُ فِيهِم، وَلَكِن حدُوثُهُ:

إمَّا بِخَطَأ أو جَهَالَةٍ كَمَا بيَّنا عَنِ العُلَمَاءِ ذَلِكَ، وَوَظِيفتُه البَيَانُ باللُّطفِ واللينِ مِنَ الأمرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهي عَنِ المُنكرِ اللَّائِقِ بِذَلِكَ؛ كَمَا قَدْ أوْضَحْنَا ذَلِكَ فِي مَوضعِهِ.

وإمَّا أنْ يَكُونَ ذَلِكَ كفرَ جُحودٍ وعنَادٍ بعدَ الحُكمِ عَلَيْهِ بِذَلِكَ بِاستفتَاءِ العُلَمَاءِ المَوكُولِ إلَيْهِم ذَلِكَ[3]، المَرْضِيِّ بِهِم بأن يتوَافقُوا عَلَى ذَلِكَ؛ حتَّى لا تَكُونَ شُبهة فِي استبَاحةِ دمِهِ، ثمَّ بعدَ ذَلِكَ يُمضِي عَلَيْهِ الإمَامُ أو نائبُه حُكمَ الاستَابةِ حسب مَا ذكرَ العُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى؛ لأنَّهُ لَا يكُونُ مِنْ أهلِ القِبلَةِ كَافِرٌ إلا مُرتدًا، لَهُ حُكمُ الرِّدةِ، لا مَا تَحكمُ بِهِ الخَوارجُ عَلَيْهِ بحكمِ الكَافِرِ الأَصلِي كَمَا هُوَ معلُومٌ منْ مذهبِهِم، لَمن نوَّرَ اللهُ قلبَه بتدبرِ كَلامِ السَّلفِ ﷺ فِي ذَلِكَ.

---

(١) حكاهُ عنه ابنُ عبدِ السَّلامِ كمَا في «البَحرِ المُحيطِ» (٨/ ٢٨٠).

(٢) هُو القَاضِي أبو بكر ابنُ الطَّيبِ انظر: «ترتيب المداركِ وتقريب المسَالك» (٧/ ٦٩).

(٣) قال الشيخ صالح الفوزان – وفقه الله -: (الكُفر والردّة يحصلان بارتكاب ناقضٍ من نواقض الإسلام، فمَن ارتكب ناقضًا من نواقض الإسلام المعروفة عند أهل العلم فإنه بذلك يكون مرتدًا ويكون كافرًا، ونحن نحكم عليه بما يظهر منه: من قوله أو فعله، نحكم عليه بذلك؛ لأنه ليس لنا إلا الحكم بالظاهر، أما أمور القلوب فإنه لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى. فمن نطق بالكفر أو فعل الكفر، حكمنا عليه بموجب قوله، وبموجب فعله إذا كان ما فعله أو ما نطق به من أمور الردّة). «موقع الشيخ على شبكة الإنترنت».



وَلَا ينبغِي لولِي الأمرِ أن يتبعَ فتوَى إنسَانٍ منَ العُلماءِ فِي ذَلِكَ، ونظراؤه منْ أهلِ العِلمِ يخَالفُونَهُ فِيهَا خصُوصًا فِي استبَاحَةِ الدِّماءِ.

وَقَدْ قَالَ شيخُ الإسلَامِ ابنُ تيمية قدَّسَ اللهُ روحَهُ: «وَمَنْ أوْجَبَ تَقْلِيدَ إِمَامٍ بِعَيْنِهِ دُونَ نظرَائِهِ استُتِيبَ فَإنْ تابَ وَإِلَّا قُتِلَ»[1].

وَقَدْ حضَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الجَمَاعَةِ.

وَقَالَ شَمسُ الدِّينِ ابنُ قَيِّم الجَوزِيةِ فِي «الإعْلَامِ»: «لا يجُوزُ لأحدٍ أن يأخُذَ منَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ مَا لَمْ تَجْتمع فِيهِ شرُوطُ الاجتهَادِ مِن جَمِيعِ العلُومِ».

قَالَ: «وَلَوِ اجْتمَعَتْ شُرُوطُ الاجتهَادِ فِي رَجُلٍ لَمْ يجب الأخذُ بِقَوْلِهِ دُونَ نُظَرَائِهِ»[2].

وَقَالَ عَالِمُ قُرَيشٍ الإِمَامُ محمَّدُ بنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ: «لَا يَنْبَغِي لِلْمُفْتِي أَنْ يُفْتِيَ أَحَدًا حَتَّى يَكُونَ عَالِمًا بِالْكِتَابِ نَاسِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ وَعَامِّهِ وخَاصِّهِ [وَمَنطُوقِهِ وَمَفْهُومِهِ ومُطْلَقِهِ ومُقَيَّدِهِ وَفَرْضِهِ][3] وَأَدَبِهِ عَالِمًا بِالسُّنَنِ وَأَقَاوِيلِ أَهْلِ الْعِلْمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، عَالِمًا بِلِسَانِ الْعَرَبِ عَاقِلًا يُمَيِّزُ بَيْنَ الْمُشْتَبِهِ وَيَعْقِلُ الْقِيَاسَ عدلًا»[4].

زَادَ البَيْهَقِيُّ - عَنْهُ فِي القَدِيمِ -: «وَأَنْ يَكُونَ عَالِمًا كَيْفَ يَأْخُذُ الأَحَادِيثَ صَحِيحَهَا مِنْ ضَعِيفِهَا، وَهَلْ لَهَا مُعَارِضٌ أَم لَا؟ وَمَا مَعْنَاهَا، وَمَا يُؤْخَذُ بِهِ مِنْهَا عِندَ أَهْلِ العِلْمِ».

قلتُ: وكانَ أهلُ العلمِ يُعظمّونَ الإقدَامَ عَلَى الحُكمِ منَ الكتابِ والسُّنَّةِ إلَّا لمتأهلٍ لذَلِكَ.

---

(١) «الفتاوى الكُبرَى» (٥/ ٥٥٦).

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ٣٧).

(٣) غيرُ موجُودٍ فِي «الأمِّ».

(٤) «الأمُّ» (٧/ ٣١٧)، وعنهُ البيهقيُّ فِي «المدخلِ إلى السُّننِ الكبرى» (١/ ١٧٥).

فعندَ الأثرمِ عنْ أحمدَ بنِ عبدوسٍ قَالَ سَمِعْتُ أحمدَ قَالَ سَمِعْتُ أحْمَدَ بنَ حَنبلٍ يقولُ: مَنْ لَمْ يَجمعْ علمَ الحديثِ، وَكثرَة طرقِهَا واختلَافِهَا لا يحلُّ لَهُ الحكمُ عَلَى الحديثِ وَلَا الفُتيا بِهِ [(١)].

وقالَ أَبو عَلِيٍّ الضَّرِيرُ: «قلتُ لأحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ: كَمْ يَكْفِي الرَّجُلَ منَ الحَدِيثِ حتَّى يُمْكِنُهُ أَنْ يُفْتِيَ يَكْفِيهِ مِائَةُ أَلْفٍ؟ قال: لَا، قُلْت: مِائَتَا أَلْفٍ؟ قال: لَا، قُلْتُ: فثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ؟، قَالَ: لَا، قُلْتُ: أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفٍ؟، قَالَ: لَا، قُلْت خَمْسُمِائَةِ أَلْفٍ؟، قال: أَرْجُو» [(٢)].

وقالَ الحَسَنُ بنُ إِسْمَاعِيلَ: قيلَ لأحمَدَ بنِ حَنبَلٍ ـ وأَنَا أَسْمَعُ ـ... فَذَكَرَ مثْلَهُ.

وَكَلَامُهُ ﷺ فِي هَذَا المَعْنَى كَثِيرٌ جدًّا.

وقالَ فِيمَا كَتَبَ بِهِ إِلَى عَبدِ الرحيمِ الجرجَانِي مِنْ تَأَوّلِهِ عَلَى ظاهرِهِ ـ يعنِي القُرْآنَ ـ بلَا دلَالَةٍ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَا أحدٍ مِن أصحَابِهِ، فَهُوَ تَأويلُ أهلِ البِدعِ؛ لأنَّ الآيَةَ قَدْ تَكُونُ خاصَّةً، ويكُونُ حُكْمُهَا عامًّا، أو يَكُونُ ظاهرُهَا عَلَى العمُومِ، وإنَّمَا قُصدَتْ لشَيْءٍ بِعَينِهِ، ورسُولُ الله ﷺ هُوَ المُعَبِّرُ عَن كِتَابِ اللهِ، وَمَا أَرَادَ أصحَابُهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ منَّا؛ لمُشَاهدتِهِم الأمرَ، وَمَا أُرِيدَ بِذَلِكَ [(٣)].

قال القَاضِي أَبو يَعْلَى: «وَظَاهِرُ هَذَا أَنَّهُ لَا يَجِبُ اعتقَادُهُ ـ يَعنِي: الظَّاهِرَ ـ وَلَا العَمَلُ بِهِ فِي الحَالِ حتَّى يبحثَ وينظرَ هَل هُنَاكَ دَلِيلُ تَخْصِيصٍ؟» [(٤)].

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «قُلْتُ: الأدلَّةُ كَالأحْكَام، فَكَمَا اشتُرِطَ فِي الأَحْكَامِ مَعْرِفَةُ السُّنَّةِ والإجْمَاعِ والاخْتِلَافِ فِي مَعرِفَةِ الكتَابِ، فَكَذَلِكَ دلَالَةُ الأدلَّةِ

---

(١) «ذيل طبقاتِ الحنابلَة» (١/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه الخطيبُ فِي «الفقِيه والمُتفقه» (٢/ ٣٤٥).

(٣) «المسوَّدة» (ص ١١٣).

(٤) «العدَّة» (٢/ ٥٢٧).

يُشترطُ فِيهَا مَعْرِفَةِ السُّنّةِ والإجماعِ والقياسِ والاختلافِ، فإنَّ السُّنَّةَ والآثارَ كَمَا بيَّنا فِي الحُكْمِ يبينَانِ دلالَةَ القُرآنِ»[١].

قَالَ القَاضِي: «وَهَذَا ظَاهِرُ كَلَامِ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي رِوَايَةِ صَالِحٍ، وابنِ الحَارِثِ وَغَيرِهِمَا»[٢].

قَالَ: «وَرِوَايَةُ صَالِحٍ إِذَا كَانَ للآيةِ ظَاهِرٌ ينظرُ مَا عملت السُّنّة فَهُوَ دليل عَلَى ظَاهِرِهَا، وَمِنْهُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ فَلَو كَانَتْ عَلَى ظَاهِرِهَا؛ لَزِمَ مَنْ قَالَ بالظَّاهرِ أَنْ يُورِّثَ كُلَّ مَنْ وقَعَ عَلَيْهِ اسمُ وَلَدٍ، وَإِنْ كَانَ قَاتِلًا أو يَهُودِيًّا»[٣].

وَهَذَا عَامٌّ فِي الظَّوَاهِرِ كلِّهَا مِنَ العمُومِ والمُطلَقِ والأَمرِ والنَّهي والحَقَائِقِ. وَهُوَ نصٌّ مِنَ الإِمَامِ[٤].

وفِي رِوَايةِ ابنِهِ عَبدِ الله أَنَّهُ يُعملُ بالعمُومِ مَا لَمْ يَرِدْ تخْصِيصٌ.

والمَقْصُودُ: مَعْرِفَةُ تَوَقِّي السَّلفِ والأئمَّةِ ﷺ الإِقْدَامَ عَلَى الكِتَابِ والسُّنَّةِ إِلَّا لمُتَأَهِّلٍ.

وَنَقَلَ السّيوطِيُّ عَنِ الإِمَامِ مَالِكٍ إِمَامِ دَارِ الهجْرَةِ ﷺ فِيمَا حَكَاهُ فِي «تَارِيخِهِ» حَيْثُ قَالَ: قَالَ أَبُو مُصْعَبٍ: سَمِعْتُ مَالِكًا يقولُ: «مَا أَفْتَيْتُ حَتَّى شَهِدَ لِي سَبْعُونَ مِنْ أَهلِ العِلْمِ أَنِّي أَهْلٌ لِذَلِكَ»[٥].

فَهَذَا كَلَامُ أئمَّةِ الإِسلَامِ الَّذِينَ قَدْ شَهِدَتِ الأُمَّةُ بِهدَايتِهم إِلَّا مَنْ قَدْ أَعْمَى اللهُ قلبَهُ؛

---

(١) «المُسوَّدة» (ص ١١٢).

(٢) «العدَّة» (٢/ ٥٢٦).

(٣) «العدَّة» (٢/ ٥٢٧).

(٤) «المُسوَّدة» (ص ١١١).

(٥) أخرجهُ الخَطِيبُ فِي «الفَقِيه والمُتفقه» (٢/ ٣٢٥) ومن طريقه ابنُ الجوزيِّ فِي «تعظيم الفُتيا» (ص ١٢٢)، و«المُنتظم» (٩/ ٤٣).

قَدْ قيَّدُوا الإِقْدَامَ عَلَى الكِتَابِ والسُّنَّةِ، والتَّحْكم عَلَى الأُمَّةِ بِهَذِهِ القُيودِ الثِّقَالِ.

وَأَنتَ تَرَى مَنْ يَتخرج بغَيرِ مَشَايخَ يتَخَرَّجُ عَلَيْهِم ثمَّ يَشْهَدُ عَلَيْهِ مِنْ عُلَمَاءِ الأمَّةِ بالخَطَأ أكْثَر مِمَّن يَشْهَدُ للإِمَامِ مَالِكٍ بالصَّوَابِ والاهتدَاءِ، وَهُوَ يُفتِي فِي دمَاءِ الأمَّةِ وأموالِهِم وأديَانِهِم بالاعتدَاءِ، وَمَع ذَلِكَ لا يتمَادَى عَنْ هوَاهُ وغيِّهِ، وَلَو طَلَبْتَ مِنْهُ طَرِيقًا يَتَّصلُ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِن طُرقِ عُلَمَاءِ الأمَّةِ لم تَجِدْهُ، لَا بِإِجَازَةٍ وَلَا مُنَاولَةٍ فَضلًا عَنِ التَّحدِيثِ والأَخذِ بالسَّمَاعِ، فَلَا تَجِدُهُ إِلَّا كاللَّقِيطِ المنبُوذِ الَّذِي لَمْ يُعْرَفْ لَهُ أَصلٌ مِنْ أبٍ وَلَا أمٍّ، فَهُوَ كَمَا قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رضي الله عنه[1]:

إِذَا المَرْءُ ربَّى نَفْسَـــهُ بِمُرَادِهِ ... فَقَــد شَادَ بُنْيَانًا عَلَى غَيْرِ أُسِّــهِ
وَمَنْ لَمْ تُرَبِيهِ الرِّجَالَ وَتُسْقِـهِ ... لبانًا لَهم قد رُدّ مِن ثَدْي قُدسِهِ
فذَاكَ لَقِيطٌ مَا لَهُ نَسبة الوَرَى ... وَلا يتعدَّى المرء أبنَاء جنسِــهِ

وَقَالَ أثِيرُ الدِّينِ أَبو حَيَّانَ مُحَمَّدُ بنُ يُوسُفَ بنِ حيَّانَ الجَيَّانِي المِصْرِيُّ الظَّاهِرِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي أَبْيَاتٍ لَهُ:

وَمَنْ رَامَ العُلُومَ بِغَيرِ شَيـخٍ ... يَضلُّ عَـنِ الصِّـرَاطِ المُسْتقِيمِ
وتَلْتَبِسُ الأمُورُ عَلَيْهِ حتَّى ... يَصِيرَ أَضَـلَّ مِن تومَا الحَكِيمِ

وَمَعَ ذَلِكَ فَهَذَا دَائمًا يَحْكُمُ فِي دمَاءِ المُسْلِمِينَ وأموَالِهِمْ وفرُوجِهِمْ، وَفِي جَمِيعِ أحْوَالِهِم فَمَا أَعْظَمَهَا فِي الأُمَّةِ مِنْ بَليةٍ، وَمَا أفدَحهَا مِنْ رَزِيَّةٍ !

فَيَا للِكِ مِنْ بِدْعَةٍ أَحْدَثهَا بِضَلَاله وعوله، ومِن تكفِيرٍ قَدْ أُطلقَ عَلَى مَنْ لَا يَسْتحِقُّهُ بِقَوْلِهِ، فَهُوَ يَخُوضُ بِذَلِكَ فِي ميدَانِ جَهْلِهِ، وَيَظنُّ بِهِ مَن لَا يَعرِفُ العِلْمَ أنَّهُ مِنْ كَامِلِ أَهْلِهِ.

وَهُوَ مع ذَلِكَ يَعِيبُ مَنْ أنكرَ عَلَيْهِ أَمرَهُ بِأكبَرِ الكُفْرِ والعُيوبِ، فلأنَّ صَاحِبَ الهَوَى حَريًا مِنْهُ أَلَا يَرْتَدِعَ عَنْ هَوَاهُ وَلَا يتُوبَ.

---

(١) فِي «تاجِّ المُفرق فِي تحليةِ عُلَمَاءِ المَشرِقِ» (ص ١١٥) أَنَّه لمُحي الدِّينِ ابنِ عربي.

وَلِهَذَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيمِيَةَ قدَّسَ اللهُ روحَهُ وَغَيْرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ لجَمَاعَةِ: «إِنَّ مِنْ عُيُوبِ أَهْلِ الْبِدَعِ تَكْفِيرُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَمِنْ مَمَادِحِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ طِئُونَ وَلَا يُكَفِّرُونَ»(١).

قال: «وَسَبَبُ ذَلِكَ؛ أَنَّ أَحَدَهُمْ قَدْ يَظُنُّ مَا لَيْسَ بِكَفْرٍ كُفْرًا، وَقَدْ يَكُونُ كُفْرًا؛ لِأَنَّهُ يَّنَ لَهُ أَنَّهُ تَكْذِيبٌ لِلرَّسُولِ، وَسَبٌّ لِلْخَالِقِ، وَالْآخَرُ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ ذَلِكَ، فَلَا يَلْزَمُ إِذَا كَانَ هَذَا لعَالِمُ بِحَالِهِ يَكْفُرُ إِذَا قَالَهُ، أَنْ يَكْفُرَ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ بِحَالِهِ»(٢).

وَقَدْ قَالَ «الْمُنَقِّحِ» فِي «أُصُولِهِ»: «وَلَا يَكْفُرُ مَن لم يكفِّرْ مَنْ كَفَّرنَاهُ عَلَى الأَصَحِّ»(٣).

زادَ المَجد: «وَلَا يفسق»، وَنَقَلَ عَدَمَ كُفْرِ مَنْ لَمْ يُكَفِّرْ مَنْ كَفَّرنَاهُ عَنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ مِنْهُم: المَرُّوذِيُّ، وأَبُو طَالِبٍ، ويَعْقُوبُ وغَيرُهُمْ؛ قالَهُ ابنُ حَامِدٍ وابنُ مُفْلِحٍ(٤) وَغَيْرُهُمَا.

وَقَالَ شَيْخُ الإِسلَام ابنُ تَيْمِيَةَ أيضًا بَعْدَمَا ذَكرَ أَشْياءَ مِنَ المُكَفِّرَاتِ: «وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ: أَنَّ الْقَوْلَ قَدْ يَكُونُ كُفْرًا فَيُطْلَقُ الْقَوْلُ بِتَكْفِيرِ صَاحِبِهِ، وَيُقَالُ: مَنْ قَالَ كَذَا، أَوْ فَعَلَ كَذَا فَهُوَ كَافِرٌ، لَكِنَّ الشَّخْصَ الْمُعَيَّنَ لَا يُشْهَدُ عَلَيْهِ بِالْوَعِيدِ، فَلَا يُشْهَدُ لِمُعَيَّنٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِالنَّارِ ولَا بِالكُفْرِ؛ لِجَوَازِ أَنْ لَا يَلْحَقَهُ الْوَعِيدُ؛ لِفَوَاتِ شَرْطٍ، أَوْ ثُبُوتِ مَانِعٍ، فَقَدْ لَا يَكُونُ التَّحْرِيمُ بَلَغَهُ، وَقَدْ يَتُوبُ مِنْ فِعْلِ الْمُحَرَّمِ»(٥) وَنَحْو ذَلِكَ.

---

(١) «منهَاج السُّنةِ النَّبويةِ» (٥/ ٢٥١).

(٢) «منهَاج السُّنةِ النَّبويةِ» (٥/ ٢٥١).

(٣) «أصُول الفقِه» (٤/ ١٤٨٣) بنحوه، والمصنِّفُ نقلَ مِن «تحريرِ المنقُولِ وتَهذيبِ عِلمِ الأصُولِ» (ص ٣٣١).

(٤) فِي «الفرُوع» (١٠/ ١٨٣).

(٥) «مجمُوع الفتَاوى» (٢٣/ ٣٤٥).

قال: «وَهَكَذَا الْأَقْوَالُ الَّتِي يَكْفُرُ قَائِلُهَا قَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ لَمْ تَبْلُغْهُ النُّصُوصُ الْمُوجِبَةُ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ، أَوْ لَمْ تَثْبُتْ عِنْدَهُ، أَوْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ فَهْمِهَا، لِشُبْهَةٍ عَرَضَتْ لَهُ يَعْذُرُهُ اللهُ بِهَا

فَمَنْ كَانَ مِنَ جُمْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ مُجْتَهِدًا فِي طَلَبِ الْحَقِّ وَأَخْطَأَ، فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُ لَهُ خَطَأَهُ كَائِنًا مَا كَانَ، سَوَاءٌ كَانَ فِي الْمَسَائِلِ النَّظَرِيَّةِ أَوْ الْعَمَلِيَّةِ. هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ وَجَمَاهِيرُ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ»(١).

«وَقَدْ تَقَدَّمَ(٢) قَوْلُ الَّذِي قَالَ لَمَّا وَجَدَ رَاحِلَتَهُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ»(٣) أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ؛ لَمْ يَكْفُرْ بِذَلِكَ، وَإِنْ أَتَى بِصَرِيحِ الْكُفْرِ؛ لِكَوْنِهِ لَمْ يُرِدْهُ، وَالْمُكْرَهُ عَلَى كَلِمَةِ الْكُفْرِ أَتَى بِصَرِيحِ كَلِمَتِهِ، وَلَمْ يَكْفُرْ؛ لِعَدَمِ إِرَادَتِهِ، بِخِلَافِ الْمُسْتَهْزِئِ وَالْهَازِلِ» قَالَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى(٤).

وقال فِي مَوضِعٍ آخر فِي تَعلِيلِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ: «فَإِنَّ الْمَسْأَلَةَ قَدْ تَكُونُ عِنْدَ رَجُلٍ قَطْعِيَّةً؛ لِظُهُورِ الدَّلِيلِ الْقَاطِعِ عِنْدَهُ كَأَنَّهُ سَمِعَ النُّصُوصَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَيَقَّنَ مُرَادَهُ مِنْهُ. وَعِنْدَ رَجُلٍ لَا تَكُونُ ظَنِّيَّةً فَضْلًا عَنْ أَنْ تَكُونَ قَطْعِيَّةً؛ لِعَدَمِ بُلُوغِ النَّصِّ إِيَّاهُ، أَوْ لِعَدَمِ ثُبُوتِهِ عِنْدَهُ، أَوْ لِعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنْ الْعِلْمِ بِدَلَالَتِهِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ عَنْهُ ﷺ حَدِيثُ الَّذِي قَالَ لِأَهْلِهِ: «إِذَا أَنَا مِتّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي ثُمَّ ذُرُّونِي فِي الْيَمِّ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا يعَذِّبهُ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ. فَأَمَرَ اللهُ الْبَرَّ بَرَدِّ مَا أَخَذَ مِنْهُ، وَالْبَحْرَ بَرَدِّ مَا أَخَذَ مِنْهُ، وَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: خَشْيَتَكَ يَا رَبِّ. فَغَفَرَ اللهُ لَهُ» فَهَذَا شَكَّ فِي قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى، وَفِي الْمَعَادِ، بَلْ ظَنَّ أَنَّهُ لَا يَعُودُ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ، وَغَفَرَ لَهُ»(٥).

---

(١) «مجمُوع الفتَاوى» (٢٣/ ٣٤٦).

(٢) الحديثُ الذِي ذكرَهُ لم يسبقْ لَهُ ذكرٌ، وإنَّما نقلَ المصنِّفُ كلامَ ابنِ القيِّم بالحرفِ.

(٣) أخرجَهُ البُخاريُّ (٦٣٠٩)، ومُسلمٌ (٢٧٤٧).

(٤) فِي «أعلَامِ المُوقعِينَ» (٤/ ٤٤٨).

(٥) «مجمُوع الفتَاوى» (٢٣/ ٣٤٧).



مَعَ مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» أنَّ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى وَصِيةِ بَنِيهِ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يبترئ خيْرًا قَطُّ، يعني: لَمْ يُقدّمْ لَهُ عِندَ الله تَعَالَى مِنَ العَمَلِ خيرًا قطُّ.

وَقَدْ قَالَ الإِمَامُ الحَافِظُ أَبو بَكرٍ مُحَمَّدُ بنُ العزِّي المَالِكِي فِي «علوم القرآن» لَهُ فِي مَادَةِ مُوَاسَاةِ الأَغْنيَاءِ للفُقَرَاءِ أَيَّام المَجَاعَةِ.

فإِنْ قِيلَ: فهَؤُلَاءِ المَسَاكِين المحتاجُونَ أنوَاعٌ: مِنْهُمُ الخَارِجُ، وَمِنْهُم الفَاسِقُ، وَمِنْهُم أَكْثَرهُم، أَو قُلْ: جَمِيعُهُم لَا يُصَلِّي، فَكَيفَ تَرَوْنَ فِي مِثلِ هَؤُلَاءِ؟ يوَاسُونَ، فيعَانُونَ عَلَى مَا هُم بِسَبيلِهِ مِنَ الحَالِ الَّتِي لَا تَجُوزُ.

فَذَكرَ عَنْ هَذَا الإِيرَادِ أَجْوبةً خَمْسَةً، مِنْهَا أَنَّهُ قَالَ: «الثَّانِي: أَنَّ الذِّمِي الَّذِي وُجدَ مِنْهُ الكُفْرُ، يُرزق، ويُتصدق عَلَيْهِ لَمَا لهُ مِن حُريةِ عَقدِ الذِّمَةِ، فَكَيْفَ يَتَسَلمُ هَؤُلَاءِ مَع حُرْمَةِ مَا يَلْفظُون بِهِ مِنَ الشّهادَةِ، ولَهَا مِنَ الحُرْمَةِ مَا لَهَا، وَقَد عَلِمْتُم مَا لَهَا؟». انتَهى المَقْصُودُ من كَلامِه رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

إِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ فَأَينَ كَلَامَ هَذِهِ الأئمَّةِ مِنْ أفعَالِ الخَوَارجِ وَسِيرَتِهِم فِي الأمَّةِ؟

وَقَد آنَ ذِكْرُهَا؛ فَاسْمَعْ لأَخْبَارِهِمْ فِي الأُمَّةِ وإِكْفَارِهِمْ، واللهُ المُسْتَعَانُ.

فصلٌ

وَمِنْ سَبَبِ أَوَّلِ خرُوجِهِمْ: التَّحكِيمِ فِي اختلَافِ عَلِيٍّ ومُعَاوِيةَ ﭬ حِينَ حكَّمَا أبا مُوسَى وعَمْرو بنَ العَاصِ ﭬ.

وَقَد ذَكَرَ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي «تَارِيخِهِ»[1]: أَنَّ عَلِيًّا ﭬ لَمَّا دَخَلَ الكُوفَةَ بَعْدَ التَّحْكِيمِ، وَدَخلَهَا مَعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الخَوَارِجِ، وَتَخَلَّفَ مِنْهُم بالنُّخيلَةِ وَغيرِهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ لَمْ يَدْخلُوهَا، فَدَخلَ حَرْقُوصُ بنُ زُهيرٍ السَّعْدِيُّ وَزُرْعَةُ بنُ البُرج الطَّائِي، وَهُمَا مِنْ رُؤوسِ الخَوَارِجِ عَلَى عليٍّ، فَقَالَ لَهُ حَرْقُوص: تُبْ مِن خَطِيئتِكَ، وَاخْرُجْ بِنَا إِلَى مُعَاوِيةَ نُجَاهِدُه، فَقَالَ لَهُ عليٌّ: إِنِّي كُنتُ نَهَيتُكُم عَنِ الحُكُومةِ، فَأَبَيتُم ثُمَّ الآنَ، تَجْعَلُونَهَا ذَنبًا، أما إِنَّهَا لَيسَت بِمَعصِيةٍ، وَلَكِنَّهَا عَجزٌ مِنَ الرَّأْيِ وَضَعْفٌ فِي التَّدْبِيرِ، وَقَد نَهيتُكُم عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ زُرعَة: أَمَا وَالله لَئِن لَم تَتُب مِن تَحْكِيمِكَ الرِّجَالَ لأَقْتُلَنَّكَ، أطلُبُ بِذَلِكَ وجْهَ الله ورضوَانَهُ، فَقَالَ عَلِيٌّ ﭬ: وَيحك ! مَا أشقَاكَ ! كأَنِّي بكَ قَتِيلاً تسفي عَلَيْكَ الرِّيَاحُ.

قَالَ زُرْعَةُ: وَدِدتُ أَنَّهُ كَانَ ذَلِك.

قَالَ[2]: وخَرَجَ عَلِيٌّ ﭬ: يخطبُ النَّاسَ فصَاحُوا بِهِ مِنْ جَوَانبِ المَسجِدِ: «لَا حُكْمَ إِلَّا

---

(١) (٥/ ٧٢) وَفِيهِ أبو مخنفٍ هو: لوط بن يحيى أبو مخنف. أخباريٌّ تالفٌ لا يوثقُ به.
تركَه أبو حاتمٍ، وَغيرُه.
وقال الدارقطنيُّ: ضعيفٌ.
وقال ابنُ مَعِينٍ: ليسَ بثقةٍ.
وقال مرَّة: ليسَ بشيءٍ.
وقالَ ابنُ عَدِي: شيعي محترقٌ صاحبُ أخبارِهِم.
وقال أبو عُبَيد الآجريُّ: سألتُ أبا داود عنه فنفض يدَه وقال: أحدٌ يسألُ عنْ هَذَا؟!.
وذكرَهُ العقيليُّ فِي الضُّعفاءِ. «لسان الميزان» (٦/ ٣٤٠).

(٢) «تاريخ الطبري» (٥/ ٧٤).

لله»، وَصَاحَ بِهِ رجل وقرأ: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ فَقَالَ عليٌّ: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

وَرَوَى ابنُ ديزيلٍ فِي كتابِ صفِّين قَالَ: كَانتِ الخَوارجُ فِي أوَّلِ مَا انصَرفَتْ عَن راياتِ عَليٍّ تهددُ النَّاسَ قتلاً، فَأتتْ طَائفةٌ عَلَى النهروَانِ إِلَى جنبِ قريةٍ، فَخَرَجَ مِنهَا رجُلٌ مذعُورًا آخذًا بثيَابِهِ، فأدركُوهُ، فَقَالُوا لَهُ: قَدْ عَرفْنَاكَ أنت عبدُ الله بنِ خبَّابٍ صَاحِبُ رسُولِ الله ﷺ.

قَالَ: نعَمْ.

قَالُوا: فَمَا سَمِعْتَ مِن أبيكَ يُحدِّثُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ.

قَالَ ابنُ ديزيلٍ: فَحَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: إِنَّ فِتْنَةً جاءَتِ القَاعِدُ عَنْهَا خيْرٌ مِن القَائِمِ...»[1] الحَدِيث.

وقالَ غَيرُهُ: بل حدَّثهُم أنَّ طائِفَةً تَمرُقُ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرقُ السَّهمَ مِنَ الرَّمِيةِ... الحَدِيثَ، فضَرَبُوا رَأسَهُ، فسَالَ دمُهُ دمًا أكدر، فَاخْتلَطَ بالمَاءِ كَأَنَّهُ شرَاكٌ، ثمَّ دَعَوْا جَارِيَةً لَهُ حُبْلَى، فبقرُوا عن مَا فِي بَطنِهَا.

وذَكَرَ أَبُو العبَّاسِ مُحَمَّدُ بنُ يَزِيدَ المُبرِّدُ - بعدَ ذِكْرِهِ خَبَرَ المُنجمِ فِي الكَامِلِ[2] قَالَ: لَمَّا وافقَهُم عَلِيٌّ بالنَّهرَوانِ، قَالَ لأَصْحَابِهِ: لا تَبدؤوهُم بقتَالٍ حتَّى يَبْدَؤُوكُم، فَحَمَلَ رَجلٌ مِنْهُم عَلَى صَفِ عَلِيٍّ فقتلَ مِنْهُم ثلاثةً، ثمَّ قَالَ:

أَقتلُهُمْ وَلَا أَرَى عَلِيًّا ... وَلَو بدَا أَوْجَرتُهُ الخَطِّيا

---

(١) أخرجَهُ أَحْمَدُ (٥/ ١١٠) قال الهيثميُّ فِي «المجمع» (٧/ ٢٠٢): «رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى وَالطَّبَرَانِيُّ، وَلَمْ أَعْرِفِ الرَّجُلَ الَّذِي مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ رِجَالُ الصَّحِيحِ».

(٢) (٣/ ١٣٨).

فَخَرَجَ إِلَيْهِ عَلِيٌّ فضربَهُ فَقتَلَهُ، فلمَّا خالطَهُ السَّيفُ، قَالَ: حَبَّذا الرَّوحَةُ إِلَى الجنَّةِ.

فَقَالَ عبدُ الله بنُ وَهبٍ: مَا أدرِي إِلَى الجنَّةِ، أم إِلَى النَّارِ ؟

فَقَالَ رَجلٌ مِنْهُم من بنِي سَعدٍ: إِنَّمَا حَضَرتُ اغترَارًا بِهَذَا الرَّجُل - يعنِي: عبدَ الله - وأَبُوه قَدْ شكَّ فِي دِينِهِ، واعتزَلَ عنِ الحَربِ بجمَاعةٍ منَ النَّاسِ، ومَالَ ألفٌ مِنْهُم إِلَى جِهَةِ أبِي أَيُّوبَ الأنصارِي، وَكانَ عَلَى ميمنةِ عَلِيٍّ، فَقَالَ عَلِيٌّ لأَصْحَابِهِ ﷺ: احْمِلُوا عَلَيْهِم فَطَحَنَهُم طَحنًا.

وَذَكَرَ أَبُو العبَّاسِ المُبرِّدُ[1] وَغَيرُهُ أنَّ عَلِيًّا لَمَّا وجَّه إِلَيْهِم عَبْدَ الله بنَ عبَّاسٍ لِينَاظِرَهُم قَالَ لَهُم: مَا الَّذِي نقمتُم عَلَى أميرِ المُؤْمِنِينَ؟

قَالُوا لَهُ: كَانَ للمُؤمنِينَ أَميرًا فلما حَكَّمَ فِي دِينِ الله خَرَجَ منَ الإيمَانِ، فَلْيتُبْ بَعْدَ إقرَارِهِ عَلَى نفسِهِ بالكُفرِ نَفِرُّ إِلَيهِ.

قَالَ ابنُ عبَّاسٍ: مَا ينبغِي لمُؤمنٍ لَمْ يَشُبْ إِيمَانهُ بشَكٍّ أَن يُقِرَّ عَلَى نفسِهِ بالكُفْرِ.

قَالُوا: إِنَّهُ حَكَّمَ.

قَالَ: إنَّ اللهَ أمرَ بالتَّحكِيمِ فِي قَتلِ صيدٍ فَقَالَ: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ﴾، فَكَيْفَ فِي إمَامَةٍ قَدْ أشكلتْ عَلَى المُسْلِمِينَ!

فَقَالُوا: إنَّه حُكمَ عَلَيْهِ فلَمْ يرضَ.

فَقَالَ: إنَّ الحُكومَةَ مِثْل الإمَامَةِ، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته، والحكَمَانِ لَمَّا خَالفَا نُبِذَتْ أَقَاوِيلهُمَا؛ لاختلَافِهِمَا.

فَقَالَ بعضُهُم لِبَعْضٍ: لا تجْعَلُوا احْتِجَاجَ قُرِيشٍ حُجَّةً عَلَيْكم، فإنَّ هَذَا من الذينِ قَالَ اللهُ فِيهِم: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾، وقال تَعالَى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾.

---

(١) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٢٢).

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[(١)]: وَيُقَالُ أَوَّلُ مَنْ حَكَّمَ عُرْوَةُ بْنُ أُدَيَّةَ، وأُدَيَّةُ جدَّةٌ لَهُ جَاهِلِيةٌ، وَهُوَ عُرْوَةُ بنُ حديرٍ أَحَدُ بَنِي رَبيعةَ بنِ حَنظَلَةَ تَمِيمٍ.

وَقَالَ قومٌ: أَوَّلُ مَن حكَّمَ: رجلٌ مِن بنِي مُحَارِبِ بنِ خصفةَ بنِ قيسِ بن عَيْلان، يقالُ لَهُ: سَعِيدٌ.

وَلم يَختَلفُوا فِي اجتمَاعِهِم عَلَى عبدِ الله بنِ وَهبٍ الرَّاسبِي، وأَنَّهُ امتنَعَ عَلَيْهِم، وَأومَأَ إِلَى غيرِه، فلم يقنعُوا إِلَّا بِهِ، وَكانَ إِمَامَ القَومِ، وَكَانَ يُوصَفُ بِرأيٍ.

فَأَمَّا أَوَّلُ سَيفٍ سُلَّ مِن سُيوفِ الخوَارجِ فَسَيفُ عُروةَ بنِ أُدَيَّةَ، وذاكَ أَنَّهُ أقبلَ عَلَى الأشعثِ، فَقَالَ مَا هَذِهِ الدَّنيةُ يا أشعث، وَمَا هَذَا التَّحْكِيمُ، أشرطٌ أوثقُ منْ شَرطِ الله عَزَّ وَجَلَّ؟

ثمَّ شهرَ سيفَهُ عَلَيْهِ، والأشعثُ مولٍ فَضَربَ بِهِ عجزَ بغلته.

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[(٢)]: وَعُرْوَةُ بنُ حديرٍ هَذَا مِنَ النَّفرِ الَّذِينَ نَجَوْا مِن حَربِ النَّهْرَوَانِ، فَلَمْ يَزَلْ باقيًا مُدَّةً فِي أيَّامِ مُعَاوِيَةَ، ثمَّ أُتى بِهِ زيادٌ وَمَعَهُ مولَاهُ فَسأَلَهُ عن أَبِي بكرٍ وُعمَرَ، فَقَالَ خيرًا.

فَقَالَ لَهُ: مَا تقُولُ فِي عُثْمَانَ وَفِي أَبِي ترَابٍ؟

فتَولَّى عُثْمَانَ ستَّ سِنينَ مِن خِلَافتِهِ، ثمَّ شهدَ عَلَيْهِ بالكُفرِ، وفعَلَ فِي أمرِ عَليٍّ مثلَ ذَلِكَ إِلَى أنَّ حكَّمَ ثمَّ شَهدَ عَلَيْهِ بالكُفرِ، ثمَّ سَأَلَهُ عَنْ مُعَاويةَ فَسَبَّهُ سبًّا قَبيحًا، ثمَّ سَأَلَهُ عَنْ نَفسِهِ.

فَقَالَ لَهُ: أَوَّلُكَ لِزِنْيَةٍ، وآخرُك لِدِعْوَةٍ، وأَنتَ بعدُ عاصٍ لرَبِّكَ، فأمرَ بِهِ فَضُرِبَتْ عُنقُهُ.

ثمَّ دَعَا مَولَاهُ فَقَالَ لَهُ: صِفْ لِي أُمُورَهُ؟

---

(١) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٣٣).

(٢) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٣٤).

فَقَالَ: أُطنبُ أم أختصرُ؟

قَالَ: بلِ اختصرْ؟

قَالَ: مَا أتيتُهُ بطعَامٍ بنهَارٍ قطُّ، وَلَا فرشتُ لَهُ فراشًا بِليلٍ قطُّ.

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[(١)]: وَسَببُ تَسْميتِهِم الحَرُوريَّة: أنَّ عَليًّا لَمَّا نَاظرَهُم بعدَ مُناظرَةِ ابنِ عبَّاسٍ إِيَّاهُم، كَانَ فِيمَا قَالَ لَهُم ألَا تعلمُونَ أنَّ هَؤُلَاءِ القَومَ لَمَّا رفعُوا المَصَاحفَ، قُلتُ لكُم: إنَّ هَذِهِ مكيدةٌ ووهنٌ، وأنَّهم لو قصدُوا إِلَى حكْمِ المَصَاحِفِ لآتَوْنِي، وسألُونِي التَّحكِيمَ، أتعلمُونَ أنَّ أحدًا كَانَ أكرَهُ للتَّحكِيمِ منِّي؟!

قَالُوا: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَهلْ تعلمُونَ أنَّكم استكرهتمونِي عَلَى ذَلِكَ حتَّى أجبتكُم إِلَيْهِ؛ فاشترطتُ أنْ حكمَهَا نافذٌ مَا حكمَا بِحُكمِ اللهِ، فمتَى خالفَاهُ، فأنَا وأنتُم براءٌ مِن ذَلِكَ، وأنتُم تعلمُونَ أنَّ حُكمَ اللهِ لا يعدُونِي.

قَالُوا: اللهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ: وَكَانَ مَعَهُم فِي ذَلِكَ الوَقتِ ابنُ الكوَّاءِ، قَالَ: وَهَذَا مِن قَبل أنْ يذبحُوا عبدَ اللهِ بنَ خبَّابٍ، وإنَّمَا ذبحُوهُ فِي الفِرقةِ الثَّانيةِ بِكَسْكَر[(٢)].

فَقَالُوا لَهُ: حكَّمْتَ فِي دينِ اللهِ بَرأينَا، ونَحنُ مقرُّونَ بأنَّا كَفَرْنَا، ولَكِنِ الآنَ نحنُ تائبُونَ، فَأقرِرْ بمثلِ مَا أقررْنَا بِهِ، وتُبْ ننهضُ معَكَ إِلَى الشَّام.

فَقَالَ: أمَا تَعلمُونَ أنَّ اللهَ قَدْ أمرَ بالتَّحكِيمِ فِي شِقَاقٍ بَينَ الرَّجلِ وامْرَأتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ وَفِي صيدٍ أصيبَ فِي الحرم؛ كأرنبٍ تَساوي

---

(١) فِي «الكَاملِ» (٣/ ١٣٤ ـ ١٣٥).

(٢) موضع بين الكوفة والبصرة.

نِصْفَ[(١)] دِرْهَمٍ فقَالَ: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

فَقَالُوا لَهُ: فإنَّ عَمْرًا لمَّا أبى عَلَيْكَ أن تقُولَ فِي كِتَابِكَ: هَذَا مَا كَتَبَهُ عبدُ الله عَلِيٌّ أميرُ المُؤْمِنِينَ محوتَ اسمَكَ مِن الخِلَافَةِ، وكتبتَ عَلِيُّ بنُ أبي طالبٍ، فقدْ خلعتَ نفسَكَ.

فَقَالَ: لي فِي رَسُولِ الله ﷺ أسوةٌ حِينَ أبى عَلَيْهِ سهيلُ بنُ عمرٍو أن يكتُبَ هَذَا مَا كتبَهُ محمَّدٌ رسُولُ الله، وسهيلُ بنُ عمرٍو.

وَقَالَ لَهُ: لو أقررتُ بأنَّكَ رسُولُ الله مَا خالفتُكَ، ولكن أُقدمكَ بفضلِكَ، فاكتبْ: محمَّدُ بنُ عبدِ الله.

فَقَالَ لِي: يا عليُّ امحِ رسُولَ الله.

فقلتُ: يَا رَسُولَ الله لا تَسخو نفسِي عَلَى محْوِ اسمِكَ مِنَ النُّبوةِ.

قَالَ: فقفنِي عَلَيْهِ فمحَاهُ بيدِهِ، ثُمَّ قَالَ: اكتُبْ محمَّدَ بنَ عبدِ الله، ثمَّ تبسَّمَ إليَّ، وقَالَ لِي: يَا عليُّ إنَّكَ ستسَامُ مثلَهَا فتعطِي، فَرجعَ معه مِنْهُم ألفَانِ مِن حرُوراء.

وَقَد كَانُوا اجْتَمعُوا بِهَا، فَقَالَ لَهُم عَلي: مَا نُسَمِّيكُم؟ ثمَّ قَالَ: أنْتم الحَرُورِيَّةُ لاجتمَاعِكُم بحرُوراء.

وَرَوَى جَمِيعُ أهلِ السِّيرِ كَافةً أن عَلِيًّا لمَّا طَحنَ القَومَ، طَلَبَ ذَا الثُّدَيَّةِ طلبًا شديدًا، وقلَّبَ القتلى ظهرًا لبَطنٍ، فَلَمْ يَقْدرْ عَلَيْهِ، فسَاءَهُ ذَلِكَ، وجَعَلَ يقُولُ: واللهِ مَا كَذَبتُ ولَا كُذِبتُ، اطلبُوا الرَّجُلَ، فإنَّهُ لفِي القَومِ، فَلَمْ يَزَلْ يتطلبُه حتَّى وجدَه، وَهُوَ رَجُلٌ مُخدجُ اليدِ كأنَّهَا ثَدي امْرأةٍ[(٢)]، واسمُ ذِي الثُّدَيَّةِ - فِيمَا ذكرَهُ أبو دَاودَ[(٣)] - نَافِعٌ.

---

(١) فِي «الكَامِلِ»: «رُبع».

(٢) أخرجَهُ النسائِيُّ فِي «الخصائصِ» (١٧٩) وإسنادُه صحيحٌ.

(٣) فِي «السُّنَنِ» (٤٧٧٠).

وَذَكَرَ غيرُهُ: أنَّ اسْمَهُ حرقُوص، وقولُ أبي دَاودَ أصحُّ.

وَرَوَى إبرَاهِيمُ بنُ ديزيل فِي كتَابِ صفِّين عَنِ الأعَمشِ [(١)] عنْ زَيدِ بنِ وهبٍ قَالَ: لَمَّا شجَرَهُم عليُّ بنُ أبِي طَالبٍ بالرِّماحِ قَالَ: اطلبُوا ذَا الثُّدَيَّةِ، فطلبُوه طَلبًا شَدِيدًا حتَّى وَجدُوه فِي وهدةٍ منَ الأرضِ تحتَ ناسٍ منَ القتلَى فَأُتِي بِهِ، وإذا رجلٌ عَلَى يديهِ مثل سبلاتِ السّنورِ فكبَّر عِليٌّ، وَكبَّرَ النَّاسُ مَعَهُ سرُورًا بذَلِكَ.

وَرَوَى أيضًا عَنْ مُسلِمٍ الضَّبي عن حَبَّةَ العُرَنِي قَالَ: كَانَ رجلًا أسود منتن الريح لَهُ ثَديٌ كثَدي المَرأةِ إذَا مدَّت كَانتْ تطولُ اليد الأخرى، وإذَا تركت اجتمعت وتقلصت وصارت كثدي المرأة عَلَيْهَا شعرات مثل شوارب الهرة فلمَّا وجدوه قطعوا يده ونصبوها عَلَى رمح ثمَّ جعلَ عليٌّ ينادِي: صدق الله وبلّغ رسوله. لم يزل يقول ذَلِكَ هُوَ وأصحابه بعد العصر إِلَى أن غربت الشمس أو كادت.

وروى ابن ديزيل أيضًا قَالَ: لَمَّا عِيلَ صبرُ عليٍّ فِي طَلبِ المُخدَجِ، قَالَ: ائتوني بِبَغْلَةِ رسُولِ الله ﷺ فرَكِبَهَا، وأتبعهُ النَّاس فرَأى القَتلَى وجعلَ يقُولُ: اقلبُوا فيقلبُونَ قَتِيلاً عَن قَتيلٍ حتَّى اسْتَخْرَجُوهُ، فَسَجَدَ ﷺ.

وَعِندَ الإمَامِ أحمَدَ [(٢)] عَنْ أبِي الوَضِيءِ عبَّادٍ عَن عليٍّ ﷺ نَحْوه، وَفِيه: فَوَجَدُوهُ تَحْتَ قَتْلَى فِي طِينٍ، فَاسْتَخْرَجُوهُ فَجِيءَ بِهِ، فَقَالَ أَبُو الوَضِيءِ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ حَبَشِيٌّ عَلَيْهِ ثَدْيٌ، قَدْ طَبَقَ إِحْدَى يَدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ المَرْأَةِ عَلَيْهَا شَعَرَاتٌ مِثْلُ شَعَرَاتٍ تَكُونُ عَلَى ذَنَبِ اليَرْبُوعِ.

وَرَوَى كثيرٌ مِنَ النَّاسِ أنَّه لَمَّا دَعَا بالبَغْلَةِ ليركبهَا قَالَ ائتُونِي بِهَا فَإِنَّهَا هَادئةٌ فَوَقَفتْ بِهِ عَلَى المُخدَجِ فأخرَجَهُ مِنْ بَينَ قتلَى كَثِير.

وَرَوَى العوَّامُ بنُ حَوْشَبٍ عَن أبيهِ عَنْ جدِّه يزيدَ بنِ رويمٍ قَالَ: قَالَ عليٌّ... فذَكَرَ

---

(١) فِي المخطوط تكرار: «عن الأعمش».

(٢) فِي «المسند» (١٢٣١) من زيادات ابنه عبدالله، بسندٍ صحيح.

نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ استخراجِ المُخدَجِ مِنَ القتلَى وسجُودِ عليٍّ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ.

قَالَ أَبُو العبَّاسِ المُبَرِّدُ[(١)]: وأوَّلُ من حكَمَ بينَ الصَّفَّينِ رَجُلٌ مِن بني يَشكُرَ بن بكرِ بن وائلٍ، فَحَمَلَ وَهُوَ فِي أَصْحَابِ عَلِيٍّ يومَ صفِّين يُحَكِّمُ عَلَى رَجُلٍ مِنْهُم، فقتَلَهُ غِيلَةً، وكَانَ المقتُولُ مِن أصحَابِ رسُولِ الله ﷺ، ثمَّ مَرَقَ بَيْنَ الصَّفينِ يُحَكِّمُ، وحَمَلَ عَلَى أصحَابِ مُعَاوِيةَ فكثرُوهُ فَرجعَ إِلَى ناحيةِ عليٍّ فَخرجَ إليهِ رجلٌ مَنْ همْدانَ فقتَلَهُ.

فقَالَ شَاعِرُ همْدَانَ:

ما كَانَ أَغنَى اليشكريّ عَنِ الَّتِي ... يصلى بِهَا جَمْرًا منَ النَّارِ حَامِيا
غدَاةَ يُنَادِي والرِّمَاحُ تَنوشُــــهُ ... خَلَعتُ عَلِيًّا باديًا وَمُعَاوِيَــا

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[(٢)]: وَقَد روى المُحَدِّثُونَ أنَّ رَجُلًا تَلَا بِحَضْرَةِ عَلِيٍّ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ فقَالَ عليٌّ: أَهْلُ حرُوراءَ مِنْهُم.

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[(٣)]: وَمِنْ شعرِ عَلِيٍّ الَّذِي لا اختلافَ فِيهِ أنَّه كَانَ يقُولُهُ، ويُرَدِّدُهُ لَمَّا سَامُوهُ أن يُقرَّ بالكُفرِ، ويتوبَ حتَّى يَسِيرُوا مَعَهُ إِلَى الشَّام.

قَالَ: أَبَعْدَ صُحْبَةِ رسُولِ الله ﷺ والتَّفقه فِي دِينِ الله أرجعُ كَافرًا، ثمَّ قَالَ ﷺ:

يَا شَاهِدَ الله عَلَيَّ فَاشْهدِ ... أَنِّي عَلَى دينِ النبيِّ أَحْمَدِ
مَن شكَّ فِي الله فإنِّي مُهتدِي

وذكَرَ أَبُو العبَّاسِ فِي الكَامِلِ أيضًا[(٤)]: أَنَّ عَلِيًّا فِي أوَّلِ خرُوجِ القَومِ عَلَيْهِ دَعَا صَعصعَةَ

---

(١) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٣٩).

(٢) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٣٩).

(٣) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٤٠).

(٤) «الكَامِلِ» (٣/ ١٥٥).

بنَ صُوحَانَ العبدِيَّ، وَكَانَ قَدْ وَجهَهُ إليهِم، وَزِيادَ بنَ النَّضرِ الحَارثِي مَع عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ، فَقَالَ لصَعْصَعَةَ: بِأَيِّ القَومِ رَأيتَهُمْ أَشَدَّ طاقةً؟

قالَ: بيَزِيدَ بنِ قَيسٍ الأَرْجَنِي.

فَرَكبَ عليٌّ إِلَى حرُوراءَ، فجعَلَ يَتخلَّلُهُم حتَّى صَارَ إِلَى مضرب يزيدَ بنِ قيسٍ، فصَلَّى فِيهِ رَكْعتَينِ، ثمَّ خَرجَ فاتَّكأَ عَلَى قَوسِه وأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: هَذَا مَقامٌ مَنْ فَلجَ فِيهِ فَلجَ يومِ القِيامَةِ، ثمَّ كلَّمَهُم وَنَاشَدَهُم.

فَقَالُوا: إنَّا قَدْ أَذْنَبْنَا ذَنبًا عَظِيمًا بالتَّحكِيمِ، وَقَد تُبْنَا فَتُبْ إِلَى الله كَمَا تُبْنَا نعدُ لكَ.

فَقَالَ عليٌّ: أنَا أَستغفرُ اللهَ مِن كُلِّ ذَنبٍ، فَرَجَعُوا مَعَهُ وهُم سِتَّةُ آلافٍ.

فَلَمَّا استقَرُّوا بِالكُوفَةِ أشَاعُوا أنَّ عَلِيًّا رجعَ عَنِ التَّحْكِيمِ وَرَآهُ ضَلالاً، وقالُوا: إِنَّمَا يَنتظِرُ أميرُ المُؤْمِنِينَ أن يَسْمَنَ الكُرَاعُ، ويجبِي المَالَ، ثمَّ ينهضُ بنَا إِلَى أهلِ الشَّامِ.

فأتَى الأَشْعثُ عَلِيًّا، فَقَالَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ: إنَّ النَّاسَ قَدْ تَحَدَّثُوا إنَّكَ رَأيتَ الحُكُومَةَ ضَلَالاً، والإقَامَةَ عَلَيْهَا كُفرًا.

فقَامَ عليٌّ فخطَبَ، فَقَالَ: مَن زَعمَ أنِّي رَجعْتُ عَنِ الحُكومَةِ فَقَدْ كَذبَ، وَمَنْ رَآهَا ضَلالاً فَقَدْ ضَلَّ، فَخَرجتْ حِينَئِذٍ الخَوارِجُ مِنَ المَسْجِدِ، فَحَكَّمَتْ.

قَالَ: ثمَّ مَضَى القَومُ إِلَى النَّهروَانِ، وَقَد كَانُوا أرادُوا المُضِيَ إِلَى المَدَائنِ.

فَمِنْ طَرِيقِ أَخْبَارِهِم أَنَّهُم أَصَابُوا فِي طرِيقِهِم مُسلِمًا وَنَصْرَانيًّا، فقتَلُوا المُسْلِمَ؛ لأَنَّهُ عِندَهُم كافرٌ إذ كَانَ عَلَى خِلَافِ مُعتقدِهِم، واسْتَوْصوا بالنَّصرَانِي خيرًا، وقالُوا: احفظُوا ذِمَّةَ نبيِّكُم !

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[1]: وَمِنْ نَحوِ ذَلِكَ: أَنَّ وَاصِلَ بنَ عَطَاءٍ أقبَلَ فِي رِفْقَةٍ لَهُ فَأَحسُّوا بالخَوَارِجِ.

---

(1) فِي «الكَامِلِ» (3/ 122).

فَقَالَ وَاصِلٌ لأهلِ الرُّفقةِ: إنَّ هَذَا لَيسَ مِن شَأنِكُم، فاعتزلُوا ودعوني وإيَّاهُم، وكانُوا قَدْ أشرَفُوا عَلَى العَطَبِ.

فَقَالُوا لَهُ: شَأنُكَ فَخَرَجَ إليهِم.

فَقَالُوا: مَا أنتَ وأصحابُكَ؟

فَقَالَ: قومٌ مُشرِكُونَ مُستَجيرُونَ بِكُم ليَسمَعُوا كَلَامَ اللهِ، وَيَفهَمُوا حُدُودَهُ.

قَالُوا: قَدْ أجَرْنَاكُم.

قَالَ: فَعَلِّمُونَا، فجعلُوا يُعلمُونَهُم أحْكَامَهُم.

ويقولُ واصلٌ: قَدْ قبلتُ أنَا وَمَن مَعِي.

قَالُوا: فامضوا مُصَاحِبِينَ فَقَدْ صِرْتُم إخْوَانَنَا.

فَقَالَ: لَيسَ ذَلِكَ إليكُم، بَلْ بَلِّغُونَا مَأمَنَنَا؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى يقُولُ: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ فنظَرَ بعضُهُم إِلَى بَعْضٍ، قَالُوا: ذَاكَ لَكُم؛ فَسَارُوا مَعَهُم بِجَمعِهِم حتَّى أبلغُوهُم المَأمَنَ.

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[1]: وَلَقِيهُم عَبدُ اللهِ بنُ خَبَّابٍ فِي عُنقِهِ مُصْحَفٌ عَلَى حمَارٍ، وَمَعَهُ امرأتُه، وَهِيَ حَامِلٌ، فَقَالُوا لَهُ: إنَّ هَذَا الَّذِي فِي عُنقِكَ ليَأمُرُنَا بِقَتلِكَ.

فَقَالَ لَهُم: مَا أحيَاهُ القرآنُ فأحيوهُ، وَمَا أمَاتَهُ القُرآنُ، فأميتُوه.

فوثَبَ رَجلٌ مِنهُم عَلَى رُطبةٍ سقطَتْ مِن نخلَةٍ فَوضَعَهَا فِي فِيهِ، فصَاحُوا بِهِ، فلفَظَهَا تَوَرُّعًا، وعرضَ لرُجلٍ مِنهُم خنزيرٌ، فَضربَهُ فَقتَلَهُ، فَقَالُوا: هَذَا فسادٌ فِي الأرضِ، واللهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ، فَأنكرُوا قتلَ الخِنزِيرِ.

ثمَّ قَالُوا لابنِ خبَّابٍ: حَدِّثنَا عَن أبيكَ، قَالَ: سَمِعتُ أبِي، يقُولُ: سَمِعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «سَتكُونُ فِتنَةٌ يمُوتُ فِيهَا قَلبُ الرَّجُلِ كَمَا يمُوتُ بَدنُهُ، يمُسِي مُؤمنًا وَيُصبِحُ

---

(1) فِي «الكَامِلِ» (3/ 156 ـ 157).

كافرًا فكُنِ المَقْتُولَ، وَلَا تَكُنِ القَاتِلَ»[1].

قَالُوا: فَمَا تقُولُ فِي أبِي بكرٍ وعُمرَ؟

فأثنَى خيرًا.

قَالُوا: فَمَا تقُولُ فِي عليٍّ بعدَ التَّحكِيمِ، وَفِي عُثْمَانَ فِي السِّنين السِّتِّ الأخيرةِ؟

فَأثنَى خيرًا.

قَالُوا: فما تقُولُ فِي التَّحْكِيمِ والحُكومَةِ؟

قَالَ: إنَّ عَلِيًّا أَعْلَمُ باللهِ مِنكُم، وأشدُّ توقِّيًا عَلَى دينِه، وَأَنْفَذُ بصيرَةً.

فَقَالُوا: إنَّكَ لَسْتَ بِمُتَّبِعِ الهُدَى، إنَّمَا تَتَّبِعُ الرِّجَالَ عَلَى أَسْمَائِهِم، ثمَّ قرَّبُوهُ إِلَى شَاطِئِ النَّهرِ، فأَضْجَعُوهُ فَذَبحُوهُ.

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[2]: وَسَامُوا رَجُلًا نصرَانيًّا بِنخلَةٍ لَهُ، فَقَالَ: هِيَ لكُم.

فَقَالُوا: مَا كنَّا لنَأخذُهَا إلَّا بثَمنٍ.

فَقَالَ: واعجبَاهُ أَتَقْتلُونَ مِثلَ عَبدِ اللهِ بنِ خبَّابٍ، وَلَا تقبلُونَ جنَى نَخْلَةٍ؟!

وَرَوَى أَبُو عُبيدَةَ مَعمرُ بنُ الُمثنى قَالَ: وَطُعَنَ رَجُلٌ مِنَ الخَوَارِجِ يَومَ النَّهْرَوَانِ، فمشَى فِي الرُّمحِ، وَهُوَ شَاهِرٌ سَيفَهُ إِلَى أن وَصَلَ إِلَى طَاعنِهِ، فَقَتَلَهُ وَهُوَ يقرأُ: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾.

وَرَوَى أَبُو عُبيدَةَ أيضًا قَالَ: اسْتنطقَهُم عليٌّ عَلَى مقتلِ عبدِ الله بنِ خبَّابٍ فَأقرُّوا بِهِ.

فَقَالَ: انفردُوا كتَائِبَ لا يسمعُ قولكُم كَتِيبةٌ كتِيبةً، فتكتَّبُوا كتَائبَ، وأقرَّتْ كُلُّ كَتِيبَةٍ بمثْلِ مَا أقرَّتْ بِهِ الأخرَى مِن قتلِ ابنِ خبَّابٍ.

---

(1) أخرجَهُ أحمَدُ (5/ 110)، وأبو يعلَى (7215) قال الهيثميُّ فِي «المجمع» (7/ 303): «رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى وَالطَّبَرَانِيُّ، وَلَمْ أَعرفِ الرَّجُلَ الَّذِي مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ رِجَالُ الصَّحِيحِ».

(2) فِي «الكَامِلِ» (3/ 157).

وقالوا: ولنقتلنك كما قتلناه.

قَالَ عليٌّ: والله لو أقرّ أهلُ الدُّنيا كلُّهم بقتلِهِ هكَذَا، وأنَا أقدرُ عَلَى قتلِهم بِهِ لقتلتهُم، ثمَّ انبعثَ إِلَى أصحابِهِ.

فقَالَ: شدُّوا عَلَيْهِم فأنَا أوَّلُ مَن يشدُّ عَلَيْهِم، وحَمَلَ عَلَيْهِم بذِي الفِقَارِ حملةً منكرةً ثلاثَ مراتٍ، كُلُّ حَمْلَةٍ يَضرِبُ بِهِ حتَّى يعوجَّ متنُهُ.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بنُ حَبِيبٍ قَالَ: خَطبَ عَلِيٌّ الخَوَارِجَ يومَ النَّهْرَوَانِ، فَقَالَ لهم: نَحْنُ أهلُ بيتِ النُّبوةِ، وَمَوْضِعُ الرِّسَالَةِ، وَمُخْتَلَفُ المَلائِكَةِ، وَعُنصرُ الرَّحمِ، وَمَعْدِنُ العِلْمِ والحِكْمَةِ، ونحنُ أفقُ الحِجَازِ، بنَا يلحقُ البطيءُ، وإلينَا يرجعُ التَّائِبُ، أيُّها القَومُ إنِّي نذير لكُم اليَوم إِلَى أنْ تُصبحُوا صرعَى بأهضَامِ هَذَا الوَادِي[1].

وَرَوَى إبراهيمُ بنُ الحَسنِ بن ديزيلِ المحدِّثُ فِي كتَابِ صفِّين عَن عَبدِ الرَّحمنِ بنِ زيادٍ، عن خالدِ بنِ حُميدٍ المهري عَن عمرٍو مَولَى غفرةَ، قَالَ: لَمَّا رجعَ عليٌّ مِن صفِّين إلَى الكُوفَةِ أقَامَ الخَوارِجُ حتَّى جَمَعُوا جمُوعًا ثمَّ خرَجُوا إلَى صَحرَاءَ بِالكُوفَةِ تسمَّى حَرُورَاءَ، فتنادوا «لَا حُكْمَ إِلَّا لله وَلَو كَرِه المُشْرِكُون، ألا إنَّ عَلِيًّا ومُعاويةَ أشرَكَا فِي حُكمِ الله» فأرسَلَ عليٌّ ابنَ عباسٍ فنظرَ فِي أمرِهِم، وكلَّمَهُم، ثمَّ رجع إِلَى عليٍّ؛ فقَالَ لَهُ: مَا رأيتَ؟.

قال ابنُ عبَّاسٍ: والله مَا أدرِي مَا هُمْ؟!

فَقَالَ عليٌّ: أرَأيتَهُم مُنافِقِينَ؟

قَالَ: مَا سيمَاهُم سيمَاءُ المنَافِقِينَ إنَّ بَينَ أعينِهِم لأثر السُّجودِ، يتأوَّلُونَ القُرآنَ.

فَقَالَ عليٌّ: دَعْهُم مَا لَم يسفكُوا دمًا، أو يغصِبُوا مالاً، وأرسَلَ إِلَيهِم مَا الَّذِي أحدثتُم، وَمَا تريدُونَ؟

---

(1) «أنساب الأشراف» (2/ 371).

قَالُوا: نريدُ أن نخرجَ نحنُ وأنتَ وَمَن كَانَ معنَا بصفين ثلَاثَ ليالٍ، ونتوبُ إِلَى الله تَعَالَى مِن أمرِ الحكمَينِ، ثمَّ نسيرُ إِلَى معَاوية، فنقاتلُه حتَّى يحكمَ اللهُ بيننَا وبينَهُ.

قال عليٌّ: فهلَّا قُلتُم هَذَا حِينَ بعثنَا الحَكَمَينِ، وأخذْنَا منهُم العَهدَ وأعطينَاهمُوه، ألا قلتُم هَذَا حِينَئِذٍ!

قَالُوا: كنَّا قَدْ طَالَتِ الحَربُ علينَا، واشتدَّ البأسُ، وكثُرَ الجرَاحُ، وخلا الكُراعُ والسَّلاحُ.

وَقَالَ لَهُم: فحِينَ اشتدَّ البأسُ عَلَيْكُم عاهدتُم، فلمَّا وجدْتُم الجِمَامَ، قلتُم: ننقضُ العهدَ، إنَّ رسُولَ الله ﷺ كَانَ يفِي للمُشرِكِينَ بالعَهدِ، أفتَأمُرُونني بنقضِه.

فمكثُوا مكانَهُم لا يزالُ الواحدُ مِنْهُم يرجعُ إِلَى عليٍّ، وَلَا يزالُ الآخر يخرجُ من عِندَ عليٍّ، فدخلَ واحدٌ مِنْهُم عَلَى عليٍّ بالمَسجدِ، والنَّاس حَولَهُ فصَاحَ: «لَا حُكْمَ إِلَّا لله وَلَو كَرِه المُشرِكُونَ»، فتلفتِ الناسُ فنادَى «لا حُكمَ إلا لله ولو كَرِه المُتلفتُونَ»، فرفعَ عليٌّ رأسَهُ إِلَيْهِ فقالَ: «لا حُكمَ إلا لله ولَو كَرِه أَبُو حَسَنٍ».

فَقَالَ عليٌّ: إنَّ أَبَا حَسنٍ لَا يَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ الحُكمُ لله، ثمَّ قَالَ: حُكمُ الله أنتظرُ فيكُم.

ثمَّ قَالَ لَهُ الناسُ: هلَّا ملتَ عَلَى هَؤُلَاءِ يا أميرَ المُؤْمِنِينَ فأفنيتَهُم.

فَقَالَ: إنَّهُم لَا يَفنونَ أنَّهُم لفِي أصلابِ الرِّجالِ وأرحامِ النِّساءِ إِلَى يومِ القيَامَةِ[1].

وَرَوَى أنسُ بنُ عِياضٍ، قَالَ: حدَّثنِي جَعفرُ بنُ محمدٍ الصَّادقُ عَن أبيهِ عَن جدِّه أنَّ عَليًّا كَانَ يَومًا يؤمُ النَّاسَ، وَهُوَ يجهرُ بالقِرَاءةِ، فجهَرَ ابن الكَوَّاءِ مِن خلفِهِ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

فلمَّا جهرَ ابنُ الكَوَّاءِ مِن خلفِه بهَا سَكتَ عليٌّ فلمَّا أنهاهَا ابنُ الكَوَّاءِ أعَادَ علي القرَاءةِ فأتمَّهَا، فلمَّا شرعَ عليٌّ فِي القرَاءةِ أعادَ ابنُ الكَوَّاءِ الجهرَ بتلكَ الآيةِ، فَسَكَتَ عَلِيٌّ، فَلَمْ يَزَالا

---

(١) «شرح نهج البلاغة» (٣/ ٣١٠ ـ ٣١١).

كَذَلِكَ يقرأُ هَذَا ويسكتُ هَذَا مرَاراً حتَّى قرأ عليٌّ: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠ ﴾.

فَسَكتَ ابنُ الكَوَّاءِ، وَعادَ علي عَلَى قِرَاءتِهِ[1].

وكَانتِ الخَوارجُ أصحَابَ عليٍّ ﷺ يومَ الجَمَلِ وَصِفِّين قَبلَ التَّحكِيمِ.

(١) «شرح نهج البلاغة» (٣/ ٣١١ـ ٣١٢).

فصلٌ

فمنهُم: عُرْوَةُ بنُ حُدَيرٍ:

أَحَدُ بَنِي رَبِيعَةَ بنِ حَنظَلَةَ مِنْ تَميم، ويعرفُ بِابنِ أُدَيَّةَ، وأُدَيَّةُ جدةٌ لَهُ جَاهِلِيةٌ كَمَا ذكرنا إِيَّاهَا، وَكَانَ لَهُ أصحابٌ وأتباعٌ وشيعةٌ، فَقَتَلَهُ زيادُ بنُ أبيهِ فِي خِلَافةِ معَاويةَ صَبْرًا.

وَقَدْ ذَكرنَاهُ فِي كِتَابِنَا هَذَا، وَمِنهُم نَجْدَةُ بنُ عُويمرٍ الحَنفِي كَانَ من فرسَانِهِم، وَلَهُ مقالةٌ مفردةٌ من مقالةِ الخَوارِجِ، وَلَهُ أتباعٌ وأصحَابٌ، وإليهم أشارَ الصَّلتانُ العبديُّ بِقَوْلِهِ شِعْراً:

أترَى أمَّةً شَهَـرَتْ سَيفَهَـا ... وَقَد زِيدَ فِي سَوطِهَا الأَصْبَحِي
بِنَجْديـــةٍ أَو حَرُوريَّـــةٍ ... وأَزْرَقَ يُدْعَــى إِلَى أَزْرقِــي
فَمِلَّتُنَــا أَنَنـَـا مُسْلِمُــونَ ... عَلَى دِيــنِ صِـدِّيقِنا والنَّبِــي
أشابَ الصَّغير وأفنَى الكَبِير ... مُرُورُ الغَـــدَاة وكــرُّ العَشِي
إذَا ليلــةٌ هرَّمــَتْ يَومَهَــا ... أَتَى بَعــدَ ذَلِــكَ يــومٌ فَتِيّ
نرُوحُ وَنَغْــدُو لحَاجَاتِنَــا ... وَحَاجَةُ مَــن عَــاشَ لا تنقضِي
تمُوتُ مَاأَع المَــرءِ حَاجَاتُــهُ ... وَتَبقَى لَــهُ حَاجــةٌ مَا بقِي

وَكانَ نَجْدَةُ يُصَلِّي بِمَكَّةَ بحذَاءِ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ فِي جَمعه فِي كل جُمُعَةٍ، وَعبدُ اللهِ يَطلبُ الخِلَافةَ، فيُمسكان عنِ القتالِ منْ أجلِ الحَرمِ[1].

وَقالَ الرَّاعِي يُخَاطِبُ عبدَ المَلكِ:

إنِّي حَلفــتُ عَلَى يَمــينٍ برَّة ... لا أكذبُ اليومَ الخَليفةَ قِيلَا
لمَّا أتيــتُ أبَا خُبيــبٍ طَائِعًا ... يومًا أُريــدُ ببيعتِي تبدِيلاَ

(١) «الكَامِل» (٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

ولَمَّا أتيتُ نجـــدةَ بـنَ عُويمرٍ ... أبغِي الهُدى فَيَزِيدُنِي تَضْلِيلَا
مِنْ نِعْمَةِ الرَّحمَنِ لَا مِن حِيلتِي ... أنِّي أعُـــدُّ لَهُ عَلَيَّ فضُولَا[١]

واستولَى نَجْدَةُ عَلَى اليَمَامَةِ وعظُمَ فِيهَا أمرُهُ حتَّى مَلكَ اليَمنَ والطَّائفَ وعمانَ والبحرَينِ وبوَادِي تميمٍ وعامرٍ، ثمَّ إنَّ أصحَابُهُ نقمُوا عَليهِ أحْكَامًا أحْدَثَهَا فِي مذَاهبِهِمْ.

مِنهَا قَولُهُ: إنَّ المُخطِئ بعدَ الاجتهَادِ معذُورٌ، وإن الدِّينَ أمرَانِ: معرفةُ الله، ومعرفةُ رسُولهِ ﷺ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فالنَّاسُ معذُورُونَ فِيهِ بجهلِهِم إِلَى أن تقُومَ عَلَيْهِم الحُجَّةُ، فَمَنِ استحلَّ محرَّمًا منِ طَريقِ الاجتهَادِ فَهُوَ معذُورٌ حتَّى إنَّ مَنْ تزَوَّجَ أختَهُ، أو أمَّهُ مُسْتحلًّا لِذَلِكَ بِجهَالَةٍ، فَهُوَ معذُورٌ ومُؤمنٌ !

فَخَلعُوهُ وجَعَلُوا اختيَارَ الإمَامِ إلَيْهِ، فاختَارَ لَهُم أبَا فديكٍ أحدَ بنِي قَيسِ بنِ ثعلبةَ، فجعلَهُ رَئِيسَهُم.

ثمَّ إنَّ أبَا فديكٍ أنفذَ إِلَى نجدَةَ مَنْ قتلَهُ، ثمَّ تولَّى بعدَ قتْلِهِ طَوَائفُ، مِنْهُم أصحَابهُ بعدَ أن تفرَّقُوا عَليهِ، وقالُوا: قُتلَ مَظلُومًا[٢].

---

(١) «الكَامِل» (٣/ ١٣٦).

(٢) «شَرح نَهج البَلَاغَة» (٤/ ١٣٣ ـ ١٣٤).

فَصْلٌ

وَمِنْهُم المُسْتَوردُ بنُ سعيدٍ:

أحدُ بنِي تميمٍ، كَانَ مِمَّن شهدَ يومَ النُّخَيْلَةَ وَنَجا بِنَفْسِهِ فيمَن نَجَا مِن سَيفِ عليٍّ.

ثمَّ خَرَجَ بعدَ ذَلِكَ بمدَّةٍ عَلَى المُغيرَةِ بنِ شُعبةَ، وَهُوَ والِي الكُوفَةِ لمُعَاويةَ بنِ أبِي سُفيانَ فِي جماعَةٍ مِنَ الخَوارِجِ، فَوجَّه المُغيرَةُ إليْهِ مَعقلَ بنَ قيسٍ الريَاحِي، فلمَّا توَافيَا دَعَاهُ المُستوردُ إِلَى المُبَارَزَةِ.

وَقَالَ لَهُ: عَلامَ تقتِلُ النَّاسَ بينِي وَبينكَ؟!

فَقَالَ: النَّصفُ سألت، فأقسمَ عَليه أصحَابهُ.

فَقَالَ مَا كنت لآبى عَلَيْهِ.

فَخَرَجَ إِليْهِ فاختلفَا ضربتَينِ، فخرَّ كُلٌّ مِنْهُمَا مِن ضَربةِ صَاحِبه قَتِيلاً.

وَكانَ المُستوردُ نَاسكًا كَثيرَ الصَّلاةِ، وَلَهُ آدابٌ، وحِكَمٌ مَأثورَةٌ[1].

(١) «شَرح نَهج البَلاغَةِ» (٤/ ١٣٤).

فَصْلٌ

وَمِنْهُم حَوْثَرَةُ الأَصْدَائِي:

خَرَجَ عَلَى مُعَاوِيَةَ عَامَ الجَمَاعَةِ فِي عِصَابَةٍ مِنَ الخَوَارِجِ، فبَعثَ إِليْهِ مُعَاوِيةُ جيشًا مِن أهلِ الكُوفَةِ.

فلَمَّا نَظرَ حَوْثَرَةُ إِلَيْهِم قَالَ لَهُم: يَا أَعْدَاءَ الله، أَنْتُم بِالأمسِ تقَاتلُونَ مُعَاوِيَةَ لتَهْدِمُوا سُلطَانَهُ، وأنتُم اليَوم مَعَهُ، تقاتلُونَ لتشدُّوا سلطَانَهُ.

فلَمَّا التَحَمَتِ الحَربُ قُتلَ حَوْثَرَةُ، قتَلَهُ رَجُلٌ مِن طيءٍ، وفُضَّتْ جموعُهُم[1].

(١) «الكَامِل» (٣/ ١٧٦)، «شَرح نَهجِ البَلَاغَةِ» (٤/ ١٣٤ ـ ١٣٥).

فَصْلٌ

وَمِنْهُم قَرِيبُ بنُ مرَّةَ الأَزْدِي وزحَاف الطَّائي:

كانَا عابدَينِ مُجتهدَينِ منْ أهلِ البصرةِ فخرجَا فِي أيامِ مُعَاوِيةَ فِي إمَارَةِ مُعَاوِيةَ لزيادٍ.

واختلفَا أيُّهمَا الرَّئيسُ؛ فاعترضَا النَّاسَ، فلقيَا شيخًا ناسِكًا من بني ضبيعةَ بنِ ربيعةَ بنِ نزارٍ فقتلَاهُ، وكانَ يُقالُ لَهُ: رؤبةُ الضَّبعِي، وتنَادَى النَّاسُ، فَخَرَجَ رجلٌ من بني قطيعةَ مِن الأزدِ، وَفِي يدِهِ السَّيف، فنَادَاهُ النَّاسُ مِن ظهُورِ البيوتِ: الحَرُوريَّةُ انْجُ بِنَفْسِك، فنادَوهُ لسنَا حرُوريَّةً، نحنُ الشُّرطُ، فقتلُوه.

وبلغَ أبا بلَالٍ خبرُهُمَا وَهُوَ مِرداسُ بنُ أُدَيَّةَ يكنَّى بأبِي بلَالٍ، فَقَالَ: قريبٌ لا قرَّبهُ اللهُ، وزحَاف لا عفَى اللهُ عَنْهُ! ركبوهَا عشوَاء مظلمة يريدُ اعتراضهُمَا النَّاسَ.

ثمَّ جعلَا لا يمرَّان بقبيلةٍ إلَّا قتلَا منْ وجدَا؛ حتَّى مرَّا عَلَى بنِي عليٍّ بنِ سودٍ منَ الأزدِ، وكَانُوا رماةً كَانَ فِيهم مَائةٌ يُجيدُونَ الرَّمي فرمُوهُم رَمْيًا شَدِيدًا فصَاحُوا: يا بنِي عليٍّ، البقيَا، لا رمَاء بيننَا.

فَقَالَ رجلٌ مِن بنِي عَليٍّ بنِ سودٍ:

لَا شَيءَ للقَوْمِ سِوَى السّهامِ مشحوذة فِي غَلسِ الظَّلَامِ.

فعردَ عنهُم الخَوارِجُ[1]، وخافُوا الطَّلَبَ، واشتقُوا مَقْبرَةَ بنِي يَشْكُرَ، حتَّى نفذوا إلَى مزينة ينتظرُونَ من لحَقَ بِهِم مِن مُضرَ وغيرِهَا، فجاءَهُم ثمانُونَ، وَخَرجَتْ إِلَيْهِم بنُو طَاحيَةَ مِن بنِي سُودٍ، وقبائلُ منْ مُزَيْنَةَ وغيرِهَا، فَاسْتقبلَتِ الخَوارِجَ، وَحَارَبتْ حتَّى قُتِلَتْ عَن آخرِهَا، وقُتلَ قريبٌ وزحافٌ[2].

---

(١) من التعريد؛ وهو الفرار.

(٢) «الكَامِلِ فِي اللُّغَةِ والأدبِ» (٣/ ١٧٩)، «شَرح نَهج البَلَاغَةِ» (٤/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

فَصْلٌ

وَمِنْهُم: أَبُو بِلَالٍ مِردَاسُ بنُ أُدَيَّةَ:

وَهُوَ أخُو عُرْوةَ بن حديرٍ الَّذِي ذَكرْنَاهُ أوَّلاً، خَرَجَ فِي أيَّامِ عُبيدِ الله بنِ زيادٍ.

فأَنفذَ إِلَيْهِ ابنُ زِيادٍ عبادَ بنَ أخضرَ المَازنِي فقتَلَهُ، وقتَلَ أصحَابَهُ، وَحَمَلَ رَأسَهُ إِلَى ابنِ زِيادٍ.

وَكانَ أَبُو بِلَالٍ عَابدًا نَاسِكًا شَاعِرًا، وَسَيَأتِي لَهُ أخبَارٌ فِيمَا بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى [1].

(١) «شَرح نَهجِ البَلَاغَةِ» (٤/ ١٣٦).

فصلٌ

وَمِنْهُم نافعُ بنُ الأَزْرقِ الحنفيّ:

فهُوَ: نافعُ بنُ الأَزْرقِ بنِ قيسِ بنِ نَهارٍ، فنَهارٌ جدُّه هَذَا هُوَ صَاحِبُ مُسيلمةَ الكذَّابِ.

وذكرُوا أنَّ نافعًا كَانَ شجاعًا مُقدمًا فِي فِقهِ الخوارِج، وَإليهِ تُنسَبُ الأَزارقةُ.

وكانَ يُفتِي بأنَّ الدَّارَ دارُ كفرٍ، وأنَّهم جميعًا فِي النَّارِ، وكلُّ من فِيهَا كافرٌ إلا من ظهرَ إيمانُهُ، وَلَا يحلُّ للمُؤمنِينَ أن يجيبُوا داعياً مِنْهُم إِلَى الصَّلاةِ معهُم، وَلَا أن يأكلُوا مِن ذبائحهم، وَلَا أن يناكحُوهُم، وَلَا يتوارثُ الخارجِي وَغيرُه، وهُم مثلُ كفَّارِ العَربِ، وعبدةِ الأوثَانِ، لا يُقبل مِنْهُم إِلَّا الإِسلام، أو السَّيف، والقعدُ بمنزلِهِم، والتقيةُ لا تحلُّ؛ لأنَّ الله تبارَكَ وتَعالَى يقول: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾.

وقالَ فيمَن كَانَ عَلَى خلافِهِم: يُجاهدُونَ فِي سَبيلِ الله، وَلَا يخافُونَ لومةَ لائمٍ، فتفرَّقَ عَنْهُ جماعةٌ مِنَ الخَوارِجِ مِنْهُم نجدةُ بنُ عامرٍ.

واحتجَّ نَجدَة عَلَيْهِ بقول الله تَعالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ فصارَ نجدةُ وأصحابهُ إِلَى اليمامةِ، وأضافَ نافعٌ إِلَى مقالتِه الَّتِي قدَّمناهَا عَنْهُ استحلالَ الغَدرِ، واستحلالَ أمَانته لمَن خالفَهُ، فكتَبَ نَجدةُ إليهِ:

أمَّا بَعدُ، فإنَّ عَهدِي بكَ، وأنت لليتيمِ كَالأَبِ الرَّحيمِ، وللضَّعيفِ كالأخِ البَرّ، تعاضدُ قوي المُسْلِمِينَ، وتصنعُ للأخرقِ مِنْهُم، لا تأخذُكَ فِي الله لومة لائمٍ، وَلَا ترَى معُونةَ ظَالِمٍ.

كَذلكَ كنتَ وأصحابُكَ، أوَ لَا تَذكرُ قولَكَ: لولَا أنّي أعلمُ أنَّ الإمامَ العَادلَ لَهُ مثلُ أجرِ رعيتِهِ، مَا توليتُ أمرَ رجلينِ.

فلمَّا شَريتَ نفسَكَ فِي طَاعةِ الله تبارَكَ وتَعالَى ابتغاءَ مرضَاتِهِ، وأصبتَ منَ الحقّ قصدَه، وصبرتَ عَلَى مُرِّه؛ تجرّد لكَ الشَّيطان وَلَم يَكُنْ أحدٌ أثقل عَلَيْهِ وطأة منكَ، ومِن

أصحابِكَ، فاستمالكَ واستهوَاكَ، وأغوَاكَ، فغويت، وكفرتَ الَّذِينَ عذرَهُم اللهُ فِي كتَابِهِ من قعدة المُسْلِمِينَ وضَعفتِهم، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وقولُه الحقُّ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ثمَّ سماهم تَعَالَى أحسن الأسماء فقال: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾.

ثمَّ استحللتَ قتلَ الأطفَالِ، وَقَد نَهى رَسُولُ الله ﷺ عن قتلِهم، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾.

وقال سُبحَانَهُ: ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ و﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فتفضِيلُه المجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ لا يدفعُ مَن هُوَ دُونَ المُجاهِدِينَ منزلةً، أَوَ مَا سَمِعْتَ قولَهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ ﴾ فجعلهم من المُؤْمنِينَ.

ثم إنَّكَ لا تؤدِّي الأمانَةَ إِلَى من خَالفَكَ، واللهُ تَعَالَى قَدْ أمرَ أن تؤدُّوا الأماناتِ إِلَى أهلِهَا.

فاتَّقِ اللهَ، وانظرْ لنفسِكَ، واتَّقِ يومَ لا يجزي والدٌ عَن ولدِهِ، وَلَا مولودٌ هُوَ جَازٍ عَن والِدِه شيئاً، فإنَّ الله بالمرصَادِ، وحكمُه العدلُ، وقَوله الفَصلُ، والسَّلَامُ.

فكتَبَ نَافعٌ إِلَيْهِ:

أمَّا بعدُ: فَقَدْ أتانِي كتابُكَ تعظنِي فِيهِ، وتُذَكِّرنِي، وَتنصحُ لِي، وتزجرنِي، وتصفُ مَا كنتُ عَلَيْهِ منَ الحَقِّ، وَمَا كنتُ أوثرُهُ منَ الثَّوابِ، ومنَ الصَّوابِ، وأنا أسألُ اللهَ أن يجعلَنِي منَ القَومِ الَّذِينَ يستمعُونَ القَولَ فيتبعُونَ أَحْسَنَهُ، وَقَد عِبْتَ عليَّ مَا دِنت بِهِ منْ إكفارِ القعدِ، وقتلِ الأطفَالِ، واستحلَالِ الأمانَةِ منَ المخَالفِينَ، وسَأفسرُ لكَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تبارَكَ وتَعَالَى:

أمَّا هَؤُلَاءِ القعدُ فليسُوا كَمَن ذُكرَ عَلَى عَهدِ رسُولِ الله ﷺ؛ لأنَّهم كانُوا بمكَّةَ مقهُورِينَ محصُورِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَى الحربِ سَبيلاً وَلَا إِلَى الاتِّصالِ بالْمُسْلِمِينَ طريقًا.

وهَؤُلَاءِ قَدْ تفقَّهوا فِي الدِّينِ، وَقرأوا القرآنَ، والطَّريق لَهُم نهجٌ واضحٌ، وَقَد عَرفتَ مَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فيمَن كَانَ مثلهُم إذ قَالُوا: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ وَقَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ فأخبرَ بتعذرِهم وأنَّهم كذبُوا اللهَ ورسولَه، ثمَّ قَالَ: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فانظرْ إِلَى أسمائِهم وسماتِهم.

وأمَّا الأطفَالُ؛ فإنَّ نوحًا نبي الله كَانَ أعلمُ بالله منِّي ومنكَ، وَقَد قَالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ فسمَّاهُم بالكُفرِ، وهُم أطفَالٌ، وقبلَ أن يولدُوا.

فكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ فِي قومِ نوحٍ، وَلَا نقولهُ فِي قَومنا؟ والله تَعَالَى يقُول: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣)﴾ وهَؤُلَاءِ كمُشركِي العربِ لا تُقبلُ مِنْهُم جزيةٌ، وَلَيْسَ بيننا وبَيْنَهُم إلَّا السَّيفُ أو الإسْلَامُ.

وأمَّا استحلالُ أماناتِ من خَالفنَا؛ فإنَّ اللهَ تَعَالَى أحلَّ لنَا أموالَهُم كَمَا أحلَّ لنا دماءَهُم، حلالٌ طلقٌ، وأموالُهم فِيءٌ للمُسلمِينَ.

فاتَّقِ اللهَ، وراجعْ نفسَكَ، فإنَّه لا عُذرَ لكَ إلا بالتَّوبةِ، ولنْ يسعَكَ خُذلَانُنا والقُعودَ عنَّا، وتركَ مَا نهجنَاهُ لكَ مِن مقالِتِنا، والسَّلَامُ عَلَى من اتَّبعَ الحقَّ، وعملَ بِهِ.

وَكتَبَ إِلَى مَنْ بالبَصْرةِ مِنَ المَحْكِّمَةِ:

أمَّا بعدُ، فإنَّ اللهَ اصْطفَى لَكُم الدِّينِ فَلَا تَمُوتنَّ إلَّا وأنتُم مُسلمُونَ، إنَّكُم لتعلمُونَ أنَّ الشَّرِيعَةَ واحدةٌ، وأنَّ الدينَ واحدٌ، ففِيم المَقَامُ بَينَ أظهرِ الكفَّارِ تروْنَ الظُّلْمَ ليلاً ونهاراً،

وَقَد نَدبكُم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى الجِهادِ، فَقَالَ: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾، ولَم يَجعلْ لَكُم فِي التَّخلفِ عذرًا فِي حَالٍ مِنَ الأحوَالِ فقَالَ: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وإِنَّمَا عَذرَ الضعفاءَ والمَرضَى، والذِينَ لا يَجدُونَ مَا ينفقُونَ، ومَنْ كَانَتْ إقامتُه لعلَّةٍ، ثمَّ فضَّلَ عَلَيْهِم مع ذلك المُجاهِدين فقَالَ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

فَلَا تغترُّوا وتطمئنُوا إِلَى الدُّنيا فَإِنَّهَا غرّارةٌ مكّارةٌ، لذتُها نافذةٌ، ونَعيمُهَا بائدٌ، حُفَّتْ بالشَّهواتِ اغترَاراً، وأظهرت حبرةً، وأضمرتْ غبرةً.

فليسَ آكلٌ مِنْهَا أكلةً تسرُه، وَلَا شاربٌ مِنْهَا شربةً تؤنقه، إلَّا ورقى بِهَا درَجَةً إِلَى أجلِهِ، وتباعد بِهَا مسَافةً مِن أملِهِ، وإنَّمَا جعلَهَا اللهُ دارَ المُتزود مِنْهَا إِلَى النَّعيمِ المُقيمِ، والعَيشِ السَّليمِ.

فَلَن يرضَى بِهَا حَازِمٌ دارًا، وَلَا حَكِيمٌ قرَاراً، فَاتَّقُوا اللهَ، وتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيرَ الزَّادِ التَّقوَى، والسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبعَ الهدَى.

فَصلٌ

فلمَّا أظهرَ نافعٌ مقالتَه هَذِهِ، وانفردَ عَنِ الخَوَارِجِ بِهَا أقَامَ فِي أصحابِهِ بِالأَهْوَازِ يستعرضُ النَّاسَ، ويقتلُ الأطفالَ، ويأخذُ الأموالَ، ويجبي الخرَاجَ.

وبثَّ عمَّالَهُ فِي السَّوادِ، فارتاعَ لذلكَ أهلُ البصرَةِ، واجتمعَ مِنْهُم عشرةُ آلاف إِلَى الأحنفِ، وسألُوهُ أن يُؤمِّرَ عَلَيْهِم أميرًا يحميهِم مِنَ الخَوَارِجِ ويجاهدُ بِهِم؛ فأتَى عبدَ الله بنَ الحَارثِ بنِ نوفلِ بنِ الحَارثِ بنِ عبدِ المُطَّلبِ، وَهُوَ المُسمَّى بَبَّةُ، فَسَألَهُ أن يؤمِّرَ عَلَيْهِم أَمَيرًا يَحمِيهم، وببَّة أميرُ البصرَةِ يَوْمَئِذٍ مِن قبلِ ابنِ الزُّبيرِ، فأمَّرَ عَلَيْهِم مُسْلِمَ بن عُبَيْسِ بن كُرَيْز، وكانَ دَيِّنًا شُجَاعًا، فلمَّا خَرَجَ بِهم مِن جسرِ البَصْرَةِ أقبَلَ عَلَيْهِم.

وَقَالَ: أيُّهَا النَّاسُ، إنِّي مَا خَرَجْتُ لامْتيَار ذهبٌ وَلَا فضةٌ، وإنِّي لأحاربُ قومًا إنْ ظفرتُ بهم فَمَا وَرَاءهم إلَّا السُّيوفُ والرِّماحُ، فمَن كَانَ شأنُهُ الجِهادَ؛ فَلينْهَض، وَمَنْ أحبَّ الحياةَ فَليَرْجِعْ.

ذِكرَ مقتلَ نافعِ بنِ الأزرَقِ - رئيس الخوَارجِ -:

فرجعَ نفرٌ يَسِيرٌ، ومضَى الباقُونَ مَعَهُ، فلمَّا صَارُوا بدُولابَ خَرَجَ إِلَيْهِم نافعٌ وأصحَابُه، فاقتتلُوا قتالاً شَدِيدًا حتَّى تَكَسَّرتِ الرِّماحُ، وَعُقِرَتْ الخيلُ، وكثُرتِ الجِرَاحُ والقَتْلُ، وَتضَارَبُوا بالسُّيوفِ والعُمدِ، فقُتلَ ابن عُبيسٍ أمير أهلِ البصرةِ، وقُتل نافعُ بنُ الأزرَقِ أمير الخوَارجِ، وادَّعى قتلهُ سَلَامَةُ البَاهِلِي.

وكَانَ نافعٌ قَدْ اسْتَخْلَفَ عُبيدَ الله بنَ بشرِ بنِ المَاحُوزِ السّليطي اليربُوعِي، واسْتخلَفَ ابنُ عُبيسٍ الربيعَ بنَ عمرٍو الأجذَم الغَدانِي اليربُوعِي.

وكانَ الرئيسانِ مِن بنِي يَربُوع، فَاقْتتَلُوا بعدَ قتلِ ابنِ عُبَيْسٍ قتالاً شديدًا نيّفًا وعشرِينَ يومًا حتَّى قَالَ الرَّبيعُ لأَصْحَابِهِ: إنِّي رأيتُ البَارحةَ كَأنَّ يدِي الَّتِي أصيبتْ بكَابُل انحطتْ مِنَ السَّمَاءِ، فَاسْتَشْلَتنِي.

فلَمَّا كَانَ الغدُ قاتلَهُم إِلَى اللَّيلِ، ثمَّ عاودهُم القتَال، فقُتلَ، فتدافَعَ أهلُ البصرَةِ بَيْنَهُم حتَّى خَافُوا العَطَبَ؛ إذ لَم يَكُنْ لَهُم رَئيسٌ، ثمَّ أجمعُوا عَلَى الحجَّاجِ بن رئابِ الحِميرِيِّ، فأبَاهَا، فقيل لَهُ: ألَا تَرى رؤساءَ العَربِ، قَدْ اختَارُوكَ مِن بَيْنَهُم.

فَقَالَ: إِنَّهَا مَشؤُومةٌ، وَلَا يأخذُهَا أحدٌ إلا قُتلَ.

ثمَّ أخذَهَا فَلَمْ يزلْ يقاتلُ القَومَ بدُولابَ حتَّى التَقَى بعمرَانَ بنِ الحَارثِ الرَّاسبِي، وَذَلِكَ بعدَ أَن اقتتلُوا زهاءَ شَهرَينِ، فاختلفَا ضربتَينِ فخرَّا مَيّتينِ[(١)].

وقامَ حارثةُ بنُ بدرٍ الغدانِي بأمرِ أهلِ البصرَةِ بَعْدَهُ، وثبَتَ بإزَاءِ الخَوارجِ ينَاوشهُم القتالَ مناوشةً خفيفةً، ويرجي الأوقَاتِ انتظارًا لقدُومِ أميرٍ مِن قبلِ ببَّة يلِي حَرب الخَوَارِجِ.

وَهذِه الحربُ تسمَّى حَرْبَ دُولاب، وَهِيَ مِن حرُوبِ الخَوارجِ المَشهُورَةِ انتصفَ فِيهَا الخَوَارِجُ مِنَ المُسلِمِينَ، وانتصَفَ المُسْلمُونَ مِنْهُم، فلَمْ يَكُنْ غَالِبٌ وَلَا مَغلُوبٌ[(٢)].

---

(١) «الكَامِلِ فِي اللُّغَةِ والأدبِ» (٣/ ٢١٢ ـ ٢١٣)، «شَرْح نَهجِ البَلَاغَةِ» (٤/ ١٣٩ ـ ١٤١).

(٢) «شَرْح نَهجِ البَلَاغَةِ» (٤/ ١٤١).

فَصْلٌ

وَمِنْهُم عبدُ الله بنُ بشرِ بنِ المَاحُوزِ اليربُوعِي:

قامَ بأمرِ الخَوارجِ يومَ دُولابَ بعدَ قتلِ نافع بنِ الأَزْرقِ، وقامَ بأمرِ أهلِ البصرَةِ عمرُ بنُ عبيدِ الله بنِ معمرٍ التَّيمِي، ولَّاهُ عبدُ الله بنُ الزُّبيرِ ذَلِكَ، ولقِيَهُ كتَابهُ بالإمَارَةِ وَهُوَ يُرِيدُ الحَجَّ، وَقَد صَارَ إِلَى بَعضِ الطَّرِيقِ، فرجعَ فَأَقَامَ بالبَصْرَةِ.

وَوَلَّى أخَاهُ عثمانَ بنَ عبيدِ الله بنِ معمرٍ محَارَبَةَ الأزَارقَةِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِم فِي اثنى عشر ألفٍ، فَلقِيَهُ أهلُ البَصْرَةِ الَّذِينَ كَانُوا فِي وَجْهِ الأزَارِقَةِ، ومعَهُم حَارِثَةُ بنُ بدرِ الغداني يقوم بأمرهُم مِن غَيرِ ولايةٍ.

وكان ابنُ المَاحُوزِ فِي سوقِ الأهوَازِ، فلمَّا عبرَ عُثمانُ دُجيلاً نَهضَ إِلَيْهِ الخَوارجُ.

فَقَالَ عُثْمانُ لحَارِثَةَ: مَا الخَوَارِجُ إلا مَا أرَى؟!

فَقَالَ حَارِثَةُ: حَسْبُكَ بِهؤُلَاءِ.

قالَ: لا جرمَ لا أتغدَّى حتَّى أنَاجزَهُم.

فَقَالَ حَارِثَةُ: إِنَّهُم لا يُقاتَلونَ بالتَّعَسُّفِ فَأَبْقِ عَلَى نَفسِكَ وَجُندِكَ.

فَقَالَ: أبيتُم يَا أهلَ العِرَاقِ إلا جُبْنًا !، وأنتَ يَا حَارِثَةُ مَا عِلْمُكَ بِالحَربِ، وأنتَ والله لغيرِ هَذَا أَعْلَم ! يُعرّض لَهُ بالشَّرابِ، وكانَ حارثةُ بنُ بدرٍ صَاحِبَ شَرَابٍ، فغضبَ حارثةُ، واعتزَلَ، وقاتَلَهُم عُثْمانُ يومهُم إِلَى أن غَابَتِ الشَّمْسُ، وأجلَتِ الحَربُ عَنْهُ قَتيلاً، وانْهَزَمَ النَّاسُ، وأخذَ حَارِثَةُ بنُ بدرِ الرَّايةَ، وصَاحَ بِالنَّاسِ: أَنَا حَارِثَةُ بنُ بدرٍ، فَثَابَ إِلَيْهِ قَوْمٌ فَعبَرَ بِهِم دُجَيْلًا، وَبَلغَ قَتلُ عُثْمانَ البَصْرَةَ، فَقَالَ شَاعِرٌ مِنْ بنِي تَمِيمٍ:

مَضَى ابنُ عُبَيْسٍ صَابرًا غَيرَ جَازِعٍ ... وأعْقَبْنَا هَذَا الحِجَازِيُّ عثمانُ
فَأَرْعَدَ قبلَ اللُّقَا ابنُ مَعْمَرٍ ... وَأَبرَقَ والبَرْقُ اليَمانِيّ خوَّانُ
فضحّت قُرَيشٌ غثَّها وَسَمينهَا ... وَقِيلَ بنُو تَيم بن مُرَّة عَزْلَانُ
فَلَولَا ابنُ بدرِ العِرَاقينِ لَمْ يقُمْ ... بمَا قَامَ فِيهِ للعِرَاقينَ إنسَانُ

إِذَا قِيلَ مَن حَـامَ الحَقِيقَةَ أَوْمَأَتْ إِلَيْهِ مَعدٌّ بِالأَكفِّ وَقَحْطَانُ[١]

ووصلَ الخَبَرُ عَبدَ الله بنُ الزُّبيرِ، فكتَبَ إِلَى عُمَرَ بنِ عُبيدِ الله بنِ مَعْمَرٍ بِعَزلِهِ، وَوَلَّى الحَارِثَ بنَ عَبدِ الله بنِ أَبِي رَبِيعَةَ المَخْزومِي ـ المَعْرُوفَ بالقُبَاعِ ـ البَصْرَةَ، فقدِمَهَا، فكَتَبَ حَارِثَةُ بنُ بدرٍ يَسألَهُ الولَايَةَ والمَدَدَ، فأرَادَ توْليتَهُ، فقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ بَكرِ بنِ وَائلٍ: إِنَّ حَارِثَةَ لَيْسَ بِذَلِكَ، إِنَّمَا هُوَ صَاحِبُ شَرَابٍ.

وَكَانَ حَارِثَةُ مُشْتهرًا بِالشَّرابِ مُعَاقرًا للخَمْرِ، وَفِيهِ يقُولُ رجلٌ مِن قَومِهِ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ حَارِثَةَ بنَ بَدرٍ يُصَلِّي وَهْوَ أَكْفَرُ من حِمَارِ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ للفِتْيَانِ حَظًا وَحَظُّكَ فِي البَغَايَا والعُقَارِ[٢]

فكتب إِلَيْهِ القُبَاعُ: تُكْفَى حَرْبَهُم إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

فأَقَامَ حَارِثَةُ يُدَافعُهُم[٣] حتَّى تَفَرَّقَ أَصْحَابُهُ عَنْهُ، وبَقِيَ فِي خفٍّ مِنْهُم، فَأَقَامَ بنهرِ تيرى فَعَبَرَتْ إِلَيْهِ الخَوَارِجُ، فَهربَ هُوَ وَمَن تخلَّفَ مَعَهُ منْ أصحَابِهِ، وخرَجَ يركُضُ حتَّى أَتَى دُجَيْلًا فَجَلَسَ فِي سَفينةٍ، واتبعهُ جماعَةٌ مِن أصحَابِهِ، فكَانُوا مَعَهُ فِيهَا، وَوَافَاهُ رجلٌ مِن بنِي تَمِيمٍ عَلَيْهِ سِلَاحُهُ، والخَوارِجُ وَرَاءَهُ، وَقَد توسَّطَ حارِثَةُ دُجَيْلًا، فَصَاحَ بِهِ: يَا حَارِثَةُ لَيْسَ مِثْلِي يَضِيعُ.

فَقَالَ للمَلَّاحِ: قَرِّبْ فقرَّبهُ إِلَى جُرفٍ[٤]، وَلَا فرْضَة هناكَ. فَطفرَ بسلَاحِهِ فِي السَّفِينَةِ، فسَاخَتْ بالقَومِ جَمِيعًا، وَهَلَكَ حَارِثَةُ[٥].

(١) «الكَامِلِ فِي اللُّغَةِ والأدبِ» (٣/ ٢٢١ ـ ٢٢٢)، «شَرح نَهجِ البَلَاغَةِ» (٤/ ١٤١ ـ ١٤٢).

(٢) العُقار: الخمر.

(٣) «الكَامِلِ فِي اللُّغَةِ والأدبِ» (٣/ ٢٢٢)، «شَرح نَهجِ البَلَاغَةِ» (٤/ ١٤٢).

(٤) الجرف: ما أكله السيل من أسفل الوادي والنهر.

(٥) «الكَامِلِ فِي اللُّغَةِ والأدبِ» (٣/ ٢٢٣)، «شَرح نَهجِ البَلَاغَةِ» (٤/ ١٤٣).

وَرَوَى أَبو الفَرجِ الأَصْبهَانِي فِي كتَابِ «الأَغَانِي الكَبِيرِ»[١]: أنَّ حَارِثَةَ بنَ بَدرٍ لَمَّا عُقِدَتْ لَهُ الرِّيَاسَةُ، وسلَّمُوا إِلَيْهِ الرَّايَةَ، أَمرَهُم بالبيَاتِ، وَقَالَ لَهُم: إِذَا فَتحَ اللهُ عَلَيكُم فَللعربِيِّ زِيادةُ فريضتَينِ، وللموالِي زيادةُ فَرِيضَةٍ.

فندبَ النَّاس والْتَقوا، وَلَيْسَ بأحدٍ مِنْهُم طَرقٌ[٢]، وَقَد فشَتْ فِيهم الجِراحَاتُ، وَمَا تطأ الخيلُ إلا عَلَى القتلَى، فبينا هُم كَذَلِكَ إذ أَقبلَ جمعٌ من الشُّراةِ من جِهةِ اليَمامةِ، يقول المُكثِرُ: إنَّهم مائتَانِ، أو المُقلِلُ: إنَّهم أربعون، فَاجْتمَعُوا مريحُونَ مَع أصحَابِهم، فصَارُوا كوكَبة واحِدةً، فلمَّا رآهم حَارِثَةُ ركضَ بدَابتِه منهزِمًا، وَقَالَ لأَصْحَابِهِ:

كربِنُــوا و دَولبُـــوا   وحَيــثُ شئتُـــم فاذْهَبُوا

وقال:

أَيرُ الحِمَارِ فَرِيضَةٌ لِعَبيدِكُم   والخُصيتَانِ فَرِيضَةُ الأَعْرَابِ !

قولُهُ: (كرنبوا) أي: اطْلُبُوا كرنبى، وَهِيَ قريةٌ منَ الأَهوَازِ.

و(دَولبوا) أي: اطلبُوا دُولابَ، وَهِيَ ضَيعةٌ بَينَهَا وَبينَ الأَهوَازِ أَرْبعَة فَراسِخ.

قال: فتتَابعَ النَّاسُ عَلَى إِثرِهِ مُنهزِمِينَ، وتبَعَهُم الخوَارِجُ؛ فألقَى النَّاسُ أنفسَهُم فِي المَاءِ، فغرقَ مِنْهُم بدُجَيلِ الأَهوَازِ، خلقٌ كثيرٌ.

---

(١) «الأغاني» (٦/ ٣٨٨_٣٨٩).

(٢) أي: قوة.

فصل

وَمِنْهُم الزُّبيرُ بنُ عليٍّ السَّليطيُّ التَّميميُّ:

كَانَ عَلَى مقدِّمةِ ابنِ الماحوزِ وَهُوَ يُخاطَبُ بالخلافةِ، ويُخاطَبُ الزُّبيرُ بالإمرةِ، ووصلَ الزبيرُ بعدَ هلاكِ حارثةَ بنِ بدرٍ، وهربَ أصحابُهُ إِلَى البصرَةِ، فخافَهُ النَّاسُ خوفاً شديدًا، وَضجَّ أهلُ البصرَةِ إِلَى الأحنفِ فأتى القُباعَ، فَقَالَ: أَصْلَحَ اللهُ الأميرَ، إنَّ هَذَا العدوَ قَدْ غَلَبنَا عَلَى سَوَادِنَا، ولَمْ يبقَ الآنَ إِلَّا أن يحصرنَا فِي بلدِنَا حتَّى نموتَ هزلاً.

قَالَ: فسمُّوا لِي رَجُلاً يلِي الحربَ.

فَقَالَ الأحنفُ: لا أرى لها رَجُلاً إِلَّا المُهلَّبَ بنَ أبِي صُفرةَ.

فَقَالَ: أَوَ هَذَا رَأيُ جَمِيعِ أهلِ البصرَةِ؟ اجتمعُوا لِي فِي غدٍ، لأنظرَ، وجاء ابنُ الزُّبير حتَّى نزلَ عَلَى البصرَة، وعقد الجسر ليعبرَ عَلَيْهَا.

فَخَرَجَ أكثرُ أهلِ البصرَةِ، وانضمَّ إِلَى الزبيرِ جَمِيعُ كُور الأهوَازِ رغبةً ورهبةً، وَوافَاهُ البَصريُّونَ فِي السُّفنِ، وَعَلَى الدَّوابِ، فاسودتْ بِهِمُ الأرضُ.

فَقَالَ الزبيرُ - لَمَّا رآهُم -: أبى قومُناَ إلا كفرًا.

وأقامَ الخوارجُ بإزائِهِم، واجتمعَ الناسُ عِندَ القباعِ، وخَافُوا الخوَارجَ خوفاً شَديدًا، وكانُوا ثَلاثَ فرقٍ، سمّي قومٌ المهلب، وسمَّى قومٌ مالكَ بن مسمعٍ، وسمَّى قومٌ زيادَ بن معمرِ بن الأشرفِ العتكي.

فاختبرَ القُباع مَا عِندَ مالكِ وزيادِ فوجدَهُما متثاقلَينِ عَن الحربِ، وعادَ إِلَيْهِ مَن أشارَ بِهِما، وقالُوا: قَدْ رجعْنَا عَن رَأينا، مَا نَرى لها إلا المُهلَّب، فوجَّه إِلَيْهِ القباعَ فأتَاهُ، فَقَالَ لَهُ: يا أبا سعيدٍ قَدْ تَرَى مَا قَدْ رَهقنَا من نَهد العدو، وَقَد اجتمعَ أهلُ مِصرِكَ عَليكَ.

وقالَ لَهُ الأحنفُ: يا أبا سعيدٍ، إنَّا واللهِ مَا آثرنَاكَ، ولكنَّا لم نرَ من يقومُ مقامك.

ثمَّ قَالَ القُباع: - وَأومأ إِلَى الأحنفِ - إنَّ هَذَا الشيخَ لم يسمِّكَ إلا إيثاراً للدين والبقيا، وكلُّ مَن فِي مِصرِكَ مَادٌّ عينه عليك، راجٍ أن يكشفَ اللهُ عنهُ بكَ هَذِهِ الغُمَّةَ.

فَقَالَ المُهلَّبُ: لا حولَ وَلَا قوةَ إلا باللهِ إنِّي عِندَ نفسِي لدُونَ مَا وصفتُم، ولستُ آبيًا مَا دعوتُم إِلَيْهِ، لكِن لِي شروطٌ أشرطُهَا.

قَالُوا: قُلْ.

قَالَ: عليَّ أن أنتخبَ مَن أحببتُ.

فقَالَ الأحنفُ: ذَلِكَ لكَ.

قَالَ: ولي إمرةُ كُلِّ بلدٍ أغلبُ عَلَيْهِ.

قَالُوا: لكَ.

قَالَ: ولِي فِيءُ كُلِّ بلدٍ أظفرُ بهِ.

قَالَ الأحنفُ: لَيْسَ ذَلِكَ لكَ وَلَا لنَا، إنَّمَا هُوَ فِيءِ المُسْلِمِينَ، فإن سلبتهُم إيَّاه كنتُ كعدوِهِم، ولكِن لكَ أن تُعطِيَ أصحابَكَ مِن فِيءِ كُلِّ بلدٍ تغلبُ عَلَيْهِ مَا أحببتَ، وتُنفقَ مِنْهُ عَلَى مُحَاربَةِ عَدوكِ، فَمَا فضلَ عَنهُم كَانَ للمُسْلِمِينَ.

فَقَالَ المُهلَّبُ: لا حولَ وَلَا قوةَ إلا باللهِ العلِي العَظِيمِ، فمنْ لِي بِذَلِكَ.

قال الأحنفُ: نَحنُ وأميرُكَ وجماعَةُ مِصرِكَ.

قَالَ: قَدْ قبلتُ. فكتبُوا بَيْنَهُم بِذَلِكَ كِتَاباً، وَوُضِعَ عَلَى يَدِ الصَّلتِ بنِ حريثِ بنِ جابرِ الحَنفِي.

وانتخبَ المهلَّبُ من جَميعِ الأخماسِ، فبلغتْ نخبتُه اثني عَشرَ ألفًا، ونظرُوا فِي بيتِ المَالِ، فَلم يَكُنْ إلا مائتَا ألفِ درهمٍ، فعجزت، فبعثَ المُهلَّبُ إِلَى التَّجارِ، فَقَالَ: إنَّ تِجَارتكُم منذُ حولٍ قَدْ فسدتْ بانقطَاعِ مَوادِ الأهوَازِ وفارسٍ عنكُم فَهلموا فبايعُونِي، واخرجُوا معِي أوفيكُم حقُوقَكُم إنْ شَاءَ اللهُ، فبايعُوهُ وتاجرُوه، فأخَذَ مِنْهُم من المَالِ مَا أصلحَ بِهِ عسكرَهُ واتَّخذَ لأَصْحَابِهِ الخَفاتين(١) والراناتِ المحشوةِ بالصُّوفِ، وكانَ أكثرُ أصحَابِه رِجَالة.

(١) الخفتان: ثوب من القطن يُلبس فوق الدرع.

ثمَّ نَهضَ حتَّى إذا صَارَ بحذَاءِ القَومِ أمرَ بسفنٍ، فأُصلحتْ وأُحضرتْ، فلما ارتفعَ النهارُ حتَّى فرَغَ مِنهَا، ثمَّ أمرَ النَّاسَ بالعبُورِ، وأمَّرَ عَلَيْهِم ابنَهُ المُغِيرَةَ، فَخَرَجَ النَّاسُ فلمَّا قاربُوا الشَّطَّ، ونصبَ الجِسرَ وَقْتَ الظُّهرِ عَبرَ، فَلمْ يزلْ يُحاربهُم حتَّى اللَّيلِ، وكثُرَ القتلَى فِي الفِريقينِ.

فلمَّا كَانَ الغَدُ غادَاهُم، وَقَد كَانَ وجَّه بالأمسِ رَجُلًا من ضاحيةِ ابنِ سودِ بنِ مالكِ بن فهمٍ منَ الأزدِ من ثِقَاتِه وأصحَابه يرد المنهزمينَ؛ فمرَّ بِهِ عامرُ بنُ مسمعٍ فردَّه، فَقَالَ: إنَّ الأميرَ أذنَ لي فِي الانصرَافِ، فبعثَ إِلَى المهلَّبِ، فأعلمَهُ، فَقَالَ: دَعْهُ فَلَا حَاجَةَ لِي فِي مثلِهِ من أهلِ الجُبنِ والضَّعفِ.

ثمَ عادَ ابنُ المهلَّبِ فِي ثلاثةِ آلافٍ، وَقَد تفرَّقَ عَنْهُ أكثرُ النَّاسِ.

وَقَالَ لأَصْحَابِهِ: مَا بكُم مِن قلَّةٍ، أيعجزُ أحدكُم أن يلقِيَ رُمحَهُ، ثمَّ يتقدَّم فيأخذهُ؟

ففعلَ ذَلِكَ رَجلٌ من كندةَ، واتبعهُ قومٌ.

ثمَّ قَالَ المُهَلَّبُ لأَصْحَابِهِ: عدوا مخالي فِيهَا حجَارَة، وارمُوا بِهَا فِي وقتِ الغَفلَةِ، فإنَّها تصدُّ الفارسَ، وتصرعُ الراجلَ، ففعلُوا، ثمَّ أمرَ منادياً ينادِي فِي أصحَابِه يأمرهُم بالجدِّ والصَّبرِ وَيُطمعهُم فِي العدو، ففعلَ ذَلِكَ حتَّى إذا مرَّ ببنِي العدويةِ منْ بني مالكِ بنِ حنظلةَ ينادِي فيهِم فضربُوهُ.

فدعَا المُهلَّبُ بسيِّدِهِم وَهُوَ معاويةَ بنِ عمرٍو فجعلَ يركلهُ برجلِهِ.

فَقَالَ: أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ اعفنِي مِن أُمِّ كيسَانَ - والأُزدُ تسمِّي الركبةَ أم كيسَانَ -.

ثمَّ حملَ المُهلَّب وحَملُوا فاقتتلُوا قتالاً شديدًا، فجهدَ الخوَارِج، ونادى منادٍ مِنْهُم ألَا إنَّ المُهلَّبَ قَدْ قُتلَ، فركبَ المهلَّبُ برذونًا، وأقبلَ يركضُ بَينَ الصَّفينِ، وإنَّ إحدَى يديهِ لفي القباء وَمَا يشعرُ لها، وَهُوَ يصِيحُ: أنَا المهلَّبُ ! فسكنَ النَّاسُ بعدَ أن كانُوا قَدْ ارتَاعوا، وظنُّوا أنَّ أميرَهُم قَدْ قُتلَ، وكَلّ النَّاسِ مع العَصرِ، فصَاحَ المُهلَّبُ بابنِهِ المُغيرَةِ: تَقَدَّمْ، ففعلَ، وصاحَ بذكوَانَ مولَاهُ: قدِّم رايتَكَ، فَفَعلَ.

فَقَالَ لَهُ رجلٌ مِن ولدِهِ: إنَّكَ تُغَرِّرْ بِنَفسِكَ، فزبرهُ، وزَجَرَهُ وصَاحَ: يا بني سلَمَةَ آمركُم فتَعصُونني، فتقدمَ وتقدَّمَ النَّاسُ فاجتلدُوا واجتلدَ الناسُ أشدَّ جِلادٍ، حتَّى إذا كَانَ مَع المساء قُتلَ ابنُ المَاحُوزِ، وانصرفَ الخَوارجُ، وَلَم يشعرِ المهلَّبُ بقتلِهِ، فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: القوا لِي رَجُلًا جلدًا يطوفُ فِي القتلَى، فأشَارُوا عَلَيْهِ برجُلٍ مِن جرمٍ.

وقالُوا: إنَّا لَمْ نرَ رَجُلًا قطُّ أشَدّ مِنْهُ، فجعلَ يطوفُ وَمَعَهُ النِّيرَانُ، فجعَلَ إذا مرَّ بجريحٍ مِنَ الخَوَارِجِ، قَالَ: كافرٌ وَرَبِّ الكعبةِ، وأجهزَ عَلَيْهِ، وإذَا مرَّ بجريحٍ مِنَ المُسْلِمِينَ أمرَ بسقيهِ، وحملِهِ.

وأقامَ المُهَلَّبُ يأمرهُم بالاحتِرَاسِ حتَّى إذا كَانَ فِي نصفِ اللَّيلَةِ وجَّه رجلاً منَ اليحمد فِي عشرَة وصَارُوا إِلَى عَسكرِ الخَوارجِ فَإِذَا همُ قَدْ تحملُوا إِلَى أرجَان، فَرجعَ إِلَى المُهلَّبِ فأعْلَمَهُ فقَالَ: أنا لَهُمُ السَّاعةُ أَشَدّ خَوفاً؛ فاحذرُوا البيَاتِ.

ورُوِيَ عن شُعبةَ بنِ الحجَّاجِ؛ أنَّ المُهلَّبَ قَالَ لأَصْحَابِهِ يومًا: إن هَؤُلَاءِ الخوارجَ قَدْ يئسُوا منْ ناحيتِكُم إلَّا مِن جِهَةِ البيَاتِ، فَإِنْ يكُنْ ذَلِكَ فَاجْعَلُوا شعارَكُم "حم لا يُنصرُونَ"، فإنَّ رسولَ الله ﷺ كَانَ يأمرُ بِهَا.

ويُروى أنَّه كَانَ شعارَ عَلِيٍّ.

وَيُروَى أيضًا عَنِ الخَوَارِجِ، وَسَيَأتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

فلمَّا أصبحَ القومُ غَدوا عَلَى القتالِ، فأصَابُوا ابنَ المَاحُوزِ قَتِيلاً، ففِي ذَلِكَ يقولُ رَجُلٌ مِنَ الخَوَارِجِ:

بسِلّى وسِلبرى جَمَاجمُ فتيةٍ ... كِرَام وَصَرْعَى لَمْ تُوَسَّـدْ خُدُودهَا[1]

وقال آخرُ:

بسِلّى وَسِلبرى مصَارِعُ فِتْيَةٍ ... كِرَامٍ وعُقْرَى مِن كُمَيْتٍ ومِنْ وَرْدِ

---

(١) سِلى وسِلبرى: موضعان بالأهواز.

وقال رجلٌ مِن مَوالِي المُهلَّبِ: لقدْ صرعتُ يَوْمَئِذٍ بحجرٍ واحدٍ ثلاثة رميتُ بِهِ رَجُلًا فَصرعَهُ، ثمَّ رميتُ بِهِ رَجُلًا فاصبتُ بِهِ أصلَ أذنِه، ثمَّ أخذتُ الحجرَ فصرعتُ بِهِ ثالثاً، وَقَالَ فِي ذَلِكَ رجلٌ مِنَ الخَوَارِجِ:

أتَانَا بأحْجَـــارٍ ليَقْتُلَنَا بِهَـــا ... وَهَلْ تُقْتَلُ الأبطَالُ وَيْحَكَ بالحَجَرْ!

وقالَ رَجلٌ منْ أصحَابِ المُهلَّبِ فِي يومِ سِلى وسِلبِرى وقتل ابن المَاحُوزِ:

ويومَ سِلّي وسِلْبَرَى أحاطَ بِهِم ... منَّا الصَّوَاعِـــقِ مَا تُبقِي وَلَا تَذَرُ

حتَّى تَرَكْنَا عُبَيْـــدَ الله مُنْجَدِلاً ... كَمَا تَجَدَّلَ جِـــذْعٌ مَـــالَ مُنْقَعِرُ

ويُروى أنَّ رَجُلًا مِنَ الخَوَارِجِ يَوم سِلّى حمَلَ عَلَى رجلٍ مِن أصحَابِ المهلَّبِ، فلمَّا خالطَهُ بالرُّمحِ صَاحَ: يَا أمتَاهُ! فصاحَ بِهِ المُهَلَّبُ: لا كثَّرَ اللهُ مثلَكَ فِي المُسْلِمِينَ! فَضحكَ الخَارجِي وَقَالَ:

أُمُّكَ خيرٌ لـــكَ منِّي صَاحِبًا ... تُسقِيـــكَ مَحْضًا وتعُلُّ رَائبـــا

وكانَ المُغيرةُ بنُ المُهلَّبِ إذا نَظرَ إِلَى الرِّماحِ تَشَاجَرَتْ فِي وَجْهِه نكسَ عَلَى قَرَبُوسِ السَّرجِ[1]، وَحَمَلَ من تحتهَا، فبَرَاهَا بسَيفِهِ، وأثرَ فِي أصحَابِهَا فتحوميت المَيمنةُ من أجلِهِ، وكانَ أشدَّ مَا يكُونُ الحَربُ استعَاراً أشَدَّ مَا يكُونُ تَبسُّمًا.

وكانَ المُهلَّبُ يقول: مَا شهدَ معِي حَربًا قطُّ إلا رَأيتُ البشرى فِي وَجْهِهِ.

وَقَالَ رجلٌ مِنَ الخَوَارِجِ فِي هَذَا اليَومِ:

فإنْ تَكُ قتلَى يومَ سِلَّى تتَابَعَتْ ... فَكَمْ غَادَرَتْ أسيَافُنَا مِنْ قُمَاقِمِ

غَـدَاةَ نُكرُّ المَشْرَفيـــة فِيهِم ... بِسولَاف يومَ المَأزِقِ المُتَلَاحِمِ[2]

فَكَتَبَ المُهلَّبُ إِلَى الحَارثِ بنِ عَبدِ الله بنِ رَبيعةَ القِبَاع:

---

(١) أي: مُقدّمه.

(٢) «الكَامِلِ فِي اللُّغَةِ والأدبِ» (٣/ ٢٣٣ ـ ٢٣٥)، «شَرح نَهج البَلَاغَةِ» (٤/ ١٥٠ ـ ١٥٥).

أمّا بعدُ، فإنَّا لقينَا الأزَارقةَ المَارقةَ بحدٍّ وجدٍّ، فكَانَتْ فِي النَّاسِ جولةٌ، ثمَّ ثاب أهلُ الحفاظِ والصَّبرِ بنياتٍ صادقةٍ، وأبدانٍ شدادٍ، وسيوفٍ حدادٍ، فأعقَبَ اللهُ خيرَ عاقبةٍ، وجَاوزنَا بالنِّعمَةِ مقدارَ الأمَلِ، فصَارُوا دَريئةَ رِمَاحِنَا، وضَرَائبَ سُيوفنَا، وَقتلَ اللهُ أميرَهُم ابنَ المَاحُوزِ، وأرجو أنْ يَكُونَ آخرُ هَذِهِ النِّعْمَةِ كأَوَّلِهَا، والسَّلَامُ.

وَكتبَ إِليْهِ القباعُ:

قدْ قرَأتُ كتَابَكَ يَا أخَا الأزدِ، فرأيتُكَ قَدْ وُهبَ لكَ شرفُ الدُّنيا وعزُّهَا، وذُخرَ لكَ إنْ شَاءَ اللهُ ثوابُ الآخرَةِ وأجرُهَا، وَرَأيتُكَ أوثقَ حصُونِ المُسْلِمِينَ، وَهَادّ أركَانِ المُشركينَ، وذَا الرِّياسَةِ، وأخَا السِّياسَةِ، فاسْتدم الله بشكرِهِ يُتْمِمْ عَلَيْكَ نِعَمَهُ، والسَّلَامُ.

وَكَتبَ إِليْهِ أهلُ البَصرَةِ يهنؤونَهُ، ولمْ يكتبْ إِليْهِ الأحنفُ، ولكِن قَالَ: اقرأوا ﷺ، وقُولُوا لَهُ: أنا لكَ عَلَى مَا فَارقْتُكَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يقرأُ الكُتبَ، وَينظرُ فِي تَضاعيفِهَا، وَيَلْتَمِسُ كِتَابَ الأحنفِ فَلَا يرَاهُ.

فلمَّا لَمْ يرَهْ قَالَ لأَصْحَابِهِ: أمَا كَتَبَ أَبُو بحرٍ؟

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ: إنَّه حَمَّلنِي إليكَ رِسَالَةً، فأَبْلَغَهُ.

فَقَالَ: هَذَا أَحَبُّ إِليَّ مِن هَذِهِ الكُتُبِ[1][2].

(١) «الكَامِلِ فِي اللُّغَةِ والأدبِ» (٣/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦)، «شَرح نَهجِ البَلَاغَةِ» (٤/ ١٥٠ ـ ١٥٢).

(٢) فِي هامشِ الأصلِ: «بلغَ مُقَابلةً على أصْلِهِ، فصحَّ على يدِ مَالكِه عفَى اللهُ عنهُ».

فصلٌ

فِي مُبَايَعتِهِمْ للزُّبيرِ بنِ عَليٍّ المَذْكُورِ:

واجْتَمَعتِ الخَوَارِجُ بِأَرَّجَانَ، فبَايعُوا الزُّبيرَ بنَ عليٍّ، وَهُوَ مِن بني سُليطِ بنِ يربُوعٍ مِن رَهطِ ابنِ المَاحُوزِ، فرأى فيهم انكساراً شديدًا وضَعفًا بيِّنًا.

فَقَالَ لَهُم: اجتمِعُوا، فاجتمَعُوا، فَحَمِدَ اللهَ وأثنَى عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، ثمَّ أقبلَ عَلَيْهِم، فَقَالَ: إنَّ البلاء للمُؤمنِينَ تمحيصٌ وأجرٌ، وَهُوَ عَلَى الكَافرِينَ عقُوبةٌ وخِزْيٌ، وَإِنْ يُصَبْ مِنْكُم أَمِيرُ المُؤمِنِينَ، فَمَا صَارَ إِلَيْهِ خيرٌ مِمَّا خلفَ، وَقَد أصبتُم مِنْهُم مَسْلَمَةَ بن عُبَيْسٍ وَرَبِيعًا الأجذمَ، والحَجَّاجَ بنَ ثابتٍ، وحارثةَ بنَ بدرٍ، وأشجيتُم المُهَلَّبَ، وقتلتُم أخاهُ المُعَارِكَ، واللهُ تَعَالَى يقُولُ لإخوانِكُم مِنَ المُؤمنِينَ: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

فيومَ سِلَّى كَانَ لكُم بلاءً وتمحيصًا، ويومَ سُولافَ كَانَ لَهُم عُقُوبةً ونكالاً، فَلَا تغلبنَّ عَلَى الشُّكرِ فِي حينِهِ والصَّبرِ فِي وقتِهِ، وثِقُوا بأنَّكُم المُسْتخلَفونَ فِي الأرضِ، والعَاقِبَةُ للمُتَّقِينَ.

ثمَّ تحمَّلَ للمحاربة فِي نَحو المُهَلَّبِ، فَنَفحَهُمُ المُهَلَّبُ نَفْحَةً، فَرجعُوا وَأكمنُوا للمُهَلَّبِ - فِي غُمْضٍ مِنْ غمُوضِ الأرضِ[1]، بقربٍ مِن عَسكرِهِ - مائة فارسٍ ليغتالُوهُ، فسَارَ المُهَلَّبُ يومًا يطيفُ بِعَسْكرِهِ، وَيَتفقدُ سوادَهُ، فوقَفَ عَلَى جَبلٍ فَقَالَ: إنَّ مِنَ التَّدبيرِ هَذِهِ المَارقَةِ أن تكُونَ قَدْ أكمنَتْ فِي سَفحِ هَذَا الجَبلِ كمِينًا، فبعثَ عشرةَ فوارسٍ، فاطَّلعُوا عَلَى المِائَةِ.

---

(١) الغمض: المطمئن من الأرض.

فلمّا علمُوا بِهِمْ قَطعُوا القَنْطَرَةَ ونَجَوا، وانْكَسَفَتِ الشَّمْسُ وصَاحُوا بِهِم: يا أعداءَ الله! لَو قَامتِ القيَامَةُ لجَدَدْنَا وَنحنُ فِي جِهَادِكُم.

ثمَّ يئِسَ الزُّبيرُ مِن نَاحِيَةِ المُهلَّبِ، فضَربَ إِلَى ناحيةِ أصبهَانَ، ثمَّ كرَّ راجعًا إِلَى أرْجَانَ، وَقَد جمَّعَ جمُوعًا.

وكَانَ المُهلَّبُ يقولُ: كأنِّي بالزُّبيرِ، وَقَد جمَّعَ لكُم، فَلَا تَرْهَبُوهُم فتنخب قُلُوبكُم [١]، وَلَا تغفلُوا الاحترَاسَ فيطمعُوا فِيكُم، فجاؤوهُ من أرْجَانَ فألفوهُ مسْتَعِدًّا آخذًا بِأفوَاهِ الطُّرقِ، فحَارَبَهُم، فظهرَ عَلَيْهِم ظهُورًا بيِّنًا.

ففي ذَلِكَ يقولُ رَجُلٌ مِن بَنِي يَرْبُوع:

سَقَى اللهُ المُهَلَّبَ كُـلَّ غَيْثٍ ... مِـنَ الوَسْميِّ يَنْتَحِرُ انْتِحَارَا
فَمَا وَهَنَ المُهَلَّبُ يومَ جَاءَتْ ... عَوَابسُ خَيْلِهم تَبْغِي الغِوَارَا

وقالَ المُهَلَّبُ ـ يَوْمَئِذٍ ـ: مَا وَقفْتُ فِي مَضيقٍ مِنَ الحَربِ إِلَّا رَأيتُ أمَامِي رِجَالاً مِن بني الهجَيمِ بنِ عَمرِو بنِ تَمِيمٍ يُجَالدُون، كَأنَّ لحَاهُم أذْنَابُ العقَاعِقِ [٢]، وكانوا صبَرُوا معه فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ.

وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ المُهَلَّبِ مِن بنِي تَمِيم:

أَلَا يَا مَنْ لصَبٍّ مستهـــام ... قَرِيحُ القَلْبِ قَدْ مَلَّ المزونَا
لَهَانَ عَلَى المُهَلَّـــبِ مَا لقِينَا ... إِذَا مَا رَاحَ مَسْـرُورًا بَطِينَا
يجُرُّ السَّابِرِيَّ ونَحْنُ شُعْثٌ ... كأنَّ جُلُودَنَا كُسِيَتْ طَحِينَا

وَحَمَلَ يَوْمَئِذٍ الحُرَيشُ بنُ هلالٍ عَلَى قَيسِ الإِكَافِ، وكَانَ مِنْ أَنْجِدِ فُرسَانِ الخَوَارِجِ، فطَعَنَهُ فَدَقَّ صُلْبَهُ.

---

(١) أي: تضعف.

(٢) جمع عَقعق: وهو طائر، ذو لونين: أسود وأبيض، طويل الذنَب.

وقالَ:

قَيْسُ الإِكَافِ غَدَاةَ الرَّوْعِ يَعْلَمُنِي ... ثَبْـتَ المُقَام إذَا لاقَيْتُ أَقْرَانِي[(١)]

وقالَ أبُو الفَرَجِ[(٢)]: كَانَ رجالٌ مِن جَيشِ المُهلَّبِ يوم سِلَّى وَسِلَبْرَى صاروا إِلَى البَصْرَةِ، فذكرُوا أنَّ المُهَلَّبَ قَدْ أُصِيبَ فَهَمّ أَهْلُ البَصْرَةِ بالنُّقلَةِ إِلَى البَادِيَةِ حتَّى وَردَ كتَابُه بِالظَّفرِ، فَأَقَامَ النَّاسُ، وتَرَاجعَ مَنْ كَانَ مِنْهُم، فعِندَ ذَلِكَ قَالَ الأَحْنفُ: البَصْرَةُ بَصْرَةُ المُهَلَّبِ.

وَقَدِمَ رجلٌ منْ كِنْدَةَ يُعرَفُ بابنِ أَرْقَمَ، ينعِي ابنَ عمٍّ لَهُ، وَقَالَ: إِنِّي رَأيتُ رَجُلًا مِنَ الخَوَارِجِ قَدْ مَكَّنَ رُمحَهُ مِن صُلبِهِ، فلَمْ ينشبْ أنْ قدمَ المنعيُ سالمًا.

فقيلَ لَهُ ذَلِكَ.

فَقَالَ: صَدقَ ابنُ أَرْقَمَ، لَمَّا أَحْسَسْتُ بِرُمحِهِ بَينَ كَتِفيَّ صِحْتُ بِهِ: البَقِيَّةَ ! فَرَفَعَهُ، وتلَى ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وَوجَّه المُهَلَّبُ بِعَقِبِ هَذِهِ الوَقْعَةِ رَجُلًا مِنَ الأَزْدِ بِرَأسِ عبيدِ الله بنِ بشرِ ابنِ المَاحُوزِ إِلَى الحَارِثِ بنِ عَبدِ الله.

فلَمَّا صَارَ بِكربج[(٣)] دِينَارٍ، لَقِيَتهُ إِخْوة عبيد الله: حبيبٌ، وعبدُ المَلكِ، وعليُّ بنُ بشرِ بنِ المَاحُوزِ، فَقَالُوا لَهُ: مَا الخَبَرُ؟ - وَهُوَ لا يَعْرِفُهُمْ -.

فَقَالَ: قُتلَ ابنُ المَاحُوزِ وَهَذَا رأسُهُ معِي؛ فَوَثبُوا عَلَيْهِ، وقتلُوهُ، وصلبُوهُ، وَدَفَنُوا رَأسَ أَخِيهِمْ.

فلَمَّا وَلِيَ الحَجَّاجُ دَخلَ عَلَيْهِ عليُّ بنُ بشيرٍ، وكانَ وَسِيمًا جَسِيمًا، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟

---

(١) «الكامِل» (٣/ ٢٣٦ - ٢٣٨).

(٢) هذا كلام ابنِ المُبرِّدِ فِي «الكَامِلِ» (٣/ ٢٣٨).

(٣) موضع قُرب سوق الأهواز.

لمخبِرِ، فقتَلَهُ، ووهَبَ ابنَه الأزْهَرَ، وابنته لأهلِ الأزْدِي المقتُولِ، وكَانَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ بشيرٍ لهُمْ مُوَاصِلَة، فَوَهبُوهُمَا لهَا[١].

قالَ مُحَمَّدُ بنُ يَزِيدَ المُبَرِّدُ فِي كِتَابِ «الكَامِلِ»: وَلَمْ يَزَلِ المُهَلَّبُ يُقَاتِلُ الخَوَارِجَ فِي وِلَايَةِ الحَارِثِ القبَاعِ حتَّى عُزِلَ، وَولِي مُصْعبُ بنُ الزُّبيرِ فَكَتَبَ إِلَى المُهَلَّبِ أَنْ اقدِم عَلَيَّ، واسْتخلِف ابنَك المُغِيرَةَ، فأقبَلَ بَعدَ أنْ جمَعَ النَّاسَ، وَقَالَ لهُم: إنِّي قَدِ استخلفتُ المُغِيرَةَ عَلَيْكُم، وَهُوَ أَبُو صَغِيرِكُم رِقَّةً وَرَحْمَةً، وابنُ كَبِيرِكُم طَاعَةً وَبرًّا وتَبْجِيلًا، وَأَخُو مِثْلِهِ مُوَاسَاةً ومُنَاصحَةً، فَلْتحسُنْ لَهُ طَاعتكُم، وَلِيلِينَ لَهُ جَانبُكُم، فواللهِ مَا أردتُ صوابًا قَطُّ إِلَّا سَبَقَنِي إِليْهِ.

ثمَّ مضَى إِلَى مُصْعَبٍ، فَكَتَبَ مُصْعَبٌ إِلَى المُغيرةِ بِولَايته، وَكتبَ إِليْهِ إِنَّكَ إن لَمْ تَكُنْ كَأبِيكَ فإنَّكَ كافٍ لما ولِّيت، فشَمِّرْ واتزرْ واجْهَدْ واجْتَهِدْ.

ثمَّ شَخَصَ مُصعبٌ إِلَى المذارِ[٢]، فَقَتَلَ أَحْمَدَ بنَ شميط، ثمَّ إِلَى الكُوفَةِ فقتلَ المُختَارَ.

وَقَالَ للمُهَلَّبُ: أشِرْ عليَّ برجُلٍ أجعَلَهُ بيني وبينَ عبدِ الملكِ.

فقالَ: أذْكُرُ لكَ وَاحدًا منْ ثلاثةٍ: محمَّدَ بنَ عميرِ بنِ عطاردٍ الدَّارمِيَّ، أو زِيَادَ بنَ عمرٍو الأشْرَف العتكِيَّ، أو دَاودَ بنَ قَحْذَمٍ.

قَالَ: أوَ تكْفِينِي؟

قَالَ: أكْفِيكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، فشَخَصَ فولَّاهُ الموصلَ، فَخَرَجَ إليهَا[٣].

وصَارَ مُصْعَبٌ إِلَى البصرَةِ؛ لينفذَ إِلَى أخِيهِ بمكَّةَ، فشاور النَّاسَ فِيمَن يستكفِيهِ أمرَ

---

(١) «الكَامِل» (٣/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩).

(٢) بلدة.

(٣) «الكَامِل» (٣/ ٢٣٩).

الخَوَارِجِ، فقال قومٌ: ولِّ عبد الله بن أبى بكرة، وقال قومٌ: ولِّ عمر بن عبيد الله بن معمر، وقال قومٌ: ليس لهم إلا المُهلّب؛ فاردُده إليهم.

وبلغت المشورة الخوارج؛ فأداروا الأمرَ بَيْنَهُم. فَقَالَ قطريُّ بنُ الفُجَاءَةِ المازِنِي - وَلَمْ يَكُونُوا أمَّرُوهُ عَلَيْهِم بَعْدُ -: إنْ جَاءَكُم عبدُ الله بنُ أبِي بكرَةَ أتاكُم سيِّدٌ سميحٌ كريمٌ جوادٌ مضيِّعٌ لعَسكَرِهِ، وَإِنْ جَاءَكُم عُمربنُ عبيدِ الله أتاكُم فارسٌ شجاعٌ بطَلٌ جادٌّ، يقاتِلُ لدينِه، ولِمُلكِهِ وبطبيعةٍ لمْ أرَ مِثْلَهَا لأحدٍ، فَقَدْ شهدتُه فِي وقَائعَ فَمَا نُودِيَ فِي القَومِ لحَربٍ إلَّا كَانَ أولَ فَارسٍ، حتَّى يشدَّ عَلَى قِرنِه فيضربَه، وإن ردَّ المُهَلَّبُ فَهُوَ مَنْ عرفتمُوهُ؛ إذا أخذتُم بطَرَفِ الثَّوبِ أخذَ بطرفِهِ الآخر، يمده إذَا أرسلتمُوه، ويرسله إذَا مددتمُوه، لا يَبْدَؤُكُم إلَى أن تبدأوه، إلَّا أن يرَى فرصةً فينتهزَهَا، فَهُوَ: الليثُ المبر[1]، والثعلبُ الرَّواغُ، والبلاء المقيمُ.

فولَّى مصعبٌ عَلَيْهِم عمر بنَ عبيدِ الله بن معمرٍ، ولَّاه فَارسَ، والخَوَارِجُ بأرجَانَ يومئذٍ، وعَلَيْهِم الزُّبيرُ بنُ عَلِيٍّ السّليطِيُّ، فَشخصَ إِلَيْهِم فقاتلَهُم وألحَّ عَلَيْهِم حتَّى أخرَجَهُم مِنْهَا، وألحقهُم بأصبهَانَ، فلمَّا بلغَ المُهلَّبُ أنَّ مُصْعبًا ولَّى حربَ الخَوارِجِ عمر بنَ عبيدِ الله، قَالَ: رَمَاهُم بفارسِ العَرَبِ وفتَاهَا.

فجمعَ الخَوارجُ وأعدُّوا واستعدُّوا ثمَّ أتوا سَابُورَ، فَسَارَ إِلَيْهِم حتَّى نزلَ مِنْهُم عَلَى أربعةِ فَرَاسِخ.

فَقَالَ مَالِكُ بنُ أبِي حسان الأزْدِيُّ: إنَّ المُهلَّبَ كَانَ يُذْكِي العُيونَ، ويَخَافُ البيات، وَيَرْتَقِبُ الغَفْلَةَ، وَهُوَ أَبْعَد مِن هَذِهِ المَسَافَةِ مِنْهُم.

فَقَالَ عمر: اسْكُتْ خَلَعَ اللهُ قَلْبَكَ ! أتراكَ تَمُوتُ قبْلَ أجَلِكَ ! وأقَامَ هُنَاكَ.

فلمَّا كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ بيَّتَهُ الخَوَارِجُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِم فَحَارَبَهُم فَلَمْ يَظفَرُوا مِنْهُ بشَيءٍ، فَأقبلَ عَلَى مَالكِ بنِ أبِي حسان، فَقَالَ: كَيْفَ رَأَيْتَ؟

---

(١) أي: الغالب.

فَقَالَ: قَدْ سَلَّمَ اللهُ، ولم يَكُونُوا يطمعُونَ فِي مثلِهَا مِنَ المُهلَّبِ.

فَقَالَ: أمَا إنَّكُم لَو نَاصحتمُونِي مُنَاصَحتِكُم للمُهَلَّبِ لرَجَوتُ أن أنفي هَذَا العَدوَّ، ولكنَّكُم تَقُولُونَ: قُرشِيٌّ حِجَازِيٌّ بعيدُ الدَّارِ، خيرُهُ لغَيْرِنَا. فتقَاتلُونَ مَعِي تَعْذِيرًا!

ثمَّ زحفَ إِلَى الخَوَارِجِ مِن غَدِ ذَلِكَ اليَومِ، فقَاتَلهُم قتالاً شديدًا حتَّى ألجَأهُم إِلَى قَنطرَةٍ، فتكَاثفَ النَّاسُ عَلَيْهَا حتَّى سقطَتِ، فَأَقَامَ فأصْلَحَهَا،ثمَّ عبرَ وَتَقَدَّمَهُ ابنُه عبيدُ الله بنُ عمر- وأمُّه مِن بنِي سهمِ بنِ عمرِو بنِ هصيصِ بن كعبٍ - فقَاتَلَهُم حتَّى قُتلَ.

فَقَالَ قَطريٌّ للخَوَارِجِ: لا تقاتلُوا عمرَ اليَومَ، فإنَّه موتورٌ قَدْ قتلتُم ابنَهُ، ولم يعلمْ عمر بقتلِ ابنِه حتَّى أفضَى إِلَى القَومِ، وكانَ مَع ابنِه النُّعمَانُ بنُ عبادٍ، فصَاحَ به عمر: يَا نعمانُ أين ابني؟

قَالَ: احتسبه، قَد استُشهدَ صَابرًا مُقبلاً غيرَ مُدبرٍ.

فَقَالَ: إنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعُونَ.

ثمَّ حَمَلَ عَلَى الخَوارجِ حَمْلَةً لَم يُرَ مثلُهَا، وَحَمَلَ أصحَابُهُ لِحَمْلتِهِ، فقتَلُوا فِي وجهِهِم ذَلِكَ تِسعِينَ رَجُلًا مِنَ الخَوَارِجِ، وَحَمَلَ عَلَى قطريٍّ فَضَرَبَهُ عَلَى جَبينِه فَفَلَقَهُ، وانهَزَمَتِ الخَوَارِجُ، وانتهَبَهَا.

فلمَّا اسْتقرُّوا وَرَأَوْا مَا نَزَلَ بِهِمْ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لكُم، وَأُشيرُ عَلَيْكُم بالانصرَافِ؟! فجعَلُوهُ حِينَئِذٍ من وجُوههم حتَّى خرَجُوا مِن فارسَ.

وتلقَّاهُم مِن ذَلِكَ الوَقتِ الفرز بنُ مهزمِ العَبْدِيّ فسَأَلُوهُ عَن خَبرِهِ، وأرَادُوا قتلَهُ، فأقبلَ عَلَى قَطرِيٍّ فَقَالَ: إنِّي مُؤمنٌ مُهاجِرٌ.

فسَأَلُوهُ عَن أقَاوِيلِهِم، فَأَجَابَ إِلَيْهَا، فَخَلَّوا عَنْهُ، فَفِي ذَلِكَ يقُولُ فِي كَلِمَةٍ لهُ:

فَشَدُّوا وِثَاقِي ثُمَّ أَلْجَوْا خصُومَتِي ... إِلَى قَطَــرِيٍّ ذِي الجَبِينِ المُفَلَّقِ

وَحَاججتُهُم فِي دِينِهِمْ فَحَجَجْتُهُمْ ... وَمَا دِينهُمْ غَيْرُ الهَوَى والتَّخَلُّقِ

ثمَّ رَجَعُوا وتكَانفُوا[(١)]، وعَادُوا إِلَى نَاحيةِ أرْجَانَ، فسَارَ إِلَيْهِم عمر بنُ عبيدِ الله، وكَتبَ إِلَى مُصْعَبٍ:

أمَّا بَعدُ، فإنِّي لَقِيتُ الأَزَارِقَةَ، فَرَزقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عبدَ الله بنَ عمر الشّهادَةَ، وَوَهبَ لَهُ السَّعادةَ، وَرُزقنَا عَلَيْهِم بَعدُ الظَّفَر، فتفرقُوا شَذرَ مَذر، وَبَلَغتني مِنْهُم عَوْدَةٌ، فيَمَّمتهُم، وبِالله أَسْتَعِينُ، وَعَلَيْهِ أَتَّكِلُ.

فسَارَ إِلَيْهِم وَمَعَهُ عَطيةُ بنُ عمرٍو ومُجَاعَةُ بنُ مسعرٍ، فالْتَقوا، فألحَّ عَلَيْهِم حتَّى أَخرجَهُم، وانفردَ مِن أصحَابِهِ، فعمدَ إلى أربعةَ عشرَ رَجُلًا مِن مذكُورِيهم وشجعَانِهم، وَفِي يدِهِ عمودٌ لا يضربُ بِهِ رَجُلًا إِلَّا صَرَعهُ، فركضَ إِليْهِ قَطريٌّ عَلَى فَرسٍ طَمِرٍ[(٢)]، وعمرُ عَلَى مهرٍ؛ فاستعْلَاهُ قَطريٌّ بقوَّةِ فَرسِهِ حتَّى كادَ يَصْرَعُهُ؛ فبصُر به مجاعَةُ، فأسرعَ إِليْهِ، فصَاحَتِ الخَوَارِجُ: يا أَبَا نعَامَةَ إنَّ عدوَّ الله قَدْ رهقَكَ، فانحطَّ قطريُّ عَلى قَرْبُوسِهِ وَطَعَنَهُ مجاعَةُ وَعَلَى قَطريٍّ درعَانِ فَهَتكَهُمَا، وأسرَعَ السِّنَان فِي رأسِ قَطريٍّ، فَكَشَطَ جِلْدَهُ، ونجَا.

وارْتَحَلَ القَومُ إِلَى أَصْبَهَانَ، فأقامُوا بُرْهَةً، ثمَّ رَجَعُوا إِلَى الأهوَاز، وَقَد ارتحلَ عمر بنُ عُبيدِ الله إِلَى إِصْطَخْرَ؛ فأمَرَ مُجَاعَةَ فَجَبَى الخَرَاجَ أسبُوعًا، فَقَالَ لَهُ: كمْ جبيتَ؟

قَالَ: تِسْعَمَائة ألفٍ.

قَالَ: هِيَ لَكَ.

وَقَالَ يَزِيدُ بنُ الحَكَمِ لُمجاعَةَ:

وَدَعَاكَ دَعْوَةَ مُرْهَـــقٍ فَأَجَبْتَهُ ... عمر وَقَدْ نَسِيَ الحَيَاةَ وضَاعَا

فَرددتَ عَاديةَ الكَتِيبَةِ عن فتىً ... قَـــدْ كَادَ يُتْرَكُ لَحمَهُ أَوْزَاعَا[(٣)]

---

(١) اجتمعوا.

(٢) الطويل القوائم، الخفيف.

(٣) «الكَامِل» (٣/ ٢٤٠ ـ ٢٤٢).

قال[١]: ثمَّ عُزِلَ مُصْعبٌ وَوَلّى عَبدُ الله بنُ الزُّبيرِ العِرَاقَ ابنَهُ حَمزَةَ بنَ عبدِ الله بنِ الزُّبيرِ فمَكَثَ قَلِيلاً، ثمَّ أُعيدَ مصعبٌ إِلَى العَرَاقِ، والخَوَارِجُ بأطرَافِ أصْبهَانَ، والوَالِي عَلَيْهَا عَتَّابُ بنُ ورقَاءَ الرِّيَاحِي.

فَأَقَامَ الخَوَارِجُ هُناكَ يجبُونَ شيئًا مِنَ القرَى، ثمَّ أقبلُوا إلى الأهوَازِ منْ ناحيةِ فارسَ، فكتبَ إِلَى عمر بنِ عُبيدِ الله: مَا أنْصَفْتَنَا، أقمتَ بفارسٍ تجبِي الخراجَ، ومثل هَذَا العدوِّ يجتازُ بكَ لا تُحاربهُ، واللهِ لَو قَاتلتَ ثمَّ هُزمتَ؛ لكَانَ أعذرَ لكَ.

وخرجَ مصعبٌ منَ البَصرَةِ يُريدُهُم وأقبلَ عمر بنُ عبيدِ الله يريدُهُم، فَتنحَّى الخَوَارِجُ إِلَى السُّوسِ.

ثَمَّ أَتَوْا إِلَى المَدَائنِ وبسطُوا فِي القَتلِ، فَجَعلُوا يقتلُونَ النِّساءَ والصِّبيانَ حتَّى أتَوْا المذارَ فقتلُوا أحمرَ طَيِّءٍ، وكانَ شُجَاعًا وَكَانَ مِن فُرسَانِ عُبيدِ الله بنِ الحرِّ.

وَفِي ذلك قولُ الشَّاعِرِ:

تَرَكْتُمْ فَتى الفِتْيانِ أَحْمَرَ طَيِّءٍ ... بَسَاباطَ لَمْ يَعْطِفْ عَلَيْهِ خَلِيلُ

ثمَّ خرَجُوا عَامدِينَ إِلَى الكُوفَةِ، فلمَّا خالطُوا سوَارهَا، وَوَاليهَا الحَارِثُ بنُ القباعِ تثَاقَلَ عَن الخرُوجِ، وكَانَ جبانًا، فَذَمَرَهُ[٢] إِبْرَاهِيمُ بنُ الأَشْتَرِ، ولامَهُ النَّاسُ، فَخَرَجَ مُتَحَامِلاً حتَّى أتى النُّخَيْلَةَ.

ففِي ذَلِكَ يقُولُ الشَّاعِرُ:

إنَّ القباعَ سَارَ سَيرًا نُكرا ... يَسِيرُ يَومًا ويُقيم شَهرا !

وجعلَ يعدُ النَّاسَ الخرُوجَ، وَلَا يخرجُ، والخَوَارِجُ يعيثُونَ، حتَّى أخذُوا امرأةً فقتلُوا ابنَهَا بَينَ يدِيهَا، وَكَانتْ جَمِيلَةً فأردُوا قتلَهَا، فَقَالتْ: أتقتلُونَ مَن يُنشأُ فِي الحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيرُ مُبِينٍ.

(١) فِي «الكَامِل» (٣/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤).

(٢) أي: لامه.

فَقَالَ قائلٌ مِنْهُم: دَعُوهَا.
قَالُوا: قَدْ فَتَنَتْكَ.

ثَمَّ قدَّمُوهَا فقتَلُوهَا، وقرَّبُوا امرأةً أخرَى وَهِيَ بِإزاء القباع والجِسْرُ مَعْقُودٌ بَيْنَهُم، فقطعَ القباعُ الجِسْرَ وَهُوَ فِي سِتَّةِ آلافٍ، والمرأةُ تَسْتَغِيثُ وَهِيَ تقُولُ: علَامَ تقتلونني، فواللهِ مَا فَسقْتُ وَلَا كفرْتُ وَلَا زنيْتُ؟!

والنَّاس ينقلبُونَ إِلَى القتَالِ، والقباعُ يمنعُهُم، فلمَّا خافَ أن يعصوهُ أمرَ عِندَ ذَلِكَ بقطعِ الجِسرِ، فَأَقَامَ بَينَ دَبِيرَى وَدباهَا خَمْسَةَ أَيَّامٍ، والخَوَارِجُ بقُربِه، ويقُولُ للنَّاسِ فِي كُلِّ يومٍ: إِذَا لقيتُم العَدوَّ غدًا فأثبتُوا أقدامكم واصبِرُوا، فإنَّ أولَ الحَربِ التَّرامِي، ثمَّ إشرَاع الرِّمَاحِ، ثمَّ السَّلةُ، فَثكِلَتْ رَجُلًا أمُّه فر من الزَّحْفِ.

فَقَالَ بعضُهُم لَمَّا أكثرَ عَلَيْهِم: أمَّا الصِّفَةُ فَقَدْ سَمِعْنَاهَا، فَمتَى يقَعُ الفِعْلُ؟!

وقالَ الرَّاجِزُ:

إِنَّ القباعَ سَارَ سَيرًا مَلْسَا ... بَينَ دبَاهَا وَدَبِيرى خَمْسَا

وأخذَ الخَوَارِجُ حَاجتَهُم، فكَان شأنُ القباعِ التَّحصن مِنْهُم، ثمَّ انصرَفُوا ورجعَ إِلَى الكُوفَةِ، وصَارُوا مِن فورِهِم إِلَى أصبهَانَ، فبعثَ عتَّابُ بنُ ورقَاءَ الرِّيَاحِي إلى الزُّبيرِ بنِ عليٍّ: أنَا ابنُ عمِّكَ، ولستُ أراكَ تقصدُ فِي انصرَافِكَ من كلِّ حربٍ غيرِي، فبعثَ إِلَيْهِ الزُّبيرُ: إن أدنَى الفَاسِقِينَ وأبعدَهُم فِي الحقِّ سوَاء.

فأقَامَ الخَوَارِجُ يغادُونَ عتَّابَ بنَ ورقَاءَ القتَالَ، ويراوحُونَهُ حتَّى طَالَ عَلَيْهِم المقَامُ، ولم يظفرُوا بشيءٍ، فلمَّا كثُرَ ذَلِكَ عَلَيْهِم انصرَفُوا لا يمرُّونَ بقريةٍ بَينَ أصبهانَ والأهوازِ إلَّا استبَاحُوهَا، وقتلُوا مَنْ فِيهَا.

وشَاورَ مُصعبٌ الناسَ، فأجمعَ رَأيهم عَلَى المُهلَّبِ؛ فبلغَ الخَوَارجُ مشَاورُتهم.

فَقَالَ قَطريٌّ: إن جاءَكُم عتَّاب بنُ ورقاءٍ فَهُوَ فاتِكٌ، يطلعُ فِي أوَّلِ المقَنبِ[1]، وَلَا يظفرُ

(١) جماعة الخيل.

بكثيرٍ، وإن جَاءَكُم عمر بنُ عبيدِ الله ففَارسٌ يقدمُ، إمَّا عَلَيْهِ وإمَّا لَهُ، وإن جَاءَكُم المُهلَّبُ فرجلٌ لا ينَاجزُكم حتَّى تناجزُوهُ، ويأخذُ مِنكُم، وَلَا يُعطِيكُم، فَهُوَ البَلاءُ المُلازِمُ، والمكرُوهُ الدَّائمُ.

وعزمَ مصعبٌ عَلَى تَوجِيه المُهلَّبِ، وأن يَشخصَ هُوَ لحربِ عبدِ الملكِ، فلمَّا أحسَّ بِهِ الزبيرُ خَرَجَ إِلَى الرَّي - وبِها يزيدُ بنُ الحَارثِ بن رؤيم - فحَارَبَهُ، ثمَّ حَصَرَهُ، فلمَّا طالَ عَلَيْهِ الحِصَارُ خَرَجَ إِلَيْهِ، فكَانَ الظَّفرُ للخَوَارِجِ، فقُتلَ يَوْمَئِذٍ يزيدُ بنُ رؤيمٍ، ونَادَى يزيد ابنهُ حَوْشَبًا ففرَّ عَنْهُ وعن أمِّه لطيفة، وَقُتلت مَع بعلِهَا يزيد يومئذٍ.

وقالَ الشَّاعرُ:

مَوَاقِفُنَا فِي كُـلِّ يَومِ كَرِيهــةٍ ... أَسرُّ وأشفَى مِـنْ مَوَاقـف حَوْشَبِ
دعَـاهَ أَبُـوهُ والرِّمَـاحُ شوارعٌ ... فَلَـمْ يَسْتَجِبْ بَل رَاغَ تروَاغ ثَعْلَبِ
ولَو كَانَ شُهمَ النَّفسِ أو ذَا حَفِيظَةٍ ... رَأَى مَا رَأى فِي المَوتِ عِيسَى بنُ مُصْعَبِ

وقالَ آخرُ:

نَجّى حَليلَتَـهُ وَأَسْلَمَ شَيْخَـهُ ... نَصْبَ الأَسِنَّةِ حَوْشَـبُ بنُ يَزِيـدَ

قال: ثمَّ انْحطَّ الزُّبيرُ بأصفهَانَ فحصرَ بِهَا عتَّاب بنُ ورقاءَ سبعةَ أشهرٍ، وعتَّاب يجَارِيه فِي بعضهنَّ، فلمَّا طالَ بِهِ الحصَارَ، قَالَ لأَصْحَابِهِ: مَا تنتظرونَ؟ والله مَا تؤتونَ عن قلَّةٍ، وإنكُم لفرسَان عشيرتكُم، ولقَدْ حاربتمُوهُم مرارًا فانتصفتُم مِنْهُم، وَمَا بقِيَ مع هَذَا الحصَار إِلَى أن تفنَى ذخائرُكم فيموت أحدكُم فيدفنهُ أخُوه، ثمَّ يموتُ أخُوه فَلَا يجدُ من يدفنهُ، فقاتِلُوا القومَ وبكُم قوة قبل أن يضعفَ أحدكُم عن أن يمشِيَ إِلَى قِرنه، فلمَّا أصبحَ صلَّى بِهم الصبحَ، ثمَّ خَرَجَ إِلَى الخوَارجِ وهم غارُّونَ، وَقَد نصبَ لواءَ لجاريةٍ لَهُ يقالُ لهَا: يَاسمِينُ.

فقَالَ: مَن أرادَ البقَاءَ فليلحقْ بلوَاءِ ياسمِينَ، ومنْ أرادَ الجهادَ فليخرجْ معِي، فَخَرَجَ فِي ألفينِ وسبعمِائةِ فارسٍ، فلم يشعرْ بِهم الخوارجُ حتَّى غشوهُم، فقَاتلُوهُم بجدٍ لم يرَ الخوارجُ مثلَهُ، فعقرُوا مِنْهُم خلقًا كثيرًا، وقُتلَ الزبيرُ بنُ عليٍّ، وانهزمتِ الخَوارجُ، فلم

يتبعُهُم عتَّاب، ففي ذَلِكَ يقُولُ القَائِلُ:

ويـــــوم بِجيٍّ تلافيتَـــه   وَلَولَاكَ لاصْطلَم العَسْكَرُ [١]

وقال آخر:

خَرَجْتُ مِنَ المَدِينَةِ مُسْتميتا   وَلَمْ أكُ فِي كَتِيبَـــةِ يَاسمِينَا

أليسَ مِنَ الفضائلِ أن قَوْمي   غَـدَوا مُسْتَلْئِمِينَ مُجَاهِدِينَا

وَقَالَ: وتزعمُ الرُّواةُ أنَّهُم فِي أيَّامِ حِصَارهِم كَانُوا يتواقفُونَ ويحملُ بعضُهُم عَلَى بعضٍ، ورُبَّمَا كَانَتْ مُوَاقفةً بغيرِ حَربٍ، ورُبَّمَا اشْتَدتِ الحَربُ بينَهُم [٢].

وكانَ رَجلٌ مِن أصحَابِ عتَّاب يقالُ لَهُ شريحٌ يُكنَّى أبا هُرَيْرَةَ إذَا تناجزَ القومُ مَع المَسَاءِ نادَى بالخَوَارِجِ وبالزُّبيرِ:

يا ابنَ أبِي المَاحُوزِ والأشرَارِ   كَيْفَ تَرَوْنَ يَا كِلَابَ النَّارِ

شـــدَّ أبِي هُرَيْرَةَ الهـــرَّار   يهُرُّكُم بِاللَّيلِ والنّهـــارِ

ألَمْ تروا جيّـــا عَلَى المِضمَارِ   تُمسِي منَ الرَّحمَنِ فِي جِوَارِ

فغَاظَهُم ذَلِكَ، فكمَنَ لَهُ عبيدَة بنُ هلالٍ فضرَبهُ بالسَّيفِ واحتمَلَهُ أصحَابُهُ، وظنَّتِ الخوَارِجُ أنَّه قَدْ قُتِلَ، فكَانُوا إذَا توَاقفُوا نادَوهُم: مَا فعَلَ الهرَّارُ؟

فيَقُولُونَ: مَا بِهِ مِنْ بَأسٍ ! حتَّى برئَ من علته؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِم، وَقَالَ: يَا أعْدَاءَ الله أترَوْنَ فِيَّ بَأسًا.

فصَاحُوا بِهِ: قَدْ كُنَّا نَرَى أنَّكَ قَدْ لحِقتَ بأمِّكَ الهَاوِيةِ إِلَى النَّارِ الحَامِيةِ [٣].

(١) جى: مدينة بقُرب أصفهان.

(٢) المواقفة: أن يقفوا تجاه بعض.

(٣) «الكَامِل» (٣/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥).

فَصْلٌ

وَمِنْهُم قَطرِيُّ بنُ الفُجاءَةِ المَازِنِي:

قَالَ أَبُو العبَّاسِ المُبَرِّدُ[(١)]: لما قُتلَ الزُّبيرُ بنُ عليٍّ أدارَتِ الخَوارجُ أمرَهَا، فأرادُوا تولِيَةَ عُبيدةَ بنَ هِلالٍ، فَقَالَ: أدلكُم عَلَى مَنْ هُوَ خيرٌ لكُم منِّي، من يطاعنُ فِي قُبُلٍ، ويحمِي فِي دُبُرٍ، عَلَيكُم بقطري بن الفُجاءَةَ المَازِنِي.

فبَايعُوهُ.

وقالُوا: يا أميرَ المُؤمِنِينَ امضِ بنَا إِلَى فارسَ.

فَقَالَ: إنَّ بفارسَ عُمرَ بنَ عبيدِ الله بن معمرٍ، ولَكِنِ امضُوا إِلَى الأهوَازِ، فإن خَرَجَ مصعبٌ منَ البصرَةِ دخلنَاهَا، فأتَوْا الأهوَازَ، ثمَّ ترفَّعُوا عنْهَا إِلَى أنْ إيذج[(٢)].

وكانَ مصعبٌ قَدْ عزمَ عَلَى الخرُوجِ وَقَالَ: الآنَ أصحَابُ قَطريٍّ مُطلُّونَ عَلَينَا، وإنْ خَرَجْنَا عَنِ البَصرَةِ دَخلهَا، فبعثَ إِلَى المُهلَّبِ، فَقَالَ: اكْفِنَا هَذَا العَدوّ.

فَخَرَجَ إِلَيْهِم، فلمَّا أحسَّ بِهِ قَطريٌّ يمَّمَ نَحْوَ كِرمَانَ، وأقَامَ المُهَلَّبُ بِالأَهْوَازِ ثمَّ كرَّ عَلَيْهِ قَطريٌّ، وَقَدِ استعدُّوا، وَكَانَتِ الخَوَارِجُ فِي حَالَاتِهِم أَحْسَنَ عُدَّةً ممَّن يقاتلُهُم بِكَثْرَةِ السِّلَاحِ، وكثرَةِ الدَّوَابِ، وحصَانَةِ الجُنَنِ[(٣)]، فَحَارَبَهُم المُهلّب فَدَفَعهُم حتى صَارُوا إِلَى رَامَهُرْمُزَ.

وَكَانَ الحَارِثُ بنُ عميرَةَ الهَمْدَانِي قَدْ صَارَ إِلَى المُهلَّبِ مُرَاغمًا لعتَّاب بنِ ورقاءَ، ويقالُ: إنَّه لَمْ يَرضَهُ عن قتلِهِ الزُّبيرِ بنِ عليٍّ، وكانَ الحارثُ بنُ عميرةَ هُوَ الَّذِي قتلَهُ، وخاضَ إِلَيْهِ أصحَابُهُ.

---

(١) فِي «الكَامِلِ» (٣/٢٤٨).

(٢) بلدة بين خوزستان وأصبهان.

(٣) الدروع.

ففي ذَلِكَ يقولُ أعشَى هَمْدَانَ:

إنَّ المَكَـــارِمَ أكْرَمَـتْ أسبابهَا ... لابنِ اللّيوثِ الغرِّ مِن همْدَانِ
للفَارِسِ الحَامِي الحَقِيقَةِ مُعْلِمًا ... زَادَ الرّفَاقِ وفَـارِس الفُرْسَانِ
الحَارِثُ بنُ عَمِيرَةَ اللَّيْثُ الَّذِي ... يَحْمِي العِرَاقَ إِلَى قرَى نجْرَانِ
ودَّ الأزَارِقُ لَو يُصَ،ابُ بِطَعْنَةٍ ... وَيمُوتُ مِـنْ فُرسَانِهِم مِائتَانِ

قَالَ أَبُو العبَّاسِ: وخرجَ مصعبُ بنُ الزُّبير إلى باجُمَيْرَا، ثمَّ أتَى الخَوَارجَ خبرُ مقتلِهِ بِمَسْكِنَ، ولَمْ يَأتِ المُهَلَّب وَأصْحَابهُ، فتَوَاقفُوا يومًا برَامَهُرْمُزَ على الخندقِ، فنادَاهُم الخوارج: مَا تقُولُونَ فِي مُصْعَب؟

قالُوا: إِمَامُ هُدًى.

قالُوا: فَمَا تقُولُونَ فِي عبدِ المَلكِ؟

قَالُوا: ضَالٌّ مُضِلٌّ.

فلمَّا كانَ بعدَ يَومينِ أتَى المُهَلَّبَ قَتلُ مُصْعَبٍ، وأنَّ أهلَ العِرَاقِ قَد اجتمَعُوا عَلَى عَبدِ المَلكِ، وَوَرَدَ عَلَيْهِ كتَابُ عَبدِ المَلكِ بولَايتِهِ، فلمَّا تواقفُوا نادَاهُمُ الخَوَارِجُ: مَا تقُولُونَ فِي مُصْعَبٍ؟

قَالُوا: لَا نُخبِرُكُم.

قَالُوا: فَمَا تقُولُونَ فِي عَبدِ المَلكِ؟

قَالُوا: إمامُ هدًى.

قَالُوا: يا أعدَاءَ اللهِ! بالأمسِ ضَالٌّ مضلٌّ، واليوم إمَامُ هُدًى! يا عبيدَ الدُّنيَا، عَلَيْكُم لعنةُ اللهِ![1]

وَرَوَى أبو الفَرجِ الأَصبهَانِي فِي كِتَابِ الأغَانِي الكَبِيرِ[2]، قَالَ: كانتِ الشُّرَاةُ مِنَ الخَوَارجِ

(١) «الكَامِل» (٣/ ٢٤٩).
(٢) «الأغَانِي» (٦/ ١٤٩ ـ ١٥٠).

والمُسْلمُونَ فِي حَرْبِ المُهلَّبِ وقَطرِي بن الفُجاءَةِ يتواقفُونَ ويتساءلُونَ بَيْنَهم عن أمرِ الدِّين وغيرِ ذَلِكَ عَلَى أمَانٍ وسكُونٍ لا يهيجُ بعضهُم بعضًا، فتواقف يومًا عبيدةُ بنْ هلال اليشكريُّ وأبو حزابَةَ التَّميمي، فقَالَ عبيدةُ: يا أبا حزابةَ: إنِّي سَائِلُكَ عن أشياء، فتصدقني عَنْهَا فِي الجَواب؟

قَالَ: نَعَمْ إن ضَمَنْتَ لِي مثلَ ذَلِكَ.

قَالَ: قَدْ فعلتُ.

قَالَ: قُلْ فَاسْأَلْ عمَّا بدَا لكَ.

قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي أئمَّتِكُمْ؟

قَالَ: يبيحُونَ الدَّمَ الحَرَامَ.

قَالَ: وَيْحَكَ، وَكَيْفَ فِعْلهُمْ فِي المَالِ؟

قَالَ: يجبونهُ من غيرِ حلِّه، وينفقُونهُ فِي غيرِ وجْهِهِ.

قَالَ: وكَيْفَ فِعلهُم فِي اليتيمِ؟.

قَالَ: يظلمُونهُ مالهُ ويمنعونَهُ حقَّه وينيكُونَ أمَّهُ!

قَال وَيْحكَ يَا أبَا حزابةَ مثل هَؤُلَاءِ تتبع؟!

قَالَ: قَدْ أجبتُكَ فاسْمَعْ سُؤَالِي وَدَع عتابِي عَلَى رَأيي.

قَالَ: سَلْ؟

قَالَ: أيّ الخَمرِ أطيبُ أخمرُ السَّهلِ أم خمرُ الجَبلِ؟

قَالَ: ويحك أمثِلِي يُسألُ عَنْ هَذَا؟!

قَالَ: قَدْ أوجبت عَلَى نفسكَ أن تُجيبَ.

قَالَ: أما إذا أبيتَ، فإن خمرَ الجبلِ أقوى وأسكر، وخمر السهل أحسن وأسلس.

قَالَ لي: فَأيّ الزَّوَانِي أفره؟ زوانِي رَامَهُرْمُزَ أم زوانِي أرَّجان؟

قَالَ: وَيْحكَ إنَّ مثلِي لا يُسألُ عن هَذَا؟!

قَالَ: لابدَّ منَ الجَوابِ أو تغدر.

قَالَ أمَّا إذا أبيتَ؛ فزوانِي رَامهرمزَ أرَقّ أبشارًا، وزَوانِي أرجانَ أحْسنُ أبدانًا.

قَالَ: وأيّ الرَّجلينِ أشْعرَ: جَرِيرٌ أم الفرزدقُ؟
قَالَ: عَلَيْكَ وعَليهما لعنةُ الله.
قَالَ: لابدَّ أن تجيبَ.
قَالَ: أيّهمَا الَّذِي يقولُ:

وَطَوَى الطِّرَادُ مَعَ القِيادِ بطُونَها ... طيَّ التِّجَارِ بِحَضْرَمَوْتَ بُرُودَا

قال: جَرِيرٌ.
قَالَ: هُوَ أَشْعَرهُمَا.

قال أَبُو الفَرَجِ[1]: وَقَد كَانَ النَّاسُ تجادلُوا فِي أمرِ جَرِيرٍ والفَرَزْدَقِ فِي عَسكرِ المُهلَّبِ حتَّى تواثبُوا وصَارُوا محكّمِينَ لَهُ فِي ذَلِكَ.

فَقَالَ: أتريدُونَ أنْ أحكُمَ بَينَ هذَينِ الكَلبَينِ المتهارشَينِ فيمضغانِي؟ مَا كنتُ لأحكُم بَيْنَهُمَا، ولَكِن أدلُكُم عَلَى من يحكمُ بَيْنَهُمَا، ثمَّ يهون عَلَيْهِ شأنُهمَا، عَلَيكُم بالشُّرَاةِ، فاسألُوهُم إذا تواقفتُم، فلمَّا تواقفُوا سَألَ أَبُو حزابةَ عبيدَةُ بنُ هلالٍ عَن ذَلِكَ فأجَابُوا بِهَذَا الجَوَابِ.

وَرَوَى أَبُو الفَرجِ[2]: أنَّ امرَأَةً مِنَ الخَوارِجِ كَانَتْ مَع قَطريِّ بنِ الفجَاءَةِ، يقالُ لهَا: أمُّ حَكِيم، وَكَانَتْ مِن أَشجَعِ النَّاسِ، وأجْمَلِهِم وجهًا، وأحْسَنِهِم بالدِّينِ تمسُّكًا، وخطبَهَا جماعةٌ مِنْهُم فردَّتهُم، ولَم تُجِبْهم، فأخبرَ مَن شَاهَدهَا فِي الحَربِ أنَّها كَانتْ تَحملُ عَلَى النَّاسِ، وَتَرْتَجِزُ وتقُولُ:

أَحمِلُ رأسًا قَدْ سَئِمْتُ حَمْلَهُ ... وَقَدْ مَلِلْتُ دَهْنَهُ وَغَسلَهُ
أَلَا فتى يَحْمِلُ عنِّي ثِقْلَهُ

والخَوارِجُ يَفْتَدُونَهَا بالآبَاءِ والأُمَّهَاتِ، فَمَا رَأَينَا قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا مِثْلَهَا.

---

(١) فِي «الأغَانِي» (٦/ ١٥٠).
(٢) فِي «الأغَانِي» (٦/ ١٥٠).

وَرَوَى أَبُو الفَرَجِ[(١)] أيضًا، قال: كَانَ عبيدةُ بنُ هلالٍ إذَا تكَافَّ النَّاسُ، نادَاهُم ليخرُجَ إِلَيَّ بَعْضُكُم؛ فيخرُجُ إِلَيْهِ فِتيَانٌ مِن عَسْكَرِ المُهلَّبِ، فيقُولُ لَهُم: أيُّهَا أحبُّ إِلَيكُم أَقرَأُ عَلَيكُم القُرآنَ، أَم أُنشدكُم الشِّعرَ؟

فيقُولُونَ: لَهُ أَمَّا القُرآنُ فَقَدْ عَرفنَاهُ مِثْلَ مَعْرِفتك، ولكِن تنشدُنَا.

فيقُولُ: يا فَسَقَةُ، قَدْ واللهِ عَلِمْنَاكُم تختَارُونَ الشِّعرَ عَلَى القُرآنِ، ثمَّ لَا يزَالُ يُنشدُهُم حتَّى يملُّوا ويفترقُوا، وَسَيَأتِي خَبرُهُ.

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[(٢)]: وَوَلِيَ خَالِدُ بنُ عَبدِ اللهِ بنِ أَسِيدٍ فَقَدِمَ، فَدخلَ البَصرَةَ، فأَرَادَ عزلَ المُهلَّبِ فأشيرَ عَلَيْهِم بأن لَا يفعَلَ.

وَقِيلَ: لَهُ: إنَّمَا أَمِنَ هَذَا المِصرُ لأنَّ المُهلَّبَ بِالأَهْوَازِ وعمر بن عبيدِ اللهِ بفارسَ، فَقَدْ تنحَّى عمر، وإن نَحيتَ المُهلَّبَ لم نأمنْ عَلَى البَصرَةِ، فأبَى إلا عزْلَهُ، فقدمَ المُهلَّبُ إِلَى البصرَةِ، وخرَجَ خالدٌ إِلَى الأهوازِ فاسْتَصْحَبهُ، فلمَّا كَانَ بِكُرْبجِ دينارٍ لَقِيَهُ قَطريٌّ فَمَنَعَهُ حطَّ أَثقَالِهِ، وحَارَبَهُ ثلاثِينَ يومًا، ثمَّ أَقَامَ قطريٌّ بإزائِهِ، وَخَندَقَ عَلَى نفسِهِ.

فَقَالَ المُهلَّبُ لخَالِدٍ: إنَّ قطريًّا لَيْسَ بأحقَّ بالخندَقِ مِنكَ، فعبَرَ دُجَيْلًا إِلَى شِقِّ نَهرِ تِيرَى، واتبعهَ قَطريٌّ فصَارَ إِلَى مَدِينَةِ نَهرِ تِيرَى، فبنَى سُورَهَا، وخندَقَ عَلَيْهَا.

فَقَالَ المُهلَّبُ لخَالِدٍ: خَندِقْ عَلَى نَفسِكَ فإنِّي لا آمنُ البيَاتَ.

فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ الأمرُ أعجلُ مِن ذَلِكَ.

فَقَالَ المُهلَّبُ لِبعَضِ ولدِهِ: أَرَى أمرًا ضَائعًا.

ثمَّ قَالَ لِزيادِ بنِ عمرَ: خندِقْ عَلَيْنَا، فخندقَ المهلَّبُ عَلَى نفسِهِ، فأمر بِسُفنِهِ ففرِّغتْ، وأبَى خَالِدٌ أن يُفرغَ سُفنَهُ.

---

(١) فِي «الأغَانِي» (٦/ ١٥١).

(٢) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ٢٤٩ـ ٢٥٠).

فَقَالَ الْمُهلَّبُ لفيرُوزَ بنِ حُصينٍ: صِرْ مَعَنَا.

فقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ إنَّ الحزمَ مَا تقولُ غيرُ إنِّي أكرُهُ أنْ أفارقَ أصحَابِي.

قَالَ: فكُنْ بِقُرْبِنَا.

قَالَ: أما هَذِهِ فَنَعَمْ.

وَقَدْ كَانَ عبدُ المَلكِ كَتَبَ إِلَى بشرِ بنِ مروَانَ يأمرُه أنَّ يُمدَ خَالدًا بجيشٍ كثيفٍ أميرُه عبدُالرحمنِ بنُ الأشعثِ، ففعَلَ، فقدمَ عَلَيْهِ عبدُ الرحمنِ بنُ مُحمَّدٍ، فَأَقَامَ قَطريٌّ يغَادِيهم القتَالَ، ويرَاوحُهُم أَرْبعِينَ يومًا.

فَقَالَ الْمُهَلَّبُ لمولَى أبي عُيينةَ: انتبِذْ إِلَى ذَلِكَ النَّاوسِ [1] فَبِتْ عَلَيْهِ كُلَّ ليلةٍ؛ فمتَى أَحْسَسْتَ خَبرًا للخَوَارِجِ أو حَركةً، أو صَهِيلَ خيلٍ، فاعجلْ إلينَا. فَجَاءَهُ ليلةً، فَقَالَ: قَدْ تحركَ القَومُ، فَجلسَ الْمُهلَّبُ ببابِ الخَندقِ.

وأعدَّ قَطريٌّ سُفنًا فِيهَا حطبٌ، وأشعلَهَا نارًا، وأرسلَهَا عَلى سُفنِ خالدٍ، وخرجَ فِي أدبارِهَا حتَّى خالطَهُم، لا يمرُّ برجلٍ إلا قتلَهُ، وَلَا بدابةٍ إلا عَقَرهَا، وَلَا بفسطاطٍ إلا هتكَهُ؛ فأمرَ الْمُهلَّبُ يزيدَ ابنَهُ فَخَرَجَ فِي مائةِ فارسٍ، فقاتلَ، وأبلَى عبدُ الرحمنِ بنُ محمَّدِ بن الأشْعَثِ يَوْمَئِذٍ بلاءً حَسَنًا.

وخرجَ فيروزُ بنُ حصينٍ فِي موَاليهِ، فلمْ يَزَلْ يَرْمِيهِم بالنّشابِ هُوَ ومَنْ مَعَهُ فأثرَ أثرًا جَميلاً، وصُرِعَ يزيدُ بنُ المهلَّبِ يومئذٍ، وصُرِعَ عبدُ الرحمنِ بنُ محمَّدٍ، فحَامَى عَنْهُمَا أصحَابهُما حتَّى ركبَا، وسقطَ فيروزُ بنُ الحُصينِ فِي الخندقِ، فأخذَ بيدِه رجلٌ مِنَ الأزدِ فاستنقذَهُ؛ فوهبَ لَهُ فيروزُ عشرةَ آلافٍ، وأصبحَ عسكرُ خالدٍ كأنَّه حَرَّةٌ سَودَاء، فجعلَ لا يرَى إلا قتيلاً أو جَريحًا.

فَقَالَ للمهلبِ: يا أبا سعيدٍ كدْنَا نفتضحُ.

---

(١) يُطلق على مقابر النصارى.

فَقَالَ: خندِقْ عَلَى نفسِكَ، فَإِنْ لَمْ تفعلْ عادُوا إليكَ.

فقَالَ: اكفِنِي أمرَ الخَندقِ، فجمع لَهُ الأخماس، فلم يبقَ شَريفٌ إِلَّا عملَ فِيهِ.

فصاحَ بِهم الخَوَارِجُ: واللهُ لَولَا هَذَا السَّاحِرُ المزوني لكَانَ اللهُ قَدْ دمَّرَ عَلَيْكُم! وكَانتِ الخَوارِجُ تسمِّي المهلَّبَ السَّاحرَ؛ لأنَّهم كانُوا يدبرُونَ الأمرَ فيجدُونَ المهلَّبَ قَدْ سبقَ إِلَى نقضِ تدبيرِهِمْ.

وقالَ أعْشَى هَمْدَانَ لابنِ الأشعثِ ـ يُذَكِّرُهُ بَلاءَ القَحْطَانيَّةِ عِندَهُ فِي كلمَةٍ طَويلَةٍ ـ:

وَيَوْمَ أَهْوَازٍ لَا تَنْسَهُ　　　لَيْسَ الثَّنَا والذِّكْرُ بَالبَائِدِ

ثمَّ مضَى قَطرِي إِلَى كِرْمَانَ، وانصرفَ خالدٌ إِلَى البصرَةِ، فَأَقَامَ قطريٌّ بِكرْمَانَ شهرًا، ثمَّ عمِدَ لفَارِسَ، فَخَرَجَ خَالِدٌ إِلَى الأهوازِ، وندبَ الناسَ للرَّحيلِ؛ فجعلُوا يطلبُونَ المُهلَّبَ.

فَقَالَ خالدٌ: ذهبَ المُهلَّبُ بحظِّ هَذَا المِصرِ، إِنِّي قَدْ وليتُ أخِي قتَالَ الأزارقةِ، فولَّى أخَاهُ عَبدُ العَزِيزِ، واستخلفَ المُهلَّبُ عَلَى الأهوازِ فِي ثَلاثمائةٍ.

ومضَى عَبدُ العزِيزِ والخوارجُ بدرابجرد وَهُوَ فِي ثَلاثِينَ ألفًا فَجَعَلَ عبدُ العزيزِ يقولُ فِي طريقِهِ: يزعمُ أهلُ البصرَةِ أنَّ هَذَا الأمرَ لا يتمُّ إلا بِالمُهلَّبِ، سَيَعْمَلُونَ!

قال الصقعبُ بنُ يزيدَ: فلمَّا خَرَجَ عبدُ العزيزِ عَنِ الأهوَازِ جاءَنِي كُرْدُوسٌ حاجبُ المُهَلَّبِ فَدَعَانِي فجئتُ إِلَى المهلَّبِ وَهُوَ فِي سطحٍ، وعَلَيْهِ ثيابٌ هرويَّةٌ.

فَقَالَ: يَا صقعبُ، أنا ضائعٌ كأنِّي أنظرُ إِلَى هزيمَةِ عَبدِ العَزيزِ، وأخشَى أن توافيِنِي الأزَارِقَة، وَلَا جندَ معِي، فابعثْ رَجُلًا من قِبَلِكَ يأتينِي بِخَبرِهِم سابقًا إِلَيَّ بِهِ، فوجهتُ رَجُلًا من قِبلِي يقالُ لَهُ عمرانُ بنُ فلانٍ، وقلتُ له: اصْحَبْ عَسْكَرَ عبدِ العزِيزِ، واكتبْ لِي بخبرِ يومٍ فيومٍ.

فجعلتُ أوردُهُ عَلَى المهَلَّبِ، فلمَّا قاربَهُم عبدُ العزيزِ، وقفَ وقفةً، فَقَالَ لَهُ النَّاسُ: هَذَا منزلٌ فينبغِي أن تنزلَ فِيهِ أيُّهَا الأميرُ حتَّى نطمئنَ، ثمَّ نأخذُ أهبتَنا.

فَقَالَ: كلَّا، الأَمرُ قريبٌ.

فنزلَ النَّاسُ عَلَى غَيْرِ أمرِهِ، فَلَمْ يستتمَّ النُّزولُ حتَّى وردَ عَلَيْهِ سعدُ الطَّلائعِ فِي خمسمائةِ فارسٍ كأنَّهم خيطٌ ممْدُودٌ، فناهَضَهُمْ عبدُ العزيزِ، فواقفوه ساعةً، ثمَّ انهزمُوا عَنْهُ - مكيدَةَ - واتبعهُم.

فَقَالَ لَهُ النَّاسُ: لا تتبعْهُم فإنّا عَلَى غيرِ تعبيةٍ، فأبى، فَلَمْ يَزَلْ فِي آثارِهِم حتَّى اقتحمُوا عَقَبةً، فاقتحمَهَا وَرَاءَهُم، والنَّاسُ ينهُونَهُ.

وَقَد كَانَ جَعلَ عَلَى بنِي تميمٍ عَبْسَ بنَ طلقٍ الصّريمِي الملَّقبُ عَبْسُ الطَّعَان، وَعَلَى بكرِ بنِ وائلٍ مقاتلَ بنَ مسمعٍ، وَعَلَى شرطتِه رَجُلًا من بنِي ضبيعة بن ربيعة بن نزَار، فنزلُوا عن العَقبةِ، ونزل خلفَهُم، وكان لهُم فِي بطنِ العَقبةِ كمينٌ، فلمَّا صارُوا من ورَائِهَا خَرجَ عَلَيْهِم الكَمِينُ، وعطفَ سعد الطلَائع، وترجَّلَ عبسُ بنُ طلقٍ فقُتلَ وقُتلَ مقاتل بن مسمعٍ، وقُتِلَ الضبيعيُّ صَاحِبُ شُرطةِ عَبدِ العزيزِ، وانحازَ عبدُ العزيزِ، واتبعهُم الخوارجُ فرسخَينِ يقتلونَهُم كَيْفَ شاءُوا.

وكانَ عبدُ العَزيزِ قَدْ أخرجَ مَعَهُ أمَّ حَفصٍ بنتَ المنذرِ بنِ الجارُودِ امرأتَهُ، فَسُبيَ النِّسَاءَ يومئذٍ، فأخذُوا مِنْهُم أسرَى لا تُحصَى، فقذفُوهُم فِي غارٍ بعدَ أن شدُّوهُم وثاقًا، ثمَّ سدُّوا عَلَيْهِم بابَهُ حتَّى ماتُوا فيهِ.

وقال بعضُ مَنْ حَضرَ ذَلِكَ اليَومَ: رأيتُ عبدَ العزيزِ وإنَّ ثلاثين رَجُلًا يَضْرِبُونَهُ بسُيوفِهِم فَمَا تُحِيكُ ذَلِكَ فِي جنبه.

ونُودِيَ عَلَى السَّبي يَوْمَئِذٍ فَغُولِيَ بأمِّ حفصٍ، فبلغَ بِهَا رجلٌ سَبعِينَ ألفًا، وكان ذَلِكَ الرَّجلُ مِن مجُوسٍ كانوا أسلمُوا ولحقُوا بالخَوَارجِ، ففرضُوا لكُلِّ رجلٍ مِنْهُم خَمْسُمِائَةٍ، فكانَ ذَلِكَ الرَّجلُ يريدُ أن يأخُذَ بأمِّ حفصٍ؛ فشقَّ ذَلِكَ عَلَى قَطريٍّ، وَقالَ: مَا ينبغِي لرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَنْ يَكُونَ عِندَهُ سَبعُونَ ألفًا، إنَّ هَذِهِ لفتنةٌ فوثبَ عَلَيْهَا أبو الحَديدِ العبديُّ فقتلَهَا، فأُتِي بِهِ قَطريٌّ فَقَالَ: مهيم يَا أبا الحَديد؟.

فَقَالَ: يا أميرَ المُؤْمِنِينَ رأيتُ المُؤْمِنِينَ تزايدُوا فِي هَذِهِ المشركةِ فخشيتُ عَلَيْهِم الفتنةَ !

فَقَالَ قَطريٌّ: أَحْسَنْتَ.

وقَالَ رجلٌ مِنَ الخَوَارِجِ:

كفَانَا فتنةً عَظُمَـــتْ وَجلَّتْ   بِحَمْـــدِ الله سَـــيفُ أَبِي الحَدِيدِ
أَهَابَ المُسْلِمُـــونَ بِهَا وقَالُوا   عَلَى فَـــرْطِ الهَوَى هَلْ مِن مَزِيدِ
فزَادَ أَبُو الحَدِيدِ بِنَصلِ سَيفٍ   رَقِيـــقِ الحَدِّ فِعْـــلَ فَتًى رَشِيدِ

وَكَانَ العَلاءُ بنُ مُطرفٍ السَّعدِيِّ ابن عَمِّ عَمْرو القنَا، وكانَ يُحبُّ أن يلقَاهُ فِي صَدرِ مُبَارَزَةٍ، فلحقَهُ عَمرو القنَا يَوْمَئِذٍ وَهُوَ مَهزُومٌ فضَحكَ مِنْهُ، وَقَالَ مُتمثلًا:

تَمَنَّانِـــي لِيَلْقَـــانِي لَقِيـــطٌ   أَعَامِ لَكَ ابن صَعْصَعَةَ بن سَعْدِ

ثمَّ صاحَ بِهِ: انجُ يَا أَبَا المُصَدَّى.

وكان العَلاءُ بنُ مطرِّفٍ قَد حَمَلَ مَعَهُ امرَأَتَين: إِحْدَاهُمَا مِن بنِي ضبَّةَ يقَالُ لها: أمُّ جَمِيلٍ، والأخرَى: بنتُ عَقِيلٍ عمِّهِ، يقالُ لهَا: قلابةُ بنتُ عقيلٍ، فطَلَّقَ الضَّبِّيَّةَ، وَحَمَلَهَا أَوَّلًا، وَتَخَلَّصَ بابنَةِ عمِّهِ - وَقَالَ فِي ذَلِكَ:

أَلَسْـــتُ كَرِيمًا إِذْ أقُـــولُ لفِتْيَتِي   قِفُوا فَاحْمِلُوهَا قَبلَ بنتِ عَقِيلِ
لَوْ لَمْ يَكُن عُودِي نضَارًا لأَصْبحتْ   تُجَـــرُّ عَلَى المَتْنَينِ أُمُّ جَمِيـــلِ

قال الصّقعبُ بنُ يَزِيدَ: وبعثَنِي المُهَلَّبُ لأبيهِ بالخَبرِ؛ فَصِرْتُ إِلَى قنطرةٍ أربك عَلَى فرسٍ اشتريتُه بثلاثةِ آلافٍ، فلم أحس خبرًا، فسرتُ مهجّرًا إِلَى أن أمسيتُ، فلمَّا أمسينا وأظلمنا سَمِعْتُ كلامَ رجلٍ عرفتُه منَ الجهَاضِمِ.

فقلتُ: مَا وراءُكَ؟.

فقالَ: الشَّرُّ!

فقلتُ: فأينَ عَبدُ العَزِيزِ؟.

قَالَ: أمَامكَ.

فلمَّا كَانَ آخرُ اللَّيلِ إذا أنَا بزهَاءِ خَمسِينَ فارسًا معهُم لواءٌ.

فقلتُ: لواءُ من هَذَا؟

قَالُوا: لوَاءُ عَبدِ العزيزِ.

فتقدمتُ إِلَيْهِ فسلَّمتُ عَلَيْهِ، وقلتُ: أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ لا يكبرنَّ عَلَيْكَ مَا كَانَ، فإنَّكَ كنتَ فِي شرِّ جندٍ وأخبثَهُ.

قَالَ لِي: أَوَ كنتَ معنَا؟.

قلت: لَا ولكنِّي كأنِّي أشاهدُ أمرَكَ.

ثم أقبلتُ إِلَى المهلَّبِ وتركتُهُ.

وَقَالَ لِي: مَا وراءَكَ؟

قلتُ: مَا يسرُّكَ، هُزمَ الرَّجلُ وفُلَ جيشُهُ.

فَقَالَ: وَيْحَكَ وَمَا يسرنِي فِي قتلِ رجلٍ من قريش، وفلّ جيشٍ منَ المُسْلِمِينَ؟

قلتُ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ. ساءَكَ أو سرَّكَ. فوجَّه رَجُلًا إِلَى خالدٍ يُخبرُه بِسلَامةِ أخيهِ.

قَالَ الرَّجلُ: فلمَّا أخبرتُ خالدًا قَالَ: كذبتَ ولؤمْتَ، ودخلَ رجلٌ مِن قُريشٍ فكذَّبنِي، فَقَالَ لِي خالدٌ: لقَدْ هممتُ أن أضربَ عنقَكَ.

فقلتُ: أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ إن كنتُ كاذبًا فاقتلنِي، وإن كنتُ صادقًا فأعطنِي مطرفَ هَذَا المُتكلِّم!

فَقَالَ خالدٌ: لبئسَ مَا أخطرتَ بِهِ دمَكَ!

فَمَا بَرِحْتُ حتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ الفَلِّ.

وقدمَ عبدُ العزيزِ سوقَ الأهوَازِ فأكرَمَهُ المهلَّبُ وكسَاهُ، وقدمَ مَعَهُ عَلَى خالدٍ، واستخلفَ المُهلَّبُ ابنَه حبيبًا.

وَقَالَ لَهُ: تَجسَّس الأخبَار، فإن أَحْسَسْتَ بخيلِ الأزَارقَةِ قريبًا مِنكَ فانصِرفْ إِلَى البصرَةِ عَلَى نَهرِ تيرَى.

فلمَّا أحسَّ حبيبٌ بِهم دخلَ البصرَةَ، وأعلمَ خالدًا بدخُولِه، فَغَضِبَ، وخافَ حبيبٌ مِنْهُ؛ فاستترَ فِي بنِي عامرِ بنِ صَعْصَعَةَ، وتزَوَّجَ هناكَ فِي استتارِه الهلاليةَ، وَهِيَ أمّ ابنِه عبَّادِ بنِ حبيبٍ.

وَقَالَ الشَّاعر لخَالِدٍ يُفَيِّلُ[1] رَأْيَهُ:

بعثتَ غُلامًا مِـن قُريـشٍ فَروَقةُ وَتَترك ذَا الرَّأي الأَصِيلِ المُهَلَّبَا
أبى الذَّمَّ واختَارَ الوَفَاء وَأُحْكِمَتْ قُوَاهُ وَقَد سَاسَ الأُمُورَ وجَرَّبَا

وَقَالَ الحَارِثُ بنُ خَالِدٍ المَخْزُومِي:

فـرَّ عَبدُ العَزِيزِ إِذْ رَأى عَبسًّـا وابـنَ دَاودَ نَـازِلاً قَطريَّـا
عاهَـدَ اللهَ إن نَجَـا مِلْـمَنَايَـا ليَعُودَنَّ بَعْدَهَـا حُرْمَيَّـا
يَسْكُـنُ الخَـلَ والصِّفَاح فَغُورِينَـا مـرَارًا ومـرَّة نجديَّـا[2]
حيثُ لا يشهَـدُ القتَالَ وَلَا يسمعُ يَومًا لِكَـرِّ الخَيْـلِ دَوِيًّـا

وَكَتَبَ خالدٌ إِلَى عبدِ الملكِ بعذرِ عبدِ العزيزِ، وَقَالَ للمُهلَّبِ: مَا ترى أميرَ المُؤمِنِينَ صَانعًا؟.

قَالَ: يعزلكَ.

قَالَ: أترَاهُ قاطعًا رَحِمِي؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: قَدْ أتتهُ هَزِيمَة أخيك ـ يعني: هرب أمية منْ سجستانَ ـ.

فكتبَ عبدُ الملكِ إِلَى خَالِدٍ:

أمَّا بعدُ؛ فإنِّي كُنْتُ حَددتُ لكَ حدًّا فِي المُهلَّبِ، فلمَّا مَلكت أمرك؛ نبذتَ طَاعتِي ورَاءكَ، فاستبددتَ بِرَأيكَ، فولَّيتَ المُهَلَّبَ الجبَايَةَ، وَوَلَّيتَ أخاكَ حَرْبَ الأَزَارِقَةِ، فَقَبَّحَ اللهُ هَذَا رأيًا ! أتبعثُ غُلَامًا غِرًّا لَمْ يُجَرِّبِ الأمُورَ والحرُوبَ، وَتَتْرُكُ سيِّدًا مُدَبِّرًا شُجَاعًا حَازِمًا قَدْ مَارسَ الحرُوبَ، ففلَجَ فشَغلتهُ بالجبايَةِ، أمَا لَو كَافأتُكَ عَلَى قَدرِ ذنبِكَ، لأتاكَ من

---

(١) أي: يخطئهُ.

(٢) الخل والصفاح وغورين: مواضع.

نكيرِي مَا لا بقيَةَ لك معهُ، وَلَكِن تذكرتُ رحِمَكَ فَكفتنِي عَنكَ، وَقَدْ جعَلْتُ عقُوبتَكَ عَزْلكَ، وَالسَّلَامُ.

قَالَ: وَوَلَّى بشرَ بنَ مروَانَ الإمارةَ، وَهُوَ بِالكُوفَةِ، وَكَتبَ إِليْهِ:

أَمَّا بَعْدُ؛ فإِنَّكَ أَخُو أَمِيرِ المُؤمنِينَ، وَيَجْمَعُكَ وإِيَّاهُ مروَان بن الحكمِ، وإنَّ خالدًا لَا مُجتَمعَ لَهُ مع أميرِ المُؤْمِنِينَ دُونَ أُمية، فانظرِ المُهلَّبَ بنَ أَبِي صُفْرَةَ، فَولِّه حَرْبَ الأَزَارِقَةِ؛ فإِنَّهُ سَيِّدٌ بطلٌ مُجرّبٌ، وأمْدَدْهُ مِن أهلِ الكُوفةِ بثمانِينَ ألف رَجُلٍ، والسَّلامُ.

فلمَّا وردَ عَلَى بشرٍ مَا أمرَهُ بِهِ فِي المُهَلَّبِ، قَالَ: واللهِ لأقتلنَّهُ.

فَقَالَ لَهُ مُوسَى بنُ نصيرٍ: أَيُّهَا الأمير إن للمُهلَّبِ حفاظًا ووفاءً وبلاءً.

وَخَرَجَ بشرُ بنُ مرَوانَ يُرِيدُ البَصْرَةَ، فكتَبَ مُوسى بنُ نصيرٍ وعِكْرِمَةُ بنُ ربعِي إِلَى المُهَلَّبِ أنْ يتلقَّاهُ لقاءً لا يَعْرِفُه بِهِ، فتَلَقَّاهُ المُهلَّبُ عَلَى بغلٍ، وسلَّمَ عَلَيْهِ فِي غِمَارِ النَّاسِ.

فلمَّا جلسَ بشرٌ مجلسَهُ قَالَ: مَا فعلَ أميرُكُم المُهلَّبُ؟

قَالُوا: قَدْ تلقَّاكَ أَيُّهَا الأميرُ، وَهُوَ شاكٍ، فهمَّ بشرٌ أن يولِّي حربَ الأزارقَةِ عمرَ بنَ عبيدِ اللهِ بن معمرٍ، وشدَّ عزمَهُ أسماءُ بنُ جاريةَ، وَقَالَ لَهُ: إنَّمَا ولَّاك أميرُ المُؤْمِنِينَ لترَى رأيكَ.

فَقَالَ لَهُ عِكْرِمَةُ بنُ ربعِي: اكتبْ إِلَى أميرِ المُؤْمِنِينَ فأعلمْهُ بعلَّةِ المُهلَّبِ، وإنَّ بالبَصرَةِ مَن يغنِي غنَاءهُ، فكَتَبَ إِليْهِ بِذَلِكَ، وَوَجَّه بالكِتَابِ مَع وفدٍ وفَدهُم إِلَيْهِ رئيسهُم عبدُ اللهِ بنُ حَكيمِ المُجَاشِعِي.

فلمَّا قرأَ عَبدُ المَلكِ الكِتَابَ خَلَا بِعبدِ اللهِ فَقَالَ لَهُ: إن لكَ دِينًا وَرَأيًا وحزْمًا، مَنْ لِقِتَالِ هَؤُلَاءِ الأزارِقَةِ؟

قال: المُهَلَّبُ.

قَالَ: إِنَّه عَلِيلٌ.

قَالَ: لَيْسَتْ عِلَّتهُ بِمانعةٍ.

فَقَالَ عَبدُ المَلكِ: لقَدْ أرادَ بشرٌ أنْ يفعلَ مَا فعلَ خَالِدٌ!

فَكتَبَ إلِيْهِ يعزمُ عَلَيْهِ أنْ يوليِّ المُهَلَّبَ الحَربَ، فوجَّه إلِيْهِ فَقَالَ: أنَا عَلِيلٌ، ولَمْ يُمْكنني الاختلافَ.

فأمرَ بشرٌ بِحَملِ الدَّواوينَ إلِيْهِ، فجعلَ ينتخبُ، فعزمَ عَلَيْهِ بالخُروجِ، فاقتطعَ أكثر نخبتِه، ثمَّ عزمَ عَلَيْهِ أن لا يقيمُ بعدَ ثالثة، وَقَد أخذت الخوارجُ الأهوَازَ، وخلَّفُوهَا وراءَ ظهورِهِم، فصَارُوا بالفُرَات.

فَخَرَجَ المُهَلَّبُ حتَّى صَارَ إِلَى شهارطَاق، فأتَاهُ شيخٌ مِن بنِي تميمِ فَقَالَ: أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ إنَّ سنِّي مَا ترَى، فهبْنِي لعيَالِي.

فَقَالَ: عَلَى أن تقُولَ للأميرِ إذَا خطبَ فحثَّكُم عَلَى الجهادِ، كَيْفَ تحثُنَا عَلَى الجهَادِ، وأنتَ تَحْبِسُ عَنْهُ أشرَافَنَا، وأهلَ النَّجدةِ منَّا؟ ففعلَ الشَّيخُ ذَلِكَ.

فَقَالَ لَهُ بشرٌ: وَمَا أنتَ وذَاكَ؟.

قَالَ: نَصِيحَةٌ حَضرتنِي للمُسْلِمِينَ، وَلَا أعُودُ لِمِثْلِهَا.

ثمَّ أعطى المهلَّبَ رَجُلًا ألفَ درهم عَلَى أنْ يأتي بشرًا فيقُولُ لَهُ: أيُهَا الأَمِيرُ أعِنِ المُهلَّبَ بالشُّرطَةِ والمُقَاتلَةِ، ففعَلَ الرَّجُلُ ذَلِكَ.

فَقَالَ لَهُ بشرٌ: وَمَا أنتَ وذاكَ؟

قَالَ: نَصِيحَةٌ حَضَرتنِي للمُسلمِينَ وَلَا أعُودُ إلى مثلِهَا.

فأمَدَّهُ بشرٌ بالشرطةِ والمقَاتلَةِ.

وكتب إِلَى خليفتِه بِالكُوفَةِ أن يعقدَ لعبدِ الرحمنِ بن مخنفِ الأزديِّ عَلَى ثمانيةِ آلافٍ منْ كلِّ ربعِ ألفَينِ، ويوجّه بِهم مَددًا للمُهلَّبِ، فلمَّا أتَاهُ الكِتَابُ بعثَ إِلَى عبدِ الرحمنِ بن مخنفٍ الأزديِّ يعقدُ لَهُ، واختارَ من كُلِّ ربعِ ألفَينِ.

وكان عَلَى ربع أهلِ المَدينَةِ بشرُ بن جريرِ بنِ عبدِ الله البَجَلِي، وَعَلَى ربعِ تميمٍ، وهمْدَانَ محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ بن سعيدِ بن قيسِ الهمْدانِي، وَعَلَى ربعِ كندةَ محمدُ بنُ إسحاقَ بنِ

الأشعثِ بنِ قيسٍ الكندِي، وَعَلَى ربعِ مَذْحَج وأسدٍ زحرُ بن قيسٍ المذحجِي؛ فقدمُوا عَلَى بشرِ بنِ مروانَ فخَلا بعبدِ الرحمنِ بن مخنفٍ، وَقَالَ لَهُ: قَدْ عرفتَ رأيِي فيكَ، وثقتِي بكَ، وإنَّكَ عِندَ ظنِّي بكَ، انظرْ إِلَى هَذَا المُزونِي فخالفه فِي أمرِهِ، وافْسِدْ عَلَيْهِ رَأيَهُ.

فَخَرَجَ عبدُ الرحمنِ وهُو يقولُ: مَا أعجبَ مَا طلبَ منِّي هَذَا الغلَامُ ! يأمرنِي أن أصغِّر شيخًا مِن مشَايخِ أهلِي وسيِّدًا من سَاداتِهم؛ فلحقَ بالمهلَّبِ.

فلمَّا أحسَّ الأزَارِقَةُ بِدنُو المُهلَّبِ مِنْهُم انكشفُوا عَنِ الفُراتِ، فاتبعهُم المهلَّبُ إِلَى سُوقِ الأهوَازِ فنفَاهُم عَنْهَا، ثمَّ اتبعهُم إِلَى رَامَهُرْمُزَ، فهزمَهُم مِنْهَا، فدخلُوا فارسَ.

وأبلَى يزيدُ ابنُهُ فِي وقَائعِهِ هَذِهِ بلاءً شَديدًا تقدمَّ فِيهِ وَهُوَ ابنُ إحدَى وعشرِينَ سنَة.

فلمَّا صَارَ القوم إِلَى فارسَ توجَّه إِلَيْهِم ابنه المُغيرةُ فَقَالَ لَهُ عبدُ الرحمنِ بنُ صالحٍ: أيُّها الأَمِيرُ إنَّه لَيْسَ لكَ برَأي قتلِ هَذِهِ الأكلبِ، ولئِنْ واللهِ قتلتَهُم لتقعدَنَّ فِي بيتِكَ، ولَكِن طَاولْهُم وكلْ بِهِمْ.

فَقَالَ: لَيْسَ هَذَا منَ الوَفَاءِ.

فلَمْ يلبثْ برَامَهُرْمُزَ إلَّا شهرًا حتَّى أتَاهُ مَوتُ بشرِ بنِ مروانَ، فاضطربَ الجندُ عَلَى ابنِ مخنفٍ، فوجَّه إِلَى إسحاقَ بنِ الأشعثِ وابنِ زحرٍ فاستحلفَهُما ألا يبرَحَا، فَحلفَا ألا يبرحَا، فحلفَا لَهُ ولَمْ يفيَا.

وجعلَ الجندَ مِن أهلِ الكُوفةِ يتسلَّلُونَ حتَّى اجتمعُوا بسوق الأهوَازَ، وأرادَ أهلُ البصرةِ الاستلالَ مِنَ المُهلَّبِ فخطَبَهُم فَقَالَ: إنَّكُم لَسْتُمْ كَأهلِ الكُوفَةِ، إنَّما تذبُّونَ عن مِصرِكُم وأموالِكُم وحُرَمكُم.

فَأَقَامَ مِنْهُم قوم وتسلَّل قومٌ كثيرُونَ، وكان خالدُ بنُ عبدِ الله خليفةَ بشرِ بنِ مروانَ، فوجَّه مولًى لَهُ بكتابٍ مِنْهُ إِلَى مَن بِالأَهْوازِ، ويحلفُ بالله مُجتهدًا لئِنْ لَم يرجعُوا إِلَى مرَاكزِهِم، وانصرَفُوا عصاةً لا يظفرُ بأحدٍ مِنْهُم إلا قتَلَهُ، فجاءَهُم مولَاهُ فجعلَ يقرأُ عَلَيْهِم الكتَابَ، وَلَا يرى فِي وجُوهِهِم قبولاً.

فَقَالَ: إنِّي أرى وجُوهًا مَا القبُولُ مِن شَأنِهَا؟!

فَقَالَ لَهُ ابنُ زحرٍ: أيُّهَا العَبدُ اقرأْ مَا فِي الكِتَابِ وانصرفْ إِلَى صَاحِبِكَ، فإنَّكَ لا تدرِي مَا فِي أنفسِنَا، وجعلُوا يستحثُونَهُ بقراءتِهِ، ثمَّ قصدُوا قصد الكُوفةِ فنزلُوا النُّخيلةَ.

وكتبُوا إِلَى خَليفةِ بشرٍ يسألُونَهُ أن يأذنَ لَهُم فِي دخُولِ الكُوفَةِ، فأبَى، فدخلُوهَا بغيرِ إذنٍ، فلمْ يزلِ المهلَّبُ ومَن مَعَهُ من قوادِهِ، وابن مخنفٍ فِي عددٍ قليلٍ، فلم يلبثُوا أَن وَلِيَ الحَجَّاجُ العِرَاقَ، فدَخَلَ الكُوفَةَ قبلَ البصرَةِ، وَذَلِكَ فِي سنة خَمسٍ وَخَمسِينَ، فخَطَبَهُم الخطبَةَ المَشهُورَةَ، وتهَدَّدهُم، ثمَّ نزلَ فَقَالَ لوجُوه أهلِهَا: مَا كَانَتِ الوُلَاةُ تفعلُ بالعُصَاةِ.

قالُوا: كَانَتْ تضربُ وتحبسُ.

فَقَالَ: والله لَيْسَ لَهُم عندِي إلَّا السَّيفُ، إنَّ المُسْلِمِينَ لَوْ لَمْ تغزُ المُشرِكينَ، لغزَاهُمُ المُشركُونَ، ولَو سَاغَتِ المَعصيةُ لأهلِهَا مَا قُوتلَ عَدُوٌّ، وَلَا جبيَ فَيءٌ، وَلَا عَزَّ دينٌ.

ثمَّ جلسَ لتوجيه النَّاسَ.

فَقَالَ: قَدْ أجّلتُكُم ثلاثًا، وأُقسمَ باللهِ لا يتخلفُ أحدٌ منْ أصحَابِ ابنِ مخنفٍ بعدهَا إلا قتلتُه.

ثمَّ قَالَ لصَاحِبِ حرَسِهِ ولصَاحِبِ شرطتِهِ: إذا مَضَتْ ثَلَاثةُ أيَّامٍ فاشحذُوا سُيوفكُمَا.

فجاءَهُ عُميرُ بنُ ضَابئٍ بابنِهِ فَقَالَ: أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ- إنَّ هَذَا أنفعُ لَكُم منِّي، وَهُوَ أشدُّ بني تَميمٍ بدنًا، وأجمعهُم سِلَاحًا، وأربطهُم جَأشًا، وأنا شيخٌ كبيرٌ عليلٌ.

فَقَالَ لَهُ الحجَّاجُ: إنَّ عُذْرَكَ لوَاضحٌ، وإنَّ ضعفَكَ لبينٌ، ولكن أكرهُ أن يجترئَ بكَ النَّاسُ عَلَيَّ، وبعدُ فأنتَ ابن ضابئٍ صَاحِبُ عُثمانَ؟ أوَ لَستَ القَائل:

همتُ وَلَمْ أفعلْ وكدتُ وليتني ... تركتُ عَلَى عثمانَ تبكِي حلَائله؟

وأمرَ بِهِ فقُتلَ، واحتملَ النَّاسُ، وإنَّ أحدًا ليتبعَ بزادِه وسلَاحِهِ، ففِي ذَلِكَ يقولُ ابنُ الزُّبيرِ الأَسدِي:

أقـولُ لعبـدِ الله يـومَ لقيتُـهُ ... أرَى الأمرَ أمسَى منصبًا مُتَشَعِّبَا
تجهَّزْ فإمَّـا أن تزُورَ ابنَ ضـابِئٍ ... عُمَيرًا وإمَّـا أنْ تـزُورَ المُهَلَّبَا
هُمَا خُطتا خَسْـفٍ نَجاؤكَ مِنْهُمَا ... رُكُوبُكَ حَوليًا مـنَ الثَّلْجِ أشْهبَا
فَمَا إنْ أرَى الحجَّاجَ يَغْمِـدُ سَيْفَهُ ... يدَ الدَّهرِ حتَّى يتركَ الطِّفلَ أشْيَبَا
فَأضْحَى وَلَوْ كَانَتْ خُرَاسَانُ دُونَهُ ... رآهَا مَكَانَ السُّوقِ أو هِـيَ أقْرَبَا

وهَربَ سوَارُ بنُ المضرّبِ مِنَ الحَجَّاجِ، وَقَالَ:

أقَاأتِلِي الحَجَّـاجُ إنْ لَمْ أزُرْ لَـهُ ... دَرَابَ وَأتْرُك عِنـدَ هِنْدٍ فُؤَادِيَا

فِي قَصِيدَةٍ مشهُورَةٍ لَهُ.

فَخَرَجَ النَّاسُ عَنِ الكُوفَةِ، وأتَى الحَجَّاجُ البَصْرَةَ، وَكَانَ أشدَّ عَلَيْهِم إلحَاحًا.

وَقَدْ كَانَ أتَاهُمْ خَبَرُهُ بِالكُوفَةِ، فتحمَّلَ النَّاسُ قبْلَ قدُومهِ وأتَاهُ رجلٌ مِنْ بني يَشْكُرَ، وَكانَ شيخًا أعورَ يجعلُ عَلَى عينِه العورَاءِ صوفةً، فكانَ يُلقبُ ذا الكُرْسُفَةِ، فَقَالَ: أصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ إنَّ بِي فتقًا، وَقَد عذرنِي بشرُ بنُ مَرْوَانَ، وَقَد رددتُ العَطاءَ.

فَقَالَ: إنَّكَ عِندِي لصَادقٌ، ثمَّ أمرَ بِهِ فضُربتْ عنقُه ! ففي ذَلِكَ يقولُ كعبُ الأشقري أو الفَرَزْدَقُ:

لَقَدْ ضَرَبَ الحَجَّاجُ بالمِصْرِ ضَرْبَةً ... تقرْقَرَ مِنْهَا بَطْنُ كُلِّ عَرِيفِ

وَيُرْوَى عَنِ ابنِ أبي ميْرَةَ قَالَ: إنا لنتغدَّى مَعَهُ يومًا إذْ جَاءَهُ رجلٌ منْ بنِي تَمِيمٍ برجلٍ يقُودهُ، فَقَالَ: أصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ إنَّ هَذَا عاصٍ.

فَقَالَ لَهُ الرجلُ: أنشدكَ اللهُ أيُّهَا الأميرُ فِي دمِي، فوالله مَا قبضتُ ديوانًا قطُّ، وَلَا شهدتُ عسكرًا قطُّ، وإنِّي لحَائِكٌ أُخذتُ مِن تَحْتِ الحفِّ[1].

فَقَالَ: اضربُوا عُنقَهُ.

---

(١) القصبة التي تجيء وتذهب.

فلمَّا أحسَّ بالسَّيفِ سَجدَ، فلحقهُ السَّيفُ، وَهُوَ ساجدٌ، فأمسَكْنَا عَنِ الأكلِ، فأقبلَ عَلَيْنَا وَقَالَ: مَالِي أرَاكُم صفرتْ أيديكُم، واصفرَّتْ وجُوهكُم، وحدَّ نظركُم من أجلِ رجلٍ واحدٍ، ألا إنَّ العاصيَ يجمعُ خلالاً تُحلُّ قتلُه، يتركُ مركزَهُ، ويعصِي أميرَهُ، ويغرُّ المُسْلِمِينَ وَهو أجيرٌ لهُم، وإنَّما يأخذُ الأجرةَ لما يعملُ، والوالِي مخيَّرٌ فِيهِ إنْ شاءَ قتلَ، وإن شاءَ عفَى.

ثمَّ كَتَبَ إِلَى المُهَلَّبِ:

أما بَعدُ، فإنَّ بشرًا استكرَهُ نفسَهُ عَلَيْكَ، وأراكَ غناهُ عنكَ، وأنَا أُرِيك حَاجتِي إِليْكَ، فأرنِي الجدَّ فِي قتالِ عَدوِّكَ، ومن خفتهُ عَلَى المَعصيةِ ممَّن قبلكَ فاقتلْهُ، فإنِّي قاتِلٌ مَن قِبلِي، ومَنْ كَانَ عندِي ممَّن هربَ عنكَ، فأرِنِي مكَانَهُ، فإنِّي أرَى أنْ آخذَ السَّميَّ بالسَّميِّ، والوَالِي بالوَالِي.

فَكَتَبَ إِليْهِ المُهَلَّبُ:

لَيْسَ قِبلِي إلا مطيعٌ، وإن النَّاسَ إذا أمنُوا العُقُوبةَ صغَّرُوا الذَّنبَ، وإذا يَئِسُوا مِنَ العَفْو أكفرهم ذَلِكَ، فهبْ لِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سميتهُم عصاةً فإنَّهُم فرسَان أبطالٌ، أرجُو أن يقتلَ اللهُ بِهم العَدوَّ.

فلمَّا رأى المُهلَّبُ كَثرَةَ النَّاسِ، قَالَ: اليوم قوتلَ هَذَا العدوُّ، فلمَّا رأى ذَلِكَ قَطريٌّ قَالَ لأَصْحَابِهِ: انهضُوا بنَا نُريدُ السَّرْدن فَنتَحَصَّنَ فِيهَا.

فَقَالَ عبيدةُ بنُ هلالٍ: أوتأتِي سَابُورَ، فتَأخُذ مِنْهَا مَا تريدُ، وتصيرُ إِلَى كِرْمَانَ.

فأتَوْا سَابورَ، وخرجَ المُهلَّبُ فِي آثَارِهم فأتَى أَرْجَانَ، وَخَافَ أن يَكُونُوا قَدْ تحصَّنوا بالسَّرْدَنِ، وَلَيْسَتْ بِمَدِينَةٍ، ولكنَّها جِبَالٌ مُحْدِقَةٌ مَنِيعَةٌ، فلم يُصِبْ بِهَا أحدًا.

فَخَرَجَ نحوَهُم فَعَسكَرَ بِكَازَرُونَ، واسْتعدُّوا لقتالِهِ، فخندَقَ عَلَى نفسِهِ، ووجَّه إِلَى عبدِ الرحمنِ بنِ مخنفٍ أن خَندِقَ عَلَى نفسِكَ، فوجّه إِليْهِ: خنَادقُنَا سُيوفنَا، فوجَّه إِليْهِ المُهَلَّبُ: إِنِّي لا آمنُ عَلَيْكَ البيَاتَ.

فَقَالَ ابنُه جعفرٌ: ذاكَ أهونُ عَلَيْنَا مِن ضرطةِ جملٍ.

فأقبلَ المُهلَّبُ عَلَى ابنِه المغيرةِ فَقَالَ: لَمْ يُصِبِ الرَّأي، ولَمْ يأخُذْ بالوَثيقَةِ.

فلَمَّا أصْبَحَ القَومُ عاودُوهُ الحَرْبَ، فبعثَ إِلَى ابن مخنفٍ يستمدُّهُ، فأمدَّه بجماعةٍ، جعلَ عَلَيْهِم ابنَه جعفرٍ، فجاءُوا عَلَيْهِم أقبيةٌ بيض جُددٌ، فقاتلُوا يَوْمَئِذٍ حتَّى عرفَ مكانَهُم وحَارَبَهُم المهلَّبُ وأبلَى يَوْمَئِذٍ بنُوه كبلاءِ الكُوفيينَ، أو أشد، ثمَّ أتى رئيسٍ مِنَ الخَوَارِجِ يقَالُ لَهُ: صالحُ بنُ مخراقٍ، وَهُوَ ينتخبُ قومًا مِن جلة العسكرِ حتَّى بلغَ أربعمائةٍ.

فَقَالَ لابنِه المُغيرةِ: مَا أرَاهُ يَعدُّ هَؤُلَاءِ إِلَّا للبيَاتِ، وانكشفتِ الخَوارجُ، والأمرُ للمهلَّبِ عَلَيْهِم، وَقَد كثُرَ فيهم الجِرَاحُ والقتلُ.

وَقَد كَانَ الحجَّاجُ يتفقدُ العُصاةَ، ويوجِّه الرِّجالَ، وكانَ يحبسُهُم نهارًا ويفتحُ الحبسَ ليلاً، فيتسلَّلُ الرِّجال إِلَى ناحيةِ المُهلَّبِ، وكانَ الحجَّاجُ لا يعلمُ، فَإِذَا رأى إِسرَاعَهُم تمثَّل:

إِنَّ لَهَا لسَائِقًا عَشَنْزرَا ... إِذَا وَنَينَ وَثبةً تغَشْمَرَا

ثمَّ كَتَبَ الحجَّاجُ إِلَى المُهلَّب يَسْتَحثُّه:

أما بعدُ، فإِنَّهُ قَدْ بلغنِي إِنَّكَ قَدْ أقبلتَ عَلَى جبَايةِ الخَرَاجِ، وتركتَ قتالَ العدوِّ، وإِنِّي وليتُكَ وأَنَا أرَى مكانَ عبدِ الله بن حَكيمِ المجَاشعِي، وعبادِ بنِ الحصينِ الحَبطِي، واخترتُكَ وأنتَ مِن أهلِ عُمانَ، ثمَّ رجلٌ منَ الأزدِ، فالقَهُم يومَ كَذَا فِي مَكَانِ كَذَا، وإلا أشرعتُ إليكَ صدرَ الرمحِ.

فشاورَ المُهلَّبُ بنيهِ فَقَالُوا: أيُّهَا الأميرُ لا تُغلظْ عَلَيْهِ فِي الجوابِ، فَكتَبَ إليهِ:

وردَ إِلَيَّ كتابُكَ تزعُمُ إِنِّي أقبلتُ عَلَى جبايةِ الخراجِ، وتركتُ قتالَ العدوِّ، وَمَنْ عجزَ عَن جبايةِ الخراجِ، فَهُوَ عنْ قتالِ العدوِّ أعجزُ.

وزعمتَ إِنَّكَ وليتنِي وأنتَ ترَى مكَانَ عبدِ الله بنِ حَكيمٍ وعبادِ بنِ الحصينِ، ولو وليتَهُمَا لكانَا مسُتحقِينَ لذَلِكَ لفضلِهِمَا وإغنائِهِمَا وبطشِهِمَا.

وزعمتَ إنَّكَ اخترتني وأنَا رجلٌ من الأزدِ، ولعمري إنَّ شرًّا منَ الأزدِ لقبيلة تَنازعها ثلاثُ قبائل لم تستقرّ فِي واحدةٍ منهنَّ.

وزعمتَ أنّي إن لمْ ألقَهُم يومَ كَذَا فِي مكَانٍ كذَا أشرعت إلَيّ صدر الرّمحِ، ولو فعلتَ لقلبتُ لكَ ظهرَ المِجَنّ، والسَّلَامُ

قَالَ: ثمَّ كانتِ الوقعَةُ بينَهُ وبينَ الخَوارجِ عُقيبَ هَذَا الكتَابِ[١].

فلمَّا انصرَفَ الخَوَارجُ تلكَ اللَّيلةَ، قَالَ لابنِهِ المُغيرةِ: إنِّي أخافُ البيَاتَ عَلَى بنِي تميمٍ، فانهضْ إليهم؛ فكُنْ فيهِم، فَأتَاهُم المُغِيرةُ.

فَقَالَ لَهُ الحريشُ بنُ هلالٍ: يا أبا حَاتمٍ أيخَافُ الأميرُ أن تؤتَى ناحيتُنَا.

قل لَهُ: فَلْيبتْ آمنًا، فإنَّا كافُوهُ مَا قبلنَا إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

فلمَّا انتصفَ اللَّيلُ، وَقَد رجعَ المُغيرةُ إلَى أبيهِ سرى صَالحُ بنُ مخراقٍ فِي القومِ الَّذِين كَانَ أعدَّهُم للبياتِ إلَى ناحيةِ بني تميمٍ وَمَعَهُ عبيدةُ بنُ هلالٍ وَهُوَ يقُولُ:

إنِّي لمُذْكٍ للشُّراةِ نَارَهَا ... ومَانِعٌ ممَّن أتاهَا دَارَهَا

وغَاسِلٌ بالسَّيفِ عنها عَارَهَا

فوجدَ بني تميمٍ أيقاظًا مُتحَارِسينَ، وخرَجَ إلَيْهِم الحريشُ بنُ هلالٍ وَهُوَ يقُولُ:

وَجَدتمُونَا وُقَرًا أنجَادَا ... لَا كُشُفًا مِيلاً وَلَا أوغَادَا[٢]

ثم حمَلَ عَلَى الخَوارجِ فرجعُوا عَنْهُ، فاتَّبعَهُم ثمَّ صَاحَ بِهم: إلَى أينَ يا كلابَ النارِ؟

فَقَالُوا: إنَّمَا أُعِدتْ لَكَ ولأَصْحَابِكَ.

فَقَالَ الحريشُ: كلُّ مملوكٍ لي حرٌّ إن لمْ تدخلُوا النَّارَ إن دخَلَها مجُوسِي فِيمَا بَينَ سفوَانَ وَخُرَاسَانَ.

---

(١) فِي هَامشِ الأصلِ: «بلغَ مقَابلةً على أصلِه فَصحَّ على يدِ مُؤلِّفِهِ عَفَا اللهُ عَنهُ».

(٢) وقرًا، جمع وقور. والنجد: ضد البليد، وهو المتيقظ الذي لا كسل عنده ولا فتور. والأميل، فيه قولان: الذي لا يستقر على الدابة أو الذي لا سيف معه. والأكشف: الذي لا تُرس معه.

ثمَّ قالَ بعضُهُم لبعضٍ: نأتِي عَسْكرَ ابنِ مخنفٍ فإنَّهُ لا خندقَ عَلَيْهِ وَقَد تعبَ فرسانُهم اليومَ مع المهلَّبِ، وَقَد زعمُوا أنَّا أهْوَن عَلَيْهِم مِن ضَرْطةِ جَمَلٍ، فَأَتَوْهُم فلم يشعرِ ابنُ مخنفٍ وأصحَابُه إلَّا وَقَد خالطُوهُم فِي عَسكرِهِمْ.

وكانَ ابنُ مخنفٍ شَرِيفًا.

وفيهِ يقُول رجلٌ من بنِي عامرٍ لرَجُلٍ يعَاتبُهُ ويضربُ بابنِ مخنفٍ المَثَلَ:

تَرُوحُ وَتغدُو كُلَّ يومٍ مُعَظَّمًا　　　كَأَنَّكَ فِينَا مخنفٌ وابنُ مخنفِ

فترَجَّلَ عَبدُ الرحمنِ تلكَ الليلةِ، فجَالَدَهُم حتَّى قُتلَ، وقُتلَ مَعَهُ سبعُونَ رَجُلًا من القُرَّاء فيهم نفرٌ منْ أصحَابِ عليِّ بنِ أبِي طالبٍ، ونفرٌ منْ أصحَابِ ابنِ مسعُودٍ رضي الله عنهما.

وبلغَ الخبرُ المهلّبَ، وجعفرُ بنُ عَبدِ الرحمنِ بن مخنفٍ عِندَ المُهلَّبِ، فجاءَهُم مغيثًا، فقَاتلَ حتَّى ارْتُثَّ [(١)].

ووجَّه المُهلَّبُ إليْهِ ابنَهُ حبيبًا فكشَفَهُم، ثمَّ جاءَ المُهلَّبُ حتَّى صلَّى عَلَى عبدِ الرحمنِ بنِ مخنفٍ وأصحَابِهِ، وصارَ جندُهُ فِي جندِ المهلَّبِ فضَمَّهُم إِلَى ابنِه حبيبٍ، فعيَّرَهُم البصريُّونَ وسمُّوا جعفرًا خَضْفَةَ الجمَلِ، وَقَالَ رَجلٌ مِنهُم لجعفرُ بنُ مخنفٍ:

تَرَكْتَ أَصْحَابَكُم تَدْمَى نُحورُهُم　　　وَجِئْتَ تَسْعَى إِلينَا خَضْفَةَ الجَمَلِ

فلامَ المُهَلَّبُ أهلَ البَصرَةِ، وَقَالَ: بئسَ مَا قلتُم ! واللهِ مَا فرُّوا وَلَا جبنُوا ولكنَّهُم خالفُوا أميرَهُم، أفلا تذكرُونَ فرارَكُم بدُولابَ عنِّي، وفرَارَكُم بفارسَ عَن عُثمانَ؟

ووجَّه الحجَّاجُ البرَاءَ بنَ قبيصةَ إِلَى المُهلَّبِ يَستحثُّه عَلَى مُناجزَةِ القَومِ وكتبَ: إنَّكَ تحبُّ بقَاءَهُم لتأكلَ بِهِم.

فَقَالَ المُهلَّبُ لأَصْحَابِهِ: حركوهُم، فَخَرَجَ فُرسانٌ من أصحَابِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِم مِنَ الخَوَارِجِ جمعٌ كثيرٌ فاقتتلُوا إِلَى اللَّيلِ.

---

(١) المرتث: الذى يُحمل من المعركة جريحًا وبه رمَق.

فَقَالَ لَهُم الخوارجُ: وَيلكُم مَا تملُّونَ؟

فَقَالُوا: لَا.

قالُوا: فَمَنْ أَنْتُم؟

قَالُوا: تميمٌ.

قالتِ الخَوارجُ: ونحنُ تميمٌ أيضًا.

فلمَّا أمسوا افترقُوا، فلمَّا كَانَ الغدُ خَرَجَ عشرةٌ منْ أصحَابِ المُهلَّبِ، وخرَجَ إِلَيْهِم مِنَ الخَوَارِجِ عشرةٌ، واحتَفَرَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُم حُفَيرَةً، وأثبتَ قدمَهُ فِيهَا، فكلَّمَا قُتِلَ رجلٌ جاءَهُ رَجلٌ مِن أصحَابِهِ فاجْتَرَّهُ، وقَامَ مَكَانهُ حتَّى أعْتَمُوا.

فَقَالَ لَهُم الخَوارِجُ: ارجعوا.

قَالُوا: بَلِ ارجعوا أَنْتُم.

قَالُوا لَهُم: وَيْلَكُم مَنْ أَنْتُم؟

قَالُوا: تميمٌ.

قَالُوا: ونَحنُ أيضًا تميمٌ.

فرجعَ البراءُ بنُ قبيصةَ إِلَى الحجَّاجِ.

فَقَالَ: مهيم؟

قَالَ: رأيتُ قومًا أيُّها الأميرُ لا يعينُ عَلَيْهِم إِلَّا اللهُ.

وكتبَ المُهلَّبُ جوابَ الحجَّاجِ: إِنِّي منتظرٌ بِهِم إِحدَى ثَلَاثٍ: موتًا ذَرِيعًا، أو جُوعًا مُضرًّا، أو اختلافًا مِن أهوَائِهِمْ.

وكانَ المُهلَّبُ لَا يتَّكلُ فِي الحِراسَةِ عَلَى أَحَدٍ، كَانَ يتولَّى ذَلِكَ بنفسِهِ، ويستعينُ عَلَيْهِ بولدِهِ وبمَن يحلُّ محلهُم فِي الثِّقةِ عندَهُ.

وقالَ أبو حَزْمَلَةَ العبديُّ ـ يهجُوا المهلَّبَ، وكَانَ فِي عَسْكَرِهِ ـ:

عَدِمْتُكَ يَا مُهلَّبُ مِنْ أَمِيرِ ... أَمَا تَنْدَى يَمِينُكَ للفَقِيرِ

بِدُولَابَ أَضعتَ دِمَاءَ قَومِي   وَطِرْتَ عَلَى مُوَاشِكَةٍ دَرُورِ (١)

فَقَالَ لَهُ المُهلَّبُ: وَيْحَكَ والله إنِّي لاقيكُم بنفسِي وولدِي.

قَالَ: جعلنِي اللهُ فدَاءَ الأميرِ فذاكَ الَّذِي نكرهُ منكَ مَا كُلنَا يحبُّ المَوتَ.

قَالَ: وَيْحَكَ ! وهلْ عَنْهُ محيصٌ؟

قَالَ: لا، ولكنَّا نكرهُ التعجيلَ، وأنتَ تُقدِمُ عَلَيْهِ إقدَامًا.

قال المُهَلَّبُ: وَيْلكَ ! أما سَمِعْتَ قولَ الكَلْحَبَةِ اليَرْبُوعِي:

فَقُلْــتُ لِكَأسٍ أَلجميهَــا فإنَّمَا   نَزلنَا الكَثِيبَ مِن زَرود لنَفزَعَا

إِذَا المَرْءُ لم يخشَ الكَرِيهةَ أَوْشكتْ   حبـالُ الهُوينَا بالفتَى أنْ تقطّعَا

قلتُ: بلَى، ولَكِنْ قولي أحبُّ إليَّ منهُ، وهو:

ولَمَّا وقفتُمْ غُــدْوةً وَعدُوُّكــُم   إلى مهجتِي ولَّيْتُ أعدَاءَكُم ظَهرِي

وَطِرْتَ وَلَمْ أحْفَلْ مَلامةَ جَاهِلٍ   يُسَاقِــي المَنَايَــا بالرُّدَينيةِ السُّمْرِ

فَقَالَ المُهَلَّبُ: بِئسَ حَشْوُ الكَتِيبَةِ أنتَ، واللهِ يا أبَا حَرملَةَ إن شئتَ أذنتُ لكَ فانصرفتَ إِلَى أهلِكَ.

فَقَالَ: بلْ أقيمُ معكَ أيُّها الأميرُ.

فوهبَ لَهُ المهلَّبُ وأعطَاهُ.

فَقَالَ يمدحهُ:

يرَى حتمًا عَلَيْهِ أبو سَعِيدٍ   جَلادَ القومِ فِي أولَى النَّفيرِ

إذا نَادَى الشُّرَاةُ أبَا سَعِيدٍ   مَشَى فِي رِفلٍ مُحْكَمَةِ القَتِيرِ (٢)

قالَ: وكانَ المُهَلَّبُ يقُولُ: مَا يسرُّنِي أنَّ فِي عسكرِي ألفُ شجاعٍ مكانَ بَيْهَسِ بنِ صهيبٍ، فيقالُ لَهُ: أيُّها الأميرُ، بَيْهَس لَيْسَ بشجَاعٍ، فيقُولُ: أجَلْ، ولكنّهُ سَدِيدُ الرَّأي،

---

(١) مواشكة: سريعة.

(٢) الرِفل: الذيل. والقتير: رؤوس مسامير حِلق الدروع.

مُحكَمُ العَقلِ، ذُو رأيٍ حذرٍ سؤُولٌ، فأنَا آمنُ أن يُغتَفَلَ، وَلَو كانَ مكانَهُ ألفُ شجاعٍ لخِلتُ أنَّهم ينشامُونَ[١] حَيثُ يُحتاجُ إِلَيْهِم.

قَالَ: ومطَرتِ السَّماءُ مطرًا شديدًا وهُم بسابُور وبين المهلَّب والشُّرَاةِ عَقبة.

فَقَالَ المُهلَّبُ: منْ يكفِينَا أمرَ هَذِهِ العقبةِ اللَّيلة؟

فلَمْ يقمْ أحدٌ، فلبسَ المُهلَّبُ سلَاحَهُ، وقامَ إِلَى العقبةِ، واتبعَهُ ابنُه المُغِيرَةُ؛ فَقَالَ رجلٌ من أصحَابِه: دعَانَا الأميرُ إِلَى ضَبطِ العقبَةِ، والحَظُّ فِي ذَلِكَ لنَا، ولَمْ نطعه.

واتبعَه جَماعةٌ منَ العَسكرِ، فصَارُوا إليهِ، فَإِذَا المهلَّبُ والمغِيرَةُ لا ثالثَ لهُمَا.

فَقَالُوا: انصرِفْ أيُّهَا الأميرُ فنَحْنُ نكفِيكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعالَى.

فلمَّا أصبحُوا إذا هُم بالشُّرَاةِ عَلَى العَقبةِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِم غُلامٌ مِن أهلِ عُمانَ عَلَى فرسٍ، فجعلَ يحملُ وفرسُه تزلقُ، وتلقَّاهُ مُدركٌ فِي جماعة مَعَهُ حتَّى ردُّوهم عَن العقبةِ.

فلمَّا كَانَ يومَ النَّحرِ والمُهلَّبُ عَلَى المنبرِ يخطبُ النَّاسَ؛ إذا الشُّرَاةُ قَدْ تألبوا.

فَقَالَ المُهلَّبُ: سُبحانَ الله ! أَفِي مثلِ هَذَا اليومِ؟ يا مُغيرَةُ اكْفِنيهم.

فَخَرَجَ إِلَيْهِم المغيرةُ وأمَامَهُ سَعدُ بنُ نجدٍ القردوسِي، وكانَ سعدٌ مقدَّمًا فِي شجَاعتِهِ.

وكانَ الحجَّاجُ إذا ظنَّ برجُلٍ أن نفسَهُ قَدْ أعْجَبَته، قَالَ: لو كنتَ سعدَ بنَ نجدٍ القردوسي مَا عدَا.

فَخَرَجَ أمَامَ المغيرَةَ، وَمَع المغيرة جماعةٌ مِن فُرسَانِ المهلَّب، فالتقَوْا وأمامُ الخوارِجِ غُلَامٌ جَامِعُ السلَاحِ، مديدُ القَامَةِ، كَريه الوَجْهِ، شديدُ الحَمْلَةِ، صَحيحُ الفُروسيةِ، فأقبلَ يحملُ عَلَى النَّاسِ ويَرْتَجِزُ، ويقُولُ:

نَحْنُ صَبَّحناكُمْ غَدَاةَ النَّحْرِ   بالخيلِ أَمْثَالَ الوَشِيجِ تَجْرِي

فَخَرَجَ إِلَيْهِ سعدُ بنُ نجدٍ القردوسِي منَ الأزدِ فتجاولَا ساعةً، ثمَّ طعنهُ سعدٌ فقتلَهُ،

---

(١) يختبؤون.

والتقَى النَّاس فصُرِعَ المُغِيرَةُ يَوْمَئِذٍ فحَامَى عَلَيْهِ سَعدُ بنُ نجدٍ القردوسِي ودينارٌ السّجستَانِي وجماعةٌ مِنَ الفُرسَانِ حتَّى رَكِبَ، وانكشفَ النَّاسُ عِندَ سقطةِ المُغيرةِ حتَّى صارُوا إِلَى المُهلَّبِ، فَقَالُوا: قُتِلَ المُغيرةُ؛ فأتَاهُ دينارٌ السجستانِي فأخبرَهُ بسَلَامتِهِ؛ فأعتقَ كُلَّ مملُوكٍ كَانَ بحضرتِهِ.

قَالَ: وَوَجَّه الحَجَاجُ الجراحَ بنَ عبدِ الله إِلَى المُهلَّبِ يستبطئُهُ في مُناجزَةِ القَومِ، وكتبَ إليهِ:

أمَّا بعدُ، فإنَّكَ جَبَيْتَ الخَرَاجَ بالعِلَلِ، وتحصنتَ بالخَنَادقِ، وطاولتَ القومَ، وأنتَ أعزُّ ناصرًا وأكثرَ عددًا، وَمَا أظنُّ بكَ فِي هَذَا معصيةً وَلَا جُبنًا، ولكنَّكَ اتَّخذتَهُم أُكْلاً، وكانَ بقَاءَهُم أَيْسَرَ عَلَيْكَ من قتَالِهِم، فنَاجِزْهُم، وإِلَّا أَنْكَرتَنِي، والسَّلَامُ.

فَقَالَ المُهَلَّبُ للجراحِ: يا أَبَا عقبةَ والله مَا تركتُ حِيلَةً إلا احتلتُهَا، وَلَا مكيدةً إلا أعملتهَا، وَمَا العَجَبُ مِنْ إِبْطَاءِ النَّصرِ وتراخِي الظَفرِ، ولكن العجبُ أَنْ يَكُونَ الرَّأي لِمَنْ يملكُه دُونَ من ينصرُه، ثمَّ ناهضَهُم ثلاثةَ أَيَّامٍ يغاديهم القتَالَ فَلَا يزالُونَ كَذَلِكَ إِلَى العصرِ، وينصرفُ أصحَابُه، وَبِهِم قَرحٌ، وبالخَوَارجِ قرحٌ وقتلٌ.

فَقَالَ لَهُ الجرّاحُ: قَدْ أعذرْتَ، فكتبَ المهلَّبُ إِلَى الحجَّاجِ:

أتانِي كتابُكَ يستبطؤنِي فِي لقَاءِ العدوِّ، عَلَى إِنَّكَ لا تظنُّ بِيّ معصيةً، وَلَا جُبنًا، وَقَد عاتبتنِي معاتبةَ الجبَانِ، وأوعدتنِي وعيدَ العَاصِي، فاسألِ الجرَّاحَ، والسَّلامُ.

فَقَالَ الحَجَّاجُ للجرَّاحِ: كَيْفَ رأيتَ أخاكَ؟

فَقَالَ: والله أَيُّها الأميرُ مَا رأيتُ مثلَهُ قطُّ، وَلَا ظننتُ أنَّ أحدًا يبقَى عَلَى مثلِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، ولقد شهدتُ أصحَابَهُ أيامًا ثلاثةً يغدون إِلَى الحربِ، ثمَّ ينصرفُونَ عَنْهَا، وهم يطاعنُونَ بالرِّماحِ، ويتجالدُونَ بالسيوفِ، ويتخابطُونَ بالعُمدِ، ثمَّ يروحُون كَأنْ لم يصنعُوا شيئًا، رَواحَ قومٍ تلكَ عادتُهم وتجارتُهم.

فَقَالَ الحَجَّاجُ فِي مدحتِه: لِشدّ مَا وصفتُه أبَا عقبةَ !

فَقَالَ: الحقُّ أوْلَى.

وكَانَتْ رُكَبُ النَّاسِ قديمًا مِنَ الخَشبِ، وكانَ الرَّجلُ يضربُ بركَابِه حتَّى ينقطعَ، فَإِذَا أرادَ الضربَ والطَّعنَ لم يكُنْ لَهُ معتمدٌ، فأمرَ المهلَّبُ فضربَ الحديدُ، فَهُوَ أوَّلُ مَن أمرَ بطبعِهَا.

وَفِي ذَلِكَ يقُولُ عِمْرَانُ بن عِصَامِ العنبرِيُّ:

ضربُوا الدَّرَاهمَ فِي إمَارتِهم ... وَضَربتَ للحَدثَانِ والحَربِ
حِلَقًا ترَى مِنْهَــا مَرَافِقُهُم ... كَمَنَاكِــبِ الجَمَّالــةِ الجُرْبِ

قال: وكتبَ الحجَّاجُ إِلَى العتابِ بنِ ورقاءَ الرياحِي مِن بنِي رياحِ بنِ يربُوع وَهُوَ والِي أصبهانَ يأمرُه بالمَسيرِ إِلَى المُهلَّبِ، وأنَّ يضمَّ إِليْهِ جند عبد الرحمنِ بن مخنفٍ، وكَلَّ بلدٍ يدخلَانه من فتُوحِ أهلِ البصرَةِ فالمهلَّبُ أميرُ الجماعةِ، وأنتَ عَلَى أهلِ الكُوفَةِ، فَإِذَا دخلتُم بلدًا فتحَهُ أهلُ الكُوفَةِ، فأنتَ أميرُ الجماعَةِ، والمُهلَّبُ عَلَى أهلِ البَصرَةِ.

فقدمَ عتَّاب فِي إحدَى جمادينِ مِن سنَة ستٍّ وسبعِينَ عَلَى المهلَّبِ، وَهُوَ بسَابُورَ وَهِيَ من فتُوحِ أهلِ البَصرَةِ، فكانَ المُهَلَّبُ أميرَ النَّاسِ، وعتاب عَلَى أصحابِ ابنِ مخنفٍ، والخوارجُ بأيدِيهِم كِرْمَان وهُم بإزَاء المُهلَّبِ بفَارسَ يحاربُونَ مِن جمِيعِ النَّواحِي.

قَالَ: وَوَجَّه الحَجَّاجُ إِلَى المهلَّبِ رجلَينِ يَسْتَحثانهُ لُمناجزةِ القَومِ، أحدهمَا يقالُ لَهُ: زيادُ بنُ عبدِ الرحمنِ مِن بنِي عَامرِ بنِ صَعْصَعَةَ، والآخرُ مِن آلِ أبِي عقيلٍ مِن رَهطِ الحَجَّاجِ.

فضمَّ المهلبُ زيادًا إِلَى ابنِه حبيبٍ، وضمَّ الثَّقفِي إِلَى ابنِه يزيدَ.

وَقَالَ لهُمَا: خذَا يزيدًا وحبيبًا بالمُناجزَةِ، وغادُوا الخوارج، فاقتتلُوا قتالاً شديدًا؛ فقُتلَ زيادُ بنُ عبدِ الرَّحمن العَامرِي، وفُقدَ الثَّقفِي، ثمَّ باكرُوهم فِي اليومِ الثانِي، وَقَد وُجدَ الثَّقفي، فدعَا بِهِ المهلَّبُ ودعَا بالغدَّاءِ فجعلَ النبلُ يقعُ قريبًا مِنْهُم ويتجاوزهم، والثَّقفي يعجبُ منْ أمرِ المُهلَّب.

فَقَالَ الصلتَانِ العبدِي:

أَلَا يا اصبحَاني قبلَ عوْقِ العَوَائِقِ ... وقبلَ اختراطِ القومِ مثلَ العقائقِ
غدَاة حبيبٍ فِي الحَدِيدِ يقُودُنَا ... يخوضُ المنايا في ظِلَالِ الخوافِقِ
حرُونٌ إذا مَا الحَربُ طَارَ شَرَارُهَا ... وهَاجَ عَجَاجُ النقعِ فوقَ المفارقِ
فَمَن مُبلغ الحجَّاجِ أنَّ أمِينَهُ ... زِيَادًا أطَاحتهُ رِمَاحُ الأَزارِقِ

فلمْ يزل عتاب بنُ ورقاءَ مَع المهلَّبِ ثمانيةَ أشهرٍ حتَّى ظهرَ شَبيبُ بنُ يزيدَ.

فكتَبَ الحجَّاجُ إِلَى عتَّاب يأمُره بالمَصِيرِ إِلَيْهِ ليوجهَهُ إِلَى شَبيبِ بن يزيد، وكتب إلى المهلَّبِ يأمُره أن يرزقَ الجند من رزقِ أهلِ البصرَةِ، فرزق أهلَ البصرة، وأبى أن يرزقَ أهل الكُوفَةِ.

فَقَالَ لَهُ عتَّاب: مَا أنا ببارحٍ حتَّى يُرزق أهل الكُوفَةِ، فَأبى، فجرتْ بينَهما غلظةٌ.

فَقَالَ لَهُ عتَّاب: قَدْ كَانَ يبلغني أنَّكَ شجاعٌ فرأيْتُكَ جبانًا، وَقَد كَانَ يبلغني أنَّك جوادٌ فرأيْتُكَ بَخيلاً.

فَقَالَ لَهُ المهلَّبُ: يا ابنَ اللَّخْنَاءِ!

فَقَالَ لَهُ عتَّاب: لكنَّك مُعمٌّ مُخولٌ.

فغضبَ بكرُ بنُ وائلٍ للمُهلَّبِ للحلفِ، ووثبَ ابنُ نعيم بن هبيرَة بن أخي مَصْقَلة بن هبيرَةَ عَلَى عتَّاب يشتمهُ، وَقَد كَانَ المهلَّبُ كارهًا للحلفِ، فلمَّا رأى نُصرة بكرِ بنِ وائلٍ له سرَّهُ، واغتبطَ بِهِ، فلمْ يزلْ يؤكدُه.

وغضبتْ تميم البصرة لعتَّاب، وغضبت أزد الكُوفَة للمهلَّبِ، فلمَّا رأى ذَلِكَ المُغيرةُ بنُ المهلَّبِ، مشى بَينَ أبيهِ وعتَّاب، فَقَالَ لعتاب: يا أبا ورقاء! إن الأمير يصيرُ إِلَى كُلِّ ما تحبُّ.

وسأَلَ أباهُ أن يرزقَ أهلَ الكُوفةِ، ففعلَ، فصلحَ الأمرُ، فكانتْ تميمٌ قاطبةً وعتاب بن ورقاءَ يحمدُونَ المغيرةَ بنَ المهلَّبِ، وكانَ عتَّاب يقولُ: إِنِّي لأعرفُ فضلَهُ عَلَى أبيهِ.

وَقَالَ رجلٌ منَ الأزدِ من بني إيادِ بنِ سودٍ:

أَلَا بَلِّـــغْ أَبَا وَرْقَــاءَ عنَّــا فَلَوْلَا أَنَّنَــا كُنَّا غضَابَــا
على الشَّيخِ المُهَلَّبِ إِذْ جفَانَا للَاقَتْ خَيلكُم منَّا ضِرابَا

قال: وكانَ المُهَلَّبُ يقُولُ: لَا تَبْدَأُوا الخَوَارِجَ بِقتَالٍ حَتَّى يَبْدَؤُوكُم، وَيبغُوا عَلَيْكُم، فإِنَّهُم إِذَا بَغَوْا عَلَيْكُم نُصرْتُمْ عَلَيْهِم، فَشخصَ عتَّاب إِلَى الحَجَّاجِ فِي سنة سبعٍ وسبعِينَ، فَوَجَّهَهُ إِلَى شَبِيبٍ، فَقَتَلَهُ شَبِيبٌ، وأقامَ المُهَلَّبَ عَلَى حَرْبِهِمْ.

فلَمَّا انقضَى مِنْ مقَامِهِ ثَمانيةَ عَشَرَ شَهْرًا اختلفُوا وافْتَرَقَتْ كَلمَتُهُمْ[(١)(٢)].

---

(١) فِي هامش الأصل: «بلغ مقابلة على أصله».

(٢) «الكامِل» (٣/ ٢٥٢ ـ ٢٧١).

فَصْلٌ

فِي ذِكْرِ شَيْءٍ مِنَ اخْتِلَافِ الخَوَارِجِ:

وَكَانَ سَبَبُ اخْتِلَافِهِمْ: أَنَّ رَجُلًا حَدَادًا مِنَ الأَزَارِقَةِ كَانَ يَعملُ نِصالاً مسمُومةً؛ فيرمي بِهَا الخَوَارِجُ أصْحَابَ المُهَلَّبِ.

فَقَالَ: أَنَا أكفيكمُوهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، فوجَّه رَجُلًا من أصحَابِهِ بكتَابٍ وألف درهمٍ إِلَى عسكرِ قَطريٍّ فَقَالَ لَهُ: ألقِ هَذَا الكتابَ فِي العسكرِ والدراهمَ، واحذرْ عَلَى نفسِكَ.

فكانَ الحدَّادُ يُقالُ لَهُ: أبزى، فمضَى الرَّجلُ وكانَ فِي الكتَابِ:

أما بعدُ؛ فإِنَ نِصالَكَ قَدْ وصلتْ إِليَّ، وَقَد وجهتُ إليك بألفِ درهمٍ، فاقبضها وزِدْنَا من هَذِهِ النِّصالِ؛ فوقعَ الكتابُ إِلَى قطريٍّ، فدَعَى أبزى، فَقَالَ: مَا هَذَا الكتاب؟

فَقَالَ: لا أدرِي.

قَالَ: فهذِه الدَّراهمُ؟

قَالَ: لا أعلمُ علمَهَا.

فأمرَ بِهِ فقُتِلَ فجاءَهُ عبدُ ربِّه الصَّغيرُ مولَى بنِي قيسِ بن ثعلبةَ، فَقَالَ لَهُ: أقتلتَ رَجُلًا عَلَى غيرِ وثيقةٍ وَلَا تبينٍ؟

قال قطريٌّ: فما حَالُ هَذِهِ الألفِ؟

قَالَ: قَدْ يجوزُ أَنْ يَكُونَ أمرُهَا كذبًا، ويجوزُ أَنْ يَكُونَ حقًّا.

قال قَطريٌّ: إن قتلَ رجلٍ فِي صلاحِ النَّاسِ غير منكرٍ، وللإمامِ أن يحكمَ بِمَا رآهُ صلاحًا، وَلَيْسَ للرَّعيةِ أن تعترضَ عَلَيْهِ.

فتنكَّر لَهُ عبدُ ربِّه فِي جماعَةٍ مَعَهُ، ولم يفارقُوهُ، وبلغَ ذَلِكَ المهلَّبُ فدسَّ إِلَيْهِم رَجُلًا نَصرانيًا، جعلَ لَهُ جُعْلاً يُرغبُ فِي مثلِهِ، وَقَالَ: إذا رأيتَ قَطريًا فاسجدْ لَهُ، فَإِذَا نَهَاكَ فقل إنَّما سجدتُ لكَ.

ففعلَ النَّصرَانِي ذَلِكَ، فَقَالَ قَطريٌّ: إنَّما السجودُ لله !

فَقَالَ إنَّما سجدتُ لكُ.

فَقَالَ رجلٌ مِنَ الخَوَارِجِ: إنَّه قَدْ عبدكَ مِن دُونَ الله، وتلَ: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

فَقَالَ قَطريٌّ: إنَّ النَّصارَى قَدْ عبدتْ عيسَى بنَ مريمَ عليه السلام فما ضرَّ عيسى ذَلِكَ شيئًا.

فقامَ رجلٌ مِنَ الخَوَارِجِ إِلَى النَّصرانِي فَقَتَلَهُ؛ فأنكرَ قطريٌّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وأنكرَ قومٌ مِنَ الخَوَارِجِ عَلَى قَطريٍّ إنكارَهُ.

وبلغَ المهلَّبُ، فوجَّه إِلَيْهِم رَجُلًا يَسألهُم فأتاهُم الرَّجلُ، فَقَالَ: أرأيتُم رجلانِ خرجَا مُهَاجرَينِ إليكُم، فماتَ أحدهُمَا فِي الطَّريقِ، وبلغَ الآخرُ إليكم فامتحنتمُوهُ، فلم يجز المحنةَ، مَا تقُولُونَ فيهما؟

فَقَالَ بعضُهُم: أمَّا المؤمنُ فمؤمنٌ من أهلِ الجنةِ، وأما الَّذِي لم يجزِ المحنةَ فكافرٌ حتَّى يجز المحنةَ.

وَقَالَ قومٌ آخرُونَ: بل هُما كافرَانِ حتَّى يجيزا المحنةَ، فكثُرَ الاختلافُ، وخَرجَ قَطريٌّ إِلَى حدُودِ إصْطخرَ، فَأَقَامَ شهرًا، والقومُ فِي اخْتلَافِهِم.

ثمَّ أقبلَ فَقَالَ لَهُم صَالحُ بنُ مخراقٍ: يا قومُ إنَّكُم قَدْ أقررتُم عينَ عدوِّكُم وأطمعتمُوه فِيكُم بِمَا ظهرَ منَ اختلَافِكُم، فعُودُوا إِلَى سَلَامَةِ القُلوبِ، واجتِمَاعِ الكلمَةِ.

وخرجَ عمرو القنَا وَهُوَ من بني سعدِ بنِ عبدِ مناة بن تميمٍ فنادَى: أيُّهَا المُحِلُّونَ[١] هَل لكُمْ فِي الطِّرَادِ فَقَدْ طالَ عهدِي بِهِ، ثمَّ قَالَ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّا مُـذْ ثلَاثينَ لَيْلَـةٍ ... جديبٌ وأعْدَاءُ الكِتَابِ عَلَى خفْضِ[٢]

---

(١) الذين لا يحفظون العهد.

(٢) حفض: الدعة ولين العيش.

فتهايجَ القومُ، وأسرعَ بعضُهم إِلَى بعضٍ، وكانتِ الوقعةُ، وأبلَى يَوْمَئِذٍ المغيرةُ بنُ المهلَّبِ، وصارَ فِي وسطِ الأزارقةِ، فجعلتِ الرماحُ تخبطُه وترفعُه، واعتورتْ رأسَه السُّيوفَ، وَعَلَيْهِ ساعدٌ حديدٌ فوضعَ يدَهُ عَلَى رأسِهِ، فلَمْ تعملِ السُّيوفُ فِيهِ شيئًا، واستنقذَهُ فرسانٌ منَ الأزدِ بعدَ أن صُرِعَ.

وكانَ الَّذِي صَرعَهُ عبيدةُ بنُ هلالٍ مِنْ يَشكرَ بنِ بكرِ بنِ وائلٍ، وكانَ يقُولُ يومئذٍ:

أَنَا ابنُ خَيرِ قَومِهِ هِلَالِ   شَيخٌ عَلَى دينِ أَبِي بِلَالِ
وَذَاكَ دِينِي آخرِ اللَّيالِي

فَقَالَ رَجُلٌ للمُغِيرَةِ: كنَّا نعجبُ كَيْفَ تُصرعُ، والآن نعجبُ كَيْفَ تنجُو !

وقال المُهَلَّبُ لبَنِيهِ: إنَّ سَرْحكُم لغَار[1]، ولستُ آمنهُم عَلَيْهِ، أفوكلتُم بِهِ أحدًا؟

قالُوا: لَا.

فلَمْ يَسْتَتِم الكَلَامَ حتَّى أتاه آتٍ فَقَالَ: إن صَالحُ بنُ مخراقٍ قَد أغَارَ عَلَى السَّرحِ، فشقَّ عَلَى المُهَلَّبِ، وَقَالَ: كُلُّ أمرٍ لا أليْهِ بنفسِي فَهُوَ ضائعٌ، وتذمَّرَ عَلَيْهِم.

فَقَالَ لَهُ بشرُ بنُ المغيرَةِ: أَرِحْ نَفسَكَ، فإنْ كنتَ إنَّما تريدُ مثلَكَ فواللهِ مَا يعدلُ خَيْرُنَا شِسْعَ نَعلِكَ.

فَقَالَ: خذُوا عَلَيْهِم الطُّرقَ.

فبادرَ بشرُ بنُ المغيرَةِ، ومُدركُ بنُ المفضَّلِ ابنَا المُهلَّبِ، فسبقَ بشرٌ إِلَى الطَّرِيقِ، فَإِذَا رجلٌ أسودٌ منَ الأزَارقَةِ يشلُّ السَّرحَ[2]، وَهُوَ يقُولُ:

نَحنُ قَمَعنَاكُم بِشَلِّ السَّرحِ   وَقَدْ نَكأنَا القَرْحَ بَعدَ القَرْحِ

---

(١) الغار: الذي يطمع الناس في أخذه.

(٢) يطرده.

ولحقَهُ المُفضَّلُ ومدركُ فصَاحَا برجلٍ منْ طيِّءٍ: اكفِنا الأسودَ! فاعتورَهُ الطَّائيُّ وبشرُ بنُ المغيرَةِ فقتلَاهُ وأسرَا رجُلاً منَ الأزارَقةِ منْ همْدَانَ، واستردَّا السَّرح [(١)].

قَالَ [(٢)]: وكانَ عياشُ الكِندِي شُجاعًا بَئِيسًا [(٣)]، فأبلَى يومئذٍ، فلمَّا ماتَ عَلَى فراشِه بعدَ ذَلِكَ قَالَ المهَلَّبُ: لَا وألتْ [(٤)] نفسُ الجبَانِ بعدَ عيَّاشٍ.

قَالَ المُهَلَّبُ: مَا رأيتُ تاللهِ لهَؤُلَاءِ القومِ كلَّمَا انتقصَ مِنْهُم يزيدُ فِيهِم.

ووجَّه الحجَّاجُ رجلَينِ إلَى المهلَّبِ يسْتَحِثَانه القتَالِ - أحدُهُمَا مِن كلبٍ، والآخر من سليمٍ -.

فَقَالَ المُهَلَّبُ: متمثلاً والشِّعرُ لأوس بنِ حجرٍ:

وَمُسْتَعْجِبٍ ممَّا يرَى من أَنَاتِنَا ... وَلَوْ زَبَنتهُ الحَرْبُ لَمْ يَتَرَمْرَمِ [(٥)]

فَقَالَ المُهَلَّبُ ليزيدَ ابنِه: حَرِّكِ القَومَ، فحرَّكَهُم فتهَايجُوا، وَذَلِكَ فِي قريةٍ من قرَى إصطخرَ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الخَوَارِجِ عَلَى رجُلٍ منْ أصْحَابِ المُهَلَّبِ، فطعنَهُ فشكَّ فخذَه بالسَّرجِ.

فَقَالَ المُهَلَّبُ للسُّلمِي والكلبِي: كَيْفَ نقاتلُ قومًا هَذَا طعنهُم، وَحَمَلَ يزيدُ عَلَيْهِم، وَقَد جاءَ الرُّقَادُ [(٦)] وَهُوَ مِن فُرسَانِ المُهلَّبِ، وَهُوَ أحدُ بنِي مالكِ بنِ ربيعةَ عَلَى فرسٍ لَهُ أدْهمَ، وَبِهِ نيِّفٌ وعشرُونَ جِرَاحة، وَقَد وضعَ عَلَيْهَا القُطنَ، فلمَّا حملَ يزيدُ ولَّى الجمعُ، وجاءَهُم فارسانٌ مِنْهُم.

---

(١) «الكامِل» (٣/ ٢٧٣ - ٢٧٤).

(٢) «الكامِل» (٣/ ٢٧٤).

(٣) شديد الشجاعة.

(٤) لا نجت.

(٥) لم يتحرك.

(٦) فِي الهامش: «اسم رجل فارسي».

فَقَالَ يزيدُ لقيسِ الخُشنِي مولَى العتيك: مَن هٰذَينِ؟

قَالَ: أنَا.

فَحَمَلَ عليهِمَا، فعطفَ عَلَيْهِ أحدهُمَا، فطعنَهُ قيسٌ فصرَعَهُ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ الآخرُ فتعانقَا فسقطَا جميعًا إِلَى الأرضِ، فصاحَ قيسٌ الخشني: اقتلُونا جميعًا، فحملَتْ خيلُ هَؤُلَاءِ وخيلُ هَؤُلَاءِ، فحجزوا بينهمَا، فَإِذَا معانقُ قيسٍ امرأةٌ، فقامَ قيسٌ مُستحيًا.

فَقَالَ لَهُ يزيدُ: يا أبا بَشرٍ أمَا أنتَ فبَارَزتهَا عَلَى أنَّها رجلٌ؟

فَقَالَ: أرأيتَ لَو قُتِلْتُ، أمَا كَانَ يقالُ: قتلتْهُ امرأةٌ!

وأَبلَى يَوْمَئِذٍ ابنُ المنجبِ السَّدوسِي، فَقَالَ لَهُ غلامٌ لَهُ يقالُ لَهُ خلاجٌ: واللهِ لَودِدْنَا أنَّا فَضضنَا عَسْكرَهُم حتَّى نصيرَ إِلَى مُسْتَقرهِم، فأَستلبُ ممَّا هناكَ جاريتَينِ.

فَقَالَ لَهُ مولاهُ ابنُ المنجبِ: وكَيْفَ تمنيتَ، ويْحَكَ اثنتين؟

فَقَالَ: لأعطيكَ إحدَاهُمَا وآخذُ الأخرَى!

وقال ابنُ المنجبِ:

أَخُلَاجُ إِنَّكَ لَـن تعانـــق طِفْلَـةً ... شَرِقًـا بِهَـا الجادِي كالتمْثَالِ[1]

حتَّى تُلَاقِـــي فِي الكَتِيبَـــةِ مُعْلِمًا ... عَمْرو القنَا وعبيدةَ بـنَ هِلَالِ

وَترَى المُقَعْطَرَ فِي الفوارسِ مُقْدِمًا ... فِي عُصْبَةٍ نشطُوا على الضُّلَّالِ

أَو أَن يُعلِّمَـــكَ المُهَلَّـــبُ غَزوةً ... وتَـرَى جِبالًا قَدْ دَنَتْ لجِبَالِ

قال[2]: وكان بدرُ بنُ الهُذيلِ مِن أصحابِ المهلَّبِ شجاعًا، وكانَ لحَانَةً، كَانَ إذا أحسَّ بالخَوَارجِ ينادَي: يا خيلَ الله اركبِي! وإليهِ يشيرُ القَائلُ:

وإِذَا طلبتَ إِلَى المُهلَّبِ حَاجـةً ... عَرَضَتْ توَابعُ دُونَـهُ وَعَبِيـدُ

العَبْـدُ كُرْدُوس وَبَــدْرٌ مِثْلُـهُ ... وَعلَاجُ بَابِ الأَحْمَرِيـنِ شَدِيدُ

---

(١) الجادي: الزعفران.

(٢) «الكامِل» (٣/ ٢٧٦).

قال[١]: وَكَانَ بشرُ بنُ المغيرَةِ بن صُفْرةَ أبلى يَوْمَئِذٍ بلاءً حَسنًا عُرفَ مكانهُ فِيهِ، وكانت بينَهُ وبينَ المُهلَّبِ جَفْوةٌ، فَقَالَ لبنِيهِ: يا بني عمّ إنِّي قَدْ قصرتُ عن شَكَاةِ العَاتبِ، وجاوزتُ شَكاةَ المُستعتبِ، حتَّى كَأني لَا موصُولٌ وَلَا محرومٌ، فاجعلُوا لِي فُرجةً أعيشُ بِهَا، وهبُونِي أمراً رجوتُم نصرَهُ، وخِفتُم لسانَهُ، فرجعُوا لَهُ، ووصلُوهُ، فكلَّمُوا فِيهِ المُهَلَّبَ فَوَصَلَهُ.

وَوَلَّى الحَجَّاجُ كَرَدْمًا فارسَ، وَوَجَّهه إِلَيْهَا والحَربُ قائمةٌ، فَقَالَ رجلٌ من أصحَابِ المُهلَّبِ:

وَلَو رَآهَا كَرْدمٌ لكَرْدَمَا ... كَرْدَمَةَ العَيْرِ أحسَّ ضَيْغَمَا

فَكَتَبَ المُهَلَّبُ للحجَّاجِ يَسْأَلَهُ أَن يتحَامَى لَهُ عَنْ إصْطخُرَ ودَارابجردَ لأرزاقِ الجُندِ، ففعلَ الحجَّاجُ.

وَقد كَانَ قَطريٌّ هدمَ مدينةَ إصطخرَ؛ لأنَّ أهلَهَا كانُوا يُكاتبُونَ المهلَّبَ بأخبَارِهِ، وأرادَ مثلَ ذَلِكَ بمدينةِ نَسَا، فاشترَاهَا مِنْهُ آزاذمرد بن الهَربذ بمائةِ ألفِ درهمٍ، فَلَمْ يهدمْهَا، فَواقعَهُ وجه المُهلَّبُ فهزَمَهُ، فنفاهَ إِلَى كِرْمَانِ، وأتبعهُ المغيرَةُ ابنه وكانَ قَدْ دفعَ إِلَيْهِ سيفًا وجَّه بِهِ الحجَّاجُ إِلَى المهلَّبِ، وأقسمَ عَلَيْهِ أن يتقلَّدَهُ، فدفعَهُ إِلَى المُغِيرَةِ بعدَمَا تقلَّدَه، فرجعَ به المغيرَةُ إليه، وَقد دمّاهُ؛ فسُرَّ المُهلَّبُ.

وقال: مَا يسُرُّنِي أنْ يَكُونَ دفعتهُ إِلَى غيرِكَ مِن ولدِي.

وَقَالَ لَهُ: اكفنِي جبايةَ خراجِ هاتَينِ الكورتَينِ، وضمَّ إِلَيْهِ الرُّقادَ، فجَعَلَا يجبيانِ، وَلَا يعطيانِ الجُندَ شيئًا، ففي ذَلِكَ يقولُ رجلٌ مِن بنِي تميمٍ فِي كلمَةٍ لَهُ:

وَلَو عَلِمَ ابنُ يُوسُفَ مَا نلَاقِي ... منَ الآفَاتِ والكُرَبِ الشِّدَادِ
لفَاضَتْ عَيْنُـهُ جَزَعًـا عَلَيْنَا ... وأَصْلَحَ مَا اسْتطَاعَ مِنَ الفَسَادِ
ألَا قُـلْ للأَمِيرِ جُزِيتَ خَيْرًا ... أَرِحْنَا مِـنَ مُغِيرَةَ والرُّقَـادِ
فَمَا رُزِقَ الجُنـودُ بِهِـم قفيـزًا ... وَقَـدْ سَاسَت مَطَامِيرُ الحصَادِ

---

(١) «الكامِل» (٣/ ٢٧٦).

أي: وَقَعَ فِيهَا السُّوسُ.

قال[1]: ثمَّ حَارَبَهُم المُهَلَّبُ بالسيرَجَانِ حتَّى نَفَاهُم عَنْهَا إِلَى جيرفْتَ، واتَّبعَهُم، وَنَزَلَ قَرِيبًا مِنْهُمْ.

(١) «الكامِل» (٣/ ٢٧٧).

فَصْلٌ

فِي سَبَبِ آخرَ مِنَ اخْتِلَافِ الخَوَارِجِ:

ثمَّ اخْتَلَفَتْ كَلِمَةُ الخَوَارِجِ، وكانَ سَبَبُ ذَلِكَ: أنَّ عبيدةَ بنَ هلالٍ اتُّهِمَ بامْرَأةِ رجلٍ نجارٍ، فرأوهُ يَدخلُ مرَارًا إليْهَا بغيرِ إذنٍ،فأتوا قَطريًا فذكروا ذَلِكَ لهُ.

فقالَ لَهُم: إنَّ عبيدةَ مِنَ الدينِ بحيثُ عَلِمْتُم، ومنَ الجهَادِ بحيثُ رأيتُم.

فَقَالُوا: إنَّا لا نقارُّ عَلَى الفاحشَةِ.

فَقَالَ: انصرِفُوا.

ثمَّ بعثَ إلَى عبيدةَ فأخبرَهُ، وَقَالَ لَهُ: إنَّا لَا نقارُّ عَلَى الفاحشَةِ.

فَقَالَ: بَهَتُونِي يا أميرَ المُؤْمِنِينَ فَمَا ترَى؟

قَالَ: إنِّي جامعٌ بينَكَ وَبَيْنَهُم فَلَا تخضعْ خضوعَ المُذنبِ، وَلَا تتطاولْ تطاولَ البريءِ.

فجمعَ بَيْنَهُم، فتكَلَّمُوا، فقامَ عبيدةُ فَقَالَ: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ حتَّى تلَا الآياتِ، فبكَوا وقامُوا إليْهِ، فاعتنقُوهُ، وقَالُوا: اسْتَغْفِرْ لنَا، فَفَعَلَ.

فَقَالَ عبدُ ربِّهُ الصَّغِيرِ مولَى بنِي قَيسِ بنِ ثعلبةَ: واللهِ لقَدْ خَدَعَكُم، فبايعَ عبدَ ربِّه مِنْهُم أناسٌ كثيرٌ، ولم يظهرُوا، ولَمْ يجدُوا عَلَى عبيدةَ فِي إقامَةِ الحَدِّ ثبتًا.

وكانَ قَطريٌّ قَدِ استعملَ رَجُلًا مِنَ الدَّهاقِينَ، فظهرتْ لَهُ أموالٌ كثيرةٌ، فأتَوْا قَطريًا فَقَالُوا: إنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ لَمْ يكُنْ يُقارّ عمَّالهُ عَلَى مثلِ هَذَا.

فَقَالَ قَطريٌّ: إنِّي استعملتُهُ، وَلَهُ ضياعٌ وتجارَاتٌ.

فأوغرَ ذَلِكَ صدُورَهُم.

وَبلَغَ المهلَّبَ ذلكَ فَقَالَ: اختلَافُهُم أشدّ عَلَيْهِم منَّا.

ثمَّ قَالُوا لقَطريٍّ: ألا تَخْرُجُ بنَا إلَى عدوِّنَا؟

فَقَالَ: لا، ثمَّ خَرَجَ.

فقالُوا: قَدْ كذبَ، وارْتَدَّ، فاتبعُوهُ يومًا، فأحسَّ بالشرِّ، ودخلَ دارًا مع جَمَاعَةٍ من أصحَابِهِ فاجتمعُوا إِلَيْهِ، وصاحُوا: اخرجْ إلينَا يا دَابةُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِم فَقَالَ: أرجعتُم بعدِي كُفَّارًا؟

قَالُوا: أَوَ لَسْتَ دَابةً، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الآيَةَ، ولكنَّكَ قَدْ كفرتَ بقولِكَ: إنا قَدْ رَجعْنَا كفارًا، فتُبْ إِلَى اللهِ.

فشَاورَ عبيدةَ فِي ذَلِكَ.

فَقَالَ: إِنْ تُبْتَ لَمْ يقبلُوا منكَ.

فَقَالَ: إِنِّي استفهمتُ، فَقَلتُ: أرجعتُم بعدِي كفَّارًا؟

فقبلُوا مِنْهُ، فرجعَ إِلَى منزلِهِ.

ومنهم: عبدُ ربّه الصَّغِير أحدُ موالِي قيسِ بنِ ثعلبةَ[(١)]:

لَمَّا اختلفتِ الخَوارجُ عَلَى قَطريٍّ بايعَهُ مِنْهُم خلقٌ كثيرٌ، وكان قَطريٌّ قَدْ عزمَ عَلَى أن يبايعَ المُقْعْطَرَ العَبْدِي، ويخلعَ نفسَهُ، فجعلَهُ أميرَ الجيشِ فِي الحربِ قبلَ أن يعهدَ إِلَيْهِ بالخلَافةِ، فكَرهَهُ القَومُ وأبَوْهُ.

وقال صالحُ بنُ مخراقٍ عنهُم وعَن نفسِهِ: ابغِ لنَا غيرَ المُقَعْطَرِ.

فَقَالَ لَهُم قَطريٌّ: إِنِّي أرَى طولَ العهدِ قَدْ غيَّرَكُم، وأنتُم بصددِ عدوٍّ، فاتقُوا ربَّكُم، وأقبلُوا عَلَى شأنِكُم، واستعدُّوا للقَاءِ القومِ.

فَقَالَ صَالحُ بنُ مِخْرَاقٍ: إِنَّ النَّاسَ قَبْلنَا قَدْ سامُوا عثمانَ ﵁ أنْ يعزلَ سعيدَ بنَ العاصِ عنهُم، فَفَعَلَ، ويجبُ عَلَى الإِمَامِ أن يعفِيَ الرَّعيةَ ممَّا كَرِهتْ. فأبَى قَطريٌّ أن يعزلَ المُقَعْطَرَ.

فَقَالَ لَهُ القومُ: فإنَّا قَدْ خَلعنَاكَ، وبايعنَا عبدَ ربِّه الصَّغيرَ.

---

(١) «شرح نهج البلاغة» (٤/ ٢٠٤).

وكانَ عبدُ رَبِّه هَذَا معلِّمَ كتَّابٍ، وكانَ عبدُ ربِّه الكَبِيرُ بائعَ رمَّانٍ، وكِلَاهُمَا من مَوالِي قيسِ بنِ ثعلبَةَ، فانفصلَ إِلَى عبدِ ربِّه الصغيرِ أكثرُ مِن شَطرِهِم، وجلُّهم المَوالِي والعَجَم، وكانَ مِنْهُم هناكَ ثمانيةُ آلافٍ، وهُم القُرَّاءُ.

ثمَّ ندمَ صالحُ بنُ مِخْرَاقٍ وَقَالَ لقطريٍّ: هَذِهِ نفخةٌ منْ نفخَاتِ الشَّيطَانِ، فَأعذنَا منَ المُقَعْطَرِ، وَسِرْ بنَا إِلَى عدوِّنَا وعدوِّكَ، فأبى قَطريٌّ إِلا المُقَعْطَرِ، وَحَمَلَ فتًى مِنَ الشُّراةِ عَلَى صَالحِ بنِ مِخْرَاقٍ فطَعَنَهُ، وأنفذَهُ، وأوجرهُ الرمحَ.

فنشبَ الحربُ بَيْنَهُم فتهايجُوا، ثمَّ انحازَ كُلُّ قَومٍ إِلَى صَاحِبِهِمْ، فلمَّا كَانَ الغَدُ اجتمَعُوا فاقتتَلُوا، فانجلتِ الحَربُ عَن ألفي قتيل، فلمَّا كَانَ الغدُ عاودُوا الحربُ، فلم ينتصفِ النَّهارُ حتَّى أَخْرَجَتِ العَجَمُ العَرَبَ عَنِ المَدِينَةِ، فَأَقَامَ عبدُ ربِّه بِهَا، وصار قَطريًا خارجًا من مَدينةِ جيرفْت بإِزَائِهِم.

فَقَالَ لَهُ عبيدةُ بنُ هلالٍ: يا أميرَ المُؤْمِنِينَ إن أقمتَ لَم آمنْ هَذِهِ العبيدَ عَلَيْكَ إِلَّا أن تُخندقَ عَلَى نفسِكَ، فخَندقَ عَلَى بابِ المدينَةِ، وجعلَ يناوشهُم.

وارْتحلَ المُهَلَّبُ، وكانَ مِنْهُم عَلَى ليلةٍ، ورسولُ الحجَّاجُ مَعَهُ يستحثُّه، فَقَالَ لَهُ: أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ عَاجِلْهُم قبل أن يَصْطَلِحُوا.

فَقَالَ المُهَلَّبُ: إِنَّهُم لَنْ يَصْطَلِحُوا، ولكن دَعْهُمْ فإِنَّهُم سيصيرُونَ إِلَى حالٍ لا يُفلحُونَ معَهَا.

ثمَّ دسَّ رَجُلًا من أصْحَابِهِ فَقَالَ: إيتِ عسكرَ قَطريٍّ فقُلْ: إِنِّي لَمْ أزلْ أرَى قَطريًا يُصِيبُ الرَّأيَ حتَّى نزلَ منزلَهُ هَذَا، فظهَرَ خَطَأُهُ، أيُقيم بَينَ المُهلَّبِ وعبدُ ربِّه، يغادِيهِ القتَال هَذَا، ويرَاوحُه هَذَا.

فنمَى الكَلامُ إِلَى قَطريٍّ فَقَالَ: صدقَ، تَنَحَّوْا بنَا عَن هَذَا المَوضعِ، فإِنِ اتبعَنَا المهلَّبُ قَاتلنَاهُ، وإن أقامَ عَلَى عَبد ربِّه رأيتُم فِيهِ مَا تُحبُّونَ.

فَقَالَ لَهُ الصَّلتُ بنُ مرَّةَ: يا أميرَ المُؤْمِنِينَ إن كُنتَ إنَّمَا تريدُ اللهَ فاقدُمْ عَلَى القومِ، وإن

كُنتَ إنَّمَا تريدُ الدُّنيا فأعلمْ أصحَابَكَ حتَّى يَسْتَأمنُوا، ثمَّ قَالَ:

قُلْ للمُحلين قَـدْ قَـرَّتْ عُيونُكُـم ... بِفُرقَـةِ القَومِ والبَغضَاءِ والهَـربِ

كنَّـا أناسًـا عَلَى ديـنٍ فغيَّرنَـا ... طـولُ الجِدَالِ وخلطُ الجدِّ باللعبِ

مَا كَانَ أَغنَى رجَـالاً قلَّ جَيْشُهُم ... عَـنِ الجِدَالِ وأغنَاهُم عَنِ الخُطَبِ

إنِّي لأَهْوَنُكُم فِي الأَرْضِ مُضْطربًا ... مَا لِي سِوَى فَرَسِي والرُّمحِ مِنْ نُشُبِ [(١)]

ثم قَالَ [(٢)]: أصبحَ المهلَّبُ يَرْجُو مَا كنَّا نَطْمَعُ مِنْهُ فِيهِ.

وارْتحَلَ قَطريٌّ، وبلغ ذَلِكَ المُهلَّبَ فَقَالَ هُرَيم بنِ عِيسَى بن أَبِي طحْمَةَ المُجَاشِعِي: إنِّي لا آمنُ أَنْ يَكُونَ كاذبًا بتركِ موضعِهِ، اذْهَبْ فتعرّفِ الخبرَ.

فمَضَى هُرَيمُ فِي اثنَى عَشَرَ فَارِسًا، فَلَمْ يرَ فِي العَسْكَرِ إلَّا عَبدًا وعِلجًا مَرِيضَينِ، فَسَألَهُمَا عَن قَطرِيٍّ وأصحَابِهِ فقَالَا: مَضَوْا يَرْتَادُونَ غيرَ هَذَا المَنزلِ.

فرجعَ هُرَيمٌ إِلَى المُهَلَّبِ فأخبَرَهُ، فارْتحَلَ حتَّى نزلَ خندقَ قَطريٍّ، فجعَلَ يقاتلُ عَبدَ رَبِّه أحيَانًا بالغدَاةِ، وأحيانًا بالعَشِي.

فَقَالَ رَجلٌ مِن سدوسٍ يقالُ لَهُ: المُعْتقُ، وكَانَ فَارِسًا:

لَيْتَ الحَرَائِرَ بالعِرَاقِ شَهِدْنَنَا ... وَرَأَيْننَا بالسَّفحِ ذِي الأَجْبَالِ

فنَكَحْنَ أَهلَ الجد مِن فُرسَاننَا ... والضَّارِبِينَ جَمَاجِمَ الأبطَـالِ

ووَجَّه المُهَلَّبُ يزيدَ ابنَهُ إِلَى الحَجَّاجِ يُخْبِرُهُ بأَنَّهُ قَدْ نزلَ منزلَ قَطريٍّ، وأَنَّهُ مقيمٌ عَلَى عَبدِ ربِّه، ويسألَهُ أَن يوجِّه فِي إثرِ قَطريٍّ رَجُلًا جَلدًا، فسرَّ ذَلِكَ الحجَّاجُ سرُورًا أظهرَهُ، ثمَّ كَتَبَ إِلَى المُهلَّبِ يَسْتَحثُّهُ لمُناجزةِ القَومِ مَع عبيدِ بنِ مُوهبٍ:

أمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ تترَاخى عَنِ الحَربِ حتَّى تأتيَكَ رُسلِي، فيرجعُونَ بِعُذرِكَ، وَذَلِكَ إنَّكَ

---

(١) «الكامِل» (٣/ ٢٧٨ _ ٢٧٩).

(٢) «الكامِل» (٣/ ٢٧٩ _ ٢٨٠).

تمسكَ حتَّى تبرأ الجِرَاحُ، وتُنسَى القتلَى، ويجمَّ الكَالّ، حتَّى تلقَاهُم فتحملُ مِنْهُم ثقلَ مَا يحتملُونَ منكَ مِن وحشةِ القتلِ، وألمِ الجِرَاحِ، ولَو كنتَ تلقاهُم بِذَلِكَ الجِدِّ؛ لكَانَ الداءُ قد حُسِم، والقِرن قَدْ قُصِم، ولعمرِي مَا أنتَ والقَوم سوَاء؛ لأنَّ مِن ورَائِكَ رِجالاً وأمَامكَ أموَالاً، وَلَيْسَ للقَومِ إلَّا مَا مَعَهُم، وَلَا يُدركُ الوَجِيفُ[1] بالدَّبيبِ، وَلَا الظَّفرُ بالتَّعذِيرِ.

فلمَّا وَردَ عَلَيْهِ الكِتَابُ قَالَ لأَصْحَابِهِ: يا قَومُ إنَّ اللهَ قَدْ أرَاحَكُم مِن أمورٍ أربعةٍ: قَطريُّ بنُ الفجاءَةِ، وصالحُ بنُ مِخْرَاقٍ، وعبيدةُ بنُ هِلَالٍ، وسعدٌ بن الطَّلَائِع، وإنَّمَا بَينَ أيدِيكُم عَبدُ ربِّه الصَّغير خُشار من خُشارِ الشَّيطانِ تقتلُونَهُم إنْ شَاءَ اللهُ.

فَكَانُوا يتغادونَ القتالَ، ويترَاوحُونَ، فتُصيبهُم الجِراحُ، ثمَّ يتحَاجزُونَ، فكأنَّمَا انصرَفُوا عنْ مَجلسٍ كَانُوا يَتَحَدثُونَ فِيهِ، يضحكُ بعضُهم إلَى بعضٍ، فَقَالَ عبيدُ بنُ موهبٍ: قَدْ بَانَ عُذْرُكَ، فاكتبْ فإنِّي مُخْبِرٌ الأمِيرَ.

فَكَتبَ إِلَى الحَجَّاجِ:

أمَّا بَعْدُ، فإنِّي لمْ أُعطِ رُسُلِكَ عَلَى قولِ الحقِّ أجرًا، ولم أحتج بِهم عن المُشاهدَةِ إِلَى تَلقِينٍ.

وذكرتَ أنِّي أُجمُّ القومَ، ولابدَّ منْ وقتِ راحة، حتَّى يستريحَ فِيهِ الغَالِبُ، ويحتالَ فِيهِ المغلُوبُ.

وذكرْتَ أنَّ فِي الجِمَامِ مَا يُنسِي القتلَى وتبرأ منه الجِراح، وهيهاتْ أن يُنسَى مَا بيننا وبَيْنَهُم، يأبَى ذَلِكَ قتلَى لم تُجنْ، وقروحٌ لم تتقرف[2]، ونحنُ والقومُ عَلَى حالةٍ، وهُم يرقبُونَ منَّا حالاتٍ، إن طمِعُوا حاربُوا، وإن ملُّوا وقفُوا، وإن يئسُوا انصرفُوا، وَعلينَا أن نقاتلَهُم إذا قاتلُوا، ونتحرزَ إذا وقفُوا، ونطلبَ إذا هربُوا، وإن تركتنِي والرَّأي كَانَ القِرنُ مقصُومًا،

---

(١) السير السريع.

(٢) تُجن: تُقبر. تتقرف: تتقشر.

والدَّاءُ بإذنِ الله محسُومًا، وإن أعجلتنِي لم أُطعْكَ، ولم أعصِكَ، وجعلتُ وجهِي إِلَى بابِكَ، وأعوذُ بالله منْ سَخَطِ الله، وَمَقْتِ النَّاسِ[1].

ولَمَّا اشتدَّ الحصَارُ عَلَى عبدِ ربِّه قَالَ لأَصْحَابِهِ: لا تفتقرُوا إِلَى مَن ذهبَ عنكُم من الرِّجالِ، فإنَّ المُسلمَ لا يفتقرُ مَع الإِسلامِ إِلَى أحدٍ غيرِهِ، والمسلمُ إذا صحَّ توحيدُهُ عزَّ بربِّهِ وَقَد أرَاحَكُم اللهُ من غِلظَةِ قَطريٍّ، وعَجلةِ صالحِ بنِ مخراقٍ ونخْوته، واختلاطِ عبيدةَ بنِ هلالٍ، ووكَّلكُم إِلَى بصَائِرِكُم، فالقَوا عدوَّكُم بصبرٍ ونيةٍ، وانتقلُوا عَن منزلِكُم هَذَا، فمنْ قُتلَ مِنكُم قُتلَ شهيدًا، وَمن سَلمَ مِنَ القتلِ فَهُوَ المَحرُومِ.

قال[2]: وقدِمَ فِي ذَلِكَ الوقتِ عَلَى المُهلَّبِ: عبيدة بنُ ربيعةَ بنِ أبِي الصَّلتِ الثَّقفِي مِنْ عِندِ الحَجَّاجِ يستحثُّهُ بالقتَالِ، وَمَعَهُ أمينانِ، فَقَالَ للمهلَّبِ: خالفْتَ وصيةَ الأميرِ، وآثرْتَ المدافعةَ والمُطَاولةَ.

فَقَالَ لَهُ المُهَلَّبُ: والله مَا تَركْتُ جهدًا.

فلَمَّا كَانَ العَشِي خَرجتِ الأزَارقةُ، وَقَد حَملُوا حَرِيمَهُم وأمْوَالَهُم، وخُفَّ متاعِهم ليتنقِلُوا.

فَقَالَ المُهلَّبُ لأَصْحَابِهِ: الزَمُوا مصَافكُم، وأشْرِعُوا رمَاحَكُم، ودعُوهُم والذَّهابَ.

فَقَالَ لَهُ عبيدة بنُ أبِي رَبيعةَ: هذا لعمري أيسر عليك. فغضب وقال للناس: ردّوهم عن وجهِهم، وقال لبنيهِ: تفرّقوا في الناس، وقال لعبيدةَ بنِ أبِي رَبيعَةَ: كُن مع يزيد، فخذه بالمحاربة أشدّ الأخذ، وقال لأحد الأمينين: كُنْ مَع المُغيرَةِ وَلَا تُرخِّصْ لَهُ فِي الفتُورِ.

فاقتتلُوا قتالاً شَدِيدًا حتَّى عُقِرَتِ الخَيْلُ، وصُرِعَ الفُرْسَانِ، وقُتِلَتِ الرِّجالُ، وَجَعَلَتِ الخَوَارِجُ تقاتلُ عَن القَدَحِ يؤخذُ مِنْهَا، والسَّوطِ والعَصَا والعِلْق والحَشيشِ أشَدَّ قتَالٍ،

---

(١) فِي هامش الأصل: «بلغ مقابلة على أصله فصح».

(٢) «الكامِل» (٣/ ٢٨١ ـ ٢٨٢).

وسقطَ رمحٌ لرجُلٍ مِن مرَادٍ مِنَ الخَوَارِجِ؛ فقاتَلُوا عَلَيْهِ حتَّى كثُرَ الجِرَاحُ والقتلُ، وَذَلِكَ مع المَغرِبِ، والمُرَادِيُّ يَرْتَجِزُ ويقُولُ:

اللَّيلُ ليْلٌ فِيهِ وَيْلٌ وَيلُ وقَد سَالَ بالقَومِ الشُّرَاةِ السَّيلُ
إنْ جَازَ للأَعْدَاءِ فِينَا قَوْلُ

فلَمَّا عَظُمَ الخَطْبُ فِي ذَلِكَ الرَّمحِ بعثَ المُهلَّبُ للمُغيرَةِ: خلِّ لهُم عَنِ الرمحِ عَلَيْهِم لعنةُ الله !

فَخلوا لهُم عَنْهُ، ومضَى الخَوَارِجُ، فنزلَتْ عَلَى أربع فرَاسِخ منْ جيرفْت، فدَخَلَهَا المهلَّبُ، وأمرَ بجَمِيعِ مَا كَانَ لهُم مِن متاعٍ، وخلَّفُوه منْ رقيقٍ، وختمَ عَلَيْهِ هُوَ والثَّقفِي والأمينَانِ، ثمَّ اتبعهُم فوجدَهُم قَدْ نزلُوا عَلَى ماءٍ وعَينٍ لا يَشربُ مِنْهَا إلَّا قويٌّ، يأتِي الرَّجُلَ بالدَّلو قَد شدَّهَا فِي طرفِ رُمحِهِ، فيستقِي بهَا، وهناكَ قريةٌ فِيهَا أهلُهَا، فغَادَاهُم القتَالَ، وضمَّ الثَّقفِي إلَى ابنِه يزِيدَ وأحدَ الأمينَينِ إلَى المُغِيرَةِ، فاقتتلَ القَومُ إلَى نِصْفِ النَّهَارِ.

وَقَالَ المُهَلَّبُ لأبِي عَلْقَمَةَ العَبدِي ـ وكانَ شُجَاعًا وكَانَ عَابثًا هَازَّلاً: أمْدِدنَا يا أبَا عَلْقَمَةَ بخَيْلِ اليَحْمَدِ، وقُلْ لهُم: فليعيرُونا جَماجمهُم سَاعةً.

فَقَالَ: أيُّهَا الأميرَ إنَّ جَمَاجمهُم لَيْسَتْ بِفخَّارٍ فتُعَارُ، وَلَا أعناقهُم كُرادى فَتنبُت [١].

وَقَالَ لحبيبِ بنِ أوسٍ: كُرَّ عَلَى القَومِ، فَلَمْ يَفعَلْ، وقَالَ:

يقُولُ لِي الأَميرُ بِغَيرِ عِلْمٍ تَقَــدَّمْ حِينَ جدَّ بِهِ المِرَاسُ
فَمَالِي إنْ أَطَعْتُكَ مِنْ حَيَاةٍ ومَالِي غَيْرَ هَذَا الرَّأسِ رَاس!

وقالَ لمعن بنِ المُغيرَةِ بن أبِي صُفْرَةَ: احمِلْ.

فَقَالَ: لَا، إلَّا أن تزوِّجني ابنتَكَ أُمَّ مَالِكٍ.

فقالَ: قَدْ زوَّجتُكَ، فَحمَلَ عَلَى الخَوَارجِ، فكشَفَهُم وطعنَ فِيهِم، وقَالَ:

---

(١) الكُراد: أعذاق النخل.

لَيْتَ مَنْ يَشْتَرِي الحَيَاةَ بِمَالٍ ملكَه كَانَ عِندَنَا فيرَانَا
نَصلُ الكَرَّ عِنـدَ ذَاكَ بِطَعنٍ إنَّ للمَوتِ عِندنَا ألوَانَا

قوله (ملكه) أي: تزويجًا ونكَاحًا.

ثمَّ جالَ النَّاسُ جَولةً عِندَ حَمْلَةٍ حَمَلَهَا عَلَيْهِم الخَوَارِجُ، فالتفتَ المُهلَّبُ، فَقَالَ للمُغيرَةِ ابنِه: مَا فعلَ الأمينُ الَّذِي كَانَ معكَ؟

قَالَ: قُتلَ وهربَ الثَّقفِي.

فَقَالَ ليزيدَ: مَا فعل عبيدةُ بنُ أبي ربيعةَ؟

قَالَ: لم أرَهُ منذُ كانتِ الجولَةُ.

فَقَالَ الأمين الآخرُ للمغيرَة: أنتَ قتلتَ صاحبِي.

فلمَّا كَانَ العَشِي رجعَ الثَّقفِي.

فَقَالَ رجلٌ من بنِي عَامرِ بنِ صَعصعَةَ:

مازلـتَ يَا ثَقَفِـيُّ تخطـبُ بَيْننَا وَتغمُّنَـا بِوصِيَـةِ الحَجَّـاجِ
حتَّى إذَا ما المَوتُ أقبـلَ زَاخِـرًا وَسَقَـى لنَا صِرْفًـا بِغَيرِ مزَاجِ
وَلَيْـتَ يَا ثقفـي غَـيْر مُنَاظِـرٍ نَسَـابُ بَينَ أَحِزَّةٍ وفجَـاجِ[1]
لَيْسَتْ مُقَارعَةُ الكمَاة لدَى الوَغَا شُرْبَ المُدَامَةِ فِي إنَاءِ زُجَـاجِ

فَقَالَ المُهَلَّبُ للأمِين الآخرِ: ينبغِي أَن تتوجَّه معَ ابنِي حَبيبٍ فِي ألفِ رجلٍ حتَّى تُبيِّتُوا عَسْكرَهُم.

فَقَالَ: مَا تريدُ أيُّهَا الأميرُ إلَّا أن تقتلنِي كَمَا فعلتَ بصاحبِي، فَضَحكَ المهلَّبُ وَقَالَ: ذاكَ إليكَ، ولمْ يكُنْ للقَومِ خنادقٌ، فكَانَ كلٌّ حذرًا مِن صَاحبِهِ، غَيْر أنَّ الطعَامَ والعُدَّةَ معَ المُهَلَّبِ، وَهُوَ فِي زهاءِ ثَلَاثِينَ ألفًا، فلمَّا أصبحَ أشرفَ عَلَى وَادٍ، فَإِذَا هُوَ برجُلٍ مَعَهُ رمحٌ مكسُورٌ مخضُوبٌ بالدَّمِ، وَهُوَ ينشدُ:

---

(١) أحزة: جمع حزيز، وهو متن ينقاد من الأرض ويغلظ. والفجاج: الطُرُق.

والَّتِي لَأعفى ذَا الخِمَارِ وصنعتي … إِذَا رَاحَ أَطْوَاءً بنى الأَصَاغِرُ
أخادعهُم عَنْـهُ ليغبقَ دُونَهُـم … وَأَعْلَمُ غيرَ الظَّـنِّ أنِّي مغَاورُ
كَأَنِّي وأبدَانَ السِّـلاحِ عَشِيَّـةً … يَمرُّ بنَا فِي بَطْنِ فَيْحـانَ طَائِرُ

فَقَالَ لَهُ: أتميمِيٌّ أنتَ؟

قَالَ نَعَمْ.

قَالَ: أَحَنْظَلِيٌّ.

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: أيربوعيٌّ؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: مِن آلِ نُوَيْرَةَ؟

قَالَ: نَعَمْ، أَنَا وَلدُ مَالِكِ بنِ نُوَيْرَةَ.

قَالَ: قَدْ عَرَفْتُكَ بالشِّعرِ.

قَالَ أَبُو العبَّاسِ(١): ذُو الخِمَارِ فرسُ مَالِكِ بنِ نُوَيْرَةَ.

قَالَ: فمكثُوا أيَّامًا يتحَاربُونَ ودَوَابُّهُم مُسْرَجَة، وَلَا خَنادقَ لَهُم حتَّى ضعفَ الفَرِيقَانِ، فلمَّا كَانتِ اللَّيلةُ الَّتِي قُتلَ فِي صَبيحتِهَا عَبدُ ربِّه جَمَعَ أَصْحَابَهُ، فقَالَ: يَا معشرَ المُهاجِرِينَ إنَّ قَطريًّا وعبيدةَ هَرَبَا طلبَ البقَاء، وَلَا سَبِيلَ إِلَى البقَاءِ فَالْقَوْا عُدوَّكُم غدًا، فإِنْ غَلبُوكُم عَلَى الحَيَاةِ، فَلَا يَغْلبُنَّكُم عَلَى المَوتِ، فتلقَوْا الرِّمَاحَ بِنحُورِكُم، والسُّيوفَ بوجُوهِكُم، وهُبُوا أنفسكُم لله فِي الدُّنيا يهبهَا لكُم فِي الآخرَةِ.

فلمَّا أصبحُوا غادَوا المُهَلَّبَ، فَاقْتَتلُوا قِتَالاً شَدِيدًا أنسَى مَا كَانَ قبله، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَزْدِ مِن أَصْحَابِ المُهَلَّبِ: مَنْ يُبَايعنِي عَلَى المَوتِ؟ فبَايعَهُ أَرْبعُونَ رَجُلًا، فَصُرِعَ بعضُهُم، وقُتِلَ بَعْضُهُم، وَجُرِحَ بعضُهُمْ.

---

(١) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥).

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ رِزَامٍ الحَارِثِيُّ للمُهَلَّبِ: احْمِلُوا.

فَقَالَ المُهلَّبُ: أَعْرَابِيٌّ مجْنُونٌ!

-وكانَ مِن أهْلِ نَجْرَانَ- فَحَمَلَ وَحْدَهُ، فاخترقَ القومَ حتَّى نجمَ مِن ناحيةٍ أخرَى، ثمَّ كرَّ ثانيةً، ففعلَ فعلتَهُ الأُولَى، وتهايجَ النَّاسُ، فترجلتِ الخوارجُ، وعقرُوا دَوَابَّهم، فنَادَاهُم عمرو القنَا - ولم يترَجَّل هو ولَا أصْحَابُه وهُم زهاء أربعمائةٍ - فَقَالَ: موتُوا عَلَى ظهُورِ دَوابِّكُم كرامًا، وَلَا تَعْقِرُوهَا.

فَقَالُوا: إنَّا إذا كنَّا عَلَى الدَّوابِ ذكرْنَا الفِرَارَ!

ونادَى المُهَلَّبُ بأصحَابِهِ: الأرضَ الأرضَ. وَقَالَ لبَنيهِ: تفرَّقُوا فِي النَّاسِ ليَرَوْا وجُوهَكُم.

ونادَتِ الخَوارِجُ: ألا إنَّ العَيالَ لِمَنْ غلبَ، فصبرَ بنُو المُهَلَّبِ، وقَاتلَ يزيدُ بَينَ يدي أبيهِ قتالاً شَدِيدًا أبْلَى فِيهِ.

فَقَالَ لَهُ أبُوهُ: يا بُنيَّ إنِّي أرَى مَوطنًا لا ينْجُو فِيهِ إلَّا مَن صَبَرَ، وَمَا مرَّ بِي يَومٌ مِثْلُ هَذَا مُنْذُ مَارَسْتُ الحُرُوبَ.

وَكَسَرَتِ الخَوَارِجُ أجفَانَ سُيوفِهَا، وتجَاولُوا، فَأَجْلَتْ جَولتُهُم عَن عَبدِ ربِّه مَقتُولاً، فهربَ عَمرو القنَا وأصحَابُهُ، واسْتأمنَ قومٌ، واجْتَلَتِ الحَرْبُ عن أربعةِ آلافِ قتيلٍ وجريحٍ مِنَ الخَوَارِجِ، ومَأسُور.

فأمرَ المُهلَّبُ أن يُدْفَعَ كُلُّ جَريحٍ إِلَى عَشِيرتِهِ، وظفَرَ بِعَسْكرِهِمْ، فحَوَى مَا فِيهِ، ثمَّ انصَرَفَ إِلَى جِيرفت، فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّنَا إِلَى الخَفْضِ والدَّعَةِ، فَما كَانَ عَيْشُنَا ذَلِكَ بِعَيْشٍ.

ثمَّ نظرَ المُهَلَّبُ إِلَى قومٍ فِي عَسْكرِهِ لَمْ يَعْرفْهُمْ، فَقَالَ: مَا أشدَّ إعَادَةَ السِّلاحِ، نَاولنِي دِرْعِي فَلبسَهَا، ثمَّ قَالَ: خُذُوا هَؤُلَاءِ، فلمَّا صيَّروهُم إليْهِ، قَالَ: مَا أنْتُم؟

قَالُوا: جِئْنَا لِنَطْلُبَ غِرتَّكَ لنَفْتكَ بكَ، فَأمرَ بِهِمْ فَقُتلُوا.

وَوَجَّه كَعْبَ بنَ مَعْدَانَ الأشْقَرِي، ومُرَّةَ بنَ تَلِيدٍ الأزْدِي، فَوَرَدَا عَلَى الحجَّاجِ.
فلمَّا طلعَا عَلَيْهِ تقدَّمَ كَعْبٌ فَأَنشَدَهُ:
يَا حَفْصُ إِنِّي عَدَانِي عَنْكُمُ السَّفَرُ
فَقَالَ الحَجَّاجُ: أَشَاعِرٌ أم خَطِيبٌ؟
قَالَ: شَاعِرٌ.
فأنشدَهُ القَصِيدَةَ فأقبلَ عَلَيْهِ الحَجَّاجُ، فقالَ: فَأخبرنِي عَنْ بنِي المُهلَّبِ؟

قَالَ: المُغِيرَةُ سَيِّدُهم وفَارِسُهم، وكفَى بِيَزِيدَ فَارِسًا شُجَاعًا، وجوادُهُم وسخيُّهم قبيصةُ، ولا يستحِي الشجاعُ أنْ يفرَّ مِن مُدركٍ، وعبدُ الملكِ سمٌّ ناقعٌ، وحَبيبٌ موتٌ زُعافٌ، ومُحَمَّدٌ ليثُ غابٍ، وكَفَاكَ بالفَضْلِ نجدَة.

فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ خلَّفْتَ جَمَاعةَ النَّاسِ؟
قَالَ: خلَّفتَهم بِخَيرٍ قَدْ أَدْرَكُوا مَا أملُوا، وأمِنُوا ممَّا خَافُوا.
قَالَ: كَيْفَ كَانَ بنُو المُهَلَّبِ فِيهِم؟
قَالَ: كانُوا حُمَاةَ السَّرحِ نهارًا، فَإِذَا أَلْيَلُوا ففرْسَانُ البيَاتِ.
قَالَ فأيُّهم كان أنجَد؟
قَالَ: كَانُوا كَالحَلقَةِ المُفْرَغَةِ لا يُدرَى طرفَاهَا.
قَالَ: فَكَيْفَ كنتُم أَنْتُم وعدوُّكُمْ.
قَالَ: كنَّا إِذَا أخذْنَا عَفَوْنَا، وإذا أخذوا يَئِسْنَا مِنْهُم، وإِذَا اجْتَهدْنَا واجْتَهَدُوا طَمعنَا فِيهِم.
قَالَ الحَجَّاجُ: إنِ العَاقِبَةَ للمُتَّقِينَ.
قَالَ: فَكَيْفَ أفلتكُم قَطرِيٌّ؟
قَالَ: كِدْنَاهُ وظنَّ أن قَدْ كادَنَا بأنْ صِرْنَا مِنْهُ إِلَى الَّتِي نُحب.
قَالَ: فَهلَّا اتبعتمُوهُ؟
قَالَ: كَانَ حَربُ الحَاضِرِ آثرَ عِندنَا مِن اتِّبَاعِ الفَلِّ.

قَالَ: أكنتَ أعددتَ هَذَا الجَوَابَ؟

قَالَ: لَا يَعْلَمُ الغيبُ إِلَّا اللهُ.

قَالَ: هَكَذَا تَكُونُ الرِّجَالُ! المهلَّبُ كَانَ أَعْلَمَ بِذَلِكَ حَيْثُ بَعَثَكَ.

هَذِهِ رِوَايَةُ أَبِي العَبَّاسِ[١].

وَرَوَى أَبُو الفَرَجِ فِي الأَغَانِي[٢] أَنَّ كعبًا لَمَّا أوفدَهُ المُهَلَّبُ إِلَى الحَجَّاجِ أنشدَهُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي أَوَّلُهَا:

يَا حَفْصُ إِنِّي عَدَانِي عَنْكُمُ السَّفرُ ... وَقَدْ سَهِرتُ وآذَى عَينِي السَّهَرُ

يَذْكُرُ فِيهَا حرُوبَ المُهَلَّبِ مَع الخَوَارِجِ، وَيَصِفُ وقَائِعَهُ فِي بلدِهِ وَهِيَ طَوِيلَةٌ ومن جُمْلَتِهَا:

كنَّا نهوِّن قبلَ اليومِ شَأنَهمُ ... حتَّى تَفَاقَمَ أمرٌ كَانَ يُحْتَقَرُ
لَمَّا وهنَّا وَقَد حَلُّوا بسَاحتِنَا ... واستُنفرَ النَّاسُ تَارَاتٍ فَمَا نفرُوا
نَادَى امْرُؤٌ لَا خِلَافَ فِي عَشيرتِهِ ... وَلَيْسَ بِهَا عَن مثلِهِ قِصرُ
خبوا كَمِينَهُم بِالسَّفحِ إِذْ نَزَلُوا ... بِكَازرُونَ فَمَا عَزّوا وَمَا نُصِرُوا
بَاتَتْ كَتَائِبُنَا تَردى مسوَّمةً ... حولَ المُهلَّبِ حتَّى نوّرَ القَمَرُ
هنَاكَ وَلَّوا خَزَايَا بَعدَ مَا هُزِمُوا ... وحَالَ دُونَهُمُ الأَنهَارُ والجُدُرُ
تأبَى عَلَيْنَا حَزازاتُ النُّفوسِ فَمَا ... نُبقِي عَلَيْهِم وَلَا يُبقونَ إِنْ قدرُوا

فضَحكَ، وَقَالَ: إِنَّكَ لمنصِفٌ يَا كَعْبُ.

ثمَّ قَالَ: كَيْفَ كَانَتْ حَالُكُم مَع عَدُوكمْ؟

قَالَ: كنَّا إِذَا لقينَاهُم بعفونَا وعفوهم يئسنَا مِنْهُم، وإِذا لقينَاهُم بجدنَا وجدهم طمعنَا فيهِم.

---

(١) «الكَامِل» (٣/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦).

(٢) «الأغَانِي» (١٤/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥).

قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ بَنُو المُهَلَّبِ؟

قَالَ: كانُوا حَمَاةَ الحَرِيمِ نهارًا، وفرسان اللَّيلِ يقظانًا.

قال: فأينَ السَّماعُ مِن العيانِ؟

قَالَ: السماعُ دُونَ العيانِ.

قال: صِفْهُم لي رَجُلًا رجلاً.

قَالَ: المُغِيرَةُ فارسُهُم وسيِّدُهُم، نارٌ ذاكيةٌ، وصعدةٌ عالية[1]، وكفَى بيزيدَ فارسًا وشجاعًا، ليثُ غابٍ، وبحرٌ جمُّ العُبابِ، وجَوادُهُم قبيصةُ ليثُ المَغَار، وحامِي الذِّمَار، وَلَا يستحِي الشُّجَاعُ أن يفرَّ مِن مُدرِك، وكَيْفَ لا يفرُّ منَ الموتِ الحَاضرِ، والأَسدِ الحَادِرِ؟ وعبدُ الملكِ سمٌّ نَاقعٌ، وسيفٌ قاطعٌ، وحبيبُ الموتِ الذُّعافُ، طودٌ شامخٌ وَبحرٌ بَاذِخ، وأبو عُيينةَ البَطلُ الهُمامُ، والسَّيفُ الحسامُ الحسامُ، وكفاكَ بالفَضلِ نجدةً، ليثُ هدّار، وبحرٌ موَّار، ومحمدٌ ليثُ غَابٍ وحسامُ ضِرَاب.

قَالَ: فأيُّهم أفْضَلُ؟

قَالَ: هُم كَالحَلَقَةِ المُفْرغَةِ لا يُعرفُ طَرَفَاهَا.

قَالَ: فَكَيْفَ جَمَاعةُ النَّاسِ؟

قَالَ: عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ أرضَاهُم العدلُ وأغناهُم النفلُ.

قَالَ: فَكَيْفَ رِضَاهُم بالمهلَّبِ؟

قَالَ: أَحْسنُ رضًا، لا يعدمُونَ مِنْهُ إشفَاقَ الوالدِ، وَلَا يعدمُ مِنْهُم برَّ الوَلدِ.. وَذَكَرَ تمَامَ الحَدِيثَ.

وَقَالَ: إنَّ الحجَّاجَ أمرَ لَهُ بعشرِينَ ألفِ درهمٍ، وحمَلَهُ عَلَى فرسٍ، وأوفَدَهُ عَلَى عبدِ الملكِ، فأمر لَهُ بعشرِينَ ألفِ أخرَى.

---

(١) الصعدة: القناة المستوية، تنبت كذلك.

قَالَ أَبُو الفَرَجِ[(١)]: وَكَعْبٌ الأشقريُّ مِن شُعرَاءِ المُهلَّبِ وَمَادحيهِ، وَهُوَ شاعرٌ مُجِيدٌ.

قَالَ عبدُ الملكِ بنُ مروَانَ لِشعرَائِهِ: تُشَبهُونني مرَّةً بالأسَدِ، ومرَّةً بالبَازِي، ألَا قُلْتُمْ كَمَا قَالَ كَعبٌ الأشقرِيُّ للمُهَلَّبِ وَوَلَدِهِ:

بَـرَاكَ اللهُ حِـينَ بـرَاكَ بَحْرًا ... وفَجَّـر منـكَ أنهارًا غِـزَارَا
بنُـوك السَّابقُونَ إِلَى المَعَـالِي ... إذا مَا أَعظَـمَ النَّاسُ الخِطَارَا
كأَنَّهُـمُ نجـومٌ حـولَ بَـدرٍ ... تَكمّـلَ إِذْ تكمّـلَ فَاسْتدارَا
ملُـوكٌ ينزلُـونَ بِكُـلِّ ثَغْـرٍ ... إِذَا مَا الهـامُ يَـومَ الرَّوْعِ طَارَا
رزانٌ فِي الخُطُوب تَرَى عَلَيْهِم ... مِنَ الشِّيَـمِ الشَّمَائِلِ والنجارَا[(٢)]
نجومٌ يُهتدى بهـم إذا مـا ... أَخُو الغمَرَاتِ فِي الظَّلمَاءِ حَارَا

وَهَذَا الشِّعرُ مِن قَصِيدَةٍ لكَعبٍ يمدحُ بِهَا المُهلَّبَ، ويذْكُرُ الخَوارِجَ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ:

سَلُوا أهلَ الأبَاطِحَ مِنْ قُرِيشٍ ... عَنِ المَجدِ الموثل أيـن صَـارَا

وَمِنْهَا:

لقومُ الأزد فِي الغَمَراتِ أمْضَى ... وَأَوْفَى ذِمَّـةً وَأَعَـزّ جَـارَا
هُم قَادُوا الجِيادَ عَلَى وجَاهَـا ... مِنَ الأمْصَـارِ يَقْذِفْن المهَـارَا
إِلَى كِرْمـَانَ يَحْملْـنَ المَنَايَـا ... بِكُـلِّ ثَنيَّةٍ يوقـدنَ نَـارَا
شَوازبُ مَا أصبْنَا الثَّـأرَ حتَّى ... رَددنَـاهَـا مكـلَّمـةً مـرَارَا
غَدَاةَ تَرَكْنَ مصرع عَبْدَ ربٍّ ... نثـرنَ عَلَيْهِ مِـن رَهَجٍ غبَارَا
وَيَومَ الزَّحفِ بِالأَهْوَازِ ظِلنَا ... نُروّي مِنْهُم الأسـلَ الحـرارَا
فَقَرَّتْ أَعيُنٌ كَانَتْ حَزِينًـا ... وَلَمْ يـكُ نومُهَـا إِلَّا غِـرَارَا

(١) «الأغَانِي» (١٤/ ٢٨٦ـ ٢٨٧).

(٢) النجار: الحسَب والأصل.

وَلَو لا الشَّيخُ بالمِصْرَينِ ينفِي   عـدوَّهُم لقَـدْ نزَلُوا الدِّيَارَ
ولَكِن قَارَعَ الأبطَـالَ حتّـى   أَصَابُوا الأَمْنَ واحْتلُوا القَرَارَا
إِذَا وَهَنُوا وَحَلَّ بِهِم عَظِيـمٌ   يدقُّ العَظْـمَ كَـانَ لَهُم جِبَارَا
وَمُبْهمَةٍ يَحِيدُ النَّاسُ عَنْهَـا   تَشُبُّ المَـوْتَ شـدَّ لَهَا إزَارَا
شِهَـابٌ تنجَلِي الظَّلْمَاءُ عنهُ   يُرَى فِي كُـلِّ مظلمـةٍ منارَا
براكَ اللهُ حِينَ بـرَاكَ بَحْرًا   وفَجَّـرَ منكَ أنهـارًا غِزَارَا

الأَبْيَات المُتَقَدِّمَة.

قالَ أَبُو الفَرَج[1]: وحدَّثَنِي مُحَمَّدُ بنُ خَلفٍ، عَن وَكِيعٍ بإِسنَادٍ ذَكَرَهُ: أَنَّ الحَجَّاجَ لَمَّا كَتَبَ إِلَى المُهلَّبِ يَأمرُهُ بمُناجزَةِ الخوارج حِينئذٍ، وَيستبطئُه وَيُضعفه ويُعجزه مِنْ تأخيرِهِ أَمرَهُمْ، وَمُطَاولتِه لَهُم.

قالَ المُهَلَّبُ لرسُولِهِ: قُلْ لَهُ إِنَّما البلَاءُ أَنْ يَكُونَ الأمرُ لمَنْ يملكُه لا لمَن يعرفُه، فإنْ كنتَ نَصَبتنِي لحربِ هَؤُلَاءِ القَومِ عَلَى أنْ أدبرَهَا كَما أرَى، فَإِذَا أمكننِي فُرْصَةٌ انتهزتُهَا، وَإِنْ لَمْ تُمكنِي وقفتُ؟ فأنَا أدبرُ ذَلِكَ بِمَا يُصلحُهُ، وإن أردتَ أنْ أعملَ بِرَأيكَ، وأنَا حاضرٌ وأنتَ غائبٌ، فإن كَانَ صَوابًا فلكَ، وإن كَانَ خطأً فعَلَيَّ، فابعثْ مَن رأيتَ مكَانِي!

وكتبَ من فورِه بِذَلِكَ إِلَى عَبدِ المَلكِ، فكتبَ عبدُ الملكِ إِلَى الحجَّاجِ: لا تُعَارِضِ المُهَلَّبَ فِيمَا يرَاهُ، وَلَا تُعجلهُ ودَعْهُ يدبِّرُ أَمرَهُ.

قَالَ: وقامَ كعبٌ الأشقريُّ إِلَى المهلَّبِ، فأنشدَهُ بِحَضْرَة رَسُولِ الحَجَّاجِ:

إِنَّ ابنَ يُوسُفَ غَرَّهُ مِـن أَمْرِكُمْ   خَفضَ المقَامِ بجَانِبِ الأمصَارِ
لَو شَاهَدَ الصَّفـينِ حِينَ تلَاقيَـا   ضَاقَتْ عَلَيْهِ رَحِيبةَ الأقطَـارِ
مِنْ أَرْضِ سَابُورِ الجُنُودِ وَخَيْلُنَا   مِثْـلُ القِدَاحِ بَرَيتَـهَا بشفَارِ
مِـنْ كُلِّ صنديدٍ يـرَى بِلبَانِهِ   وقعَ الظُّباة مَـع القنَـا الخطّارِ
لرَأَى مُعَـاودَة الربَـاعِ غَنِيمَـةً   أزمَانَ كَـانَ مُحَالِـفَ الإقتَـارِ

---

(١) «الأغَانِي» (١٤/ ٢٩٠ ـ ٢٩٢).

فَبَلَغَتْ أَبيَاتُهُ الحجَّاجَ، فَكَتَبَ إِلَى المُهَلَّبِ يَأمُرُهُ بإِشْخَاصِ كَعبِ الأشقرِيِّ إِلَيْهِ، فَأَعْلِمَ كَعْبٌ بِذَلِكَ، وأوفَدَهُ إِلَى عَبدِ المَلكِ مِنْ لَيْلَتِهِ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَسْتوهِبُهُ مِنْهُ.

فَقَدِمَ كَعبٌ عَلَى عَبدِ المَلكِ، وسَأَلَهُ عَنِ المُهلَّبِ فاستنطقَه فَأعجبَهُ، وَأَوْفَدَهُ إِلَى الحجَّاجِ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ يُقْسِمُ عَلَيْهِ أن يصفحَ وَيَعفُوَ عمَّا بلغَهُ مِنْ شِعْرِهِ.

فلمَّا دَخلَ، قَالَ الحجاج: إيهِ يَا كعبُ:

وَرَأَى مُعَاوَدَةَ الرِّبَاعِ غَنِيمَةً

فَقَالَ: أيُّهَا الأَمِيرُ، والله لوددتُ فِي بعضِ مَا شَاهدتهُ من تِلكَ الحرُوبِ، وَمَا أَوْردنَاهُ المُهلَّب منَ الخَطَرِ أَن أَنجُو مِنْهَا، وأكونَ حجَّامًا أو حَايكًا.

فَقَالَ: أولَى لكَ، لَولَا قَسَمُ أميرِ المُؤْمِنِينَ لَمَا نَفعكَ مَا تقوُلُ، الحَقْ بصَاحِبِكَ، وَرَدَّهُ إِلَى المُهلَّبَ.

قَالَ أَبو العبَّاسِ (١): وَكَانَ كِتَابُ المُهلَّبِ إِلَى الحجَّاجِ الَّذِي بشَّرهُ فِيهِ بالظَّفرِ والنَّصْرِ:

الحَمْدُ لله الكَافِي بالإِسلَامِ عَنْ فَقْدِ مَا سِواهُ، الحَاكِمِ بِأَنْ لَا يَنقَطِعَ المَزِيدُ مِنْ فَضْلِهِ حتَّى يَنْقَطِعَ الشُّكْرُ مِنْ عِبَادِهِ.

أمَّا بَعدُ؛ فَقَدْ كَانَ مِن أَمرِنَا مَا قَدْ بلغَكَ، وكنَّا نَحْنُ وعدوُّنَا عَلَى حَالَيْنِ مُختلفَيْنِ يسرُّنَا مِنْهُم أكثرُ ممَّا يسُوءنَا، ويسُوُؤهُمْ منَّا أكثرُ ممَّا يسرُّهُم عَلَى اشتدَادِ شَوْكَتِهِمْ، فَقَدْ كان عَلا أمرُهُم حتَّى ارتاعتْ لَهُ الفتاةُ، ونوِّمَ بِهِ الرَّضِيعُ، فَانتهزتُ الفُرْصَةَ مِنْهُم فِي وقتِ إمْكَانِهَا، وأدنيتُ السَّواد منَ السَّوادِ حتَّى تَعَارَفَتِ الوجُوهُ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حتَّى بلغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

فكَتَبَ إِلَيْهِ الحَجَّاجُ:

أمَّا بعدُ، فَقَدْ فَعلَ اللهُ بالمُسْلِمِينَ خيرًا وَأَرَاحَهُم مِن بأسِ الجِلادِ، وثِقلِ الجهَادِ، ولقَدْ

(١) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ٢٨٦ - ٢٨٧).

كنتَ أعَلَمَ بِمَا قِبلكَ، فالحَمْدُ لله ربِّ العَالِمينَ.

فإذَا وَرَدَ عَلَيْكَ كتَابِي؛ فَاقسمْ فِي المُجاهدِين فيْهُم، ونَفِّلِ النَّاسَ عَلَى قَدرِ بلَائِهم، وفضِّلْ مَن رأيتَ تفضيلَهُ، وإن كَانَ بقيةٌ منَ القَومِ بقيتْ، فخلِّفْ خيلاً تقومُ بإزائِهم، واستعملْ عَلَى كِرْمَانَ مَنْ رَأيتَ، وَوَلِّ الخيلَ شهمًا من ولدِكَ، وَلَا تُرخص لأحدٍ فِي اللَّحَاقِ بمنزلِهِ دُونَ أن تَقدمَ بِهم عليَّ، وعجِّلِ القدُومَ إنْ شَاءَ اللهُ.

فولَّى المُهلَّبُ يزيدَ ابنَهُ كِرْمَانَ، وَقَالَ لَهُ: يا بُنيَّ إنَّكَ اليومَ لستَ كَمَا كنتَ، إنَّما لكَ مِن كِرْمَانَ مَا فضلَ منَ الحَجَّاجِ، ولن تحتملَ إلا عَلَى مَا احتملَ عَلَيْهِ أبوكَ، فأحْسِنْ إِلَى مَنْ تبعكَ، وإن أنكرتَ مِنْ إنسَانٍ شيئًا فوجِّه إليَّ، وتفضَّل عَلَى قومِكَ.

ثمَّ قَدِمَ المُهلَّبُ عَلَى الحجَّاجِ، وأجلسَهُ إِلَى جَانبِهِ، وأظهرَ برَّهُ فِي إكرَامِهِ، وَقَالَ: يَا أهلَ العِرَاقِ أنْتُم عَبيدٌ للمُهَلَّبِ.

ثمَّ قَالَ: أنتَ واللهِ كَمَا قَالَ لقيطٌ:

فقلِّـــدُوا أمْرَكُـــمُ للهِ دَرُّكُـمُ ... رَحْبَ الذِّرَاعِ بِأَمرِ الحَربِ مُضْطَلِعَا
لَا يَطْعَمُ النومَ إلَّا رَيْثَ يَبعثُـــه ... همٌّ يكَادُ حشَــاهُ يَقصِـمُ الضِّـلعَا
لَا مُتْرفًا إنْ رَخَاءَ العَيْشِ سَاعدَهُ ... ولَا إذَا عَــضَّ مَكــرُوهٌ بــِهِ خشَعَا
مَا زَالَ يَحلُبُ هَذَا الدَّهرَ أَشْطرَه ... يَكُــونُ مُتَّبِعًــا طَــورًا وَمُتَّبَعَــا
حتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتُه ... مُسْتَحْكِمَ الرَّأيِ لَا قَحْمًا وَلَا ضَرِعَا[1]

فقام إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: أصلحَ اللهُ الأميرَ، واللهِ لكَأنِّي أسمعُ قَطرِيًّا، وَهُوَ يَقُولُ لأَصْحَابِهِ: المُهَلَّب واللهِ كَمَا قَالَ لَقِيطٌ الأيادِي، ثمَّ أنشَدَ هَذَا الشِّعرَ، فَسُرَّ الحجَّاجُ حَتَّى امتلأَ سرُورًا.

---

(١) المريرة من الحبال: ما طال واشتد فتله. واستمرت: استحكمت. والشزر: الفتل إلى فوق، خلاف اليسر، وهو الفتل إلى أيسر، والاول أحكم الفتلين، ضُرب ذلك مثلاً لاستجماع قوته. والضرع: الصغير الضعيف. والقحم: آخر سن الشيخ.

فَقَالَ المُهَلَّبُ: أمَا واللهِ مَا كنَّا أشدَّ مِن عَدوِّنَا، وَلَا أحدَّ، ولَكِن دفعَ الحقُّ الباطلَ، وقهرتِ الجَمَاعَةُ الفِتْنَةَ، والعَاقِبَةُ للمُتَّقِينَ، وكَانَ مَا كرهنَاهُ منَ المُطَاولَةِ خيرًا لنَا مِمَّا أحببنَاهُ مِنَ المُعَاجَلَةِ.

فَقَالَ الحَجَّاجُ: صَدقتَ، اذكُرْ لِي القَوم الَّذِينَ أبلُوا وَصِفْ لِي بَلَاءَهُمْ.

فَذَكَرَهُمُ المُهَلَّبُ عَلَى مرَاتبِهِمْ فِي البَلَاءِ، وتفَاضلِهِمْ فِي الغِناءِ، وقدَّمَ بنيهِ المغيرَةَ ويزيدَ وَمُدركًا وَحَبيبًا وقبيصةَ والفَضلَ وعبدَ المَلِكِ ومُحَمَّدًا.

وقال: واللهِ لو يقدمُهُم أحدٌ فِي البَلاءِ لقدَّمتُه عَلَيْهِم، ولَولَا أن أظلمَهُم لأخَّرتهُم.

فَقَالَ الحَجَّاجُ: صَدقتَ، وَمَا أنتَ بأعلمَ بِهِم منِّي، وإِن حضرْتَ وغبتُ، إنَّهُم لسُيوفٌ من سُيوفِ اللهِ تَعَالَى.

ثُمَّ ذكرَ معنَ بنَ المغيرَةِ والرُّقادَ وَأَشْبَاههمَا.

فَقَالَ الحَجَّاجُ: منَ الرُّقادِ؟ فَدَخلَ رجُلٌ طَوِيلٌ أَجْنَأُ[1].

فَقَالَ المُهَلَّبُ: هَذَا فارسُ العَرَبِ.

فَقَالَ الرُّقادُ للحجَّاجِ: أيُّهَا الأميرُ إنِّي كنتُ أقاتلُ مَع غيرِ المُهلَّبِ، فكنتُ كبعضِ النَّاسِ، فلمَّا صِرْتُ مَع منْ يُكرمنِي ويجعلنِي أُسْوَةَ نَفسِهِ وولَدِهِ، وَيُجازينِي عَلَى البلاءِ صِرْتُ أنَا وأصحَابِي فرسَانًا.

فأمرَ الحجَّاجُ بتفضِيلِ قَومٍ عَلَى قومٍ عَلَى قدرِ بلَائِهِم، وزادَ ولدَ المُهَلَّبِ ألفينِ ألفينِ، وفعلَ بالرُّقادِ، وَبِجَمَاعةٍ شبيهًا بذَلِكَ.

وقالَ يَزيدُ بنُ حبناءَ مِنَ الأزَارِقَةِ:

دَعِي اللَّومَ إنَّ العَيشَ لَيْسَ بدَائِمِ ... ولا تَعْجَلِي باللَّومِ يَا أُمَّ عَاصِمِ
فَإِذْ عجِلَتْ مِنكَ المَلَامَةُ فاسْمَعِي ... مقَالَةَ مَعْنيٍّ بحقِّكَ عَالِمِ

---

(١) مائل الظهر.

وَلَا تَعـــذُلِينَا فِي الْهَدِيَّـــةِ إِنَّـــمَا ... تَكُـونُ الْهَـدَايَا مِـنْ فُـضُولِ الْمَغَـانِمِ
وَلَـيْس بِمُهْـدٍ مَـنْ يكُـونُ نَهـارُهُ ... جِـلادًا ويُمْـسِي لَيلَـهُ غَـيْرَ نَـائِمِ
يُرِيـدُ ثَـوَابَ الله يومًـا بِطَعْنَـةٍ ... غَموسٍ كَشَدْقِ العَنبِري بـنِ سَالِمِ
أَبِيـتُ وَسِرْبَـالِي دِلَاصٌ حَـصِينَةٌ ... وَمِغْفَرُهَـا وَالـسَّيْفُ فَوْقَ الْحَيَـازِمِ
حَلَفْـتُ بِـربِّ الـوَاقِفِينَ عَـشِيَّةً ... لَـدَى عَرفَـات حَلْفَـةً غَـيْرَ آثِـمِ
لَقَدْ كَـانَ فِي القـوم الَّـذِينَ لَقِيـتُهُم ... بِسَابُورَ شـغلَ عـليٍّ بـزوزِ اللَّطَـائِمِ
تَوَقَّـدَ فـي أَيدِيهِـم زَاعبيَّـــةٌ ... وَمُرْهَفَةٌ تَفْـرِي شُؤُون الجَمَاجِـمِ

وقالَ المُغِيرَةُ بنُ حَسْنَاء الحَنظَلِي مِنْ أَصْحَابِ المُهَلَّبِ:

إِنِّي امـرؤٌ كفنَّـي ربِّي وأكرمَنِـي ... عَـنِ الأُمُـورِ الَّتِـي فِي غَيِّهَـا وَخـمُ
وإنَّـمَا أَنَـا إِنـسَانٌ يَعِـيشُ كَـمَا ... عاشَتْ رِجَالٌ وعَاشَتْ قبلَهَـا أُمَـمُ
مَا عَاقنِي عَن قفُولِ الجُندِ إِذْ قفلُـوا ... عنِّي بِمَا صَنَعُوا حَـولِي وَلَا صَـمَمُ
وَلَـو أَردتَ قفُـولاً مَـا تَجَهَّمنـي ... إِذْنُ الأمـيرِ وَلَا الكُتَّـابُ إِذ رقمُـوا
إِنَّ المُهَلَّـبَ إِنْ أَشْـتَقْ لرُؤيتِـه ... أو أمتدحْهُ فـإنَّ النَّـاسَ قَـدْ علمـوا
أنـه الأَريـبُ الَّـذِي تُرجَـى نوافلُـهُ ... والمُـسْتَنِيرُ الَّـذِي يُجلَى بِـهِ الظُّلَـمُ
والقَائِـلُ الفَاعِـلُ الميمُـونُ طَـائِرُه ... أَبُـو سَـعِيدٍ إِذَا مَـا عُـدَّت الـنِّعم
أَزْمانَ كِرْمَانَ إِذ غص الحَدِيدُ بِهِم ... وإِذْ تمنَّـى رِجَـالٌ أَنَّهُـم هُزِمُـوا

وَقَالَ حَبِيبُ بنُ عَرَفَةَ مِنْ قُوَّادِ المُهَلَّبِ:

يَـا أَبَـا سَـعِيدٍ جَـزاكَ اللهُ صَـالِحَةً ... فقَـدْ كَفَيـتَ ولَمْ تعنَـف عَـلَى أَحَـدِ
دَاوَيْتَ بالحِلْم أَهلَ الجَهْلِ فَانقمَعُوا ... وَكُنتَ كالوَالِدِ الحَـانِي عَلَى الوَلَـدِ

وَقَالَ عبيدةُ بنُ هلالٍ الحَازِمِيُّ، يَذْكُرُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ:

يَهْـوِي فَتَرفعـهُ الرِّمَـاحُ كَأَنَّـهُ ... شِلْوٌ تنشَّبَ فِي مَخَالِـبِ ضَـارِي
يَهْوِي صَرِيعًا والرِّمَـاحُ تنوشُـهُ ... إِنَّ الشُّرَاةَ قَصِـيرَةُ الأَعْمَـارِ [1]

---

(١) «الكَامِل» (٣/ ٢٨٩ ـ ٢٩٣).

فصل

وَمنهُم شَبِيبُ بنُ يَزِيدَ الشَّيبَانِي:

وَكَانَ شَبِيبٌ فِي ابتدَاءِ أمرِهِ يصحبُ صالحَ بنَ مسرحٍ أحدُ الخَوارجِ الصفرية، وَكَانَ صالحُ بنُ مسرحٍ ناسكًا مصفرَّ الوَجْهِ صاحبَ عبَادَةٍ، وَلَهُ أصْحَابٌ يُقرئهُم القرآن، ويُفقههُم، ويقصُّ علَيْهِم، ويقدمُ الكُوفَة يقيمُ بِهَا الشَّهرَ والشَّهرَينِ، وَكَانَ بأرضِ الموصلِ والجَزِيرَةِ.

وَكَانَ إِذَا فرغَ مِنَ التَّحمِيدِ والصَّلاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ:ذكَر أبا بكرٍ ﷺ فأثنى عَلَيْهِ وثنَّى بعمرَ، ثمَّ ذكرَ عثمانَ وَمَا كَانَ من إحدَاثِه، ثمَّ ذكرَ عَلِيًّا وتَحْكِيمَهُ الرِّجَالَ فِي دينِ الله وتبرأ منْ عثمانَ وعليٍّ، ثمَّ يدعوا إِلَى مجاهدةِ أئمَّةِ الضَّلالِ، ويقولُ: سيرُوا يا إخوانِي للخرُوجِ من دارِ الفناءِ إِلَى دارِ البقَاءِ واللَّحَاقِ بإخوَانِنَا المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ باعُوا الدُّنيا بالآخرةِ، ولا تَجزعُوا منَ القتلِ فِي الله، فإنَّ القتلَ أيسر مِنَ المَوتِ، والموت نازلٌ بكُم مفرِّق بينكُم وبينَ آبائِكُم وإخوانِكُم وأبنائِكُم وحلائلِكُم ودنيَاكُم، وإنِ اشتدَّ لذلكَ جزعُكُم، ألا فبيعُوا أنفسَكُم طائعِينَ، وأموالَكُم، تدخلُوا الجنَّةَ.. وأشباه هَذَا الكَلَام.

وكانَ فيمن يحضرُه منْ أهلِ الكُوفَةِ سويدُ والبطينُ، فَقَالَ يومًا لأَصْحَابِهِ: ماذَا تنتظرُونَ؟ مَا يزدادُ أئمة الجورِ إلا عتوًّا وعلوًّا وتباعدًا منَ الحقِّ، وجرأة عَلَى الربِّ، فراسلُوا إخوانكُم حتَّى يأتوكُم وننظر فِي أمورِنَا مَا نحنُ صَانِعُونَ، وأيّ وقتٍ إن خَرَجْنَا نحنُ خارجُونَ، فبيَّنا هُوَ كَذَلِكَ إذْ أتَاهُ المجللُ بنُ وائلٍ بكتابٍ من شَبِيبِ بنِ يزيدَ، وَقَد كَتَبَ إِلَى صَالحٍ:

أمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ أردتَ الشخوص، وقد كنتَ دعوتنِي إِلَى أمرٍ أستجيبُ لكَ فِيهِ، فإنَّ كان ذَلِكَ من شأنكَ، فإنَّكَ شيخُ المُسْلِمِينَ ولم نعدلْ بكَ منَّا أحدًا، وإن تأخَّر ذَلِكَ أعلمتنِي، فإنَّ الآجالَ غادية ورائحة، وَلَا آمنُ أن تخترمنِي المنيةَ، ولَمَّا أجاهدِ الظَّالِمِينَ - جعلنَا اللهُ وإيَّاكَ ممَّن يريدُ اللهَ بعملِهِ، والسَّلامُ عَلَيْكَ.

فأجَابَهُ صَالِحٌ بجوابٍ يقولُ فِيهِ: إِنَّهُ لَم يمنعنِي منَ الخرُوج مع مَا أنَا فِيهِ من الاستعدَادِ إلا انتظَارك، فاقدُم عَلَيْنَا، ثمَّ اخْرُجْ بِنَا، فَإِنَّكَ ممَّن لا تُقضى الأمُورُ دونَهُ، والسَّلام عليكَ.

فلمَّا وردَ كتَابُهُ عَلَى شَبِيبٍ دَعَا بقرَّاءٍ من أَصْحَابِهِ فجمعَهُم إِلَيْهِ - مِنْهُم أخُوه مصاد بن يزيدَ، والمحلل بن وائلٍ والصقرُ بنُ حاتمٍ وإبراهيمُ بنُ حجرٍ وجمَاعَة مثلهُم -.

ثمَّ خَرَجَ حتَّى قدمَ عَلَى صالحِ بنِ مسرحٍ وَهُوَ بدارٍ منْ أرضِ الموصلِ، فبعثَ صالحٌ رسلَهُ وأوعدَهُم بالخرُوجِ فِي هلالِ صفرٍ ليلَةَ الأربعَاءِ سنة ستَّةٍ وتسعِينَ، فاجتمعَ بعضهُم إِلَى بعضٍ، واجتمَعُوا عِندَهُ تِلْكَ اللَّيلَةَ، فحدَّث فروةَ بن لقيطٍ، قَالَ: إِنِّي لَمَعَهُم تلكَ الليلة عِندَ صَالحٍ، وكان رأيي استعرَاض النَّاسِ لما رأيتُ منَ المكرِ والفَسَادِ فِي الأرضِ، فقمتُ إِلَيْهِ فقلتُ: يا أميرَ المُؤْمِنِينَ كَيْفَ السِّيرة فِي هَؤُلَاءِ الظَّلَمَةِ؟ أنقتلهُم قبلَ الدُّعاءِ أم ندعُوهُم للقتال؟

وإنِّي أخبرُكَ برَأيي فيهم قبلَ أن تُخبرَنِي بِذَلِكَ، إنَّا نخرُجُ عَلَى قومٍ طاغِينَ قَدْ تركُوا أمرَ اللهِ أو راضِينَ بِذَلِكَ، فأرَى أن نضعَ السَّيفَ.

فَقَالَ: لا، بَل ندعُوهُم ولعمرِي لا يجيبُكَ إِلَّا من يرَى رأيَكَ، وليقاتلنَّكَ من يزرِي عَلَيْكَ، والدعاءُ أقطع لحجَّتِهم وأبلغَ فِي الحجَّةِ عَلَيْهِم لكَ.

فقلتُ: وكَيْفَ ترَى فيمَن قاتلنَا فظفرنَا بِهِ؟

وَمَا تقُولُ فِي دمَائِهِمْ وأموالِهِم؟

فَقَالَ: إن قتلنَا وغنمْنَا فلنَا، وإن تجاوزْنَا وعفونَا فموسعٌ عَلَيْنَا.

ثمَّ قَالَ صالحٌ لأَصْحَابِهِ تلك اللَّيلة: اتقُوا اللهَ عبَادَ الله، وَلَا تعجلُوا إِلَى قتالِ أحدٍ منَ النَّاسِ إِلَّا أن يَكُونُوا يريدُونَكُم، فإنَّكُم إنَّمَا خَرَجْتُم غضبًا لله حَيْثُ انتُهكتْ محارمُه، وعُصِيَ فِي الأرضِ، وسُفكتِ الدِّماءُ بغيرِ حقِّهَا، وأُخذتِ الأموَالُ غصبًا، فَلَا تعيبُوا عَلَى قومٍ أعمالاً ثمَّ تعملُونَهَا.

وهذِهِ دواب لمحمَّدِ بنِ مروَانَ فِي هَذَا الرستاقِ فابدأوا بِهَا، فَاحْمِلُوا عَلَيْهَا راجلَكُم،

وتقووا بِهَا عَلَى عدوِّكُم، ففعلُوا ذَلِكَ وتحصَّن مِنْهُم أهلُ دارا، وبلغَ خبرُهُم محمَّدَ بنَ مروَانَ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أميرُ الجزيرَةِ، فاستخفَّ وبعثَ إِلَيْهِم عديَّ بنَ عميرةَ فِي خَمْسِمائَةٍ.

وكان صَالحٌ فِي مائةٍ وعشرَة، فَقَالَ عديٌّ: أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ تبعثنِي إِلَى رأسِ الخوارجِ، وَمَعَهُ رجالٌ سُمُّوا لِي، وإن الرَّجلَ مِنْهُم خيرٌ مِن مائةِ فارسٍ فِي خَمْسِمائةٍ !

قَالَ لَهُ: إِنِّي أزيدُكَ خمسمائةٍ، فَسِرْ إِلَيْهِم فِي ألفٍ، فسَارَ من حرّانَ فِي ألفِ رجلٍ، وكأنَّما يُساقُ إِلَى المَوتِ.

وكان عديٌّ رجلاً ناسكًا، فلمَّا نزلَ دوغان نزلَ بِالنَّاسِ وأنفذ إِلَى صالحِ بنِ مسرح رَجُلًا دسّه إِلَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّ عديًّا بعثنِي إليكَ يسألُكَ أن تخرجَ مِن هَذَا البَلَدِ وتأوي بلدًا آخر، فنقاتلُ أهلَهُ، فإِنِّي لقتالكَ كارهٌ.

فَقَالَ لَهُ صالحٌ: ارجعْ إِلَيْهِ فقلْ لَهُ: إن كنتَ ترَى رأينَا فأرنَا مِن ذَلِكَ مَا نعرفُ، ثمَّ نحنُ مدلجُونَ عنكَ، وإن كنتَ عَلَى رأي الجبَابرة وأئمَّةِ السُّوءِ، رأينَا رأينَا، فإمَّا بدأنَاكَ وإلَّا رحلْنَا إِلَى غيرِكَ. وانصرفَ إِلَيْهِ الرسُول فأبلغه.

فَقَالَ لَهُ عديٌّ: ارجعْ إِلَيْهِ فقلْ لَهُ: إِنِّي واللهِ لا أرَى رأيكَ، وَلَكِن أكرهُ قتالَكَ وقتالَ غيرِكَ منَ المُسْلِمِينَ.

فَقَالَ صالحٌ لأَصْحَابِهِ: اركبوا، فركبُوا واحتبسَ الرَّجل عنده ومضَى بأصحَابِهِ حتَّى أتى عديًّا فِي سُوقِ دوغان وَهُوَ قائمٌ يصلِّي الضُّحَى، فلم يشعرْ إلا بالخيلِ طالعةً عَلَيْهِم، فلمَّا دنا صالحٌ مِنْهُم رآهُم عَلَى غيرِ تعبيةٍ، وَقَد تنادوا، وبعضُهم يجولُ فِي بعضٍ، فأمرَ شَبِيبًا فَحَمَلَ عَلَيْهِم فِي كَتيبةٍ، ثمَّ أمر سويدًا فَحَمَلَ فِي كتيبةٍ، فكانتْ هزيمتُهُم، وأُتِي عديٌّ بدابتِهِ فركِبَهَا، ومضَى عَلَى وجهِهِ، واحتوَى صالحٌ عَلَى عسكرِهِ، وَمَا فِيهِ، وذهبَ فَلُّ عديٍّ حتَّى لحقُوا بمحمدِ بنِ مروانَ، فغضبَ، ثمَّ دَعَا بخالدِ بنِ جزءِ السلمِي فبعثَه فِي ألفٍ وخمسمائةٍ، وَدَعَا الحارثَ بنَ جعونةَ فِي ألف وخمسمائةٍ وَقَالَ لهُمَا: اخرُجَا إِلَى هَذِهِ الخَارجَةِ القَلِيلَةِ الخَبيثَةِ وعجِّلا؛ فأيّكمَا سبقَ فَهُوَ الأميرُ عَلَى صاحبِهِ.

فخَرَجَا وأغذا السَّير[١]، وجعلَا يسألَانِ عَن صالحِ، فقيل لهُمَا: توجَّه نحو آمد، فاتبعَاهُ حتَّى انتهيَا إِلَيْهِ بآمد، ونزلَا ليلاً وخندقَا وهُمَا متساندَان، كُلُّ واحدٍ مِنْهُمَا عَلَى حِدتِهِ، فوجَّه صالحٌ شَبِيبًا إِلَى الحَارِثِ بنِ جعُونَةَ فِي شَطرِ أَصْحَابِهِ، وتوجَّه هُوَ نحو خَالِدِ السلمي، فاقتتلُوا أشدَّ قتالِ اقتتَلَه قومٌ، حتَّى حَجزَ بَيْنَهُم اللَّيلُ، وَقَد انتصفَ بعضُهُم من بعضٍ، فتحدَّثَ بعضُ أَصْحَابِ صَالحِ قَالَ:

كنَّا إذا حَمَلْنَا عَلَيْهِم استقبلَنَا رجَالهُم بالرِّماحِ، ونضحْنَا رُمَاتهُم بالنبلِ، وخيلُهُم تُطَارِدُنَا فِي خِلَالِ ذَلِكَ، فانصرفْنَا عِندَ اللَّيلِ، وَقَد كرهنَاهُم وَكَرهُونَا.

فلَمَّا رَجعْنَا وصلَّينَا وتروحْنَا وأكلْنَا منَ الكُسرِ[٢]، دعانَا صالحٌ وَقَالَ: يا أخلَائِي مَاذَا تَرَوْنَ؟

فَقَالَ شَبِيبٌ: إِنَّا إِنْ قاتلْنَا هَؤُلَاءِ القومَ وهم معتصمُونَ بخندقِهِم لم ننلْ مِنْهُم طائلاً، والرأي أن نَرْحَلَ عنهُم.

فَقَالَ صالحٌ: وأنَا أرى ذَلِكَ، فَخَرَجُوا منْ تَحت ليلتِهِم حتَّى قطعُوا أرضَ الجزيرةِ، وأرضَ الموصلِ، ومضَوْا حتَّى قطعُوا أرضَ الدَّسكرَةِ.

فلمَّا بلغَ ذَلِكَ الحَجَّاجُ سرَّحَ إِلَيْهِم الحَارِثَ بنَ عميرةَ فِي ثلاثةِ آلافِ، فسَارَ، وخرجَ صالحٌ نحوَ جلولَاء وخانقينَ، واتبعَهُ الحارثُ حتَّى انتهَى إلى قريةٍ يقالُ لهَا: الريح، وصَالِحٌ يَوْمَئِذٍ فِي تِسعِينَ رجُلًا، فعبَّأ الحَارِثُ بنُ عميرةَ أَصْحَابَهُ مَيْمَنةً وَمَيْسَرةً، وَجَعلَ صالحٌ ثلاثةَ كَرَادِيس، وَهُوَ فِي كردُوسٍ، وشَبِيبٌ فِي ميمنتِهِ فِي كردُوسٍ، وسويدُ بنُ سليمٍ فِي مَيسرتِهِ، فِي كُلِّ كردُوسٍ مِنْهُم ثلَاثة وثلَاثُونَ رَجُلًا.

فلمَّا شدَّ عَلَيْهِم الحَارِثُ بنُ عميرةَ انكشفَ سويدُ بنُ سليمٍ، وثبتَ صالحٌ فقُتلَ،

---

(١) أسرعا.

(٢) كُسر الخبز.

وضَارب شَبِيبٌ حتَّى صُرِعَ عنْ فرسِهِ، فوقعَ بَينَ رجالِه حتَّى انتهى إِلَى موقفِ صالحٍ فوجدَهُ قتيلاً فنادَى: إِلَيَّ يا معشرَ المُسْلِمِينَ ! فلاذُوا بِهِ.

فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: ليجعلْ كُلُّ رجلٍ مِنْكُم ظهرَهُ إِلَى ظهرِ صَاحِبِهِ، وليطاعنْ عدوَّهُ إذا أقدمَ عَلَيْهِ حتَّى يدخلَ هَذَا الحِصنَ، ونرَى رأينا.

ففعلُوا ذَلِكَ حتَّى دخلُوا الحِصنَ وهم سبعُونَ رَجُلًا مع شَبِيبٍ، وأحَاطَ بِهم الحَارِثُ مُمسيًا، وقال لأَصْحَابِهِ: أحرِقوا البَابَ، فَإِذَا صَارَ جمرًا فدعوهُ، فإنَّهُم لا يقدرُونَ عَلَى الخرُوجِ حتَّى نُصبحَ فنقتلهُم، ففعَلُوا ذَلِكَ بالبَابِ، ثمَّ انصرَفُوا إِلَى مُعسكَرِهِمْ.

فَقَالَ شَبِيبٌ لأَصْحَابِهِ: مَا تنتظرُونَ، فواللهِ إنْ صبّحُوكُم إنَّه لهلَاككُم؟

فَقَالُوا لَهُ: مُرْنَا بأمرِكَ؟

فَقَالَ لَهُم: بايعُونِي إنْ شئتُم، أو بايعُوا منْ شئتُم منكُم، ثمَّ اخْرُجُوا بنَا حتَّى نشدَّ عَلَيْهِم فِي عَسكرِهِم، فإنَّهُم آمنُونَ منكُم، وإِنِّي أرجُو أن ينصرَكُم اللهُ عَلَيْهِم.

قالوا: ابسطْ يدَكَ؟ فبايعُوهُ.

فلمَّا جاءوا إِلَى البَابِ وجدُوهُ جمرًا، فأتَوْا باللَّبودِ فبلُّوهَا بالمَاءِ، ثمَّ ألقوهَا عَلَيْهِ، وخَرَجُوا، فلم يشعرْ الحارث بن عميرة إلَّا وشَبِيبٌ وأصحَابُهُ يضربونهم بالسُّيوفِ فِي جَوفِ عَسكرِهِم، فضَاربَ الحارثُ حتَّى صُرِعَ، واحتملَهُ أَصْحَابُهُ وانهزمُوا، وخلُّوا لَهُم المعسكرَ، وَمَا فِيهِ، ومضَوْا حتَّى نزلُوا المَدَائِنَ.

وكانَ ذَلِكَ الجَيْشُ أوَّل جيشٍ هزَمَهُ شَبِيبٌ، ثمَّ ارتفعَ فِي أدانِي أرضِ الموصلِ، ثمَّ ارتفعَ إِلَى نحو أذربيجانَ يجبِي الخَرَاجَ.

وكانَ سفيانُ بنُ أَبِي العاليةِ قَدْ أُمرَ أن يُحاربَ صاحبَ طبرستَان، فأُمر بالقفُولِ نَحو شَبِيبٍ، وأن يُصالحَ صَاحبَ طبرستان، فصَالحَهُ، فأقبلَ فِي ألفِ فارسٍ.

وَقد وَرَدَ عَلَيْهِ كتابُ الحَجَّاجِ:

أما بَعْدُ؛ فأقم بالدسكرَة فيمن معكَ حتَّى يأتيكَ جيشُ الحارثِ بنِ عميرةَ، قاتل صالح بن مسرحٍ، ثمَّ سِرْ إِلَى شَبِيبٍ حتَّى تناجزَهُ، ففعَلَ سفيانُ ذَلِكَ، ونزلَ الدسكرةَ حتى أَتَوْهُ، وخرَجَ مُرتحلاً فِي طلبِ شَبِيبٍ.

فارتفعَ شَبِيبٌ عنهُم كأنَّه يكرهُ قتالَهُم، وَقَد أكمنَ لَهُم أخاهُ مصَادم فِي خَمْسِينَ رَجُلًا فِي هضمٍ مِنَ الأرضِ.

فلمَّا رَأَوْا شَبِيبًا جمعَ أَصْحَابَهُ ومضَى فِي سفحٍ منَ الجبلِ مشرفًا، قَالُوا: هربَ عدوُّ الله، واتبعُوهُ.

فَقَالَ لَهُم عديُّ بنُ عميرةَ الشَّيبانِي: أيُّهَا النَّاسُ لا تَعجلُوا عَلَيْهِم حتَّى نضربَ فِي الأرضِ ونستبرؤها، فإن يَكُونُوا أكمنُوا كمِينًا حذرنَاهُ، وإلا كَانَ طلبهُم بَينَ أيدِينَا، ولن يفوتُونَا. فلم يسمعُوا مِنْهُ فأسرعُوا فِي آثَارِهِم.

فلمَّا رأى شَبِيبٌ أنَّهُم قَدْ جازُوا الكمِينَ عطفَ عَلَيْهِم فَحَمَلَ من أمامِهِم، وخرجَ الكمينُ مِن ورَائِهِمْ، فلمَّا يقاتل أحدٌ، وإنَّمَا كانتِ الهزِيمَةُ، وثبتَ سفيانُ بنُ أَبِي العَالية فِي مائتَي رجلٍ، فقاتلَ قتالاً شديدًا حتَّى انتصفَ مِنْ شَبِيبٍ.

فَقَالَ سويدُ بنُ سُليمٍ لأَصْحَابِهِ: أَمِنْكُم أحدٌ يعرفُ أميرَ القَوم ابنِ أبِي العالية؟

فَقَالَ لَهُ شَبِيبٌ: أنَا من أعرفِ النَّاسِ بِهِ، أمَا ترَى صَاحبَ الفرسِ الأغر الَّذِي دُونَهُ المَرامِيةِ، فإنَّه هُوَ، فأمهله قليلاً، ثمَّ قَالَ: يا قعنبُ اخْرُجْ فِي عِشرِينَ فإتهم مِن ورَائِهِم، فَخَرَجَ قعنبُ فِي عِشرِينَ، فارتفعَ عَلَيْهِم، فلمَّا رأوهُ يريدُ أن يأتيَهُم مِن ورائِهِم جعلُوا ينتقصُونَ ويتسلّلونَ، وَحَمَلَ سويدُ بنُ سليمٍ عَلَى سفيانَ بنِ أَبِي العاليةِ يُطاعنُه، فلم تصنعْ رماحهُمَا شيئًا، ثمَّ اضطرَبَا بأسيافِهِمَا، ثمَّ اعتنقَ كُلُّ واحدٍ مِنْهُمَا صَاحبهُ فوقَعَا إِلَى الأرضِ يعترِكَانِ، ثمَّ تحاجزَا، وَحَمَلَ عَلَيْهِم شَبِيبٌ.

فانكشفَ مَنْ كَانَ مَع سُفيَانَ، ونزَلَ غُلامٌ له يُقال له غزوَان عَن بِرذونِهِ وقالَ لسُفيانَ: ارْكَبْ يَا مولَاي، فرَكبَ سُفيانُ، وأحاطَ بِهِ أَصْحَابُ شَبِيبٍ فقاتلَ دُونَهُ غزوَان

حتَّى قُتِلَ، وكَانَتْ مَعَهُ رايتُهُ، وأقبلَ سفيانُ منهزمًا حتَّى انتهى إلَى بابلَ مهروذ، فنزلَ بِهَا، وكَتَبَ إلَى الحَجَّاجِ - وكانَ الحَجَّاجُ أمرَ سورةَ بنَ الحرِّ أن يلحقَ بسُفيانَ، فكاتبَ سورةُ سفيانَ وَقَالَ لَهُ: انتظرنِي، فَلَمْ يفعلْ، وعَجل نَحو الخَوَارجِ -.

فلَمَّا عرفَ الحَجَّاجُ خبرَ سُفيانَ، وقرأَ كِتَابَهُ؛ قَالَ للنَّاسِ: من صَنعَ كَمَا صنعَ هَذَا، وأبلَ كَمَا أبلَ فَقَدْ أَحْسَنَ، ثمَّ كَتَبَ إليهِ يعذرُه، ويقولُ: إذا خفَّ عَلَيْكَ الوجعُ، فأقبلْ مأجُورًا إلَى أهلِكَ.

وَكَتَبَ إلَى سورةَ بنِ أبجر:

أمَّا بَعْدُ، يا ابنَ أمِّ سورةَ فَمَا كنتَ خليقًا أنْ تجترئ عَلَى تركِ عهدِي وخذلاَن جندِي، فَإِذَا أتاكَ كتَابِي فابعثْ رَجُلًا ممَّن معكَ صليبًا إلَى المَدَائنِ، فلينتخب مِن جندِها خَمسمائةِ رجلٍ، ثمَّ ليقدم بِهم عَلَيْكَ حتَّى تلقَى هَذِهِ المَارقةَ، واحزمْ فِي أمركِ وكد عدوَّكَ، فإن أفضلَ أمر الحرُوبِ حسنُ المكِيدَةِ، والسَّلامُ.

فلَمَّا أتى سورة كتَابُ الحَجَّاجِ بعثَ عديَّ بنُ عميرةَ إلَى المَدَائِنِ، وكَانَ بِهَا ألف فارسٍ، فانتخبَ مِنْهُم خمسمائةٍ، ثمَّ رحلَ بِهِم حتَّى قدمَ عَلَى سورةَ ببابلَ مهروذ، فَخَرَجَ بِهِم فِي طلب، وخرج شَبيبٍ يجولُ فِي جوخى، وسورةُ فِي طلبِهِ، فجاءَ شَبيبٌ إلَى المَدائنِ فتحصَّنَ مِنْهُ أهلُهَا، فدخلَ المدائنَ الأولى، وأصابَ دوابًا من دوابِ الجُندِ، وقتلَ من ظهرَ لَهُ، ولم يدخُلِ البيوتَ، ثمَّ أُتِي فقيلَ لَهُ: هَذَا سورةُ قَدْ أقبلَ إلَيْكَ، فَخَرَجَ فِي أَصْحَابِهِ حتَّى أتى مصَارِعَ إخوانِهِم الَّذِينَ قتلَهُم عليُّ بنُ أبِي طَالبٍ ﷺ، فاستغفروا لَهُم وتبرأوا من عليٍّ وأصْحَابِهِ وبكُوا فأطَالُوا البُكاءَ، ثمَّ عبرُوا جِسْرَ النَّهروَان فنَزَلُوا من جانبه الشَّرقِي.

وَجَاءَ سورةُ حتَّى نزل بنفطرانا، وجاءتْه عيونُهُ، فأخبرُوهُ بمنزلِ شَبيبٍ بالنهروَانِ، فَدَعَا سورةُ رؤُوسَ أصْحَابِهِ، فَقَالَ لَهُم: إنَّ الخَوَارجَ قلَّمَا يُلقونَ بصحراءَ أو عَلَى ظهرٍ إلَّا انتصفُوا.

وَقَد حُدثتُ أنَّهُم لا يزيدُونَ عَلَى مائةِ رجلٍ، وَقد رأيتُ أن أنتخبَكُم وأسيرُ فِي ثلاثمائةِ رجلٍ مِنكُم من أقويَائكُم وشجعَانِكُم فأبيِّتهُم، فإنَّهُم آمنُونَ من بَياتِكُم، وإنِّي واللهِ أرجُو أن

يصرعَهُم الله مصَارع إخوَانِهم بالنَّهروانِ منْ قبلُ.

فَقَالُوا: اصْنَعْ مَا أحببتَ. فاستعملَ عَلَى عسكرِهِ حازمَ بنَ قدامةَ، فانتخبَ ثلاثمائة منْ شجعَانِ أَصْحَابِهِ، ثمَّ أقبلَ بِهِم حتَّى قربَ منَ النَّهروَانِ، وباتَ وقَدْ أذكى الحرسَ، ثمَّ بيَّتَهُم، فلمَّا دنى أصْحَابُ سورة مِنْهُم نذرُوا بِهِم فاستووا عَلَى خيولِهِم وتعبّوا تعبيتِهِم.

فلمَّا انتهَى إِلَيْهِم سورةُ وأَصْحَابُهُ أصابُوهُم قَدْ حذِرُوا، فَحَمَلَ عَلَيْهِم سورة، فصَاحَ شَبيبٌ بأَصْحَابِهِ فَحَمَلَ عَلَيْهِم حتَّى تركوا له العرصةَ، وَحَمَلَ شَبيبٌ وجعلَ يضربُ ويقولُ: مَن ينك العير ينك نياكا !

فرجعَ سورةُ مفلولًا قَدْ هُزمَ فرسَانهُ وأهل القوةِ مِن أَصْحَابِهِ، وأقبلَ نحو المدَائنِ، وتبعَهُ شَبيبٌ حتَّى انتهَى سورةُ إِلَى بيوتِ المدَائنِ، وانتهى شَبيبٌ إِلَيْهِم، وَقَد دخلَ النَّاسُ البيوتَ.

وَخَرَجَ ابنُ أَبِي عُصَيْفِيرٍ وَهُوَ أميرُ المدَائنِ يَوْمَئِذٍ فِي جَماعةٍ فَلَقِيَهُم فِي شوارَعِ المدائنِ، ورمَاهُم النَّاسُ بالنَبلِ والحِجارَةِ من فوق البيوتِ، ثمَّ سارَ شَبيبٌ إِلَى تكريت، فبيَّنا ذَلِكَ الجندُ بالمدَائنِ إذ أرجف النَّاسُ فَقَالُوا: هَذَا شَبيبٌ قَدْ أقبلَ يريدُ أن يبيّتَ أهل المدَائنِ، فارتحلَ عامَّةُ الجُندِ، فلحقُوا بِالكُوفَةِ وإن شَبيبًا بتكريت.

فلمَّا أتى الحَجَّاجَ الخبرُ قَالَ: قبَحَ اللهُ سورةَ ! ضيَّع العَسكرَ، وخَرَجَ يُبيّتُ الخَوَارِجَ، واللهُ لأَسوأَنَّهُ.

ثمَّ دَعَا الحَجَّاجُ بالجزلِ وَهُوَ عثمانَ بنِ سعيدٍ فَقَالَ لَهُ: تيسّر للخرُوجِ إِلَى هَذِهِ المَارقَةِ، فَإِذَا لقيتهُم فَلَا تعجلْ عجلَةَ الخَرِقِ النَزِقِ، وَلَا تُحجمْ إحجامَ الوانِي الفَرِق، أفهمتَ؟

قَالَ: نَعَمْ أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ، قَدْ فهمْتُ.

قَالَ: فاخرجْ عسكرْ بديرِ عبدِ الرحمنِ حتَّى يخرجَ النَّاسَ إِلَيْكَ.

فَقَالَ: أَصْلَحَ اللهُ الأَميرَ، لَا تبعثْ معِي أحدًا منَ الجُندِ المهزُومِ المفلُولِ، فإنَّ الرُّعبَ قَدْ دخلَ قُلوبَهُم، وَقَد خَشِيتُ ألا ينفعكَ والمُسْلِمِينَ واحدٌ مِنْهُم.

قَالَ: ذَلِكَ لكَ، وَلَا أرَاكَ إلَّا قَدْ أحْسَنْتَ الرَّأي، وَوُفِّقتَ، ثم دَعَا أصْحَابَ الدَّوَاوِين، فَقَالَ: اضربُوا عَلَى النَّاسِ البَعث، وأخرجُوا أربعةَ آلافٍ منَ النَّاسِ، وعجِّلوا، فجُمعتِ العرفاءُ، وجلسَ أصحَابُ الدَّواوين، وضربُوا البعثَ، فأخرجُوا أربعةَ آلافٍ، فأمرَهُم باللِّحَاقِ بالعَسكرِ، ثمَّ نُودِيَ فِيهِم الرَّحيل.

ونادَى مُنَادِي الحَجَّاجِ أنْ برئت الذِّمةُ منْ رجلٍ أصبنَاهُ مِن بعثِ الجزلِ مُتخلفًا، فمضَى بِهِم الجزلُ حتَّى أتَى المَدَائِنَ فَأَقَامَ بِهَا ثَلاثًا.

ثمَّ خَرَجَ وبعثَ إِليْهِ ابنُ أَبِي عُصَيْفِيرٍ بفرسٍ وبِرذونٍ وألفي درهمٍ، ووضعَ للنَّاسِ من الحَطَبِ والعَلفِ مَا كفَاهُم ثَلَاثة أيَّامٍ، وأصابَ النَّاسُ مَا شَاءُوا من ذَلِكَ.

ثمَّ إنَّ الجزلَ خَرَجَ بِالنَّاسِ فِي أثر شَبِيبٍ يطلبهُ فِي أرضِ جوخى، فَجعلَ يزيدُ يريه الهيبةَ، فيخرج مِنْ رستاقٍ إِلَى رستاقٍ، ومنْ طسوجٍ إِلَى طسوجٍ، يريدُ بِذَلِكَ أن يفرِّقَ الجزلُ أَصْحَابهُ، ويتعجَّلَ إليهِ، فيلقَاهُ فِي عددٍ يسيرٍ عَلَى غَيرِ تعبيةٍ، فجعَلَ الجزلُ لا يسيرُ إلا عَلَى تعبيةٍ، وَلَا ينزلُ إلا خَندق عَلَى نفسِه وأصحَابِهِ.

فلَمَّا طالَ ذَلِكَ عَلَى شَبِيبٍ دَعَا يومًا أصْحَابَهُ ـ وهُم مائةٌ وستُّونَ رَجُلًا، هُوَ فِي أربعِينَ، ومصادُ أخُوهُ فِي أربعِينَ، وسويدُ بنُ سليمٍ فِي أربعِينَ، والمجللُ بنُ وائلٍ فِي أربعِينَ.

وَقد أَتَتْ شَبِيبًا عُيونُهُ فأخبرته: أنَّ الجزلَ بنَ سعيدٍ قَدْ نزلَ بئرَ سعيدٍ، فَقَالَ لأخيهِ وللأمرَاءِ الَّذِين ذَكَرْنَاهُم: إنِّي أريدُ أنْ أبيِّتَ اللَّيلةَ هَذَا العَسكرَ؛ فَأتِهم أنتَ يَا مصاد مِن قبلِ حلوَان، وسَآتِيهم أنَا مِن أمَامِهِم مِن قِبل الكُوفةِ، وأتِهم أنتَ يَا سويدُ من قِبل المشرقِ، وأتِهم أنتَ يا مجللُ من قِبل المَغربِ، وليلج كلُّ امرئٍ مِنْكم عَلَى الجانبِ الَّذِي يحملُ عَلَيْهِ، وَلَا تُقلعُوا عنهُم حتَّى يأتِيَكُم أمرِي.

قال فروةُ بنُ نصرٍ: وكنتُ أنَا فِي الأربعِينَ الَّذِينَ كانُوا مَعَهُ.

فَقَالَ لجمَاعتِنَا: تيسرُوا وَليَسر كُلُّ امرئ مِنْكُم مَع أميرِهِ، ولينظرْ مَا يأمرُه بِهِ أميرُهُ، فَليتبعْهُ، فلمَّا قضمت دَوَابُنَا، وَذَلِكَ أَوَّلُ مَا هدأتِ العُيون؛ خَرَجْنَا حتَّى انتهينَا إِلَى ديرِ

الجَزَّارِ، فَإِذَا القَومُ عَلَيْهم مُسلحةُ ابن أبي لينة، فما هُوَ إلا أنْ رآهُمْ مصادٌ أخُو شَبيبٍ حتَّى حَمَلَ عَلَيْهِم فِي أرْبعِينَ رجُلٍ.

وكانَ شَبيبٍ أرَادَ أن يرتفعَ عَلَيْهم حتَّى يأتيَهُم من ورَائِهم كَمَا أمرَهُ، فلمَّا لقِيَ القَومَ قاتَلَهُم، فَصَبَرُوا لَهُ سَاعةً، وقاتلوه، ثمَّ إنّا دفعنَا عَلَيْهم جَمِيعًا فهَزَمناهُم، وأخذُوا الطَّرِيقَ الأعظَمَ، وَلَيْسَ بَيْنَهُم وبينَ عَسْكَرِهِم بدير يزدجر إلَّا نَحْو ميلٍ.

فَقَالَ لنَا شَبِيبٌ: اركبُوا معَاشرَ المُسْلِمِينَ أكتَافَهُم حتَّى تدخلُوا معَهُم إن اسْتَطعتُم عَسْكَرَهُم، فَأَتْبَعْنَاهُم مُلطِينَ بِهِم [1]، مُلِّحِينَ عَلَيْهِم، مَا نَرفه عَنهُم وَهُم منهزِمُونَ مَا لَهُم همَّةٌ إلا عَسْكَرهُم، فمنَعَهُم أصحَابُهُم أنْ يَدخلُوا عَلَيْهِم، وَرَشقُوهُم بالنَّبلِ، وكَانَتْ لَهُم عيونٌ قَدْ أتتهُم فأخبرتهُم بمَكَانِنَا، وكانَ الجزلُ قَدْ خندقَ عَلَيْهِم وتحرَّز، ووضعَ هَذِهِ المُسَلَّحَةَ الَّذِينَ لقينَاهُم، ووضعَ مُسلَّحةً أخرَى ممَّا يلي حلوَانَ.

فلَمَّا اجْتَمَعَتِ المَسَالحُ ورَشَقُوهُم أصحَابُهُم بِالنّبلِ، ومنعُونا من خندقِهِم؛ رأى شَبيبٌ أنَّهُ لا يَصِلُ إليهم، فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: سِيرُوا ودَعَوهُم، فلمَّا سارَ عَنهُم أخذَ عَلَى طَرِيقِ حلوَان حتَّى إذا كَانَ مِنهُم عَلَى سبعةِ أميالٍ، قَالَ لأَصْحَابِهِ: انزلُوا فاقضمُوا دوابَّكُم، وقيلوا، وتروحُوا، فصلُّوا ركعتَينِ، ثمَّ اركبُوا، ففعلُوا ذَلِكَ، ثمَّ أقبلَ بِهِم راجعًا إِلَى عَسكرِ الكُوفَةِ.

وَقَالَ: سِيرُوا عَلَى تَعبيتكُم الَّتِي عبَّأتكم عَلَيْهَا أوّل اللّيلِ، وأطيفوا بعسكرِهِم كَمَا أَمَرْتُكُم، فأَقْبَلنَا معَهُ، وَقَد أدخلَ أهلُ العسكرِ مسالحَهُم إليهم، وأمنُوا، فَمَا شعرُوا بنَا حتَّى سمعُوا وقعَ حوافرِ الخيلِ، فَانتهينا إِلَيْهِم قبلَ الصُّبحِ، وأحطنا بعسكرِهِم، وصحنَا بهم منْ كلِّ ناحيةٍ، فقَاتلُونَا وَرَمُونَا بالنّبلِ.

فَقَالَ شَبِيبٌ لأخيهِ مصاد ـ وكانَ يقاتلُهُم منَ الجَانبِ الَّذِي يلِي الكُوفَة ـ: خلِّ لَهُم سبيلَ الكُوفةِ فخَلَّى لَهُم، وقاتلنَاهُم منَ الوجُوهِ الثَّلاثة الأخرَى إِلَى الصُّبحِ، ثمَّ سِرْنَا وتركنَاهُم لأنَّا لمْ نظفرْ بِهِم.

---

(١) مُلحّين.

فلمَّا سارَ شَبِيبٌ سَارَ الجزلُ فِي أثرِهِ يطلبُه، وجعلَ لا يسيرُ إلَّا عَلَى تعبيةٍ وترتيبٍ وَلَا ينزلُ إلا عَلَى خندقٍ.

وأمَّا شَبِيبٌ فضربَ فِي أرضِ جوخى، وتركَ الجزلَ، فطالَ أمرُه عَلَى الحجَّاجِ، فكتبَ إِلَى الجزلِ كتابًا قُرِئَ عَلَى النَّاسِ؛ وَهُو:

أمَّا بعدُ؛ فإنِّي بعثتُكَ فِي فرسَانِ المِصْرِ، ووجُوهِ النَّاسِ، وأمرتُكَ باتِّباعِ هَذِهِ المَارقَةِ، وأَن لَا تُقلعَ عَنْهَا حتَّى تقتلَهَا، أو تنفيَهَا، فوجدتَ التعريسَ فِي القرَى، والتخييمَ فِي الخنَادقِ أهون عَلَيْكَ منَ المُضِي لمُناهضتِهم ومُنَاجزتِهم.

قَالَ: فشقَّ كتابُ الحجَّاجِ عَلَى الجزلِ، وأرجفَ النَّاسُ بأمرِهِ، وقالُوا: سَيَعْزِلُهُ، فَمَا لبثَ النَّاسُ أنْ بعثَ الحَجَّاجُ سعيدَ بنَ المُجالدِ بدلَهُ، وعَهِدَ إِلَيْهِ إِذَا لقِيَ المَارقَةَ أنْ يزحفَ إِلَيْهِم بجنودِهِ، وَلَا يناظرُهم، وَلَا يطَاولهُم، وَلَا يصنعُ صنيعَ الجزلِ.

وكانَ الجزلُ يَوْمَئِذٍ قَدِ انتهَى فِي طلبِ شَبِيبٍ إِلَى النهروَانِ، وَقَد لزمَ عسكرَهُ، وخندقَ عَليهم، فجاءَ سعيدٌ حتَّى دخلَ عسكرَ أهلِ الكُوفَةِ أميرًا، فقَامَ فيهم خطيبًا، فحمدَ اللهَ، وأثنَى عَلَيْهِ، ثمَّ قَالَ:

يا أهلَ الكُوفةِ؛ إنَّكُم عَجَزتُم، ووهنتُم، وأَغْضَبْتُم عَلَيْكُم أميرَكُم، وأنتُم فِي طلبِ هَذِهِ الأعاريبِ العُجف منذُ شهرَينِ، قَدْ أخرَبوا بلادَكم، وكسروا خراجكُم، وأنتم حذِرون في جوف هذه الخنادق لا تزايلونَها إلا أن يَبلغكم أنهم قد ارتحَلوا عنكم، ونزلوا بلدًا سوى بلدكم، اخرجوا على اسم الله إليهم. ثم خرج وخرج الناس معه.

فقَالَ لَهُ الجزلُ: مَا تريدُ أن تصنعَ؟

قَالَ: أقدُمُ عَلَى شَبِيبٍ فِي هَذِهِ الخيلِ.

فَقَالَ لَهُ الجزلُ: أقِمْ أنتَ فِي جماعةِ النَّاسِ فارسِهم وراجلِهم، وَلَا تفرِّقْ أصحَابَكَ، وَدَعنِي أصحرُ لَهُ[1]، فإنَّ ذَلِكَ خيرٌ لكَ، وشرٌّ لَهُم.

---

(١) أي: أبرز له في الصحراء.

فَقَالَ سعيدٌ: بَلْ تَقِف أنتَ فِي الصَّفِّ، وأَنَا أصحرُ لكَ.

فَقَالَ الجزلُ: إنِّي بريءٌ مِن رَأيكَ هَذَا، يسمعُ اللهُ، ومَنْ حَضرَ مِنَ المُسْلِمِينَ.

فَقَالَ سعيدٌ: هُوَ رَأيي إنْ أصبتُ فِيهِ؛ فالله وفقنِي، وإنْ أخطأتُ فأنتُم منِّي براءٌ.

فوقفَ الجزلُ فِي صَفِّ الكُوفَةِ، وَقَد جعلَ عَلَى مَيمنتِهِم عياضَ بنَ أَبِي لينة الكنديَّ، وَعَلَى مَيسرتِهِم عبدَ الرحمنِ بنَ عوفٍ، أَبَا حميدٍ الرَّاسبِي، ووقفَ الجزلُ فِي جماعتِهِم، واستقدمَ سعيد بن مجالدٍ والنَّاس معَهُ، وَقَد أخذَ شَبيبٌ إِلَى بَراز الروز، فنزلَ قطفتا، وأمرَ دهقانَهَا أن يشترِي لَهُم غنمًا، ويعدَّ لَهُمْ غداءً، ففعلَ، وأغلقَ باب مدينةِ قطفتا، فَلم يفرغِ الدِّهقَان من طعَامِهِ حتَّى أحَاطَ بهم سعيدُ بنُ مجالدٍ، فصعدَ الدّهقانُ، ثمَّ نزلَ، وَقَد تغيَّرَ لونُهُ.

فَقَالَ شَبيبٌ: مَا لكَ؟

فَقَالَ: قَدْ جاءَكَ جمعٌ عظيمٌ.

قَالَ: أبلغَ شواؤكَ(١)؟

قَالَ: لا.

قَالَ دَعْه يبلغُ، ثمَّ أشرفَ الدهقان إشرافَةً أخرَى، ثمَّ نزلَ فَقَالَ: قَدْ أحاطُوا بالجوسقِ.

قَالَ: هاتِ شواءكَ، فجعلَ يأكلُ غيرَ مكترثٍ بهِم، وَلَا فَزِعٍ.

فلَمَّا فرغَ قَالَ لأَصْحَابِهِ: قومُوا إِلَى الصَّلاةِ، وقامَ فتوضَّأ، وصلَّى بأصحَابِهِ صلاةَ الأولَى، ولبسَ دِرْعَهُ، وتقلَّدَ سيفَهُ، وأخذَ عمُودَه الحَديد، ثمَّ قَالَ: أسرجُوا لِي بَغْلَتِي.

فَقَالَ أخُوهُ: فِي مثلِ هَذَا اليومِ تركبُ بغْلَةً؟

قَالَ: نَعَمْ، أسْرجُوهَا، فركبَهَا، ثمَّ قَالَ: يَا فُلانٌ أنتَ عَلَى المَيمنةِ، وأنتَ يا فلانٌ عَلَى المَيسَرَةِ، وأنتَ يا مُصَادُ ـ يعنِي: أخَاهُ ـ عَلَى القَلبِ، وأمرَ الدهقانَ ففتحَ البَابَ فِي

(١) أنَضجَ.

وجُوهِهِم، فَخَرَجَ إليهم، وَهُوَ يُحكِّمُ[(١)]، وَحَمَلَ حملةً عظيمةً، فجعلَ سعيدٌ وأصحَابُهُ يرجعُونَ القهقرى حتَّى صَارَ بَيْنَهُم وبينَ الديرِ ميلٌ، وشَبِيبٌ يصِيحُ: أتاكُم الموتُ الزُّؤامُ، فَاثْبتُوا، وسَعِيدٌ يصِيحُ: يا مَعْشَرَ همْدَان إليَّ إليَّ أنَا ابنُ ذِي مران.

فَقَالَ شبيبٌ لمصَادٍ: ويحَكَ اسْتعرضهُم استعراضًا، فإنَّهُم قَدْ تقطعُوا، وإنِّي حاملٌ عَلَى أميرِهِم، وأثكلنِيكَ الله إنْ لم أُثكلهُ ولدهُ.

ثمَّ حَمَلَ عَلَى سعيدٍ فعلَاه بالعمُودِ، ثمَّ سقطَ ميتًا، وانهَزَمَ أَصْحَابُه، ولَمْ يُقتَلْ يَوْمَئِذٍ مِنَ الخَوَارِجِ إلا رجلٌ واحدٌ.

وانتهَى قتلُ سعيدٍ إِلَى الجزلِ فنادَاهُم: أَيُّهَا النَّاسُ إليَّ إليَّ، وصاحَ عياضُ بنُ أبِي لينة:

أَيُّهَا النَّاسُ إنْ يَكُنْ أميرُكُم هَذَا القَادِمِ هَلكَ، فَهَذَا أميرُكُم الميمُون النَّقيبة، أقبلُوا إليهِ، فمنهُم مَنْ أقبلَ إِليهِ، وَمِنْهُم مَنْ رَكِبَ رأسَهُ مُنهزمًا، وقاتلَ الجزلُ يَوْمَئِذٍ قتالاً شَديدًا حتَّى صُرِعَ وحَامَى عَنْهُ خالدُ بنُ نهيك وعياضُ بنُ أبِي لينة حتَّى استنقذَاهُ مرتثًا، وأقبلَ النَّاسُ منهزِمِينَ حتَّى دخلُوا الكُوفةَ، وأُتِيَ بالجزلِ جَرِيحًا حتَّى دخلَ المَدائنَ، فكَتبَ إِلَى الحَجَّاجِ:

أمَّا بعدُ؛ فإنِّي أُخبِرُ الأميرَ أصلَحه اللهُ أنِّي خَرجتُ أميرًا فيمَنْ قِبلِي مِنَ الجُندِ الَّذِي وجَّهنِي فيهِم إِلَى عدوِّه، وَقَد كنتُ حفظتُ عهدَ الأميرِ إليَّ فيهم ورأيه، فكنتُ أخرجُ إِلَى المارقِينَ إذا رَأيتُ الفُرصةَ، وأحبسُ الناسَ عنهُم إذا خشيتُ الورطةَ، فلَمْ أزلْ كَذَلِكَ أدبر الأمرَ، وأرفقُ فِي التَّدبيرِ، وَقَد أرادنِي العدوَّ بكلِّ مكيدةٍ، فلم يُصبْ منِّي غِرَّةً حتَّى قدمَ عليَّ سعيدُ بنُ مجالدٍ رحِمَهُ اللهُ فأمرتُه بالتُّؤدَةِ، ونَهيتُهُ عَن العَجلَةِ، وأمرتُهُ ألَّا يقاتلَهُم إلا فِي جَمَاعَةِ النَّاسِ عامَّةً، فعصَانِي، وتعجّل إِلَيْهِم فِي الخَيلِ، فأشهدتُ اللهَ عَلَيْهِ وأهلَ المِصْرَينِ: أنِّي براءٌ منْ رأيهِ وأنِّي لا أهوَى الَّذِي صنعَ، فمضَى، وقُتلَ، تجاوزَ اللهُ عَنْهُ، ودُفعَ النَّاس، فنزلتُ ودعوتُهم إِلَى نفسِي، ورفعتُ لَهُم رايتِي، وقاتلتُ حتَّى صُرِعْتُ، فحَمَلنِي أصْحَابِي من بَيْنَ

---

(١) أي: يقول: لا حُكم إلا لله.

القتلَى، فَمَا أفقتُ إلا وأنا عَلَى أيدِيهم عَلَى رأسِ ميلٍ منَ المعركةِ، وأنَا اليومُ بالمَدَائنِ فِي جرَاحَاتٍ قَدْ يمُوتُ الإنسَانُ مِن دُونِهَا، وَقَد يعافَى من مثلِهَا.

فلَيسأَل الأميرُ أصْلَحَهُ اللهُ عَن نَصِيحتِي لَهُ ولجندِهِ، وعَن مكايدتِي عدوِّه، وعَن موقفِي يومَ النَّاسِ، فإنَّه سيتبيَّنُ لَهُ عِندَ ذَلِكَ أنِّي قَدْ صدَقتُه، ونصحتُ لَهُ، والسَّلامُ.

فكتَبَ الحَجَّاجُ:

أما بَعدُ، فَقَدْ أتانِي كتَابُكَ، وقرأتُه وفهمتُ كلَّ مَا ذَكَرْتَهُ فِيهِ مِن أمرِ سعيدٍ، وأمرِ نفسِكَ، وَقَد صدّقتُكَ فِي نصيحتِكَ لأميرِكَ وحيطتِكَ عَلَى أهلِ مِصْرِكَ وشدتِكَ عَلَى عدوِّكَ، وَقَد رضيتُ عجلةَ سعيدٍ رحمهُ اللهُ وتؤدتكَ.

فأمَّا عجلتُه فَإِنَّهَا أفضتْ بِهِ إِلَى الجنَّةِ، وأما تؤدتكَ فَإِنَّهَا لم تدعِ الفُرصَةَ إذا أمكنت، وترك الفرصة إذا لم تُمكن حزمٌ، وَقَد أحسنتْ وأصبتَ وأُجرتَ وأنتَ عندِي منْ أهلِ السَّمعِ والطَّاعةِ والنَّصِيحَةِ، وَقَد أشخصتُ إليك جبارَ بنَ الأغرِّ الطبيبِ ليدَاويكَ ويعالجَ جراحَاتكَ، وبعثتُ إليكَ بألفي درهمٍ نفقةً تصرفُهَا فِي حاجتِكَ، وَمَا ينُوبكَ، والسَّلامُ.

وبعثَ عبدَ الله بنَ أَبِي عُصَيْفِيرٍ والِي المَدَائنِ إِلَى الجزلِ بألفِ درهمٍ، وكَانَ يعودُه، ويتعاهدُه بالألطَافِ والهدَايَا.

وأمَّا شَبِيبٌ فأقبلَ حتَّى قطعَ دجلةَ عِندَ الكرخِ وَأخذَ بِأصْحَابِهِ نحو الكُوفَةِ، وبلغَ الحَجَّاجَ مَكَانَهُ بحمّام أعين، فبعثَ إِلَيه سويدَ بنِ عبدِ الرحمنِ السَّعدِي فجهَّزهُ بألفَي فَارسٍ منتخبِينَ، وَقَالَ لَهُ: اخرجْ إِلَى شَبِيبٍ فالقِه، وَلَا تتبعهُ، فَخَرَجَ بِالنَّاسِ بالسبخَةِ، وبلغَهُ أنَّ شَبِيبًا قَدْ أقبلَ، فسَارَ نحوَهُ، وكأنَّمَا يُساقُ إِلَى الموتِ هُوَ وأصْحَابُهُ، وأمرَ الحَجَّاجُ عُثْمَانَ بنَ قطني فعسكرَ بِالنَّاسِ بالسبخَةِ ونادَى: ألا برئتِ الذمةُ منْ رجُلٍ من هَذَا الجندِ باتَ الليلَةَ بِالكُوفَةِ، ولم يَخْرجْ إِلَى عثمانَ بنِ قطنِي بالسّبخَةِ.

فبيْنَا سويدُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ يسيرُ فِي الألفَينِ مَعَهُ وَهُوَ يعبيهم ويحرِّضُهم إذِ قيلَ لَهُ: قَدْ غشيكَ شَبِيبٌ، فنزلَ، ونزلَ مَعَهُ جلُّ أَصْحَابِهِ، وقدَّم رايتَهُ، فأخبرَهُ أن شَبِيبًا لَمَّا عَلِمَ بمَكَانِهِ

تَرَكَهُ، ووجدَ مخاضة فعبرَ الفُرَات يريدُ الكُوفَةَ مِن غَيرِ الوَجْهِ الَّذِي سَلكَ سويدُ بنُ عبدِ الرحمنِ.

ثمَّ قيلَ: أما تَرَاهُم؟ فنادَى فِي أَصْحَابِهِ، فركبُوا فِي آثارِهم،وأتى شَبيبٌ دارَ الرزقِ فنزلَهَا.

وَقِيلَ لَهُ: إنَّ أهلَ الكُوفَةِ بأجمعِهِمْ معسكرُونَ.

فلمَّا بلغَهُم مكَانُ شَبيبٍ ماجَ النَّاسُ بعضهُم إِلَى بعضٍ، وجالُوا وهمُّوا بدخُولِ الكُوفَةِ، حتَّى قِيلَ: هَذَا سويدُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ فِي آثارِهِم، قَدْ لحقَهُم وَهُوَ يقاتلهُم فِي الخَيلِ، ومضَى شَبيبٌ حتَّى أخذَ عَلَى شاطِئِ الفُرَات، ثمَّ أخذَ عَلَى الأنبَارِ، ثمَّ دخلَ دقوقاء، ثمَّ ارتفعَ إِلَى أدَانِي أذربيجَان.

وَخَرَجَ الحَجَّاجُ منَ الكُوفَةِ إِلَى البَصْرَةِ حَيْثُ بعُدَ شَبيبٌ واستخلفَ عَلَى الكُوفَةِ عروةَ بنَ المغيرَةِ بن شُعبةَ، فما شعرَ النَّاسُ إلا بكتَابٍ من مَادارسب دهقَان بَابِل مهرُوذ إِلَى عروةَ بنِ المَغيرَةِ بنِ شُعبةَ: أنَّ تاجرًا من تجارِ بلادِي أتَانِي فَذَكَرَ أن شَبيبًا يريد أن يدخلَ الكوفة في أول هذا الشهر المُستقبَل، وأحببتُ إعلامَكَ ذلك، لترى رأيك وإنى لم ألبثْ بعد ذلك إذ جاءنِي اثنان من جيراني فحدّثاني أن شبيبًا قَدْ نزلَ خانيجار، فأخذَ عروةُ كتابَهُ فأدرجَهُ، وسرّحَ بِهِ إِلَى الحَجَّاجِ إِلَى البصرَةِ، فلمّا قرأهُ الحَجَّاجُ أقبلَ جادًا إِلَى الكُوفَةِ، وأقبلَ شَبيبٌ حتَّى انتهَى إِلَى قريةٍ أخرَى عَلَى شاطِئِ دجْلَةَ فعبَرَهَا، وَقَالَ لأَصْحَابِهِ: يا هَؤُلَاءِ إنَّ الحَجَّاجَ لَيْسَ بِالكُوفَةِ، وَلَيْسَ دُونَ أخذِهَا شيءٌ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، فَسِيرُوا بنَا، فَخَرَجَ يبادرُ الحَجَّاج إِلَى الكُوفَةِ.

وكتبَ عروةُ إِلَى الحَجَّاجِ: إنَّ شَبيبًا قَدْ أقبل مُسرعًا يريدُ الكُوفَةَ، فالعجلَ العجلَ.

فطوى الحَجَّاجُ المنازلَ مُسَابقًا لشَبيبٍ إِلَى الكُوفَةِ فسبقَهُ فنزلَهَا صلاةَ العصرِ، ونزلَ شَبيبٌ السبخةَ صلاةَ العشاءِ الآخرَة، فأصابَ هُوَ وأصْحَابُهُ من الطَّعامِ شيئًا يسيرًا، ثمَّ ركبُوا خُيولَهُم فدخلَ شَبيبٌ الكُوفَةَ فِي أَصْحَابِهِ حتَّى انتهى إِلَى السُّوقِ، وشدّ حتى ضربَ بابَ القصرِ بعمُودِهِ، فحدَّثَ جماعَةٌ أنَّهُم رَأَوْا أثرَ ضَربةِ شَبيبٍ بالعمُودِ ببابِ القصرِ، ثمَّ أقبلَ حتَّى وقفَ عِندَ بابِ المصطبةِ وأنشدَ:

وَكَانَ حَافِرُهَا بِكُلِّ ثَنيةٍ ... فَرق يكَيلُ بِهِ شَحِيحٌ معدَمِ

ثم أقحمَ وأصْحَابهُ خُيولهُم المَسْجدَ الجَامِع، وَكَانَ لا يفارقُه قومٌ يصلُّونَ فِيهِ، فقتَلَ مِنْهُم جَمَاعَةً، ومرَّ هُوَ بدارِ حَوْشَبٍ - وكانَ هُوَ عَلَى شُرطِ الحَجَّاجِ - فوقفَ عَلَى بابِه فِي جَمَاعَةٍ.

فَقَالُوا: إنَّ الأميرَ - يعنُونَ الحَجَّاجَ - يدعُو حَوْشَبًا، وَقَد أخرَجَ ميمُون غلامَهُ بِرذونهُ ليركبَ، فكأنه أنكرهم، فظنّوا أنه قد اتهمهم، فأراد أن يدخل إلى صاحبه، فَقَالُوا لَهُ: كَمَا أنتَ حتَّى يخرجَ صَاحبُكَ إلَيْكَ.

فسمعَ حَوْشَبٌ الكَلَامَ، فأنكرَ القوم وذهبَ لينصرفَ، فعجلُوا نحوَهُ، فأغلقَ البابُ دُونَهُم، فقتلُوا غلامَهُ ميمُونًا، وأخذُوا بِرذونَهُ، ومَضَوْا حتَّى مرُّوا بالجحَافِ بن نبيط الشَّيبانِي مِن رهطِ حَوْشَبٍ، فَقَالَ لَهُ سويدُ: انزلْ إلينَا.

فَقَالَ مَا تصنعُ بنزُولِي؟

فَقَالَ: انزلْ إنِّي لم أقضكَ ثمنَ البَكرَة الَّتِي كنتُ ابتعتهَا منكَ بالبَاديةِ.

فَقَالَ الجحافُ: بئسَ ساعة القضَاءِ هَذِهِ، وبئسَ المكَان لقضاء الدِّينِ هَذَا! وَيْحَكَ! مَا ذَكَرْتَ أدَاءَ أمانتِكَ إلَّا والليْلُ مظلمٌ، وأنتَ عَلَى متنِ فرسِكَ، قبَّحَ اللهُ يا سويدُ دَينًا لا يصلحُ وَلَا يتمُّ إلا بقتلِ الأنفسِ وسفكِ الدِّماءِ، ثمَّ مرُّوا بمسجدِ بنِي ذهلٍ ولقَوْا ذهلَ بنَ الحَارثِ، وكان يصلِّي فِي مَسجدِ قومِهِ فيطِيل الصَّلَاةَ فصَادفُوهُ مُنْصَرِفًا إِلَى منزلِهِ فقتلُوهُ، ثمَّ خَرجُوا مُتوجِّهِينَ نَحْوَ الرِّدمَةِ.

وأمرَ الحَجَّاجُ فَنُودِيَ: يا خيلَ الله اركَبِي، وأبشرِي، وهُوَ فوق باب القصرِ، وهناك مصبَاحٌ مع غلامٍ لَهُ قائمٌ، وكانَ أوّل من جاءَ مِن النَّاسِ عثمانُ بنُ قطنٍ، وَمَعَهُ مواليهِ وناسٌ مِن أهلِهِ، فَقَالَ: أعْلِمُوا الأميرَ بمكَانِي أنَا عثمانَ بنَ قطنٍ فليَأمُرنِي بأمرِهِ.

فنادَاهُ الغُلَامُ صَاحِبُ المصباحِ: قِفْ مَكَانَكَ حتَّى يأتيَكَ أمرُ الأميرِ، وجاءَ النَّاسُ مِن كلِّ جانبٍ، وباتَ عثمانُ مكانَهُ فيمن اجتمعَ إلِيْهِ منَ النَّاسِ حتَّى أصبحَ.

وَقَد كَانَ عبدُ المَلكِ بنُ مروَانَ بعثَ محمَّدَ بنَ مُوسَى بنِ طَلْحَةَ عَلَى سِجستَانَ، وكتبَ لَهُ عهده إليهَا، وكتبَ إِلَى الحَجَّاجِ: إذا قدمَ عَلَيْكَ محمدُ بنُ موسَى بن طلحةَ الكُوفَةَ فجهز مَعَهُ ألفَي رجلٍ، وعجّل سرَاحَهُ إِلَى سِجستَانَ، فلمَّا قدمَ الكُوفَةَ جعلَ يتجهَّزُ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ وَنُصحَاؤُهُ: تعجَّل أيُّها الرَّجلُ إِلَى عَملِكَ فإنَّك لا تدرِي مَا يحدثُ، وعرض أمرُ شَبيبٍ حِينَئِذٍ ودخُولُهُ الكُوفَةَ.

فقيلَ للحَجَّاجِ: إنَّ مُحَمَّدَ بنَ مُوسَى إنْ سَارَ إِلَى سِجسْتَانَ مَع نَجْدتِهِ وصهرِهِ لأميرِ المُؤْمِنِينَ عبدِ المَلكِ فَلَجَأَ إِليْهِ أحدٌ مِمَّن تطلبُهُ منعكَ مِنْهُ.

قَالَ: فَمَا الحِيلَةُ؟

قالُوا: أَنْ تذكرَ لَهُ أن شَبيبًا فِي طريقِهِ، وَقَد أعيَاكَ، وإنَّكَ تَرْجُو أن يريحَ اللهُ مِنْهُ عَلَى يدِهِ؛ فيكُونُ لَهُ ذكرُ ذَلِكَ وشهرتُهُ.

فَكَتَبَ إِليْهِ الحَجَّاجُ: إنَّكَ عاملٌ عَلَى كُلِّ بلدٍ مَرَرتَ بِهِ، وَهَذَا شَبيبٌ عَلَى طَرِيقِكَ تُجاهِدُهُ ومن مَعَهُ، ولكَ أجرُه وذكرهُ وصِيتهُ، ثمَّ تمضِي إِلَى عهدِكَ. فَاسْتجَابَ لَهُ.

وبعثَ الحَجَّاجُ بشرَ بنَ غالبٍ الأسدي فِي ألفَي رجلٍ، وزيادَ بنَ قدامةَ فِي ألفَينِ، وأبا الضريسِ مولَى تميم فِي ألفٍ منَ المَوَالِي، وأعين صَاحِب حمَّام أعين مولَى لبِشرِ بنِ مرَوانَ فِي ألفٍ، وجمَاعَة غيرهم.

فاجْتمَعَتْ تلكَ الأمرَاءُ فِي أسفلِ الفُراتِ، وتركَ شَبيبٌ الوَجه الَّذِي فِيهِ جماعة هَؤُلَاءِ القُواد وأخذَ نحوَ القَادِسيةِ، فوجَّه الحَجَّاجُ زحرَ بنَ قيسٍ فِي جريدةِ خيلٍ نقاوة، عدَّتها ألف وثمانمائةِ فارسٍ، وَقَالَ لَهُ: اتَّبعْ شَبيبًا حتَّى تواقعهُ حَيْثُمَا أدركتَهُ. فَخَرَجَ زحرُ حتَّى انتهى إِلَى السيلحينِ، وبلغَ شَبيبًا مَسِيرُهُ إِليْهِ، فأقبلَ نحوَهُ والتقيَا، وقد جعلَ زحرُ عَلَى مَيمنتِه عبدَ الله بنِ كبار، وكانَ شجاعًا.

وكانَ عَلَى ميسرتِه عديُّ بنُ عديِّ بن عميرةَ الكندِي، وجمع شَبيبٌ خيلَهُ كلَّهَا كبكبة واحدة ثمَّ اعترَضَ بِهَا الصَّف يوجفُ وجيفًا، حتَّى انتهَى إِلَى زحرَ بنِ قيسٍ.

فنزلَ زحرُ فقاتلَ حتَّى صُرِعَ، وانهزمَ أَصْحَابُهُ، فظُنَّ أَنَّهُ قَدْ قتلَ، فلمَّا كَانَ اللَّيْلُ، وأصابَهُ البردُ قَامَ يمشِي فدخلَ قريةً فباتَ بِهَا وَحُمِلَ مِنْهَا إِلَى الكُوفَةِ، وبوجهِه أربعة عشرَ ضربةً، فمكثَ أيَّامًا ثمَّ أتى الحَجَّاجَ، وَعَلَى وجهِه القُطنَ، فأجلسَهُ مَعَهُ عَلَى السَّريرِ.

وَقَالَ أَصْحَابُ شَبِيبٍ لشَبِيبٍ وهُم يظنُّونَ أَنَّهُم قَدْ قتلوا زحرَ: قَدْ هَزمنَاهُم وقتلْنَا أميرًا مِنْ أمرَائِهِم عظيمًا، فانصرفْ بنَا الآنَ موفُورِينَ.

فَقَالَ لهُم: إنَّ قتلَكُم هَذَا الرَّجلَ وهزيمتكُم هَذَا الجندَ، قَدْ أرعبَ هَؤُلَاءِ الأمرَاء فاقصدُوا بنَا قصدَهمُ، فوالله لَئِنْ نَحنُ قتلنَاهُمْ مَا دُونَ قتلِ الحجَّاجِ وأخذ الكُوفَة شيءٌ.

فَقَالُوا: نَحنَ طوعُ أمركَ ورأيكَ.

فانقضَّ بِهم جادًّا حتَّى أَتَى نَاحيةَ عينِ التَّمرِ، واستخبرَ عنِ القومِ فعرفَ اجتماعَهُم فِي روذبار فِي أسفلِ الفرَاتِ عَلَى رأسِ أربعة وعشرِينَ فرسخًا من الكُوفَةِ.

وبلغ الحَجَّاجُ مسيرَ شَبِيبٍ إِلَيْهِم فبعثَ إِلَيْهِم: إن جَمَعَكُم قتالٌ، فأميرُ الناسِ زائدةُ بنُ قدامةَ.

فانتهى إليهم شبيبٌ، وفيهم سبعة أمراء، على جماعتهم زائدة بن قدامة، وقد عبى كلُ أمير أصحابه على حِدة، وهو واقف فِي أصحابه.

فأشرفَ شَبِيبٌ عَلَى النَّاسِ، وَهُوَ عَلَى فرسٍ لَهُ أغر كمَيْت فنَظرَ إِلَى تعبيتِهم، ثمَّ رجعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، وأقبلَ فِي ثلاثِ كتَائبَ يزحف بها، حتَّى إذا دنَى مِنَ النَّاسِ مَضَتْ كتيبةٌ فِيهَا سويدُ بنُ سليمٍ فوقفتْ بإزَاء مَيمنةِ زائدة بنِ قُدَامةَ، وفيهَا زيادُ بنُ عمرٍو العتكِي.

وَمَضَتْ كتيبةٌ فِيهَا مصادٌ أخو شَبِيبٍ فوقفتْ بإزَاءِ المَيْسَرَةِ، وفيها بشرُ بنُ غالبٍ الأسدِي، وجاء شَبِيبٌ فِي كتيبةٍ حتَّى وقفَ مقابل القومِ فِي القَلبِ.

فَخَرَجَ زائدةُ بنُ قدامةَ يسيرُ فِي النَّاسِ بَينَ المَيْمَنةِ والمَيْسَرَةِ يُحرِّضُ النَّاسَ، ويقولُ: عبادَ الله ! إنَّكمُ الطَّيبُونَ الكثيرُونَ، وَقَد نزلَ بِكُم الخبيثُونَ القَليلُونَ؛ فاصبروا جُعلت لكُم الفِدَاء، إنَّمَا هِيَ حَمْلتَانِ أو ثلاثٌ، ثمَّ هو النَّصر لَيسَ دُونَهُ شيءٌ، أَلَا ترَونهُم والله لا يكونُونَ

مائتي رجلٍ، إنَّمَا هُم أكلة رأسٍ، وهُمُ السُّراقُ المُراقُ، وأنتُم أهْل جمَاعَة المُسْلِمِينَ، غضُّوا الأبْصَار واستقبلُوهُم بالأسنَّةِ، وَلَا تَحْملُوا عَلَيْهِم حتَّى آمركُم.

ثم انصرف إِلَى موقفِه.

فَحَمَلَ سويدُ بنُ سليمٍ عَلَى زيادِ بنِ عمرٍو العتكِي فكشفَ صفَّه وثبتَ زيادٌ قليلاً، ثمَّ ارتفعَ سويدُ عنهُم يسيرًا ثمَّ كرَّ عَلَيْهِم ثانيةً، فَقَالَ فروةُ بنُ لقيطٍ الخَارِجِيُّ: طاعنَّاهُم ذَلِكَ اليومَ ساعةً، فصبرُوا لنَا حتَّى ظنَّنا أنَّهُم لن يزولُوا، وقاتل زيادُ بنُ عمرٍو قتالًا شَدِيدًا، ولقدْ رأيتُ سويدَ بنَ سليمٍ يَوْمَئِذٍ وإنَّه لأشد العربِ قتالاً وأشجعَهُم، وَهُوَ واقفٌ لا يعرضُ لَهُم.

ثمَّ ارتفعْنَا عنهُم فَإِذَا هُم يتقوضُونَ، فَقَالَ بعْضُ أصْحَابِنَا لبعضٍ: أَلَا تَرَوْنَهُمْ يتقوضُونَ احمِلُوا عَلَيْهِم، فأرسلَ إلينَا شَبيبٌ: خلوهُم لا تَحْمِلُوا عَلَيْهِم حتَّى يخفُّوا. وتركنَاهُم قليلاً، ثمَّ حَمَلْنَا عَلَيْهِم الثَّانيةَ فانهزمُوا، فنظرتُ إِلَى زيادِ بنِ عمرو وإنَّه ليضربَ بالسُّيوفَ، وَمَا منْ سيفٍ يضربَ بِهِ إلا نبَا عنهُ، ولقَدِ اعتورَهُ أكثر من عِشْرِينَ سيفًا وَهُوَ مخففٌ فمَا ضَرَّه شيءٌ مِنهَا.

ثمَّ انهزمَ وانتهينَا إِلَى محمدِ بنِ مُوسَى بن طلحَةَ أميرِ سِجستَانَ عِندَ المغربِ، وَهُوَ قائمٌ فِي أَصْحَابِهِ، فقاتلْنَاه قتالاً شَدِيدًا، وصَبَرَ لنَا.

ثمَّ إن مصادًا حَمَلَ عَلَى بشرِ بنِ غالبٍ فِي المَيْسَرَةِ فصبرَ ونزلَ وأبلَى، ونزلَ مَعَهُ رجالٌ منْ أهلِ البصرةِ نحْو خَمسِينَ فضَاربُوا بأسيافِهِم حتَّى قُتلُوا.

ثم انهزَمَ أصْحَابُهُ، فشددنَا عَلَى أَبِي الضريسِ فهزمنَاهُ، ثمَّ انتهينا إِلَى موقفِ أعين، ثمَّ شددنَا عَلَيْهِ وَعَلَى أعين فَهَزَمْنَاهُم حتَّى انتهينَا إِلَى زائدةَ بنِ قُدَامَةَ، فلمَّا انتهَوْا إِلَيْهِ نزل ونَادَى: يا أهلَ الإسلامِ ! الأرضَ والأرضَ إليَّ إليَّ، لا يَكُونُوا عَلَى كفرِهِم أصبر مِنْكُم عَلَى إيمَانِكُم، فقاتلُوا عامَّة الليلِ إِلَى السَّحَرِ، ثمَّ إن شَبيبًا شدَّ عَلَى زائدةَ بنِ قُدامةَ فِي جمَاعَةٍ من أَصْحَابِهِ فَقَتَلَهُ وقتلَ ربضةً حوله من أهل الحفاظ، ونادى شَبيبٌ فِي أَصْحَابِهِ: أنِ ارفعُوا السُّيوفَ وادعوهُم إِلَى البيعَةِ، فدعوهُم عِندَ الفَجرِ إِلَى البَيعَةِ.

قال عبد الرحمن بن جندب: فكنتُ فيمَن تقدَّم فبايعَهُ بالخِلَافةِ، وَهُوَ واقفٌ عَلَى فرسٍ أغرَّ كُمَيْت، وخيلهُ واقفةٌ دونَهُ، وكلُّ مَنْ جَاءَ ليبايعَهُ يُنزعُ سيفُهُ عن عاتقِهِ ويؤخذُ سلاحَهُ، ثمَّ يُدنِي من شَبِيبٍ فيسلمُ عَلَيْهِ بإمرةِ المُؤْمِنِينَ، ثمَّ يبايعُ

فإنَّا لكذلكَ إذ أضَاءَ الفجرُ ومحمدُ بنُ مُوسَى بنِ طلحةَ فِي أقصَى العَسكرِ مع أَصْحَابِهِ، وكانَ الحَجَّاجُ قَدْ جعلَ موقفَهُ آخر النَّاسِ، وزائدةُ بنُ قدامة بَيْنَ يديهِ، ومقامُ محمدِ بنِ مُوسَى مقامَ الأميرِ عَلَى الجماعةِ كلِّها، فأمرَ محمدٌ مؤذِّنَهُ فأذَّن، فلمَّا سَمعَ شَبِيبٌ الأذانَ، قَالَ: ما هَذَا؟

قيل: هَذَا ابنُ طلحةَ لم يبرحْ.

قَالَ: ظننتُ أنَّ حُمقَهُ وخُيَلَاءهُ حَمَلَاهُ عَلَى هَذَا، نحُّوا هَؤُلَاءِ عنَّا، وأنزلُوا بِنَا فلنصلِّ، فنزلَ وأذَّنَ هُوَ ثمَّ استَقْدَمَ فَصلَّى بأَصْحَابِهِ وَقرَأ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ١﴾ و ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ١﴾ ثمَّ سلَّم وَرَكِبَ، وأرسلَ إِلَى محمدِ بنِ موسَى بنِ طلحةَ: إنَّكَ امرؤٌ مخدوعٌ، قَدْ اتقى بكَ الحَجَّاجُ المنية، وأنتَ لي جارٌ بِالكُوفَةِ ولكَ حقٌّ، فانطلقْ لما أُمرت بِهِ، ولكَ الله لَا أسوُؤكَ.

فأبَى إلَّا محاربتهُ، فأعادَ عَلَيْهِ الرسُولَ، فأبَى إلَّا قتَالَهُ.

فَقَالَ لَهُ شَبِيبٌ: كأنِّي بِأَصْحَابِكَ إذا التقت حلقتا البطانِ[1] قَدْ أسلمُوكَ، وصُرعت مصرعَ أمثالِك، فأطعنِي وانطلقْ لشأنِكَ فإنِّي أنفس بِكَ عَنِ القَتلِ، فَأبى، وخرجَ بِنَفْسِهِ، ودعَا إِلَى البرازِ فبرز لَهُ البطينُ، ثمَّ قعنبُ بن سويد وَهُوَ يأبى إلَّا شَبِيبًا، فَقَالُوا لشَبِيبٍ: إنَّه قَدْ رغبَ عنَّا إليكَ.

---

(١) البِطان: حزام الرَّحل أو القتب الذى يلي البطن، له حلقتان في كل طرفٍ حلقة، يصعب التقاؤهما، فإذا التقتا، بلغ الشدُّ غايته.

قَالَ: فَمَا ظَنُّكُم بِمَنْ يرغبُ عنِ الأشرَافِ؟ ثمَّ برزَ لَهُ وَقَالَ لَهُ: أنشدكَ اللهَ يا محمدُ فِي دمكَ فإنَّ لكَ جوارًا، فأبَى إلا قتَالَهُ.

فَحَمَلَ شَبِيبٌ عَلَيْهِ بعمودِهِ الحديد - وكانَ فِيهَا اثنا عشرَ رطلاً - فهشمَ رأسَهُ وبيضةً كانتْ عَلَيْهِ، وقتلهُ ونزلَ إِليْهِ، فكفَّنَهُ ودفنَهُ، وتتبعَ مَا أغنمَ الخَوارج من عَسكرِهِ، فبعثَ بِهِ إِلَى أهلِهِ، واعتذرَ إِلَى أَصْحَابِهِ.

وَقَالَ: هُوَ جاري بِالكُوفَةِ ولِي أن أهبَ مَا غنمتُ.

فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: مَا دُونَ الكُوفَةِ الآن أحدٌ يمنعُكَ، فنظرَ فَإِذَا أَصْحَابُهُ الخَوَارِج قَدْ فَشَا فِيهِم الجِرَاحُ، فَقَالَ: لَيْسَ عَلَيْكُم أكثر ممَّا قَدْ فعلتُم، وخرَجَ بِهِم عَلَى نِفر[1]، ثمَّ خَرَجَ بِهِم نَحْو بغدادَ يطلبُ خانيجار.

وبلغ الحَجَّاجُ أن شَبِيبًا قَدْ أخذَ نحو نِفر، فظنَّ أَنَّه يريدُ المَدَائنَ وَهِيَ باب الكُوفَةِ، ومن أخذَ المَدَائِن كَانَ مَا فِي يديهِ منْ أرضِ الكُوفَةِ أكثَر، فهَالَ ذَلِكَ الحَجَّاجَ، وبعثَ إِلَى عثمانَ بن قطنٍ فسرَّحَهُ إِلَى المَدَائنِ وولَّاهُ منبرَهَا والصَّلاةَ، ومعونةَ جُوخى كلِّها، وخَرَاج الأستان، فجَاءَ مُسرعًا حتَّى نزلَ المدائنَ، وعزلَ الحَجَّاجُ ابنَ أَبِي عُصَيْفِيرٍ عَن المَدَائِنِ، وكانَ الجزلُ مقيمًا بِهَا يداوِي جراحَاتِه، وكانَ ابنُ أَبِي عُصَيْفِيرٍ يعُودُه ويُكرمهُ - كَمَا مرَّ - ويُلطفُهُ.

فلمَّا قدمَ عثمانُ بنُ قطنٍ لَمْ يَكُنْ يتعاهدُهُ ولا يلطفهُ بشيءٍ، فكَانَ الجزلُ يقُولُ: اللَّهُمَّ زِدِ ابنَ أَبِي عُصَيْفِيرٍ فضلًا وكرمًا، وزِدْ عثمانَ بنَ قطنٍ ضيقًا وَبُخلًا.

ثمَّ إنَّ الحَجَّاجَ دَعَا عَبدَ الرَّحْمَنِ بنَ محمَّدِ بنِ الأشعثَ، فَقَالَ لَهُ: انْتَخبِ النَّاسَ، فأخرجَ ستمائةٍ من قومهِ من كندةَ، وأخرَجَ مِن سائرِ النَّاسِ ستة آلافِ، واستحثَّه الحَجَّاجُ على الشُّخوصِ، فَخَرَجَ فعسكرَ بدير عبدِ الرحمنِ، فلمَّا استتمُّوا هناكَ كَتَبَ إِلَيْهِم الحَجَّاجُ كِتَابًا قُرِئَ عَلَيْهِمْ:

---

(١) قرية.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ اعتدتُم عَادَةَ الأذلاء، ووليتم الدُبرَ يومَ الزَّحفِ دأب الكَافِرين، وَقَد صفحتُ عنكُم مرَّة بعد مرَّة، وتارةً بعد أخرَى، وإنِّي أقسمُ بالله لكُم صادقًا لئن عدتُم لذلكَ لأوقعنَّ بكُم إيقاعًا يكُونُ أشدَّ عَلَيْكُم مِن هَذَا العدوِّ الَّذِي تنهزمُونَ مِنْهُ فِي بطُونِ الأوديةِ والشِعابِ، وتستترون مِنْهُ بأفناءِ الأنهارِ وألواذِ الجبال، فليَخَف من كَانَ لَهُ معقولٌ عَلَى نفسِهِ، وَلَا يجعلُ عَلَيْهِ سبيلاً فَقَدْ أعذرَ من أنذرَ، والسَّلامُ.

وارتحلَ عبدُ الرحمنِ حتَّى مرَّ بالمدائنِ فنزلَ بِهَا يومًا اشترَى أصْحَابُهُ مِنْهَا حوائجَهم، ثمَّ نادى النَّاسَ بالرَّحيلِ، وأقبل حتَّى دخلَ عَلَى عثمانَ بنِ قطنٍ مودِّعًا، ثمَّ أتى الجزلَ عائدًا مسلِّيًا لَهُ من جراحتِهِ وحادثِهِ.

فَقَالَ الجزلُ: يابنَ العمِّ إنَّكَ تسيرُ إِلَى فرسَانِ العرَب، وأبنَاءِ الحربِ، وأحلاسِ الخيلِ، والله لكأنَّما خُلقُوا من ضلوعِهَا، ثمَّ رُبوا عَلَى ظهورِهَا، ثمَّ هُم أُسْد الأجمِّ، الفَارسُ مِنْهُم أشد من مائةٍ، إن لم تبدُؤا بهِ، بدأ هُوَ، وإن هجهج[(١)] أقدم، فإنِّي قاتلتهُم وبلوتُهم، فَإِذَا أصحرتُ لَهُم انتصفُوا منِّي، وكانَ لَهُم الفضلُ عليَّ، وإذا خَندقتُ أو قاتلتُ فِي مَضيقٍ نلتَ مِنْهُم مَا أحبُّ، وكانتْ لي عَلَيْهِم، فَلَا تلقِهم وأنتَ تستطيعُ إلا فِي تعبيةٍ أو خندقٍ، ثمَّ ودَّعهَ.

وَقَالَ: هَذِهِ فرسِي القسقساءُ خذْهَا فَإِنَّهَا لا تجارى، فأخذها.

ثمَّ خَرَجَ بِالنَّاسِ نحو شَبِيبٍ، فلمَّا دنى مِنْهُ ارتفع شَبِيبٌ عَنْهُ إِلَى دقوقا وشهرزور، فَخَرَجَ عبد الرحمن فِي طلبه، حتَّى إذا كَانَ عَلَى تخوم تلك الأرض أقام وَقَالَ: إنَّمَا هُوَ فِي أرض الموصل، فليقاتل أمير الموصل وأهلها عن بلادهم، أو فليدعوا.

وبلغ ذَلِكَ الحَجَّاجُ فَكَتَبَ إِلَيْهِ:

أما بعد، فاطلب شَبِيبًا، واسلك أين سلك حتَّى تُدركه فتقتله، أو تنفيه عن الأرض، فَإِنَّمَا السلطان سلطان أمير المُؤْمِنِينَ، والجند جنده.

---

(١) صِيح به.

فلمّا قرأ عبد الرحمن كتاب الحَجَّاجِ فِي طلب شَبِيبٍ، وكان شَبِيبٌ يدعه حتَّى إذا دنى مِنْهُ، وأراد أن يبيِّته، وجده قَدْ خندق وحذِره، فيمضي ويتركه، فيتبعه عبد الرحمن، فَإِذَا بلغ شَبِيبًا أنه قَدْ تَحَمَّلَ وسار يطلبه كرَّ فِي الخيل نحوَهُ، فَإِذَا انتهى إِلَيْهِ وجده قَدْ صفَّ خيله ورجّالته المرامية، فَلَا يصيب لَهُ غرة وَلَا غفلة، فيمضي ويدعه.

ولما رأى شَبِيبٌ أنه لا يصيب غرّته، وَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ صَارَ يخرجُ كلَّما دنَى مِنْهُ عبد الرحمن حتَّى ينزل عَلَى مسيرة عشرين فرسخًا، ثمَّ يقيم فِي أرض غليظة وعِرة، فيجيء عبد الرحمن فِي ثِقَله وخيله، حتَّى إذا دنى من شَبِيبٍ ارتحل فسار عشرين أو خمسة عشر فرسخًا، فنزل منزلاً غليظًا خشنًا، ثمَّ يقيم حتَّى يبلغ عبد الرحمن ذَلِكَ المنزل، ثمَّ يرتحل، فعذّب العسكر، وشق عَلَيْهِم وأحفى دوابهم، ولقوا مِنْهُ كلَّ بلاءٍ.

فلم يزل عبد الرحمن يتبعه حتَّى صَارَ إِلَى خانقين وجلولاء، ثمَّ أقبل عَلَى تامرا فصار إِلَى البت ونزل عَلَى تخوم الموصل لَيْسَ بينه وبين سواد الكُوفَةِ إلا نهر حولايا، وأتى عبد الرحمن حتَّى نزل بشرقي حولايا وهم فِي راذان الأعلى من أرض جوخى، ونزل فِي عواقيل من النهر، ونزلها عبد الرحمن حين نزلها وَهِيَ تعجبه يرى أنها مثلُ الخندق الحصين.

فأرسل شَبِيبٌ إِلَى عبد الرحمن: إن هَذِهِ الأيام أيام عيد لنا ولكم، فإن رأيتم أن توادعونا حتَّى تمضي الستة الأيام، فأجابه إِلَى ذَلِكَ، ولم يكن شيءٌ أحب إِلَى عبد الرحمن من المطاولة والموادعة، فكتب عثمان بن قطن إِلَى الحَجَّاجِ:

أما بعد؛ فإني أُخبر الأمير أصلحه الله أن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قَدْ حفر جوخى كلها عليه خندقًا واحدًا، وخلى شَبِيبًا، وكسر خراجها، فَهُوَ يأكل أهلها، والسَّلامُ.

فكتب إِلَيْهِ الحَجَّاجُ: قَدْ فهمتُ مَا ذكرْتَ، وَقَد - لعمري - فعل عبد الرحمن، فسِر إِلَى الناس، فأنت أميرهم وعاجل المارقة حتَّى تلقاهم، والسلام.

وبعث الحَجَّاجُ عَلَى المدائن مطرف بن المغيرة بن شعبة، وخرَجَ عثمان حتَّى قدم عَلَى عبد الرحمن ومَن مَعَهُ، وهم معسكرون عَلَى نهر حولايا قريبًا من البت، وَذَلِكَ يوم التروية عشاءً، فنادى فِي الناس، وَهُوَ عَلَى بغلته: أيها الناس اخرُجوا إِلَى عدوكم، فوثبوا إِلَيْهِ،

وقالوا: ننشدك الله هَذَا المساء قَدْ غشينا والناس لم يوطنوا أنفسهم عَلَى القتال، فبت الليلة، ثمَّ اخرجْ عَلَى تعبيةٍ؟ فجعل يقول: لأناجزنّهم الليلة ولتكون الفرصة لي أو لهم.

فأتاه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فأخذ بعنان بغلته وناشده الله لما نزل.

وَقَالَ لَهُ عقيل بن شداد السلولي: إن الَّذِي تريد من مناجزتهم الساعة أنت فاعله غدًا، وَهُوَ خير لك وللناس، إن هَذِهِ الساعة ريحٌ قَدْ اشتدت مساءً، فانزل، ثمَّ بكِّر بنا غدوة، فنزل وسفَت عَلَيْهِ الريح، وشق عَلَيْهِ الغبار، فاستدعى صاحبُ الخراج علوجًا، فبنوا لَهُ قُبة، فبات فِيهَا، ثمَّ أصبح فَخَرَجَ بالناس فاستقبلتهم ريح شديدة وغبرة، فصاح الناس إِلَيْهِ وقالوا: ننشدك الله أن لا تخرجَ بنَا فِي هَذَا اليوم، فإنَّ الرِّيحَ عَلَيْنَا. فَأَقَامَ ذَلِكَ اليَوم.

وكان شَبِيبٌ يخرجُ إِلَيْهِم، فلمَّا رآهُم لا يخرجُون أقام، فلمَّا كَانَ الغد خَرَجَ عثمان يعبي الناس عَلَى أرباعهم، وسألهم مَن كَانَ عَلَى ميمنتكم وميسرتكم؟

فَقَالُوا: خالد بن نهيك عَلَى ميسرتنا، وعقيل بن شداد السلولي عَلَى ميمنتنا، فدعاهما فَقَالَ لهما: قفا مواقفكما الَّتِي كنتما بِهَا، فقد وليتكما المجنبتين فاثبتا، وَلَا تفرَّا، فوالله لا أزولُ حتَّى تزولَ نخيل راذان من أصولها.

فقالا: ونحن والله الَّذِي لا إله إلا هُوَ لا نفرُّ حتَّى نظفر أو نقتل.

فَقَالَ لهما: جزاكما الله خيرًا.

ثمَّ أقام حتَّى صلى بِالنَّاسِ الغداة، ثمَّ خَرَجَ بالخيل، فنزل يمشِي فِي الرجال، وخَرَجَ شَبِيبٌ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ فِي مائة وواحد وثمانين رَجُلًا، فقطع إِلَيْهِم النهر، وكان هُوَ فِي ميمنة أَصْحَابِهِ، وجعل عَلَى ميسرته سويد بن سليم، وَجَعَلَ فِي القلب مصادًا أخاه، وزحفوا.

وكان عثمان بن قطن يقول لأَصْحَابِهِ فيُكثر: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

ثمَّ قَالَ شَبِيبٌ لأَصْحَابِهِ: إنِّي حاملٌ عَلَى ميسرتهم مما يلي النهر، فَإِذَا هزمتها فليحمل

صاحب ميسرتي عَلَى ميمنتهم، وَلَا يبرح صاحب القلب حتَّى يأتيه أمري، ثمَّ حَمَلَ فِي ميمنة أَصْحَابِهِ مما يلي النهر عَلَى ميسرة عثمان بن قطن؛ فهزمها.

ونزل عقيل بن شداد عَلَى طائفة من أهل الحفاظِ، فقاتل حتَّى قُتلَ، وقُتلوا مَعَهُ، ودخل شَبِيبٌ عسكرهم، وَحَمَلَ سويد بن سليم فِي ميسرة شَبِيبٍ عَلَى ميمنة عثمان بن قطن فهزمها، وعليها خالد بن نهيك الكندي، فنزل خالد فقاتل قتالاً شديدًا، فَحَمَلَ عَلَيْهِ شَبِيبٌ من ورائِه فلم ينثنِ حتَّى علاه بالسيف فَقَتَلَهُ.

ومشى عثمان بن قطن وَقَد نزلت مَعَهُ العُرفاء والفرسان وأشراف الناس نحو القلب، وَفِيهِ أخو شَبِيبٍ فِي نحوٍ من ستين رَجُلًا، فلمَّا دنى مِنْهُم عثمان شدّ عَلَيْهِم فِي الأشراف وأهل الصبر، فضربهم مصاد وأصحَابهُ حتَّى فرَّقُوا بَيْنَهُمْ.

وَحَمَلَ شَبِيبٌ من ورائهم بالخيل، فما شعروا إلا والرِّماح فِي أكتافهم تكبهم لوجوههم، وعطف عَلَيْهِم سويد بن سليم أيضًا فِي خيله، وقاتل عثمان بن قطن فأحسن القتال.

ثم إن الخوارج شدوا عَلَيْهِم فأحاطوا بعثمان، وَحَمَلَ عَلَيْهِ مصاد أخو شَبِيبٍ فضربه ضربةً بالسيف فاستدار لها، وكان أمر الله مفعولاً، وقدرًا مقدورًا، فقُتل وقُتل مَعَهُ العرفاء ووجوه الناس، وقُتل من كندة يَوْمَئِذٍ مائة وعشرون رَجُلًا، ومن سائر الناس نحو ألف، ووقع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إِلَى الأرض، فعرفه ابن أبي سبرة، فنزل وأركبه وصار رديفًا له.

وقال لَهُ عبد الرحمن: نادِ فِي الْمُسْلِمِينَ، الحقوا بدير ابن أبي مريم، فنادى بِذَلِكَ، وانطلقا ذاهبين.

وأمر شَبِيبٌ أصْحَابَهُ فرفعوا عن الناس السيف، ودعاهم إِلَى البيعة، فأتاه من بقي من الرجال، فبايعوه، وبات عبد الرحمن بدير اليعار، فأتاه من بقي من الرجال، فبايعوه، وبات عبد الرحمن بدير اليعار فأتاه فارسان ليلاً فخلا بِهِ أحدهمَا يناجيهِ وقام الآخر قريبًا مِنْهُمَا.

ثمَّ مضيا ولم يُعرفا فتحدث الناس أن المناجي لَهُ كَانَ شَبِيبًا، وأن الَّذِي كَانَ قريبًا مِنْهُمَا مصادًا أخاه، واتُهم عبد الرحمن بمكاتبة شَبِيبٍ مِن قبل، ثمَّ خَرَجَ عبد الرحمن آخر الليل، فسار حتَّى انتهى إِلَى دير ابن أبي مريم، فَإِذَا هُوَ بِالنَّاسِ قَدْ سبقوه، وَقَد وضع لَهُم ابن أبي سبرة صُبَرَ الشعير والقتّ كأنها القصور، ونحر لَهُم من الجزر مَا شاء.

واجتمع الناس إِلَى عبد الرحمن، فَقَالُوا لَهُ: إن علم شَبِيبٌ بمكانك أتاك، فكنت لَهُ غنيمة وَقَد تفرّق الناس عنكَ وقُتل خيارهم، فالحقْ أيها الرجل بِالكُوفَةِ؛ فَخَرَجَ، وخَرَجَ مَعَهُ النَّاسُ حتَّى دخَلَ الكُوفَةَ مُسْتَتِرًا منَ الحَجَّاجِ إِلَى أن أخَذَ لَهُ الأَمَانَ.

ثمَّ إنَّ شَبِيبًا اشتدَّ عَلَيْهِ الحَرّ وَعَلَى أَصْحَابِهِ، فأتى ماء بهراذان فصيّف بِهَا ثلاثة أشهر.

وأتاه أناس ممن كَانَ يطلب الدنيا والغنيمة كثير، ولحق بِهِ أناس ممن كَانَ يطلبهم الحَجَّاجُ بمالٍ و تبعةٍ، فمنهم رجل يقال لَهُ: الحارث بن عبد الله بن عوف، وكان قتل دهقانين من أهل دَير قرقيط كَانَا أساَء إِلَيْهِ، ولحق بشَبِيبٍ حتَّى شهد مَعَهُ مواطنه حتَّى هلك، وَلَهُ مقامٌ عِندَ الحَجَّاجِ، وكلام سلم بِهِ من القتل، وَهُوَ أن الحَجَّاجَ بعد هلاك شَبِيبٍ أمّن كل من خَرَجَ إِلَيْهِ ممن كَانَ يطلبهم الحَجَّاجُ بمالٍ أو تبعةٍ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ الحارث فيمن خَرَجَ، فجاء أهل الدهقانين يستعدون عَلَيْهِ الحَجَّاجِ؛ فأحضره، وقال: يا عدو الله قتلت رجلين من أهل الخراج؟

فَقَالَ: قَدْ كَانَ أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ منِّي مَا هُوَ أعظم من هَذَا.

قَالَ: وَمَا هُوَ؟

قَالَ: خرُوجي من الطاعة وفراقي الجماعة، ثمَّ إِنَّكَ أَمَّنت كل من خَرَجَ عَلَيْكَ، وَهَذَا أماني وكتابك لي.

فَقَالَ الحَجَّاجُ: قد لعمري فعلت، ذلك أولى لك ! خلوا سبيله.

ثمَّ لَمَّا باخَ الحَرّ، وسَكَنَ عَن شبيبٍ، خَرجَ ثمَّ مرَّ مَاء نَهْرَوَان فِي نَحْوٍ مِنْ ثمانمائةِ رجلٍ، فأقبل نحو المدائن وعليها المطرف بن المغيرة بن شعبة، فجاء حتَّى نزل قناطر حذيفة بن

اليمان، فكتب مَا ذراسب - وَهُوَ عظيم بابل مهروذ - إِلَى الحَجَّاجِ يخبره خبر شَبِيبٍ وقدومه إِلَى قناطر حذيفة، فقام الحَجَّاجُ فِي الناس فخطبهم، فَقَالَ: يا أَيُّهَا الناسُ لتقاتلن عن بلادِكُم وفيئكُم، أو لأبعثنَّ إِلَى قومٍ أطوع وأسمع وأصبر عَلَى البلاء مِنكُم، فيقاتلون عدوّكم ويأكلون فيئكم، يعني: جند الشام، فقام إِلَيْهِ الناس من كل جانب يَقُولُونَ: بل نقاتلهم، ونعيث الأمير، فسِر بنا إِلَيْهِم، فإنّا حَيْثُ تسيرُ.

قَالَ: وقامَ إِلَيْهِ زَهْرةُ بنُ حوية - وَهُوَ يَوْمَئِذٍ شيخٌ كبيرٌ لا يستتمُّ قائمًا حتَّى يؤخذُ بيدِهِ - فَقَالَ: إِنَّكَ إِنَّمَا تبعث النَّاسَ مُتقطعِينَ، فاستنفرْ إِلَيْهِم النَّاسَ كَافةً، وابْعَثْ عَلَيْهِم رَجُلًا ثبتًا شُجَاعًا مُجرِّبًا، يرَى الفِرَارَ هضمًا وعارًا، والصَّبر مجدًا وكرمًا.

فَقَالَ الحَجَّاجُ: فأنتَ ذاكَ ! فَاخرُجْ.

قَالَ: أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ، إِنَّمَا يصلحُ هَذَا الموقفِ رجلٌ يَحملُ الرُّمحَ والدِّرعَ، ويهزُّ السَّيفَ، ويثبتُ عَلَى متنِ الفرسِ، وأنَا لا أطِيقُ ذَلِكَ، قَدْ ضَعُفَ بَصَرِي، ولَكِن ابعثْنِي مع أميرٍ تعتمدهُ، فأكونَ فِي عَسكرِهِ، وأشيرَ عَلَيْهِ برَأي.

فَقَالَ: جَزَاكَ اللهُ عَنِ الإِسلَامِ والطَّاعَةِ خيرًا، لَقَدْ نَصَحْتَ وَصَدَقْتَ، وأنَا مُخرجٌ النَّاسَ كَافةً، أَلَا فَسِيرُوا إِلَيْهَا أَيُّهَا النَّاسُ، فانصَرَفَ النَّاسُ يتجهزُونَ وَينتشرُونَ، وَلَا يدرُونَ مَنْ أميرُهم.

وَكَتَبَ الحَجَّاجُ إِلَى عَبدِ المَلكِ:

أَمَّا بَعْدُ: فإِنِّي أخبرُ أميرَ المُؤْمِنِينَ - أَكْرَمَهُ اللهُ - أَنَّ شَبِيبًا قَدْ شَارفَ المَدَائِنَ، وإِنَّمَا يريد الكُوفَةَ، وَقَد عجز أهل العراق عن قتاله فِي مواطن كثيرة، فِي كلها يَقتل أمراءها، ويفل خيولهم وأجنادهم، فإن رأى أمير المُؤْمِنِينَ أن يبعث إِلَيَّ جندًا من جند الشام؛ ليقاتلوا عدوّهم، ويأكلوا بلادهم فعلَ إِنْ شَاءَ اللهُ.

فلمَّا أتى عبد الملك كتابُه بعث إِلَيْهِ سفيان الأبرد فِي أربعة آلاف وبعث إِلَيْهِ حبيب بن عبد الرحمن من مذحج فِي ألفين وسرحهم نحوه حين أتاه الكتاب، وَقَد كَانَ الحَجَّاجُ بعث

إِلَى عتاب بن ورقاء الرياحي ليأتيه، وكان عَلَى خيل الكُوفَةِ مع المهلّب، ودعا الحَجَّاجُ أشراف الكُوفَةِ مِنْهُم زهرة بن حوية وقبيصة بن والق، فَقَالَ: من ترون أن أبعث عَلَى هَذَا الجيش؟

فَقَالُوا: رأيك أيها الأمير أفضل.

فَقَالَ: إِنِّي قَدْ بعثت إِلَى عتاب بن ورقاء وَهُوَ قادم عَلَيْكُم الليلة فيكون هُوَ الَّذِي يسير بِالنَّاسِ.

وقال زهرة بن حوية: أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ رميتهم بحجرهم، لا والله لا يرجع إليك حتَّى يظفر أو يقتل.

فَقَالَ قبيصة بن والق:وإني مشير إليك أيها الأمير برأيٍ اجتهدته نصيحةً لك ولأمير المُؤْمِنِينَ ولعامة المُسْلِمِينَ أن الناس قَدْ تحدثوا أن جيشًا قَدْ وصل إليك من الشام؛ لأنَّ أهل الكُوفَةِ قَدْ هُزموا وهان عَلَيْهِم الفرار والعار من الهزيمة، فكأنما قلوبهم فِي صدور قوم أخرى، فإن رأيتَ أن تبعث إِلَى الجيش الَّذِي قَدْ مددت بِهِ من أهل الشام، فليأخذوا حذرهم، وَلَا يبيتوا بمنزل إلا وهم يرون أَنَّهُم يُبيّتون، فإن فعلت فَإِنَّمَا تحارب حولاً قلبًا محلالاً مظعَانا، إن شَبيبًا بينا هُوَ فِي أرض إذ هُوَ فِي أخرى، وَلَا آمن أن يأتيهم، وهم غارّون، فإن يهلكوا يهلك العراق كله.

فَقَالَ الحَجَّاجُ: لله أبوك ! مَا أحسن مَا رأيت، وَمَا أوضح مَا أشرت !

فبعث إِلَى الجيش الواردِ إِلَيْهِ من الشام كتابًا قرأوه وَقَد نزلوا هيت.

وهو: أما بعد، فَإِذَا حاذيتم هيت فدعوا طريق الفرات والأنبار، وخذوا عَلَى عين التمرِ، حتَّى تقدمُوا الكُوفَةَ. فأقبلَ القَومُ سرَاعًا.

وقدم عتاب بن ورقاء فِي الليلة الَّتِي قَالَ الحَجَّاجُ: إنه فِيهَا قادم. فأمره الحَجَّاجُ فَخَرَجَ بِالنَّاسِ، وعسكر بحمام أعين، وأقبل شَبيبٌ حتَّى انتهى إِلَى كلواذى فقطع منها دجلة، وأقبل حتَّى نزل نهر بهرسير، وصار بينه وبين مطرف بن المغيرة بن شعبة جسر دجلة،

فقطع مطرف الجسر، ورأى رأيًا صالحًا كاد به شَبِيبًا حتَّى حبسه عن وجهه، وذلك: أنه بعث إِلَيْهِ أن ابعث إِلَيّ رجالاً من فقهاءِ أَصْحَابِكَ وقرَّائِهِمْ، وأظهرَ لَهُ أنه يريد أن يدارسهم القرآن، وأن ينظر فِيمَا يدعون إِلَيْهِ، فما وجد حقًّا اتبعه.

فبعث إِلَيْهِ شَبِيبٌ رجالاً؛ مِنْهُم قعنب وسويد والمحلل، ووصّاهم أن لا يدخلوا السفينة حتَّى يرجع رسوله من عِندَ مطرف، وأرسل إِلَى مطرف أن ابعث إِلَيَّ مِنْ أَصْحَابِكَ ووجوه فرسانك بعدة أَصْحَابِي؛ ليكُونُوا رهنًا فِي يدي حتَّى يردَ عليّ أَصْحَابِي.

فَقَالَ مطرِّف لرسُولِهِ: القَه، وقل لَهُ كَيْفَ آمنكَ الآنَ عَلَى أَصْحَابِي إِذَا بعثتهُم إليكَ، وأنتَ لا تأمني عَلَى أَصْحَابِكَ؟ فأبلغه الرسول.

فَقَالَ: قُلْ لَهُ: قَدْ علمتَ أنّا لا نستحل الغدر فِي ديننا، وأنتم قوم غُدر تستحلون الغدر وتفعلونه، فبعث إِلَيْهِ مطرف جماعة من وجوه أَصْحَابِهِ، فلمَّا صاروا فِي يد شَبِيبٌ سرح إِلَيْهِ أَصْحَابهُ، فعبرُوا إِلَيْهِ فِي السَّفِينَةِ، فَمَكَثُوا أَرْبعَةَ أَيَّام يتناظرون، وَلَمْ يَتَّفِقُوا عَلَى شَيءٍ، فلمَّا تبيَّن لشَبِيبٍ أن مطرفًا كاده، وأنه غير متابع لَهُ؛ تعبأ للمسير، وجمع إِلَيْهِ أَصْحَابَهُ وَقَالَ: إن هَذَا الثقفي قطعني عن رأيي منذ أربعة أيام، وَذَلِكَ أَنِّي هممتُ أن أخرجَ فِي جريدَةِ خيلٍ حتَّى ألقَى هَذَا الجيش المقبل من الشام أرجو أن أصادف غِرّتهم قبل أن يحذروا، وكنت ألقاهم منقطعين من المِصر لَيْسَ عَلَيْهِم أمير كالحَجّاج يستندون إِلَيْهِ، وَلَا لَهُم مِصر بِالكُوفَةِ يعتصمون بِهِ، وَقَد جاءتني عيون أن أوائلهم قَدْ دخلوا عين التمر فهم الآن قَدْ شارفوا الكُوفَةَ، وجاءتني عيون من نحو عتاب أنه قَدْ نزل بحمام أعين بجماعة أهل الكُوفَةِ، وأهل البصرة، فما أقرب مَا بيننا وبَيْنَهُم فتسيَّروا بنا للمسير إِلَى عتاب.

وكان عتاب قَدْ أخرجَ مَعَهُ خمسين ألفًا من المقاتلة وهددهم الحَجَّاجُ إن هربوا كعادة أهل الكُوفَةِ وتوعدهم، وعرض شَبِيبٌ أَصْحَابَهُ بِالمَدَائِنِ، فَكَانُوا ألف رجل فخطبهم، وَقَالَ: يا معشر المُسْلِمِينَ إن الله عَزَّ وَجَلَّ كَانَ ينصركم وأنتم مائة ومائتان، واليوم أَنْتُم مئون ومئون، ألا إِنِّي مصلٍ الظهر ثمَّ سائر بكم إِنْ شَاءَ اللهُ، فصلى الظهر ثمَّ نادى فِي الناس، فتخلف عَنْهُ بعضهم.

قال فروة بن لقيط: فلمّا جاوز ساباط ونزلنا مَعَهُ قص عَلَيْنَا وَذَكَّرَنَا بأيام الله، وزهّدنا فِي الدنيا ورَغّبنا فِي الآخرة.

ثُمَّ أَذَّنَ مؤذنه فَصَلَّ بنا العصر ثُمَّ أقبل حَتَّى أشرف عَلَى عتاب بن ورقاء، فلمّا رأى جيش عتاب نَزَلَ من ساعته، وأمر مؤذنه فأذّنَ، ثُمَّ صلَّ بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ المغرب.

وخرجَ عتاب بِالنَّاسِ كلِّهم فَعَبَّأَهُم، وَقَدْ كَانَ خندق عَلَى نفسه منذ يوم نزل، وجعل عَلَى ميمنته محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني، وَقَالَ لَهُ: يابن أخي إِنَّكَ شريف فاصبر وصابر.

فَقَالَ: أما أنا فوالله لأقاتلنَّ مَا ثبت معي إنسان.

وقال لقبيصة بن واقد التغلبي: اكفني الميسرة.

قَالَ: أنا شيخ كبيرٌ، غايتي أن أثبت تحت رايتي، أما تراني لا أستطيعُ القيامَ إلا أن أُقام؟ وأخي نعيم بن عليم ذو غناء فابعثه عَلَى الميسرة، فبعثه عَلَيْهَا، وبعث حارث بن حنظلة الرياحي ابن عمه وشيخ أهل بيته عَلَى الرجالة، وبعث مَعَهُ ثلاثة صفوف: صفٌّ فِيهِ الرجالة، ومعهم السيوف، وصفٌّ هم أصحاب الرماح، وصفٌّ فِيهِ المرامية، ثُمَّ سار عتاب بَيْنَ الميمنة والميسرة يمر بأهلِ راية راية، فيحرِّض مَن تحتها عَلَى الصبر.

ومن كلَامِهِ يَوْمَئِذٍ: إن أعظم الناس نصيبًا من الجنة الشهداء، وَلَيْسَ الله لأحدٍ أمقت مِنْهُ لأهل البغي، ألا ترون عدوكم هَذَا يستعرض الْمُسْلِمِينَ بسيفه، لا يرى ذَلِكَ إلا قُربة لَهُم، فهم شرارُ أهل الأرض، وكلابُ النار. فلم يجبه أحد.

فَقَالَ: أين القصّاص يقصون عَلَى الناس ويحرضونهم؟ فلم يتكلم أحد.

فَقَالَ: أين مَن يروي شعر عنترة فيحرك الناس؟ فلم يُجبه أحد، وَلَا رد عَلَيْهِ كلمة.

فَقَالَ: لا حول وَلَا قوة إلا بالله ! لكأنّي بكم، وَقَدْ تفرقتم عن عتاب، فتركتموه تسفي فِي أسته الريح !

ثُمَّ أقبل حَتَّى جلس فِي القلب مَعَهُ زهرة بن حوية وعبد الرحمن بن الأشعث، وأقبل شَبِيبٌ فِي ستمائة، وَقَدْ تخلف عَنْهُ من الناس أربعمائة.

فَقَالَ: إنه لم يتخلف عنّي إلا من لا أُحب أن أراه معي، فبعث سليم بن سويد بن سليم فِي مائتين إِلَى الميسرة، وبعث المحلل بن وائل فِي مائتين إِلَى القلب، ومضى هُوَ فِي مائتين إِلَى الميمنة، وَذَلِكَ بَينَ المغرب والعشاء الآخرة حين أضاء القمر.

فناداهم: لمن هَذِهِ الرايات؟

قَالُوا: رايات همْدان.

فَقَالَ: راياتٌ طالمَا نصرت الحقَّ وطالمَا نصرت الباطل، لها فِي كلٍ نصيب!

أنا أبو المدله، اثبتوا إن شئتم، ثمَّ حَمَلَ عَلَيْهِم، وهم عَلَى مسناة أمام الخندق؛ ففضهم، وثبت أَصْحَابُ رَايَاتِ قبيصةَ بنِ والق.

فَجاءَ شَبِيبٌ فوقَفَ عَلِيْهِ، وقال لأَصْحَابِهِ: مثل هَذَا قوله تَعَالَى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

ثمَّ حَمَلَ عَلَى الميسرة ففضّها وصمد نحو القوم وعتاب جالس عَلَى طنفسة هُوَ وزهرة بن حوية، فغشيهم شَبِيبٌ، فانفض الناس عن عتاب وتركوه.

فَقَالَ عتاب: يا زهرة هَذَا يومٌ كثر فِيهِ العدد، وقل فِيهِ الغَناء، لهفي عَلَى خمسمائة فارس من وجوه الناس! ألا صابرٌ لعدوه؟ ألا مُواسٍ بِنَفْسِهِ؟ فمضى الناس عَلَى وجوههم، فلمَّا دنى مِنْهُ شَبِيبٌ وثب إِلَيْهِ فِي عصابة قليلة صبرت مَعَهُ.

فَقَالَ له بعضهم: إن عبد الرحمن بن الأشعث قَدْ هرب، وَمَعَهُ ناسٌ كثير.

فَقَالَ: أما إنه قَدْ فرَّ قبل اليوم، وَمَا رأيت مثل ذَلِكَ الفتى، مَا يبالي مَا صنع.

ثمَّ قاتلهم ساعةً وَهُوَ يقُولُ: مَا رأيتُ كاليوم قطُّ موطنًا، لم أُبل بمثلِهِ، أقل ناصرًا، وَلَا أكثر هاربًا خاذلاً! فرآهُ رجل من بني تغلب مِنْ أَصْحَابِ شَبِيبٍ - وَكَانَ أَصَابَ دمًا فِي قَومِهِ، ولحقَ لشَبِيبٍ - فَقَالَ: إنِّي لأظنُّ هَذَا المتكلمَ عتاب بنَ ورقاءَ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ، فطعنه فوقع وقُتل، ووطئت الخيل بزهرة بن حوية فأخذ يذب بسيفه، وَهُوَ شيخٌ كبير لا يستطيع أن ينهض، فجاء الفضل بن عامر الشيباني فَقَتَلَهُ، فانتهى إِلَيْهِ شَبِيبٌ فَوَجَدَهُ صَرِيعًا فَعَرَفَهُ.

فَقَالَ: مَنْ قَتلَ هَذَا؟

قَالَ الفضلُ: أنَا قَتَلْتهُ.

فَقَالَ شَبِيبٌ: هَذَا زَهرةُ بنُ حويةَ، أمَا والله لئِنْ كنتَ قُتلتَ عَلَى ضَلالةٍ، لرُبَّ يومٍ منْ أيامِ المُسْلِمِينَ قَدْ حَسُنَ فِيهِ بلاؤكَ، وعظُمَ فِيهِ غِنَاكَ، ولرُبَّ خيلٍ للمشركِينَ هَزمتهَا، وسريةٍ لَهُم ذَعرتهَا، ومدينةٍ لَهُم فتحتَهَا، ثمَّ كَانَ فِي عِلْمِ الله أنْ تُقتلَ ناصرًا للظَّالِمِينَ.

وقُتلَ يَوْمَئِذٍ وجُوه العَربِ منْ عَسكرِ العِرَاقِ فِي المَعركَةِ، واسْتَمْكَنَ شَبِيبٌ مِنْ أهلِ العَسكرِ وَقَالَ: ارفعُوا عنهُم السَّيفَ، ودعَاهُم إِلَى البيعَةِ، فبايعَهُ النَّاسُ عَامَّةً مِنْ ساعتِهِم، واحتَوَى عَلَى جَمِيعِ مَا فِي العَسْكَرِ، وبعثَ إِلَى أخيهِ - وَهُوَ بالمَدَائنِ - فأتَاهُ، وأقامَ بمَوضعِ المَعركةِ يومَينِ، ودخلَ سفيانُ بنُ الأبردِ الكلبيُّ، وحبيبُ بنُ عبدِ الرحمنِ فِيمَن مَعَهُمَا إِلَى الكُوفَةِ، فشدّوا ظهرَ الحَجَّاجُ، واستغنَى بِهِم عَنْ أهل العرَاقِ، ووصلتهُ أخبار عتَابٍ وعسكرِه، فصعدَ المنبرَ، فَقَالَ: يا أهلَ الكُوفةِ لا أعزَّ اللهُ منْ أرادَ بكُم العزَّ، وَلَا نصرَ مَنْ أرادَ بكُم النَّصرَ، اخرجُوا عنَّا فَلَا تشهدُوا معنَا قتالَ عَدونا ! والحَقُوا بالحيرَةِ فانزلُوا معَ اليهودِ والنَّصارَى! وَلَا يقاتلنَّ مَعَنا إلَّا من شهدَ قتالَ عتابِ بنِ ورقاءِ.

وخَرَجَ شَبِيبٌ يريدُ الكُوفَةِ فانتهى إِلَى سورا فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: أيكم يأتيني برأس عاملها؟ فانتدب إِلَيْهِ قطين وقعنب وسويد ورجلان من أَصْحَابِ شَبِيبٍ، فَكَانُوا خمسةً وسَارُوا حتَّى انتهوا إِلَى دار الخراج، والعمال فِيهَا،

فَقَالُوا: أجيبوا الأمير.

فَقَالَ الناس: أي أمير؟

قَالُوا: أميرٌ خَرَجَ من قِبل الحَجَّاجِ يريد هذَا الفاسق شَبِيب.

فاغتر بِذَلِكَ عامل سورا،فَخَرَجَ إِلَيْهِم، فلمَّا خالطهم شهروا السيوف، وحكّموا، وخبطوه بِهَا حتَّى قتلوه، وقبضوا مَا وجدوه فِي دار الخراج من مال، ولحقوا بشَبِيبٍ.

فلمَّا رأى شَبِيبٌ البُدر والمال، قَالَ: أتيتمونا بفتنة المُسْلِمِينَ ! هلمَّ يا غلام الحربة فخرّق بِهَا البُدر، وأمر أن تُنحسس الدواب الَّتِي كانت البُدر عَلَيْهَا، فمرّت رائحة، والمال

يتناثر من البُدر حتَّى وردت الصراة، فَقَالَ: إن كَانَ بقي شيء فاقذفوه بالماء.

وقال سفيان بن الأبرد للحجّاج: ابعثني إِلَى شَبِيبٍ أستقبله قبل أن يرد الكُوفَةَ.

فَقَالَ: لا مَا أحب أن نفترق حتَّى ألقاه فِي جماعتكم والكُوفَةِ فِي ظهرنا، وأقبل شَبِيبٌ حتَّى نزل حمام أعين، ودعا الحَجَّاجُ الحارث بن معاوية بن أبي زرعة بن مسعود الثقفي فوجهه فِي أُناسٍ لم يَكُونُوا شهدوا يوم عتاب، فَخَرَجَ فِي ألف رجل، حتَّى انتهى إِلَى شَبِيبٍ ليدفعه عَنِ الكُوفَةِ.

فلما رآه شَبِيبٌ حَمَلَ عَلَيْهِ وقتله، وقتل أَصْحَابُهُ، فجاءُوا حتَّى دَخَلُوا الكُوفَةَ، وبعث شَبِيبٌ البطين فِي عشرة فوارس يرتادون لَهُ منزلاً عَلَى شاطئ الفرات فِي دار الرزق، فوجه الحَجَّاجُ حَوْشَبَ بنَ يَزِيدَ فِي جمعٍ من أهل الكُوفَةِ فأخذوا بأفواه السُكك، فقاتلهم البطين، فلم يقوِ عَلَيْهِم؛ فبعث إِلَى شَبِيبٍ، فأمره بفوارس من أَصْحَابِهِ فعقروا فرس حَوْشَبٍ، وهزموه، فنجا بِنَفْسِهِ، ومضى البطين إِلَى دار الرزق فِي أَصْحَابِهِ، ونزل شَبِيبٌ بِهَا، ولم يوجِّه إليها الحَجَّاجُ أحدًا، فابتنى مسجدًا فِي أقصى السبخة، وأقام ثلاثًا لا يُوجه إِلَيْهِ الحَجَّاجُ أحدًا، وَلَا يخرجُ إِلَيْهِ من أهل الكُوفَةِ، وَلَا من أهل الشام أحد، وكانت امرأته غزالة نذرت أن تصلي فِي مسجد الكُوفَةِ ركعتين تقرأ فيهما البقرة وآل عمران، وجاء شَبِيبٌ مع امرأته حتَّى أوفت بنذرها فِي المسجد، وأشير عَلَى الحَجَّاجِ أن يخرجَ بِنَفْسِهِ؛ فَقَالَ لقتيبة بن مسلم: إِنِّي خارجٌ فَاخرجْ أنتَ فارتد لِي معسكرًا، فَخَرَجَ وعَادَ وَقَالَ: وَجَدْتُ المَدَى سهلاً، فسِرْ أيّها الأمير عَلَى اسم الله والطائر الميمون، فَخَرَجَ الحَجَّاجُ بِنَفْسِهِ، ومرَّ عَلَى مكانٍ فِيهِ كُناسة وأقذار، فَقَالَ: ألقوا لي هاهنا بساطًا، فقيل: إن الموضع قذر !

فَقَالَ: مَا تدعونني إِلَيْهِ أقذر، الأرض تحته طيبة، والسماء فوقه طيبة

وزادَ الزبير بن بكار فِي روايته: وَقَالَ: والله مَا ترك مصعب الكريم مفرًا، ثمَّ تمثَّل بيتًا:

إذا المرءُ لَمْ يغشَ الكريهةَ أَوْشَكَت حبَال الهُوينا بالفَتَى أن تقطّعَا

وَوَقفَ هناك، وأخرَجَ مولىً لَهُ يُعرفُ بأبِي الوَردِ وَعَلَيْهِ تجفاف[١]، وأحَاطَ بِهِ غلمان كَثِيرٌ.

وقِيلَ: هَذَا الحَجَّاجُ ! فَحَمَلَ عَلَيْهِ شَبِيبٌ فَقَتَلَهُ.

وَقَالَ: إنْ يكن الحَجَّاجُ فَقَدْ أرحتُ الناس مِنْهُ، ودلف الحَجَّاجُ نحوه حِينَئِذٍ، وَعَلَى ميمنته مطرف بن ناجية، وَعَلَى ميسرته خالد بن عتاب بن ورقاء، وَهُوَ فِي زهاء أربعة آلاف.

فقيل لَهُ: أيها الأمير لا يعرف شَبِيبٌ بمكانك، فتنكر، وأخفى مكانه، وشبه بِهِ مولًى آخر للحجاج فِي هيئته وزيه، فَحَمَلَ عَلَيْهِ شَبِيبٌ، فضربه بالعمود فَقَتَلَهُ.

ويقال: إنه قَالَ لما سقط: أخْ - بالخَاء المُعْجَمَةِ -.

فَقَالَ شَبِيبٌ: قاتلَ اللهُ ابن أم الحَجَّاجِ، اتقى الموت بالعبيد، وَذَلِكَ أن العرب تقول عِندَ التأوه: أح - بالحاء المهملة -.

ثمَّ تشبه بالحَجَّاجِ أعين صاحب حمام أعين، ولبس لبسه؛ فَحَمَلَ عَلَيْهِ شَبِيبٌ، فَقَتَلَهُ.

فَقَالَ الحَجَّاجُ: عليَّ بالبغل، فأُتي ببغلٍ محجَّل.

وَقِيلَ: أيها الأمير أصلحك الله إن الأعاجم كانت تَطيّر أن تركب مثل هَذَا البغل فِي مثل هَذَا اليوم.

فَقَالَ: أدنوه منِّي فإنه أغر محجّل، وَهَذَا يوم أغر محجّل، فركبه، ثمَّ سار فِي الناس يمينًا وشمالاً.

ثمَّ قَالَ:اطرحوا لي عباءة، فطُرحت، فنزل فجلس عليها.

ثم قَالَ: ائتوني بكرسي، فأُتي بِهِ، فقام فجلس عَلَيْهِ، ثمَّ نادى أهل الشام فَقَالَ: يا أهل الشام يا أهل السمع والطاعة، لا يغلبنّ باطل هَؤُلَاءِ الأرجاس حقكم، غضوا الأبصار، واجثوا عَلَى الرُكب، واستقبلوا القوم بأطراف الأسنّة. فجثوا عَلَى الرُكب كأنهم حَرّة سوداء.

(١) آلة للحرب كأنها الدرع.



ومن هَذَا الوقت ركدت ريح شَبِيبٍ، وأذن الله فِي إدبار أمره، وانقضاء أيامه، فأقبل حتَّى إذا دنى من أهل الشام عَلَى أَصْحَابِهِ ثلاثة كراديس كتيبةً مَعَهُ، وكتيبةٌ مع سويد بن سليم، وكتيبةٌ مع المحلل بن وائل.

وَقَالَ لسويد: احْمِلْ عَلَيْهِم فِي خيلك، فَحَمَلَ عَلَيْهِم فثبتوا لَهُ حتَّى إذا غشي أطراف أسنتهم، وثبتوا فِي وجهه، فقاتلهم طويلاً، فصبروا لَهُ، ثمَّ طاعنوه قدمًا قدمًا حتَّى ألحقوه بِأَصْحَابِهِ.

فلمَّا رَأَى شَبِيبٌ صَبْرَهُم نَادَى: يَا سويدُ احمِلْ عَلَيْهِم فِي خيلك في هَذِهِ الرايات الأخرى، لعلك تزيل أهلها، فتأتيَ الحَجَّاجَ من ورائه، ونحملُ نَحنُ عَلَيْهِ من أمَامِهِ، فَحَمَلَ سويد بن سليم عَلَى تلك الرايات، وَهِيَ بَينَ جدران الكُوفَةِ، فرُمي بالحجارة من سطوح البيوت، ومن أفواه السكك، فانصرف، ولم يظفر، ورماه عمر بن المغيرة بالسهام.

وَقَد كان الحَجَّاجُ جعله فِي ثلاثمائة رامٍ من أهل الشام ردءًا لَهُ كي لا يُؤتى من ورائه.

فصاح شَبِيبٌ فِي أَصْحَابِهِ: يا أهل الشُراة إنَّما شريتم لله، ومن يكن شراؤه لله لم يضره مَا أصابه من آلامٍ وأذىً، لله أبوكم ! الصبرَ الصبرَ، شدة كشدتكم الكريمة فِي مواطنكم المشهورة، فشدُوا شدةً عظيمة.

فلم يزل أهل الشام عن مراكزهم.

فَقَالَ شَبِيبٌ: الأرض، دبوا دبيبًا تحت أتراسكم حتَّى إذا صارت أسنّة أَصْحَابِ الحَجَّاجِ فوقها فأذلقوها صُعدًا، وادْخلُوا تحتَها، واضربُوا سوقَهُم وأقدامهم، فهي الهزيمة بإذن الله.

فأقبلوا دبيبًا تحت الجحف، صَمدًا صَمدًا نحو أصْحَابِ الحَجَّاجِ، فَقَالَ خالد بن عتاب بن ورقاء: أيها الأمير! أنا موتور، وَلَا أُتَّهم فِي نصيحتي، فأذَن لي حتَّى آتيهم من ورائهم، فأُغير عَلَى معسكرهم وثِقلهم.

فَقَالَ: افعل ذَلِكَ.

فَخَرَجَ فِي جَمْعٍ مِن مَوَالِيهِ وشَاكِرِيتِهِ (١) وبني عمِّه حتَّى صَارَ مِن وَرَائِهِمْ، فالتقى بمصاد أخا شَبِيبٍ فَقَتَلَهُ، وقتل غزالة امرأة شَبِيبٍ وألقى النار فِي معسكرهم، والتفت شَبِيبٌ والحَجَّاجُ يشَاهِدُ النَّارَ.

فأما الحَجَّاجُ فكبّر، وكبّر أصْحَابُهُ وأما شَبِيبٌ فوثب هُوَ وكلُّ راجل من أَصْحَابِهِ على خيولهم مرعوبين.

فَقَالَ الحَجَّاجُ لأَصْحَابِهِ: شُدوا عَلَيْهِم، فَقَدْ أتاهم مَا رعبهم، فشدوا عَلَيْهِم فهزموهم، وتخلف شَبِيبٌ فِي خاصة الناس حتَّى خَرَجَ من الجسر، وتبعته خيل الحَجَّاجِ، وغشيه النعاس، فجعل يخفق برأسه، والخيل تطلبه. قال أصغر الخارجي: كنتُ معه ذلك اليوم، فقلت: يا أمير المؤمنين، التفتْ، فجعل يخفق برأسه، قَالَ: دنوا منَّا؟

فقلتُ: يا أمير المُؤْمِنِينَ قَدْ دنا القوم منك، فالتفتَ والله ثانيةً غير مكترثٍ بهم، وجعل يخفق برأسه، وبعث الحَجَّاجُ خيلاً تركض تقول: دعوه يذهب فِي حرق الله. فتركوه، وانصرفوا عنه.

ومضى شَبِيبٌ بِأَصْحَابِهِ حتَّى قطعوا جسر المدائن، فدخلوا دَيرًا هناك وخالد بن عتاب يقفوهم، فحصرهم فِي الدَير، فَخَرَجَ شَبِيبٌ إِلَيْهِ فهزمه وأصحابه نحوًا من فرسخين، حتَّى ألقى خالد نفسه فِي دجلة هُوَ وأصحابه بخيولهم، فمر به شَبِيبٌ فرآه فِي دجلة ولواؤه فِي يده، فَقَالَ: قاتله الله فارسًا وقاتَل فرسه ! فرَسُ هذا أشد الناس قوة، وفرَسُه أقوى فرسٍ فِي الأرض، وانصرف.

فَقِيلَ لَهُ بعد انصرَافِهِ: إن الَّذِي رَأيتَ هُوَ خالد بن عتاب بن ورقاء.

فَقَالَ: مُعرقٌ فِي الشجَاعةِ ! لو علمت لأقحمتُ فرسِي، ولَو دخلَ النار.

ثم دخل الحَجَّاجُ الكُوفَةَ بعدَ هَزِيمَةِ شَبِيبٍ، فصعَدَ المنبرَ، وَقَالَ: والله مَا قوتل شَبِيبٌ

---

(١) الأُجراء.

قطُّ قبلَ اليوم، ولّى هاربًا، وترك امرأته فِي أستها القصب قَدْ تكسر! ثمَّ دَعَا حبيب بن عبد الرحمن،، فبعثه فِي إثره فِي ثلاثة آلاف من أهل الشام، وَقَالَ: احذر بياته، وحيثما لقيته فنازله، فإن الله تَعَالَى قَدْ فلّ حدَّه وقصّر نابه.

فَخَرَجَ حبيب فِي إثره حتَّى نزل الأنبار، وبعث الحَجَّاجُ إِلَى العمال أن دسوا إِلَى أَصْحَابِ شَبِيبٍ مَن جَاءَنَا مِنْكُم فَهُوَ آمنٌ، فكان كل من ليست لَهُ بصيرة فِي دين الخوارج ممن هزه القتال، وكرهه ذَلِكَ اليوم يجيء فيُؤمَّن. وقبل ذاك قَدْ كَانَ الحَجَّاجُ نادى يوم هزم شَبِيبٌ: من جاءنا فَهُوَ آمن، فتفرق عن شَبِيبٍ ناسٌ كثير من أَصْحَابِهِ، وبلغ شَبِيبًا منزل حبيب بن عبد الرحمن بالأنبار، فأقبل بِأَصْحَابِهِ حتَّى دنى مِنْهُ.

قال أبو يزيد السكسكي: كنتُ مع أهل الشام بالأنبار ليلة جاءنا شَبِيبٌ فبيّتنا، فلمّا أمسينا جمَعنا حبيب بن عبد الرحمن، فجعلنا أرباعًا، وجعل عَلَى كل ربع أميرًا.

وَقَالَ: ليحمِ كلُ ربع مِنْكُم جانبه، وإن قتل هَذَا الربع، فَلَا يُعنهم الربع الآخر، فإنه بلغني أن الخوارج مِنْكُم قريب، فوطّنوا نفوسكم عَلَى أنكم مبيّتون فمقاتلون.

قَالَ: فمازلنا عَلَى تعبيتنا حتَّى جاءنا شَبِيبٌ تلك الليلة، فبيّتنا فشدّ عَلَى ربع منا فضاربهم، فما زلت قدم إنسان مِنهُم حتَّى تركهم، وأقبل إِلَى الربع الآخر، فقاتلهم طويلاً فلم يظفر بشيء.

قَالَ: فأطاف بنَا يَحْملُ عَلَيْنَا ربعًا ربعًا حتَّى ذهب ثلاثة أرباع الليل، ولصق بنا حتَّى قلنا: لا يفارقنا، ثمَّ ترجل، فنزل فنازلنا راجلاً نزالاً طويلاً هُوَ وأصحابه، فسقطت والله بيننا الأيدي والأرجل، وفُقئت الأعين، وكثرت القتلى، وقتلنا مِنْهُم نحو ثلاثين، وقتلوا منا نحو مائة، يُضرب الرجل مِنْهُم بالسيف فما يضره من الإعياء والضعف، ولقد رأيت الرجلَ منا يقاتل جالسًا، وأيم الله لو كانوا أكثر من مائتي رجل لأهلكونا، ثمَّ فارقونا، وَقَد مللناهم وملونا، وكرهناهم وكرهونا، ولقد رأيت الرجل منا يقاتل وَهُوَ جالس ينفخ بسيفه مَا يستطيع أن يقوم من الإعياء والبهر، حتَّى ركب شَبِيبٌ، وَقَالَ لأَصْحَابِهِ الَّذِينَ نزلوا مَعَهُ: اركبوا، وتوجه منصرفًا.

قَالَ فروة بن لقيط الخارجي - وكان شهد مَعَهُ مواطنه كلها - وَقَالَ لنا ليلتئذ وَقَد رأى منا كآبة ظاهرة وجراحات شديدة: مَا أشد هَذَا الَّذِي بنا لو كنا نطلبُ الدنيا، وَمَا أيسر هَذَا فِي طاعةِ الله وثَوَابِه.

فَقَال لَهُ أصْحَابُهُ: صدقت يا أمير المؤمنين.

قَال فروةُ بنُ لقيطٍ: وسمعتُه تلكَ الليلةَ يحدِّثُ سويدَ بنَ سليمٍ يقولُ: قَدْ قتلتُ مِنْهُم رجلَينِ من أشجعَ النَّاسَ، خرجتُ عشيةَ أمس طليعَةٌ لكُم، فلقيتُ مِنْهُم ثلاثةٌ دخلُوا قريةَ يشتَرُونَ مِنْهَا حوائجَهُم، فاشتَرَى أحدهُم حاجتَهُ، وَخرَجَ قبلَ صَاحبيهِ، فخرجتُ مَعَهُ فَقَالَ: أراكَ لم تشترِ علفًا؟

فقلتُ: لَا، لِي رُفقَاء كفونِي ذَلِكَ.

ثمَّ قلتُ لَهُ: أينَ تَرَى عدوَّنَا هَذَا.

قَالَ: بلغني أنَّهُ نزَلَ قريبًا منَّا، وأيم الله لوددت أنِّي لقِيتُ شَبِيبَهُمْ هَذَا.

قُلْتُ: أفتحبُّ ذاكَ؟

قَالَ: إِي والله.

قلتُ: فخذْ حِذرَكَ فأنَا والله شَبِيبٌ ! وانتُضيت السيف، فخرّ والله ميتًا، فانصرفت راجعًا، فاستقبلت الآخر خارجًا عن الآخر من القرية.

فَقَالَ: أين تذهب هَذِهِ الساعة الَّتِي يرجع فِيهَا الناس إِلَى معسكرهم؟ فلم أكلِّمه ومضيت فنفرت بي فرسي، وذهبت تتمطر، فَإِذَا بِهِ فِي إثري حتَّى لحقني فعطفت عَلَيْهِ،وقلت: مَا بالك؟

قَالَ: أظنك والله من عدونا.

فقلتُ: أجل والله.

قَالَ: لا تبرح حتَّى أقتلك أو تقتلني، فحملت عَلَيْهِ، وَحَمَلَ عليّ، فاضطربنا بأسيافنا ساعة، فوالله مَا فضلته فِي شدة نَفس وَلَا إقدام إلا أن سيفي كَانَ أقطع من سيفه، فقتلته.

وبلغ شَبِيبًا أن جندَ الشَّام الَّذِي مَع حَبِيبٍ حَمَلُوا مَعَهُ حَجرًا، وحَلفُوا ألا يفرُّوا حتَّى يفرَّ هَذَا الحجر، فأراد أن يكذبهم، فعمد إِلَى أربعة أفراس، وربط فِي أذنابها أترسة، فِي ذنب كل فرس تُرسين، ثمَّ ندب ثمانية نفر من أَصْحَابِهِ وغلامًا يقال لَهُ حيان كَانَ فاتكًا شجاعًا، وأمر أن يَحملَ مَعَهُ إداوةً من ماءٍ، ثمَّ سارَ ليلاً حتَّى أتى ناحيةً من عسكر أهل الشام، فأمر أَصْحَابَهُ أن يَكُونُوا فِي نواحي العسكر الأربع، وأن يكون مع كل رجلٍ فرس، ثمَّ يُلبسوها الحديد حتَّى تجد حرّه، ثمَّ يخلوها فِي العسكر، وواعدهم تلعة قريبة من العسكر، وَقَالَ: من نجا مِنْكُم، فإن موعده التلعة، فكره أَصْحَابُهُ الإقدام عَلَى مَا أمرهم بِهِ، فنزل بِنَفْسِهِ حتَّى صنع بالخيل مَا أمرهم بِهِ حتَّى دخلت فِي العسكر، ودخل وهو يتلوها ويشد عَلَيْهَا شدًا محُكمًا، فتفرقت فِي نواحي العسكر، واضطرب الناس، فضرب بعضهم بعضًا وماجوا.

ونادى حبيبُ بنُ عبد الرحمن: ويحكم ! إنَّما هي مكيدة، فالزموا الأرض يتبين لكم الأمر، ففعلوا، وحصل شَبِيبٌ بَيْنَهُم، ولزم الأرض معهم حتَّى رآهم قَدْ سكنوا، وَقَد أصابته ضربة بعمود أوهنته، فلمَّا هدأ الناس، ورجعوا إِلَى مراكزهم، خَرَجَ من غِمارهم حتَّى أتى التلعة، فَإِذَا مولاه حيان فَقَالَ: ويحك أفرِغْ عَلَى رأسي من هَذِهِ الإداوة، فلمَّا مدّ رأسه ليصُب عَلَيْهِ من الماء؛ همَّ حيان بضرب عنقه، وَقَالَ لنفسه: لا أجد مكرمةً لي وَلَا ذكرًا أرفع من قتل هَذَا فِي هَذِهِ الخلوة، وَهُوَ أماني من الحَجَّاجِ، فأخذته الرعدة، وهمَّ بِمَا همَّ بِهِ، فلمَّا أبطأ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ: ويحك مَا انتظارك بحلّها، ناولنيها، وتناول السكين من موزجه[1] فخرقها بِهَا، ثمَّ ناوله إياها فأفرغ عَلَيْهِ من الماء، فكانَ حيان بعد ذَلِكَ يقول: لقَدْ همَمتُ فأخذتنِي الرِّعدةُ فَجَبُنتُ عنهُ، وَما كنتُ أعهد نفسِي جَبَانًا !

ثمَّ إنَّ الحَجَّاجَ أخرجَ النَّاسَ إِلَى شَبِيبٍ، وقسَمَ فِيهِم أموَالًا عَظِيمَةً، وأعطى الجرحى، وكلَّ ذي بلاء، وأمر سفيان الأبرد أن يسير بهم، فشق ذَلِكَ عَلَى حبيب، وَقَالَ: تبعث سفيان إِلَى رجل قَدْ فللته، وقتلت فرسانه.

---

(١) خُفّه.

وكان شَبِيبٌ قَدْ أقام بِكرْمَانَ حتَّى جبر هُوَ وأصحابُه، فَمَضَى سفيان بالرِّجَالِ، واستقبله شَبِيبٌ بدُجيل الأهواز، وَعَلَيْهِ جسرٌ معقود، فعبر إِلَى سفيان، فوجده قَدْ نزل بالرِّجال، وجعل مضاض بن صيفي عَلَى خيله، وبشير بن حيان الفهري عَلَى ميمنته، وعمرو بن هبيرة الفزاري عَلَى ميسرته، وأقبل شَبِيبٌ فِي ثلاثة كراديس، هُوَ فِي كتيبة، وسويد فِي كتيبة، وقعنب فِي كتيبة، وخَلّف المحلل فِي عسكره.

فلمَّا حمَلَ سويد وَهُوَ فِي ميمنته عَلَى ميسرة سفيان، وقعنب وَهُوَ فِي ميسرته عَلَى ميمنة سفيان، وَحَمَلَ هُوَ عَلَى سفيان اضطربوا مليًا حتَّى رجعت الخوارج إِلَى مكانها الَّذِي كانوا فيه.

قَالَ زيدٌ السكسكيُّ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ سفيان يَوْمَئِذٍ -: كر عَلَيْنَا شَبِيبٌ وأَصْحَابُهُ أكثر من ثَلَاثِينَ كرة، وَلَا يزول من صفنا أحد.

فَقَالَ لنا سفيان: لا تَحْمِلُوا عَلَيْهِم متفرقين، ولكن ليزحف الرجال إِلَيْهِم زحفًا، ففعلنا، ومازلنا نطاعنهم حتَّى اضطررناهم إِلَى الجسر، فقاتلونا عَنْهُ أشد قتالٍ يكُونُ لقومٍ قطُّ.

ثمَّ نزل شَبِيبٌ ونزل مَعَهُ نحو مائة رجل، فما هُوَ إلا أن نزلوا حتَّى أوقعوا بنا من الطعن، والضرب شيئًا مَا رأينا مثله قطُّ وَلَا ظنناه يكون، فلمَّا رأى سفيان أنه لا يقدر عَلَيْهِم، وَلَا يأمن ظفرهم دَعَا الرُماة فَقَالَ: ارشقوهم بالنَبل، وَذَلِكَ عِندَ المساء، وكان الالتقاءُ ذَلِكَ اليوم نصف النهار، فرشقهم أَصْحَابُ النُّبلِ، وَقَد كَانَ سفيان صفهم عَلَى حدة، وعليهم أمير، فلمَّا رشقوهم شدوا عَلَيْهِم، فشددنا نحن عَلَيْهِم وشغلناهم عنهم.

فلمَّا رأوا ذَلِكَ ركب شَبِيبٌ وأصْحَابهُ، وكَرُّوا عَلَى أَصْحَابِ النَبلِ كرَّةً شديدةً صرعُوا مِنْهُم فِيهَا أكثر مِن ثَلَاثِينَ رَامِيًا، ثمَّ عطف يمينًا يطاعننا بالرماح حتَّى اختلط الظلام، ثمَّ انصرف عنا.

فَقَالَ سفيان بن الأبرد لأَصْحَابِهِ: يا قوم دعوهم لا تتبعوهم حتَّى نُصبّحهم، فكففنا عنهم، وَلَيْسَ شيء أحب إلينا من أن ينصرفوا عنا.

فصلٌ

فِي ذِكْرِ مَهْلِكِ شَبِيبٍ:

قال فروة بن لقيط الخارجي: فلمَّا انتهينا إِلَى الجسر، قال شَبِيبٌ: اعبروا معاشر المُسْلِمِينَ، فَإِذَا أصبحنا باكرناهم إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

قَالَ: فعبرنا أمامه، وتخلف فِي آخرنا، وأقبل يعبر الجسر وتحته حصان جموح، وبين يديه فرس أنثى ع ماذيانة، فنزا حصانه عليها، وَهُوَ عَلَى الجسر، فاضطربت الماذيانة، وزل حافر فرس شَبِيبٍ عَلَى حرف السفينة فسقط فِي الماء، فسمعناه يقول: ليقضي الله أمرًا كَانَ مفعولاً، واغتمس فِي الماء، ثمَّ ارتفع، فَقَالَ: ذَلِكَ تقدير العزيز العليم، ثمَّ اغتمس فِي الماء، فلم يرتفع.

هكذا روى أكثر الناس قصته.

وَقَالَ قومٌ: إنه كَانَ مع شَبِيبٍ رجال كثير بايعوه فِي الوقائع الَّتِي كَانَ يهزم الجيوش فِيهَا، وكان متابعتهم إياه عَلَى غير بصيرة، وَقَد كَانَ أصاب عشائرهم وساداتهم فهم مِنْهُ موتورون، فلمَّا تخلف فِي أخريات الناس يَوْمَئِذٍ، قَالَ بعضهم لبعض: هل لكم أن نقطع بِهِ الجسر فندرك ثأرنا الساعة؟ فقالوا: هذا هو الرأي. فقطعوا الجسر، فمالت بِهِ السفينة، ففزع حصانه ونفر، فسقط فِي الماء وغرق.

والرواية الأولى أشهر وأصح.

فحدّث قومٌ منْ أَصْحَابِ سفيان قَالُوا: سمعنا صوتَ الخَوَارِجِ يَقُولُونَ: غرقَ أميرُ المُؤْمِنِينَ ! غرقَ أميرُ المُؤْمِنِينَ ! فعبرنا إِلَى معسكرهم، فَإِذَا لَيْسَ فِيهِ صافر، وَلَا أثر، فنزلنا فِيهِ، فطلبنا شَبِيبًا حتَّى استخرجناه من الماء، وَعَلَيْهِ دِرع، فزعم الناس أَنَّهُم شقّوا بطنه، وأخرجوا قلبه، فكان مجتمِعًا صلبًا كأنه صخرة، وأنه كَانَ يُضرب بِهِ الأرض فينبو ويثب قامةَ الإنسان.

ويُحكَى أنَّ أمَّ شَبيبٍ كَانتْ لا تُصَدِّقُ أحدًا نَعَاهُ إليهَا، وَقَد كَانَ قيلَ لها مرارًا إنَّه قُتِلَ، فَلَمْ تقبلْ.

فلمَّا قيلَ لهَا: إنَّهُ قَدْ غرِقَ، بكَتْ.

فقيلَ لهَا فِي ذَلِكَ، فقَالَتْ: رَأيتُ فِي المَنام حِينَ ولدتُه أنَّه خَرَجَ من فَرجِي نارٌ ملأتِ الآفاقَ، ثمَّ سقطتْ فِي ماءٍ فَخَمَدَتْ، فَعَلِمْتُ أنَّه لَا يَهْلَكُ إلَّا بالغَرَقِ.

فصلٌ

وكانَ فِي زوجته غزالة من الشجاعة مَا قد عُلمَ، وَقَد فرَّ مِنْهَا الحَجَّاجُ عِندَ قضائها نذرها فِي مسجد الكُوفَةِ كَمَا مر، وكان الحَجَّاجُ يُعَيَّرُ بذَلِكَ.

فروى ابن قتيبة فِي عيون الأخبار قَالَ: قدم الحَجَّاجُ عَلَى الوليد بن عبد الملك، وَعَلَيْهِ دِرعٌ وعمامةٌ سوداء، وقوسٌ عربية، وكنانة، فبعثت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان أخت أمير المُؤْمِنِينَ عمر بن عبد العزيز إِلَى الوليد وَهِيَ تحته يَوْمَئِذٍ، وَهِيَ بنت عمّه تقول: مَنْ هَذَا الأعرابي المستلئم فِي السلاح عندك عَلَى خلوة، وأنت فِي غِلالة؟

فأرسل إليها الوليد إنه الحَجَّاجُ، فأعادت إِلَيْهِ الرسول: والله إنه لئن يخلو بك مَلك الموت أحب إِلَيَّ من أن يخلو بك الحَجَّاجُ !

فضحك وَأَخْبَرَ الحَجَّاجَ بمقالتها وَهُوَ يمازحه.

فَقَالَ الحَجَّاجُ: يا أمير المُؤْمِنِينَ دع عنك مفاكهة النساء بزُخرف القول، وإنَّما المرأة ريحانة، وَلَيْسَت بقهرمانة، فَلَا تُطلعها عَلَى سرك، ومكايدة عدوك.

فلمَّا انصرف الحَجَّاجُ، ودخل الوليد عَلَيْهَا أخبرها بمقالة الحَجَّاجِ، فقالت: يا أمير المُؤْمِنِينَ حاجتي إليك اليوم أن تأمره غدًا أن يأتيني مُسلّمًا، ففعل ذَلِكَ، فأتاها الحَجَّاجُ فحجبته، ثمَّ أدخلته، فلم تأذن لَهُ فِي القعود، فلم يزل قائمًا؛ ثمَّ قالت لَهُ: إيه يا حجاجُ، أنت الممتن عَلَى أمير المُؤْمِنِينَ بقتلكَ ابنِ الزبير وابن الأشعث، أما والله لولا أن الله علم أنَّكَ شرُّ خلقِه، مَا ابتلاك برمي الكعبة الحرام، وَلَا بقتل ابن ذات النطاقين أول مولود فِي الإسلام.

وأما نهيك أميرَ المُؤْمِنِينَ عن مفاكهة النساء، وبلوغ لذاته، وأوطاره، فإن كنّ ينفرجن عن مثل مَا انفرجت أمك البضراء من ضعف الغريزة، وقبح المنظر والخُلق والخَلق يالُكع، فما أحقه بالقبول منك، وإن كن ينفرجن عن مثله، فَهُوَ غير قابل منك قولك ! أما والله لو نفض نساء أمير المُؤْمِنِينَ من غدائرهن الطيب، وبعثن بِهِ فِي أُعطية أهل الشام، حين كنتَ فِي أضيق من القرن، قَدْ أضلتك الرماح، وأثخنك الكفاح، وحين كَانَ أميرُ المُؤْمِنِينَ أحبَّ

إِلَيْهِم من آبائهم وأبنائهم؛ فأنجاك الله من عدوّ أمير المؤمنين بحبهم إياه.

ثم قالت: قاتل الله القائل حين ينظر إليك، وسِنان غزالة الحرورية بَيْنَ كتفيك، حَيْثُ يقول لكَ:

أسدٌ عليَّ وَفِي الحرُوبِ نَعَامَـةٌ ... رَبـداء تنفرُ مِن صفيرِ الصَّافِرِ
هَلاَّ برزتَ إِلَى غزالةَ فِي الوَغا ... بَل كَانَ قلبُكَ فِي جناحَيْ طَائِرِ
صدعت غزالةُ قلبَه بفوَارِسٍ ... تركـت نوَاظرَه كأمسِ الدَّابرِ

ثمَّ قَالَتْ لجوَارِيهَا: أَخْرِجنه، فأُخرِجَ.

فصل

ومن حكايات الجبناء إِذِ الشَّيءُ بالشَّيءِ يُذْكَرُ، مَا ذكرَ ابن قُتيبةَ فِي الكِتَاب المذكُورِ قَالَ: كَانَ بالبصرة شيخٌ من بني نهشل بن دارم، يقال لَهُ عروة بن مرثد، ويكنى أبا الأعز، ينزل فِي بني أخت لَهُ من الأزد فِي سكة ابن عبد الرحمن، فَخَرَجَ رجالهم إِلَى ضياعهم فِي شهر رمضان، وخرجَ النساء ليصلين فِي مسجدهم، فلم يبق فِي الدار إلا الإماء، فدخل كلب يتعسس، فرأى بيتًا فدخله، وانصفق الباب عَلَى الكلب، فسمع بعضُ الإماء الحركة، فظنوا أنه لصٌ دخل الدار، فذهبت إحداهن إِلَى أبي الأعز فأخبرته.

فَقَالَ أبو الأعز: ألا مَا يبتغي اللص عندنا، ثمَّ أخذ عصاه وجاء حتَّى وقف بباب البيت، وَقَالَ: إيه يافلان، أما والله إنِّي بك لعارف، فهل أنت من لصوص بني مازن؟ شربت حامضًا خبيثًا، حتَّى إذا دارت فِي رأسك منّتك نفسُك الأماني وقلتَ: أطرق دور بني عمرو، والرجال خلوف، والنساء يصلين فِي مسجدَهم، فأسرقهم، سوأة لك، والله مَا هكذا يفعلُ ولد الأحرار، وأيم الله لتخرجنّ، أو لأهتفنّ هتفة مشئومة يلتقي فِيهَا الحيان: عمرو وحنظلة، وتجيء سعد عدد الحصا، وتسيل عَلَيْكَ الرجال من ههنا وههنا، ولئن فعلتَ لتكونن أشأم مولود.

فلمَّا رأى أنه لا يجيبه أحد أخذه باللين فَقَالَ: اخْرُجْ بِأَبِي أنتَ مستُورًا والله مَا أراك تعرفني، ولو عرفتني لقنعتَ بقولي، واطمأننت إليّ، أنا فديتك أبو الأعز النهشلي، وأنا خال القوم وجلدة بَينَ أعينهم لا يعصونني، ولن تضارّ الليلة وأنت فِي ذمتي، وعندي قوصرتان[(١)] أهداهما إليّ ابن أختي البار الوصول، فخذ أيهما شئت، فانبذها حلالاً من الله.

وكان الكلبُ إذا سمع الكلام أطرق، وإذا سكتَ أبو الأعز وثب يريد المخرجَ، فتهانف أبو الأعز ثمَّ تضاحك، وَقَالَ: يا ألأَم الناس وأوضعهم، ألا أرانِي لك منذ الليلة

(١) كيسان مملوآن بالذهب.

فِي واد، وأنت فِي وادٍ آخر، اقبلت السوداء والبيضاء، فتصيخ وتُطرق، فَإِذَا سكتُّ عنك وثبت تريد الخروجِ، واللهِ لتخرجنّ أو لألجنّ عَلَيْكَ.

فلمّا طال وقوفه جاءت إحدى الإماء فقالت: أعرابيٌّ مجنون ! والله مَا أرى فِي البيت شيئًا، فدفعت الباب فَخَرَجَ الكلب شاذًّا، وحاد عَنْهُ أبوالأعز ساقطًا عَلَى قفاه، شائلة رجلاه !

وَقَالَ: تالله مَا رأيت كالليلة، مَا أراه إلا كلبًا، ولو علمتُ لولجت عَلَيْهِ !

وَهَذَا من جنس الجبان المتقدم ذكرُهُ فِي قصَّةِ شَبِيبٍ أحد الرجلين حين رأى السيف مسلولاً خرَّ ميتًا.

ونظمُ ذَلِكَ مَا ذكرَهُ بعضهُم، وَهِيَ حكايةُ أَبِي حيَّةَ النميريِّ؛ حكَاهُ ابنُ قتيبةَ وغيرُهُ منْ أَهلِ الأخبَارِ.

قالُوا: كَانَ أبو حيةَ جبانًا، وكانَ لَهُ سيفٌ، لَيْسَ بينَهُ وبينَ الخَشبةِ فرقٌ، وكانَ يسمِّيه لُعَابُ المنيَّةِ.

فحكى بعض جيرانه أنه قَالَ: أشرفت عليه ليلة، وَقَد انتضاه وَهُوَ واقفٌ بباب بيت فِي داره قَدْ سمع فِيهِ حسًا، وَهُوَ يقول: أيها المجترئ عَلَيْنَا، بئس والله مَا اخترت لنفسك، خيرٌ قليل، وسيفٌ صقيل، لعاب المنية الَّذِي سَمِعْتَ بِهِ، مشهورة صولته، لا يُخاف نبوته، اخرُجْ بالعَفْو عَنْكَ لا أدخلُ عَلَيْكَ، إنِّي والله إن أدعُ قيسًا تملأ الفضاء عَلَيْكَ خيلاً ورَجلاً، سبحان الله مَا أطيبها وأكثرها، مَا أنت والله ببعيد من تابعها، والرسوب فِي تيار لجتها.

قَالَ: وهبت الريح ففتحت الباب فَخَرَجَ الكلب يشتد، فلُبط بأبي حية، وأزبد، وشغر برجليه، وتبادر إِلَيْهِ نساء الحي فقلن: يا أبا حية ليفرج روعُك، إنه كلب !

فجلس، وَهُوَ يقول: الحَمْدُ لله الَّذِي مسخك كلبًا وكفَانِي حربًا !

ومنْ ذَلِكَ أنَّه خَرَجَ المغيرةُ بنُ سعيدِ العجِلي الخَارِجِي فِي ثلاثِينَ رجلاً بظهرِ الكُوفةِ، فعطعطُوا، وخالدُ بنُ عبد اللهِ القسري أميرُ العرَاقِ يخطبُ عَلَى المنبرِ، ففرق مِنَ الخَوَارِجِ

واضطربَ وتحيَّرَ، وجعلَ يقولُ أطعمُونِي ماءً، فهجَاهُ ابنُ نوفلٍ فقالَ:

أَخَالِــدُ لَا جَــزَاكَ اللهُ خَــيْرًا ... وَأَيْــرٌ فِي حِــرِ أُمِّــكَ مِــنْ أَمِــيرِ

تمنّــى الفخــرَ في أولاد قــسر ... كأنّــك مِــنْ سُراةِ بنِــي جريــرِ

جريــرٌ مــن ذوي يمــنٍ أصيل ... كــريمُ الأصــل ذو خطــرٍ كبــيرِ

وأمــك علجــةٌ وأبــوك وغــد ... ومــا الأذنــاب عِــدلًا للــصُّدورِ

وَكُنْــتَ لَــدَى المُغِــيرَةِ عَبْــدَ سَــوْءٍ ... تَبُــولُ مِــنَ المَخَافَــةِ لِلــزَّئِيرِ

لأَعْــلَاجٍ ثَمَانِيَــةٍ وَشَيْــخٍ ... كَبِيرِ السِّنِّ لَيْــسَ بِــذِي نصيرِ

صَرَخْــتَ مِنَ المَخَافَةِ أَطْعِمُونِي ... شَرَابًــا ثمَّ بُلْتَ عَلَى السَّــرِيرِ (١)

وقال عريفُ القوَافِي يَهْجُو قومًا:

ومَا أمّكُمْ تحْتَ الخَوافقِ والْقَنَــا ... بثكْلَى وَلا زهْراءَ منْ نِسْوةٍ زُهْرِ

ألسْتُمْ أقلَّ النَّاسِ عِنْــدَ لِوائِهِمْ ... وأكْثرهُمْ عنْدَ الذَّبيحَةِ وَالقِدْرِ (٢)

ومنْ قولِ الجُبَناءِ:

أَضْحَتْ تُشَجِّعُنِي هِنْدٌ وَقَدْ عَلِمَتْ ... أَنَّ الــشَّجَاعَةَ مَقْرُونٌ بِهَا الْعَطَبُ

لَا وَالَّذِي حَجَّتِ الْأَنْــصَارُ كَعْبَتَــهُ ... مَا يَشْتَهِي المَوْتَ عِنْدِي مَنْ لَهُ إِرَبُ

لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أَضَــلَّ اللهُ سَعْيَهُــمْ ... إِذَا دَعَتْهُــمُ إِلَى مَكْرُوهِهَا وَثَبُــوا

وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا أَهْوَى فِعَالَهُمُ ... لَا القَتْلُ يُعْجِبُنِي مِنْهَا ولا السَلبُ (٣)

وقالَ الآخرُ:

ولو أنها عصفورةٌ لحسبتهــا ... مسوّمــة تدعــو عبيدًا وأزنمــا (٤)

---

(١) «تاريخ الطبري» (٧/ ١٢٩)، «أنساب الأشراف» (٩/ ٧٤)، «الكامل في التاريخ» (٤/ ٢٣٩).

(٢) «ديوان الحماسة» (٢/ ٢٣٦).

(٣) «المُجالسة» (٣/ ٣٨٠).

(٤) عبيد وأزنم: بطنان من بني يربوع.

وقالَ الآخرُ:

إذا صوّت العصفورُ طار فؤادُه ... وليثٌ حديدُ النابِ عِندَ الثرائد!

وأشعارُ العربِ، وأقوالُهُم فِي هَذَا البابِ كثيرةٌ، ولسنَا بصَدَدِهِ، وإنَّما أتى مَا ذَكَرْنا عَارِضًا.

فصلٌ

فِي ذكرِ أخبَارِ زُهَّادِ الخوَارجِ، وذوِي دينِهم من القَعدِ وغيرِهم، وشدَّةِ تَمسُّكهم بدينهم زعمًا مِنْهُم بِذَلِكَ التَّقرب إِلَى الله تَعَالَى وطلبًا لرضَاهُ، وَهُوَ الَّذِي حَمَلَ مَنْ خَرَجَ مِنْهُم عَلَى الأَئمَّةِ عَلَى الخرُوجِ تَديُّنًا بذَلِكَ.

فذكرَ أبُو العبَّاسِ المُبَرِّدُ فِي الكَامِلِ[1]: أن عُرْوَةَ بنَ أُدَيَّةَ أحدَ بنِي ربيعةَ بنِ حَنظلَةَ.

ويقَالُ: إِنَّه أوَّلُ منْ حَكَّمَ، وَحَضرَ حَرْبَ النَّهروَان فنجَا مِنْهَا فيمَن نجَا، فَلَم يَزَلْ باقيًا مدَّةَ خِلَافةِ معَاويةَ ﷺ.

ثمَّ أُخذَ فأتى بِهِ زيادٌ، وَمَعَهُ مولًى لَهُ فَقَتَلَهُ بعدَمَا سَأَلَهُ، وَقَد ذكرْنَا قصةَ قتلِهِ وَمَا قَالَ، وَمَا قيلَ لَهُ عِندَ قتلِه، وَمَا وصَفَهُ بِهِ مولَاهُ مِنَ العبَادَةِ بِمَا أغنَى عنْ إعَادتِهِ هَا هُنَا.

وذكرْنَا أيضًا قصَّةَ واصلِ بنِ عطاءٍ مَعَهُم، وانقيَادهم لمذْهبِهِ الضَّالِ.

---

(١) «الكامل» (٣/ ١٣٣).

فَصْلٌ

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[1]: وأُتِيَ عبدُ المَلكِ بنُ مرَوَان برجلٍ مِنَ الخَوَارِجِ، فبحثه فرأى مِنْهُ مَا شاء فهمًا وعلمًا، ثمَّ بحثه فرأى مِنْهُ مَا شاء أدبًا وذِهنًا، فرغب فِيهِ، فدعاه إِلَى الرجوع عن مذهبِهِ، فرآه مستبصرًا محققًا فِيهِ، فزاده فِي الاستدعاء.

فَقَالَ لعبدِ الملكِ: تغنيكَ الأولى عَنِ الثَّانية، وَقَد قلتَ فسمعتُ، فاسمعْ أَقُلْ.

قالَ: قُلْ.

فجعل يبسط لَهُ من قول الخوارج، ويُزيِّن لَهُ من مذهبهم بلسانٍ طلقٍ، وألفاظٍ بيِّنةٍ، ومعانٍ قريبةٍ.

فَقَالَ عبد الملك بعد ذَلِكَ - عَلَى معرفته وفضله ومُلكه -: لقد كاد والله يُوقع فِي خاطري أن الجنة إنَّمَا خُلقت لَهُم، وأن أولى العباد بالجهاد معهم أنا !

ثم رجعتُ إلى مَا ثبّت الله عَلَيّ من الحُجة، وقرّر فِي قلبي من الحق، فقلتُ له: الدنيا والآخرة لله، وَقَد سلّطنا الله فِي الدنيا، ومكّن لنا فِيهَا، وأراك لستَ تُجيب بالقبول، والله لأقتلنك إن لم تُطع، فأبى، فبينا ذَلِكَ إذ دُخل عَليَّ بِابْنِي مروَان -وكان مروان أخا هشام بن عبد الملك لأمّه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وكان عزيز النفس - فدُخل بِهِ عَلَى أبيه فِي هَذَا الوقت وَهُوَ يبكي، فشق ذلك على عبد الملك، فأقبل عَلَيْهِ الخارجي، فَقَالَ: دعه يبكي، فإنه أرحب لشِدقه، وأصح لدماغه، وأذهب لصوته، وأحرى ألا تأبى عَلَيْهِ عينه إذا حضرته طاعة الله، واستدعى عبرتها. فأعجب ذَلِكَ من قوله عبدَ الملك.

فقال لَهُ متعجبًا: أما يشغلك مَا أنت فِيهِ وتعرضه عن هَذَا.

فَقَالَ: مَا ينبغي أن يَشغل عن قول الحق شيءٌ.

فأمر بحبسه وصفح عن قتله.

وَقَالَ بعدُ معتذرًا إِلَيْهِ: لولا أن تُفسد بألفاظك أكثر رعيتي مَا حبستُكَ.

وَقَالَ: لقد شكّكني ووهّمني حتَّى مالتْ بِي عصمة الله، فغير بعيد أن يستهوي مَن بعدي.

---

(١) فِي «الكامل» (٣/ ١٧٠).

فصل

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[1]: وكانَ من المجتهدين مِنَ الخَوَارِجِ: البَلْجَاءُ، وَهِيَ امرأةٌ من بني حرام بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، وكان مرداس بن جدير أبو بلال أحد بني ربيعة بن حنظلة، وَقَد مرَّ ذِكْرُهُ نَاسِكًا يُعظمه الخوارج، وكان كثير الصواب فِي لفظه مجتهدًا، فلقيه غيلان بن خرشة الضبي فَقَالَ: يا أبا بلال إنِّي سَمِعْتُ الأمير البارحة - يعنِي: عبيد الله بن زياد - يذكرُ البَلْجَاءَ، وَلَا أحسبها إلا ستُؤخذ.

فمضى إليها أبو بلال، فَقَالَ لها: إن الله قَدْ وسّع عَلَى المُؤْمِنِينَ فِي التُقية، فاستتري، فإن هَذَا المسرف عَلَى نفسه الجبارُ العنيدُ قَدْ ذكَرَكِ.

فقالت: إن يأخذني فَهُوَ أشقى لَهُ، فأما أنا فما أحبُ أن يُعنت إنسانٌ بسببي.

فوجّه إليها عبيد الله بن زياد فأُتِي بِهَا، فقطع يديها ورجليها ورمى بِهَا فِي السوق.

فمر بِهَا أبو بلال والناس مجتمعون عَلَيْهَا فَقَالَ: مَا هَذَا؟

قالوا: البَلْجَاء.

فعرّج إليها ثمَّ عضَّ لحيته، ثمَّ قَالَ لنفسه: هَذِهِ أطيب نفسًا عن بقية الدنيا منك يا مرداس!

---

(١) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ٧٦).

فصلٌ

فِي قصة مرداس بن بلال، وكان من مجتهديهم ونسّاكهم:

ثمَّ إن عبيد الله أخذ مرداسًا فحبسه؛ فرأى مِنْهُ الحبّاس مذهبًا حسنًا، فقَالَ: إنِّي أحب أن أُوليَكَ معروفًا، أفرأيتُك إن تركتك تنصرف ليلا إلى بيتك أتُدلج إليّ؟ قال: نعم. فكان يفعل ذلك.

ولج عبيد الله فِي حبس الخوارج وقتلهم، وكُلم فِي بعضهم فأبى وقال: أحسمِ الداءَ قبل أن ينجم، لكلامُ هَؤُلَاءِ أسرعُ إلى القلوب من النارِ إلى اليَراع.

فلما كان ذات يوم قتل رجلٌ مِنَ الخَوَارِجِ رجلاً من الشُرَط، فَقَالَ ابن زياد: مَا أدري مَا أصنع بهَؤُلَاءِ ! كلما أمرت رجلاً بقتل رجلٍ منهم قتلوه بقاتله، لأقتلنّ مَن فِي حبسي منهم.

وأخرَجَ السَّجَّانُ مردَاسًا إلى منزله كَمَا كَانَ يَفعَلُ، فأتَى مردَاسًا الخَبَرُ، فلما كان فِي السحَر، تهيأ للخروج [١] إلى السجن، فَقَالَ لَهُ أهله: اتق الله فِي نفسك، فإنك إذا رجعتَ إلى السجان قُتلت، فَقَالَ: إنِّي والله لا ألقى الله غادرًا.

فرجع إلى السجان، فَقَالَ: إني قد علمت مَا عزم عليه صاحبُك، قال: فكنتَ أُعلمت، ثمَّ جئتَ؟!

قَالَ أَبُو العبَّاسِ [٢]: ويُروى أن مرداسًا مرّ بأعرابي يهنأُ بعيرًا لَهُ، فهرج البعير، فسقط مرداس مغشيًا عَلَيْهِ، فظن الأعرابي أنه صُرع، فقرأ فِي أذنه، فلمَّا أفاق قَالَ لَهُ الأعرابي: قرأت فِي أذنك.

---

(١) كذا فِي الأصل !، والصواب: «للرجوع».

(٢) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٨٢).

فَقَالَ لَهُ مرداس: لَيْسَ بِي مَا خفته عليَّ، ولكن رأيت بعيرًا هرج من القَطِران، فذكرت به قَطِران جهنم؛ فأصابني مَا رأيت.

فَقَالَ الأعرابي: لا جرم والله لا أفارقك أبدًا !

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[1]: وكان مرداس قَدْ شهد مع علي صفِّين، ثمَّ أنكر التحكيم وشهد النهروان، ونجا فيمن نجا، ثمَّ حبسه ابن زياد كَمَا ذَكَرْنَا، وَخَرَجَ مِن حبسِهِ هُوَ والسَّجَّان حِينَ رَأَى مِنْهُ مَا رَأَى مِنَ العِبَادَةِ والاجتهَاد فِي دينِه، فرَأَى جِدَّ ابن زياد فِي طلب الشُّراة، فعزم عَلَى الخروج فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: والله مَا يسعنا المقام بَينَ هَؤُلَاءِ الظالمين، تجري عَلَيْنَا أحكامُهم، مجانبين للعدل مفارقين للقصد، والله إن الصبر عَلَى هَذَا لعظيم، وإن تجريد السيف، وإخافة الناس لعظيم، ولكن نشدُّ عنهم، وَلَا نُجرد سيفًا، وَلَا نقاتل إلا من قاتلنا، فاجتمع إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ زهاء ثَلَاثِينَ رَجُلًا؛ مِنْهُم حريث بن حجل وكهمس بن طلق الصريمي، وأرادوا أن يولوا أمرهم حريثًا فأبى.

ثم إِنَّهُم ولوا أمرهم مرداسًا، فلمَّا مضى وأَصْحَابُهُ لقيه عبد الله بن رباح الأنصاري، وَكَانَ لَهُ صديقًا، فَقَالَ: ياابن أخي أين تريد؟

فَقَالَ: أريد أن أهرب بديني ودين أَصْحَابِي مِن أَحْكَامِ هَؤُلَاءِ الجورَةِ.

قَالَ: أعَلِم بكم أحد؟

قَالَ: لا.

قَالَ: فارجع.

قَالَ: أو تخاف عليَّ نُكرًا.

قَالَ: نعم وأن يُؤتى بك.

قَالَ: لا تخف فإني لا أجرِّد سيفًا وَلَا أخيف أحدًا، وَلَا أقاتل إلا من قاتلني.

---

(١) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٨٢ ـ ١٨٣).

ثمَّ مضى حتَّى نزل آسك - وَهُوَ مَا بَيْنَ رَامَهُرْمُزَ وأرجانَ - فمرَّ بِهِ مالٌ يُحمَلُ إِلَى ابنِ زيادٍ، وَقَد قارب أصحابه الأربعين؛ فحطَّ ذَلِكَ المال، وأخذ مِنْهُ عطاءه وعطاء أصحابه، وردّ الباقي عَلَى الرُّسل.

وَقَالَ: قولوا لصاحبكم إنا قبضنا أُعطياتنا.

فَقَالَ بعض أصحابه: فعلامَ تدع الباقي؟

فَقَالَ: إنَّهُم يقسمون هَذَا الفيء كَمَا يقيمون الصلاة، فَلَا نقاتلهم.

وَعِندَ عَبْدِ الله بنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي كتابِ السُّنَّةِ[1] بِسَنَدِهِ إِلَى سَعِيدِ بْنِ جُمْهَانَ، قَالَ: كَانَتِ الْخَوَارِجُ تَدْعُونِي حَتَّى كِدْتُ أَنْ أَدْخُلَ مَعَهُمْ، فَرَأَتْ أُخْتُ أَبِي بِلَالٍ فِي النَّوْمِ: أَنَّ أَبَا بِلَالٍ كَلْبٌ أَهْلَبُ أَسْوَدُ عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، فَقَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ يَا أَبَا بِلَالٍ مَا شَأْنِي أَرَاكَ هَكَذَا؟ قَالَ: جُعِلْنَا بَعْدَكُمْ كِلَابَ النَّارِ، وَكَانَ أَبُو بِلَالٍ مِنْ رُؤوسِ الْخَوَارِجِ. انتَهَى

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[2]: ولأبي بلالٍ مرداس أشعارٌ فِي الخُروجِ اخترتُ مِنْهَا قولَهُ:

أبعدَ ابنَ وهبٍ ذِي النَّزاهَةِ والتُّقَى ... ومَنْ خَاضَ فِي تِلْكِ الحرُوبِ المَهَالكَا
أحبُّ بقَاءً أو أُرجِّي سَلَامَةً ... وَقَدْ قتلُوا زَيدَ بنَ حِصنٍ ومَالِكَا
فيَا ربِّ سلِّم نيتِي وبَصِيرَتِي ... وَهَبْ لِي التُّقَى حتَّى أَلَاقِي أُولئِكَا

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[3]: ثمَّ إن عبيد الله بن زياد ندب جيشًا إِلَى خراسانَ، فحكى بعضُ من كَانَ مع ذَلِكَ الجيش قَالَ: مررنا بآسك فَإِذَا نحنُ بهم ستة وثلاثُون رَجُلًا، فصاح بنا أبو بلال: أقاصدون لقتالنا أنتم؟

قال الراوي: وكنتُ أنا وأخي دخلنا زربًا فوقف أخي ببابه.

---

(١) فِي «السُّنَّةِ» (١٥٠٩).

(٢) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٨٣).

(٣) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٨٤).

فَقَالَ: السلام عَلَيْكُم.

فَقَالَ مرداس: وعَلَيْكُم السلام.

ثمَّ قَالَ: يا أخي أجئتم لقتالنا؟

قَالَ: لا إِنَّمَا نريد خراسان.

قَالَ: فأبلغوا من لقيتم أنَا لم نخرجْ لنُفسد فِي الأرْضِ، وَلَا لنروِّع أحدًا، ولكن هربنا من الظُّلم، ولسنا نقاتل إلا مَن يقاتلنا، وَلَا نأخذ من الفيء إلا أُعطياتنا.

ثم قَالَ لنا: أَنُدِب لنَا أحدٌ؟

قلنا: نعم، أسلم بن زرعة الكلابي.

قَالَ: فمتى ترونه يصل إلينا؟

قلنا: يوم كذا وكذا.

قال أبو بلال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

قَالَ أَبو العبَّاسِ (١): وجهّز عبيد الله أسلم فِي أسرع مدة، ووجهه إِلَيْهِم فِي ألفين، وَقَد تتام أصحابُ مرداس أربعين رَجُلًا، فلمَّا صَارَ أسلم إِلَيْهِم صاح بِهِ أبو بلال: اتَّقِ الله يا أسلمَ، فإنا لا نُريد فسادًا، ولا نحتجز فيئًا، فما الَّذِي تريد؟

قَالَ: أريد أن أردّكم إِلَى ابن زياد.

قَالَ إذن يقتلنا.

قَالَ: وإن قتلكم!

قَالَ: تُشرك فِي دمائنا؟

قَالَ: إنِّي أدين أنه مُحق، وأنكم مبطلون، فصاح بِهِ حريث بن حجل: أهو محق، وَهُوَ يطيع الفجرة وَهُوَ أحدهم، ويقتل بالظِنة ويَخص بالفيء، ويَجور فِي الحكم؟!

أما علمت أنه قتل بابن سعاد أربعةً برآء وأنا أحدُ قتلته، ولقد وضعت فِي بطنه دراهم كانت مَعَهُ.

---

(١) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٨٤).

ثمَّ حَمَلُوا عَلَى أسلم حَمْلَةَ رَجُلٍ واحِدٍ فانهزم هُوَ وأصْحَابُهُ مِن غيرِ قتَالٍ، وكاد يأسره معبد أحد الخوارج.

فلمَّا عَادَ إِلَى ابن زياد غضب عَلَيْهِ غضبًا شديدًا.

وَقَالَ: ويلك أتمضي فِي ألفين فتنهزم من جملة أربعين، فكان أسلم يقول: لئن يذمني ابن زياد، وأنا حي، أحب إِلَيَّ من أن يمدحنِي وأنا ميتٌ!

فكَانَ إذَا خَرَجَ منَ السُّوقِ أو مرَّ بصبيانٍ صَاحُوا بِهِ: أبو بلالٍ وراءَكَ! ورُبَّما صاحوا بِهِ: يا معبد خذه! حتَّى شكى ذَلِكَ إِلَى ابن زياد، فأمر الشُّرط أن يكفوا الناس عَنْهُ، ففي ذَلِكَ يقول عيسى بن فاتك من بني تيم اللات بن ثعلبة أحد الخوارج:

فلما أصبحوا صلُّوا وقاموا ... إلى الجُرد العتاق مسوّمينا
فلما استجمعوا حَمَلُوا عليهم ... فظل ذوو الجعائل يقتلونا
بقية يومهم حتَّى أتاهم ... سَواد الليل فِيهِ يراوغونا
يقول بصيرهم لما أتاهم ... بأن القومَ ولوا هاربينا
أألفا مؤمنٍ معكم زعمتم ... ويهزمكم بآسكَ أربعونا
كذبتم لَيْسَ ذاك كَما زعمتم ... ولكنّ الخوارجَ مؤمنونا
همُ الفئة القليلة غير شك ... على الفئة الكثيرة يُنصرونا

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[1]: وأما قول حريث بن حجل إنه قتل بابن سعاد أربعة برآء، وأنه أحد قتلته، فابن سعاد هُوَ المثلم بن مسروح الباهلي، وسعاد اسم أمه، وكان من خبره أنَّه ذُكرَ لعبيد الله بن زياد رجلٌ من سدوس يقال لَهُ: خالد بن عباد، أو ابن عبادة، وكَانَ من نُسَّاك الخوارج، فوجّه إِلَيْهِ فأخذه، فأتاه رجل من أهل ثور، فكذب عَنْهُ، وَقَالَ: هُوَ صهري وَفِي ضمني، فخلى عَنْهُ، فلم يزل الرجل يتفقده حتَّى تغيب، فأتى ابنَ زياد فأخبره، فلم يزل يبعث إِلَى خالد بن عبادة حتَّى ظفر بِهِ فأخذه، فَقَالَ لَهُ: أين كنتَ فِي غيبتك هَذِهِ.

---

(١) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٨٥).

قَالَ: كنتُ عِندَ قوم يذكرُونَ الله فيحمدونه، ويذكرُونَ الجوَرة فيتبرؤون مِنْهُم

قَالَ: ادللني عَلَيْهِم.

قَالَ: يسعدون إذن بك، وتشقى بهم، ولم أكن لأروّعهم.

فَقَالَ: مَا تقول فِي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؟

فَقَالَ: خيرًا.

قَالَ: فما تقول فِي أمير المُؤْمِنِينَ عثمان وَفِي أمير المُؤْمِنِينَ معاوية - وَفِي لفظٍ: عَلي -: أتتولاهما؟

قَالَ: إن كانا وليين لله، فلستُ معاديهما!

فأعادها عَلَيْهِ مرارًا ليرجع عن قوله، فلم يفعل، فعزم عَلَى قتله، فأمر بإخراجه إِلَى رَحبة تُعرف برحبة الرسي وقتله بِهَا، فجعل الشُرط يتفارّون من قتله ويروغون عَنْهُ توقيًا؛ لأنه متقشفٌ عَلَيْهِ أثر العبادة، حتَّى أتى المثلم بن مسروح الباهلي، وكان من الشُرط، فتقدم فَقَتَلَهُ، فأقسم الخوارج أن يقتلوه، وكان مُغرمًا باللِقاح يبتغيها فيشترها من مظانها، وهم فِي تفقده قَدْ دسوا إِلَيْهِ رَجُلًا فِي هيئة الفتيان عَلَيْهِ رِدع من زعفران، فلقيه بالمِربد، وَهُوَ يسأل عن لَقحة صفي.

فَقَالَ لَهُ الفتى: إن كنتَ تبلغ الثمن فعندي مَا يغنيك عن غيره، فامضِ معي، فمضى مَعَهُ المثلم عَلَى فرسه، والفتى يمشي أمامه، حتَّى أتى به بني سعد فدخل دارًا، وَقَالَ: ادخل عَلَى فرسك، فلمّا دخل وتوغل فِي الدار أغلق الباب، وثارت بِهِ الخوارج، فاعتوره حريث بن حجل وكهمس بن طلق الصريمي فقتلاه، وجعلا دراهم كانت مَعَهُ فِي بطنه ودفناه فِي ناحية الدار، وحكّا آثار الدم، وخليا فرسه فِي الليل، فأصبحت فِي الغد فِي المِربد، وتجسس عَنْهُ الباهليون، فلم يروا لَهُ أثرًا، فاتهموا بني سدوس به، واستعدَوا عَلَيْهِم السلطان، وجعل السدوسية يحلفون، فتحامل ابن زياد مع الباهليين، فأخذوا من السدوسيين أربع ديات.

وَقَالَ: مَا أدري مَا أصنع بِهَؤُلَاءِ الخوارج؟ كلما أمرت بقتل رجلٍ اغتالوا قاتله!

فلم يُعلم بمكان المثلم حتَّى خَرَجَ مرداس وأصحابه، فلمَّا وافقهم ابن زرعة الكلابي صاح بهم حريث بن حجل: أههنا من باهلة أحدٌ؟

قالوا: نعم.

قَالَ: يا أعداء الله أخذتم للمثلم من بني سدوس أربع ديات، وأنا قتلته، وجعلتُ دراهم مَعَهُ فِي بطنه وَهُوَ فِي موضع كذا مدفون.

فلمَّا انهزم ابن زرعة وأصْحَابُهُ صَارُوا إِلَى الدَّارِ فَأَصَابُوا أشلَاءَهُ، ففي ذَلِكَ يقُولُ أبو الأسودِ الدُّؤلِي:

آليتُ لا أغدُو إِلَى رَب لَقحة　　　أساومه حتَّى يؤوب المثلمُ !

قَالَ أَبو العبَّاسِ[1]: فأمَّا مَا كَانَ من مرداس، فإن عبيد الله بن زياد قَدْ ندبَ إِلَيْهِ الناس، فاختار لَهُ عباد بن الأخضر المازني - وكان الأخضر زوج أمه فنُسِب إليهِ - فوجهه إِلَى مرداس فِي أربعة آلاف.

وكانت الخوارج قَدْ انتحت من موضعها إِلَى داربجرد من أرض فارس، فصار إِلَيْهِم، فكان التقاؤهم يوم الجمعة، فناداه أبو بلالٍ: اخْرُجْ إِلَيَّ يَا عبَّادُ فإِنِّي أُرِيدُ أن أحَاوِرَكَ. فَخَرَجَ إِلَيْهِ.

فَقَالَ: مَا الَّذِي تبتغي؟

قَالَ: أن آخذ بأقفائكم فأردكم إِلَى الأمير عبيد الله بن زياد.

قَالَ: أو غيرَ ذَلِكَ؟ أن ترجع، فإِنَّا لا نُخيف سبيلاً، وَلَا نَذعر مسلمًا، ولا نُحارب إلا من حاربنا، وَلَا نجبي إلا مَا حمينا.

فَقَالَ عباد: الأمر مَا قلتُ لك.

فَقَالَ لَهُ حريث بن حجل: أتحاول أن ترد فئةً من المُسْلِمِينَ إِلَى عبدٍ ضال.

---

(١) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٨٥ - ١٨٦).

فَقَالَ لَهُم: أَنْتُم أولى بالضلال مِنْهُ. وَمَا من ذَلِكَ بد.

قَالَ: وقدِم القعقاع بن عطية الباهلي من خراسان يريد الحج، فلمَّا رأى الجمعين، قَالَ: مَا هَذَا؟

قَالُوا: الشُّراة.

فَحَمَلَ عَلَيْهِم ونشب الحرب، فأخذ الخوارج القعقاع أسيرًا، فأتوا بِهِ أبا بلال، فقال: مَا أنت؟

قال: أنا لست من أعدائك، إنَّمَا قدمتُ للحج فجَهلتُ فغررتُ، فأطلقه، فرجع إلى عباد فأصلح من شأنه. وَحَمَلَ على الخوارج ثانية، وهو يقول:

أَقَاتِلُهُم وَلَيْسَ عليَّ تعبٌ ... نشَاطاً لَيْسَ هَـذَا بالنَّشَاطِ
أُكرُّ عَـلى الحَرُورينَ مُهْرًا ... لأحمِلَهُم عَلى وضَحِ الصِّرَاطِ

فَحَمَلَ عليه حريث بن حجل السدوسي وكهمس بن طلق الصريمي، فأسَرَاه وقتلاهُ، ولم يأتيا بِهِ أبا بلال، فلم يزل القوم يجتلدون حتَّى جاء وقت صلاة يوم الجمعة.

فناداهم أبو بلال: يا قوم، هذا وقت الصلاة، فوادعونا حتَّى نصلي وتصلوا.

قالوا: لكَ ذاكَ، فرمَى القومُ أجمعُونَ بأسلحتِهِم، فأسرعَ عبادٌ ومَن معَهُ، وقضوا صلاتَهُم، والحروريةُ يبطئونَ، فهُم بَينَ راكعٍ وقائمٍ فِي الصَّلاةِ وقاعِدٍ، حتَّى مالَ عبادٌ عَلَيْهِم ومَن معَهُ، فقتلُوهُم جَميعًا. وأُتِيَ برأسِ أَبِي بلَالٍ.

وتروِي الشَّرَاةُ أنَّ مرداسًا أبَا بلالٍ، لَمَّا عقدَ على أصحَابِهِ، وعزمَ على الخرُوجِ، رفعَ يديهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ إنْ كانَ مَا نحنُ فِيهِ حقًّا فأرنَا آيةً.

فرجفَ البيتُ حتى كاد يخسف.

وَقَالَ آخرُونَ: فارتفعَ السَّقفُ.

ويقالُ: إن رجلًا مِنَ الخَوَارِجِ ذكرَ ذلكَ لأبِي العاليةِ الرياحِي يُعجبهُ من الآيةِ، ويرغِّبُه فِي مذهبِ القومِ، فَقَالَ أبُو العاليةِ: كادَ الخسفُ ينزلُ بِهِم، ثمَّ أدركتهُم نظرة من اللهِ!

فلما فرغ عباد من الجماعة أقبل فصُلبت رؤوسهم، وَمِنْهُم داود بن شبث، وكان ناسكًا، وَمِنْهُم حبيبة النصري من قيس، وكان مجتهدًا. يُروى عَنْهُ أنه قال: لما عزمتُ على الخروج فكرت فِي بناتي، فقلتُ ذات ليلة: لأمسكنّ عن نفعهن حتَّى أنظر، فلمَّا كان فِي جوف الليل استسقت بنية لي، فقالت: يا أبتِ اسقني، فلمَّا أُجبها، فأعادت، فقامت أخيّة لها فسقتها. فعلمت أن الله تَعَالَى غير مضيّعهن، فأتممت عزمي !

وكان فِي القوم كهمس، وكان من أبر الناس بأمّه، فَقَالَ لها: يا أمه! لولا مكانك لخرجتُ، فقالت: يا بُني، وهبتك لله تَعَالَى !

ففي مقتلهم يقول عيسى بن فاتك الحبطي الخارجي:

ألا فِي الله لا فِي النـاس شـالت ... بـداودٍ وإخوتـه الجـذوعُ
مـضوا قـتلاً وتمزيقًـا وصـلبًا ... تحـوم عَلَـيْهِمُ طـيرٌ وقـوعُ
إذا مَـا الليـلُ أظلـم كابـدوه ... فيُـسفر عـنهمُ وهـمُ ركـوعُ
أطار الخـوفُ نومهـم فقامـوا ... وأهلُ الأرض فِي الدنيـا هجوعُ

وقال عمران بن حطان:

يـا عـينُ بكّـي لمرداسٍ ومـصرعهِ ... يا ربَّ مـرادس ألحقني بمـرداسِ
تركتنـي هـائماً أبكـي لمرزئتـي ... فِي منزلٍ موحشٍ مـن بَعـدِ إيناسِ
أنكرتُ بعدكَ مَا قدْ كنـتُ أعرفـه ... مَا الناسُ بعدكَ يا مرداسُ بِالنَّـاسِ
إمـا شربـتَ بكـأسٍ دارَ أوّلهـا ... على القرون فذاقوا جُرعـة الكـاسِ
فكل من لم يذقها شـاربًا عجِـلاً ... منهـا بأنفاسٍ ورِدٍ بعـد أنفـاسِ

وقال:

لقــدْ زادَ الحيــاةَ إليَّ بُغـضًا ... وحبًّـا للخـروجِ أبـو بـلالِ
أُحـاذرُ أنْ أمـوتَ عـلى فـراشي ... وأرجو الموتَ تحتَ ذُرى العـوالي
فمـنْ يـكُ همُّـهُ الـدُّنيا فـإنّي ... لهـا والله ربِّ البيـت قـالي

فصلٌ

ومن عُبَّادِهِم ومجتهديهم وقَعدهم: عمران بن حطان، وهو مع مذهبه يروي لَهُ البخاري فِي صحيحه.

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[(١)]: وعمران هذا، أحد بني عمرو بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن علي بن بكر بن وائل، وكان رئيسَ القعَد من الصفرية وفقيههم وخطيبهم وشاعرهم.

وشعره هذا بخلافِ شعرِ أبي خَالدٍ القنانِي، وكان هُو من قَعد الخوَارجِ، وَقَد كان كَتَبَ إِلَيْهِ قَطري بن الفجاءة المَازنِي يلومه على القُعودِ:

أَبا خالدٍ انْفِرْ فلَسْتَ بِخالدٍ... وَما جَعَلَ الرحمنُ عُذْرًا لقاعِدِ
أَتَزْعُم أَنَّ الخَارِجيَّ عَلَى الهُدَى... وأنتَ مُقِيمٌ بَينَ لصٍ وجاحِدِ؟

فَكَتَبَ إِلَيْهِ:

لَقَــدْ زادَ الحَيــاةَ إِلَيَّ حُبًّــا ... بَنــاتِي، إنَّهُــنَّ مِــنَ الـضِّعافِ
أُحــاذرُ أنْ يَـريْنَ الفَقْـرَ بعـدِي ... وَأنْ يـشرَبْنَ رنقًـا بعـدَ صَـافِ
وأنْ يَعْرَيْنَ، إنْ كُـسِيَ الجَـوارِي ... فَتَنْبُو العـينُ عَـن كَـرَمٍ عِجـافِ
ولَوْلا ذاكَ قَدْ سَوَّمْــتُ مُهْري ... وَفِي الرَّحمن للضُّعفــاءِ كافِ

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[(٢)]: ومما حدَّثنى به العباس بن أبى الفرج الرياشى، عن محمد بن سلام أن عمران بن حطان لما أطرده الحَجَّاجُ جعل يتنقل فِي القبائل، وكان إذا نزل بحيٍّ انتسب نسبًا يقرب منهم، ففي ذلك يقول:

---

(١) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٢٣ - ١٢٤).

(٢) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٢٥).

نزلْنَا فِي بنِي سَعدِ بنِ زيدٍ ... وفِي عَـكٍّ وعَامِرِ عوْبَثَانِ
وفِي لَخْم وفِي أَدٍّ بنِ عَمْرٍ ... وفِي بكرٍ وَحَي بنِي العَدَانِ

ثم خَرَجَ حتى نزل عند روح بن زنباع، وكان روح يَقري الأضياف، وكان مسامرًا لعبد الملك بن مروان، أثيرًا عنده.

وقد قال عبد الملك فيه: مَن أُعطيَ مثل مَا أُعطي أبو زرعة؟ أُعطي فقه الحجاز، ودهاء أهل العراق، وطاعة أهل الشام.

وانتمى عمران إِلَيْهِ أنه من الأزد، فكان روح لا يسمعُ شعرًا نادرًا، ولا حديثًا غريبًا عِندَ عبد الملك فيسأل عَنْهُ عمران إلا عرّفه إياه وزاد عَلَيْهِ.

فَقَالَ روح لعبد الملك إن لي ضيفًا مَا أسمع من أمير المُؤْمِنِينَ خبرًا وَلَا شعرًا إلا عرفه وزاد فِيهِ، فَقَالَ: أخبرني ببعض أخباره فأخبره.

وأنشده فَقَالَ: إن اللغة لغة يمانية ! وَلَا أحسبه إلا عِمران بن حطان.

حتَّى تذاكروا ليلةً البيتين اللذين أولهما:

يا ضربةً من تقيٍ..الأبيات

فلم يدرِ عبد الملك لمن هما، فرجع روح فسأل عِمران عَنْهُمَا.

فَقَالَ: هَذَا الشعرُ لعِمرانَ بنِ حطان يمدح عبد الرحمن بن ملجم، فرجع روح إِلَيْهِ فأخبره.

فَقَالَ: ضيفك عِمران بن حطان ! فاذهب فجئني بِهِ. فرجع إِلَيْهِ.

فَقَالَ: إن أمير المُؤْمِنِينَ قَدْ أحب أن يراك.

فَقَالَ لَهُ عمران: قَدْ أردتُ أن أسألك ذَلِكَ، فاستحييت منك، فاذهب فإني بالأثر.

فرجع روح إِلَى عبد الملك فأخبره فَقَالَ: أما إِنَّكَ سترجع فَلَا تجده !

فلمَّا رجع وجد عِمران قَدْ احتمل وخلّف رقعة فيها:

يا روحُ كم من أخي مثوىً نزلت به ... قـد ظـنّ ظنـك مـن لخـمٍ وغـسانِ
حتـى إذا خفتُـه فارقـت منزلـه ... من بعد مَا قيـل عِمـران بـن حطـانِ

قـد كنـت جـارك حـولاً لا تروّعنـي فيـه طـوارقُ مـن إنـسٍ ولا جـانِ
حتـى أردتَ لِي العظمـى فـأدركني مَا أدرك الناس من خوفِ ابن مروانِ
فاعـذر أخـاك ابـن زنبـاع فـإن لَـهُ فِي النائبـات خطوبـاً ذات ألـوانِ
يومـاً يـمانٍ إذا لاقيـتُ ذا يمـنٍ وإن لقيـتُ معـدّيًا فعـدناني
لـو كنـت مـستغفراً يومًـا لطاغيـةٍ كنـتَ المقـدم فِي سري وإعـلاني!
لكـن أبـت لِي آيـاتٌ مطهـرة عِنـدَ الولاية فِي طـه وعمـرانِ

ثم ارتحل حتَّى نزل بزُفر بن الحارث الكلابي، أحد بني عمرو بن كلاب. فانتسب لَهُ أوزاعيًا.

وكان عِمران بن حطان يطيل الصلاة، وكان غلمانٌ من بني عامر يضحكون منه.

فأتاه رجل ممَّن رآه عِندَ روح بن زنباع فسلم عليه، فدعاه زُفر فقال: من هذا؟

فقال: رجلٌ من الأزد، رأيته ضيفًا لروح بن زنباع.

فَقَالَ لَهُ زُفر: يا هذا، أأزديًا مرةً وأوزاعياً أخرى! إن كنتَ خائفًا أمّناك، وإن كنتَ فقيراً جبرناك.

فلمَّا أمسى خلّف فِي منزله رقعةً وهرب، فوجد فيها:

إن الَّتِـي أصـبحت يعيـا بهـا زفـرٌ أعيـت عيـاءً عـلى روح بـن زنبـاعِ
مـا زال يـسألني حـولاً لأخـبره والنـاس مـا بَـينَ مخدوعٍ وخـدّاعِ
حتـى إذا انقعطـت منـي وسـائله كـف الـسؤال ولم يُولـع بـإهلاعي
فاكففْ لسانك عن لومي ومسألتي مـاذا تريـد إلى شـيخ لأوزاعِ؟
فاكففْ كَمَا كـفّ عنـي إننـي رجـلٌ إمـا صـميمٌ وإمـا فقعـة القـاعِ[1]
أكـرمْ بـروح بـن زنبـاعٍ وأسرتـه قـومٌ دَعَـا أولـيهم للعُـلا داعـي
جـاورتهم سـنة فِـيمَا أُسرّ بِـهِ عرضي صحيح ونومي غير تَهجـاعِ
فاعمـل فإنـك منعيٌ بواحـدة حسبُ اللبيب بهذا الشيب من ناعي

(١) فقعة القاع يُقال لمن لا أصل له.

ثم ارتحل حتَّى أتى عُمان، فوجدهم يعظمون أمر أبي بلال ويظهرونه، فأظهر أمره فيهم، فبلغ الحَجَّاجُ، فكتب فيه إلى أهل عُمان، فارتحل عمران هارباً، حتَّى أتى قوماً من الأزد فِي سواد الكُوفَةِ، فنزل بهم، فلم يزل فيهم حتَّى مات، وفي نزوله بهم يقول:

نزلنا بحمد الله فِي خيرِ منزل ... نُسر بما فِيهِ من الإنس والخفر
نزلنا بقومٍ يجمع الله شملهم ... وَلَيْسَ لَهُم عود سوى المجد يُعتصر
من الأزد إِنّ الأزد أكرم أسرة ... يمانية تربو إذا انتسب البشر
فأصبحتُ فيهم آمناً لا كمعشر ... أتوني فَقَالُوا مِن ربيعة أو مضر
أم الحي قحطان؟ فتلكم سفاهة ... كَمَا قَالَ روح لي وصاحبه زُفر
وما مِنْهُمَا إلا يُسر بنسبةٍ ... تقربني مِنْهُ وإن كان ذا نفر
فنحن عباد الله والله واحدٌ ... وأولى عباد الله بالله من شكر

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[1]: ومِنَ الخَوَارِجِ من مشى فِي الرُمح وهو فِي صدره خارجًا من ظهره، حتى خالطَ طاعنه، فضربَه بالسيف فقتله، وهو يقول: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾.

وَمِنْهُم: الذي سأل عليًا عليه السلام يومَ النهروان المبارزة فِي قوله:

أَطعنهُم وَلَا أرى عَلِيًّا... وَلَوْ بَدَا أَوْجَرْتُهُ الخَطِّيَّا

فَخَرَجَ إِلَيْهِ عليٌ فضربه بالسيف فقتله، فلما خالطَه السيف قال: يا حبذا الروحة إلى الجنة !

ومنهم: ابنُ مُلجم، وقطع الحسن بن علي يديه ـ وَقِيلَ عبد الله بن جعفر كَمَا سَيَأْتِي ـ ورجليه وهو فِي ذلك يذكرُ اللهَ تَعَالَى ثمَّ عمَد إلى لسانه فجزِع، فقيل لَهُ فِي ذلك، فَقَالَ أحببت ألا يزال لساني رطبًا من ذكرِ الله تَعَالَى، وَسَيَأْتِي ذكرُ مقتلِهِ لعَليٍّ رضي الله عنه بأوضح عبارة إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

---

(١) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٣٨).

ومنهم: القومُ الَّذِينَ وثبَ رجلٌ منهم على رُطبة سقطت من نخلة، فقيل: إنها لنصرانِي ! فوضعها فِي فِيه فصاحوا به، فلفظها تورعًا !

ومنهم: أبو بلال مرداس، الذي ينتحله كثيرٌ من الفِرق؛ لتقشّفه، وبصيرتِه، وصحة عبادته،، وصلابة نيته.

أما المعتزلة فينتحلونه ويَقُولُونَ: إِنَّهُ خَرَجَ مُنكرًا لجَور السُلطان، داعيًا إلى الحق، وإنه من أهل العدلِ والتوحيد، وهم يُجوّزون الخروجَ على الأئمة، وَذَٰلِكَ من مذهبهم الفاسد، ويحتجون لذلك بقوله لزياد - وقد كان قال فِي خطبته على المنبر: والله لآخذن المحسنَ بالمسيء، والحاضرَ بالغائب، والصحيحَ بالسقيم -، فقام إِلَيْهِ مرداس، فَقَالَ: قد سمعنا مَا قلتَ أيها الانسان، وما هكذا قال الله تبارك تَعَالَىٰ لنبيه إبراهيم، إذ يقول: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِ عقِب هَذَا اليوم.

والرافضة تنتحله، وتزعم أنه كَتَبَ إلى الحسين: إنِّي والله لست مِنَ الخَوَارِجِ، ولا أرى رأيهم، وإني على دينِ أبيك، وقد مضت قصته وخروجه مع الخوارج، وأنه من أعيانهم وما كان مُناحل الرافضة.

ومنهم المستورد: أحد بنى سعد بن زيد بن مناة، وكان من عُبّادهم، ناسكًا مجتهدًا، وهو أحد من ترأس على الخوارج فِي أيام علي ﷺ، وله الخطبةُ المشهورة الَّتِي أولُها: إن رسول الله صلى الله عليه أتانا بالعدل تخفق راياتُه، وتلمع معالمُه، فبلّغنا عن ربه، ونصحَ لأمته، حتى قبضه الله تَعَالَىٰ إِلَيْهِ مختارًا.

ونجا من سيفِ علي ﷺ يوم النُخيلة، فَخَرَجَ بعد مدة على المغيرة بن شعبة وهو والي الكُوفَةِ، فبارزه معقل بن قيس الرياحي، فاختلفا ضربتين، فخرَّ كلُ واحد مِنْهُمَا ميتًا، وقد مضى خبرهما.

ومن كلام المستورد: لو ملكتُ الدنيا بحذافيرها، ثمَّ دُعيت إلى أن أستفيد بها خطيئة مَا فعلت.

ومِنْ كَلامِهِ: إذا أفضيتُ بسرّي إلى صديقي فأفشاه، لم ألمه؛ لأني كنتُ أولى بحفظه.

ومِنْ كَلامِهِ: كُن أحرص على حِفظِ سرّ صاحبك منك على حقنِ دمك.

وكان يقول: أولُ مَا يدل على عيبِ عائبِ الناس معرفتُه بالعيوب، وَلَا يَعيب إلا مَعيب.

وكان يقول: المال غير باقٍ عَلَيْكَ؛ فاشترِ بِهِ من الحمد والأجر مَا يبقى عليك.

قَالَ أَبُو العبَّاسِ: وخَرَجَ مِنَ الخَوَارِجِ عَلَى مُعَاوِيَةَ بعدَ قتلِ عليٍّ ﷺ حوثرة الأسدي وحابس الطائي فِي جمعهما، فصارا إلى موضعِ أَصْحَابِ النُّخَيْلَةِ، وَمُعَاوِيَةُ يَوْمَئِذٍ بِالكُوفَةِ قد دخلها فِي عامِ الجماعة، وَقَد بايع الحسنُ بن علي، وخَرَجَ يُرِيدُ المَدِينَةَ؛ فَبَعَثَ إِلَيْهِ معَاوِيَةُ أن يتولَّى قتالَ الخَوَارِجِ، فأَبى عَلَيهِ، وتصدق بإعراضه عن الخلافة وأن الأمر والنهي لَهُ.

قَالَ أَبُو العبَّاسِ[1]: فلمَّا رجع الجواب إلى معاوية أرسل إلى حوثرة أباه.

وقال له: اذهب فاكفني أمر ابنك، فصار إِلَيْهِ أبوه فدعاه إلى الرجوع فأبى، فذَكَّرَهُ فصَمَّمَ.

فَقَالَ: يا بُني ! أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحنّ إِلَيْهِ؟

فَقَالَ: يا أبتِ ! أنا والله إلى طعنةٍ نافذة، أتقلبُ فِيهَا على كعوب الرُمح أشوقُ مني إلى ابني !

فرجع إلى معاوية فأخبره، فَقَالَ: يا أبا حوثرة ! لقد عتا بهذا جدًّا.

ثمَّ وجه إِلَيْهِ جيشًا أكثره أهل الكُوفَةِ، فلمَّا نظر إِلَيْهِم حوثرة قَالَ لَهُم: يا أعداء الله أَنْتُم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدّوا سلطانه، وأنتم اليوم تقاتلون مَعَهُ لتشدوا سلطانه !

فَخَرَجَ إِلَيْهِ أبوه فدعاه إلى البِراز فَقَالَ: يا أبتِ لك فِي غيري مندوحة، ولي فِي غيرك مذهب، ثمَّ حَمَلَ على القومِ وَهُوَ يَقُولُ:

---

(١) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٧٦).

أكرزُ على هذي الجموع حوثره ... فعن قليلٍ مَا تنال المغفره!

فَحَمَلَ عليه رجل من طيء فَقَتَلَهُ، فلمَّا رأى أثر السجود قد لوح جبهته ندم على قتله.

وقَالَ أَبُو العبَّاسِ[(١)]: وَقَالَ الرهين بن سهم المرادي أحد فقهاء الخوارج ونُسّاكها[(٢)]:

يا نفسُ قَد طَالَ فِي الدُّنيَا مُرَاوَغَتِي ... لَا تَـأْمنِنَّ لِـصَرفِ الـدَّهرِ تَنغِيـصا

إنِّي لبَـائعُ مَـا يفنَـى لباقيـةٍ ... إن لَم يعُقْنِي رجاءُ العَيشِ تَربيـصا

وأَسـأَلُ اللهَ بيـعَ الـنَّفسِ مُحتسبًا ... حتَّى ألاقِيَ فِي الفرْدَوسِ حُرْقُوصا

وابنَ المَنِيـحِ ومرداسًـا وَإِخوَتَـهُ ... إِذْ فَارَقُـوا زَهْـرةَ الدُّنيَا مَخَامِيصا

وقول المرادي: حتَّى ألاقيَ فِي الفِردوسِ حُرْقُوصًا، هُوَ: ابن زهير السعدي، وكان الحرقوص لَهُ مشاهدُ محمودة فِي حرب العراق مع الفرس أيام عمر ﷺ، ثم كَانَ خارجيًّا.

وَيُذْكَرُ عَنِ الوَاقِدِيِّ أن حُرْقُوصَ هَذَا هو ذو الخويصرة الذي قَالَ للنبي ﷺ يوم حنين: «هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ الله»[(٣)] حين أعطى المؤلفة قلوبهم، وفي لفظ: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل فَقَالَ لَهُ ﷺ مَا قالَ.

قَالَ أَبُو العبَّاسِ: وأكثرُهم لم يكن يبالي بالقتل، وشيمتهم استعذابُ الموت والاستهانة بالمنية.

وَمِنْهُم: الهازئ بالأمراء وَقَد قُدِّم إلى السيف.

قال أبو الفرج الأصبهانِي عليُّ بنُ الحسينِ[(٤)]:

---

(١) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٩٢).

(٢) «».

(٣) أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٣١٥٠)، ومُسْلمٌ (١٠٦٢).

(٤) فِي «الأغاني» (١/ ١٥ ـ ١٦).

حَدَّثَنَا ابْن دُرَيْد، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو حَاتِم، عَنْ أبي عُبَيْدة، وَذكَرَهُ أَبُو حَاتِم عَنِ الْعُتْبِي أَيْضا، قَالَ: كَانَت امْرَأة مِنَ الخَوَارِجِ من الأزد يُقَالُ لَهَا فراشة، وَكَانَت ذَاتَ نيةٍ فِي رَأْيِ الخَوَارِج تُجَهِّزُ أَصْحَابَ البصَائِرِ مِنْهُم، وَكَانَ الحَجَّاجُ يطلبهَا طَلَبًا شَدِيدا، فأعوزته فلم يظفر بهَا، وَكَانَ يَدْعُو اللهَّ أَن يُمكنهُ من فراشة أَوْ من بَعْض مَن جهزته، فَمَكَثَ مَا شَاءَ اللهَّ، ثمَّ جِيءَ بِرَجُل فقيل له: هَذَا مِمَّن جهّزته فراشة، فخرَّ سَاجِدا ثمَّ رفع رَأسه، فَقَالَ لَهُ: يَا عدوَّ الله، قَالَ: أَنْت أولى بهَا يَا حجاج، قَالَ: أَيْنَ فراشة؟ قَالَ: مرت تطير بَينَ السَّماءِ والأرضِ !

قَالَ: أعن تِلْكَ سَأَلتك عَلَيْكَ لعنة اللهَّ؟ قَالَ: عَنْ تِلْكَ أَخبَرتك عَلَيْكَ غضب الله ! قَالَ: سَأَلتك عَنِ المْرْأَة الَّتِي جَهَّزَتْكَ وَأَصْحَابَكَ، قَالَ: وَمَا تصنع بهَا؟ قَالَ: دُلنا عَلَيْهَا، قَالَ: تصنع بهَا مَاذَا؟

قَالَ: أَضْرِبُ عُنُقَهَا.

قَالَ: وَيلك يَا حجاج، مَا أجهلك! أدُلك وَأَنت عَدو اللهَّ عَلَى من هُوَ وَلِيُّ الله؟ قَدْ ضللتُ إِذًا وَمَا أَنَا من المهتدين.

قَالَ الحَجَّاجُ: فَمَا رَأْيك فِي أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عبد المْلك؟

قَالَ: على ذَاك الْفَاسِق لعنة اللهَّ ولعنة اللاعنين !

قَالَ: وَلِمَ؟ لَا أمَّ لَك؟

قَالَ: إنه أخطأ خَطِيئَة طبقت مَا بَينَ السَّماء وَالْأَرْض.

قَالَ: وَمَا هِيَ؟

قَالَ: اسْتِعْمَاله إياك عَلَى رِقَاب المُسلمين.

فَقَالَ الحَجَّاجُ لجلسائه: مَا رَأْيكُمْ فيه؟

قَالُوا: نرى أن تقتله قِتلةً لَمْ يُقتل مثلهَا أحد.

قَالَ: وَيلك يَا حجاج، جلساء أَخِيك كَانُوا أحسن مجالسةً من جلسائك.

قَالَ: وَأي أخويَّ تُرِيدُ؟

قَالَ: فِرْعَوْن حِين شاور مُوسَى فَقَالُوا: أرجه وأخاه، وَأَشَارَ عَلَيْكَ هَؤُلَاءِ بقتلي !

قَالَ: وَهل حفظتَ الْقُرْآن؟

قَالَ: وَهل خَشيتُ فراره حتى أحفظه؟

قَالَ: هَلْ جمعتَ الْقُرْآن؟

قَالَ: مَا كَانَ مُتَفَرقًا فأجمعه !

قَالَ: أَقرَأته ظَاهرًا؟

قَالَ: معَاذ الله ! بل قرأته وَأَنا أنظر إِلَيْهِ.

فَقَالَ: فَكَيْفَ تراك تلقى اللهَّ إِن قتلتُك؟

قَالَ: أَلقَاهُ بعملي وتلقاه بدمي.

قَالَ: إِذن أُعَجِّلُك إِلَى النَّار.

قَالَ: لَوْ علمتُ أَنَّ ذَلِكَ إِلَيْكَ أَحْسَنت عبادتك واتقيتُ عذابك، وَلم أبغ خِلافك ومناقضتك !

قَالَ: إِنِّي قَاتلك، قَالَ: إِذن أخاصمُك؛ لأَنَّ الحكمَ يَوْمَئِذٍ إِلَى غَيْرك.

قَالَ: نُقْمِعُك عَنِ الْكَلَام السَّيء، يَا حَرسي! اضْرِب عُنُقَه، وأومىء إِلَى السياف أَلا يقْتله، فَجعل يَأْتِيهِ من بَينَ يَدَيْهِ وَمن خَلفه ويروّعه بِالسَّيْفِ، فلمّا طَال ذَلِكَ عَلَيْهِ رَشَح جَبِينُه.

فقَالَ: جَزعتَ من الْمَوْت يَا عدوَّ اللهَّ؟

قَالَ: لَا يَا فَاسق، وَلَكِن أَبْطَأتَ عليّ بِمَا لي فِيهِ رَاحَة !

فقَالَ: يَا حَرسيّ: أعظمْ جُرحه.

فلمّا أحس بِالسَّيْفِ قَالَ: لَا إِلَه إِلَّا اللهَّ، ووَاللهَّ لقد أتمهَا وَرَأسُه فِي الأَرْض، وإِنَّمَا هزأ به طلبًا مِنْهُ ليتغيظ عَلَيْهِ بذلك فيقتله، فينال الشهادة بزعمه.

وكانت الخوارج تتمنى القتلَ فِي أقوالها وأشعارها، كَمَا قَالَ الطِرمّاح بن حكيم الشاعر الطائي، وكان يرى رأيَ الخوارج فِيمَا قَالَ أبو الفرج وغيره، حَيْثُ يقول:

وإنِّي لُمعتَادٌ جَوَادِي، وقَاذِفٌ بِهِ وبِنَفْسِي العَامَ إِحْدَى المَتالفِ
لأكسِبَ مَالاً، أَوْ أَؤُولَ إلى غِنًى مِنَ اللهِ يَكْفِينِي عذاب الخَلائِفِ
فيارِبِّ إِنْ حانَتْ وفاتِي فَلَا تكُنْ على شَرْجعٍ يُعلَى بخُضر المطَارِفِ
ولكن قبري بطنُ نسرٍ مقيله بجو السما فِي نسورٍ عوَاكِفِ
وأمسي شهيدًا ثاويًا فِي عصابة يُصابُون فِي فج مِنَ الأرضِ خَائِفِ
عَصَائِبُ مِنْ شَتَّى، يُؤَلِّفُ بَيْنَهُم هُدَى الله، نَزَّالُونَ عِندَ المَوَاقِفِ
إِذَا فَارَقُوا دُنْيَاهُمُ فَارَقُوا الأذى وصارُوا إِلى ميعادِ مَا فِي المصاحفِ

قال ابن شبرمة: مررتُ يومًا فِي بعضِ شوارعِ الكُوفةِ؛ فَإِذَا بنعش حوله رجال وَعَلَيْه مطرف خزٍّ أخضر، فسألت عَنْهُ فقيل: الطرمّاح بن حكيم؛ فعلمتُ أن الله تَعَالَى لم يستجب له !

وكان زيادٌ ولّى شيبان بن عبد الله الأشعري - صاحب مقبرة بنى شيبان - باب عثمان وما يليه بالبصرة، فجدّ فِي طلب الخوارج، وأخافهم، فلم يزل على ذلك حتى أتاه ليلةً - وهو متكئ بباب داره - رجلان مِنَ الخَوَارِجِ، فضرباه بأسيافهما فقتلاه، فأُتي زيادٌ بعد ذلك برجلٍ مِنَ الخَوَارِجِ، فَقَالَ: اذهبوا به فاقتلوه متكئًا كَمَا قتل شيبان، فصاح به الخارجي: يا عدلاه ! يهزأ به !

قال أبو العباس[1]: وأما عباد بن أخضر المازنِي، قاتل أبى بلال مرداس بن أديّة - وقد ذكرنا قصته، وسنذكر قريبًا منها - فإنه لم يزل بعد قتله مرداسًا محمودًا فِي المِصر موصوفًا بما كان منه، حتى ائتمر جماعةٌ من الخوارج أن يقتلوه، فذمرَ بعضُهم بعضًا على ذلك، فجلسوا له يومَ جمعة وقد أقبلَ على بغلته، وابنُه رديفه، فقام إليه رجلٌ منهم فقال له: أسألك عن مسألة؟

قال: قل.

(١) فِي «الكامل» (٣/ ١٨٧ ـ ١٨٨).

قال: رأيتُ رجُلًا قتل رجُلًا بغير حقّ، وللقاتل جاهٌ وقدرٌ وناحية من السلطان، ولم يعدِ عليه السلطان لجَوره، ألولي ذلك المقتول أن يقتلَ القاتل إن قدر عليه؟

فقال: بل يَرفعه إلى السلطان.

قال: إن السلطان لا يعدي عليه لمكانه منه، ولعِظم جاهه عنده، قال: أخاف عليه إن فتك به فتك به السلطان.

قال: دع ما تخافه من السلطان، أيلحقه تَبعة فيما بينه وبين الله؟

قال: لا.

فحكّم هو وأصحابه ثم خَبطوه بأسيافهم، ورمى عبّاد بابنه فنجا، وتنادى الناس: قُتل عباد، فاجتمعوا فأخذوا أفواه الطُرق، وكان مقتل عباد فِي سكة بنى مازن عند مسجد بنى كليب بن يربوع، فجاء معبد بن أخضر، أخو عباد - وهو معبد بن علقمة، وأخضر زوج أمهما - فِي جماعة من بنى مازن، وصاحوا بالناس: دعونا وثأرنا، فأحجم الناسُ، فتقدم المازنيون، فحاربوا الخوارج حتى قتلوهم جميعًا، لم يفلت منهم أحدٌ إلا عبيدة بن هلال، فإنه خرق خُصًا ونفذ فيه، ففى ذلك يقول الفرزدق:

لقـد أدركَ الاوتـارَ غـير ذميمـة ... إذا ذُم طُلاب الـتراث الأخـاضرُ
همُ جردوا الأسيافَ يوم ابن أخـضر ... فنالوا التـي مـا فوقهـا نـال ثـائرُ
أقادوا بـه أُسدًا لهــا فِي اقتحامها ... إذا برزت نحــوَ الحروب بصائرُ

ثم هجا كليب بن يربوع، رهط جرير بن الخطفى، لأنه قُتل بحضرة مسجدِهم ولم ينصروه، فقال فِي كلمته هذه:

كفعلِ كُليبٍ إذ أخلت بجارِها ... ونصر اللئيم مُعتم وهو حاضرُ
وما لكُليبٍ حــين تُذكر أولٌ ... وما لكُليبٍ حين تُذكــر آخرُ

قال: وكان مقتل عباد بن أخضر وعبيد الله بن زياد بالكوفة، وخليفته على البصرة عبيد الله بن أبى بكرة، فكتب إليه يأمره ألا يدع أحدًا يُعرف بهذا الرأي إلا حبسه، فجد فِي طلب مَن تغيب عنه، وجعل يتبعهم ويأخذهم، فإذا شفع إليه أحدٌ منهم كفله إلى أن يقدم

به على ابن زياد، حتى أتوه بعروة بن أديّة فأطلقه.

وقال: أنا كفيلك.

فلما قدم ابن زياد أخذ مَن فِي الحبس، فقتلهم جميعًا، وطلب الكُفلاء بمَن كفلوا به، فكلُ مَن جاء بصاحبه أطلقه، وقتل الخارجي، ومن لم يأتِ بمن كفل به منهم قتله.

ثم قال لابن أبي بكرة: هات عروة بن أديّة.

قال: لا أقدر عليه.

قال: إذن والله أقتلك، فإنك كفيله، فلم يزل يطلبه حتى دُل عليه فِي سرب العلاء بن سوية المنقري، فكتب بذلك إلى عُبيد الله بن زياد، فقرأ عليه كاتبه فقال: إنا قد أصبناه فِي شِرب العلاء، فتهانف به عبيد الله وقال: صحّفتَ ولؤمتَ، إنما هو (في سرب العلاء)، ولوددت أنه كان ممن شربَ النبيذ !

فلما أُقيم عروة بين يديه، قال: لمَ جهزتَ أخاك عليَّ؟ يعني: أبا بلال.

فقال: والله لقد كنت به ضنينًا، وكان لى عزًا، ولقد أردت له ما أريد لنفسي، فعزم عزمًا فمضى عليه، وما أحبُ لنفسي إلا المقام وترك الخروج، فقال له: أفأنت على رأيه؟

قال: كلنا نعبد ربًا واحدًا، قال: أما والله لأمثلنّ بك، قال: اختر لنفسك من القَصاص ما شئت، فأمر به فقطعوا يديه ورجليه.

ثم قال له: كيف ترى؟

قال: أفسدت عليّ دنياي، وأفسدتُ عليك آخرتك، فأمر به فصُلب على باب داره.

قال أبو العباس [(١)]: وكان أبو الوازع الراسبى من مجتهِدِي الخوارج ونُسّاكها، وكان يذمُ نفسَه ويلومها على القعود، وكان شاعرًا، وكان يفعل ذلك بأصحَابه، فأتى نافعَ بن

(١) فِي «الكامل» (٣/ ١٨٩).

الازرق وهو فِي جماعة من أصحابه، يصفُ لهم جَور السلطان وفساد العامة، وكان نافع ذا لسانٍ عضبٍ، واحتجاجٍ، وصبرٍ على المنازعة. فأتاه أبو الوازع، فقال له: يا نافع، إنَّك أُعطيت لسانًا صارمًا، وقلبًا كليلاً ! فلوددتُ أن صرامة لسانِك كانت لقلبك، وكلالَ قلبك كان لِلِسانك، أتحضُ على الحق وتقعدُ عنه؟! وتُقبِّح الباطل وتُقيم عليه؟!

فقال نافع: يا أبا الوازع، إنما ننتظر الفُرص، إلى أن يجتمعَ من أصحابك من تُنكي به عدوَّك، فقال أبو الوازع:

لسانُـــك لا تنكى بـــه القومُ إنما ... تنـــالُ بكفيـــك النجاة مـــن الكَربِ

فجاهدْ أناسًا حاربوا الله واصطبر ... عسى اللهُ أن يُخزي غوي بنى حربِ !

- يعني: معاوية ﷺ - !!

ثم قال: والله لا ألومُك، ونفسي ألوم، ولأغدونَّ غدوةً لا أنثني بعدها أبدًا، ثم مضى فاشترى سيفًا، وأتى صيقلاً كان يذم الخوارجَ، ويدلُ على عوراتهم، فشاوره فِي السيفِ، فحمِده.

ثم قال: اشحذهُ، فشحذه، حتى إذا رضيَه، خبط به الصيقل فقتله ! وحمل على الناسِ فهربوا منه، حتى أتى مقبرةَ بنى يشكر، فدفع عليه رجلٌ حائط المقبرة، فشدخه، وأمر ابن زياد أن يُصلبَ.

قال أبو العباس: ومن نُسّاكهم الذين قُتلوا فِي الحرب عِمران بن الحارث الراسبى، قُتل يوم دولاب، التقى هو والحجاج بن باب الحِميرى، وكان الأميرَ يومئذٍ على أهل البصرة، وصاحبَ رايتهم، فاختلفا ضربتين، فخرَّا ميتين، فقالت أم عمران ترثيه:

اللهُ أيّـــد عمرانـــاً وطهّـــره ... وكـــان يـــدعو الله فِي الـــسحَرِ

يـــدعوه سراً وإعلانـــاً ليرزقـــه ... شـــهادةً بيـــدي ملحـــادة غُـــدَرِ

ولّى صحابتُه عـــن حَرّ ملحمـــة ... وشدّ عمران كالضرغامة الهَصِرِ

قال: وممن قُتل من رؤسائهم يومَ دولاب نافع بن الأزرق - وكان خليفتهم -، خاطبوه بإمرة المؤمنين، فقال رجل منهم يرثيه:

شَمت ابنُ بدرٍ والحوادثُ جمة ... والحائرون بنافع بن الأزرقِ
والموتُ حتمٌ لا محالة واقعٌ ... مَن لا يُصبِّحه نهارًا يُطرقِ
فلئنْ أمير المؤمنين أصابَه ... ريبُ المَنون فمَن يُصبه يُغلقِ

وقال قَطري بن الفجاءة يذكر يومَ دولاب:

لعمرُك أنّي فِي الحَيَاة لزاهدٌ ... وَفِي الْعَيْش ما لم ألقَ أم حَكِيم
من الخفِرات الْبيض لم أرَ مثلهَا ... شِفَاءً لِذِي دَاء وَلَا لسقيم
لعمُرك إني يومَ ألطمُ وجهَها ... على نائبات الدهر جدُّ لئيمِ
فَلَو شهدَتني يَوْم دولاب شاهدت ... طِعان فَتىً فِي الْحَرْب غير ذميم
غَدَاة طفت عَلْمَاء بكر بن وَائِل ... وعجنا صُدُورَ الْخَيل نَحْو تَمِيم
وكان لعبد القيس أولُ جدها ... وأحلافها من يَحصبٍ وسليم
وظلت شيوخ الأزد فِي حومة الوغى ... تعومُ وظِلنا في الجِلاد نعومُ
فلم أر يومًا كان أكثر مقعصًا ... يمجُ دمًا من فائظٍ وكليمِ
وضاربةً خدًا كريمًا على فتىً ... أغرّ نجيب الأمهاتِ كريمِ
أصيب بدولابَ ولم تك موطنًا ... له أرضُ دولاب وأرض حميمِ
فلو شهدَتنا يوم ذاك وخيلُنا ... تُبيح من الكفار كلَّ حريمِ
رأت فتيةً باعوا الإله نفوسَهم ... بجناتِ عدنٍ عنده ونعيمِ

فصلٌ

ومن رؤساء الخوارج وكِبارهم: عبد الله بن يحيى الكندي الملقب طالب الحق، وصاحبه المختار بن عوف الأزدي صاحب وقعة قديد، ونحن نذكر ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني من قصتها فِي كتاب «الأغانِي» مختصرًا محذوفًا عنه ما لا حاجةَ بنا فِي هذا الموضع إليه.

قال أبو الفرج[1]: كان عبد الله بن يحيى من حَضرموت، وكان مجتهدًا عابدًا، وكان يقول قبل أن يَخرج: لقيني رجلٌ فأطال النظرَ إلَيَّ وقال: ممن أنت؟

قلت: من كِندة.

فقال: من أيهم؟

فقلت: من بني شيطان.

فقال: والله لتملكن وتبلغن وادي القرى، وذلك بعد أن تذهبَ إحدى عينيك، وقد ذهبت، وأنا أتخَوف ما قال، وأستخير الله.

فرأى باليمن جَورًا ظاهرًا، وعسفًا شديدًا، وسيرةً فِي الناس قبيحة، فقال لأصحابه: إنه لا يحل لنا المقامُ على ما نرى، ولا الصبرُ عليه.

وكتب إلى جماعة من الإباضية بالبصرة وغيرها، يشاورهم فِي الخُروج، فكتبوا إليه: إن استطعتَ ألا تقيم يومًا واحدًا فافعل، فإن المبادرة بالعمل الصالح أفضل، ولستَ تدرى متى يأتي أجلُك، ولله بقيةُ خيرٍ من عباده، يَبعثهم إذا شاء بنصرِ دينه، ويختصُّ بالشهادة منهم مَن يشاء.

وشخص إليه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي، وبلج بن عقبة المسعودي، فِي رجالٍ من الإباضية، فقدموا عليه حَضرموت، فحرَّضوه على الخروج، وأتوه بكتب أصحابه

(١) فِي «الأغانِي» (٢٣/ ١٦٢ ـ ١٦٣).

يوصونه ويوصون أصحابه: إذا خرجتم فلا تَغلُّوا، ولا تغدروا، واقتدوا بسلفِكم الصالحين، وسيروا بسيرتِهم، فقد علمتم أن الذى أخرجهم على السلطانِ العيبَ لأعمالهم.

فدعا عبدُ الله أصحابه فبايعوه، وقصدوا دار الإمارة، وعلى حَضرموت يومئذ إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكِندي؛ فأخذه، فحبسه يومًا ثم أطلقه، فأتى صنعاء، وأقام عبد الله بحضرموت، وكثر جَمعه، وسموه (طالب الحق).

وكتب إلى مَن كان من أصحابه بصنعاء: إني قادمٌ عليكم، ثم استخلف على حضرموت عبدَ الله بن سعيد الحضرمي، وتوجّه إلى صنعاء، وذلك فِي سنة تسعة عشر ومائة، فِي ألفين، والعاملُ على صنعاء يومئذ القاسم بن عمرو أخو يوسف بن عَمرو الثقفي، فجرت بينه وبين عبدِ الله بن يحيى حروبٌ ومناوشات، كانت الدولة فيها والنُصرة لعبد الله بن يحيى، فدخل إلى صنعاء، وجمعَ ما فيها من الخزائن والأموال؛ فأحرزها.

فلما استولى على بلادِ اليمنِ خطب، فحمد اللهَ وأثنى عليه، وصلّى على رسوله، وذكّر وحذّر، ثم قال: إنَّا ندعوكم أيها الناس إلى كتاب الله وسنة نبيه، وإجابة من دعا إليهما.

الإسلام ديننا، ومحمدٌ نبينا، والكعبة قبلتُنا، والقرآن إمامُنا، رضينا بالحلالِ حلالا، لا نبتغي به بدلا، ولا نشتري به ثمنا، وحرّمنا الحرام، ونبذناه وراءَ ظهورنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإلى الله المشتكى، وعليه المُعوَّل.

ثمَّ مِنْ قَولِه، فقَالَ: مَن زنى فهو كافرٌ، ومَن سرق فهو كافرٌ، ومَن شرب الخمر فهو كافرٌ، ومن شكَّ فِي أنه كافرٌ فهو كافرٌ ! ندعوكم إلى فرائضَ بيناتٍ، وآياتٍ مُحكمَاتٍ، وآثارٍ نقتدى بها، ونشهد أن الله صادقٌ فيما وَعد، وعدلٌ فيما حكم، وندعو إلى توحيد الرب، واليقين بالوعد والوعيد، وأداءِ الفرائض، والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، والوَلاية لأهل وَلاية الله، والعداوة لأعداء الله.

أيها الناس؛ إن من رحمةِ الله أنْ جعل فِي كلِّ فترة بقايا من أهلِ العلم، يدعون مَن ضل إلى الهُدى، ويصبرون على الألم فِي جنب الله، ويُقتلون على الحق فِي سالفِ الأيام، شهداء، فما نسيَهم ربُهم، وما كان ربُك نسيا.

أوصيكم بتقوى الله، وحُسن القيام على ما وُكِّلتم بالقيام عليه، وقابلوا الله حسنًا فِي أمره وزجره، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

قال: وأقام عبد الله بن يحيى بصنعاء أشهرًا، يُحسن السيرة فِي الناس، ويُلين جانبَه لهم، ويكفّ الأذى عنهم، وكثُر جَمعه، وأتته الشُراة من كل جانب.

فَصْلٌ

في توجيه طالب الحق أبا حمزة المُختار بن عوف إلى مكة أميرًا لأصحابه الشُراة،.. عن أبي حمزة وأصحابِه إلى المدينة:

فلما كان فِي وقت الحج وجه أبا حمزة المُختار بن عوف، وبلخ بن عُقبة، وأبرهة بن الصباح إلى مكة، والأمير عليهم أبو حمزة فِي ألف، وأمره أن يُقيم بمكة إذا صدَر الناس، ويوجه بلخًا إلى الشام، فأقبل المختار إلى مكة يومَ التروية، وعليها وعلى المدينة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك فِي خلافة مروان بن محمد بن مروان، وأمُ عبد الواحد بنت عبد الله بن خالد بن أسيد، فكرِه عبدُ الوحد قتالَهم، وفزِع الناس منهم حين رأوهم وقد طلعوا عليهم بعرَفة ومعهم أعلامٌ سُود فِي رؤوسِ الرماح.

وقالوا لهم: ما لكم وما حالكم؟

فأخبروهم بخلافِهم مروان وآل مروان والتبرئ منهم، فراسَلهم عبدُ الواحد فِي ألا يُعطلوا على الناس حَجتهم.

فقال أبو حمزة: نحنُ بحجنا أضَنُّ، وعليه أشحّ، فصالَحهم على أنهم جميعًا آمنون بعضهم من بعض، حتى ينفرَ الناس النفرَ الأخير، وأصبحوا من الغد، ووقفوا بحِيال عبد الواحد بعرفة، ودفعَ عبد الواحد بالناس.

فلما كانوا بمنى قيل لعبد الواحد: قد أخطأتَ فيهم، ولو حملت عليهم الحاجّ ما كانوا إلا أكْلة رأس.

وبعث عبدُ الواحد إلى أبي حمزة عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر، وعبيد الله بن عمر بن حفص العُمري، وربيعة بن عبد الرحمن، ورجالاً أمثالهم.

فلما قرُبوا من أبي حمزة أخذتهم مسالحُه[1]؛ فأُدخلوا على أبي حمزة، فوجدوه جالسًا، وعليه إزار قَطري، قد رَبطه بحوره فِي قفاه، فلما دَنوا، تقدّم إليه عبد الله بن الحسن العلوي، ومحمد بن عبد الله العثماني، فنسبَهما، فلما انتسبا له عبَس فِي وجوههما، وأظهر الكراهية لهما، ثم تقدم إليه بعدهما البكري والعُمري، فنسبهما، فانتسبا له، فهشّ إليهما وتبسّم فِي وجوههما، وقال: والله ما خرجنا إلا لنسير سيرة أبويكما !

فقال له عبد الله بن حسن: والله ما جئناك لتُفاخر بين آبائنا، ولكن الأمير بعثنا إليك برسالة، وهذا ربيعة يخبركها، فلما أخبره ربيعة، قال له: إن الأمير يخاف نقضَ العهد.

قال: معاذ الله أن ننقض العهد، أو نَخيس به ! والله لا أفعل ولو قُطعت رقبتي هذه، ولكن إلى أن تنقضي الهُدنة بيننا وبينكم.

فخرجوا من عنده، فأبلغوا عبدَ الواحد، فلما كان النَفْر الأخير، نفرَ عبد الواحد وخلّى مكة لأبي حمزة، فدخل بغير قتال، فقال بعضُ الشعراء يهجو عبد الواحد:

زار الحجيجَ عصابةٌ قد خالفوا ... ديــن الإله ففرّ عبد الواحدِ
تـرك الإمارة والمواســمَ هاربًا ... ومضى يُخبّط كالبعير الشاردِ
فلـــو أن والـــده تخيّر أمّـــه ... لصفت خلائقُه بعِرق الوالدِ !

ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة ودعا بالدّيوان، فضَرَب على الناس البَعثَ، وزادهم فِي العطاء عشرةً عشرة، واستعمل على الجيش عبدَ العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان؛ فخرجوا، فلقيتهم جُزُرٌ منحورة، فتشاءم الناسُ بها، فلما كانوا بالعقيق عَلق لواءُ عبد العزيز بسمُرة فانكسر الرُمح، فتشاءموا بذلك أيضًا.

ثم ساروا حتى نزلوا قديدًا، فنزل بها قومٌ معتزلون، ليسوا بأصحابِ حرب، وأكثرهم تجارٌ أغمار، قد خرجوا فِي المُصبّغات والثياب الناعمة واللهو، لا يظنون أن للخوارجِ شوكة، ولا يشكون فِي أنهم فِي أيديهم.

(١) الذين يحملون السلاح.

وقال رجلٌ منهم من قريش: لو شاء أهلُ الطائف لكفونا أمرَ هؤلاء، ولكنهم داهنوا فِي دين الله، والله لنظفرنّ، ولنسيرنّ إلى أهل الطائف فلنسبينّهم.

ثم قال: من يشتري منِّي من سبي أهل الطائف؟

قال أبو الفرج: فكان هذا الرجلُ أولَ المنهزمين ! فلما وصلَ المدينة، ودخل داره، أراد أن يقول لجاريته: أغلقي الباب، قال لها: (غاق ناق) دهشًا ! فلقّبه أهلُ المدينة بعد ذلك (غاق ناق)، ولم تفهم الجارية قوله، حتى أومأ إليها بيده، فأغلقت الباب.

قال: وكان عبد العزيز يَعرض الجيش بذي الحُليفة، فمرّ به أمية بن عتبة بن سعيد ابن العاص، فرحّب به وضحك إليه، ثم مرّ به عمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير فلم يكلمه، ولم يلتفت إليه، فقال له عِمران بن عبد الله بن مطيع - وكان ابن خالته، أمهما ابنتا عبد الله بن خالد بن أسيد -: سبحان الله ! مرّ بك شيخٌ من شيوخ قريش، فلم تنظر إليه ولم تُكلمه، ومرّ بك غلامٌ من بنى أمية فضحكت إليه ولاطفته ! أما والله لو التقى الجَمعان لعلمتَ أيّهما أصبر !

قال: فكان أمية بن عتبة أول من انهزم وركِب فرسَه ومضى، وقال لغلامه: يا مُجيب، أما والله لئن أحرزت هذه الأكلب من بني الشُراة، إنى لعاجز.

وأما عمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير فقاتل يومئذٍ، حتى قُتل، وكان يَحمل ويتمثل:

وَإِنِّي إِذَا ضَـنَّ الأَمِيْرُ بِإِذْنِـهِ … عَلَى الإِذْنِ مِنْ نَفْسِي إِذَا مَا شِئْتُ قَادِرُ

والشعر للأغر بن حماد اليشكري

قُلتُ: قَبلَ هَذَا البيتِ لعبدِ الله بنِ سبرةَ:

إِذَا شَالَتِ الجوْزَاءُ وَالنَّجْمُ طَالِعٌ … فَكُـلُّ مَخَاضَاتِ الفُـرَاتِ مَعَابِـرُ

قال أبو الفرج: فلما بلغ أبا حمزة إقبالُ أهل المدينة إليه، استخلف على مكة أبرهة بن الصَباح، وشَخصَ إليهم، وعلى مُقدمته بلخ بن عقبة.

فلما كان فِي الليلة التي وافاهم فِي صبيحتها، وأهل المدينة نزولٌ بقديد، قال لأصحابه:

إنكم ملاقوا القوم غدًا، وأميرهم فيما بلغني ابن عثمان، أولُ من خالف سنة الخلفاء وبدل سنة رسول الله صلى الله عليه وآله ! وقد وضحَ الصبحُ لذى عينين، فأكثروا ذكرَ الله وتلاوة القرآن، ووطّنوا أنفسكم على الموت.

وصبّحهم غداة الخميس لتسعٍ خلون من صفر سنة ثلاثين ومائة.

قال أبو الفرج: وقال عبد العزيز لغُلامه فِي تلك الليلة: ابغِنا علفًا.

قال: هو غالٍ.

فقال: ويحك ! البواكي علينا غدًا أغلى !

وأرسل أبو حمزة إليهم بلخ بن عقبة ليدعوهم، فأتاهم فِي ثلاثين راكبًا فذكّرهم الله، وسألهم أن يكفُوا عنهم، وقال لهم: خلوا سبيلنا إلى الشام، لنسيرَ إلى مَن ظلمكم، وجارَ فِي الحُكم عليكم، ولا تجعلوا حَدَّنا بكم، فإنّا لا نُريد قتالكم، فشتَمهم أهلُ المدينة، وقالوا: يا أعداء الله، أنحن نخليكم، ونترككم تُفسدون فِي الارض !

فقالت الخوارج: يا أعداءَ الله، أنحن نُفسد فِي الارض؟ إنما خرَجنا لنكفّ الفساد ونُقاتل مَن قاتلنا منكم، واستأثر بالفئ، فانظروا لأنفسِكم، واخلعوا مَن لم يجعل الله له طاعةً؛ فإنه لا طاعةَ لمخلوقٍ فِي معصية الخالق، فادخلوا فِي السِلم، وعاونوا أهل الحق.

فناداه عبد العزيز: ما تقول فِي عثمان؟

قال: قد برئ منه المسلمون قبلي، وأنا متبعٌ آثارهم، ومقتدٍ بهم.

قال: ارجع إلى أصحابِك فليس بيننا وبينكم إلا السَيف، فرجع إلى أبي حمزة فأخبره.

فقال: كفوا عنهم، ولا تقاتلُوهم حتى يبدأوكم بالقتال، فواقفوهم ولم يقاتلوهم، فرمَى رجلٌ من أهل المدينة بسهمٍ فِي عسكر أبي حمزة، فجرح منهم رجُلًا.

فقال أبو حمزة: شأنكم الآن، فقد حل قتالُهم، فحمَلوا عليهم، فثبت بعضُهم لبعض، وراية قريش مع إبراهيم بن عبد الله بن مُطيع، ثم انكشف أهلُ المدينة، فلم يَتبعوهم، وكان على عامّتهم صخر بن الجهم بن حذيفة العدوي، فكبّر وكبّر الناس معه، فقاتلوا

قليلاً، ثم انهزموا فلم يَبعدوا حتى كبّر ثانية، فثبت معه ناسٌ وقاتلوا، ثم انهزموا هزيمةً لم يبق بعدها منهم باقية.

فقال علي بن الحُصين لأبي حمزة: اتبع آثارَ القوم، أو دعني أتبعهم، فأقتلُ المُدبر، وأُذفّف على الجريح، فإن هؤلاء شرٌّ علينا من أهل الشام، ولو قد جاءك أهل الشام غدًا لرأيتَ من هؤلاء ما تكره.

قال: لا أفعل، ولا أخالفُ سيرة أسلافنا.

وأخذ جماعةً منهم أسرى، وأراد إطلاقَهم، فمنعه علي بن الحصين، وقال: إن لكلِّ زمانٍ سيرةً، وهؤلاء لم يُؤسروا وهم هُرّاب، وإنما أُسروا وهم يقاتلون، ولو قُتلوا فِي ذلك الوقت لم يَحرم قتلهم، فهكذا الآن، قتلهم حلال.

ودعا بهم، فكان إذا رأى رجُلًا من قريش قتله، وإذا رأى رجُلًا من الأنصار أطلقه.

قال أبو الفرج: وذلك لأن قريشًا كانوا أكثرَ الجيش، وبهم كانت الشوكة.

وأتى محمد بن عبد العزيز بن عمرو بن عثمان، فنسبَه، فقال: أنا رجلٌ من الانصار، فسأل الانصار فأقرت بذلك، فأطلقه، فلما ولّى قال: والله إني لأعلم أنه قُرشي، ولكن قد أطلقته.

قال: وقد بلغت قتلى قديد ألفين ومائتين وثلاثين رجُلًا، منهم من قريش أربعمائة وخمسون رجُلًا، ومن الأنصارِ ثمانون رجُلًا، ومن الموالي وسائر الناس ألفٌ وسبعمائة رجُلًا.

قال: وكان فِي قتلى قريش من بني أسد بن عبد العزى بن قصي أربعون رجُلًا.

قال: وقُتل يومئذ أميةُ بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، خرج مُقنعًا، فلم يكلِّم أحدًا، وقاتل حتَّى قُتل.

ودخلَ بلخ المدينةَ بغير حرب، فدخلوا فِي طاعته، وكفَّ عنهم.

ورجع أبو حمزة إلى مكةَ، وكان على شرطته أبو بكر بن عبد الله بن عمر من آل سُراقة،

فكان أهل المدينة يقولون: لعن الله السُّراقي، ولعن الله بلخًا العراقي!

وقالت نائحةُ المدينة:

ما للزمـــان ومـاليَه	أفنت قديـد رجاليهْ
فلأبكـينّ سـريرة	ولأبكـينّ علانيـهْ
ولأبكين عـلى قديدٍ	بسـوء ما أولانيـهْ
ولأعوينّ إذا خلوتُ	مع الكلاب العاويهْ!

قال أبو الفرج: ولما سار عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك إلى الشام، وخلف المدينة لبلخ، أقبل أبو حمزة من مكة حتى دخلها، فرَقى المنبر، فحمد الله وقال: يا أهل المدينة، سألناكم عن وُلاتكم هؤلاء، فأسأتم لعمري والله القولَ فيهم، وسألناكم هل يقتلون بالظن؟ فقلتم: نعم، وسألناكم: هل يستحلّون المالَ الحرام والفَرْج الحرام؟ فقلتم: نعم، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم، فانشدوا الله وحده أن يتنحّوا عنا وعنكم؛ ليختار المسلمون لأنفسهم، فقلتم: لا نفعل، فقلنا لكم: تعالَوا نحن وأنتم نلقاهم، فإن نَظهر نحن وأنتم يأتِ من يُقيم لنا كتابَ الله وسنة نبيه، ويعدلَ فِي أحكامكم، ويَحملكم على سنة نبيكم، فأبيتم، وقاتلتمونا، فقاتلناكم وقتلناكم، فأبعَدكم الله وأسحقكم يا أهل المدينة! مررتُ بكم فِي زمن الأحول هشام بن عبد الملك، وقد أصابتكم عاهةٌ فِي ثمارکم، فركبتم إليه تسألونه أن يَضع خَراجكم عنكم، فكتب بوضعه عن قومٍ من ذوي اليَسار منكم، فزاد الغنيُّ غنىً، والفقيرُ فقرًا.

وقلتم: جزاه الله خيرًا! فلا جزاه خيرًا ولا جزاكم!

قال أبو الفرج: فأما خطبتا أبي حمزة المشهورتان اللتان خَطب بهما فِي المدينة، فإن إحداهما قوله: تعلمون يا أهل المدينة، أنّا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرًا ولا بَطرًا، ولا عبثًا ولا لهوًا، ولا لدولة مُلكٍ نريد أن نَخوض فيه، ولا لثأرٍ قديم نِيل منا، ولكنّا لمّا رأينا مصابيحَ الحق قد أُطفئت، ومعالمَ العدل قد عُطّلت، وعُنّف القائمُ بالحق، وقُتل القائمُ بالقسط، ضاقت علينا الأرض بما رَحبت، وسمعنا داعيًا يدعو إلى طاعة الرحمن، وحُكم

القرآن، فأجبنا داعي الله، ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

فأقبلنا من قبائلَ شتى، النفرُ منا على البعيرِ الواحد، وعليه زادهم، يتعاوَرون لِحافًا واحدًا، قليلون، مستضعفون فِي الأرض، فآوانا الله وأيدنا بنصره، وأصبحنا - والله المحمود - من أهل فضلِه ونعمته.

ثم لقينا رجالَكم بقديد، فدعوناهم إلى طاعةِ الرحمن، وحُكم القرآن، فدَعونا إلى طاعة الشيطانِ، وحُكم مروان، فشتان - لعَمرُ الله - ما بين الغي والرُشد ! ثم أقبلوا يزفّون ويُهرعون، قد ضرب الشيطانُ فيهم بجِرانه، وصدّق عليهم إبليسُ ظنّه، وأقبل أنصارُ الله عصائبَ وكتائبَ، بكلِّ مهندٍ ذي رونق، فدارت رَحانا واستدارت رَحاهم، بضربٍ يرتاب منه المبطلون.

وأيم الله يا أهلَ المدينة، إن تَنصروا مروان وآل مروان فيسحتكم الله بعذابٍ من عنده أو بأيدينا، ويشفِ صدورَ قومٍ مؤمنين.

يا أهل المدينة، الناس منّا ونحنُ منهم، إلا مشركًا عابدَ وثن، أو كافرًا من أهل الكتاب، أو إمامًا جائرًا.

يا أهل المدينة، من يزعم أن الله تعالى كلّف نفسًا فوق طاقتها، وسألها عما لم يؤتها؛ فهو لنا حربٌ.

يا أهل المدينة، أخبروني عن ثمانية أسهمٍ فرضها الله فِي كتابه على القوي والضعيف، فجاء تاسعٌ ليس له منها سَهم، فأخذها جميعًا لنفسه، مُكابرًا محاربًا لربّه، ما تقولون فيه، وفيمن عاونه على فعله؟

يا أهل المدينة، بلغني أنكم تنتقصون أصحابي، قلتم: هم شبابٌ أحداث، وأعرابٌ جفاة، ويحكم يا أهل المدينة ! وهل كان أصحابُ رسول الله ﷺ إلا شبابًا أحداثًا !

نعم والله، إن أصحابي لشبابٌ مكتهلون فِي شبابهم، غضيضةٌ عن الشرّ أعينهم، ثقيلةٌ عن الباطل أقدامُهم، قد باعوا أنفسًا تموت غدًا بأنفسٍ لا تموت أبدًا، قد خلطوا كَلالهم

بكلاهم، وقيام ليلهم بصيام نهارِهم، محنيةً أصلابُهم على أجزاء القرآن، كلما مرّوا بآيةِ خوفٍ شهقوا خوفًا من النار، وكلما مروا بآيةِ رجاءٍ شهقوا شوقًا إلى الجنة، وإذا نظروا إلى السيوف وقد انتُضيت، وإلى الرِّماح وقد أُشرعت، وإلى السّهام وقد فُوِّقت، وأرعدت الكتيبةُ بصواعق الموت، استخفوا وعيدَها عند وعيد الله، وانغمسوا فيها.

فطوبى لهم وحُسن مآب !

فكم من عينٍ فِي منقار طائرٍ طالما بكى بها صاحبُها من خشية الله ! وكم من يدٍ قد أبينت عن ساعدِها، طالما اعتمد عليها صاحبُها راكعًا وساجدًا فِي طاعة الله !

أقول قولِي هذا وأستغفر الله، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وأما الخطبة الثانية، فقوله: يا أهل المدينة، مالِي رأيتُ رَسم الدين فيكم عافيًا، وآثارَه دارسة ! لا تقبلون عِظةً، ولا تفقهون من أهله حُجةً، قد بَليت فيكم جِدته، وانطمست عنكم سُنته، ترون معروفه منكَرًا، والمنكر من غيره معروفًا، فإذا انكشفت لكم العِبَر، وأُوضحت لكم النُذر، عميت عنها أبصارُكم، وصُمّت عنها آذانُكم، ساهين فِي غَمرة، لاهين فِي غفلة، تنبسط قلوبُكم للباطل إذا نُشر، وتنقبض عن الحق إذا ذُكر، مستوحشةً من العلم، مستأنسةً بالجهل، كلما وَردت عليها موعظةٌ زادتها عن الحق نفورًا، تَحملون قلوبًا فِي صدوركم كالحجارة أو أشد قسوةً من الحجارة، فهي لا تلينُ بكتاب الله، الذي لو أُنزل على جبلٍ لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشيه الله !

يا أهل المدينة، إنه لا تغني عنكم صحةُ أبدانكم إذا سَقمت قلوبُكم، قد جعل الله لكل شيءٍ سببًا، غالبًا عليه؛ لينقادَ إليه مُطيع أمره، فجعل القلوب غالبةً على الأبدان، فإذا مالت القلوب ميلاً كانت الأبدانُ لها تبعًا، وإن القلوب لا تلين لأهلها إلا بصحتها، ولا يُصححها إلا المعرفة بالله، وقوة النية، ونفاذ البصيرة، ولو استشعرت تقوى الله قلوبُكم، لاستَعملت فِي طاعة الله أبدانكم.

يا أهل المدينة، دارُكم دارُ الهجرة، ومثوى الرسول ﷺ، لما نَبَت به دارُه، وضاق به قرارُه، وآذاه الأعداءُ وتجهّمت له، فنقله الله إليكم، بل إلى قومٍ لعمري لم يكونوا أمثالكم،

متوازرين مع الحقّ على الباطل، مختارِين الآجلَ على العاجل، يصبرون للضراء؛ رجاءَ ثوابها، فنصروا الله وجاهَدوا فِي سبيله، وآزروا رسوله ﷺ، واتبعوا النور الذى أُنزل معه، وآثروا اللهَ على أنفسهم، ولو كان بهم خَصاصة؛ فقال الله تعالى لهم ولأمثالهم، ولِمَن اهتدى بهديهم: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وأنتم أبناؤهم ومَن بقي مِن خلفهم، تتركون أن تقتدوا بهم، أو تأخذوا بسنّتهم، عميُ القلوب، صُم الآذان، اتبعتم الهوى فأرداكم عن الهُدى، وأسهاكم عن مواعظِ القرآن، لا تزجركم فتنزجرون، ولا تعظكم فتتعظون، ولا تُوقظكم فتستيقظون، لبئسَ الخلَف أنتم من قومٍ مضوا قبلكم!

ما سرتم سيرَتهم، ولا حَفظتم وصيَّتهم، ولا احتذيتم مثالَهم، لو شُقت عنهم قبورهم فعُرضت عليهم أعمالُكم لعَجبوا كيف صُرف العذاب عنكم!

ألا ترون إلى خلافة الله، وإمامة المسلمين كيف أُضيعت؟ حتى تداولها بنو مروان، أهل بيت اللعنة، وطُرداء رسول الله، وقوم من الطُلقاء، ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار، ولا التابعين بإحسان[1]!

فأكلوا مال الله أكلاً، وتلعّبوا بدين الله لعبًا، واتخذوا عبادَ الله عبيدًا، يُورِّث الأكبرُ منهم ذلك الأصغر، فيالها أمة ما أضعفها وأضيعها!

ومضوا على ذلك من سيئ أعمالهم واستخفافهم بكتابِ الله، قد نبذوه وراءَ ظهورهم، فالعنوهم، لعنهم الله لعنًا، كما يستحقونه[2].

---

(١) هذا من افتراء الخوارج على دولة بني أمية، التي نشرت الإسلام شرقًا وغربًا في سنينَ معدودات. ولا يَعيب بعضَهم تأخرُ إسلامه؛ فالإسلام يجبُّ ما قبله.

(٢) قال ﷺ: «إن العبدَ إذا لعن شيئًا صعدت اللعنةُ إلى السماء فتُغلَق أبوابُ السماء دونها، ثم تهبط إلى الأرض فتُغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يمينًا وشمالاً؛ فإذا لم تجد مساغًا رجعت إلى الذي لعن، فإن كان لذلك أهلاً؛ وإلا رجعت إلى قائلها». أخرجه أبو داود (٤٩٠٥) وحسّنه الألباني.

ولقد ولي منهم عمرُ بن عبد العزيز؛ فاجتهد ولم يكَد، وعجزَ عن الذى أظهر، حتى مضى لسبيله.

قال: ولم يذكره بخير ولا بشَرٍ.

قال: وولي بعده يزيدُ بن الوليد بن عبد الملك، غلامٌ سفيهٌ ضعيف، غيرُ مأمون على شيءٍ من أمور المسلمين، لم يبلغ أشدَّه، ولم يؤنس رُشده، وقد قال الله عز وجل: ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ ، وأمرُ أمةِ محمد ﷺ وأحكامُها وفروجُها ودماؤها أعظم عند الله من مالِ اليتيم، وإن كان عند الله عظيمًا، غلامٌ مأبونٌ فِي فرجه وبطنه، يأكل الحرامَ، ويشرب الخمرَ، ويلبس بُردين قد حيكا من غير حلّهما، وصُرفت أثمانُهما فِي غير وجهها، بعد أن ضُربت فيهما الأبشار، وحُلقت فيهما الأشعار، استحلّ ما لم يُحله الله لعبدٍ صالح، ولا لنبيٍ مُرسل، فأجلس حبّابة عن يمينه، وسلامة عن يساره، يغنيانه بمزاميرِ الشيطان، ويشرب الخمرَ الصُراح، المحرّمة نصًا بعينها، حتى إذا أخذت منه مأخَذها، وخالطت روحَه ولَحمه ودَمه، وغلبت سورتُها على عقله، مزّق برديه، ثم التفت إليهما، فقال: أتأذنان لي بأن أطير ! قالا: نعم؛ فطِر إلى النار، طِر إلى لعنة الله، طِر إلى حيث لا يَردك الله !

ثم ذكر بني أمية وأعمالَهم، فقال: أصابوا إمرةً ضائعة، وقومًا طَغامًا جُهالاً، لا يقومون لله بحقٍّ، ولا يُفرقون بين الضلالة والهُدى، ويرون أن بنى أمية أربابٌ لهم، فملكوا الأمرَ، وتسلطوا فيه تسلط ربوبية، بطشهم بطشُ الجبابرة، يحكمون بالهوى، ويقتلون على الغضبِ ويأخذون بالظنّ، ويُعطلون الحدودَ بالشفاعات، ويؤمِّنون الخوَنة، ويعصون ذوي الأمانة، ويتناولون الصدقة من غير فرضِها، ويضعونها غيرَ موضِعها، فتلك الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله، فالعنوهم لعنهم الله !

قال: ثم ذكر شيعة آل أبي طالب، فقال: وأما إخواننا من الشيعة - وليسوا بإخواننا في الدين، لكننى سمعت الله يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ - فإنها فرقةٌ تظاهرت بكتابِ الله، وآثرت الفُرقة على الله، لا يرجعون إلى نظرٍ نافذٍ فِي القرآن، ولا عقلٍ بالغٍ فِي الفقه، ولا تفتيشَ عن حقيقة الثواب، قد قلدوا

أمورَهم أهواءهم، وجعلوا دينَهم العصبية لحزبٍ لزموه، وأطاعوه فِي جميعِ ما يقوله غيًا كان أو رَشدًا، ضلالة كان أو هُدىً، ينتظرون الدول فِي رَجعة الموتى، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة، ويدّعون علم الغيب لمخلوقين لا يعلم واحدهم ما فِي بيته، بل لا يَعلم ما ينطوي عليه ثوبُه، أو يحويه جسمُه، ينقمون المعاصي على أهلها، ويعملون بها، ولا يعلمون المخرج منها، جفاةٌ فِي دينهم، قليلةٌ عقولهم، قد قلّدوا أهل بيت من العربِ دينهم، وزعموا أن موالاتهم لهم تغنيهم عن الأعمال الصالحة، وتُنجيهم من عقاب الأعمال السيئة، قاتلهم الله أنى يؤفكون !

فأيُ الفِرَق يا أهل المدينة تتبعون، أم بأيّ مذاهبهم تقتدون ! ولقد بلغني مقالكم فِي أصحابي، وما عبتموه من حداثة أسنانهم، ويحكم ! وهل كان أصحابُ رسول الله ﷺ إلا أحداثًا !

نعم؛ إنهم لشبابٌ مكتهلون فِي شبابهم، غضيضةٌ عن الشرِّ أعينهم، ثقيلة فِي الباطل أرجلُهم، أنضاءُ عبادة، قد نظر الله إليهم فِي جَوف الليل، محنية أصلابُهم على أجزاء القرآن، كلما مرّ أحدهم بآيةٍ فيها ذِكر الجنة بكى شوقًا، وكلَّما مرّ بآيةٍ فيها ذِكرُ النار شهق خوفًا، كأن زفيرَ جهنم بين أذنيه، قد أكلت الأرضُ جباهَهم ورُكَبهم، ووصلوا كَلال ليلهم بكلال نهارهم، مصفرّة ألوانُهم، ناحلة أبدانُهم، من طول القيام، وكثرة الصيام، يوفون بعَهد الله، منجزون لوعد الله، قد سيّروا أنفسهم فِي طاعة الله، حتَّى إذا التقت الكتيبتان، وأبرقت سيوفُها، وفُوّقت سهامُها، وأُشرعت رماحُها، لقوا شُبا الأسنّة وزجاجَ السهام وظُبى السيوف، بنحورهم، ووجوههم، وصدورهم، فمضى الشابُ منهم قُدمًا، حتى اختلفت رجلاه على عُنق فرسه، واختضبت محاسنُ وجهه بالدماء، وعُفِّر جبينُه بالتراب والثرى، وانحطت عليه الطيرُ من السماء، ومزّقته سِباع الأرض، فكم من عينٍ فِي منقارِ طائر طالما بكى بها صاحبُها فِي جوف الليل من خوف الله ! وكم من وجهٍ رقيق، وجبين عتيق، قد فُلق بعُمُد الحديد.

ثم بكى فقال: آهٍ، آه على فراق الإخوان، رحمة الله تعالى على تلك الأبدان، اللهم أدخل أرواحَها الجِنان.

فَصْلٌ

فِي خروج أبي حمزة والشُراة من المدينة إلى مرْوان بن محمد، وقتلِ ابن عطية أمير جيش مروان لهم، ومرثية العبدي لأصحابه الشراة:

قال أبو الفرج: وسار أبو حمزة، وخلّف بالمدينة المفضّلَ الأزدي فِي جماعةٍ من أصحابه، وبعث مروان بن محمد عبد الملك بن عطية السعدي فِي أربعة آلاف من أهلِ الشام، فيهم فرسانُ عسكرِه ووجوههم لحرب أبي حمزة وعبد الله بن يحيى طالب الحق، وأمرَ ابن عطية بالجِد فِي المسير، وأعطى كلَّ رجلٍ من الجيش مائة دينار، وفرسًا عربيًّا، وبغلاً لِثقله، فخرج ابن عطية حتى إذا كان بالمعلى، وكان رجلٌ من أهل وادى القرى يقال له: العلاء ابن أفلح مولى ابن الغيث، يقول: لقيني فِي ذلك اليوم وأنا غلامٌ رجلٌ من أصحاب ابن عطية، فقال لي: ما اسمك يا غلام؟

فقلت: العلاء.

فقال: ابنُ مَنْ؟

قلت: ابن أفلح.

قال: أعربيٌّ أم مَولى؟

فقلت: مَولًى.

قال: مَولى من؟

قلت: مَولى ابن الغيث

قال: فأين نحن؟

قلت: بالمعلى.

قال: فأين نحن غدًا؟

قلت: بغالب.

قال: فما كلمني حتى أردفني خلفَه، ومضى حتى أدخلني على ابن عطية، وقال له: أيها الأمير، سلِ الغلامَ ما اسمه؟

فسأل وأنا أردُ عليه القول، فسُر بذلك، ووهب لي دراهم.

قال أبو الفرج: وقدِم أبو حمزة، وأمامه بلخ بن عقبة فِي ستمائة رجل، ليقاتل عبد الملك ابن عطية، فلقيه بوادي القرى لأيامٍ خلت من جُمادى الأولى سنة ثلاثين ومائة، فتواقفوا، ودعاهم بلخ إلى الكتاب والسنة، وذكَرَ بنى أمية وظلمَهم، فشتمه أهل الشام، وقالوا: يا أعداء الله، أنتم أحق بهذا ممن ذكرتم؟

فحمل بلخ وأصحابُه عليهم، وانكشفت طائفةٌ من أهلِ الشام، وثبت ابنُ عطية فِي عُصبةٍ صبروا معه، فناداهم: يا أهل الشام، يا أهل الحِفاظ، ناضِلوا عن دينِكم وأميركم، واصبروا وقاتِلوا قتالًا شديدًا، فقُتل بلخ وأكثرُ أصحابِه، وانحازت قطعةٌ من أصحابه نحو المائة إلى جبلٍ اعتصموا به، فقاتلهم ابن عطية ثلاثة أيام، فقتلَ منهم سبعين رجُلًا، ونجا منهم ثلاثون.

فرجعوا إلى أبي حمزة وهو بالمدينة، وقد اغتمّوا وجزعوا من ذلك الخبر، وقالوا: فررنا من الزّحف، فقال لهم أبو حمزة: لا تجزعوا فإنَّا لكم فئة، وإليّ تحيزتم.

وخرج أبو حمزة إلى مكةَ، فدعا عمرُ بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أهلَ المدينة إلى قتال المفضّل، خليفة أبي حمزة على المدينة، فلم يُجب إليه أحدٌ، لأن القتلَ قد كان أسرع فِي الناس، وخرج وجوه أهل البلدِ عنه، فاجتمع إلى عمرَ البربرُ والزنوجُ وأهلُ السوق، فقاتل بهم الشُراة، فقُتل المفضّل وعامة أصحابه، وهرب الباقون، فلم يبقَ منهم أحدٌ، فقال فِي ذلك سهيل مولى زينب بنت الحكم بن أبى العاص:

ليت مروان رآنا يومَ الاثنين عشيّهْ

إذ غسلنا العارَ عنا وانتضينا المشرفيهْ

قال: فلما قدم ابنُ عطية أتاه عمرُ بن عبد الرحمن، فقال له: أصلحك الله ! إني جمعت قَضّي وقضيضي، فقاتلتُ هؤلاء الشُراة؛ فلقَّبه أهل المدينة (قضّي وقضيضي) !

قال أبو الفرج: وأقام ابنُ عطية بالمدينة شهرًا، وأبو حمزة مقيمٌ بمكة، ثم توجه إليه، فقال علي بن الحصين العبدى لأبي حمزة: إني كنتُ أشرت عليك يوم قديد وقبله أن تقتل

الأسرى فلم تفعل، حتى قتلوا المفضّل وأصحابَنا المقيمين معه بالمدينة، وأنا أشير عليك الآن أن تضعَ السيفَ فِي أهل مكة، فأنهم كفرةٌ فجرة، ولو قد قدم ابنُ عطية لكانوا أشدّ عليك من أهل المدينة.

فقال: لا أرى ذلك، لأنهم قد دخلوا فِي الطاعة، وأقروا بالحُكم، ووجب لهم حق الوَلاية.

فقال: إنهم سيغدرون، فقال: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾.

وقدم ابنُ عطية مكة، فصيّر أصحابه فرقتين، ولقيَ الخوارجَ من وجهين، فكان هو بإزاء أبي حمزة فِي أسفل مكة، وجعل طائفةً أخرى بالأبطُح بإزاء أبرهة بن الصَباح، فقُتل أبرهة، كمَن له ابنُ هبّار وهو على خيلِ دمشق، فقتله عند بئر ميمون، والتقى ابن عطية بأبي حمزة، فخرج أهلُ مكة بأجمعهم مع ابن عطية، وتكاثر الناسُ على أبي حمزة، فقُتل على فمِ الشعب، وقُتلت معه امرأته وهي ترتجز:

أنا الجُديعاء وبنتُ الأعلمِ　　　من سأل عن اسمي فاسمي مريمِ

بِعتُ سواريّ بعَضبٍ مخذمِ(١)

وقُتلت الخوارج قتلًا ذريعًا، وأسرَ منهم أربعمائة، فقال لهم ابن عطية: ويلكم ! ما دعاكم إلى الخروج مع هذا؟

فقالوا: ضمِن لنا الكنة ! يريدون الجنة، فقتلهم كلَّهم، وصلَب أبا حمزة وأبرهة بن الصَباح على شِعب الخَيف، ودخل علي بن الحصين دارًا من دُور قريش، فأحدق أهل الشام بها فأحرقوها، فرمى بنفسه عليهم وقاتل، فأُسر، وقُتل، وصُلب مع أبى حمزة، فلم يزالوا مصلوبين حتى أفضى الأمر إلى بنى هاشم، فأُنزلوا فِي خلافة أبي العباس.

قال أبو الفرج: وذكر ابن الماجشون أن ابن عطية لما التقى بأبي حمزة، قال أبو حمزة

(١) مخذم: قاطع.

لأصحابه: لا تقاتلوهم حتى تختبروهم، فصاحوا فقالوا: يا أهل الشام، ما تقولون فِي القرآن؟ والعمل به؟

فقال ابن عطية: نضعه فِي جَوف الجوالق.

قالوا: فما تقولون فِي اليتيم؟

قالوا: نأكلُ مالَه، ونفجُر بأمِّه. فِي أشياء بلغني أنهم سُئلوا عنها[١]، فلما سمعوا كلامهم قاتلوهم حتى أمْسوا، فصاحت الشُراة: ويحك يا بن عطية ! إن الله عزوجل قد جعل الليلَ سكنًا، فاسكُن ونَسكن، فأبى، وقاتلهم حتى أفناهم.

قال: ولما خرج أبو حمزة من المدينة خطب، فقال: يا أهل المدينة، إنّا خارجون لحرب مروان، فإن نظهر عليه نَعدل فِي أحكامكم، ونَحملكم على سنة نبيكم، وإن يكن ما تمنيتم لنا، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾.

قال: وقد كان اتبعه على رأيه قومٌ من أهل المدينة وبايعوه، منهم بشكست النحوي، فلما جاءهم قتلُه[٢] وثب الناس على أصحابه فقتلوهم، وكان ممن قتلوه بشكست النحوي، طلبوه فرقى فِي درجة دار، فلحقوه فأنزلوه، وقتلوه وهو يصيحُ: يا عبادَ اللهِ، فيمَ تقتلونني!

فَقِيلَ فيهِ:

لَقَدْ كَانَ بَشْكسْتُ عبدُ العَزيزِ ... مِن أهلِ القِرَاءَةِ والمَسْجِدِ
فَبُعْداً لبَشْكسْتَ عبدِ العزيز ... وأمّا القرانُ فلايُبْعدِ

قال أبو الفرجِ: وحدَّثني بعضُ أصحابِنَا أنه رأى رجُلًا واقفًا على سطحٍ يرمي بالحجارة قومَ أبى حمزة بمكة، فقيل له: كيف تدري لمن ترمي مع اختلاط الناس؟ فقال: والله ما أبالي مَن رميت، إنما يقع حجري فِي شامٍ أو شارٍ، والله ما أبالي أيّهما قتلتُ !

---

(١) هذا من أكاذيبهم على أهل الشام.

(٢) أي: أباحمزة.

قال أبو الفرج: وخرج ابنُ عطية إلى الطائف، وأتى قتلُ أبي حمزة إلى عبد الله بن يحيى طالب الحق، وهو بصنعاء، فأقبل في أصحابه يريد حرب ابن عطية، فشخص ابن عطية إليه، والتقوا، فقُتل بين الفريقين جمعٌ كثير، وترجّل عبد الله بن يحيى في ألف رجل، فقاتلوا حتى قُتلوا كلُّهم، وقُتل عبد الله بن يحيى، وبعث ابنُ عطية رأسَه إلى مروان بن محمد، وقال أبو صخر الهذلي، يذكر ذلك:

قتلنا عبيدًا والذي يكتني الكنى ... أبا حمزة القاري المصلي اليمانيا
وأبرهة الكنديّ خاضت رماحُنا ... وبلخًا منحناه السيوفَ المواضيا
وما تركت أسيافنا منذ جُرّدت ... لمروانَ جبّارًا على الأرض عاديا

مطولة في رثاء الشُراة.

وقال عمرو بن الحصين العنبري - يرثي أبا حمزة وغيره من الشُراة - وهذه القصيدة من مختار شعر العرب:

هبّت قبيل تبلّج الفجرِ ... هندٌ تقول ودمعُها يجري
إذ أبصرت عيني وأدمعُها ... ينهلّ واكفُها على النّحرِ
أنّى اعتراك وكنتَ عهديَ لا ... سَرِب الدموع وكنتَ ذا صبر
أقذىً بعينك ما يفارقها ... أم عائرٌ أم ما لها تدري؟
أم ذكرُ إخوانٍ فُجعت بهم ... سلكوا سبيلهمُ على قَدَرِ
فأجبتها بل ذِكرُ مصرعهم ... لا غيرُه عبراتها يُمري
يا ربّ أسلكني سبيلَهمُ ... ذا العرش واشدد بالتّقى أزري
فتيةٍ صبروا نفوسَهمُ ... لِي... للمشرفيّة والقنا السُمرِ
تالله ألقى الدهر مثلَهمُ ... حتى أكون رهينة القبرِ
أوفي بذمتهم إذا عقدوا ... وأعفّ عند العُسر واليُسرِ
متأهّلون لكلّ صالحةٍ ... ناهون مَن لاقوا عن النكرِ
صُمتٌ إذا احتضروا مجالسَهم ... وُزُنٌ لقولِ خطيبهم وَقرِ
إلّا تجيئهمُ فإنهمُ ... رُجف القلوب بحضرة الذِكرِ

متـأوّهون كـأنّ جمـرَ غـضًا ... للخوف بين ضلوعهم يسري
تلقـاهمُ إلّا كـأنّهمُ ... لخشوعهم صدروا عن الحَشرِ
فهم كأنّ بهم جوى مرضٍ ... أو مسّهم طرَفٌ من السّحرِ
لا ليلهم ليلٌ فيلبسهم ... فيه غواشي النوم بالسّكرِ
إلّا كذا خِلسًا وآونة ... حذرَ العقاب وهم على ذُعرِ
كم من أخٍ لك قد فُجعت به ... قـوّام ليلته إلى الفجرِ
متأوّهٍ يتلو قوارعَ من ... آي القران مفزّع الصّدرِ
نُصبٌ تجيش بنات مهجته ... م الخوف جيشَ مشاشة القدرِ
ظمآن وقدة كلّ هاجرةٍ ... تـرّاك لذّته على قَذْرِ
تـرّاك ما تهوى النفوس إذا ... رُغب النفوس دعت إلى المزري
ومبرّأ من كل سيئةٍ ... عـفّ الهوى ذو مرّة شزرِ
والمصطلي بالحرب يُسعرها ... بغبارها وبفتيةٍ سُعر
يجتاحها بأقلّ ذي شطبٍ ... عضبِ المضارب قاطعِ البترِ
لا شيء يلقاه أسرّ له ... من طعنةٍ فِي ثَغرة النّحر
نجلاء منهرة تجيش بما ... كانت عواصي جوفه تجري
كخليلك المختار أزكِ به ... من مغتدٍ فِي الله أو مُسري
خوّاض غمرة كلّ متلفةٍ ... فِي الله تحت العثير الكدِرِ
تـرّاك ذي النّخوات مختضبًا ... بنجيعةٍ بالطّعنة الشّزرِ
وابن الحصين وهل له شَبهٌ ... فِي العُرف أنّى كان والنّكرِ
بشهامةٍ لم تحن أضلعه ... لـذوي أخوّته على غِمرِ
طلق اللسان بكلّ محكمةٍ ... رأب صَدع العظم ذي الكسرِ
لم ينفك فِي جوفه حُزنٌ ... تغلي حرارته وتستشري
ترقى وآونة يخفّضها ... بتنفّس الصُّعداء والزّفرِ
ومخالطي بلخٍ وخالصتي ... سمُّ العدوّ وجابر الكسرِ

نكـلُ الخـصوم إذا هـمُ شَـغبوا وسـداد ثلمـة عَـورة الثّغـرِ
والخـائض الغمـراتِ يخطـر في وسـط الأعـادي أيّـما خطـرِ
بمـشطّب أو غـير ذي شـطبٍ هـام العـدا بذُبابـه يفـري
وأخيـك أبرهـة الهجّـان أخـي الحـراب العـوّان ملقّـح الجمـرِ
بمرشّـةٍ فـرع تـثجّ دمًـا ثـجّ الغـوي سُـلافة الخمـرِ
والـضارب الأخـدود لـيس لها أحـدٌ ينهنهـا عـن الـسّحْرِ
ووليّ حكمهـم فُجعـت بـه عمـرٌ فـوا كبـدي عـلى عمـرِ!
قـوّال محكمـة وذي فهـمٍ عـفّ الهـوى متثبّـت الأمـرِ
ومـسيّب فـاذكر وصـيّته لا تـنسَ إمّـا كنـتَ ذا ذِكـرِ
فكلاهمـا قـد كـان محتـسبًا لله ذا تقـوى وذا بـرٍّ
في مخبتـين ولم أسـمّهمُ كـانوا يـدي وأولـو نـصري
وهـمُ مـساعرُ في الـوغى رُجـحٌ وخيـارُ مـن يمـشي عـلى العَفـرِ
حتـى وفـوا لله حيـث لقـوا بعهـودٍ لا كـذبٍ ولا غُـدُرِ
فتخالـسوا مهجـاتِ أنفـسهم وعِـداتهم بقواضـبٍ بُـترِ
وأسـنّة أثبـتن في لُـدُنٍ خطّيـة بـأكفّهم زُهـرِ
تحـتَ العَجـاج وفـوقهم خِـرقٌ يخفقـن مـن سـودٍ ومـن حُمـرِ
فتفرّجـت عـنهم كـأنهمُ لم يُغمـضوا عينًـا عـلى وَتـرِ
فـشعارهم نـيرانُ حـربهم مـا بـين أعـلى الـشّحر فـالحجرِ
صرعـى فخاويـةٌ بيـوتهم وخوامـعٌ بلحـومهم تفـري

فصلٌ

فِي قتل الخوارج ابنَ عطية الأمير المذكور وأصحابه:

قال أبو الفرج: وأقام ابنُ عطية بحضرموت بعد ظفَره بالخوارج، حتَّى أتاه كتاب مروان يأمره بالتعجيلِ إلى مكَّةَ، فيحجّ بالناس، فشخص إلى مكة متعجلاً مخفًا فِي تسعة عشرة فارسًا، وندم مروان على ما كتبه، وقال: قتلتُ ابن عطية، وسوف يخرج متعجلاً مخفًا من اليمن، ليلحق الحجّ، فيقتله الخوارج، فكان كما قال، صادفه فِي طريقه جماعة متلففة.

فمَن كان منهم إباضيًا قال: ما تنتظر أن ندرك ثأر إخواننا؟

ومَن لم يكن منهم إباضيًا ظن أنه إباضيٌ منهزم من ابن عطية، فصمد له سعيد وجُمانة ابنا الأخنس الكنديان فِي جماعة من قومهما، وكانوا على رأي الخوارج، فعطفَ ابن عطية على سعيدٍ فضربه بالسيف، وطعنه جُمانة فصرعه، فنزل إليه سعيد فقعد على صدره، فقال له ابن عطية: هل لك فِي أن تكون أكرم العرب أسيرًا؟

فقال سعيد: يا عدو الله، أتظن الله يُهملك؟ أوَ تطمع فِي الحياة، وقد قتلت طالب الحق وأبا حمزة وبلخًا وأبرهة؟! فذبحه وقُتل أصحابه أجمعون.

فهذا يسيرٌ مما هو معلوم، من حال هذه الطائفة فِي خشونتها فِي الدين، وهي فِي أصل العقيدة على ضلالٍ مبين، نسأل الله الحماية والهداية.

فَصْلٌ

وقد ذكرنا من خرج منهم بنفسه، ومن ذلك ما ذكره أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني فِي كتاب «مقاتل الطالبيين».

قال[(١)] - بعد أسانيد ذكرها مختلفة متفرقة، تجتمع على معنى واحد نحن ذاكروه -: إن نفرًا من الخوارج اجتمعوا بمكة فتذاكروا أمرَ المسلمين، فعابوهم وعابوا أعمالهم عليهم، وذكروا أهلَ النهروان فترحّموا عليهم، وقال بعضُهم لبعض: لو أنّا شَرينا أنفسنا لله عز وجل فأتينا أئمة الضلال، وطلبنا غِرّتهم، وأرحنا منهم العبادَ والبلادَ، وثأرنا بإخواننا الشهداء بالنهروان! فتعاقَدوا عند انقضاء الحج، فقال عبد الرحمن بن مُلجم: أنا أكفيكم عليًا، وقال واحد: أنا أكفيكم معاويةَ، وقال الثالث: أنا أكفيكم عمرَو بن العاص، فتعاقدوا وتواثقوا على الوفاء، وألا يَنكل أحدٌ منهم عن صاحبة الذى يتوجه إليه، ولا عن قتله، واتّعدوا لشهرِ رمضان، فِي الليلة التي قَتل فيها ابن ملجم عليًا.

قال أبو الفرج: قال أبو مِخنفٍ: قال أبو زهير العبسي: الرجلان الآخران: البرك بن عبد الله التميمي، وهو صاحبُ معاوية، وعمرو بن بكر التميمي، وهو صاحبُ عمرو بن العاص.

قال: فأما صاحبُ معاوية فإنه قصده، فلما وقعت عينُه عليه ضرَبه، فوقعت ضربتُه على إليته، وأُخذ، فجاء الطبيبُ إليه، فنظر إلى الضَربة، فقال: إن السيفَ مسمومٌ، فاختر إمّا أن أحمي لك حديدة فأجعلها فِي الضربة، وإما أن أسقيك دواء فتبرأ وينقطع نسلُك؟

فقال: أما النار فلا أطيقها، وأما النسل ففي يزيدَ وعبدِ الله ما تقرّ عيني، وحسبي بهما.

فسقاة الدواءَ فعوفي، وعالج جُرحه حتى التأم، ولم يُولد له بعد ذلك.

وقال البرك بن عبد الله: إن لك عندي بشارة، قال: وما هي؟

---

(١) (١ / ٧).

فأخبره خبرَ صاحبه، وقال له: إن عليًا يُقتل فِي هذه الليلة، فاحتبسني عندك، فإن قُتل فأنت ولي ما تراه فِي أمري، وإن لم يُقتل أعطيتك العهودَ والمواثيق أن أمضيَ إليه فأقتله، ثم أعود إليك فأضعُ يدي فِي يدك، حتى تحكم فِيّ بما ترى.

فحبسه عنده، فلما أتى الخبرُ أن عليًا قُتل فِي تلك الليلة خلّى سبيله.

هذه رواية إسماعيل بن راشد.

وقال غيره من الرواة: بل قتله من وقتِه.

وأما صاحب عمرو بن العاص، فإنه وافاه فِي تلكَ الليلة، وقد وَجد علةً فأخذ دواءً، واستخلف رجُلًا يُصلي بالناس، يُقال له خارجة بن حنيفة، أحد بنى عامر بن لؤي، فخرجَ للصلاة، فشد عمرو بن بكر فضربَه بالسيف فأثبته، وأُخذ الرجلُ، فأُتي به عمرو بن العاص فقتله، ودخل من غدٍ إلى خارجة وهو يجود بنفسه، فقال: أما والله يا أبا عبد الله ما أراد غيرك.

قال عمرو: ولكنّ الله أراد خارجة !

وأما ابنُ ملجم فإنه قتل عليًا ﷺ تلك الليلة.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا بِسَنَدِهِ أَنَّ قتلَهُ فِي شَهرِ رَمَضَانَ ليلة تسع عشرة منه، ومات فِي أحد وعشرين ليلة من رَمَضَانَ، وفي لفظ عنده: وقُتل يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من شَهرِ رَمَضَانَ.

قتلهُ عبد الرحمن بن يحيى بن عمرو بن ملجم المرادي، ولم يختلفوا فِي أنها سنة أربعين من الهجرة، وقد أطال ابن أبي الدنيا فِي قصة قتلِهِ ﷺ، وإنما الغرض منها ما يتعلق بالخوارج، وخشونةِ دينهم، وعدم حُرمة المسلمين عندهم، واتخاذهم ذلك دينًا يتقربون به إلى الله تعالى، ويرجون به الجنة.

قَالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا بِسَنَدِهِ قَالَ أَبُو طَلْقٍ عَلِيُّ بْنُ حَنْظَلَةَ بْنِ نُعَيْمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مُلْجَم عَلِيًا ﷺ، قَالَ: احْبِسُوهُ فَإِنَّمَا هُوَ جُرْحٌ، فَإِنْ بَرِئتُ امْتَثَلْتُ، أَوْ عَفَوْتُ، وَإِنْ هَلَكْتُ قَتَلْتُمُوهُ؛ فَعَجِلَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ - وَكَانَتْ أُمُّ كُلْثُوم بِنْتُ عَلِيٍّ ﷺ تَحْتَهُ -

فَقَطَعَ يَدَيْهِ، وَفَقَأَ عَيْنَيْهِ، وقال: وَقَطَعَ رِجْلَيْهِ وَجَدَعَهُ.

وَقَالَ لَهُ: هَاتِ لِسَانَكَ، فَقَالَ: إِذْ صَنَعْتَ مَا صَنَعْتَ فدعْ لِسَانِي أَذْكُر اللهَ عزَّ وجلَّ بِهِ، وَإِنِّي لا أُخْرِجُهُ إِليكَ أَبَدًا، فَشَقَّ لِحْيَتَهُ وَأخرَجَ لِسَانَهُ مِنْ بَيْنِ لِحْيَيْهِ فَقَطَعَهُ، وَحَمَّرَ مِسْمَارًا لِيَفْقَأَ بِهِ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّكَ تُكحلُ عمَّكَ بِمَلْمُولٍ مُمض[1]، فَجَاءَتْ أُمُّ كُلْثُوم تَبْكِي وَتَقُولُ: يَا خَبِيثُ، وَاللهِ مَا ضَرَّتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: يَا أُمَّ كُلْثُوم تَبْكِينَ أو لا تَبْكِينَ أمَا وَاللهِ مَا خَانَنِي سَيْفِي، وَمَا ضَعُفَ سَاعِدِي.

وفي لفظ له: أن ابن جعفر لما كحّل عينيه بمسمارٍ من حديدٍ، فجعل ابن ملجم يقول لابن جعفر: إنك لتكحل عمك بمملولٍ مُمض، ثم أمر فعُولج لسانه ليُقطع؛ فجزع، فقيل له: لِمَ لم تكن تجزع عند قطع آرابك؟ فعلنا بك يا عدو الله ما فعلنا، قطعنا يديك ورجليك وسمَلنا عينيك فلم تجزع، فلما أردنا قطع لسانك جزعت؟

قال: لا والله ما أجزعُ من قطع لساني، ولكني أجزع أن أكون في الدنيا فُواقًا لا أذكر الله فيه، فقطعوا لسانه ثم حرَقوه بالنار وهوَّم.

فقال ابن حطان عمران في ذلك:

يَا ضَرْبَةً مِـنْ تَقِـيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا ... إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانًا
إِنِّي لَأَذْكُرُهُ يَوْمًـا فَأَحْسَبُـهُ ... أَوْفَى الْبَرِيَّةِ عِنْـدَ اللهِ مِيزَانَـا

قَالَ: وزَادَ غَيرهُ:

يا نفسُ هل لك في دارٍ ترين بها ... محمـدًا وأبـا بكرٍ وعُثمانَـا

فقالت له الحرورية: تذكر هذا مع هؤلاء؟

فقال: لا تعجلوا.

ثم قال:

---

(١) أي: بمِكحالٍ حارٍ مُحرِق.

الخيرُ فِي رِفـق الأخيار كلهـــم أعني ابنَ صفوان لا أعني ابن عفانا!

قال ابن أبي الدنيا: حدثنا سعيد بن يحيى الأموي، قال: أنشدني أبي لابن حطان:

وَلَمْ أَرَ مَهْــرًا سَــاقَهُ ذُو سَــمَاحَةٍ كَمَهْـرِ قَطَـامَ بَـيْنَ غَـيْرِ مُعْجَـمِ

ثَلَاثَــةُ آلَافٍ وَعَبْــدٌ وَقَيْنَــةٌ وَضَرْبُ عَـلِيٍّ بِالْحُـسَامِ الْمُـسَمَّمِ

فَلَا مَهْرَ أَغْلَى مِــنْ عَلِيٍّ وَإِنْ غَــلَا وَلَا فَتْكَ إِلَّا دُونَ فَتْكِ ابْنِ مُلْجَمِ

وجعله صاحبُ الأغانِي لابنِ ميَّاسٍ الفزَارِي، وكانَ يرَى رَأي الخوارجِ.

قال أبو الفرج: وقال عبد الله بن العباس بن عبد المطلب:

وَهَــزَّ عَــلِيٌّ بــالعِراقَيْنِ لِحْيَــةً مُصِيبَتُها جَلَّـتْ عَـلى كُـلِّ مُـسْلِمِ

وقــالَ سَــيأْتيها مِــنَ الله نــازِلٌ وَيَخْـضِبُها أَشْـقى البَرِيَّـةِ بالـدَّمِ

فَعاجلَــهُ بِالــسَّيْفِ شُــلَّتْ يَمينُــهُ لِشُؤْمِ قَطامِ عِنْدَ ذاكَ ابـنُ مُلْجِـمِ

فَيا ضَرْبَةً مِـنْ خـاسِرٍ ضَـلَّ سَـعْيُهُ تَبَــوَّأ مِنهــا مَقْعَــدًا فِي جَهَــنَّمِ

فقــاز أمــيرُ المــؤمنين بحظِّــه وإن طرقت إحدى الليالي بمُعظمِ

ألا إنـــما الدنيــا بــلاءٌ وفتنــة حلاوتها شِيبــت بصــابٍ وعلقمِ

وعند ابن أبي الدنيا بسنده عن جابر الجُعفي قال: حدثني من نظر إلى ابن مُلجم حين قُدّم إلى علي ﷺ بعدما ضربه؛ فإذا رجل أسمر، حَسن الوجه، أفلج، شعرُه مع شحمة أذنيه، مُسجّد - يعني فِي وجهه أثرُ السجود -.

وعنده: أنَّ عليًّا ﷺ لما أُخبر بقدوم ابن مُلجم تغيّر وجهه، فلما رآه عليٌّ قال:

أُرِيدُ حَيَاتَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي... عَذِيركَ من خَلِيلكَ منْ مُرَادِ

وكان ﷺ لما رآه أنشد هذا البيت، وكان يَعلم أنه قاتله، ولما قيل له: ألا تقتله؟ قَالَ: كَيفَ أقتلُ قاتِلِي؟

قال أبو الفرج: حدَّثني محمد بن عيسى العجلى بإسناد ذكره فِي كتابه مقاتل الطالبين، إلى زهير العبسي، قال: كان ابنُ مُلجم من مراد، وعِداده فِي كندة، فأقبل حتى قدم الكوفة، فلقيَ بها أصحابه وكتم أمرَه، وطوى عنهم ما تعاقد هو وأصحابُه عليه بمكة من قتل

أمراء المسلمين، مخافة أن ينتشرَ، وزار رجُلًا من أصحابه ذات يوم من بني تيم الرباب، فصادف عنده قَطام بنت الأخضر، من بني تيم الرباب، وكان علي ﷺ قتل أباها بالنهروان، وكانت من أجمل نساء أهل زمانها، فلما رآها شُغف بها، واشتد إعجابه؛ فخطبها، فقالت له: ما الذي تسمِّي لي من الصَداق؟ فقال: احتكمي ما بدالك، فقالت: أحتكم عليك ثلاثة آلاف دِرهم ووصيفًا وخادمًا، وأن تقتل عليَّ بن أبى طالب !

فقال لها: لك جميع ما سألتِ، وأما قتل عليّ فأني لي بذلك !

قالت: تلتمس غرَّته، فإن أنت قتلته شَفيت نفسي، وهنأك العيش معي، وإن قُتلتَ فما عند الله خير لك من الدنيا ! فقال لها: أما والله ما أقدمني هذا المِصر، وقد كنتُ هاربًا منه لا آمنُ مع أهله، إلا ما سألتِني من قتل علي.

قالت له: فأنا طالبة لك بعض مَن يساعدك على هذا ويُقويك، ثم بعثت إلى وردان ابن مجالد، أحد بنى تيم الرباب، فخبّرته الخبر، وسألته معاونة ابن مُلجم، فتحمّل لها ذلك، وخرج ابن مُلجم، فأتى رجُلًا من أشجع، يقال له شبيب بن بحيرة، وقال له: يا شبيب، هل لك فِي شرفِ الدنيا والآخرة؟

قال: وما ذاك؟.

قال: تساعدني على قتل علي بن أبي طالبٍ.

وكان شبيب على رأي الخوارج، فقال له: هبلتك الهَبول ! لقد جئتَ شيئًا إدا ! وكيف تقدر ويحك على ذلك !

قال ابن مُلجم: نكمن له فِي المسجد الأعظم، فإذا خرج لصلاةِ الفجر فتكنا به، وشفينا أنفسنا منه، وأدركنا ثأرنا.

فلم يزل به حتى أجابه.

فأقبلَ بِهِ حتَّى دَخلَا علَى قَطام، وَهِيَ معتكفةٌ فِي المَسجدِ الأَعظمِ، قد ضُربتْ لهَا قُبةٌ، فقالَا لهَا: قدْ أجمعَ رأينَا عَلى قتلِ هذَا الرَّجلِ، قالت لهما: فإذا أردتما ذلك فالقياني فِي هذا الموضع.

فانصرفا من عندها، فلبثا أيامًا ثم أتياها، ومعهما وردان بن مجالد، الذى كلفته مساعدة ابن مُلجم، وذلك فِي ليلة الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربعين.

قَالَ أَبُو الفَرجِ: وَهَكَذَا فِي رِوَايةِ أبي مخنفٍ، وفِي حديثِ أبي عبدِ الرَّحمنِ السُّلمِي: أنَّها كانتْ ليلةَ سبعَ عشرةَ من شَهرِ رمضَانَ، فقالَ لها ابنُ ملجمٍ: هذه الليلة هي التي وعدتُ فيهَا صَاحِبيّ، وَوعدَانِي أن يقتلَ كُلُّ واحدٍ منَّا صَاحِبهُ الَّذي يتوجَّه إليهِ.

ويقالُ: إنَّها ليلةُ إحدَى وعشرِينَ مِن رمضَانَ، وَرِوَاية تسعَ عشرَ أَكْثَر.

قلتُ: وتم تواعدهم ذلك بمكة - هو، والبرك، وعمرو - على هذه الليلة بعينها، لأنهم اعتقدوا قتل ولاة المسلمين قُربة يتقربون بها إلى الله تعالى، وأن أحرى القُربات بالقبول ما يُتقرب به فِي الأوقات الفاضلة الشريفة المباركة !

فانظر إلى ما يفعل الشيطانُ بهم، ويزيّنه فِي قلوبهم، وأنهم بذلك مهتدون؛ وذلك لاستحواذ الشيطان على قلوبهم.

فلما كانت ليلة الجمعة تاسعة عشرة من شهر رمضان، ليلةً شريفة يُرجى أن تكون ليلة القدر - وإن كان الصحيح عنه ﷺ فِي آخر أمره قال: (التمسوها فِي العشر الأواخر)[(١)] - عيّنوها لفعل ما يعتقدونه قُربة إلى الله تعالى، فليعجب المتعجب من العقائد، كيف تسرى فِي القلُوبِ، وتغلبَ على العقُولِ، حتَّى يرتكبَ النَّاس عظَائِمَ الأمورِ، وأهوَال الخطُوب لأَجلِهَا !

قال أبو الفرج: فدعت لهم بحَرير فعَصبت به صدورَهم، وتقلّدوا سيوفَهم، ومَضوا فجلسوا مقابل السُدة التي كان يخرج منها عليٌ عليه السلام[(٢)] إلى الصلاة.

قالَ: وَقَد كَانَ ابنُ مُلجمٍ - كَما ذكرَ ابنُ أَبِي الدُّنيا أيضًا فِي مقتلِ عليٍّ رضي الله عنه - أتى

(١) أخرجه البخاري (١٩٢٨) ومسلم (٢٠٦٩).

(٢) الشيعة - والأصفهاني منهم - يخصصون عليًا بالسلام مِن دون الخلفاء الراشدين غيرَه. والصواب عدم التخصيص.

الأشعث بن قيس فِي هذه الليلة، فخلا به فِي بعض نواحي المسجد، ومرَّ بِهِمَا حِجرُ بنُ عديٍّ، فسمعَ الأشعث وهُو يقولُ لابنِ مُلجمٍ: النَّجَاءَ النَّجَاءَ بِحَاجتِكَ ! فضَحكَ الصُّبح، فقَالَ لهُ حِجرٌ: قَتلتَهُ يَا أعورُ ! وخرجَ مُبَادرًا إلى عليٍّ، وقد سبقَهُ ابنُ مُلجمٍ فضرَبَهُ، فأقبلَ حِجرٌ والنَّاسُ يقُولونَ: قُتلَ أميرُ المُؤمِنِينَ.

قال أبو الفرج: وسبب انحراف الأشعث أخبارٌ يطولُ عدُّهَا، مِنها حَدِيثٌ حدثنيه محمدُ بن الحسين الأشنانِي، قالَ: حدثني إسماعيل بن موسى: قال: حدثنا علي بن مسهر، عن الأجلح، عن موسى بن أبي النعمان قال: جاء الأشعث إلى عليّ يستأذن عليه، فردّه قُنبر[1]، فأدمى الأشعثُ أنفَه، فخرج علي وهو يقول: مالي ولك يا أشعث ! أما والله لو بعبدِ ثقيف تمرست لاقشعرتْ شُعيراتك !

قيل: يا أمير المؤمنين، ومَن عبدُ ثقيف؟

قال: غلامٌ لهم لا يُبقى أهل بيت من العرب إلا أدخلهم ذلًا.

قيل: كم يلي - أو كم يمكث؟

قال: عشرين إن بلَغها.

قلت:..[2] الخوارج يَعيثون في الأرض بالفسادِ وسفكِ الدماء، ونهبِ الأموال وإخافةِ المسلمين، وقتلِ ولاتهم، يُجيشون الجيوشَ، ويُخيفون الوحوش، كما سنذكر خروجَهم مرتين، كما ذكرنا جملةً مُجملين على عادة المتقدمين للتنبيه والتمرين، وليحصل بذلك زياداتُ بيان بين تلك الروايات.

فمنهم من هو على مذهبهم حقيقةً، ومنهم من يُشابه قطاع الطريق، ويتسمى بسيرتهم يتصنع بها ليُميل بذلك العامة والغوغاء من الناس إليه، من سُفهاء الأحلام وطَغام الأنام، ومع ذلك من قوله، وقد يتظاهر بالفسوقِ والفساد فِي الأرض.

---

(١) مولى علي ﷺ.

(٢) كلمة غير واضحة.

فممن انتهى أمرُه منهم إلى ذلك: الوليد بن طريف، وسيأتي ذكره في أيام الرشيد بن المهدي، فأشخصَ الرشيدُ إليه يزيدَ بن مزيد الشيباني فقتله، وحمل رأسَه إلى الرشيد، وسيأتي خبرُه إن شاء الله تعالى مُفصلًا آخر الكتاب.

وقالت أخته ترثاه، وتذكر أنه كان من أهل التُقى والدِّين، على قاعدة شعراء الخوارج، ولم يكن الوليد كما زَعمتْ:

أيا شجرَ الخابور مالك مُورقًا ... كأنك لم تجزعْ على ابن طريفِ
فتىً لا يحب الزادَ إلا من التُقى ... ولا المال إلا من قنًا وسيوفِ
ولا الذخر إلا كلُ جرداءَ شطبةٍ ... وكلُ رقيق الشَفرتين خفيفِ
فقدناك فقدانَ الربيع وليتنا ... فديناك من ساداتنا بألوفِ

وقال مسلم بن الوليد يمدح يزيد بن مزيد، ويذكر قتلَه الوليد بن طَريف:

والمارقُ ابن طريف قد دلفتَ له ... بعارضٍ للمنايا مُسبلٍ هَطلِ

إلى أن قال:

فاسلمْ يزيدُ فما في الملك من أودٍ ... إذا سَلمتَ ولا في الدِّين من خَللِ

فكان قصده هو وأمثاله من الخوارج؛ إخافة السبيل، والفساد في الأرض، واكتساب المال من غير حلّه، بالتسمي بجنس هذه الدعوة، كما سمى ابنُ تومرت[1] أصحابه أهلَ التوحيد ! حتى عثا في الأرضِ بالفسادِ، وأمال بذلك قلوبَ العوام والشباب، وحصَل من الفساد في البرِ والبلاد ما لا يَعلمه إلا ربُ العباد، وسيأتي خبره، وذكرنا من سيرته ما يبين عن مذهبِه وأمثاله إن شاء الله تعالى، وبالله التوفيق[2].

---

(١) محمد بن عبد الله، مهدي مَن يُسمّون بالدولة الموحدية، كان أشعريَّ الاعتقاد؛ دعا أهل المغرب إلى نِحلته الفاسدة، مستعملاً معهم القوّة والوحشية. هلك عام (٥٢٤ هـ).

(٢) في حاشية الأصل: «بلغ مقابلة على أصله. فصح على يد مؤلفه عفا الله عنه».

باب
في ذكر أخبارهم ونشر أحوالهم على التفصيل، كما وعدنا بذلك قريبًا

وقد كنتُ سوّدت بعضَ هذا الكتاب في رحلتي للعراق بالبصرة المحروسة، ثم عنَّ لِي تركَه، وبعد ذلك سألني بعضُ الإخوان إثباته وتتميمه؛ طلبًا منه للاعتبارِ، وإشرافًا على ما سلف لهم من الأخبار؛ فأجبته إلى ذلك رجاء الثوابِ، من الملك الوهاب؛ لأن بيان قبيح فعل أهل البدع يزعُ اللبيب عن مذهبهم وغُباره، ويحضّه على اقتفاء مذهب السلف وآثاره.

ولأنَّ ذلك كما قال علي ﷺ فيما يروى عنه أنه قال: (بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ، وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا تأويلُ كِتَابِ اللهِ، ويُتَوَلَّى فِيهَا رِجَالٌ على غيرِ دينِ الله، فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مزْجِهِ بالحقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرتَادين، والْحَقُّ لو أَنَّهُ خَلَصَ لانْقَطَعَتْ عَنهُ أَلسنُ الْمُعَانِدِينَ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ، فَهُنَاكَ يَسْتَولي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنجو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى)[1]، واللهُ الْمُوفِّقُ الهَادِي إلى سَوَاءِ السَّبيلِ.

(١) نهج البلاغة (الخطبة ٤٩).

فصلٌ

فِي سَببِ خرُوجِ الخَوَارِجِ ومحاصرتِهم عثمان ﷺ، ومبايعتهم لعبد الله بن وهب، واسم محَلِّ أوَّلِ خرُوجِهِمْ:

قَالَ أبُو العبَّاسِ محمد بن يزيد الأزدي الداليُّ(١): إن سبب خروج الخوارج ما كان بين علي ومعاوية ﷺ أيامَ صفين من التحكيم، وذلك أنه لما اشتدّ القتال بصفين بينهما، وتهيأ أهل الشام بالهزيمة صبيحة الهَرير، وهي آخر الليالي من صفر، أشارَ عمرو بن العاص بأن تُرفع المصاحف على رؤوس الرماح، وأن يُنادوا: يا أهل العراق ندعوكم إلى حكم الله، فلما رأى أهل العراق ذلك..(٢) وأتوا عليًا، وقالوا: كيف نُقاتل قومًا يطلبون حكم الله؟!

فقال عليٌّ: قد تركوا حكم الله وراءَ ظهورهم، وإنها خديعةٌ، فلا نحاكمهم حتى تضعَ الحرب أوزارها، فأبى عليه الخوارجُ الذين خرجوا عليه بعدُ، وقالوا: إن لم تكفَّ عنهم قاتلناك، فكفَّ عن القتال، واصطلحوا على أن يُحكّموا حكمين، فأراد عليٌّ أن يجعل الحكَمَ الذي من جهته ابنَ عباس، فأبوا عليه إلا أن يكونَ أبا موسى الأشعري، فلما وقع التحكيم واختلف الحكمان، أنكرتهُ الخوارجُ، ورأوا أن الإقامة عليه كُفر، فكانوا إذا دخل عليٌّ المسجدَ تنادوا من جوانبه (لا حكمَ إلا لله) زاعمين أن عليًا أشركَ مع الله غيره، فيقول عليٌّ: هذه كلمة حق أريد بها باطل، لكم علينا ثلاث أَنْ لَا نَمْنَعَكُمْ مَسَاجِدَنَا، وَلَا نَمْنَعَكُمْ حَقَّكُمْ مِنَ الْفَيْءِ، ولَا نبدأكم القتَال، فأقاموا على ذلك أيامًا، ثم إنهم خرجوا إلى حروراء، فعسكروا بها نحو ستة آلاف.

قلت: وحروراء: كجلولاء، موضعٌ بسواد الكوفة.

---

(١) المُبرّد.

(٢) كلمة غير واضحة.

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِم عَبْدَ الله بنَ عبَّاسٍ، ويَذْكُرُ أهلُ العِلمِ أنَّه وَجَّه ابنَ عبَّاسٍ إليهم ليناظرَهُم، فأتاهم فقَالَ لَهُم: مَا الَّذِي نقمتُم عَلَى أميرِ المُؤْمِنِينَ؟

قَالُوا: لقد كَانَ للمُؤمنِينَ أميرًا، فلمَّا حَكَّمَ فِي دِينِ الله خَرَجَ عنِ الإيمَانِ، فَليتُبْ بَعْدَ إقرَارِهِ بِالكُفرِ عَلَى نفسِهِ نَعُد لهُ.

فَقَالَ ابنُ عبَّاسٍ: مَا يَنْبَغِي لمُؤمنٍ أن يَشيبَ إيمَانهُ بشَكٍّ أن يُقِرَّ عَلَى نفسِهِ بالكُفرِ.

قَالُوا: إنَّهُ حَكَّمَ.

قَالَ: إنَّ اللهَ عز وجلَّ ذِكْرُهُ أمرَ بالتَّحكِيمِ فِي قَتلِ صيدٍ فَقَالَ: ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾، فكَيْفَ به فِي أمر إمَامَةٍ قَدْ أشكلتْ عَلَى المُسْلِمِينَ؟

قَالُوا: إنَّه قد حُكِمَ عَلَيْهِ فلَمْ يرضَ.

فَقَالَ: إنَّ الحُكومَةَ كالإمَامَةِ، ومتى فسقَ الإمام وجبت معصيتُه، وكذلك الحكَمَانِ لمَّا خَالفَا نُبِذَتْ أَقَاويلهُمَا.

وقد قالَ أبو العَبَّاسِ[1]: لمَّا بعثَهُ عليٌّ إلَيْهِم رَحَبُّوا بِهِ وأكرمُوهُ.

فرأى مِنْهُم جِبَاهًا قَرِحَةً لطُولِ السُّجودِ، وأيديًا كثفناتِ الإبلِ، وعليهم قمُصٌ مرقعة، وهُم مشمّرون.

فقالوا: ما جاء بك يا ابنَ عباس؟

فقال: جئتكم من عند صِهر رسول الله ﷺ وابن عمه، وأعلمِنا بربِّه وسنة نبيه ﷺ، ومن عند المهاجرين والأنصار.

فقالوا: إنا أتينا ذنبًا عظيمًا حين حكّمنا الرجال في دين الله، فإن تاب كما تُبنا، ونهض بنا لمنابذة عدوّنا رجعنا.

---

(١) فِي «الكَامِلِ» (٣/ ١٥٥ ـ ١٥٦).

فقال ابن عباس: نشدتُكم بالله إلا ما صدقتم أنفسكم! أما علمتم أن الله تعالى أمَرَ بالتحكيم فِي أرنبٍ لعلها أن تساوي رُبع درهم تُصاد فِي الحرم؟ وفي شقاقٍ بين رجل وامرأة؟

فقالوا: اللهمّ نعم.

ثم قالوا لابن عباس: إنه أعطى الدنيّة في دينه، وأمسكَ عن قتال عدوه، ومحا نفسَه من إمرة المؤمنين.

قال ابن عباس: أنشدكم الله، هل علمتم أن رسول الله ﷺ أمسك عن القتال للهُدنة بينه وبين أهل الحديبية؟ ومحا اسمَه من النبوة بعد أن كُتبَ في صحيفة الصُلح، فأبى سهيل بن عمرو ذلك وقال: لو كنّا نعلم أنك رسولُ الله ما قاتلناك ولا صددناك، ولكن اكتب اسمك اللهم واسم أبيك.

فأمر رسول الله ﷺ عليًا أن يمحوَ اسمه، فأبى وقَالَ: لاَ أَمْحُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَرِنِيهِ، فمحاه بيده الشريفة ﷺ.

فقالوا: إن عليًّا لم يرضَ بحُكم الحكمين حين حكّما.

قال: إنه قد أُخذ العهدُ على الحكمين ألا يجورَا، ومتى ما قُصد الحق، فعليٌّ أولى من معاوية ومن غيرِه.

قالوا: إن معاوية يدعي مثل دعوى عليٍّ.

قال: فأيهما رأيتموه أولى فولوه!

قالوا: صدقت.

قال ابن عباس: ومتى جارَ الحكمان فلا طاعة لهما، ولا قبولَ لقولهما.

قال: فاتّبعه منهم ألفان وبقي أربعة آلاف، فصلى بهم صلواتهم ابنُ الكوّاء، وقال: متى كانت حربٌ فرئيسكم شبث بن ربعي الرياحي، فلم يزالوا على ذلك يومين، حتى اجتمعوا على البيعة لعبد الله بن وهب الراسبي.

فلَمّا اجتمعت الخوارج عنده فِي منزِلِه تكلَّمَ، فحمد اللهَّ وأثنى عَلَيْهِ، ثم قَالَ: ما ينبغي لقومٍ يُؤمنُونَ بالرَّحمنِ، وينتسَبُونَ إلى حكمِ القرآنِ أن تكُونَ هذه الدنيا التي إيثارها عندنا آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقول بالحق، فاخرجوا بنا نقاتل هؤلاء الكفرة الفجرة الصادّين عن سبيل الله من آمن به، الموالين لأعدائه بتعطيل شرائع الله وحدوده.

قال: فمضى القوم إلى النهروان، وكانوا أرادوا المضيّ إلى المدائن، فأوقع بهم عليٌّ قبل أن يصلوا إلى المدائن.

فصلٌ

في تحكيم................... [(١)] منهم، وقد سبق أن الذي بقي منهم أربعة آلاف، ورجع ألفان.

ذكر أهل الأخبار كأبي الفرج أن عليًّا كرم الله وجهه [(٢)] خرج إليهم وناظرهم بعدَ مُناظرَةِ ابنِ عبَّاسٍ إيَّاهُم، فكَانَ فِيمَا قَالَ لهُم: ألَا تعلمُونَ أنَّ هَؤُلَاءِ القَومَ لَّما رفعُوا المَصاحفَ، قُلتُ لكُم: إنَّ هَذِهِ مكيدةٌ ووهنٌ، وأنَّهم لو قصدُوا إِلَى حُكْمِ المَصَاحِفِ لما قاتلونِي، ثم سألُونِي التَّحكِيمَ، أعلمتم أنَّه كَانَ منكم أحدٌ أكرَهُ منِّي لذلك؟!

قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ: فَهلْ علمتم أنَّكم استكرهتموني عَلَى ذَلِكَ حتَّى أجبتكُم إِلَيْهِ، واشترطتُ أن حكمَهما نافذٌ مَا حكمَا بِحُكمِ الله، فمتَى خالفَاهُ، فأنَا وأنتُم مِن ذَلِكَ براءٌ، وأنتُم تعلمُونَ أنَّ حُكمَ الله لا يعدُونِي؟

قَالُوا: اللهُمَّ نَعَمْ.

وفِيهم ذَلِكَ الوَقتِ ابنُ الكوَّاءِ، وَهَذَا مِن قَبل أنْ يذبحُوا عبدَ الله بنَ خبَّابٍ، وإنَّما ذبحُوهُ فِي الخرجةِ الثَّالثةِ بِكَسْكَر.

قَالُوا لعليّ: أنتَ حكَّمْتَ الرجالَ فِي دينِ الله برأينَا، ونَحنُ مقرُّونَ بأنَّا كَفَرْنَا، ونحنُ تائبُونَ، فَأقررْ بمثلِ مَا أقررْنَا بِهِ، وتُبْ، نَنْهَضْ مَعَكَ إِلَى أَهْلِ الشَّام.

فَقَالَ عَليٌّ: أمَا تَعلمُونَ أنَّ اللهَ أمرَ بالتَّحكِيمِ فِي شِقَاقٍ بَينَ رجلٍ وامْرَأتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ ﴾ وأمر بالتحكيم فِي صيدٍ يُصاد في الحرم؛

---

(١) كلمات غير واضحة.

(٢) الشيعة يُخصصون عليًا ﷺ بهذا الدعاء دون غيره من الخلفاء الراشدين. والصواب مخالفتهم.

كأرنبٍ تساوي ربع دِرْهَمٍ، فَقَالَ تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ ؟

فَقَالُوا: إنَّ عَمْرًا لما أبى عَلَيْكَ فِي كِتَابكَ: هَذَا مَا كتبَهُ عبدُ الله عَليٌّ أمير الْمُؤمِنِينَ مَحوتَ نفسَكَ مِن الخِلَافةِ، وكتبتَ: عَليَّ بنَ أبِي طالبٍ، فَقَدْ خلَعْتَ نَفسَكَ.

فَقَالَ لَهُمْ: لِي برَسُولِ الله ﷺ أسوةٌ، حيثُ أبى عَلَيْهِ سهيلُ بنُ عمرٍو.

فقَالَ لَهُ سُهيلٌ: لو علمتُ أنَّكَ رسُولُ الله مَا خالفتُكَ، ولكن أقدمكَ لفضلِكَ، فاكتبْ: مُحَمَّدُ بنُ عبدِ الله.

فَقَالَ: يا عليُّ امحِ رسُولَ الله.

فقلتُ: يَا رَسُولَ الله لا تَسْخو نفسِي بمَحْوِ اسمِكَ مِنَ النُّبوةِ.

قَالَ: فأقفني عَلَيْه، فمحَاهُ بيدِهِ الشريفة ﷺ، ثمَّ قَالَ: اكتُبْ محمَّدَ بنَ عبدِ الله، ثمَّ تبسَّم النبي ﷺ، فقَالَ لِي: يَا عليُّ إنَّكَ ستسَامُ مثلَهَا فتعطِي، فَرجعَ معهُ مِنْهُم ألفَانِ مِن حرُوراء.

وَقَد تجَمَّعُوا بِهَا، فَقَالَ لَهُم عليٌّ: أنتُم الحَرُوريَّةُ، فسموا الحَرُوريَّة من يومئذ، فلزمهم ذلك الاسم لخروجهم، وبجمعهم فِي ذلك الموضع، وإلا فهم الخوارج.

وَعِندَ عَبْدِ الله بنِ الإمَامِ أَحْمَدَ[1] بِسَنَدِهِ عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: ذُكِرَتْ عِنْدَهُ الْخَوَارِجُ فقَالَ: «هُمْ قَوْمٌ زَاغُوا فَأَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ».

وَعِندَهُ فِي كِتَابِ «السُّنَّةِ»[2] عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، قَالَ: سَأَلَ ابْنُ الْكَوَّاءِ عَلِيًّا عَنِ ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ قَالَ: «مِنْهُمْ أَهْلُ حَرُورَاءَ».

---

(١) فِي «السُّنَّةِ» (١٥٢٥).

(٢) «السُّنَّةِ» (١٥١٦).

وَعِندَهُ فِي «السُّنَّةِ»[(١)] حَدَّثَنَا أَبِي، ثَنَا هُشَيْمٌ، أنبأنا حُصَيْنٌ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ سَعْدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: أَهُمُ الْخَوَارِجُ؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنَّهُمْ أَصْحَابُ الصَّوَامِعِ، وَالْخَوَارِجُ الَّذِينَ زَاغُوا فَأَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ».

وَقَالَ أَيضًا[(٢)]: حَدَّثَنِي أَبِي، نا هُشَيْمٌ، أنبأنا الْعَوَّامُ، ثَنَا أَبُو غَالِبٍ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، ﴿ زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾، قَالَ: هُمُ الْخَوَارِجُ.

وقد قال الصَّلتانُ العبديُّ من كلمةٍ لهُ شِعْراً متقاربًا:

أَرَى أُمَّـةً شَـهَرَتْ سَـيفَهَا ... وَقَد زِيـدَ فِي سَوطِهَا الأَصْبَحِي
بِنَجْديـةٍ أَو حَرُوريَّـةٍ ... وأَزْرَق يـدْعُو إِلَى أَزْرقـي
فَمِلَّتُنَـا أَنَنَـا مُسْلِمُونَ ... عَـلَى دِيـنِ صِدِّيقِنَا والنَّبـي
أَشابَ الصَّغيرَ وأفنَى الكَبِيرَ ... مـرُورُ الغَـداةِ وكـرُّ العَشِي
إِذَا ليلـةٌ هرَّمَـتْ يومَهَـا ... أَتَـى بَعـدَ ذَلِـكَ يـومٌ فَتِـيّ
نـرُوحُ وَنَغْـدُو لحَاجَاتِنَـا ... وَحَاجـةَ مَـن عَـاشَ لا تنقـضِي
تَمُـوتُ مَـع المَرءِ حَاجَاتُـهُ ... وَتَبقَـى لَـهُ حَاجـةٌ مَا بقِـي

ومن شعر علي ﷺ الذي لا اختلافَ فِي أَنَّهُ قَالَهُ، وأَنَّهُ كَانَ يُرَدِّدُهُ لَمَّا سَامُوهُ أَن يُقِرَّ بالكُفرِ، وَيَتُوبَ حَتَّى يَسِيرُوا مَعَهُ إِلَى أَهْلِ الشَّام.

فَقَالَ: أَبَعْدَ صُحْبَةِ رسُولِ الله ﷺ والفِقْه فِي الدِّينِ أَرجعُ كَافِرًا؟!

وهُوَ يَقُولُ:

يَا شَاهِدَ الله عليَّ فَاشْهدِ ... إِنِّي عَلَى دينِ النبيِّ المهتدِي
مَن شكَّ فِي الله فإِنِّي مُهتدِي

(١) «السُّنَّة» (١٥٣٤).

(٢) فِي «السُّنَّة» (١٥٣٥).

فَصْلٌ

فِي الصُّفريةِ وَقصَّةِ واصلِ بنِ عطَاءٍ:

ذكر أهل العلم عن الصُفرية أن الخوارج لما عزموا على البيعة لعبد الله بن وهب الراسبي من الأزد تكرَّه ذلك، فأبوا مَن سواه، ولم يريدوا غيره، فلما رأى ذلك منهم، قال: يا قوم، استبيتوا الرأي، أي: دعوه يَغِب.

وكان يقول: نعوذ بالله من الرأي الدبري.

والرأي الدبري: الذي يعرض بعد وقوع الشيء.

قال ابن عطية جرير الخطفي اليربوعي التميمي:

وَلَا يتَّقُونَ الشَّرَّ حتَّى يُصِيبَهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَ الرَّأْيَ إِلَّا تَـدَبُّرَا

وكان عبد الله بن وهب ذا رأيٍ وفهم، ولسانٍ وشجاعة، وإنما لجأوا إليه وخلعوا مَعدان الإيادي، لقول مَعدان فِي ذلك:

سَلَامٌ عَلَى مَنْ بَايع اللهَ شَارِيًا وليسَ عَلَى الحزبِ الْمُقِيمِ سَلَامُ

فبرئت منه الصفرية، وقالوا: خالفت، لأنك تبرأتَ من الذين قعدوا عن القتال وهم على رأينا، فإنهم إخواننا. والخوارج فِي جميع أصنافها تبرأ من الكاذب، ومن ذي المعصية الظاهرة.

قال أبو العباس: وحُدثت أن واصل بن عطاء أبا حذيفة أقبل فِي رفقة، فأحسّوا الخوارج، فقال واصل لأهل الرِفقة: إن هذا ليس من شأنكم، فاعتزلوا ودعوني وإياهم - وكانوا قد أشرفوا على العَطب - فقالوا: شأنك. فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت وأصحابك؟

قال: مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله، ويفهموا حدوده!

فقالوا: قد أجرناكم.

قال: فعلمونا.

فجعلوا يعلمونه أحكامَهم، وجعل يقول: قد قبلتُ أنا ومن معي، قالوا: فامضوا مصاحبين، فإنكم إخواننا! قال: ليس ذلك لكم، قال الله تبارك وتعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ}، فأبلغونا مأمننا. فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: ذاك لكم، فساروا بجمعهم حتى بلّغوهم المأمن !

وَعِندَ عَبْدِ الله بنِ الإمَامِ أَحْمَدَ[1] عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُمْهَانَ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى وَهُوَ مَحْجُوبُ الْبَصَرِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ «لِي مَنْ أَنْتَ؟» قَالَ: قُلْتُ: أَنَا سَعِيدُ بْنُ جُمْهَانَ. قَالَ: «فَمَا فَعَلَ وَالِدُكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: قَتَلَتْهُ الْأَزَارِقَةُ. قَالَ: لَعَنَ اللهُ الْأَزَارِقَةَ لَعَنَ اللهُ الْأَزَارِقَةَ لَعَنَ اللهُ الْأَزَارِقَةَ، حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَّهُمْ كِلَابُ النَّارِ».

قَالَ: قُلْتُ: الْأَزَارِقَةَ وَحْدَهُمْ أَمِ الْخَوَارِجُ كُلُّهَا؟

قَالَ: لَا، بَلِ الْخَوَارِجُ كُلُّهَا.

---

(١) في «السُّنَّة» (١٥٥٣).

فصلٌ

في أوَّلَ مَنْ حَكَّمَ..............[1]

إنَّ أوَّلَ مَنْ حَكَّمَ عُرْوَةُ بْنُ أُدَيَّةَ، وأُدَيَّةُ جدَّةٌ لَهُ جَاهِلِيةٌ، وَهُوَ عُرْوَةُ بنُ حُديرٍ أَحَدُ بنِي رَبِيعةَ بنِ حَنظَلَةَ تَمِيمٍ.

وَقِيلَ: بَلْ أوَّلُ مَن حكَّمَ: رجلٌ يقالُ لَهُ: سَعِيدٌ مِن بنِي مُحَارِبِ بنِ خصفةَ بنِ قيسِ بن عَيْلان بن معز.

ولَمْ يَخْتَلفُوا فِي اجتمَاعِهِم عَلَى عبدِ الله بنِ وَهبِ الرَّاسبِي، وأَنَّهُ امتنَعَ عَلَيْهِم، وَأَومَأَ إِلَى غيرِه، فلم يقنعُوا إلَّا بِهِ، وَكانَ إمَامَ القَومِ، وَكَانَ يُوصَفُ بِرَأي وصلابةٍ، كما ذكرنا ذلك فيما تقدم من كتابنا هذا.

(١) كلمات غير واضحة. والتحكيم هو قول: (لا حُكم إلا لله).

فَصْلٌ

فَأَمَّا أَوَّلُ سَيفٍ سُلَّ مِن سُيوفِ الخَوَارِجِ:

فَسَيفُ عُروةَ بنِ أُدَيَّةَ المَذْكُورُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أقبلَ عَلَى الأشعث بنِ قيسٍ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الدَّنيةُ يَا أشعثُ، وَمَا هَذَا التَّحْكِيمُ، أشرطٌ أوثقُ منْ شَرطِ الله؟

ثمَّ شهرَ سيفَهُ عَلَيْهِ، والأشعث مُولٍ، فَضربَ بِهِ عَجزَ البَغْلَةِ، فنفر أهل اليمن قاطبة غضبًا للأشعثِ وكانوا جُلَّ أصحَابِ عليٍّ، فلما رأى ذلك الأحنف قصد هو وجارية بن قدامة ومسعر بن فدكي، ورؤساء بني تميم إلى الأشعث. فسألوه الصفح، ففعل.

وكانَ عُرْوَةُ بنُ أُدَيَّةَ هَذَا قد نَجَا مِن حَربِ النَّهْرَوَانِ، فَلَمْ يَزَلْ باقيًا مُدَّةً مِنْ خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ.

ثمَّ أُتي بِهِ زيادُ بنُ أَبِيهِ حين تطلب من يرى رأيَ الخوارج لما أفسدوا، فأُتي به مع مولًى لهُ؛ فَسَأَلَهُ عن أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما، فَقَالَ خيرًا.

ثم قَالَ لَهُ زيادٌ: مَا تقُولُ فِي أمير المؤمنين عُثْمَانَ رضي الله عنه، وما تقول فِي أَبِي تراب؟ يعني: عليًّا رضي الله عنه.

فقال: تَوَلَّى عُثْمَانَ ستَّ سِنينَ فعدل، وشهدَ عَلَيْهِ فِي باقي خلافته بالكُفْرِ، ثم شهد لعَلِيٍّ بالعدلِ إِلَى أنَّ حكَّمَ ثمَّ شَهدَ عَلَيْهِ بالكُفرِ، ثمَّ سَأَلَهُ زيادٌ عَنْ مُعَاوِيَةَ؛ فَسَبَّ مُعَاوِيَةَ سبًّا قَبيحًا، ثمَّ سَأَلَهُ زيادٌ عَنْ نَفسِهِ.

فَقَالَ: أَوَّلُكَ لزنْيَة، وآخرُك لِدِعْوَة، وأنتَ بعدُ عاصٍ لرَبِّكَ !

فأمرَ زيادٌ، فَضُرِبَتْ عُنقُهُ.

ثمَّ دَعَا مَولَاهُ فَقَالَ: صِفْ لِي أُمُورَهُ؟

فَقَالَ: أُطنبُ أم أختصرُ؟

قَالَ: بلِ اختصرْ؟

فَقَالَ: مَا أتيتُهُ بِطَعَامٍ فِي نهارٍ قَطُّ، وَلَا فرشتُ لَهُ فراشًا بِليلٍ قَطُّ.

فَصْلٌ

ومن طَرِيفِ أَخْبَارِ الخَوَارِجِ؛ قَوْلُ قَطرِيٍّ بنِ الفُجَاءَةِ المَازِنِي التميمي لأبي خَالِدٍ القَنانِي وكان من قَعدِ الخَوَارج - ويأتي خبر عمران بن حطان آخر الفصل وهو من عبَّادِهِم وقعدهم، وكان مع بدعته ثقةً أخرج له البخاري في صحيحه -.

فمن قول قَطري يخاطب أبا خالد، يلومه على القُعودِ:

أَبا خالِدٍ انْفِرْ فلَسْتَ بِخالِدِ ... وَما جَعَلَ الرحمنُ عُذْرًا لقاعِدِ
أَتَزْعُم أَنَّ الخَارِجيَّ عَلَى هُدًى ... وأنتَ مُقِيمٌ بَيْنَ لصٍ وجاحِدِ؟

فَكَتَبَ إِلَيْهِ أبو خالِدٍ:

لَقَدْ زادَ الحَياةَ إليَّ حُبًّا ... بَناتِي، إنَّهُنَّ مِنَ الضِّعافِ
مَخَافَةَ أنْ يَرِيْنَ البُؤْسَ بعدِي ... وَأنْ يشرَبْنَ رنقًا بعدَ صَافِ
وأنْ يَعْرَيْنَ، إنْ كُسِيَ الجَوارِي ... فَتَنْبُو العينُ عَن كَرَمٍ عِجافِ
ولَوْلا ذاكَ قَدْ سَوَّمْتُ مُهْري ... وَفِي الرَّحمنِ للضُّعفاءِ كافِ

وهذا خلاف ما قاله عمران بن حطان، أحد بني ذهل بن شيبان من بكر بن وائل، وكان رأس القَعد من الصفرية وخطيبهم وشاعرهم، قال لما قُتل أبو بلال - وهو مرداس بن أديّة،وهي جدّته، وأبوه حدير، وهو أحد بني ربيعة بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم، وهو من أشدهم فِي العبادة وأقلهم أذية للمسلمين، وسيأتي خبر مقتله مع ما مضى فيما بعد إن شاء الله تعالى-.

قال:

لقدْ زادَ الحياةَ إليَّ بُغضًا ... وحبًّا للخروجِ أبو بلالِ
أُحاذرُ أنْ أموتَ على فراشي ... وأرجو الموتَ تحتَ ذُرى العوالي
فمنْ يكُ همُّهُ الدُّنيا فإنّي ... لها واللهِ ربِّ البيتِ قالي

وقال:

يـا عـينُ بكّـي لمـرداسٍ ومـصرعهِ ... يا ربَّ مرادس ألحقنـي بمـرداسِ
تركتنـي هـائماً أبكـي لمرزئتـي ... فِي منزلٍ موحشٍ من بَعدِ إينـاسِ
أنكرتُ بعدكَ مَا قدْ كنتُ أعرفـه ... مَا الناسُ بعدكَ يا مرداسُ بِالنَّاسِ
إمـا شربـتَ بكـأسٍ دارَ أوَّلهـا ... على القرون فذاقوا جُرعة الكـاسِ
فكـل مـن لم يذقها شاربًا عجِلاً ... منهـا بأنفاسِ ورِدٍ بعـد أنفاسِ

قَالَ أَبُو الفرج: وَكَانَ مِن حَدِيثِ عِمْرَانَ بنِ حطَّان فِيمَا حدَّثنى به العباس بن أبى الفرج الرياشي، عن محمد بن سلام أن عمران بن حطان قال: لما طرده الحَجَّاجُ بن يوسف، كانَ يتنقل فِي القبائل، فكان إذا نزل بحيٍ انتسب نسبًا يُقرب منه، ففي ذلك يقول:

نزلْنَا فِي بني سَعدِ بنِ زيدٍ ... وفِي عَـكٍّ وعَامِرِ عوَبْثَانِ
وفِي لَخْ،م وفِي أدٍّ بنِ عَمْرٍ ... وفِي بكرٍ وَحَي بني العَدانِ

ثم خَرَجَ حتى نزل عند روح بن زنباع، وكان روحٌ يَقري الأضياف، وكان مسامرًا لعبد الملك بن مروان، أثيرًا عنده.

فانتمى له من الأَزد، وكان رَوح لا يسمعُ شعرًا نادرًا، ولا حديثًا غريبًا عِندَ عبد الملك فيسأل عَنْهُ عِمران إلا عرّفه إياه، وزاد عَلَيْهِ.

فذكر ذلك لعبد الملك، فقال: إن لي ضيفًا مَا أسمع من أمير الْمُؤْمِنِينَ خبرًا وَلَا شعرًا إلا عرفه وزاد فِيهِ، فَقَالَ: أخبرني ببعض صفاته وأخباره؛ فأخبره.

وأنشده فَقَالَ عبد الملك: إن اللغة يهانية وَإِني لأحسبه عِمران بن حطان !

حتَّى تذاكروا ليلة قول عِمران بن حطان:

يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا ... إِلَّا لِيَبْلُغَ عِنْدَ اللهَّ رِضْوَانَا
إِنِّي لَأَذْكُرُهُ يَوْمًا فَأَحْسَبُـهُ ... أَوْفَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللهَّ مِيزَانَا

فلم يدر عبد الملك لمن هما، فرجع روح بن زنباع فسأل عِمران بن حطان عَنْهُ.

فَقَالَ عمران: هَذَا الشعرُ لِعمرانَ بنِ حطان يمدح عبد الرحمن بن مُلجم قاتل علي بن أبي طالب ﷺ، فرجع رَوح إلى عبد الملك فأخبره.

فَقَالَ عبد الملك: ضيفك عِمران بن حطان اذهب فجئني بِهِ، فرجع إِلَيْهِ.

فَقَالَ: إن أمير الْمُؤْمِنِينَ أحبّ أن يراك.

فَقَالَ لَهُ عمران: قَدْ أردت أن أسألك ذَلِكَ فاستحييت منك، فاذهب فإني بالأثر.

فرجع روح إِلَى عبد الملك فأخبره، فَقَالَ عبد الملك: إِنَّكَ سترجع فَلَا تجده!

فلمّا رجع وجد عمران قَدْ احتمل وخلّف رقعة فِيهَا:

يا روحُ كم من أخي مثوىً نزلت به ... قد ظنّ ظنك من لخمٍ وغسانِ
حتى إذا خفتُه فارقت منزله ... من بعد مَا قيل عِمران بن حطانِ
قد كنت جارك حولاً لا تروّعني ... فيه طوارقُ من إنسٍ ولا جانِ
حتى أردتَ لي العظمى فأدركني ... مَا أدرك الناس من خوفِ ابن مروانِ
فاعذر أخاك ابن زنباع فإن لَهُ ... فِي النائبات خطوباً ذات ألوانِ
يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمنٍ ... وإن لقيتُ معدّيًا فعدناني
لو كنت مستغفراً يومًا لطاغيةٍ ... كنتَ المقدم فِي سري وإعلاني!
لكن أبت لي آياتٌ مطهرة ... عِندَ الولاية فِي طه وعمرانِ

قلت:...(١)

ابنُ أَبِي الدُّنيَا فِي قَصْرِ الأمَلِ قَالَ: نَزَلَ رَوْحُ بْنُ زِنْبَاعٍ مَنْزِلًا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فِي يَوْمٍ حَرٍّ شَدِيدٍ، فَإِذَا بِرَاعٍ نَزَلَ الجَبَلَ، فَقَالَ لَهُ: هَلُمَّ إِلَى الْغَدَاءِ، فَقَالَ: إِنِّي صَائِمٌ، قَالَ له رَوْحُ بْنُ زِنْبَاعٍ: «أَتَصُومُ فِي هَذَا الْحَرِّ الشَّدِيدِ؟»، فَقَالَ لَهُ الرَّاعِي: أَفَأَدَعُ أَيَّامِيَ تَذْهَبُ بَاطِلًا؟، فَقَالَ رَوْحُ بْنُ زِنْبَاعٍ - وأنشأ شعرًا -:

لَقَدْ ضَنِنْتَ بِأَيَّامِكَ يَا رَاعِي ... إِذْ جَادَ بِهَا رَوْحُ بْنُ زِنْبَاعِ

(١) كلمات غير واضحة.

رجعنا إلى قصة عمران: ثم ارتحل حتَّى نزل بزُفر بن الحارث الكلابي، أحد بني عمرو بن كلاب. فانتسبَ لَهُ أَوْزَاعِيًّا.

وكان عِمران بن حطان يطيل الصلاة، وكان غلمانٌ من بني عامر يضحكون منه.

فأتاه رجل ممَّن رآه عِندَ روح بن زنباع فسلم عليه، فدعاه زُفر فقال: من هذا؟

فقال: رجلٌ من الأزد، رأيته ضيفًا لروح بن زنباع.

فَقَالَ لَهُ زُفر: يا هذا، أأزديًّا مرةً وأوزاعياً أخرى! إن كنتَ خائفًا أمّناك، وإن كنتَ فقيراً جبرناك.

فلمَّا أمسى خلّف فِي منزله رقعةً وهرب، فوجد فيها:

إن الَّتِي أصبحت يعيا بها زفرٌ ... أعيت عياءً على روح بن زنباعِ

ما زال يسألني حولاً لأخبره ... والناس ما بَينَ مخدوعٍ وخدّاعِ

حتى إذا انقطعت مني وسائله ... كف السؤال ولم يُولع بإهلاعي

فاكففْ لسانك عن لومي ومسألتي ... ماذا تريد إلى شيخ لأوزاع؟

فاكففْ كمَا كفَّ عني إنني رجلٌ ... ... إما صميمٌ وإما فقعة القاعِ[1]

أكرمْ بروح بن زنباعٍ وأسرته ... قومٌ دَعَا أوليهم للعُلا داعي

جاورتهم سنة فِيمَا أُسرّ بِهِ ... عرضي صحيح ونومي غير تَهجاعِ

فاعمل فإنك منعيٌ بواحدة ... حسبُ اللبيب بهذا الشيب من ناعي

ثم ارتحل حتَّى أتى عُمان، فوجدهم يعظمون أمر أبي بلال ويظهرونه، فأظهر أمره فيهم، فبلغ الحَجَّاجُ، فكتب فيه إلى أهل عُمان، فارتحل عمران هارباً، حتَّى أتى قوماً من الأزد فِي سواد الكُوفَةِ، فنزل بهم، فلم يزل فيهم حتَّى مات، وفي نزوله بهم يقول:

نزلنا بحمد الله فِي خيرِ منزل ... نُسر بما فِيهِ من الإنس والخفر

(١) فقعة القاع يُقال لمن لا أصل له.

نزلنا بقوم يجمع الله شملهم وَلَيْسَ لَهُم عود سوى المجد يُعتصر
من الأزد إِنّ الأزد أكرم أسرة يمانية تربو إذا انتسب البشر
فأصبحتُ فيهم آمناً لا كمعشر أتوني فَقَالُوا مِن ربيعة أو مضر
أم الحي قحطان؟ فتلكم سفاهة كَمَا قَالَ روح لي وصاحبه زُفر
وما مِنْهُمَا إلا يُسر بنسبةٍ تقربني مِنْهُ وإن كان ذا نفر
فنحن عباد الله والله واحدٌ وأولى عباد الله بالله من شكر

فصل

في أن أصلهم ادعاء.........[1] والأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ:

ولهذا قال ﷺ: «يقولون من خير قول البرية».

فَرَوَى أَبُوالعباس[2] وغيرُهُ أنَّ رجُلًا أسود، شديد بياض الثياب، وقف على رسول الله ﷺ وهو يقسم غنائم خيبر - ولم تكن إلا لمن شهد الحديبية - فأقبل ذلك الأسود على رسول الله ﷺ، فقال: ماعدلت منذ اليوم! فغضب رسول الله ﷺ حتى رُئي الغضب فِي وجهه. فقال عمر ﷺ: ألا أقتله يا رسول الله؟ فقال رسول الله: "إنه سيكون لهذا ولأصحابه نبأ".

وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال له: "ويحك! فمن يعدل إذا لم أعدل؟" ثم قال لأبي بكر ﷺ: "اقتله" فمضى ثم رجع، فقال: يا رسول الله، رأيته راكعًا، ثم قال لعمر: "اقتله"، فمضى ثم رجع، فقال: يا رسول الله رأيته ساجداً، ثم قال لعلي: "اقتله"، فمضى ثم رجع، فقال: يا رسول الله لم أره، فقال رسول الله ﷺ: "لو قُتل هذا ما اختلف اثنان فِي دين الله".

قال أبو العباس: وحدثني إبراهيم بن محمد التميمي قاضي البصرة فِي إسناد ذكره، أن عليًا ﷺ وجه إلى رسول الله ﷺ بذهبة من اليمن، فقسمها أرباعاً؛ فأعطى رُبعًا للأقرع بن حابس المجاشعي، ورُبعًا لزيد الخيل الطائي، ورُبعًا لعيينة بن حصن الفزاري، ورُبعًا لعلقمة بن علاقة الكلابي. فقام إليه رجل مُضطرب الخَلق غائرُ العينين، ناتئ الجبهة، فقال: رأيتُ قسمةً ما أريد بها وجه الله!، فغضب رسول الله ﷺ حتى تورّد خداه، ثم قل:

---

(١) كلمات غير واضحة.

(٢) المبرّد في «الكامل» (١ / ٢٣٦) وقد سبق تخريج أحاديث الخوارج.

"أيأمنني الله عز وجل على أهل الأرض ولا تأمنوني؟"! فقام إليه عمر ﷺ فقال: ألا أقتله يا رسول الله؟ فقال ﷺ: "أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ضِئضِئِ هَذَا قومٌ يمرقون من الدين كما يمرقُ السهمُ من الرميّة، تنظر فِي النَصل فلا ترى شيئاً، وتنظر فِي الرّصاف فلا ترى شيئاً، وتتمارى فِي الفُوق".

قوله: "من ضئضئ هذا" أي: من جنس هذا.

ويقال: مرق السهم من الرميّة، إذا نفذ منها، وأكثر ما يكون ذلك ألا يَعلق شيءٌ به من دمها، وأقطع ما يكون السيف إذا سبق الدم. قال امرؤ القيس:

وَقَدْ أَخْتَلِسُ الضَّرْبَـ ـةَ لَا يَدْمَى لَهَا نَصْلِي

قال أبو العباس: وكان فِي جملة الخوارج لَددٌ واحتجاج، على كثرة خطبائهم وشعرائهم، ونفاذ بصيرتهم، وتوطين أنفسهم على الموت، فمنهم الذي طعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى فيه إلى قاتله وهو يقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾.

وروي عن النبي ﷺ أنه لما وصفهم قال: "سيماهم التحليق - يعني: استئصال الشعر - يقرأون القرآن لا تجاوز تراقيهم، علامتهم رجل مخدّج اليد".

وفي حديث عبد الله بن عمرو: "رجل يقال له عمرو ذو الخويصرة"، أو "الخنيصرة".

وروي عن النبي ﷺ: أنه نظر إلى رجلٍ ساجد، فقال عليه الصلاة السلام، فقال: "ألا رجل يقتله "؟ فحسر أبو بكر عن ذراعه وانتضى السيف وصمد نحوه، ثم رجع إلى النبي ﷺ فقال: أأقتل رجُلًا يقول: لا إله إلا الله؟ فقال ﷺ: "ألا رجل يفعل "؟ ففعل عمر مثل ذلك، فلما كان فِي الثالثة قصد له علي بن أبي طالب ﷺ فلم يره، فقال رسول الله ﷺ: "لو قُتل لكان أول فتنة وآخرها".

وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بنُ حَنبَلٍ فِي مُسْنَدِهِ[1]: حَدَّثَنَا رَوْحٌ، ثَنَا عُثْمَانُ الشَّحَّامُ، ثَنَا مُسْلِمُ بْنُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥ / ٤٢).

أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ مَرَّ بِرَجُلٍ سَاجِدٍ وَهُوَ يَنْطَلِقُ إِلَى الصَّلاَةِ، فَقَضَى الصَّلاَةَ وَرَجَعَ عَلَيْهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: "مَنْ يَقْتُلُ هَذَا؟"فَقَامَ رَجُلٌ، فَحَسَرَ عَنْ يَدَيْهِ، فَاخْتَرَطَ سَيْفَهُ وَهَزَّهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، كَيْفَ أَقْتُلُ رجُلًا سَاجِدًا يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؟ ثُمَّ قَالَ: "مَنْ يَقْتُلُ هَذَا؟" فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: أَنَا، فَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعَيْهِ وَاخْتَرَطَ سَيْفَهُ وَهَزَّهُ، حَتَّى أَرْعَدَتْ يَدُهُ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَيْفَ أَقْتُلُ رجُلًا سَاجِدًا، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ قَتَلْتُمُوهُ لَكَانَ أَوَّلَ فِتْنَةٍ وَآخِرَهَا".

ويروى عن أبي مريم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ذكر المُخدَج عند النبي ﷺ، فقال أبو مريم: والله إن كان معنا لفي المسجد وكان فقيرًا، وكان يحضر طعام عليّ إذا وضعه للمسلمين، ولقد كسوته ترسًا لي، فلما خرج القوم إلى حروراء قلت: والله لأنظرنّ إلى عسكرهم، فجعلت أتخللهم حتى صرت إلى ابن الكوّاء وشبث بن ربعي، ورُسل علي تناشدهم، حتى وثب رجلٌ من الخوارج على رسولٍ لعلي، فضرب دابته بالسيف، فحمل الرجلُ سَرجه وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون! ثم انصرف القوم إلى الكوفة، فجعلت أنظر إلى كثرتهم كأنما ينصرفون من عيد، فرأيت المُخدَج، كان مني قريباً، فقلت: أكنت مع القوم؟ فقال: أخذت سلاحي أريدهم، فإذا بجماعة من الصبيان قد عرضوا لي فأخذوا سلاحي، وجعلوا يتلاعبون بي.

فلما كان يوم النهر قال علي: اطلبوا المُخدَج. فطلبوه فلم يجدوه، حتى ساء ذلك عليًا، وحتى قال رجل: لا والله يا أمير المؤمنين، ما هو فيهم، فقال علي: والله ما كذبتُ ولا كُذِّبت، فجاء رجل فقال: قد أصبناه يا أمير المؤمنين، فخرّ علي ساجدًا، وكان إذا أتاه ما يُسرّ به من الفتوح سجد وقال: لو أعلم شيئاً أفضل منه لفعلته، ثم قال: سيماه أن يده كالثدي، عليها شعرات كشارب السِنور، ايتوني بيده المُخدَجة، فأتوه بها، فنصَبها.

فصلٌ

ومن طريف أخبارهم أنهم أصابُوا مسلمًا وَنصرانيًّا، فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني، فقالوا: احفظُوا ذِمَّةَ نبيِّكُمْ فيه !

وقد روى الإمام أحمد [١] قَالَ: حَدَّثَنَا بَهْزٌ، وَعَفَّانُ، قَالَا: حَدَّثَنَا حَمَّادٌ - يَعْنِي: ابْنَ سَلَمَةَ - حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ جُمْهَانَ، قَالَ: كُنَّا مَعَ عَبْدِ اللهَّ بْنِ أَبِي أَوْفَى نُقَاتِلُ الْخَوَارِجَ وَقَدْ لَحِقَ غُلَامٌ لِابْنِ أَبِي أَوْفَى بِالْخَوَارِجِ فَنَادَيْنَاهُ يَا فَيْرُوزُ هَذَا ابْنُ أَبِي أَوْفَى فَقَالَ: نِعْمَ الرَّجُلُ لَوْ هَاجَرَ قَالَ: «مَا يَقُولُ عَدُوُّ اللهَّ» يَقُولُ: نِعْمَ الرَّجُلُ لَوْ هَاجَرَ فَقَالَ «أَهِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَتِي مَعَ رَسُولِ اللهَّ ﷺ» قَالَ: بَهْزٌ فِي حَدِيثِهِ: يُرَدِّدُهَا ثَلَاثًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يَقُولُ: «طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ» فَقَالَ عفَّانُ وَيُونُسُ: «لِمَنْ قَتَلَهُمْ وَقَتَلُوهُ».

ومنها أَنَّه لَقِيهُم عَبدُ الله بنُ خَبَّاب بن الأرتّ ﷺ وفِي عُنقِهِ مُصْحَفٌ عَلَى حِمَارٍ، وَمَعَهُ امرأته، وَهِيَ حَامِلٌ، فَقَالُوا لَهُ: إِنَّ هَذَا الَّذِي فِي عُنقِكَ ليأمُرنَا بِقَتلِكَ.

فَقَالَ: مَا أحيَاهُ القرآنُ فأحيوهُ، وَمَا أَمَاتهُ القُرآنُ، فأميتُوه.

فوثَبَ رَجلٌ مِنْهُم عَلَى رُطبةٍ سقطَتْ مِن نخلَةٍ فَوضَعهَا فِي فِيهِ، فصَاحُوا بِهِ، فلفَظَهَا تورُّعًا، وعرضَ لرُجلٍ مِنهُم خنزيرٌ، فَضَربَهُ فَقَتَلَهُ، فَقَالُوا: هَذَا فسادٌ فِي الأرضِ، واللهُ لَا يُحِبُ الفَسَادَ، فَأَنكرُوا قتلَ الخِنْزِيرِ !

ثمَّ قَالُوا لابنِ خبَّابٍ: حَدِّثنَا عَن أَبيكَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي، يقُولُ: سَمِعْتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «سَتكُونُ فِتنَةٌ يمُوتُ فِيهَا قَلْبُ الرَّجلِ كَمَا يمُوتُ بَدنُهُ، يمُسِي مُؤمنًا وَيُصْبحُ كافرًا فَكُنْ عَبدَ الله المَقْتُولَ، وَلَا تَكُنِ القَاتِلَ» [٢].

---

(١) في المسند برقم (١٩٣٠٨) بسندٍ صحيح.

(٢) أخرجَهُ أحمَدُ (٥/ ١١٠)، وأبو يعلَى (٧٢١٥) قال الهيثميُّ فِي «المجمع» (٧/ ٣٠٣): «رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى وَالطَّبَرَانِيُّ، وَلَمْ أَعْرِفِ الرَّجُلَ الَّذِي مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ رِجَالُ الصَّحِيحِ».

قَالُوا: فَمَا تقُولُ فِي أبِي بكرٍ وعُمرَ؟

فأثنى خيرًا.

قَالُوا: فَمَا تقُولُ فِي عليٍّ بعدَ التَّحكِيمِ، وَفِي عُثمانَ فِي السِّنين السِّتِّ الأخيرةِ؟

فَأثنى خيرًا.

قَالُوا: فما تقُولُ فِي التَّحْكِيمِ والحُكومَةِ؟

قَالَ: إنَّ عَلِيًّا أَعْلَمُ باللهِ مِنكُم، وأشدُّ توقِّيًا عَلَى دينِه، وَأَنفَذُ بصيرَةً.

فَقَالُوا: إنَّكَ لَسْتَ بِمُتَّبعِ الهُدَى، إنَّما تَتَبعُ الرِّجَالَ عَلَى أسْمَائِهم، ثمَّ قرَّبُوهُ إِلَى شَاطِئ النَّهرِ، فأَضْجَعُوهُ فَذَبحُوهُ.

وَسَامُوا رجُلًا نَصرَانيًّا بِنَخلَةٍ لَهُ، فَقَالَ: هِيَ لكُم.

فَقَالُوا: مَا كنَّا لنَأخذُهَا إلَّا بثمنٍ.

فَقَالَ النَّصْرَانِيُّ: ما أعجبَ هَذَا! أَتَقْتلُونَ عَبدَ اللهِ بنَ خبَّابٍ، وَلَا تقبلُونَ مني نَخْلَةً إلا بثمنٍ؟!

فلما قتلوا عبد الله بن خبابٍ رضي الله عنهما خَرَجَ إليهم عَليٌّ فَقَالَ لَهُمْ: ارجعوا وادفعوا إلينا قاتل عبد الله بن خباب، فقالوا: كلنا قتلة وشرك فِي دمه!

ثمَّ حَمَلَ مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَى صفِّ عليٍّ، وقد قَالَ عليٌّ لأَصْحَابِهِ: لا تَبْدَؤُوهم بقتَالٍ، فقتل الرَّجل من أصحاب عَليٍّ رضي الله عنه ثلَاثة، وهو يرتجز ويقولُ:

أَقتلُهُمْ وَلَا أَرَى عَلِيًّا ... وَلَو بدَا أَوْجَرتُهُ الخَطّيا

فَخَرَجَ إِلَيْهِ عَلِيٌّ فضربَهُ فقتَلَهُ، فلمَّا خالطَهُ السَّيفُ، قَالَ: حَبَّذا الرَّوحَةُ إِلَى الجنَّةِ.

فَقَالَ عبدُ اللهِ بنُ وَهبٍ الراسبي: رئيس الخوارج: واللهِ مَا أدرِي إِلَى الجنَّةِ، أم إِلَى النَّارِ؟

فَقَالَ رَجلٌ مِنهُم من بنِي سَعدٍ: إنَّما حَضَرتُ اغترَارًا بِهَذَا الرَّجُل - يعنِي: عبدَ اللهِ - وأراه قَدْ شكَّ، فاعتزَلَ بجماعةٍ من أصحابه، ومَالَ إِلَى ناحيةِ أبي أيُّوبَ الأنصَارِيِّ رضي الله عنه فِي

عَسْكَرِهِ، وكان رحمه الله على ميمنةِ علي ﷺ، وجعل الناس يتسللون، فقيل له: إنهم يريدون الجَسر ليعبروا النهرَ.

فقال عليٌّ: إنهم لن يبلغوا النطفةَ وإن مصارعهم لدُون الجسر، وجعل الناسُ يقولون له فِي ذلك، حتى كادوا يشكون، ثم قالوا: قد رجعوا يا أمير المؤمنين، قال: والله ما كذَبت وما كُذِّبت، ثم زحفَ إليهمْ فَطَحَنَهُم طَحنًا.

فصلٌ

ثم خرج أهل النُخيلة على علي ﷺ بعد أهل النهروان، وكان أهل النخيلة جماعة تجمعوا بعد أهل النهروان ممن سَلم من القتل ذلك اليوم، وممن فارق عبد الله بن وهب، ولجأ إلى أبي أيوب، وممن كان أقام بالكوفة، فقال: لا أقاتل عليًّا، ولا من معه، فتواصوا فيما بينهم وتعاضدوا، وتأسفوا على خُذلانهم أصحابهم.

فقام منهم قائم يقال له: المستورِد، من بني سعد بن زيد مناة، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد، ثم قال: إن رسول الله ﷺ أتانا بالعدل تخفق راياته، مُعلنًا مقالته، مبلغًا عن ربه، ناصحًا لأمته، حتى قبضه الله، وذكر أن الله عز جل قرن الصلاة بالزكاة، فرأى تعطيلَ إحداهما طعنًا على الأخرى، لا بل على جميع منازل الدين، ثم قبضه الله إليه موفوراً، ثم قام بعده الفاروق، ففرق بين الحق والباطل، مسويًا بين الناس في إعطائه، لا مُؤثرًا لأقاربه، ولا مُحكمًا في دين ربه، وها أنتم تعلمونَ ما حدث، والله يقول: ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

فوجه إليهم عليٌّ: عبدَ الله بنَ العبَّاسِ

قالوا لابن عباس: إن كان عليٌّ على حَقٍّ، وحَكّم مضطرًا؛ فما باله حيث ظفر لم يسبِ! فقال لهم ابن عباس: قد سمعتم الجواب في التحكيم، فأما قولكم في السباء، أفكنتم سابينَ أمكم عائشة! فوضعوا أصابعهم في آذانهم، ثمَّ قالوا: أمسِك عنا. أغرِب عنا لسانك! فإنه طلق ذلق، غوّاص على موضع الحجة. وهم الذين ذكرهم الحسن البصري، فقال: دعاهم إلى دين الله ﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ الآية.

وفيهم يقول عمران بن حطان:

إني أدينُ بما دانَ الشُراة به ... يوم النُخيلة عند الجوسقِ الخَرِبِ

وقال الحِميري يعارضه:

إني أدينُ بما دانَ الوصيُّ به ... يوم النُخيلة من قتل المُحلينا(١)
وبالذي دانَ يومَ النَّهرِ دِنْتُ بِهِ ... وشاركتْ كفُه كفي بصفينا
تلك الدماء معًا يا رب فِي عُنقي ... ومثلها فاسقني آمين آمينا

فلما أبوا إلا الشقاق خرج إليهم عليٌّ ﷺ، وكانوا ثلاثة آلاف، فسار إليهم، فقال له عفيف بن قيس: يا أمير المؤمنين، لا تخرج فِي هذه الساعة؛ فإنها ساعةُ نحسٍ عليك لعدوك، فقال علي: توكلت على الله وحده، وعصيت رأيَ كلِّ متكهّن. أنت تزعم أنك تعرف وقت الظفر من وقت الخذلان ! ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ ﴾.

ولم ينجُ منهُم إلا خَمْسَة، منهُم المُستوردُ رَئِيسُهُم، وقُتلَ أيَّامَ مُعَاوِيَةَ، وابنُ جوين الطَّائي، وفروةُ بنُ شريكٍ الأشجعِي، واثنَانِ غيرهم، وقُتل من أصحاب علي تسعة.

ثم قام المُستوردُ مدَّةً حتى خَرَجَ فِي إمارة المُغيرَةِ بنِ شُعبةَ على الكُوفَةِ لمُعَاوِيَةَ، فَوجَّه إِلَيْهِ المُغِيرَةُ مَعقلَ بنَ قيسٍ الريَاحِي، فدَعَاهُ المُستوردُ إِلَى المُبَارَزَة(٢).

فبرز إليه معقل، وكان مَعقل من الشجعان، وكان صاحب شُرط عليٍّ، وكان من رجاله فِي حروبه، فقتل كل واحدٍ منهم صاحبه، وكلاهما من بني تميمٍ.

.....(٣) وتشاوروا، وقالوا: إن عليًّا ومعاوية قد أفسدوا أمر هذه الأمة، فلو قتلناهما عاد الأمر إلى مستحقه!

فقال رجل من أشجع: والله ما عَمرو دونهما، وإنه لأصلُ هذا الفساد.

---

(١) الشيعة يعتقدون أن رسول الله ﷺ " أوصى " بالخلافة بعده لعليّ - رضي الله عنه -، وهذا من كذبهم - كما هو معلوم -.

(٢) «شَرح نَهج البَلَاغَةِ» (٤/ ١٣٤).

(٣) كلمات غير واضحة.

فقال عبد الرحمن بن ملجم: أنا أقتل علياً، فقالوا: وكيف لك به؟

قال: أغتاله. فقال الحجاج بن عبد الله الصريمي - وهو البرك: وأنا أقتل معاوية.

وقال زاذويه مولى بني العنبر بن عمرو بن تميم: وأنا أقتل عَمراً.

فأجمع رأيهم على أن يكون قتلُهم فِي ليلة واحدة، فجعلوا تلك الليلة ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان، فخرج كلُ واحد منهم إلى ناحية، فأتى ابنُ مُلجم الكوفة، فأخفى نفسه وتزوج امرأة يقال لها قَطام بنت علقمة من تيم الرباب، وكانت ترى رأي الخوارج - والأحاديث تختلف وإنما يؤثر صحيحها - ويروى فِي بعض الحديث أنها قالت: لا أقتنع منك إلا بصَداق أسمِّيه لك، وهو ثلاثة آلاف درهم، وعبدٌ وأمة، وأن تقتل عليًا.

فقال لها: لكِ ما سألتي، وكيف لي به؟

قالت: تروم ذلك غيلة، فإن سلِمت أرحت الناسَ من شره، وإن أُصبتَ خرجت إلى الجنة ونعيم لا يزول، فأنعم لها، وفي ذلك يقول:

فَلَمْ أَرَ مَهْرًا سَاقَهُ ذُو سَمَاحَةٍ ... كَمَهْرِ قَطَامِ مِن فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ
ثلاثَةُ آلافٍ وعَبْدٌ وَقَيْنَةٌ ... وَضَرْبُ عَلِيٍّ بالحُسَامِ المُصَمّمِ
فَلَا مَهْرَ أَغْلَى مِن عَلِيٍّ وَإِنْ غَلا ... وَلَا فتكَ إِلَّا دُونَ فَتكِ ابنِ مُلْجَمِ

ويقالُ: إن قَطام لم أبطأ ابنُ مُلجم عمّا وعدها به من قتل علي، لامته، وقالت: ألا تمضي لما قصدتَ له ! فلشد ما أحببت أهلك ! قال: إني قد وعدتُ صاحبيَّ وقتًا بعينِهِ، وكان هناك رجل من أشجع يُقال له شبيب، فواطأه ابن مُلجم على قتل عليٍّ.

ويروى أن الأشعث نظر إلى عبد الرحمن متقلداً سيفًا فِي بني كندة، فقال: يا عبد الرحمن، أرني سيفك. فأراه إياه، فرأى سيفاً حديداً.

فقال: ما تقلدك هذا السيف وليس بأوانِ حرب؟!

فقال: إني أردت أن أنحَر به جزور القرية ! فركب الأشعث، وأتى عليًا فأخبره. وقال: قد عرفتُ بسالة ابن مُلجم وفتكه. فقال علي ﷺ: ما قتلني بعدُ.

وسمعه حِجر يقولها فِي مرضه، وقد روى ذلك ابن أبي الدنيا من طُرق به فِي مقتل عليٍّ ﷺ.

ويروى أن عليًا رضوان الله عليه كان يخطب مرةً ويُذكّر أصحابه، وابن ملجم تلقاءَ المنبر، فسمعه وهو يقول: والله لأريحنّهم منك! فلما انصرف علي ﷺ إلى بيته أُتي به ملبيًا بردائه، فأشرف عليهم، فقال: ما تريدون؟ فخبّروه بما سمعوا منه، فقال: ما قتلني بعدُ؛ فخَلُّوا عنهُ.

ويُروى أن عَبْد اللهَّ بْن نجبة التيمي الرّبابي لقي وردان بْن مجالد الذي قعد لعليّ مع ابن مُلجم، فلما ضَرَب ابن ملجم عليًّا هرب وردان، فتلقاه عَبْد اللهَّ بن نجبة، فقال لهُ: مالي أرى السيف معك؟ فلجلج، ثم قال: قتل ابْنُ ملجم وشبيبُ بْن بجرة الأشجعي أميرَ المُؤْمِنِينَ.

فقال: ما بال سيفك معك؟ - وَكَانَ سيفه مُعصبًا بالحرير لكي يفلت إذا تُعُلق بِهِ - فلجلج، فأخذ السيفَ من يده فضرب به عُنقه؛ فأصبح قتيلاً فِي الرّباب.

وكان علي ﷺ إذا رآه يتمثل بقول عمرو بن معي كرب فِي قيس بن مكشوح المرادي - والمكشوح اسمه هبيرة، وإنما سمي المكشوح لأنه ضُرب على كشحه -:

أُرِيدُ حَيَاتَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي... عَذِيرُكَ من خَلِيلكَ منْ مُرَادِ

وقيل لعليٍّ: كأنك قد عرفته وعرفت ما يريد، أفلا تقتله؟ فقَالَ: كَيفَ أقتلُ قاتِلِي؟

فصلٌ

قال أبو الفرج:..... [(١)] توفي عليٌّ ﵁، وأراد ابنه الحَسَن أن يُصالح مُعَاوِيَة ﵄؛ خرج عَلَى الحسنِ بنِ عليٍّ: الجرّاحُ بْنُ سِنان الخارجيّ، وقال: لقد أشركتَ كَمَا أشرك أبوك، ثم طعنه على أصلِ فَخِذه.

وكانت الخوارج وقت القتال للمسلمين يقول بعضهم لبعض: تهيؤوا للقاءِ الربّ، الرواحَ الرواحَ إلى الجنة.

(١) كلمات غير واضحة.

فصلٌ

وكان أول مَنْ خَرَجَ من الخوارجِ بعد قتل علي ﷺ: حوثرة الأسدي، فإنه كان متنحيًا بالبندنيجين آخر خلافة عليٍّ، فكتب إلى حابس الطائي يسأله أن يتولى أمرَ الخوارج حتَّى يسير إليه بجَمعه، فيتعاضدا على مجاهدة معاوية، فأجابه، فرجعا إلى موضع أصحاب النُّخيلة، ومعاوية بالكوفة، حيث دخلها مع الحسنِ بن علي بنِ أبي طالب ﷺ، بعد أن بايعه، وتنازل له عن الخلافة.

ثم خرج الحسنُ يريد المدينة، فوجّه إليه معاويةُ وقد تجاوز فِي طريقه يسأله أن يكون المتولي لمحاربتهم، فقال الحسن: والله لقد تركتُ لك الخلافة حقنًا لدماء المسلمين، ولا أحسب ذلك يسعني، أو يكون لي عذرٌ في ترك جهادكَ، أفأقاتل عنك قومًا أنت والله أولى بالقتال منهم ! فلما رجع الجواب إليه وجّه إليهم جيشًا أكثره من أهل الكوفة !

ثم قال لأبي حوثرة: قُم فاكفني أمر ابنك، فصار إليه أبوه، فدعاه إلى الرجوع، فأبى وصمّم، فقال له: يا بنيّ أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحنّ إليه؟ فقال: يا أبتِ، أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كُعوب الرُمح أشوق مني إلى ابني! فرجع إلى معاوية فأخبره الخبر، فقال: يا أبا حوثرة، عتا هذا جداً!

فلما نظر حوثرةُ إلى أهل الكوفة قال: يا أعداء الله، أنتم بالأمس تُقاتلون معاوية لتَهدّوا سلطانه، واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدّوا سلطانه!

فخرج إليه أبوه فدعاه إلى البِراز، فقال: يا أبتِ، لك فِي غيري مندوحة، ولي فِي غيرك عنك مذهب، ثم حمل على القوم وهو يقول:

أُكرزْ على هذي الجموع حوثرهْ فعن قليلٍ ما تنالُ المغفرهْ

فحمل عليه رجل من طيءٍ فقتله، فرأى أثر السجود قد لوّح جبهته، فندم على قتله.

وروى ابن أبي الدنيا من طريق عمار بن ياسر ﷺ، يرويه عنه محمد بن كعب القُرظي

أن النبي ﷺ قال لعلي: "هل تدري من أشقى الناس؟" قال: خبّرني يا رسول الله؟ قال: "أشقى الناس اثنان: أحمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يخضِب هذه من هذه"[١]، ووضع يده الشريفة على لحيةِ علي، وقَرنه، ﷺ.

وَقَالَ أَبُو العبَّاسِ: ويُروى عن عياض بن خليفة الخزاعي قال: تلقاني علي في الغَلس، فقال: من أنت؟

قلت: عياض بن خليفة الخزاعي.

قال: ظننتك أشقاها الذي يَخضب هذه من هذا، ووضع يدَه على لحيته ورأسه.

وكان ﷺ كثيرًا ما يقول - قال أبو العباس المبردُ: أحسبه عند الضجَر لأصحابه -: ما يمنع أشقاها أن يَخضب هذه من هذا! ووضع يده على لحيته ورأسه.

وأخبارُ الخوارجِ كثيرةٌ، وَقدِ استقصينا أمرهم وما فيه من معنى أدب، أو شعر مستطرف.

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٣٢٤).

فصلٌ

وخرج فِي أيام زياد قَريب بن مرة الأزدي وزُحاف الطائي - وكانا مجتهِدَين فِي دينهما بالبصرة - واختلف الناس أيها الأمير- فاعترضا الناسَ فِي سِكك البصرة؛ فلقيا شيخًا ناسكًا من بني ضبيعة بن وائل، فقتلاه، فَخَرَجَ رجلٌ من بنِي قطيعةَ مِن الأزدِ، وَفِي يدِهِ السَّيف، فنَادَاهُ النَّاسُ مِن ظهُورِ البيوتِ: الحرُوريَّةُ، انْجُ بِنَفْسِك ! فنادَوهُ: لسنَا بحرُوريَّةٍ، نحنُ الشُّرطُ، فقتلُوه، فبلغَ خبرُهُمَا أبا بلَالٍ الخَارجِيَّ، وكان لا يرى الاعتراضَ، ولا القتالَ - ومضى خبرُه مع ما مضى - فَقَالَ: قَريبٌ لا قَرَّبهُ اللهُ من الخير، وزُحَاف لا عفَى اللهُ عَنْهُ، ركبَاهَا عَشْوَاء مُظْلمَةً، يَعْنِي: اعْتِرَاضَهُمَا النَّاسَ، يقتلُونَ منْ وجدُوا منَ النَّاسِ.

وجعَلَا لا يمرَّانِ بقبيلةٍ إلَّا قتلَا منْ وجَدَا، حتَّى مرَّا بِبَنِي علي بنِ سودٍ منَ الأزدِ، وكَانُوا رُماةً، وقَالَ رجلٌ مِن بني عَليِّ بنِ سُودٍ:

لَا شَيءَ للقَوْمِ سِوَى السَّهَامِ ... مشحوذةً فِي غَلسِ الظَّلَامِ

فخرج عنهم قَريب ورفيقه، وخافُوا الطَّلبَ، فاشتقُوا مَقْبَرةَ بنِي يَشْكُرَ بن بكر بن وائل، حتَّى نفذوا إلَى مُزينة؛ فطلبتهم الأزد فقتلوهم.

ثم غدا الناس إلى زياد فقال لهم: ألا ينهى كلُ قومٍ سفهاءهم ! يا معشر الأزد، لولا أنكم أطفأتم هذه النار لقلتُ: إنكم الذين أرّثتموها. فكانت القبائل إذا أحست بخارجيّةٍ فيهم شدتهم وثاقًا؛ وأتت بهم زيادًا. فكان هذا أحد ما يذكر من صحةِ تدبيره[1].

---

(١) «الكَامِل فِي اللُّغَةِ والأدبِ» (٣/ ١٧٩ ـ ١٨٠)، «شَرْح نَهْجِ البَلَاغَةِ» (٤/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

فصلٌ

وكانت نساءُ الخوارج تُقاتل معَهم؛ اقتداءً بزعمهم بنساء الصحابة ﷺ في قتال الكفار!

وكان زيادٌ له تدبير في الخوارج، فلما خرجت النساءُ معهم ظفر بامرأة فقتلها فعرّاها وتركها معراةً. فلم تخرج النساءُ بعد ذلكَ على زيادٍ، وكن إذا دُعين إلى الخروجِ يقلن: نحن لا نخافُ القتلَ، ولولا التعرية لسارعنا.

وكان الخوارج أيام ابن عامر - في ولايته على البصرةِ لمعاوية - أخرجوا معهم امرأتين، يقال لأحدهما كحيلة، والأخرى قَطام، فجعل أصحابُ ابن عامر يصيحون بهم: يا أصحاب كحيلة وقطام! وجعلوا يُعرّضون لهم بالفجور، فنادتهم الخوارج بالكفّ، ويقول قائلهم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

وكانت من المجتهدات الخوارج امرأةٌ يقال لها: البلجاء، وهي امرأةٌ من بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، رهط سَجاح، التي تنبأت، وكان مرداس بن حدير أبو بلال تُعظمه الخوارج، وكان كثير الصواب في لفظه، فلقيه غيلان بن خرشة الضبّي، فقال: يا أبا بلال! إنِّي سمعت الأمير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البلجاء، وأحسبها ستُؤخذ، فمضى إليها أبو بلال، فقال لها: إن الله قد وسّع على المؤمنين في التقية، فاستتري؛ فإن هذا المُسرف الجبار العنيد قد ذكركِ، قالت: إن يأخذني فهو أشقى بي، فأما أنا فما أحب أن يَعنت إنسان بسببي. وأُطلب منه. تعني: قبيلتها.

فوجه إليها عبيدُ الله بن زياد، فأُتي بها، فقطع يديها ورجليها، ورمَى بها في السوق، فمر أبو بلال في السوق والناس مجتمعون، فقال: ما هذا؟

قالوا: البلجاء، فخرج إليها فنظرها، ثم عضّ على لحيته، وقال لنفسه: لهذه أطيب نفسًا عن بقية الدنيا منك يا مرداس!

ثم إن عبيد الله تتبع الخوارج فحبسهم، وحبس مرداسًا معهم، فرأى صاحب السجن اجتهاده وحلاوة منطقه فقال لمرداس: إني أُحب أن أوليك معروفاً؛ أفرأيتَ إن تركتك تنصرف ليلاً إلى أهلك، أتُدلج إليّ آخر الليل؟ قال: نعم. فكان يفعل ذلك به كل ليلةٍ.

فلجّ عبيد الله بن زياد في طلب مَن هو على رأي الخوارج وقتلهم، فكُلّم في بعض الخوارج فلجّ وأبى، وقال: أقمع النفاق قبل أن ينجم. لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النارِ إلى اليَراع.

فلما كان ذات يوم قتل رجلٌ من الخوارج رجُلًا من أصحاب الشرطة، فقال ابن زياد: ما أدري ما أصنع بهؤلاء! كلما أمرت بقتلِ رجل منهم فتكوا بقاتله! لأقتلنّ كلَّ من في حبسي منهم.

فأخرج السجان مرداسًا كما كان يفعله، يُخرجه إلى منزله ثم يعود إليه، فأتى مرداسًا الخبرُ بذلك وهو في بيته، فلما كان السحَر تهيأ للرجوع إلى السجن، فقال له أهله: اتقِ الله في نفسك، فإنك إن رجعتَ قُتلت، فقال: والله لا ألقى الله غادرًا. فرجع إلى السجّان فقال: إني قد علمتُ ما عزم عليه صاحبك، فقال: أعلمتَ ورجعتَ؟! والله لا أكون سببَ قتلك، فهرب معه.

ومرداس هذا تنتحله جماعةٌ من أهل الأهواء؛ لبصيرته، وصحة عبادته، وظهور بيانه، تنتحله المعتزلة، وتزعم أنه خرج مُنكرًا لجَور السلطان، داعيًا إلى الحق، ويحتجون بقوله لزياد حين خطب على المنبر وقال: والله لآخذنّ المُحسنَ منكم بالمسيء، والحاضرَ بالغائب، والصحيحَ بالسقيم، فقام إليه مرداس فقال: قد سمعنا ما قلتَ أيها الإنسان، وما هكذا ذكر الله عن نبيه إبراهيم عليه السلام، إذ يقول: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ الآيةَ، وأنت تزعم أنك تأخذ المطيعَ بالعاصي.

فَسَمِعَهَا زِيَادٌ.

فَقَالَ: يَا هَذَا إِنِّي لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَبْلُغَ مَا تُرِيدُهُ حَتَّى أَخُوضَ الدِّمَاءَ خَوْضًا.

ثُمَّ خَرَجَ فِي عَقِبِ هَذَا الْيَومِ.

والشيعة تنتحله، وتزعم أنه منهم، وأنه كتبَ إلى الحسين بن علي ﵄: إني لستُ أرى رأي الخوارج، وما أنا إلا على مذهبِ أبيك.

ويُروى أن مرداسًا مرَّ بأعرابي يهنأ بعيرًا لَهُ بقَطِران، فسقط البعير من شدّة حره، فوقع مرداس مغشيًا عَلَيْهِ، فظَنَّ الأعرابيُ أنه صُرِعَ، فقعد وقرأ فِي أذنهِ، فلمّا أفاق قَالَ لَهُ الأعرابي: قرأت فِي أذنك.

قَالَ لَهُ مرداس: لَيْسَ بِي مَا ظننتَ، ولكن رأيت بعيرَك يهرج من القَطِران، فذكرتُ قَطِرانَ جهنم؛ فأصابني مَا رأيت.

فَقَالَ الأعرابي: لا جرمَ، واللهِ لا أفارقُكَ أبدًا[1].

..... [2]قدامة بن عنزة جد سوار بن عبد الله قاضي البصرة التميمي، وكان قدامة المذكور منْ أشدِّ أهلِ البصرةِ عبادةً فِي زمانِه وأفقهِهِم، فطلبَ إليهِ أبو بلالٍ وَرَغَّبَهُ فِي الخُروجِ معَهُ، وقال له:أما ترى جَور ابن زياد؟

فقال لهُ: قد أراه ولا أرى الخروجَ.

وخرج أبو بلالٍ بعد ذلك.

وذُكر لعبيد الله بن زياد أن رجُلًا من بني سدوس من بكر بن وائلٍ، يقال له: أبو عبادة من رؤوس الخوارج ونُساكهم، فبعث إليه فأخذه، فأتاه رجلٌ من آل ثور، فكذب عنه ليذب عنه بذلك، وقال: هو صِهري وفي ضِمني، فخلّى عنه، فلم يزل الرجل يتفقده حتى تغيبَ عنه، فأتى عبيد الله بن زياد فأخبره، فبعث ابن زياد من يتطلبه فأُخذ، وأُتي به ابن زياد، وقال له: أين كنت فِي غيبتك؟

---

(١) «الكَامِل» (٣/ ١٨٢).

(٢) كلمات غير واضحة.

قال: كنتُ عند قوم يذكرون الله ويذكرون أئمة الجَور فيتبرأون منهم!

قال: ادللني عليهم.

قال: إذن يسعدوا وأشقى، ولم أكن لأروّعهم !

قال: فما تقول في أبي بكر وعمر؟ قال: خيراً

قال: فما تقول في أمير المؤمنين عثمان، وأمير المؤمنين معاوية، أتتولاهما؟ قال: إن كانا وليين لله فلستُ أعاديهما، وأراغه مرات، فلم يرجع، فعزم على قتله، فأمر بإخراجه إلى رَحبةً تعرف برحبة الرسي.

فجعل الشُرط يتحاشون قتلَهُ، ويروغون عنه توقيًا؛ لأنه كان متقشفًا، عليه أثرُ العبادة، حتى أتى المثلم بن مسروح الباهلي، وكان من الشُرط، فتقدم فقتله، فائتمر به الخوارج أن يقتلوه. وكان رجُلًا مغرمًا باللَقاح، يشتريها ويبيعها، فأرسلوا إليه رجُلًا في هيئة الفتيان، عليه دِرع من زعفران.

فلقيه بالمِربد وهو يسأل عن لَقحة صفيّ، فقال له الفتى: إن كنتَ تبلغ الثمن، فعندي ما يغنيك عن غيره، فامض معي.

فمضى المثلم على فرسه والفتى أمامه، حتى أتى به منزلَ بني سعد بن تميم، وقال: ادخل على فرسك، فلما دخل وتوغل في الدار أغلق الباب دونَه، وثارت به الخوارج فاعتوره حريث بن حجل، وكهمس بن طلق الصريمي التميميان فقتلاه، وجعلا الدراهم التي كانت معه في بطنه، ودفناه في ناحية الدار، وحكّا آثار الدم، وخليا فرسَه في الليل، فأصيب الغد في المِربد.

ويقال: وتجسس عنه الباهليون فلم يروا له أثرًا، فاتهموا به بني سدوس، الذي قتل المثلم صاحبَهم؛ فاستعدَوا عليهم السلطان، وجعل السدوسيون يحلفون لهم أنهم ما فعلوا ولا علموا، فتحامل ابن زياد مع الباهليين عليهم، فأخذ من السدوسيين أربع ديات، وقال: ما أدري ما أصنع بهؤلاء الخوارج ! كلما أمرت بقتلِ رجلٍ، اغتالوا قاتله.

فلم يُعلم بمكانه حتى خرج مرداس.

فَصْلٌ

في خروج مرداس الخارجي:

فلما خرج مرداس، وبعث عبيد الله بن زياد إليهم ابنَ زرعة الكِلابي وتواقفوا للقتال صاح بهم حريث بن حجل وهو مع مرداس: أههنا مَنْ بَاهلة أحدٌ؟

قالوا: نعم.

قَالَ: يا أعداء الله أخذتم للمثلم من بني سدوس أربع ديات، وأنا قتلته، وجعلتُ دراهم مَعَهُ فِي بطنه وَهُوَ فِي موضع كذا مدفون.

فلَمَّا انهزم ابن زرعة وأصْحَابُهُ صَارُوا إِلَى الدَّارِ فَأَصَابُوا أشلَاءَهُ، ففي ذَلِكَ يقُولُ أَبو الأسودِ الدُّؤلِي:

آليتُ لا أغدُو إِلَى رَب لَقحة ... أساومه حتَّى يؤوب المثلمُ !

فلَمَّا جدَّ ابنُ زيادٍ فِي طلبِ الخوارجِ، وهرب مرداس من السجن، كما مرَّ، قال لأصحابه لما عزم على الخروج: والله ما يسعُنا المقَام بينَ هؤلاءِ الظَّالمينَ، تجري أحكامُهم علينا مُجانبين للعدل، مفارقين للفضل، وإنّ الصبر على هذا لعظيم، وإن تجريد السيف وإخافة السبيل لعظيم، ولكنا لا نشذُّ عنهم، ولا نجرّد سيفًا، ولا نُقاتل إلا من قاتلنا.

فاجتمع إليه أصحابه زهاء ثلاثون رجُلًا منهم ابن حجل وكهمس بن طلق الصريمي، فأرادوا أن يولُّوا أمرهم حريثًا، فأبى. فولّوا أمرهم مرداسًا.

فلما مضى بأصحابه لقيه عبدُ الله بن زيدٍ الأنصاريّ، وكان له صديقًا، فقال له: أين تريد يا أخي؟

قال: أريد أن أهرب بديني ودين أصحابي من هؤلاء من الحكام الجورة.

فقال: أعلم بكم أحد؟

قال: لا.

قال: فارجع.

قال: أو تخاف عليَّ مكروها؟

قال: نعم، وأن يؤتى بك.

قال: فلا تخف؛ فإني لا أجرّد سيفًا، ولا أُخيف أحدًا، ولا أقاتل إلا من قاتلني.

فمضى من البصرة حتى نزل آسك، وَهُوَ مَا بَينَ رَامَهُرْمُزَ وأرجانَ، وفيه الوقعة، فمرَّ بِهِ مالٌ يُحْمَلُ إِلَى ابنِ زيادٍ، وَقَد قارب أصحابُه الأربعين، فحطَّ ذَلِكَ المال، فأخذ مِنْهُ عطاءه وعطاء أصحابه، وردّ الباقي عَلَى الرسل

وقال: قولوا لصاحبكم إنما قبضنا أُعطياتنا.

فقال بعضُ أصحابه: فعلام ندعُ الباقي؟

قال: إنهم يقسمون هذا الفيء كما يقيمون الصلاة، فلا نقاتلهم على الصلاة.

ولأبي بلال أشعار فِي الخروج:

أبعدَ ابنَ وهبٍ ذِي النَّزاهَةِ والتُّقَى ... ومَنْ خَاضَ فِي تِلْكِ الحرُوبِ المَهَالكَا

أحــبُّ بقَــاءً أو أُرجِّــي سَــلَامةً ... فيَــا ربِّ ســلِّم نيتِــي وبَــصِيرَتِي

وَقَدْ قتلُوا زَيدَ بنَ حِصــنٍ ومَالِكَا ... وَهَبْ لِي التُّقَــى حتَّى أَلَاقِي أُولئِكَا

ويروى أنَّ رجُلًا منْ أصحَابِ ابنِ زياد، قال: خرجنا من جيش نريد خُراسان، فمررنا بآسك، فإذا نحن بمرداس وأصحابه وهم أربعون رجلاً، فقال: أقاصدون لقتالنا أنتم؟

قلنا: لا، إنما نريد خراسان.

قال: فأبلغوا من لقيتم أنّا لم نخرج لنُفسد فِي الأرض، ولا لنروّع أحدًا، ولكن هرَبنا من الظلم، ولسنا نقاتل إلا من يقاتلنا؛ ولا نأخذ من الفيء إلا أُعطياتنا.

ثم قال: أندب لنا أحدًا؟

فقلنا: نعم، أسلم بن زرعة الكلابي.

قال: فمتى ترونه يصل إلينا؟

قلنا له: يوم كذا وكذا.

فقالَ أَبُو بلالٍ: حَسْبُنَا اللهُ، ونعمَ الوَكيلُ.

وندب عبيد الله بن زياد أسلم بن زرعة الكِلابي، ووجّهه إليهم فِي ألفين.

فلما صار إليهم صاح به أبو بلال: اتَّقِ اللهَ يا أسلمُ فإنا لا نريد قتالاً ولا نحتجز مالاً، فما الذي تريد؟

قال: أريد أن أردَّكُم إلى ابنِ زيادٍ.

قال: إذن يقتلنا.

قال: وإن قتلكم.

قالوا: أتشرَكُ فِي دمائنا؟

قَالَ: إنِّي أدينُ أنه محقٌّ، وأنكم مُبطلون.

فصاح بِهِ حريث بن حجل: أهو محق، وَهُوَ يطيع الفجَرة وَهُوَ أحدهم، ويقتل بالظِّنة ويخصّ بالفيء، ويجور فِي الحُكم، أما علمت أنه قتل بابن سعاد أربعة برآء وأنا أحد قتلته، ولقد وضعت فِي بطنه دراهم كانت مَعَهُ.

ثمَّ حَمَلُوا عَلَى أَسْلَمَ حَمْلَةَ رَجُلٍ واحِدٍ، فانهزم هُوَ وأصْحَابُهُ مِن غيرِ قتَالٍ، وكان معبد، أحدهم قد كاد يأخذ أسلم بن زرعة.

فلَمَّا وَرَدَ أَسْلَمُ بنُ زُرْعَةَ إِلَى ابن زياد غضب عَلَيْهِ غضبًا شديدًا.

وَقَالَ: ويلك أتمضي فِي ألفين فتنهزم من حملة أربعين.

وكان أَسْلَمُ بنُ زُرْعَةَ يقول: لئن يذمني ابن زياد حيًّا أحب إليَّ من أن يمدحني ميتًا !

وكَانَ إذَا خَرَجَ إلى السُّوقِ أو مرَّ بصبيانٍ صَاحُوا بِهِ: أبو بلالٍ وراءَكَ ! ورُبَّما صاحوا بِهِ: يا مَعبد خذه ! حتَّى شكى ذَلِكَ إِلَى ابن زياد، فأمر الشُرط أن يكفوا الناس عَنْهُ، ففي هذه الواقعة:

فلما أصبحوا صلُوا وقاموا إلى الجُرد العتاق مسوّمينا
فلما استجمعوا حَمَلُوا عليهم فظل ذوو الجعائل يقتلونا
بقية يومهم حتَّى أتاهم سَواد الليل فِيهِ يراوغونا
يقول بصيرهم لما أتاهم بأن القومَ ولوا هاربينا
أألفا مؤمنٍ معكم زعمتم ويهزمكم بآسكَ أربعونا
كذبتم لَيْسَ ذاك كَمَا زعمتم ولكنّ الخوارجَ مؤمنونا
همُ الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة يُنصرونا (١)

ثم ندب لهم عبيد الله بن زياد الناسَ، فاختار عباد بن أخضر ـ وليس هو بابن أخضر إنما هو عباد بن علقمة المازني التميمي، وكان أخضر زوج أمه فغلب عليه - فوجهه ابن زياد فِي أربعة آلاف، فنهَد لهم.

ويزعم أهل العلم أن القوم قد كانوا تنحّوا من أرض فارس، فصار إليهم عباد وكان التقاؤهم فِي يوم جمعة، فناداه أبو بلال: اخرج إليَّ يا عبادُ، فإني أريد أن أحاورك.

فَقَالَ: مَا الَّذِي تبتغي؟

قَالَ: أن آخذ بأقفائكم فأردكم إِلَى الأمير عبيد الله بن زياد.

قَالَ: أو غيرَ ذَلِكَ؟ أن ترجع، فإنَّا لا نُخيف سبيلاً، وَلَا نَذعر مسلمًا، ولا نُحارب إلا من حاربنا، وَلَا نجبي إلا مَا حمينا.

فَقَالَ عباد: الأمر مَا قلتُ لك.

فَقَالَ لَهُ حريث بن حجل: أتحاول أن ترد فئةً من المُسْلِمِينَ إِلَى عبدٍ ضال.

فَقَالَ لَهُم: أَنْتُم أولى بالضلال مِنْهُ. وَمَا من ذَلِكَ بد.

قَالَ: وقدِم القعقاع بن عطية الباهلي من خراسان يريد الحج، فلمَّا رأى الجمعين، قَالَ: مَا هَذَا؟

---

(١) «الكَامِل» (٣/ ١٨٤).

قَالُوا: الشُّراة.

فَحَمَلَ عَلَيْهِم ونشب الحرب، فأخذ الخوارج القعقاع أسيرًا، فأتوا بِهِ أبا بلال، فقال: مَا أنت؟

قال: أنا لست من أعدائك، إنَّما قدمتُ للحج فجَهلتُ فغررتُ، فأطلقه، فرجع إلى عباد فأصلح من شأنه. وَحَمَلَ على الخوارج ثانية، وهو يقول:

أُقَاتِلُهُم وَلَيْسَ عليَّ تعبٌ نشَاطاً لَيْسَ هَذَا بالنَّشَــاطِ

أكرُّ على الحَرُوريينَ مُهْرًا لأحمِلَهُم عَلى وضَحِ الصِّرَاطِ

فَحَمَلَ عليه حريث بن حجل السدوسي وكهمس بن طلق الصريمي، فأسَرَاه وقتلاه، ولم يأتيا بِهِ أبا بلال، فلم يزل القوم يجتلدون حتَّى جاء وقت صلاة يوم الجمعة.

فناداهم أبو بلال: يا قوم، هذا وقت الصلاة، فوادِعونا حتَّى نصلي وتصلوا.

قالوا: لكَ ذاكَ، فرمَى القومُ أجمعُونَ بأسلحتِهِم، فأسرعَ عبادٌ ومَن معَهُ، وقضوا صلاتَهُم، والحرورية يبطئونَ، فهُم بَينَ راكعٍ وقائمٍ فِي الصَّلاةِ وقاعِدٍ، حتَّى مالَ عبادٌ عَلَيْهِم ومَن معَهُ، فقتلُوهُم جَميعًا. وأُتِيَ برَأسِ أَبِي بلَالٍ.

وتروِي الشّرَاةُ أنَّ مرداسًا أبَا بلالٍ، لَمَّا عقدَ على أصحَابِهِ، وعزمَ على الخُرُوجِ، رفعَ يديهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ إنْ كانَ مَا نحنُ فِيهِ حقًّا فأرنَا آيَةً.

فرجفَ البيتُ حتى كاد يخسف.

وَقَالَ آخرُونَ: فارتفعَ السَّقفُ.

ويقالُ: إن رجلًا مِنَ الخَوَارِجِ ذكرَ ذلكَ لأبِي العاليةِ الرياحِي يُعجبهُ من الآيةِ، ويرغّبُهُ فِي مذهبِ القومِ، فَقَالَ أَبُو العاليةِ: كادَ الخسفُ ينزلُ بِهِم، ثمَّ أدركتهُم نظرة من الله!

فلما فرغ عباد من الجماعة أقبل فصُلبت رؤوسهم، وَمِنْهُم داود بن شبث، وكان ناسكًا، وَمِنْهُم حبيبة النصري من قيس، وكان مجتهدًا. يُروى عَنْهُ أنه قال: لما عزمتُ على الخروج فكرت فِي بناتي، فقلتُ ذات ليلة: لأمسكنّ عن نفعهن حتَّى أنظر، فلمّا كان فِي

جوف الليل استسقت بنية لي، فقالت: يا أبتِ اسقني، فلمّا أُجبها، فأعادت، فقامت أخيّة لها فسقتها. فعلمت أن الله تَعَالَى غير مضيّعهن، فأتممت عزمي !

وكان فِي القوم كهمس، وكان من أبر الناس بأمّه، فَقَالَ لها: يا أمه! لولا مكانك لخرجتُ، فقالت: يا بُني، وهبتك لله تَعَالَى !

ففي مقتلهم يقول عيسى بن فاتك الحبطي الخارجي:

ألا فِي الله لا فِي الناس شالت ... بداودٍ وإخوته الجذوعُ
مضوا قتلاً وتمزيقًا وصلبًا ... تحوم عَلَيْهِمْ طيرٌ وقوعُ
إذا مَا الليلُ أظلم كابدوه ... فيُسفر عنهمُ وهمُ ركوعُ
أطار الخوفُ نومَهم فقاموا ... وأهلُ الأرض فِي الدنيا هجوعُ

وقال عِمران بن حطان:

يا عينُ بكّي لمرداسٍ ومصرعهِ ... يا ربَّ مرادس ألحقني بمرداسِ
تركتني هائماً أبكي لمرزئتي ... فِي مَنزلٍ موحشٍ من بَعدِ إيناسِ
أنكرتُ بعدكَ مَا قدْ كنتُ أعرفه ... مَا الناسُ بعدكَ يا مرداسُ بِالنَّاسِ
إما شربتَ بكأسٍ دارَ أوَّلها ... على القرون فذاقوا جُرعة الكاسِ
فكل من لم يذقها شاربًا عجِلاً ... منها بأنفاسٍ وِردٍ بعد أنفاسِ

فَصْلٌ

فِي ذكرِ قتلِ الخَوَارِجِ لعبادِ بن أخضر، قاتل مرداس أبي بلال رئيس الخوارج المذكور آنفًا، وقد ذكرناه أيضًا عند ذكر مجتهدي الخوارج وعُبّادهم فِي المجملين من أول الكتاب.

ثم إن عباد بن أخضر المازني التميمي الذي تولى حربَ الخوارج لبث دهرًا فِي المِصر محمودًا، موصوفًا بما كان منه، فلم يزل على ذلك حتى ائتمر به جماعةٌ من الخوارج أن يفتكوا به، وذَمر بعضُهم بعضًا على ذلك.

فجلسوا له فِي يوم جمعة وقد أقبل على بغلة له، وابنُه رديفه.

فقام إليه رجل منهم، فقال: أسألك عن مسألة؟

قال: قل.

قال: أرأيتَ رجُلًا قتل رجُلًا بغير حق، وللقاتل جاهٌ وقَدْر وناحية من السلطان، ألولي ذلك المقتول أن يفتك به إن قدَر عليه؟

قال: بل يرفعه إلى السلطان.

قال: إن السلطان لا يعدي عليه لمكانه منه، وعظيم جاهه عنده.

قال: أخاف عليه إن فتك به فتك به السلطان.

قال: دع ما تخافه من ناحية السلطان، أتَلحقه تبعةٌ فيما بينه وبين الله؟

قال: لا.

قال: فحكّم هو وأصحابه وخبطوه بأسيافهم.

ورمى عباد ابنه فنجا.

وتنادى الناس: قُتل عباد! فاجتمع الناس فأخذوا أفواه الطرق، وكان مقتل عباد فِي سكة بني مازن عند مسجد بني كُليب، فجاء معبد بن أخضر أخو عباد – وهو معبد بن علقمة، وأخضر زوج أمها – فِي جماعة من بني مازن، فصاحوا بالناس: دعونا وثأرنا. فأحجم الناس وتقدم المازنيون، فحاربوا الخوارجَ حتى قتلوهم جميعًا، لم يُفلت منهم أحد إلا عبيدة بن هلال، فإنه خرق خُصًا ونفذ منه. ففي ذلك يقول الفرزدق:

لقـــد أدرك الأوتارَ غير ذميمـــة إذا ذُم طلاب التراث الأخاضرُ
همُ جرّدوا الأسياف يوم ابن أخضر فنالوا التي ما فوقها نال ثائــرُ
أقادوا بــه أُسدًا لهـا فِي اقتحامهـا إذا برزت نحو الحروب بصائرُ

وقال معبد بن أخضر:

سأحمي دمـــاءَ الأخضريين إنـــه أبى الناس إلا أن يقولوا ابنَ أخضرا

وكان عبيد الله بن زياد بالكوفة حين مقتل عباد، وكان خليفته على البصرة عبيد الله بن أبِي بكرة، فكتب إليه يأمره ألا يدع أحدًا يُعرف بهذا الرأي إلا حبسه وجدّ فِي طلبه ممن تغيب منهم. فجعل عبيد الله بن أبي بكرة يتتبعهم فيأخذهم، فإذا شُفع إليه فِي أحدٍ منهم كفَّله إلى أن يقدم ابن زياد، حتى أتي بعروة بن أديّة؛ فأطلقه، وقال: أنا كفيلك.

فلما قدم عبيد الله بن زياد أخذ مَن فِي الحبس منهم فقتلهم جميعًا.

وطلب الكفلاء بمن كفلوا به منهم، فكلُ من جاءه بصاحبه أطلقه، وقتلَ الخارجي، ومن لم يأتِ بمَن كُفل به منهم قتله، ثم قال لعبيد الله بن أبي بكرة: هات عروة بن أديّة، قال: لا أقدر عليه، قال: إذن والله أقتلك فإنك كفيله، فلم يزل يطلبه حتى دُل عليه فِي سرب العلاء بن سوية المنقري، فكتب بذلك إلى عبيد الله بن زياد، فأخذه وقتله، وقد تقدم خبرُه.

وكان عبيد الله بن زياد أولاً يقتلهم تارة، ويجتهد أخرى، وأكثر ذلك يقتلهم، ولا يتغافل عن أحدٍ منهم، وسبب ذلك أنه أطلقَهم من حبسِ زياد لما ولي بعده، فخرجوا عليه.

ووجه يومًا بحينة بن كبيش الأعرجي إلى رجل من بني سعد يرى رأي الخوارج، فجاءه بحينة فأخذه.

فقال: إني أريد أن أحدث وضوءًا للصلاة، فدعني أدخل منزلي.

قال: ومَن لي بخروجك؟

قال: الله عز وجل، فتركه.

فدخل فأحدث وضوءًا ثم خرج، فأتى به بحينة زيادًا.

فلما مثُل بين يديه ذكر الله زيادٌ، ثم صلى على نبيه، ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بخير، ثم قال: قعدتَ عني فأنكرت ذلك، فذكر الرجل ربَه فحمده، ثم ذكر النبي ==، ثم ذكر أبا بكر وعمر بخير، ولم يذكر عثمان.

ثم أقبل على زياد فقال: إنكِ قد قلت قولاً فصدِّقه بفعلك، وكان من قولك: ومن قَعَد عنا لم نُهِجه. فقعدتُ.

فأمر له بصلة وكسوة وحِملان، فخرج الرجل من عند زياد وتلقاه الناس يسألونه، فقال: ما كلكم أستطيع أن أخبره، ولكني دخلتُ على رجل لا يملك ضرًا ولا نفعًا لنفسه، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فرزق الله منه ما ترون!

(١)

....

وكان زيادٌ يبعث إلى الجماعة منهم فيقول: ما أحسب الذي يمنعكم من إتياني إلا الرجلة؟ فيقولون: أجل، فيحملهم ويقول: اغشوني الآن واسمروا عندي.

فبلغ ذلك عمرَ بن عبد العزيز، فقال: قاتل الله زياداً! جمع لهم كما تُجمع الذرة، وحاطهم كما تحوط الأم البرّة، وأصلح العراقَ بأهل العراق، وترك أهل الشام بشامهم، وجبى العراق مائة ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف.

قال أبو العباس: وبلغ زيادًا عن رجلٍ يكنى أبا الخير، من أهل البأس والنجدة، أنه يرى رأي الخوارج، فدعاه فولاّه جند سابور وما يليها، ورزقه أربعة آلاف درهم فِي كل شهر، وجعل عمالته فِي كل سنة مائة ألف، فكان أبو الخير يقول: ما رأيتُ شيئًا خيرًا من لزوم الطاعة، والتقلب بين أظهرِ الجماعة!

فلم يزل واليًا حتى أنكر منه زيادٌ شيئًا، فتنمر لزيادٍ، فحبسه، فلم يخرج من حبسه حتى مات.

---

(١) كلمات غير واضحة.

فَصْلٌ

في خبر الدهيم[١] الخارجي، وهو من القَعد.... [٢] زياد بن أبيه بالخوارج.

وكان الدُهيم رجُلًا من مراد، وكان لا يرى القعود عن الحقّ، وكان فِي الدهاء والمعرفة والشعر والفقه بمذهب الخوارج، بمنزلةِ عِمران بن حطان، وكان عِمران بن حطان فِي وقته شاعر القَعد عن الحرب من الصفرية ورئيسهم.

وللدهيم المرادي، وعمران بن حطان مسائلُ كثيرة من أبواب العلم، وفي القرآن، وفي الآثار، والسِير، وفي الغريب، وفي الشعر.

ومن شعر الدهيم المرادي من أبيات هذه بعضها:

يا نفسُ قَد طَالَ فِي الدُّنيَا مُرَاوَغَتِي ... لَا تَـأمنِنَّ لِـصَرفِ الـدَّهرِ تَنغِيـصا

إنِّي لبَـائعُ مَـا يفنَـى لباقيـةٍ ... إن لَم يعُقْنِي رجـاءَ العَـيشِ تَربِيـصا

وأَسـألُ اللهَ بيـعَ الـنَّفسِ مُحتسبًا ... حتَّى ألاقِيَ فِي الفِرْدَوسِ حُرْقُوصـا

وابـنَ المَنِيـحِ ومرداسًا وَإِخوَتَـهُ ... إِذْ فَارَقُـوا زَهْـرَةَ الدُّنيَا مَخَامِيصـا

وله أشعار كثيرة فِي مذاهبهم.

وكان زيادٌ ولّى شيبان بن عبد الله الأشعري صاحب مقبرة بني شيبان بابَ عثمان وما يليه، فجدَّ فِي طلب الخوارج وأخافهم، وكانوا قد كثروا، فلم يزل كذلك حتى أتاه ليلة - وهو متكئ على باب داره - رجلان من الخوارج، فضرباه بأسيافهما فقتلاه. وخرج بنون له للإغاثة فقُتلوا، ثم قتلهما الناس. فأُتي زيادٌ بعد ذلك برجلٍ من الخوارج، فقال: اقتلوه متكئًا كما قتل شيبان متكئًا.

فصاح الخارجي: يا عدلاه ! يهزأ به.

وخرجت خوارجُ كثيرة كلُهم قُتلوا، وانتهى الأمر بالأزارقة.

---

(١) كذا فِي الأصل ! وهو الرُهين.

(٢) كلمات غير واضحة.

فَصْلٌ

ومن ههنا افترقت الخوارج فصارت على أربعة أضرب:

الإباضية، وهم أصحاب عبد الله بن إباض التميمي.

والصُفرية؛ واختلفوا فِي تسميتهم، فقالوا قوم: سموا بابن صفّار، وقال آخرون - وأكثر المتكلمين عليه -: هم قوم نهكتهم العبادة فاصفرّت وجوهُهم.

ومنهم البيهسية؛ وهم أصحاب بيهس.

ومنهم الأزارقة؛ وهم أصحاب نافع بن الأزرق الحنَفي.

وكانوا قبلُ على رأيٍ واحد، لا يختلفون إلا فِي الشيء الشاذ من الفروع، كما قال صخر بن عروة: إني كرهت قتالَ علي بن أبي طالب ﷺ لسابقته وقرابته، فأما الآن فلا يسعني إلا الخروج، وكان اعتزل عبدَ الله بن وهب يوم النهر؛ فضللته الخوارج بامتناعه من قتال علي.

فكان أول أمرهم الذي نستأنفه: أن جماعة من الخوارج، منهم نجدة بن عامر الحنفي، عزموا على أن يقصدوا مكة، لما توجه مسلم بن عقبة يريد المدينة لوقعة الحرّة، فقالوا: هذا ينصرف عن المدينة إلى مكة، ويجب علينا أن نمنع حرمَ الله منه، ونمتحن ابنَ الزبير، فإن كان على رأينا بايعناه، فمضوا لذلك.

وكانوا قبل ذلك... [١] بالوازع الراسبي - وكان من مجتهدي الخوارج - كان يَذمر نفسه ويلومها على القعود، وكان شاعرًا، وكان يفعل ذلك بأصحابه، فأتى نافع بن الأزرق وهو فِي جماعة من أصحابه، يصف لهم جَوْر السلطان - وكان ذا لسان عضبٍ، واحتجاج وصبرٍ على المنازعة - فأتاه أبو الوازع، فقال: يا نافع، لقد أُعطيت لسانًا صارمًا وقلبًا كليلاً، فلوددتُ أن صرامةَ لسانِك كانت لقلبِك، وكلالَ قلبِك كان لِلسانك، أتحضُ على

---

(١) كلمة غير واضحة.

الحق وتقعد عنه، وتُقبّح الباطل وتقيم عليه! فقال: إلى أن يجتمعَ من أصحابك من تنكي به عدوَّك، فقال أبو الوازع:

لسانُـك لا تنكى بـــه القومُ إنما　　　تنـــالُ بكفيك النجاة مـــن الكَربِ
فجاهدْ أناسًا حاربوا الله واصطبر　　　عسى اللهُ أن يُخزي غوي بنى حربِ !

ثم قال: والله لا ألومك ونفسي ألوم، ولأغدونّ غدوة لا أنثني بعدها أبدًا. ثم مضى فاشترى سيفًا، وأتى صيقلاً كان يذمُ الخوارجَ ويدلُ على عوراتهم، فشاوره فِي السيف؛ فحمِده، فقال: اشحذه، فشحذه، حتى إذا رضيَه حكّم وخبط به الصيقل، وحمل على الناس فتهاربوا منه، حتى أتى مقبرة بني يشكر، فدفع عليه رجلٌ حائط المقبرة فكرهت ذلك بنو يشكر، خوفًا أن تجعل الخوارجُ قبرَه مهاجَرًا.

فلما رأى ذلك نافع وأصحابُه جدّوا، وخرج فِي ذلك جماعة، فكان ممن خرج عيسى بن فاتك الشاعر الخطي، من تيم اللات بن ثعلبة، ومقتله بعد خروج الأزارقة.

فمضى نافع وأصحابه من الحرورية قبل الاختلاف إلى مكة، ليمنعوا الحَرَمَ من جيش مسلم بن عقبة، فلما صاروا إلى ابن الزبير عرّفوه أنفسهم، فأظهر لهم أنه على رأيهم، حتى أتاهم مسلم بن عقبة وأهلُ الشأم، فدافعوهم إلى أن يأتي رأي يزيد بن معاوية، ولم يبايعوا ابنَ الزبير.

ثم تناظروا فيما بينهم، فقالوا: ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده، فإن قدّم أبا بكر وعمر، وبرئ من عثمان وعلي، وكفّر أباه وطلحة، بايعناه، وإن تكن الأخرى ظهر لنا ما عنده، فتشاغلنا بما يجدي علينا. فدخلوا على ابن الزبير، وهو متبذل، وأصحابه متفرقون عنه، فقالوا: إنا جئناك لتُخبرنا رأيك، فإن كنتَ عل الصواب بايعناك، وإن كنتَ إلى غيره دعوناك إلى الحق، ما تقول فِي الشيخين؟

قال: خيرًا.

قالوا: فما تقول فِي عثمان، الذي أحمى الحمى، وآوى الطريد، وأظهر لأهل مصر شيئًا، وكتب بخلافِه، وأوطأ آل أبي معيط رقاب الناس وآثرهم بفيء المسلمين؟ وفي الذي بعده

الذي حكّم في دين الله الرجال، وأقام على ذلك غير تائبٍ ولا نادم؟ وفي أبيك وصاحبه، وقد بايعا عليًا وهو إمامٌ عادلٌ مرضي، لم يظهر منه كفر، ثم نكثا بعَرَضٍ من أعراض الدنيا، وأخرجا عائشة تقاتل، وقد أمرها الله وصواحبها أن يَقرْن في بيوتهن؟

وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة! فإن أنت قلتَ كما نقول فلك الزُلفة عند الله ـ والنصر على أيدينا، ونسأل الله لك التوفيق، وإن أبيت؛ خذلك الله، وانتصر منك بأيدينا.

فقال ابن الزبير: إن الله أمر - تبارك وتعالى - ولله العزة والقدرة - في مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العتاة بأرفهِ من هذا القول، فقال لموسى ولأخيه - صلى الله عليهما - في فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ ، وقال رسول الله ﷺ: "لا تؤذوا الأحياء بسب الموتى"[1]؛ فنهى عن سبِّ أبي جهل من أجل عكرمة ابنه، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول، والمقيم على الشرك، والجادُ في المحاربة، والمتبغّض إلى رسول الله ﷺ قبل الهجرة، والمحارب له بعدها، وكفى بالشرك ذنبًا ! وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذي سميتم فيه طلحة وأبي، أن تقولوا: أتبرأ من الظالمين؟ فإن كانا منهم، دخلا في غمار الناس، وإن لم يكونا منهم لم تُحفظوني بسب أبي وصاحبه، وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للمؤمن في أبويه: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾، وقال جل ثناؤه: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾.

وهذا الذي دعوتم إليه أمرٌ له ما بعده، وليس يُقنعكم إلا التوقيف والتصريح، ولعمري إن ذلك لأحرى بقطع الحجج، وأوضح لمنهاج الحق، وأولى بأن يَعرف كلٌ صاحبَه من عدوه، فروحوا إليّ من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله.

فلما كان العشيّ راحوا إليه، فخرج إليهم وقد لبس سلاحَه، فلما رأى ذلك نجدة قال: هذا خروجُ منابذٍ لكم، فجلس على رَفع من الأرض، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه ﷺ.

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة؛ للألباني (برقم ٢٣٧٩).

ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذِكر، ثم ذكر عثمان فِي السنين الأوائل من خلافته، ثم وصلهن بالسنين التي أنكروا سيرته فيها، فجعلها كالماضية، وخَبَّر أنه آوى الحكم بن أبي العاص بإذن رسول الله ﷺ، وذكر الحِمى وما كان فيه من الصلاح، وأن القوم استعتبوه من أمور، وكان له أن يفعلها أولاً مُصيبًا، ثم أعتبهم بعدُ مُحسنًا، وأن أهل مصر لما أتوه بكتابٍ ذكروا أنه منه بعد أن ضَمن لهم العُتبى؛ ثم كتب لهم ذلك الكتاب بقتلهم، فدفعوا الكتاب إليه، فحلف أنه لم يكتبه ولم يأمر به، وقد أُمِر بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته، مع ما اجتمع له من صِهر رسول الله ﷺ ومكانه من الإمامة، وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه، وعثمان الرجل الذي لزمته يمينٌ لو حلف عليها لحلف على حق فافتداها بمائة ألف ولم يَحلف، وقد قال رسول الله ﷺ: "من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض".

فعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه، وأنا وليُ وليّه، وعدوُ عدوّه.

وأبي وصاحبه صاحبا رسول الله ﷺ، ورسول الله يقول عن الله تعالى يوم أحد لما قُطعت إصبع طلحة: "سبقته إلى الجنة"، وقال: "أوجب طلحة"[(١)]. وكان الصدّيق إذا ذكر يومَ أحد، قال: ذاك يوم كلُه أو جُله لطلحة.

والزبير حواري رسول الله وصفوته، وقد ذكر أنهما فِي الجنة، وقال جل وعز: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، وما أخبرنا بعدُ أنه سخط عليهم، فإن يكن ما سعوا فيه حقاً فأهلٌ ذلك هم، وإن يكن زلةً ففي عفو الله تمحيصها، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبيهم ﷺ.

وأما أمُكم عائشة فقد قال الله عنها: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٩٢).

فنظر بعضهم إلى بعض، ثم انصرفوا عنه !

ولما سمح ابن الزبير للخوارج في القول، وأظهر أنّه منهم، قال رجل يُقال له همام من رهط الفرزدق:

يا ابنَ الزبير أتهوى عُصبة قتلوا ظُلمًا أباك ولما تنزع الشّكَكُ[١]

ضَحُوا بعثمانَ يومَ النحرِ ضاحيةً ما أعظم الحُرمة العظمى التي انتهكوا!

فقال ابن الزبير: لو شايعتني التُرك على قتال أهل الشأم؛ لشايعتها !

(١) الشّكك: جمع شكة؛ وهي السلاح.

فَصْلٌ

قال أبو الفرج: وصار نجدة ومن معه إلى اليمامة، فصار نافع وفرقة معه إلى البصرة، وكان رجاء النميري أصيب بمكة، وهو الذي جمعهم على المدافعة عن الحرم، وانصرف الباقي مع نافعٍ إلى البصرة.... [1]، وبنو الماحوز السليطيون، ورئيس الخوارج الذي قفل بهم من مكة حسان بن بحدج، فلما وردوا البصرة نظروا في أمورهم فأمّروا عليهم نافعًا.

ويروى أن النخيلة[2] اليشكري قال لنافع يومًا: يا نافع، إن لجهنم سبعة أبواب، وإن أشدها حرًّا للباب الذي أُعِد للخوارج، فإن قدرت ألا تكون منهم فافعل، فأجمع القوم على الخروج، فمضى بهم نافع بن الأزرقِ إلى الأهواز في سنة أربع وستين، فأقاموا بها، لا يُهيّجون أحدًا، وينتظرون في أمرهم.

(١) كلمات غير واضحة.

(٢) كذا في الأصل، وفي «الكَامِلِ»: «أبا الجلد».

فَصْلٌ

وكان سبب خروجهم إلى الأهواز... [(١)] وقعت بين بني تميم والأزدِ؛ أنه لما مات يزيد بن معاوية وعبيد الله بن زياد أميرًا على البصرة؛ اضطربت أمورُه، وكان فِي حبسه من الخوارج يومئذ أربعمائة، فكلّمه عشائرُهم فيهم؛ فأطلقهم، فمشوا فِي الناس يدعون إلى محاربة السلطان ويُظهرون ما هم عليه من الجَور، فزادَ الاضطراب على عبيد الله وضاق عليه أمره، فتحول عن دار الإمارة عند بني تميم إلى الأزد، واستجار برئيس الأزد مسعود بن عمرو العتكي، فنشأت بسببه الحرب بين الأزد ومعهم ربيعة وبين بني تميمٍ.

وقد أراد عبيدالله أن يستجير بتميم فخافهم، فأقام عند مسعود أيامًا، ثم إن مسعودًا جهّزه سرًا إلى الشام [(٢)]، ثم ركب فأتى الناسَ في مسجدِ البصرة الأعظم يعتذر إليهم مما كان من أمره مع عبيد الله، وكان ثقيل الجسم؛ فدخل على بغلته، فظنوه عبيدالله؛ فقاموا إليه فقتلوه، والذي قتله رجلٌ من خوارج بني تميم.

فحملت الأزدُ يومئذ مع ربيعة - وكان بينهم حلفٌ - على بني تميم؛ فقتلوا منهم فِي بيوتهم ناسًا كثيرًا، وقتلت بنو تميم من الأزد وربيعة مثلَ ذلك.

ثم إنهم ثاني يومٍ تأهبوا للحرب يبغونها، فكانت الأزد ومَن معهم يومئذٍ أضعافَ تميم... [(٣)] البصرة بلغت عدةُ خيلهم يومئذٍ مع حلفائهم سبعين ألفًا، وفي ذلك اليوم يقول جريرٌ:

---

(١) كلمات غير واضحة.

(٢) فِي الأصلِ تكرار: «إلى الشام».

(٣) كلمة غير واضحة.

نحنُ الملوكُ إذا أتوا فِي أهلهمْ وإذا لقيتَ بنا رأيتَ أسودَا
اللابسينَ لكلِّ يومٍ حفيظةٍ حَلقًا يُداخلُ شكهُ مسرودَا
سائلْ ذوي يمنٍ وسائلهمْ بنَا فِي الأزدِ إذْ ندبوا لنا مسعُودَا
فأتاهمُ سبعونَ ألفَ مدجّجٍ متلبسينَ يلامقًا وحديدَا
قومٌ ترى صدأ الحديدِ عَليهمُ والقُبطريّ منَ اليلامقِ سُودَا

ومسعود هذا الذي ذكر جرير في شعره هو مسعود بن عمرو العتكي سيد أزد البصرة، قتله ذلك اليوم خوارج بني تميم، فإنهم أعانوا قومهم.

وكان عبس الطعان أخو كهمس فِي سعد، والرّباب فِي القلب بإزاء الأزد، وكان حارثة بن بدرٍ العدلاني من بني حنظلة بإزاء بكر بن وائل، وكان بنو عمرو بن تميم، والحبطات وبنو الحارث وبنو مازن وبنو أسيد والهجيم وبنو العنبر بإزاء عبد القيس، ورئيس بني تميم كلهم الأحنفُ بن قيس يصدرون عن رأيه، ولذلك قال حارثة بن بدر يخاطب الأحنف - وهو صخر بن قيس - شعرًا:

سيَكْفيكَ عَبْسٌ أخو كَهْمَس مُقارَعَةَ الأزدْ بالمِربدِ
وتَكْفيكَ قَيسٌ على رِسلها لُكَيزَ بنَ أفْصَى وما عددوا
ونكفيكَ بَكْرًا إذا أقبلت بضربٍ يشيبُ له الأمردُ

فأقبلت الأزد وربيعة ورئيس الأزد زياد بن عمرو العتكي، وكان في القلب، فبلغ ذلك الأحنف، فقال: هذا غلامٌ حدَثٌ شأنه الشهرة، ولم يبالِ أين قذف بنفسه.

فلما تواقفوا للقتال ناداهم الأحنف: يا معشر الأزد وربيعة من أهل البصرة، أنتم والله أحب إلينا من تميم الكوفة، وأنتم إخواننا في الدار، وأعواننا على العدوِّ، وأنتم بدأتمونا بالأمس، ووطئتم حريمَنا، وحرّقتم علينا، فدفعنا عن أنفسنا، ولا حاجة لنا في الشر ما أصبنا إلى الخير مسلكًا، فتيمموا بنا طريقًا قصدًا.

فوجه إليه زياد بن عمرو: نُخيرك خلةً من ثلاثٍ: إن شئتَ فانزل أنت وقومك على حُكمنا، وإن شئتَ فخلِّ لنا عن البصرة وارحل أنت وقومُك إلى حيث شئتم، وإلا فدُوا

قتلانا، وليودَ مسعودٌ دية عشرة!

فقال الأحنف: سننظر ونختار، فانصرفوا في يومكم هذا. فهز القوم راياتهم وانصرفوا، فلما كان الغد بعث إليهم الأحنف: إنكم خيّرتمونا خِلالاً ليس فيها خيارٌ:

أما النزول على حُكمكم، فكيف يكون والجراح تقطر دمًا؟

وأما تركُ ديارنا فهو أخو القتل، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾.

ولكن الثالثة إنما هي حملُ المالِ، فنحن لا نُبطل دماءنا، وندي دماءكم، وإنما مسعودٌ رجل من المسلمين، وقد أذهب الله أمرَ الجاهلية.

فاجتمع القوم على أن يَقِفوا أمر مسعود، ويُغمد السيف، ويؤدى سائرُ القتلى من الأزد وربيعة.

وضَمن ذلك الأحنف فضُمِّن، ودفع إليهم إياس بن قتادة المجاشعي رهينةً حتى يؤدَّى هذا المال، فرضي به القوم، ففخر بذلك الفرزدق على جرير بن عطية؛ فقال:

عَشِيَّةَ سَالَ المِرْبَدَانِ كِلَاهُمَا ... عَجَاجَةَ مَوْتٍ بِالسُّيُوْفِ الصَّوَارِمِ
ومنَّا الَّذِي أَعْطَى يَدَيهِ رَهِينَةً ... لصُلْح معدٍّ يَوْمَ ضَرْبِ الجَمَاجِمِ
هُنَالِكَ لو تَبْغِي كُلَيْبًا وجَدْتَهَا ... أَذَلَّ مِنَ القِرْدَانِ تَحْتَ المَنَاسِمِ[1]

ولما اصطلح الناس وتكافّوا، لِحق بنافع بقيةُ أصحابه، ولم يدخل من الخوارج أحدٌ مع عشائرهم إلا خوارج بني تميم؛ لأنهم جنَوها وأثاروها.

وأما نافع بن الأزرق فأقام بالأهواز، وطرد عُمال السلطان عنها، وجبى الخراج.

(١) «الكامِل» (٣/ ٢٠٦).

فصلٌ

ولم يزالوا على رأي واحدٍ، يتولون أهل النهر ومرداسًا ومَن خرج منهم، حتى جاء مولىً لبني هاشم من الخوارج إلى نافع، فقال له: إن أطفالَ المشركين في النار، وإن مَن خالفنا مشرك، فدماء هؤلاء الأطفال حلال، فقال له نافع: كفرتَ وأذللتَ نفسكَ.

قال له: إن لم آتك بهذا من كتاب الله فاقتلني، قال الله عزّ ذكره عن نوح ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾، فهذا أمرُ الكافرين وأمرُ أطفالهم. فشهد نافع أنهم جميعًا في النار، وكان الاستعراض عامًّا.

فقال: الدار دارُ كفر، كلُ من فيها كافرٌ إلا من أظهر إيمانه إلينا مبينًا.

ولا تحلّ ذبائحُهم ، ولا تناكحُهم، ولا توارُثهم، ومتى جاءنا منهم أحدٌ فنمتحنه، وهم ككفار العرب وعبدة الأوثان، ولا نقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، والقَعد منّا عن موافقتنا في حكمنا كفار، ومن لا يُكفر مَن كفرناه منهم فهو بمنزلتهم، والتُقية لا تحل، فإن الله عز ذكره يقول: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ، وقال في مدحِ مَن كان على خلافهم: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

فنفر جماعة من الخوارج، منهم نجدة بن عامر، وأقام معه جماعة منهم بنو الماحوز السايطيون، واحتجّ على نافع بحل التُقية في موضعها بقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ وقوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾.

قال: فالقَعدُ منّا إخواننا، القعُود في وقته حسنٌ، والجهاد في وقته حسنٌ، فإن استقام للرجل القعود وإلا الجهادُ إذا أمكن أفضل، لقوله عز من قائل: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ الآية.

فَصْلٌ

في ذكر.. [1] مضى نجدة بأصحابه إلى اليمامة من الخوارج، ومكاتباتهم، واختلافهم في التكفير والمولاة والمعاداة، التي يعتقدونها دينًا بحيث مَن تركها يخرج عنهم بذلك:

فلمَّا قال نافعٌ مقالتَه، اختلفوا، ثم مضى نجدة وأصحابه إلى اليمامة، وافترقت الخَوَارِجُ.

وكان القومُ الذين خالفو نافعًا على رأي واحدٍ، بالبصرة قومٌ منهم، وفي اليمامة قومٌ منهم، وفي الكوفة قومٌ منهم، ثم انبثوا في البلاد، والمحاربون في ذلك الوقت نافعٌ وأصحابه.

فلما تتابع نافع على رأيه وأقام على مذهبه، مضى نجدة إلى اليمامة في جماعةٍ قد بايعوه، فلما صار نافع بالعرمة من أرض نجد يريد اليمامة لقيه أصحابه قومٌ من الخوارج من اليمامة يريدون نجدة، فقال لهم أصحاب نجدة: إن نافعًا قد كفّر القَعد، ورأى الاستعراضَ وقتلَ الأطفال، واستحلالَ الغدر بأمانته ممن خالفه، فانصرفوا مع نجدة إلى اليمامة.

فلما صارَ نجدةُ باليمامةِ، كتَبَ إلى نافعٍ:

بسم الله الرحمن الرحيم

أمَّا بَعدُ، فإنَّ عَهدِي بكَ، وأنت لليتيمِ كَالأبِ الرَّحيمِ، وللضَّعيفِ كالأخِ، تعاضدُ قوَى المُسْلِمِينَ، لا تأخذُكَ فِي الله لومة لائمٍ، وَلَا ترَى معُونةَ ظَالمٍ.

كَذلكَ كنتَ وأصحابُكَ، أوَ لَا تَذْكرُ قولَكَ: لولَا إنِّي أعلمُ أنَّ الإمامَ العَادلَ لَهُ من الأجرِ مثل جميع رعيتهِ، مَا توليتُ أمرَ رجلينِ من المسلمين.

فلمَّا شريتَ نفسَكَ فِي طَاعةِ ربك ابتغاءَ مرضَاتِهِ، وأصبتَ منَ الحقِّ قصدَه، وغلبت

---

(١) كلمات غير واضحة.

الشَّيطان، وَلَمْ يَكُنْ أحدٌ أثقل عَلَيْهِ وطأةً منكَ، ومِن أصحابِكَ، فاستمالكَ بعدُ واستهوَاكَ، فغَويت، وكفرتَ الَّذِينَ عذرهُم اللهُ فِي كتَابِهِ من قَعد المُسْلِمِينَ وضَعفتِهِم، فقَالَ جَلَّ ثناؤه: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ الآية، ثمَّ سماهم أحسن الأسماء فقال: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾.

ثمَّ استحللتَ قتلَ أطفَالِ المشركين، وَقَد نَهى رَسُولُ الله ﷺ عن قتلِهِم، وَقَالَ عزّ من قائل: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾. أي: لا تحمل إثمًا أخرى.

أوَما سمعتَ قوله عز ذكره: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ﴾ فجعلَ القاعدَ القادرَ على القتال من المُؤْمِنِينَ، وفضّل الله عليهم المجاهدين بأعمالهم.

ورأيتَ ألا تؤدِّي الأمانَاتِ إِلَى مَن خَالفَكَ، واللهُ يأمر أن تُؤدَّى إِلَى أهلِهَا.

فاتَّقِ اللهَ، وانظرْ لنفسِكَ، واتَّقِ يومَ لا يجزى والدٌ عَن ولدِهِ، وَلَا مولودٌ هُوَ جازٍ عَن والِدِه شيئًا، فإنَّ الله بالمرصَادِ، وحكمُه العَدلُ، وقَوله الفَصلُ، والسَّلَامُ.

فكتَبَ إِلَيْهِ نَافعٌ:

أمَّا بعدُ: فقَدْ أتانِي كتابُكَ تعظنِي فِيهِ، وتُذَكرُنِي، وَتنصحُ لِي، وتزجرنِي، وتصفُ مَا كنتُ عَلَيْهِ منَ الحقِّ، وَمَا كنتُ أؤثره منَ الصَّوابِ، وأنا أسألُ اللهَ أن يجعلَنِي منَ القَومِ الَّذِينَ يستمعُونَ القَولَ فيتّبعُونَ أحْسَنَهُ، وَعتبتَ عليَّ مَا دنتُ بِهِ منْ إكفارِ القَعد، وقتلِ الأطفَالِ، واستحلَالِ الأمانَةِ منَ المخالِفِينَ، وسَأفسرُ لكَ لِمَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ عز وجل:

أمَّا هَؤُلَاءِ القَعدُ فليسُوا كَمَن ذكرت عَلَى عَهدِ رسُولِ الله ﷺ؛ لأنَّهم كانُوا بمكَّةَ مقهُورِينَ محصُورِينَ لَا يجِدُونَ إِلَى ذلك سَبيلاً، وَلَا إِلَى الاتِّصالِ بالمُسْلِمِينَ طريقًا.

وهَؤُلَاءِ تفقَّهوا فِي الدِّينِ، وَقرأوا القرآنَ، والطَّريق لَهُم نهجٌ واضحٌ، وَقَد عَرفتَ مَا قَالَ اللهُ فِي مثلهُم إذ قَالُوا: ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فقيل لهُم: ﴿ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ﴾، وَقَالَ عزَّ من قائل: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾،



وَقَالَ: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾ وأنَّهم كذبُوا اللهَ ورسولَه، وقَالَ: ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فانظرْ إِلَى أَسمَائِهم وسِمَاتِهم.

وأمَّا الأطفَالُ؛ فإنَّ نبي الله نوحًا الطَّيْلاً كَانَ أعلمُ بالله يا نجدةُ منِّي ومنكَ، فقَالَ: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ فسمَّاهُم بالكُفرِ، وهُم أطفَالٌ، وقبلَ أن يُولَدُوا.

فَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ فِي قومِ نوحٍ، وَلَا نقولهُ فِي قَومنَا؟ والله يقُول: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ وهَؤُلَاءِ مُشركو العربِ لا تُقبلُ مِنْهُم جزيةٌ، وَلَيْس بيننا وبَيْنَهُم إِلَّا الإسلام أو السَّيفُ.

وأمَّا استحلالُ أماناتِ مَن خَالفنَا؛ فإنَّ اللهَ عزَّ ذكره أحلَّ لنَا أموالَهُم كَمَا أحلَّ لنا دماءَهُم، فدماؤهم حلالٌ طلقٌ، وأموالُهم فِيءٌ للمُسلمِينَ.

فاتَّقِ اللهَ، وراجعْ نفسَكَ، فإنَّه لا عذرَ لكَ إلا بالتَّوبةِ، ولنْ يسعَكَ خُذلَانَنا والقُعودَ عنَّا، والسَّلَامُ عَلَى من أقرَّ بالحقَّ، وعملَ بِهِ.

وَكتَبَ نافع من الأهواز إلى عبد الله بن الزبير يدعوه إلى أمره:

أما بعد، فإني أُحذرك من الله: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾، فاتقِ الله، ولا تتولَّ الظالمين، فإن الله يقول: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾. وقد حضرتَ يومَ قتل عثمان، ولئن كان قاتلوه مهتدين - وإنهم لمهتدون -، لقد كفر مَن يتولاه وينصره ويعضده!

ولقد علمتَ أن أباك وطلحة وعليًّا كانوا أشدّ الناس عليه، وكانوا في أمره بين خاذلٍ وقاتل، وكيف تتولى أباك وطلحة وعثمان؟ فكيف يكون ولايةُ قاتلٍ مُتعمِّد ومقتولٍ في دين واحد!

ولقد تولى عليٌّ بعده؛ فنفى الشبهاتِ، وأقام الحدودَ، وأجرى الأحكام مجاريها، وأعطى الأمور حقائقَها، فيما عليه وله، فبايعه أبوك وطلحة، ثم خلعاه ظالمين له، وإن القول فيك وفيهما لكما قال ابن عباس: إن يكن عليٌّ في وقت محاربتكم له كان مؤمناً؛ لقد كفرتم بقتال المؤمنين، ولئن كان في الحكم جائرًا، لقد بؤتم بغضب من الله لفراركم من الزحف، ولقد كنتَ لعليٍّ عدوًّا، ولسيرته عائبًا، فكيف توليته بعد موته! فاتقِ الله عز وجل؛ فإنه يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ والسلام على من اتَّبع الهدى.

وكتب نافع إِلَى مَنْ بالبَصْرَةِ مِنَ المُحكِّمين:

أَمَّا بعدُ، فإنَّ اللهَ اصْطفَى لَكُم الدِّين فَلَا تَموتنَّ إلَّا وأنتُم مُسْلمُونَ، والله إنَّكُم لتعلمُونَ أنَّ الشَّرِيعةَ واحدةٌ، والدينَ واحدٌ، ففِيمَ المُقام بَينَ أظهُرِ الكفَّارِ ترَوْنَ الظُّلْمَ ليلاً ونهاراً؟ وَقَد نَدبكُمُ اللهُ إِلَى الجِهادِ، فَقَالَ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ ولَم يَجعلْ لَكُم فِي التَّخلفِ عذرًا فِي حَالٍ مِنَ الأحوَالِ؛ فقَالَ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وإنَّما عَذرَ الضعفاءَ والمُرضَى، والذِينَ لا يَجدُونَ مَا يُنفقُونَ، ومَنْ كَانَتْ إقامتُه من علَّتِهِ، ثمَّ فضَّلَ عَلَيْهِم مع ذلك المجاهدين.

فَلَا تغترُوا وتطمئنُوا إِلَى الدُّنيا فَإِنَّهَا غرّارةٌ مكارةٌ، لَذتُها نافذةٌ، ونَعيمُهَا بائدٌ، حُفَّتْ بالشَّهواتِ اغترَارًا، وإنَّمَا جعَلَهَا دارَ المُزدلفِ مِنْهَا إِلَى النَّعيمِ المُقيمِ، والعَيشِ السَّليمِ.

فَلَن يرضَى بِهَا حَازِمٌ دارًا، وَلَا حَكِيمٌ قرَاراً، فَاتَّقُوا اللهَ، وتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيرَ الزَّادِ التَّقوَى، والسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبعَ الهدَى.

فورد كتابُه عليهم، وفي القوم يومئذٍ أبو بيهس هيصم بن جابر الضبعي، وعبد الله بن إباض من بني مقاعس بن عبيد الله. فأقبل أبو سفيان بيهس على ابن إباض فقال: يا عبدَالله إن نافعًا غلا فكَفَّر، وإنك قصّرت فكَفَرت. تزعم أن مَن خالفنا ليس بمشرك، وإنما هم كفارُ النِّعم؛ لتمسّكهم بالكتاب، وإقرارهم بالرسول.

وتزعم أن مناكحهم ومواريثهم والإقامة فيهم حِلٌ طَلْقٌ!

وأنا أقول: إن أعداءنا كأعداءِ رسول الله ﷺ، لا تحل لنا الإقامةُ فيهم، كما فعل المسلمون في إقامتهم بمكة، وأحكامُ الكفارِ تجري فيهم.

وأقول: إن مناكحهم ومواريثهم لا تجوز؛ فإنهم منافقون يُظهرون الإسلام، وإن حكمَهم عند الله حكمُ المشركين.

فَصْلٌ

فيما استقرت مذاهب الخوارج واختلافهم.... [١] والصفرية والنجدية، وكانوا قد اختلفوا، فصارت الخوارجُ في هذا الوقت على ثلاثة أقاويل: قولُ بيهس الذي ذكرنا، وقول نافع في البراءة، والاستعراض، واستحلال الأمانة، وقتل الأطفال، وقول عبد الله بن إباض، وهو أقرب الأقاويل لأهل السنة من أقاويل أهل الضلال.

والصفرية والنجدية في ذلك الوقتِ يقولون بقول عبد الله بن أباض. وقد قال ابن إباض [٢] على ما ذكرنا من مقالته: أنا أقول: إن عدوّنا كعدو رسول الله ﷺ، لكني لا أُحرّم مناكحتَهم ومواريثَهم، لأن معهم التوحيد والإقرار بالكتاب وبالرسول ﷺ، فأرى دعوة المسلمين تجمعهم.

وقالت الصفرية ألين من هذا القول في أمر القَعد، حتى قَعد عامتهم، وقد اختلفوا في تسميتهم الصفرية، كما ذكرنا ذلك، فقال قوم: سموا صفرية، لأنهم أصحاب عبد الله بن صفار السعدي التميمي، وقال قوم: إنما سموا بصُفرةٍ عَلَتهم من العبادة، وتصديق ذلك قول ابن عاصم الليثي، وكان يرى رأي الخوارج، فتركه وصار مرجئًا:

فَارَقْتُ نَجْدَةَ وَالَّذِينَ تَزَرَّقُوا ... وَابْنَ الزُّبَيْرِ وَشِيعَةَ الْكَذَّابِ

يعني: المُخْتَار بن عُبيد

والصُّفْرَةَ الأذَانِ الَّذِينَ تَخَيَّرُوا ... ديناً بِلَا ثقـــةٍ ولَا بِكِتَابِ

خفّف الهمزة من الآذان، ولولا ذلك لانكسر الشِعر.

وكان الذي استقر عليه رأي بيهس أنه قال: الدارُ دارُ كفر، والاستعراضُ فيها جائز، وإن أُصيبَ من الأطفال أحدٌ فلا حرج.

---

(١) كلمات غير واضحة.

(٢) في الأصل تكرار «وقد قال ابن أباض».

إلى ههنا انتهت المقالة [١].

فافترقت الخوارجُ على الأربعة الأضربِ التي ذكرنا فِرقًا عديدة، فكلُ موافقٍ لهم أو لفرقةٍ من فِرَقهم فهو كائنٌ بذلك منهم، وقد ذكرنا في «فتح الحميد من شرح التوحيد» ما يزعُ اللبيب عن التسرع إلى تكفير أهل القبلة تدينًا، وأوضحنا ذلك من كلام العلماء رحمهم الله تعالى في مواضعَ عديدة ممن عليهم المعتمَدُ في ذلك؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه، فليُنظر هناك، فإن مِن ممادح أهل السنة أنهم يُخطِّئون، وينصحون ولا يُكفِّرون، ومن عيوب أهل الأهواء والبدع أنهم يُعيِّرون ويفضحون، ويُكفِّرون ولا يَعذرون، فليحذر الإنسان طريقهم، والله الهادي الموفق.

وأقام نافعٌ بالأهواز يعترضُ الناس ويقتلُ الأطفال، فإذا أُجيبَ إلى المقالة جبى الخَراج، وبثَّ عماله في سَواد البصرة، فارتاع لذلك أهلُ البصرة، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس التميمي، فشكوا ذلك إليه، وقالوا: ليس بيننا وبين العدوّ إلا ليلتان، وسيرتُهم ما ترى.

فقال الأحنف: إن فِعلهم في مِصركم كفعلهم في سَوادكم، فجُدُوا في جهاد عدوكم، فاجتمع إليه عشرة آلاف، فأتى عبدَ الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - الملقب: ببَّة -، وكان أهل البصرة أمَّرُوه عليهم بعد موت يزيد بن معاوية حتى يجتمع الناس على خليفة.

فسأله أن يؤمّر على الجيش رجالًا؛ فاختار لهم مسلم بن عبيس، وكان دَيِّنًا شجاعًا، فأمّره عليهم وشيّعه، فلما نفذ من جِسر البصرة أقبل على الناسِ فقال: إني والله ما خرجتُ لطلبِ ذَهبٍ ولا فضة، وإني لاقٍ قومًا إن ظفرتُ بهم فما وراءهم إلا سيوفُهم ورماحُهم، فمن كان شأنه الجهاد فلينهض، ومن أحبَّ الحياة فليرجع.

---

(١) «الكامل» (٣/ ٢١١ ـ ٢١٢).

فرجع نفرٌ يسير، ومضى الباقون معه، فلما صاروا بدولاب خرج إليهم نافع، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، حتى تكسّرت الرماح، وعُقرت الخيل، وكثُر الجراح، والقتلى، وضاربوا بالسيوف والعُمَد، فقُتل في المعركة مسلم بن عبيس رئيس جيش أهل البصرة، ونافع بن الأزرق رئيس الخوارج.

وكان ابن عبيس قد قال لأصحابه: إن قُتلت فأميركم الربيع بن عمرو الغُداني اليربوعي، فلما أُصيب ابن عبيس وكان أخذ الرايةَ الربيعُ، وكان نافعٌ قد استخلف عبيدالله بن بشير بن الماحوز السليطي، فكان الرئيسان يومئذٍ من بني يربوع، فاقتتلوا قتالاً شديدًا.

وادعى قتلَ نافع سلامةُ الباهلي، قال: وكنت على بِرذون وَرد(١)، إذا بنافع واقفٌ بإزائي وأنا واقفٌ في خُمُس قيس(٢)، على فرس، فنادى: يا صاحب الورد! هلمّ إلى المبارزة، فانتقلت إلى خُمُس بني تميم، وإذا به يعرضها عليّ، وجعلت أتنقل من خميسٍ إلى خميس، وليس يزايلني، فصرتُ إلى رَحلي، ثم رجعت، فرآني فدعاني إلى المبارزة، فلما أكثر عليَّ خرجتُ إليه؛ فاختلفنا ضربتين، فضربتُه فصرعتُه، فنزلت لسَلبه وأخذِ رأسه، فإذا امرأةٌ من الخوارج قد رأتني حين قتلتُ نافعًا، فشدّت عليَّ لتثأر به.

فلم يزل الربيعُ يقاتلهم نيّفًا وعشرين يومًا، حتى قال يومًا لأصحابه: أنا مقتولٌ لا محالة، قالوا: وكيف؟

قال: إني رأيت البارحةَ أن يدًا انحطت من السماء فاستشلتني.

فلما كان الغدُ قاتل إلى الليل، ثم غاداهم القتال فقُتل.

فتدافع أهلُ البصرة الرايةَ حتى خافوا العَطب، إذ لم يكن لهم رئيس، ثم أجمعوا على الحجاج بن باب الحِميري فأباها، فقيل له: ألا ترى أن رؤساء العرب بالحَضيرة، وقد

---

(١) الورد: لونٌ أحمر يضرب إلى صُفرة.

(٢) مكان.

اختاروك من بينهم! فقال: مشؤومة، ما يأخذها أحدٌ إلا قُتل، ثم أخذها، فلم يزل يقاتل الخوارجَ بدولاب، والخوارجُ قد أعدّت بالآلات والدروع والجواشن، والتقى الحجاج بن باب وعِمران بن الحارث الراسبي، وذلك بعد أن اقتتلوا زهاءَ شهر، فاختلفا ضربتين، فسقطا ميّتين.

فقالت امرأة عِمران ترثيه:

فأيــد الله أيّــد عِمرانًــا وطهّــره ... وكــان عِمــران يــدعو الله في السَحَرِ
يــدعوه سرًّا وإعلانًــا ليرزقَــه ... شـــهادةً بيـــدي مِلحـــادةٍ غُـــدَرِ
ولّى صـحابتُه عـن حَـرّ ملحمـةٍ ... وشـدّ عمـرانُ كالـضِرغامة الهَـصِرِ [1]

(١) «الكامل» (٣/ ٢١٣ ـ ٢١٤).

فَصْلٌ

ومما قيل من الشعر يوم دولاب؛ قول قَطري بن الفجاءة التميمي:

لعَمْـــرُك إنِّي فِي الْحَيَـــاة لزاهـــدٌ وَفِي الْعَـــيْش مـــالم ألـــق أم حَكِـــيمِ
مـــن الخَفِـــرات الْبِـــيض لم أرَ مثلهَـــا شِـــفَاءً لـــذِي دَاء وَلَا لـــسقيمِ
لعمْـــرك إني يـــومَ ألطـــمُ وجهَهـــا علـــى نائبـــات الـــدهر جـــدُّ لئـــيمِ
فَلَو شهدَتني يَـوْم دولاب شـاهدت طِعـان فَتـىً فِي الْحَـرْب غـير ذمـيمِ
غَـدَاة طفَـت عَلْمَـاء بكـر بـن وَائِـلِ وعجنـا صُـدُورَ الْخَيـل نَحْـو تَمِـيمِ
وكـان لعبـد القـيس أولُ جـدها وأحلافهـا مـن يَحْـصبٍ وسـليمِ
وظلت شيوخ الأزد فِي حومةِ الوغى تعـومُ وظِلنـا في الجِـلاد نعـومُ
فلـم أر يومًـا كـان أكثـر مقعـصًا يمـجُ دمًـا مـن فـائظٍ وكلـيمِ
وضـاربةً خـدًا كـريمًا علـى فتـىً أغـرّ نجيـب الأمهـاتِ كـريمِ
أصـيب بـدولابَ ولم تـك موطنًـا لـه أرضُ دولاب وأرض حمـيمِ
فلـو شـهدَتنا يـوم ذاك وخيلُنـا تُبـيح مـن الكفـار كـلَّ حـريمِ
رأت فتيةً باعـوا الإلـه نفوسَهم بجناتِ عـدنٍ عنـده ونعـيمِ

وقال آخر مِن الخوارج:

يرى مَن جـاء ينظر مـن دُجيلٍ شيـوخَ الأزد طافيـةً لِحاهـا

وقال رجل منهم:

شمَتَ ابنُ بـدرٍ والحوادثُ جمّـة والحائـرون بنافع بـن الأزرقِ
والموتُ حتـمٌ لا محالـة واقـعٌ مَن لا يُصبِّحـه نهارًا يُطـرقِ
فلئـنْ أمير المؤمنـين أصابـه رَيب المنـون فمَن يُصبـه يُغلقِ[1]

(١) «الكامل» (٣/ ٢١٦ ـ ٢١٨).

ويُروى أن نافعًا مرّ بمالك بن مسمع بن بكر بن وائلٍ في الحرب التي ذكرتُها بين الأزد وربيعة وبني تميم، ونافع متقلد سيفًا، فقام مالكٌ فضرب بيده إلى حِمالة سيفه فقال: ألا تنصرنا في حربنا هذه؟

قال: لا يحل لي.

قال: فما بال مؤمني بني تميم ينصرون كفّارهم في هذه الحرب!

فأمسك عنه، وخرج بعد ذلك بأيامٍ إلى الأهواز، وكان ما كان من هذه الحروب بدُولاب، فلما قُتل مَن قُتل من أهل البصر ممن يحارب الخوارج بدُولاب في أيام ابن الماحوز؛ كره ببّة إمارة البصرة وعزل نفسه عن ولاية البصرة، فأقام حارثة بن بدر الغداني اليربوعي بإزاء الخوارج في مَن بقي من جيش أهل البصرة، يناوشهم على غير ولاية، وكان يقول: ما عُذرنا عند إخواننا من أهل البصرة إن وصلَ الخوارج إليهم، فنحن دونهم!

فكتب أهلُ البصرة إلى ابنِ الزبير يخبرونه بقعود ببّة عن القتال، ويسألونه أن يولي واليًا، فكتب إلى ابن مالك أن يصلي بالناس، فصلى بهم أربعين يومًا، وكتب إلى عمر بن عبيد الله بن معمر فولاّه البصرة.

فلقيه الكتابُ وهو يريد الحج، وهو في بعضِ الطريق، فرجع فأقام بالبصرة، وولّى أخاه عثمان محاربة الأزارقة، فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً، وانضم إليه حارقة بن بدرٍ بمن كان معه، وعبيد الله بن الماحوز في الخوارج بسوق الأهواز، فلما عبروا إليهم دُجيلاً نهض إليهم الخوارج، وذلك قُبيل الظهر، فقال عثمان بن عبيد الله لحارثة بن بدر: ما الخوارج إلا ما أرى؟.

فقال له حارثة: حسبك بهؤلاء!

فقال: لا جرَم، والله لا أتغدى حتى أناجزهم!

فقال له حارثة: إن هؤلاء لا يُقاتَلون بالعنف، فاتقِ على نفسك وجندك، فقال عثمان لحارثة: أبيتم يا أهل العراق إلا جُبنًا !

وأنت يا حارثة، ما علمك بالحرب؟ أنت والله بغير هذا أعلم! يُعرِّض له بالشراب.

فغضب حارثة، فاعتزله، وحاربهم عثمانُ يومَه ذلك إلى أن غابت الشمس، فأجلت الحرب عنه قتيلاً، وانهزم الناسُ، فأخذ حارثةُ الراية، وصاح بالناس: أنا حارثة بن بدر، فثاب إليه قومه، وعبر بالناس دُجيلاً، وبلغ قتلُ عثمان البصرة؛ وخاف الناس الخوارج خوفًا شديدًا[(١)].

(١) «الكامل» (٣/ ٢٢١) بتصرف.

فصل

في تولية عبدِ الله بن الزبير القباعَ أهل البصرة خوفًا من الخوارج:

فعزل ابنُ الزبير عمرَ بن عبيد الله بن معمر عن البصرة، وولّى عليها الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، المعروف بالقُباع، وهو أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي الشاعر المشهور، وكان سبب تسمِّيه بالقُباع فيما قال ابن الكلبي أنه لما ولي البصرة لابن الزبير أتاه أهل البصرة بمكيال، فقال لهم: مكيالكم هذا القُباع، والقُباع الأجوف، فسمي بذلك القُباع، وفيه يقول الشاعر:

أبا بكرٍ جزاك الله خيرًا ... أرِحنا من قُباع بني المغيرة

ولما فقدم القباع البصرة، كتب إليه حارثة بن بدر يسأله الولاية والمَدَد، فأراد توليته، فقال له رجل من بكر بن وائل: إن حارثة ليس بذاك، إنما هو رجلُ شَراب، وفيه يقول رجلٌ من قومه:

ألم ترَ أن حارثةَ بن بدرٍ ... يصلي وهو أكفرُ من حمارِ!

ألم ترَ أن للفتيان حظًا ... وحظُك في البغايا والقِمارِ

فكتب إليه القُباع: تكفيني حربهم إن شاء الله تعالى.

فأقام حارثة يدفع الخوارج بمَن معه على غير ولاية.

فقال رجلٌ من بني تميم يذكر مسلم بن عبيس، وعثمان بن عبيد الله بن معمر، وحارثة بن بدر:

مضى ابنُ عبيس صابرًا غير عاجزٍ ... وأعْقَبَنا هذا الحجازي عثمانُ

فأرعد من قبلِ اللقاء ابنُ معمرٍ ... وأبرق والبرقُ اليمانيّ خوانُ

فلولا ابنُ بدرٍ للعراقين لم يَقم ... بما قام فيه للعراقين إنسانُ

ثم إن حارثة بن بدرٍ أقام بنهر تِيرى بإزاء الخوارج، وتفرّق عنه أكثر الجيش، ولم يبق معه إلا شرذمة قليلة، فعبرت إليه الخوارج، فهرب أصحابُه، فخرج يركض، حتى أتى

دُجيلًا، فجلس في سفينة، واتّبعه جماعةٌ من أصحابه، فكانوا معه، وأتاه رجلٌ من بني تميم وعليه سلاحه، والخوارج وراءه وقد توسط حارثة دجلة، فصاح به: يا حارثة ليس مثلي يُترك، فقال للملاّح: قَرّب، فقَرّب إلى جُرف، ولا فرضة هناك[(٢)]، فطفر بسلاحه في السفينة[(٣)]، فساخت بالقوم جميعًا[(١)].

(١) «الكامل» (٣/ ٢٢٣) بتصرف.

(٢) الفرضة: ثُلمة في النهر يُسقى منها.

(٣) طفر: وثب.

فصل

ثم أقام ابن الماحوز السليطي يجبي كور الأهواز ثلاثة أشهر، ثم وجّه الزبير بن علي في جيش من الخوارج نحو البصرة، فضجّ الناسُ إلى الأحنف، فأتى الأحنفُ القُباعَ فقال: أصلح الله الأمير! إن هذا العدو قد غلبَ على سوادنا وفيئنا، ولم يبق إلا أن يحصرنا في بلدنا حتى نموت هزلاً.

قال: فسمُّوا رجلاً.

فقال الأحنف: الرأي لا يخيل به[1]، ما أرى لها إلا المهلبَ بن أبي صفرة.

فقال: أوَ هذا رأيُ جميع أهل البصرة؟! اجتمعوا إليَّ في غدٍ.

وجاء الزبيرُ بن عليٍّ بجيش الخوارج حتى نزل الفرات، وعقد الجسر ليعبر إلى ناحية البصرة.

وقد اجتمع للخوارج أهلُ الأهواز وكورها، رغبةً ورهبة، فلقاه أهلُ البصرة في السفن وعلى الدواب ورجّالة.

فاسودّت بهم الأرض، فقال الزبيرُ بن عليٍّ لما رآهم: أبى قومُنا إلا كفراً، فقطع أهلُ البصرة الجسر، فأقام بإزائهم ليس بينهم وبين أهل البصرة إلا الفرات.

---

(١) أي: لا يشتبه.

فَصْلٌ

في سبب تولية المهلب حرب الخوارج:

وذلك أن الخوارج لما همُّوا بالبصرة بعدما نزلوا الفرات، وعقدوا الجسر ليعبروا إليها، اجتمع الناسُ عند القُباع، وخافوا الخوارج خوفًا شديدًا، وكانوا ثلاثَ فِرَق، فسمى قومٌ لحربهم المهلبَ بن أبي صفرة، وسمى قومٌ مالكَ بن مسمع، وسمى قوم زيادًا، فأرسل إلى مالك وزياد، فوجدهما متثاقلَين عن ذاك، ثم عاد مَن أشار إليه بهما فقالوا: قد رجعنا عن رأينا، ما نرى لها إلا المهلّب، فوجّه القُباع إليه فأتاه، فقال له: يا أبا سعيد، قد ترى ما رهقنا من عدونا هذا، وقد اجتمع أهل مِصرك عليك.

وقال الأحنف: يا أبا سعيد، إنا والله ما آثرناك بها، ولكنا لم نرَ من يقوم مَقامك.

وقال له القُباع: إن هذا الشيخ - وأومأ إلى الأحنف - لم يُسمِّك إلا إيثارًا للدِّين والبقاء على الأمة، وكلُّ من في مِصرك مادٌّ عينَه إليك، وأن يكشف الله هذه الغُمّة بك.

فقال المهلّب: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إني عند نفسي لدُون ما وصفتم، ولستُ أرى ردَّ ما دعوتم إليه، على شروط أشترطها.

قال الأحنف: قُل.

قال: على أن أنتخبَ مَن أحببت منكم.

قال: ذاك لك.

قال: ولي إمرة كلِّ بلد أغلِب عليه.

قال: وذاك لك.

قال: ولي فِيءُ كلِّ بلدٍ أظفرُ بهِ.

قال الأحنف: ليس ذاك لك ولا لنا، إنما هو فيءُ المسلمين، فإن سلَبتهم إياه كنتَ كعدوهم، ولكن لك أن تُعطي أصحابك من كلِّ بلدٍ تغلب عليه ما شئت، وتُنفق منه ما شئت على محاربةِ عدوّك، فما فضُل عنكم كان للمسلمين.

فقال المهلب: فمَن لي بذلك؟

قال الأحنف: نحن وأميرك وجماعة أهلِ مِصرك. فضُمِّن.

قال: قد فعلت.

فكتبوا بذلك كتابًا، ووُضع على يديْ الصلت بن حريث بن جابر الحنفي، وانتخب المهلّب من جميع القبائل، فبلغت نخبتُه اثني عشر ألفًا، ونظروا ما في بيتِ المال، فلم يكن إلا مائتي ألف درهم، فعجزَت، فبعث المهلّب إلى التجار: إن تجارتكم قد فسدت عليكم بانقطاع موادّ الأهواز وفارس عنكم، فهلمّ بايعوني واخرجوا معي أُوفِكم إن شاء الله تعالى حقوقَكم، فتاجروه، فأخذ من المال ما يُصلح به عسكره، واتخذ لأصحابه ما يصلحهم.

ثم نهض وأكثرُ أصحابه رجّالة، حتى إذا صار بحذاء القومِ أمر بسُفنٍ فأُحضِرت وأُصلِحت، فما ارتفع النهار حتى فُرغ منها.

ثم أمر الناس بالعبور إليهم، وأمّر عليهم ابنه المغيرة، فخرج الناسُ، فلما قاربوا الشاطئ خاضت إليهم الخوارج، فحاربهم المغيرة ونضحهم بالسّهام حتى تنحوا، فصار هو وأصحابُه على الشاطئ، فحاربوهم وكشفوهم وشاغلوهم حتى عقد المهلّب الجسر، وعبر بمن معه، والخوارج منهزمون، فنهى الناس عن اتِّباعِهِم.

ففي ذلك يقول شاعرٌ من الأزد:

إن العراقَ وأهلَـــه لم يخبُروا ... مثل المهلّب في الحروبِ فسلّموا

أمضى وأيمنَ في اللقاءِ نقيبةً ... وأقـــل تهليلاً إذا ما أحجَموا[1]

وأبلى مع المغيرة يومئذ عطيةُ بن عمرو العنبري، وكان من فرسان بني تميم وشجعانهم، فقال عطية:

يُدعى رجالٌ للعطاءِ وإنما ... يُدعى عطية للطِّعان الأجردِ

---

(١) التهليل: التكذيب.

وقال الشاعر:

وما فارسٌ إلا عطية فوقـه إذا الحربُ أبدت عن نواجذها الفما
به هزم الله الأزارقَ بعدما أباحُوا منــــ المِصرين حِلاً ومُحرما

فأقام المهلّب أربعين يومًا يجبي الخَراج بكور دجلة، والخوارج بنهر تِيرى، والزبير بن علي منفردٌ بعسكره عن عسكر ابن الماحوز.

فقضى المهلّبُ التجارَ، وأعطى أصحابَه، فأسرع إليه الناس رغبةً في مجاهدة الخوارج، ولِما في الغنائمِ، والتجارات.

فكان فيمن أتاه للجهاد: محمد بن واسع الأزدي، وكان من الزُهاد والعُبّاد، وعبد الله بن رباح الأنصاري، ومعاوية بن قرة المزني - وكان من العلماء، وكان يقول: لو جاء الديلمُ من ههنا والحَرورية من ههنا لحاربتُ الحرورية -، وأبو عمران الجوني -وكان يقول: كان كعبُ الأحبار يقول: قتيل الحَرورية يَفضل قتيل غيرهم بعشرة أبواب -.

ثم نهض المهلّب إليهم إلى نهر تِيرى، فتنحوا عنه إلى الأهواز، فأقام المهلّب يجبي ماحواليه من الكور، وقد دس الجواسيسَ إلى عسكر الخوارج، فأتوه بأخبارهم ومَن في عسكرهم، فإذا حشوةٌ ما بين قصّارٍ وصَبّاغٍ ودابغٍ وحَدّاد.

فخطب المهلّب الناسَ، ثم ذكرَ مَن هناك، ثم قال للناس: أمثلُ هؤلاء يغلبونكم على فيئكم! فلم يزل مقيمًا حتى قوّى أصحابَه، وكثرت الفُرسان في عسكره، وتتام إليه زهاء عشرين ألفاً.

ثم مضى يؤم سوقَ الأهواز، واستخلف أخاه المعارك بن أبي صُفرة على نهر تِيرى، فسار إليهم المهلّب وفي مقدمته ابنه المغيرة، فقاربهم وناوشوه القتال، فانكشفَ عنه بعضُ أصحابه، وثبت المغيرة بقيةَ يومه وليلته، يوقد النيران، ثم غاداهم القتالَ، فإذا القومُ قد أوقدوا النيران في بقيةِ متاعهم، وارتحلوا عن سوقِ الأهواز، فدخلها المغيرة، وقد قدِمت أوُل خيل الجيش الذي مع أبيه المهلّب، فأقام المهلّب في سوق الأهواز، وكتب بذلك إلى الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة كتاباً يقول فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد: فإني أحمد الله تعالى إليك أنّا منذ خرجنا نؤم هؤلاء نغدو في نِعَمٍ من الله متّصلة علينا، ونِقمةٍ من الله متتابعةٍ عليهم، نقدُم ويُحجِمون، ونَحل ويرتحلون، إلى أن حللنا سوقَ الأهواز، والحمد لله رب العالمين، الذي مِن عنده النصر، وهو العزيز الحكيم.

فكتب إليه الحارث:

هنيئاً لك أخا الأزد، الشرفُ في الدنيا، والذُّخرُ في الآخرة، إن شاء الله تعالى.

فقال المهلّب لأصحابه: ما أجفى أهل الحجاز! أما ترونه وقد عرفَ اسمي واسم أبي وكنيتي!

وكان المهلّب يبث الحرسَ في الأمن، كما يبثهم في الخوف، ويُذكي العيونَ في الأمصار، كما يُذكيها في الصحاري، ويأمر أصحابه بالتحرز، ويخوّفهم البَيات، وإن كان العدوُ بعيدًا، ويقول: انظروا لايَكيدوكم، ولا تقولوا: هُزمنا وغُلبنا، فإن القومَ خائفون وجلون، والضرورة تفتح باب الحِيلة.

ثم قام فيهم خطيبًا فقال: يا أيها الناس؛ إنكم قد عرفتم مذهبَ هؤلاء الخوارج، وأنهم إن قدروا عليكم فتنوكم في دينكم وسفكوا دماءكم.

فقاتلوهم على ما قاتل عليه أوّلكم علي بن أبي طالب ﷺ، وقد لقيَهم قبلكم منكم الصابر المحتسب مُسلم بن عبيس، والعجلي المفرط عثمان بن عبد الله، وحارثة بن بدر، فقُتلوا جميعًا، فالقوهم بجِدّ وحَدّ، فإنما هم مهنتكم وعبيدكم، وعارٌ عليكم، ونقصٌ في أحسابكم وأديانكم أن يغلبوكم على فيئكم، ويطأوا حريمَكم.

ثم سار يريدهم، وهم بمناذر الصغرى، فوجه عبيد الله بن بشير بن الماحوز رئيس الخوارج رجلاً يقال له: واقد مولىً لأبي صفرة بن المهلب من الخوارج في خمسين رجلاً؛ منهم صالح بن مخراق أن يتعقبوا المهلّب إلى نهر تيِرى، وبها المعارك بن أبي صفرة أخو المهلّب، فقتلوه وصَلبوه، فنمى الخبر إلى المهلّب، فوجه إليه ابنه المغيرة، فدخل نهر تِيرى وقد خرج واقدٌ منها، فأنزل عمَّه ودفنه.

ثم زحف المهلّب إلى الخوارج فلقيهم بمناذر، وجعل على بني تميم الحريش بن هلال، ولقيهم بموضع يقال له: سولاف، فخرج رجلٌ من أصحاب المهلب يُقال له: عبد الرحمن الإسكاف، وهو على فرسٍ له صفراء، وجعل يأتي الميمنة والميسرة والقلب، ويهوّن أمر الخوارج، ويقول: يا معشر المهاجرين، هل لكم في قتلةٍ فيها الجنة؟

فحمل جماعةٌ منهم على الإسكاف، فقاتلهم وحده فارسًا، ثم كبا به فرسُه، فقاتلهم راجلاً، قائمًا وباركًا، ثم كثُرت به الجراحات.

ثم جعل يحثو في وجوههم التراب، والمهلّب غير حاضر، ثم جثى فقُتل، فحضر المهلّب فأُعلم، فقال المهلّب لحريش بن هلال وعطية: أأسلمتما سيدَ أهل العسكر، لم تعيناه، ولم تستنقذاه، حسدًا له، لأنه رجلٌ من الموالي؟! ووبخهما، وحمل رجلٌ من الخوارج على رجلٍ من أصحاب المهلّب فقتله، فحمل عليه المهلّب فقتله، ومالتِ الخوارج بأجمعهم على العسكر، فانهزم الناسُ، وقتلوا سبعين رجلاً، وثبت المهلّب، وأبلى ابنُه المغيرة يومئذٍ وعُرف مكانه، ويقال: حاص المهلّب يومئذ حيصة.

وتقول الأزد: بل كان يرد المنهزمة ويحمي أدبارهم، فقال رجلٌ من بني منقر بن عبيد بن الحارث بن كعب بن سعد بن مناة بن تميم:

بسولافَ أضعتُ دماء قومي ... وطرت على مواشكةٍ سَبوح[1]

وقال رجل من بني تميم أيضًا:

تبعنا الأعورَ الكذابَ طوعًا ... يُزجي كلَّ أربعةٍ حمارا
فيا ندمي على تركي عَطائي ... معاينةً وأطلبه ضمارا
إذا الرحمن يسّر لي قفولاً ... فحرّق في قرى سولافَ نارا

يعني بالأعور الكذاب: المهلّب، وكان قد غارت عينه بسهم أصابها في حروبه هذه.

---

(١) مواشكة: سريعة.

وقال فيه: الكذاب لأن المهلّب كان فقيهًا، وكان يعلم ما جاء عن رسول الله ﷺ من قوله: "كل كذب يُكتب كذبًا إلا ثلاثة: الكذب يُصلح بين الرجلين، وكذب الرجل لامرأته يعدُها، وكذب الرجل في الحرب يتوعد ويتهدد"[١].

وجاء عنه ﷺ: "إنما أنت رجل، فخذِّل عنا، فإنما الحرب خُدعة"[٢].

وقال ﷺ في حرب الخندق لسعد بن عبادة وسعد بن معاذ، وهما سيِّدا الحيّين، الأوس والخزرج: "إيتيا بني قريظة، فإن كانوا على العهد فأعلنا بذلك، وإن كانوا قد نقضوا ما بيننا فالحنا لي لحنًا أعرفه. ولا تفتا في أعضادِ المسلمين". فرجعا بغَدر القوم فقالا: يا رسول الله عضل والقارة. قال: فقال رسول الله ﷺ: "أبشروا فإن الأمر ما تحبون"[٣].

وكان المهلّبُ ربما صنع الحديثَ ليشدّ به من أمر المسلمين، ويُضعف من أمر الخوارج.

وكان حيٌّ من الأزد يقال لهم: الندب إذا رأوا المهلّب رائحًا إليهم قالوا: قد راح المهلّب ليكذب! وفيه يقول رجلٌ منهم:

أنتَ الفتى كلُ الفتى ... لو كنتَ تَصدق ما تقول

فبات المهلّب في ألفين، فلما أصبح رجع بعض المنهزمة فصار في أربعة آلاف.

فخطب أصحابه وقال: والله ما بكم من قِلة، وما ذهب عنكم إلا أهلُ الجُبن والضعف والطمع، فإن يمسسكم قَرح فقد مس القوم قَرحٌ مثله. فسيروا إلى عدوكم على بركة الله.

---

(١) أخرجه بنحوه: الترمذي (١٩٣٩) وصححه الألباني.

(٢) "السلسلة الضعيفة"؛ للألباني (برقم ٣٧٧٧).

(٣) أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (١٣٤٢).

فقام إليه الحريش بن هلال فقال: أنشدك الله أيها الأمير أن لا تقاتلهم حتى يقاتلوك! فإن بالقوم جِراحًا، وقد أثخنتهُم هذه الجولة.

فقبل منه ومضى المهلّب في عشرة فوارس، فأشرف على عسكرِ الخوارج، فلم يرَ منهم أحدًا يتحرك، وقال الحريش: ارتحل عن هذا الموضع، فارتحل، وعبر دُجيلاً، وصار في عاقولٍ[1] لا يؤتى إلا من جهة واحدةٍ.

فأقام به واستراح ثلاثًا، وقال ابن قيس الرقيات:

ألا طرقـت مـن آل بثنـة طارقـهْ ... على أنهـا معـشوقةُ الـدّلِ عاشـقهْ
تبيتُ وأرض السُوس بيني وبينهـا ... فسُولاف رسـتاقٌ حمتـه الأزارقـه
إذا نحـن شـئنا صـادفتنا عـصابةٌ ... حروريّة أضحت من الدِّين مارقهْ
أجازت إلينا العسكرين كليهـما ... فباتت لنا دون اللِّحاف مُعانقـهْ

وَقَالَ إِيَاس بن مَالك بن عبد الله بن خيبرى الطَّائِي:

سمَونا إِلَى جَيش الحروريّ بَعْـدَمَا ... تنـاذره أعـرابهم وَالْمُهَـاجِرُ
بِجمعٍ تظـل الأُكـم سَـاجِدَةً لَـهُ ... وأعلامُ سلمى والهضابُ النَّـوَادِرُ
فَلَمَّا ادّركنـاهم وَقـد قلـصت بهـم ... إِلَى الْحَيِّ خوصٌ كـالحنيّ ضـوامرُ
أنخنـا إِلَـيْهِم مِـثْلهنَّ وزادُنـا ... جِيَادُ السيوف والرِّمـاح الخـواطرُ
كـلا ثقلينـا طـامعٌ بغنيمـةٍ ... وَقـد قـدَّر الـرَّحْمَنُ مَـا هُـوَ قَـادرُ
فَلـم أر يَوْمًـا كَـانَ أَكثـر سـالبًا ... ومُـستَلبًا سرباله لَا ينـاكرُ
وَأكْثـر منـا يافعًـا يَبْتَغِـي الْعـلَا ... يضارب قِرنًا دارعًـا وَهُـوَ حـاسرُ
فَمَا كلّت الْأَيْدِي وَلَا انأطـرَ القنا ... وَلَا عثرت منـا الجدودُ العوائرُ

وقال رجل من الخوارج في ذلك اليوم:

وكأين تركنا يوم سُولاف منهمُ ... أسارى وقتلى في الجحيم مصيرُها

---

(١) العَاقُول: الأرض لا يُهتَدَى لَها لكثرة معاطفها.

فأقام المهلّب في ذلك العاقول ثلاثةَ أيام ثم ارتحل، والخوارج بسِلى وسِلبرى، فنزل قريبًا منهم، فقام رئيس الخوارج ابن الماحوز فخطب أصحابه وقال: ما تنتظرون بعدوكم وقد هزمتموهم بالأمس وكسرتم حدّهم؟

فقام إليه وافد مولى أبي صفرة فقال: يا أمير المؤمنين، إنما تفرق عنهم أهل الضَعف والجُبن، وبقي أهل النجدة والقوة، فإن أصبتم لم يكن ظفرًا هنيئًا؛ لأني لا أراهم يُصابون حتى يصيبوا، فإن غلبوا ذهب الدِّين.

فقال أصحابُه، نافق وافد.

فقال ابن الماحوز: لا تعجلوا على أخيكم، فإنه إنما قال هذا نظرًا لكم.

ثم توجه الزبير بن علي التميمي إلى عسكر المهلّب لينظر ما حولهم، فأتاهم في مائتين. فحزرهم ورجع.

وأمر المهلّب أصحابه بالتحارس. حتى إذا أصبح ركب إليهم على تعبيةٍ، فتصافوا.

فخرج من الخوارج مائةُ فارس، فركزوا رماحَهم بين الصفين واتكاؤا عليها.

فأخرج إليهم المهلّب عدادهم، ففعلوا مثلهم، لا يريمون مكانهم إلا لصلاة، ففعلوا هذا ثلاثة أيام، وفعل المهلّب مثل ذلك.

ثم إن الخوارجَ تطاردوا لهم في اليوم الثالث، فحملَ عليهم هؤلاء الفرسان يجولون ساعة.

ثم إن رجلاً من الخوارج حمل على رجلٍ فطعنه فحمل عليه المهلّب فطعنه، فحمل الخوارج بأجمعهم، كما فعلوا يوم سُولاف، فتضعضع الناس، وفُقد المهلّب، وثبت المغيرة في جمعٍ أكثرهم أهل عُمان.

ثم نجم المهلّب في مائة فارس، وقد انغمست كفاه في الدماء، وعلى رأسه قلنسوة مربعة فوق المِغفر محشوة قَزاً، وقد تمزقت ـ وإن حشوها ليتطاير ـ وهو يلهث. وذلك في وقتِ الظهر، فلم يزل يحاربهم إلى الليل، حتى كثُر القتل في الفريقين.

فلما كان الغدُ غاداهم، وقد كان وجّه بالأمس رجلاً من طاحية بن سود بن مالك بن فهم من الأزد يرد المنهزمين، فمر به عامر بن مسمع فردّه.

فقال: إن الأمير أذن لي، فبعث إلى المهلّب فأعلمه.

فقال: دعه فلا حاجة لي في مثله من أهل الجُبن والضعف.

وقد تفرق أكثر الناس، فغاداهم المهلّب في ثلاثة آلاف، وقال لأصحابه: ما بكم من قلة، أيعجز أحدكم أن يرمي رمحه ثم يتقدم فيأخذه، ففعل ذلك رجلٌ من كندة يقال له عياش.

وقال المهلّب لأصحابه: أعدوا مخالي فيها حجارة، وارموا بها في وقت الغفلة، فإنها تصدُّ الفارس وتصرع الراجل، ففعلوا.

ثم أمر مناديًا ينادي في أصحابه، يأمرهم بالجِد والصبر، ويُطمعهم في العدو.

ثم حمل المهلّب وحملوا. فاقتتلوا قتالاً شديدًا. فحمل الخوارج، فنادى مناديهم: ألا إن المهلّب قد قُتل!

فركب المهلّب بِرذونًا قصيرًا أشهب، وأقبل يركض بن الصفين، وإن إحدى يديه لفي القباء وما يشعر بها، وهو يصيح: أنا المهلب! فسكن الناسُ بعد أن كانوا ارتاعوا وظنوا أن أميرهم قد قُتل، وكلَّ الناس عن القتال مع العصر.

وصاح المهلّب بابنه المغيرة: تقدم، ففعل، وصاح بذكوان مولاه: قدِّم رايتك، ففعل.

فقال له رجلٌ من ولده: إنك تُغرر بنفسك.

ثم صاح: يا بني تميم، أآمركم فتعصونني! فتقدّم وتقدّم الناسُ معه، واجتلدوا أشدّ جِلاد، حتى إذا كان مع المساء قُتل ابن الماحوز رئيس الخوارج التميمي.

وانصرف الخوارج، ولم يشعر المهلّب بقتله. قال لأصحابه: ابغوني رجلاً جَلدًا يطوف في القتلى، فأشاروا عليه برجلٍ من جرم، وقالوا: إنا لم نرَ رجلاً قط أشدّ منه، فجعل يطوف

على القتلى ومعه المهلّب ومعه النيران، فجعل إذا مر بجريح من الخوارج قال: كافر ورب الكعبة! فأجهز عليه، وإذا مر بجريح من المسلمين أمر بسقيه وحمله.

وأقام المهلب في عسكره يأمرهم بالاحتراس، حتى إذا كان نصفُ الليل وجه رجلاً من اليحمد في عشرة، فصاروا إلى عسكر الخوارج.

وإذا القوم قد تحمّلوا إلى أرجان. فرجع إلى المهلّب فأعلمه.

فقال: أنا لهم الساعة أشد خوفًا، فاحذروا البيات.

فصلٌ

في ذكر إمارة قطري بن الفجاءة المازني وكيف قُتل رئيسهم الزبير بن الماحوز، كما سيأتي فصله بعدُ إن شاء الله:

ثم إن الخوارج أمّروا عليهم بعد ابن الماحوز قَطري بن الفجاءة المازني التميمي الشجاع المشهور.

وقال حبيب بن عوف من قواد المهلّب:

أبـــا سعيدٍ جزاك الله صالحـــــةً فقــد كفيت ولم تعنفْ على أحدِ
داويت بالحِلم أهل الجهل فانقمعوا وكنتَ كالوالد الحاني على الولدِ

وقال عبيدة بن هلال في هربهم مع قَطري:

وما زالت الأقدارُ حتى قذفنني بقَومس بين الأرجان وصول

ويُروى أن قاضي قطري، وهو رجلٌ من بني عبد القيس، سمع قول عبيدة بن هلال:

علا فوق عرشٍ فوق سبعٍ ودونه سماءٌ ترى الأرواح من دونها تجري

فقال له العبدي: كفرتَ إلا أن تأتي بمخرج !

قال: نعم، روح المؤمن تعرج إلى السماء.

قال: صدقت.

وقال عبيدة يذكر رجلاً منهم:

يَهوي فَتَرفعهُ الرِّمـــاحُ كَأَنَّهُ شِلْوٌ تنشَّبَ فِي مَخَالِبِ ضَاري
يَهْوي صَريعًا والرِّماحُ تنوشُهُ إِنَّ الشّـــُرَاةَ قَصِيرَةُ الأَعْمَارِ

وقال رجلٌ من عبد القيس من أصحاب المهلب:

سائل بنا عمرو القنا وجنوده وأبا نعامة سيّدَ الكـــفارِ

يعني: قَطري.

وقال المغيرة بن حبناء الحنظلي من أصحاب المهلب:

إنِّي امرؤٌ كفنَّي ربِّي وأكرمَنِي عَنِ الأمُورِ الَّتِي فِي غبِّهَا وَخمُ
وإنَّمَا أنَا إنسَانٌ يَعِيشُ كَمَا عاشَتْ رِجَالٌ وعَاشَتْ قبلَهَا أُممُ
مَا عَاقنِي عَن قفُولِ الجُندِ إذْ قفلُوا عنِّي بِمَا صَنَعُوا حَولِي وَلَا صَممُ
وَلَو أَردتَ قفُولاً مَا تَجهَّمنِي إذْنُ الأمِيرِ وَلَا الكُتَّابُ إذ رقمُوا
إنَّ المُهَلَّبَ إنْ أشْتَقْ لرُؤيتِه أو أمتدحْهُ فإنَّ النَّاسَ قَدْ علموا
أنه الأَريبُ الَّذِي تُرجَى نوافلُهُ والمُسْتَنِيرُ الَّذِي يُجلَى بِهِ الظُّلَمُ
والقَائِلُ الفَاعِلُ الميمُونُ طَائِرُه أبُو سَعِيدٍ إذَا مَا عُدَّت النِّعمُ

فلم يزل المهلّب مقيمًا بمكانه حتى جاء مصعب بن الزبير أميرًا على البصرة من جهة أخيه عبد الله بن الزبير ﷺ، وعزل المهلّب، ويأتي بقية حروبه مع الأزارقة، إن شاء الله تعالى.

فَصْلٌ

في ذكر.... [١] مما وهم يستترون عنها بدعواهم لدينهم يتعجب منها اللبيبُ العاقل، وذِكر تحكيمهم في التفضيل بين الفرزدق وجرير............ [٢] وما حولها، وكذا القطيف والبحرين واليمن وعُمان مكة، ووصول مسيرهم حتى المدينة، ودعاء أبي طالوت من أهل اليمامة لنفسه على مذهبهم،.... [٣] الخضارمة والفوارة... [٤] العامل عليها يومئذٍ من جهة خليفة المسلمين، وبعث بعوثهم من اليمامة بعد ذلك، وتجنيدهم منها، وخلعهم لأبي طالوت، واختيارهم لنَجدة بن عويمر الحروري ومقتله.... [٥] الخارجي، وقتلهم لنجدة وغضب بعضِ الخوارج لقتله، وطعنهم لأبي فديك من أجل ذلك.

قال أبو الفَرَجِ الأَصبهَانِي فِي كِتَابِ الأغَانِي الكَبِيرِ [٦]: كانتِ الشُّرَاةُ والمُسْلمُونَ فِي حَرِبِ المُهلَّبِ مع قَطرِي بن الفُجاءَةِ يتواقفُونَ ويتساءلُونَ بَيْنَهُم عن أمرِ الدِّينِ وغيرِ ذَلِكَ عَلَى أمَانٍ وسكُونٍ لا يهيجُ بعضهُم بعضًا، فتواقفُوا يومًا عبيدةُ بنُ هلالٍ اليشكريُّ وأبو حزابَةَ التَّميمِي، فَقَالَ عبيدةُ: يا أبا حزابة: إنِّي سَائِلُكَ عن أَشياءَ، فتصدقنِي عَنْهَا فِي الجَواب؟

قَالَ: أتضمن لِي مثلَ ذَلِكَ.

قَالَ: قَدْ فعلتُ.

قَالَ: فَاسْأَلْ عمَّا بدَا لكَ.

---

(١) كلمات غير واضحة.

(٢) كلمات غير واضحة.

(٣) كلمات غير واضحة.

(٤) كلمات غير واضحة.

(٥) كلمات غير واضحة.

(٦) «الأغَانِي» (٦/ ١٤٩ ـ ١٥٠).



قَالَ الْيشكريُّ: مَا تقُولُونَ فِي أَئمَّتِكُمْ؟

قَالَ التميميُّ: يُبِيحُونَ الدَّمَ الحَرَامَ.

قَالَ: وَيحْكَ، فكَيْفَ فِعْلهُمْ فِي المَالِ؟

قَالَ: يَجْبونَهُ من غيرِ حلِّه، وينفقُونَهُ فِي غيرِ وجْهِهِ.

قَالَ: كَيْفَ فعلهُم فِي اليتيمِ؟

قَالَ: يظلمُونَهُ مالهُ ويمنعونَهُ حقّه وينيكُونَ أمَّهُ!

قَالَ: وَيْحكَ يَا أبَا حزابةَ أمثل هَؤُلَاءِ تَتبع؟!

قَالَ: قَدْ أجبتُكَ عما جعلتُ على نفسي، وقد أوجبتَ على نفسك أن تجيب؛ فاسْمَعْ سُؤَالِي وَدَعْ عتابِي عَلَى رَأْيِي.

قَالَ: سَلْ؟

قَالَ: أيّ الخَمرِ أطيبُ أخمرُ السَّهلِ أم خمرُ الجَبلِ؟

قَالَ: ويحك أمِثْلِي يُسألُ عَنْ هَذَا؟!

قَالَ: قَدْ أوجبتَ عَلَى نفسكَ أن تُجِيبَ.

قَالَ: أمَّا إذا أبيتَ، فإن خمرَ الجبلِ أقوى وأسكر، وخمرَ السَّهل أحسن وأسلس.

قَالَ: فأيُّ الزواني أفره، زوانِي رَامَهُرْمُزَ أم زوانِي أرّجَان.

قَالَ: وَيْحكَ أخا تميم أمِثْلِي يُسألُ عن مثل هَذَا؟!

قَالَ: لابدَّ منَ الجوابِ أو تَغدر.

قَالَ أمَّا إذا أبيتَ فزَوانِي رَامهرمزَ أرَقُّ أبشارًا، وزَوانِي أرجانَ أحسنُ أبدانًا.

قَالَ: وأيّ الرَّجلينِ أشعرَ: جَرِيرٌ أم الفرزدقُ؟

قَالَ: عَلَيْكَ وعَليهما لعنةُ الله!

قَالَ: لابدَّ من الجوابِ.

قَالَ: أيّها الَّذِي يقولُ:

وَطَوَى الطِّرَادُ مَعَ القِيادِ بِطُونَهَا طيَّ التّجَارِ بِحَضْرَمَوْتَ بُرُودَا

قال: جَرِيرٌ.

قَالَ: هُوَ أَشْعَرهُمَا.

وقد ذكرنا هذه القصة مستوفاة فيما تقدمَ.

قلت: وأبو حزابة هذا هو الَّذِي بات عند قحبةٍ بفارس يُقَالُ لها: ماهنوش، كانت تعطِي بخمسين درهمًا، فأعطاها سَرجَه، فنظر إليه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وليس لفرسه سرجٌ، فقال: ما لك ليس لك سرج؟

فقال ـ منشدًا ـ:

يا بنَ قُريع كندة الأشــجِ	ألا تـرى لفرسي فِي المرجِ
فِي فتنة الناس وهذا الهَرج	وماهنوش ذهبتْ بسرجي!

فقال ابن الأشعث: أعطوه خمسين درهمًا يفتكُ بها سرجه!

قال ابنُ الكلبي: علمَ ابن الأشعث بأن سعر تلك المرأة خمسون درهمًا، ولمّا كان بين أبِي حزابة وعبيدة بن هلال الخارجي مناسبة سأله عما سأله عنه.

قال أَبُو الفَرَجِ الأصفهانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ[(١)]: وَقَد كَانَ النَّاسُ تجادلُوا فِي أمرِ جَرِيرِ والفَرَزْدَقِ فِي عَسكرِ المُهلَّبِ حتَّى تواثبُوا وصَارُوا محكّمِينَ لَهُ فِي ذَلِكَ.

فَقَالَ المهلب: أتريدُونَ أنْ أحكُمَ بَينَ هذَينِ الأسدين المتهَارشينِ فيضمنانِي؟ مَا كنتُ لأحكُم بَيْنَهُمَا، ولَكِنِي أدلُكُم عَلَى من يحكمُ بَيْنَهُمَا، ثمَّ يهون عَلَيْهِ شأنُهُمَا عَلَيْكُم بالشرَاةِ، فاسألُوهُم إذا تواقفتُم وإياهم، فلمّا تواقفُوا سَألَ أبُو حزابةَ عبيدَةَ بنَ هلالٍ عَن ذَلِكَ فأجَابه بِهَذَا الجَوَابِ.

قال[(٢)]: وكَانَ عبيدةُ بنُ هلالٍ إِذَا تكَافَّ النَّاسُ، نادَاهُم ليخرُجَ إلَيَّ بَعْضُكُم فيخرُجُ

---

(١) فِي «الأغَانِي» (٦/ ١٥٠).

(٢) فِي «الأغَانِي» (٦/ ١٥١).



إِلَيْهِ فِتْيَانٌ مِن عَسْكَرِ المُهلَّبِ، فيقُولُ لَهُم: أَيُّما أحبُّ إِلَيْكُم أَقْرَأُ عَلَيْكُم القُرآنَ، أَم أُنشدكُم الشِّعرَ.

فيَقُولُونَ: لَهُ أَمَّا القُرآنُ فَقَدْ عَرفنَاهُ مِثْلَ مَعْرِفتك، ولَكِن تنشدُنَا.

فيقُولُ: يا فَسَقَةُ، قَدْ واللهِ عَلِمْنَاكُم تختَارُونَ الشِّعرَ عَلَى القُرآنِ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يُنشدُهُم حتَّى يملُّوا ويفترقُوا.

ثم ذكر قول عبيدة بن هلال الخارجي فِي جرير والفرزدق: أيّهَا الَّذِي يقولُ:

وَطَوَى الطِّرَادُ مَع القِيادِ بِطُونَهَا ... طيَّ التِّجَارِ بِحَضْرَمَوْتَ بُرُودَا

قال: جَرِيرٌ.

قَالَ: هُوَ أَشْعَرهُمَا.

قال ابن الكلبي: وكان جرير يَفضل على الفرزدق بجودة شعرِه.

قَالَ أَبُو عُبيدَةَ: ثم إن الصلتان العبدي اعترض بينهما، فادعى أنهما حكّماه، فقضى بشرفِ الفرزدق على جرير، وفضّل شعر جرير.

وقال قصيدة عدتها ثلاثة وعشرون بيتًا أوردها القالي(١) والمبرّد، إلا أنه حذف منها أبياتًا، وهي:

أَنـا الـصَّلتانيُّ الَّـذي قَـدْ عَلمْتُمـو ... مَتـى مَـا يُحكَّـمْ فَهُـوَ بـالحُقِّ صَـادِعُ
أَتتنـي تَمِيمٌ حِـينَ هابـتْ قُـضاتُها ... وَإِنِّي لبِالفَـصل المُبـيِّن لقَـاطِعُ
كَـمَا أنفَـذَ الأعْـشى قَـضيَّةَ عَـامِرٍ ... وَمَـا لتمـيمٍ فِي قَـضَائِي رَوَاجِـعُ
ولم يرجع الأعـشى قـضيةَ جعفـرٍ ... ولـيس لحُكمـي آخـرَ الـدهر رَاجِـعُ
سَأقضي قَـضاءً بَيـنهُمْ غـيْرَ جَائِرٍ ... فَهـلْ أَنْـتَ للْحُكـمِ المُبـيَّنِ سَـامِعُ
قَضَاءَ امريءٍ لَا يتَّقِي الشَّتمَ مـنْهمُ ... ولـيْسَ لَـهُ فِي المـدْح مِـنْهُم مَنَـافِعُ

(١) «الأمالي» (٢/ ١٤١).

قضاءَ امرئٍ لا يَرْتَشِي فِي حُكُومَـةٍ ... إذَا مَـالَ بِالقَـاضِي الرُّشـا والمَطِـامِعُ
فَـإن كُنـتما حكَّمـتُماني فأنـصِتَا ... وَلَا تَجزعـا ولـيرضَ بـالحقِّ قَـانِعُ
فـإن تجزعـا أو ترضـيا لا أُقلكُـما ... وللحـقِّ بـين النـاس راضٍ وجـازعُ
فأُقـسم لا آلـو عَـنِ الحـقِّ بيـنهُم ... فـإن أنـا لم أعـدِل فقـل أنـت ضـالعُ
فَإن يـكُ بحْـرُ الحَنظليـين وَاحِـدًا ... فَـمَا تَـستوي حيتانُـهُ والـضفادعُ
وَمَا يَستوي صَـدْرُ القنـاةِ وزُجُّهَـا ... وَمَا يَـستوي شُـمُّ الـذّرى والأكـارعُ
وَلَيْسَ الذُنابى كالقُـدَامى وَريـشِه ... وَما تَستوي فِي الكفِّ مِنْـك الأصابعُ
أَلاَ إنـما تحظـى كليـبٌ بِـشعرها ... وَبالمجـدِ تحظـى دَارمٌ والأقـارعُ
ومنهم رؤوسٌ يُهتـدى بـصدورها ... والأذْنـاب قِـدمًا للـرؤوس توابـعُ
أرى الخطفي بـذّ الفـرزدقَ شـعرُه ... وَلكـنْ خـيرًا مـن كليـبٍ مُجاشِـعُ
فَيـا شَـاعِرًا لَا شـاعرَ اليـومَ مِثلـهُ ... جَريـرٌ وَلكـنْ فِي كليـبٍ تواضـعُ
وَيرفـعُ مـنْ شِـعر الْفـرزدقِ أنـه ... لَـهُ بـاذخٌ لِـذي الخسيـسةِ رافـعُ
وَقدْ يُحمدُ السّيفُ الـدوان بجَفنِـه ... وَتلقـاهُ رَثًّـا غمـدُه وهـوَ قَـاطعُ
يُناشـدني النـصرَ الفـرزدقُ بَعـدما ... أناخـتْ عَليـهِ مـنْ جَريـرٍ صَـواقعُ
فَقلـتُ لَـهُ إنِّي ونَـصرُكَ كالـذِي ... يُثبِّـتُ أنفًـا كـشّمته الجـوادعُ
جريـرٌ أشـد الـشاعرَين شـكيمةً ... ولكـنْ علتـه الباذخـاتُ الفـوارعُ
وقَالَت كليبٌ قـد شرُفنا عليهـم ... فقلـتُ لها سُـدَّت عليـكِ المطالعُ

قَالَ أَبو عُبَيْدَة: فَأَما الفَرزدقُ فَرضِيَ حِينَ شَرّفَهُ عَلَيْهِ وَقومَهُ عَلَى قومِهِ، وَقَالَ: إنّما الشِّعْرُ مُرُوءَةُ مَنْ لَا مُرُوءَةَ لَهُ، وَأمَّا جريرٌ فَغَضبَ منَ الْمَنزلَةِ الَّتِي أنزله إِيَّاهَا، فَقَالَ جَرِيرٌ:

أَقُـولُ وَلَمْ أملكْ سـوَابِقَ عبْرَةٍ ... مَتى كَانَ حكمٌ فِي بيُوتِ الهجَارسِ
فَلَو كنتَ مِنْ رَهْطِ الُمعَلَّى وطَارقٍ ... قضيـتَ قَضَاءً وَاضحًا غيرَ لابسِ

قَالَ: والُمعلَّى أَبُو الجَارُودِ أو جَدُّ الجَارُودِ، وطارقٌ: ابْنُ النُّعْمَانِ بنِ جُذيمةَ مِنْ بنِي الحَارِثِ.

والصَّلتان اسمُه قثمُ بنُ خبيّة بن قثم من بني الديلِ من عبدِ القيسِ، وجعلهم هجارس، والهجرسُ: الثَّعلب؛ لأنَّ فِي أجدَادِ الصَّلتان: هجرسُ بنُ ثعلبِ، فأمالَ الكلامَ إلَى ذَلِكَ، وَجعلَهُ هجوًا، وردَّ جريرٌ الخطفِي عَلَى الصَّلتان:

أَقُول لعَيْنِي قَدْ تحدَّرَ مَاؤُهَا ... مَتَى كَانَ حكمُ الله فِي كُربِ النَّخْلِ

ومِنْ شعرِه فِي الصَّلتانِ أيضًا:

لَقَدْ علقتْ يَمينكَ قَرنَ ثورٍ ... ومَا عَلقتْ يمينُكَ باللِّجَامِ

ذرِ الفَخرَ يا بنَ أَبِي خُليدٍ ... وأدِّ خَراجَ رَأسكَ كلَّ عامِ

فأَجَابَهُ الصَّلتَان، فقالَ:

تعيِّرُنا بِالنَّخْلِ وَالنَّخْلُ مَالنَـا ... وودَّ أَبوكَ الْكَلْبُ لَو كَانَ ذَا نخلِ

وَأَيُ نَبِي كَانَ منْ غيرِ قَريـــةٍ ... وَهَلْ كَانَ حُكمُ الله إِلَّا معَ الرُّسُلِ

والصَّلتان هُو الَّذِي يقُولُ فِي قصيدة لَهُ مضى بعضها:

ودع النَّفـس اتِّبَــاع الْهَوَى ... فَمَـا للفَتَــى كُلَّمَـا يَشْتَهِـي

وأمَّا نَجْدَةُ: فَهُوَ نجدةُ بنُ عامرِ بنِ عبدِ الله بن سيَّارِ بن مفرّج الحرُورِي الخَارِجِي، كان معَ نافعِ بنِ الأزرقِ الحرُورِي الخَارِجِي، فَلَمَّا افترقوا سَارَ نجدةُ إِلَى اليمَامَةِ، وَفِيهَا أَبُو طَالُوتَ، وهُو مِن بكرِ بنِ وائلٍ، ودعَا أَبُو طَالُوت إِلَى نفسِه، وتابعَهُ نَجْدَةُ وَنَهَبَ الخضارمَ بلد بنِي حنيفَةَ، وَكانَ الوالِي عَلَيْهَا من جهةِ الخَلِيفَةِ حينئذٍ، وَكانَ فِيهَا رَقيقٌ كَثِيرٌ يناهزُ أربعةَ آلافِ مملوكٍ، فقسَّمَهَا أَبُو طَالُوتَ فِي أصحَابِه، وَذَلِكَ سَنة خمسٍ وَستينَ.

... [1] هِيَ الخَضْرمَة الَّتِي أقطعَهَا يَحْيَى بنُ جَابرٍ، والفوارةُ والزباءُ وغرابةُ مجاعَة الحنفِي اليمَامِي، فِيمَا قَالَ أحمد بن يَحْيَى بنُ جابرِ بنِ داودَ البَلَاذُري فِي كتَابِه فتُوحِ البُلْدَانِ [2] حيثُ

---

(١) كلمات غير واضحة.

(٢) «فتوح البلدان» (ص ٩٨).

قالَ: حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ بْنُ سَلامٍ، ثَنَا الْحَارِثُ بْنُ مُرَّةَ الْحَنَفِيُّ، عَنْ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ: أَنَّ مُجَاعَةَ الْيَمَامِيَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَافِدًا مِنَ الْيَمَامَةِ فَأَقْطَعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا وَهُوَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: هَذَا كِتَابٌ كَتَبَهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمُجَاعَةَ بْنِ مُرَارَةَ بْنِ سُلْمَى أَنِّي أَقْطَعْتُكَ الْغَوْرَةَ وَغُرَابَةَ والزباء فَمَنْ حَاجَّكَ فَإِلَيَّ.

قال: «فالْغَوْرَة» قريةُ الغرَابَات ثلَاث قَاراتٍ، قالَ: ثمَّ وفدَ بعدَمَا قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَبِي بكرٍ ﵁ فأقطعَهُ الخضرَمَةَ، ثمَّ وَفدَ عَلَى عُمَر ﵁ فأقطعه الزباء، ثمَّ وَفدَ عَلَى عُثْمَان ﵁ فَأَقْطَعَهُ قَطِيعَةً، قَالَ الحَارِثُ: لا أَحْفَظُ اسْمَهَا.

والخضرمةُ: هِيَ القاعُ الَّتِي تسيحُ عَلَيْهَا عين حِجرٍ إلا أنها كانتْ بعدَ ذَلِكَ اسمًا لمقامِ الوُلَاةِ بِهَا، فيُقَالُ: من أعمالِ الخضرمةِ كَمَا يُقَالُ: مِن أعمالِ اليَمامَةِ، والقَاعُ المَذْكُورُ هُو قاعُ منفُوحَةَ الَّذِي يقُولُ فِي الأعشَى:

شاقَتكَ من قَتلة أَوْطَانُها بالشَّطِّ فالوَتْرِ إلَى حَاجِرِ
فَرُكِنَ مِهْـرَاسٍ إلَى مارِدٍ فَقَاعِ مَنْفُوحَةَ ذي الحائِرِ

فالحائرُ: ماءٌ، ومهرَاس: جبلٌ هُنَاكَ، ومارِدٌ: الحِصنُ، وَهَذِهِ القَصِيدَةُ هِيَ الَّتِي قَالَهَا فِي مُنافرَةِ عَلْقمَةَ بنِ علاثَةَ، وعَامرِ بنِ الطُّفيلِ، وَفِيهَا:

لَوْ أَسْنَدْتْ مَيْتًا إلَى نَحرِهَا لعَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إلَى قَابِرِ
حَتَّى يقُولُ النَّاسُ مِمَّا رَأوا يَا عجبًا للميِّتِ النَّاشِرِ

وقالَ صَاحِبُ الأغانِي الأصفهَانِيُّ[(١)]: أَخْبَرَنِي يَحْيَى بن عليِّ بن يحيَى، قالَ: حدَّثَنَا محمَّدُ بنُ إدريسَ بنِ سُليمانَ بنِ أَبِي حَفْصَةَ قالَ: قَبرُ الأَعْشَى بمنفُوحة وأنَا رأيتُه.

أَخبَرَنَا أبو الحَسنِ الأسديُّ، ثَنا عليُّ بنُ سُليمانَ النُّوفلِي ثنَا أَبِي قالَ: أتيتُ اليمامةَ والِيًا عَليهَا، فمررتُ بمنفُوحةَ، وَهِيَ منزلُ الأعشَى الَّتِي يقُولُ فِيهَا:

---

(١) «الأغاني» (٩/ ٨٧).

بشطٍّ منفُوحَة فَالحَاجِر

فقلتُ: أهذِه قريةُ الأعشَى؟

قَالُوا: نَعَمْ.

فقلتُ: فأين منزلُه؟

قَالُوا: هُو ذَاكَ وأشارُوا إِليهِ.

قلتُ: فأينَ قبرُه؟

قَالُوا: بفناءِ بيتهِ.

أرود من طريقٍ آخر، قَالَ: فمشيتُ إِلَيْهِ فإذا عند رأسه رُطب.

فقلتُ: مَا هَذَا؟

فقَالُوا: إنَّ الفتيانَ يخرجُونَ إِليْهِ فينادمُونَ عِندَهُ، ويشربُونَ عِندَ قبرِه الخمرَ، ويصبُّونَ عَلَيْهِ كأسًا مِن شَرَابِهم، لِقَوْلِهِ لَّما قِيلَ لَهُ: ألا تأتِي محمَّدًا ﷺ فتُسلم.

وَقِيلَ لَهُ: إنَّهُ يحرِّمُ الخمرَ والزِّنَا.

قال: هَذَا شيء لَيْسَ لي فِيهِ أربٌ.

قالُوا: ويُحرِّمُ الخمرَ.

قالَ: أمَّا هذِهِ ففِي النَّفسِ مِنْهَا علالات، سَأرجعُ فأتروى منْ بقيةِ خمرٍ عندِي بمهراس، ثمَّ أرجعُ إِليْهِ، وَقَدْ مرَّ أن مِهراسَ جبلٌ هُنَاكَ، فَلعلَّهُ الَّذِي بوسطُ القاعَ المَذْكُور.

ثمَّ إنَّ نجدةَ سَارَ إِلَى أبِي طَالُوتَ، واعترَض عِيرًا مِن البحرَينِ جَاءتْ لابنِ الزُّبيرِ فأخذَهَا، وَجَاءَ بِهَا إِلَى أبي طَالُوتَ فقسَّمهَا بينَ أصحَابِهِ.

ثمَّ رَأى الخوَارجُ أنَّ نجدَةَ خيرٌ لَهُم من أبي طَالُوتَ، فخلعُوه، وبايعُوا نجدةَ بنَ عويمرٍ، وسَارَ إِلَى بني كَعبِ بن ربيعةَ فَهَزَمَهُم وأثخنَ فِيهِم القتل.

ورَجعَ نجدةُ إِلَى اليَمَامَةِ فِي ثلاثة آلافِ مقاتلٍ من خوارجِ اليمامةِ وأصحَابِه، وبعَثَ رُسلَهُ إِلَى النَّواحِي، وَلَقِيَ بهدل بن مالكٍ الطَّائِي رئيس بنِي معنٍ هُو وقومه جمَاعَةً من رُسلِ

نجدةَ منَ الخوارجِ فَقَتَلُوهُم، فبلغَ خبرُهُم صاحبَهم نجدة الحنفِي الخَارِجِي، فلَمْ يقدرْ مِنْهُم عَلَى شيءٍ بعدَمَا نازلَ الطَّائيينَ بجيشٍ لَهُ عَلَى الأجفرِ.

وكان ذَلِكَ يومًا مشهودًا، وقَتلَ ذَلِكَ اليوم نويرةُ بنُ حصنِ الطَّائِي من الخوارجِ عَلَى الأجفرِ سبعةَ أبطالٍ مِن فُرسَانِهِم.

ثمَّ سَارَ بجنودِه إِلَى البحرَينِ، وخلَّفَ عَلَى اليمامةِ منْ أصحَابِهِ، وَذَلِكَ سنة سبعٍ وستينَ، وَكانَ نجدةُ رجلًا ذَلِقًا لَسِنًا ذَا جدلٍ، كَمَا أخبرَ ﷺ، فِيمَا روَى عَنْهُ عَبْدُ الله بنُ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ «السُّنَّةِ» [(١)] حيثُ قالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، ثَنَا رَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ، حَدَّثَنِي عُثْمَانُ الشَّحَّامُ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ، وَسَأَلْتُهُ: هَلْ سَمِعْتَ فِي الْخَوَارِجِ شَيْئًا؟

فَقَالَ: سَمِعْتُ وَالِدِيَ أَبَا بَكْرَةَ، يَقُولُ: عَنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ: «أَلَا إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ أَشِدَّاءُ أَحِدَّاءُ، ذَلِيقَةٌ أَلْسِنَتُهُمْ بِالْقُرْآنِ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، أَلَا فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَأَنِيمُوهُمْ ثُمَّ إِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَأَنِيمُوهُمْ فَالْمَأْجُورُ قَاتِلُهُمْ».

فلمَّا كانَ نَجدةُ هذِهِ صفتِه استمَالَ النَّاسَ بدعوَاهُ وترغيبِه فِيمَا دعَا إِلَيْهِ خصوصًا شباب النَّاسِ وسفهَائهم، وأطمعَهُم بذَلِكَ فِي المَالِ والغنيمةِ والتُّرسِ.

فسَارَ من اليمَامةِ، وقد اجتمعَ أهلُ البحرينِ منْ عبدِ القيسِ وغيرِهم عَلَى محاربتِه، وسالمتهُ الأزدُ، والتقُوا بالقطيفِ؛ فانهزمتْ عبدُ القيسِ، وأثخنَ فِيهِم نجدةُ وأصحابُه القتلَ، وأرسلَ سريةً إِلَى الخطِّ فظفرُوا بأهلِه.

ولمَّا قدمَ مصعبُ بنُ الزُّبيرِ البصرةَ سنةَ تسعٍ وستينَ بعثَ عبدَ الله بنَ عمرَ الليثيَّ الأعورَ فِي عشرِينَ ألفًا، ونجدةُ بالقطيفِ فقاتلُوهُم وهزمهُم نجدةُ وغنمَ مَا فِي عسكرِهِم، وبعَثَ عطيةَ بنَ الأسودِ الحنفي منَ الخوَارجِ إِلَى عُمانَ، وَبِهَا عبّادُ بنُ عبدِ الله شيخٌ كبيرٌ، فقاتلَهُ عطيّةُ فَقَتَلَهُ، وأقامَ أشهرًا وسَارَ عَنْهَا، واسْتَخْلَفَ عَلَيْهَا بعضَ الخوارجِ فَقَتَلَهُ أهلُ عُمانَ، وولَّوا عَلَيْهِم سعيدًا وسُليمانَ ابني عبّادٍ.

---

(١) «السُّنَّةِ» (١٥٢١).

ثمَّ خالفَ عطيّةُ نجدةَ، وَجَاءَ إِلَى عُمانَ، فامتنعتْ مِنْهُ، فركبَ البحرَ إِلَى كِرمانَ، وأرسلَ إِلَيْهِ المهلَّبُ جيشًا، فهربَ إِلَى سِجستانَ، ثمَّ إِلَى السِّندِ، فَقَتَلَهُ خيلُ المهلَّبِ بقندابيلَ.

ثمَّ بعثَ نجدةُ المصدقينَ منَ اليَمامةِ إِلَى البوَادِي بعدَ هزيمةِ ابنِ عميرٍ، فقاتلُوا بنِي تميمٍ بكاظمةَ، وأعانَهُم أهلُ طويلع، فبعثَ نجدةُ مَن استباحَهُم، وأخذَ مِنْهُم الصَّدقةَ كَرهًا.

ثمَّ سَارَ إِلَى صنعاءَ فبايعُوه وأخذَ الصدقةَ مِن مخاليفهَا.

ثمَّ بعثَ أبَا فديكٍ إِلَى حضرموتَ فأخذَ الصَّدقةَ منهُم.

وحجَّ سنةَ ثمانٍ وستينَ فِي تسعمائة رجلٍ، وقيلَ: فِي ألفينِ، ووقفَ ناحيةً عن ابنِ الزُّبيرِ عَلَى صُلحٍ عُقدَ بَيْنَهُمَا.

ثمَّ سَارَ نجدة إِلَى المَدِينَةِ، وتَأَهَّبُوا لقتالِهِ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ الإمَامِ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ «السُّنَّةِ» [(١)]: حَدَّثَنِي أَبِي، ثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ، أَنَا عُبَيْدُ اللهِ، عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: لَمَّا سَمِعَ ابْنُ عُمَرَ بِنَجْدَةَ قَدْ أَقْبَلَ، وَأَنَّهُ يُرِيدُ الْمَدِينَةَ، وَأَنَّهُ يَسْبِي النِّسَاءَ، وَيَقْتُلُ الْوِلْدَانَ قالَ: «إِذن لَا نَدَعُهُ وَذَاكَ» وَهَمَّ بِقِتَالِهِ، وَحَرَّضَ النَّاسَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ لَا يُقَاتِلُونَ مَعَكَ، وَنَخَافُ أَنْ تُتْرَكَ فَتُقْتَلَ، فتَرَكَهُ.

ثمَّ بدا لنجدة الرجُوعُ، فرجعَ إِلَى الطائفِ، وأصابَ بنتًا لعبدِ الله بنِ عمرَ بنِ عثمانَ فضمَّهَا إِلَيْهِ وامتحنَهُ الخوارجُ بسؤالِه بيعهَا، فقالَ: قد أعتقتُ نصيبِي مِنْهَا.

قَالُوا: فزوّجهَا.

قال: هِيَ أملكُ بنفسِهَا، وقدْ كرهتِ الزَّواجَ، ولَمَّا قرُبَ منَ الطَّائفِ جَاءَهُ عاصمُ بنُ عروةَ بنِ مسعودٍ فبايعَهُ عن قومِهِ، وولَّى عَلَيْهِم الخازرقُ، وعلى يبانة والسُراة.

وولَّى عَلَى مَا يلي نجران سَعْد الطَّلائِع، ورَجعَ إِلَى البحرينِ، وقطعَ المِيرةَ عنِ الحرمينِ.

وَكتبَ إِلَيْهِ ابنُ عبَّاسٍ أنَّ ثُمامةَ بنَ أثالٍ لَمَّا أسلمَ فقطعَ الميرةَ عن مكَّةَ وهُم مُشركُونَ،

(١) «السُّنَّةِ» (١٥٣٧).

فكتبَ إِلَيْهِ رسولُ الله ﷺ: إنَّ أهلَ مكَّةَ أهلُ الله فلَا تَمْنَعهُم الميرةَ فخلَّاهَا لهُم، وإنَّكَ قطعتَ المِيرةَ ونحنُ مسلمُونَ فخلَّاهَا لَهُم نجدةُ.

ثم اختلفَ عَلَيْهِ أصحابُه؛ لأنَّ أبَا سنانٍ حُييَّ بنَ وائلٍ أشارَ عَلَيْهِ بقتلِ من أطاعَهُ تُقية، فانتهرَه نجدةُ، وقالَ: إنَّما عَلَيْنا أنْ نحكمَ بالظَّاهرِ.

وأغضبهُ عطيةُ فِي منازعةٍ جَرَتْ بَيْنَهُمَا عَلَى تفضيلِه لسريةِ البرِّ عَلَى سريةِ البحرِ فِي الغَنيمةِ، فشتمَهُ نجدةُ، فغضبَ، وسألَهُ عن درءِ الحدِّ فِي الخمرِ عن رجلٍ منْ شجعَانهِم فأبَى.

وكاتبَهُ عبدُ الملكِ فِي الطَّاعةِ عَلَى أنْ يولِّيَهُ اليمامةَ، ويُهدرَ لَهُ مَا أصابَ من الدِّمَاءِ والأموَالِ.

فاتَّهمُوهُ فِي هذِهِ المُكاتبةِ، ونقمُوا عَلَيْهِ أمثالَ هذِهِ، وفارقَهُ عطيةُ إلَى عُمانَ.

ثمَّ انحازُوا عَنْهُ، وولُّوا أمرَهُم أبَا فديكٍ عبدَ الله بنَ ثورٍ أحدَ بنِي قيسِ بنِ ثعلبةَ، واستخفَى نجدةُ وألحَّ أبُو فديكٍ فِي طلبِه، وَكَانَ مُستخفيًا فِي قريةٍ منْ قرَى حِجرٍ.

ثمَّ نذرَ بِهِ فذهبَ إلَى أخوالِه بنِي تميمٍ، وأجمعَ المسيرَ إلَى عبدِ الملكِ، فعلمَ بِهِ أبُو فديكٍ، وجَاءَتْ سَريةٌ مِنْهُم وقاتلَهُم فَقَتَلُوهُ.

وأسخطَ قتلهُ جماعةً منْ أصحَابِ أبِي فُديكٍ، واعتمدَهُ، يعنِي: مسلمَ بنَ جبيرٍ، فطعنَهُ اثنتي عشرَ طعنةً، وقُتِلَ مسلمٌ لوقتِه، وحُمِلَ أبُو فديك إلَى منزلِه [(١)].

ثمَّ تتابعتْ بينهُم الفتنُ فِي اليمامَةِ، وجعلَ يقتلُ بعضُهم بعضًا، ولهَذَا قَالَ ابنُ القريةِ الهلالي لَمَّا سألَهُ الحجَّاجُ بنُ يوسفَ عن الأماكنِ وطبائعِ أهلِها، وأخبرَهُ بِمَا أخبرَهُ، قالَ: فأهلُ اليمامةِ؟ قال: أهلُ جفاءٍ، واختلافِ آراءٍ، ورزقٍ كثيرٍ، وقِرىً يسيرٍ.

فمضوا فِي اليمامةِ مدةً حتَّى جعلَ الخليفةُ عَلَيْهِم واليًا من جهتِه، وأبادَ خضرَاء دعَاة الخوَارجِ، ولَا زالَ يخرجُ فِيهِم الخَارجِي بعدَ الخَارجِي، فيستأصلُه الخليفةُ فَيَخْلُفُهُ مِثلُهُ.

---

(١) «الكَامل فِي التَّاريخِ» (٣/ ٢٨١)، و«تارِيخ ابنِ خلدُونَ» (٣/ ١٨٤).

فَصْلٌ

فِي مسير هِلَالِ بْنِ مُدْلِجٍ...... [(١)] إِلَى اليَمَامَةِ، وكان فِي جيشِه سعيدٌ ومسعودٌ ابنَا أبِي زينبَ من أهلِ هَجرٍ، وقدِ استدعَاهُم أهلُ اليَمامةِ مِمَّن كانَ فِيهَا من الخوَارجِ عَلَى مذهبِ نجدةَ الحنفِي الحرُورِي، وكانَ أميرَ اليمامةِ سفيانُ بنُ عمرٍو العُقيلِي.

وسَارَ هِلَالُ بْنُ مُدْلِجٍ الخَارِجِي وأصحابُه الخضَارمَ قاصدِينَ أصحابَهُم بحِجرٍ، ومَنْ كانَ معهُم باليَمامةِ خرجَ عَلَيْهِم أميرُ اليَمامةِ سفيانُ بنُ عمروٍ مِن جهةِ الخَليفةِ، فقاتلَهُم قتالًا شَدِيدًا، فقتلَهُم وانهزموا فِيهَا جميعًا.

وفِي قتلِهم يقُولُ جَرِيرٌ:

بَـاتَ هِـلالٌ بِالخَـضَارِمِ مُوجِفًـا ... و لَمْ يَتَعَـوَّذْ مِـنْ شرُورِ الطَّـارِقِ
فَـصَبَّحَهُ سُـفْيَانُ فِي ذاتِ كَوْكَـبٍ ... فَجَرَّدَ بِيـضًا صَـادِقاتِ البَـوَارِقِ
وَسُفيانُ خَوَّاضٌ إِلَى حَومةِ الوَغَى ... وَلُوجٌ إذا مَا هِيبَ بابُ الـسُّرَادِقِ

---

(١) كلمات غير واضحة.

فَصْلٌ

ثُمَّ جَاءَ مصعبٌ إِلَى البصرةِ سنة ثَمانٍ وستِّينَ واليًا عَلَى العراقينَ عن أخيهِ، وكانَ المهلَّبُ فِي حربِ الأزَارقَةِ.

فأرادَ مصعبٌ أن يولِّيهُ بلادَ الموصلِ والجزيرةِ وأرمينية، ليكونَ بينَهُ وبينَ عبدِ الملكِ، فاستقدَمهُ من فارسَ وولَّاهُ، وولَّى عَلَى فارسَ وحربِ الأزارقةِ عُمرَ بنَ عبدِ الله بنِ معمرٍ[(١)].



(١) «الكَامل فِي التَّاريخِ» (٣/ ٢٨١)، و«تارِيخ ابنِ خلدُونَ» (٣/ ١٨٥).

فَصْلٌ

فِي توليةِ الزُّبيرِ بنِ المَاحوز أمرَ الخَوَارجِ، بعد مقتلِ أخيهِ عبيدِ الله.

ثمَّ إنَّ الخوارجَ قَدْ ولُّوا عَلَيْهِم بعدَ قتلِ عبيدِ الله بنِ الماحوزِ سنة خمسٍ وستينَ أخاهُ الزُّبيرَ، فجاءُوا بِهِ إِلَى إصطخرَ، وقد بعثَ عمرُ ابنَه عبيدَ الله إِليهم، فَقَتَلُوهُ، ثمَّ قاتلَ الزبيرُ عمرَ فهزمَهُم، وقُتِلَ مِنْهُم سبعُونَ. وفُلقَ جبينُ قطريِّ بنِ الفَجاءةِ، وشُتر صالِحُ بن مخراقٍ.

وسارُوا إِلَى نيسابورَ، فقاتلَهُم عمرُ بِهَا وهزمَهُم، فقصدُوا أصبهانَ فاستجموا بِهَا.

ثمَّ أقبلُوا إِلَى فارسَ، وتجنَّبُوا عسكرَ عمرَ، ومرُّوا عَلَى ساجورَ ثمَّ أرجانَ، فأتَوْا الأهوازَ قاصدِينَ العِرَاقَ.

وأخَذَ عمرُ السيرَ فِي أثرِهم، وعسكرَ مصعبٌ عندَ الجسرِ.

فسَارَ الزُّبيرُ بالخَوَارجِ فقطعَ أرضَ صرصر، وشنَّ الغارةَ عَلَى أهلِ المدائنِ؛ يقتلُونَ الولدان والرِّجالَ، ويبقرُونَ بطونَ الحُبالَى، وهربَ صاحبُ المدائنِ عَنْهَا وانتهتْ جماعةٌ مِنْهُم إِلَى الكرخِ، فقاتلهم أبُو بكر ابن مخنفٍ فَقَتَلُوهُ.

وخرجَ أميرُ الكُوفةِ وهُو الحارثُ بنُ أبِي ربيعةَ القُباع حتَّى انتهَى إِلَى الفراتِ، ومعَهُ إبراهيمُ بنُ الأشترِ، وشبيب بن ربعي التَّمِيمِي، وأسماءُ بنُ خارجةَ، ويزيدُ بنُ الحارثِ، ومحمَّدُ بنُ عميرٍ، وأشارُوا عَلَيْهِ بعقدِ الجسرِ والعبُور إِليهم، فانهزمُوا إِلَى المدائنِ.

وأمرَ الحارثُ عبدَ الرحمنِ ابنَ مخنفٍ باتِّباعهِم فِي ستةِ آلافٍ إِلَى حدُودِ أرضِ الكُوفةِ، فانتهوا إِلَى الرَّي، وعَلَيْهَا يزيدُ بنُ الحارثِ بنِ رُوَيْم الشّيبانِيّ، ومَالأَهُم عَلَيْهِ أَهل الرَّي فهزمُوه وقتلُوه.

ثمَّ انحطُّوا إِلَى أصبهانَ وَبِهَا عتابُ بنُ ورقاء فحَاصرُوه أشهرًا، وكانَ يقاتلُهم عَلَى بابِ المدينةِ، ثمَّ دعا أصحابَه إِلَى الاستماتةِ فِي قتالِهم، فخرَجُوا وقاتلُوهُم، وانهزمتِ الخوَارجُ، وقُتلَ الزُّبير واحتووا عَلَى معسكرِهِم [١].

---

(١) «الكَامل فِي التَّاريخِ» (٣/ ٢٨٢)، و«تاريخ ابنِ خلدُونَ» (٣/ ١٨٥ ـ ١٨٦).

فَصْلٌ

فِي دعوةِ قَطريٍّ بنِ الفجاءةِ إِلَى مَا تقدَّم كَمَا وعدْنَا بِهِ قبلُ:

ثمَّ بايعَ الخَوارجُ قَطريَّ بنَ الفجاءةِ المَازِنِي، ويكنَّى أبا نعامةَ، قيلَ: إنَّ قَطريًّا لَيْسَ باسمٍ لَهُ، ولكنَّهُ نُسبَ إِلَى موضعٍ بينَ البحرينِ وعُمانَ، يقَالُ لَهُ: قَطرٌ، مِنْهُ أَبُو نعامة المذكُور، وهُو مازنِي من بنِي مازنِ بنِ عمرِو بن تميمٍ.

وكانَ رجلًا شجاعًا، مقدامًا، كثيرَ الحرُوبِ والوقائعِ، قويّ النَّفسِ لا يهابُ الموتَ.

حُكِيَ عَنْهُ أَنَّهُ خرجَ فِي بعضِ حرُوبِهِ وهُو عَلَى فرسٍ عجوزٍ بيدِه عمُود خشبٍ، فدعَا إِلَى المبارزةِ، فبرز إِلَيْهِ رجلٌ فحسرَ لَهُ قَطري عن وجهِه، فَلَمَّا رآهُ الرَّجلُ ولَّى هاربًا، فقالَ لَهُ قَطريٌّ: إِلَى أينَ؟ قَالَ: لا يستحِي الإنسانُ أن يفرَّ منكَ!

ومِن شعرِهِ مُخاطبًا لنفسِهِ:

أَقُـولُ لَهَـا وَقَـدْ طَـارَتْ شَـعَاعًا ... مِـنَ الأَبْطَـالِ وَيْحَـكِ لَا تُرَاعِـي
فَإِنَّـكِ لَـوْ سَـأَلْتِ بَقَـاءَ يَـومٍ ... عَلَى الأَجَلِ الَّذِي لَـكِ لَمْ تُطَـاعِي
فَـصَبْرًا فِي مَجَـالِ المَـوْتِ صَـبْرًا ... فَـمَا نَيْـلُ الخُلُـوْدِ بِمُـسْتَطَاعِ
وَلَا ثَـوْبُ الحَيَـاةِ بِثَـوْب عِـزٍّ ... فَيُطْوَى عَنْ أَخِي الخَنَعِ اليَرَاعِ
سَـبِيْلُ المَـوْتِ غَايَـةُ كُـلِّ حَـيٍّ ... وَدَاعِيــه لأَهْــلِ الأَرْضِ دَاعِ
وَمَــنْ لَا يُغْتَـبِط يَـسْأَمْ وَيَهْـرَمْ ... وَتُـسْلِمُهُ المَنُـوْن إِلَى انْقِطَــاعِ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَـيْرٌ فِي حَيَــاةٍ ... إِذَا مَا عُــدَّ مِــن سَقَطِ المَتَـاعِ

وهذِه الأبياتُ تشجِّعُ أجبنَ خَلقِ اللهِ، ومَا صَدرتْ إِلَّا عنْ نفسٍ أبيَّةٍ، وشهامَةٍ عربيةٍ[1].

وقالَ أيضًا:

---

(١) «وفيَات الأعيانِ» (٤/ ٩٤).

أَلا أَيهَا الْبَاغِـي البرَاز تَقرَّبــنْ ... أُسَاقِكَ بِالْمُوْتِ الذُّعَافَ الْمُقشَّبَا
فَمَا فِي تساقي الْمُوْتِ فِي الْحَرْبِ سُبةٌ ... عَلَى شَارِبِيهِ فَاسْقنِي مِنْهُ وَاشْرَبَا[١]

ولَهُ أيضًا:

لَا يَرْكِنَنَّ أَحَـدٌ إِلَى الإِحجَـام ... يَوْمَ الوَغَـى مُتَخوفًا لِحِمَامِ
فلَقَــدْ أَرَانِي للرِّمَاحِ دَرِيئَـةً ... مِــنْ عَنْ يَمِينِي مَرَّةً وأَمَامِي
حَتَّى خَضَبـتُ بِمَا تَحَدَّرَ مِــنْ دَمِي ... أَكْنَافَ سَرْجِي أَوْ عِنَانَ لِجَامِي
ثُمَّ انْصَرَفْتُ وقَدْ أَصبتُ ولَمْ أُصَبْ ... جَـذَعَ البَصِيرَةِ قَارِحَ الإِقْدَامِ[٢]

فلَمَّا بايعَ الخوارجُ قَطريًّا ارتحلَ بِهِمْ إِلَى كِرْمَانَ حتَّى استجموا، فرجعُوا إِلَى أصبهانَ فَامتنعتْ، فأتَوا الأهوازَ وأقامُوا بها.

وبعَثَ مُصعبٌ إِلَى المهلَّبِ فردَّهُ إِلَى قتالِ الخَوَارجِ، وولَّى عَلَى الموصلِ والجزيرةِ إبراهيمَ بنَ الأشترِ، وَجَاءَ المهلَّبُ فانتخبَ الناسَ منَ البصرةِ، وسَارَ إِلَى الخوارجِ، فَلقِيَهُم بسُولَاف، واقتتلُوا ثمانيةَ أشهرٍ.

وفِي تِلْكَ الوقائعِ قُتِلَ مرةُ بْنُ عَمْرِو بْن عَبْدِ اللهِ المَازِنِي التَّمِيمِي، قتلتْهُ الخوارجُ أيَّام قَطرِيٍّ هذِهِ، وهُو الَّذِي يُدعى مرَّة الكتَّان، كَانَ شريفًا، وكانَ لَهُ غلمَان يجلبُونَ الكتَّانَ، فَلَمَّا قتلَهُ الخوارجُ، جعلَ شبيبٌ الخَارِجي يبكِي عَلَيْهِ، فَقَالتْ لَهُ الخوارجُ: أتبكِي عَلَى رَجُلٍ منْ أَهْلِ النَّارِ، لقَدْ شككتَ فِي دينِكَ؟

فَقَالَ: إِنَّمَا أبكِي عَلَى أهلِ النَّار حيثُ فاتَهُم الإسلامَ والجنَّةَ، فَلذَلِكَ أبكِي !

وفِي تِلْكَ المدة بعثَ مصعبُ بنُ الزُّبيرِ إِلَى عتاب بنِ ورقاء الرّياحِي عاملِ أصبهانَ بقتالِ أهلِ الرَّي بِمَا فعلوهُ فِي ابن رُوَيْم، فسَارَ إِلَيْهِم وَعَلَيْهِم الفرحان، فقاتلَهُم وافتتحَهَا عنوةً، وقلاعَهَا، وعاثَ فِي نواحِيهَا.

---

(١) «ديوان الحماسة» (٢/ ١١١ بشرح التبريزي).
(٢) «الأمالي» للقالي (٢/ ١٩٠).

فَصْلٌ

فِي خَبَرِ ابنِ الحرِّ وَمَقتلِهِ:

كانَ عبيدُ الله بنُ الحرِّ الجعفِي من خيارِ قومِه صلاحًا وفضلًا.

ولما قُتلَ عثمانُ ﷺ حَزنَ عَلَيْه، وكانَ معَ معاوية عَلَى عليٍّ، وَكَانتْ لَهُ زوجةٌ بالكُوفةِ فتزوَّجتْ؛ لطول صفّين، فأتى عليًا ﷺ فسألَهُ أن يردَ عَلَيْهِ امرأتَهُ، فعزلَه لفعلِ فعلَهُ، فقالَ: أيمنعنِي ذَلِكَ من عَدلِكَ؟

قالَ: لَا، وردَّ إِليْهِ امرأتَهُ.

فرجعَ إِلَى الشَّام وَجَاءَ إِلَى الكُوفةِ بعدَ مقتلِ عليٍّ، وَلَقِيَ إخوانَهُ، وتفاوضُوا فِي النَّكيرِ عَلَى عليٍّ ومُعَاوية.

ولَمَّا قُتلَ الحُسينُ ﷺ تغيَّبَ عن ملحمتِهِ، وسألَ عَنْهُ ابنُ زيادٍ فلَمْ يرَهُ.

ثمَّ لَقِيَهُ فأسَاءَ عذلَهُ، وعرضَ لَهُ بالكونِ معَ عدوِّه فأنكرَ، وخرجَ مُغضبًا.

وراجعَ ابن زيادٍ رأيهُ فِيهِ فطلبَهُ فلَمْ يجِدْهُ، فبعثَ إِليْهِ فامتنعَ، وقالَ: أبلغُوه أنِّي لا آتيه طائعًا أبدًا، وأتى منزلَ أحمدَ بنِ زيادٍ الطَّائِي، فاجتمعَ إِليْهِ أصحابُهُ، وخرجَ إِلَى المَدَائنِ.

ومضَى لمصارعِ الحُسينِ وأصحابِهِ فاستغفرَ لهُم.

ولَمَّا ماتَ يزيدُ ووقعتِ الفتنةُ اجتمعَ إِليْهِ أصحابُه، وخرجَ إِلَى نواحِي المدَائنِ، ولمْ يعترضْ للقتلِ ولا للمَالِ، إنَّما كانَ يأخذُ مالَ السُّلطَانِ متَى لَقيَهُ، فيأخذُ مِنْهُ عطاءَهُ وعطاءَ أصحابِه، ويردُّ البَاقِي، ويكتبُ لصَاحبِ المَالِ بِمَا أخذَ.

وحبسَ المختارُ امرأتَهُ بالكُوفةِ، وَجَاءَ وأخرَجَهَا منَ الحَبسِ، وأخرجَ كلَّ مَنْ فيهِ، وأرادَ المختارُ أنْ يسطُو بهِ، فمنعَهُ إبراهيمُ بنُ الأشترِ، وسَارَ معَ ابنِ الأشترِ إِلَى الموصلِ لقتالِ ابنِ زيادٍ. ثمَّ فارقَهُ، ولمْ يشهدْ معَهُ، وشهدَ معَ مصعبٍ قتالَ المختارِ وقتله.

ثُمَّ أُغْرِي بِهِ مصعبٌ فحبسَهُ، وشفعَ فِيهِ رجالٌ من وجُوهِ مذحج فشفّعهُم وأطلَقَهُ، وأتى إِلَيْهِ النَّاسُ يهنئونَهُ فصرَّحَ بأن أحدًا لا يستحقُّ الخلافةَ بعدَ الأربعةِ، ولا يحلُّ أن يُعقدَ لَهُم بيعةٌ فِي أعناقِنَا، فليسَ لَهُم عَلَيْنَا منَ الفضلِ مَا يستحقُّونَ بِهِ ذلكَ، وكلُّهم عاصٍ مخالفٌ، قوي الدُّنيا ضعيف الآخرةِ، ونحنُ أصحابُ الأيَّامِ معَ فارسَ، ثُمَّ لا يُعرفُ حقّنا وفضلنَا، وإنِّي قدْ أظهرتُ لَهُم العَدَاوَةَ.

وخرجَ للحربِ، فأغارَ، فبعثَ إِلَيْهِ مصعبٌ سيفَ بنَ هانئٍ المراديَّ يعرضُ عَلَيْهِ الطَّاعةَ عَلَى أن يعطيَهُ قَطيعةً منْ بلادِ فارسَ؛ فأبى، فسرَّحَ إِلَيْهِ الأبردَ بنَ فروةَ الرّياحِي فِي عسكرٍ، فهزمَهُ عبيدُ الله، فبعثَ إِلَيْهِ حريثَ بنَ زيدٍ فهزمَهَ وقتلَهُ.

فبعثَ إِلَيْهِ الحجَّاجَ بنَ حارثةَ الخثعميَّ ومسلمَ بنَ عمرَ فقاتلَهُمَا بنهرِ صرصر وهزمَهُمَا، فأرسلَ إِلَيْهِ مصعبٌ بالأمانِ والولايةِ فلم يقبلْ، وأتى إِلَى فارسَ؛ فهربَ دهقانها بالمَالِ، وتبعه ابنُ الحرِّ إِلَى عينِ التَّمرِ، وعليهِ بسطامُ بنُ مصقلةَ بن هبيرةَ الشَّيبانيُّ، فقاتلَ عبيد الله ووافَاهُم الحجَّاج بن حارثَة، فهزمهُمَا عبيدُ الله وأسرهمَا وأخذَ المالَ الَّذِي معَ الدِّهقانِ.

وأقامَ بتكريت يجبِي الخَراجَ، فسرَّحَ مصعبٌ لقتالِه الأبردَ بنَ فروةَ الرّياحِي والجونَ بنَ كعبٍ الهمدانِيّ فِي ألفٍ، وأمدَّهم المهلَّبُ بيزيدَ بنِ المعقلِ فِي خمسمائةٍ، وقاتلَهُم عبيدُ الله يومينِ وهُو فِي ثلاثمائةٍ، ثُمَّ تحاجزُوا، وقالَ لأصحابِه: إِنِّي سائرٌ بكُم إِلَى عبدِ الملكِ فتأهَّبُوا!

ثُمَّ قالَ: إِنِّي خائفٌ أن أموتَ، ولم أذعرْ مصعبًا، وقصدَ الكوفةَ وجاءَتهُ العسَاكر من كلِّ جهةٍ، ولم يزلْ يهزمهُم ويقتلُ مِنْهُم بنواحِي الكُوفةِ والمَدائنِ.

وأقامَ يُغيرُ بالسَّوادِ ويجبي الخَراجَ، ثُمَّ لحقَ بعبدِ الملكِ فأكرمَهُ وأجلسَهُ معه عَلَى سريرِهِ، وأعطاهُ مائة ألفِ درهمٍ، وقسَّم فِي أصحابِه الأعطيات، وسَألَ من عبدِ الملكِ أن يوجّهَ معَهُ عسكرًا لقتالِ مصعبٍ، فقالَ: سرْ بأصحَابِكَ، وادعُ مَن قدرتَ عَلَيْهِ، وأنا مُمدُّك بالرِّجالِ.

فَسَارَ نحوَ الكُوفةَ ونزلَ بناحيةِ الأنبارِ وأذنَ لأصحَابِهِ فِي إتيانِ الكُوفةَ ليُخبرُوا أصحابَه بقدُومِهِ.

وبعَثَ الحارثَ بنَ أبي ربيعةَ إِليْهِ جيشًا كثيفًا، فقاتلَهُم وتفرَّقَ عَنْهُ أصحابُه وأثخنَهُ الجراح، فخاضَ البحرَ إِلَى سفينةٍ فركبَهَا حتَّى توسطَ الفراتَ، فأشرفَ خيلٌ عَلَى السفينةِ وتبادرُوا به، فقامَ ليثب فِي البحرِ، فتعلقُوا بِهِ، فألقَى نفسَهُ فِي الماءِ معَ بعضِهِم فغرَّقُوهُ[1].

---

(١) «تارِيخ ابنِ خلدُونَ» (٣/ ١٨٧ ـ ١٨٨).

فَصْلٌ

فِي حرُوبِ الخَوَارِجِ معَ عَبدِ المَلكِ والحَجَّاجِ:

ولَمَّا استقرَّ عبدُ الملكِ بالكُوفَةِ بعدَ قتلِ مصعبٍ بعثَ عَلَى البصرَةِ خالدَ بنَ عبدِ الله، وكانَ المُهلَّبُ يحاربُ الأزارقَةَ، فولَّاهُ عَلَى خَراجِ الأهوازِ، وبعَثَ أخاهُ عبدَ العزيزِ بنَ عبدِ الله إِلَى قتالِ الخَوارجِ، ومعَهُ مقاتل بن مسمعٍ، وأتتِ الخوارجُ من ناحيةِ كِرمانَ إِلَى دارَبجِردَ.

وبعَثَ قَطريُّ بنُ الفُجاءةِ صالحَ بنَ مخراقٍ فِي تسعمائةٍ، فاستقبلَ عبدَ العزيزِ ليلًا عَلَى غيرِ تعبيةٍ، فانهزمَ وقُتلَ مقاتلُ بن مسمعٍ، وأُسرت بنت المنذرِ بن الجارُودِ امرأة عبدِ العزيزِ فقتلَهَا الخَوارجُ.

وتحرّز عبدُ العزيزِ إِلَى رامهرمزَ.

وكتبَ خالدٌ بالخبرِ إِلَى عبدِ الملكِ، فكتبَ إِلَيْهِ يُعنِّفه عَلَى ولايةِ أخيهِ الحرب وولاية المهلَّب جبايةَ الخَراج، وأمرَه بأن يسرِّحَ المهلَّبَ لحربِهِم.

وكتبَ إِلَى بشرٍ بالكُوفةِ بإمدَادِهِ بخمسةِ آلافٍ معَ مَن يرضاهُ، فإِذَا فرغُوا من قتالِ الخوارجِ سَارُوا إِلَى الرَّي، فكَانُوا هنالكَ مسلحةً.

فأنفذَ بشرٌ العسكرَ وَعَلَيْهِم عبدُ الرحمنِ بنُ محمَّد بن الأشعثِ، وكتبَ لَهُ عَهده عَلَى الرَّيِّ.

وخرجَ خالدٌ بأهلِ البصرةِ ومعَه المهلَّبُ واجتمعُوا بالأهوَازِ.

وجاءتِ الأزارقةُ فأحرقُوا السُّفنَ.

ومرَّ المهلَّبُ بعبدِ الرحمنِ بنِ الأشعثِ، وأمرهُ أنْ يُخندقَ عَلَيْهِ وأقامُوا كذلكَ عشرِينَ ليلةً.

ثمَّ زحفَ خالدٌ بالنَّاسِ، فهالَ الخَوَارِجُ كثرتَهُم وانصرَفُوا.

وبعَثَ خالدٌ داودَ بنَ قحذمٍ فِي آثارِهِم، وانصرفَ إِلَى البصرَةِ، وكتبَ بالخبرِ إِلَى عبدِ الملكِ، فكتبَ إِلَى أخيه بشرٍ أن يبعثَ الأربعةَ الآلاف منْ أهلِ الكوفةِ إِلَى فارسَ، ويلحقُوا بداودَ بنِ قحذم فِي طلبِ الأزارقةِ.

فبعثَ بِهِمْ بشرُ بنَ عتاب ولحقُوا بداودَ، واتّبعوا الخوارجَ حتَّى أصابَهُم الجهدَ ورَجعَ عامَّتهُم مشاةً إِلَى الأهوازِ.

ثمَّ خرجَ أبُو فديك مِن بني قيسِ بنِ ثعلبةَ، فغلبَ عَلَى البحرينِ، وقُتلَ نجدة بن عامرٍ الحنَفِيّ كَمَا مرَّ، وهَزمَ خالدًا، فكتبَ إِلَى عبدِ الملكِ بذلكَ، وأمرَ عبدُ الملكِ عمرَ بنَ عبيدِ الله بن معمرٍ أن يندبَ الناسَ منْ أهلِ الكوفةِ والبصرةِ ويسيرَ لقتالِ أبي فديكٍ، فانتدبَ معه عشرةَ آلافٍ، وسَارَ بِهِم، وأهلُ الكوفةِ عَلَى ميمنتِه، وَعَلَيْهِم محمدُ بنُ موسَى بن طلحةَ بنِ عُبيدِ اللهِ، وأهلُ البصرةِ فِي ميسرتِه عَلَيْهِم عمرُ بنُ موسَى أُخُوه، وهُو فِي القَلبِ.

وانتهَوا إِلَى البحرينِ واصطفُّوا للقتَالِ، وحمَلَ أبُو فديكٍ وأصحابُه، فكشفُوا ميسرة عمر حتَّى أُبعدُوا، إِلَّا المغيرة بن المهلبِ ومجاعَة وعبد الرحمن وفرسان النَّاس، فإنَّهم مالُوا إِلَى أهلِ الكُوفة بالميمنةِ، ورَجعَ أهلُ الميسرةِ.

وحمَلَ أهلُ الميمنةِ عَلَى الخَوَارج فهَزمُوهُم، واستبَاحُوا عسكرَهُم، وقتلُوا أبا فديكٍ، وحصرُوا أصحابَهُ بالمشقرِ حتَّى نزلُوا عَلَى الحكمِ، فقُتلَ مِنْهُم ستة آلاف وأسر ثمانمائةٍ، وَذَلِكَ سنة ثلاثٍ وسبعِينَ[١].

(١) «تاريخ ابنِ خلدُونَ» (٣/ ١٨٨ ـ ١٨٩).

فَصْلٌ

ثمَّ ولَّى عَبدُ الملكِ أخَاهُ بِشرًا عَلَى البصرَةِ، فسَارَ إليها، وأمرهُ أن يبعثَ المهلّب إلى حربِ الأزارقةِ، وأن ينتخبَ منْ أهلِ البصرةِ مَنْ أرادَ، ويتركُهُ ورأيهُ فِي الحرْبِ، ويمدُّه بعسكرٍ كثيفٍ من أهلِ الكوفةِ معَ رجلٍ معرُوفٍ بالنَّجدةِ.

فبعثَ المهلَّبُ لانتخابِ النَّاسِ جُديع بنَ سعيدِ بن قبيصةَ، وشقَّ عَلَى بشرٍ أن ولايةَ المهلَّبِ منْ عبدِ الملكِ، وأوغرتْ صدرَهُ فبعثَ عَلَى الكُوفةِ عبدَ الرحمن بنَ مخنفٍ، وأغراهُ بالمهلَّبِ فِي تركِ مشورتِهِ وتنقّصهُ.

وسَارَ المهلَّبُ إلَى رامهرمز وَبِهَا الخَوارجُ، وأقبلَ ابنُ مخنفٍ فِي أهلِ الكُوفَةِ فنزلَ عَلَى ميلٍ مِنْهُ بحيثُ يتراءَى العسكَرَانِ.

ثمَّ أتَاهُم نبأُ بِشرِ بنِ مروانَ، وأنه اسْتَخْلَفَ خالدَ بنَ عبدِ الله عَلَى البصرةِ، وخليفتُه عَلَى الكوفةِ عمرو بنُ حريثٍ، فافترقَ ناسٌ كثيرةٌ من أهلِ البصرةِ وأهلِ الكوفةِ فنزلُوا الأهوازَ.

وكتبَ إلِيْهِم خالدُ بنُ عبدِ الله يتهدَّدهُم، فلمْ يلتفتُوا إليهِ.

وأقبلَ أهلُ الكُوفةِ إلَى الكُوفةِ، وكتبَ إلِيْهِم عمرو بنُ حريثٍ بالنَّكيرِ والعودِ إلَى المهلَّبِ، ومنعهُم الدخُولَ، فدخلُوا ليلًا إلَى بُيوتِهِمْ.

[ثمَّ قدمَ الحجَّاجُ أميرًا عَلَى العراقين سنة خمسٍ وسبعينَ][1] فخطبَ بالكُوفةِ خطبتَهُ المعرُوفة؛ كانَ منهَا: «ولقدْ بلغنِي رفضكُم المهلَّبَ، وإقبالكُم إلَى مِصركِم عاصِينَ مخَالفِينَ، وأيمُ الله لا أجدُ أحدًا من عسكرِه بعدَ ثلاثةٍ إلَّا ضربتُ عنقَهُ، وأنهبتُ دارَهُ». ثمَّ دعَا العرفَاء.

وكانَ فظًّا غليظًا قصيرَ الخِلقةِ كَمَا قَالَ الحَسنُ البصريُّ ـ لما أُدخلَ عَلَيْهِ ثمَّ خرجَ قَالَ: «دخلتُ عَلَى أُحيول يطرطب شَعرَات لَهُ»

(١) غيرُ موجُودٍ بالأصلِ، واستدركتُه من «تاريخ ابنِ خلدُونَ» (٣/ ١٨٩) لأنَّ السياقَ يقتضيه.

يعنِي: ينفخُ بشفتيهِ فِي شاربِه غيظاً و كِبراً.

والطرطبة: الصفير للضأن بالشفتين.

قالَ: «فأخرجَ إليَّ بنانًا قصيرةً. قلَّما عرقت فِيهَا الأعنة فِي سبيلِ الله».

وذكَرَهُ أيضًا يومًا فقالَ: «وهلْ كَانَ إلا حمارًا هفافًا طياشًا» يقالُ: هفَّ الحمارُ إذا أسرعَ فِي سيرِهِ.

ثمَّ دعَا العرفاءَ كلَّهُم، وقال: ألحِقُوا الناسَ بالمهلَّبِ، وائتونِي بالبراءَةِ بموافاتِهم، ولا تغلقنَّ أبوابَ الجسرِ.

ووجدَ عمرَ بن ضَابِيء منَ المتخلفِينَ، وأُخبرَ أنَّهُ من قتلةِ عثمانَ ﷺ، فقتلَهُ، فخرج جندُ المهلَّبِ، وازدحمُوا عَلَى الجسرِ، وَجَاءَ العُرفاءُ إلَى المهلّبِ برامهرمز فأخذُوا كتابَهُ بموافَاةِ النَّاسِ، وأمرهُم الحجَّاجُ بمناهضَةِ الخَوارجِ، فقاتلُوهُم شيئًا، ثمَّ انزاحُوا إلَى كَازرُون.

وسَارَ المهلَّبُ وابنُ مخنفٍ فنزلُوا بِهم، وخَندقَ المهلَّبُ، ولم يُخندقِ ابنُ مخنفٍ، وبيَّتَهُم الخوارجُ فوجدُوا المهلَّبَ حَذِرًا فمالُوا إلَى ابن مخنفٍ فانهزمَ عَنْهُ أصحابُه وقاتلَ حتَّى قُتلَ.

وفِي حديثِ أهلِ الكُوفةِ أنَّهُم لَمَّا ناهضُوا الخَوارجِ مالُوا إلَى المهلَّبِ واضطرُّوه إلَى معسكرِهِ، وأمدَّه عبدُ الرحمنِ بعامَّةِ عسكرِهِ، وبقيَ فِي خفٍّ منْ الجندِ، فمالَ إِليْهِ الخوارجُ فنزَلَ، ونزلَ معَهُ القرَّاءُ واحدٌ وسبعُونَ من أصحَابِه فَقُتِلُوا.

وجاءَ المهلَّبُ منَ الغدِ فدفنَهُ وصلَّى عَلَيْهِ، وكتبَ بالخبرِ إلَى الحجَّاجِ؛ فبعثَ عَلَى معسكرِهِ عتابَ بنَ ورقاء، وأمرَهُ بطاعةِ المهلَّبِ، فأجابَ لذَلكَ وفِي نفسِه مِنْهُ شيءٌ.

وعاتبَهُ المهلَّبُ يومًا ورفعَ إِليْهِ القضيب فردَّه ابنُه المغيرةُ عن ذَلِكَ، وكتبَ عتابٌ يشكُو المهلَّبَ إلَى الحجَّاجِ، ويسألُهُ العودَ، وصادفَ ذَلِكَ أمر شبيبٍ، فاستقدمَهُ وبقيَ المهلَّبُ يقاتلُ الخَوارجَ بسابُور سنةً[1].

(١) «تاريخ ابنِ خلدُونَ» (٣/ ١٨٩ ـ ١٩٠) بتصرف.

فَصْلٌ

فِي حرُوبِ الصّفريةِ وشبيبٍ معَ الحجَّاجِ:

ثم خرجَ صالحُ بنُ مسرّحِ التَّميمِي من بني امرىءِ القيسِ بن زيدِ مناة، وكانَ يرى رَأيَ الصفريّةِ، وكانَ عابدًا، ومسكنهُ أرض المُوصلِ والجزيرةِ، ولَهُ أصحابٌ يُقرئهُم القرآنَ والفِقْه.

وكانَ يأتِي الكُوفةَ، ويلقى أصحَابهُ، ويعدُّ مَا يحتاجُ إليْهِ، فطلبَهُ الحجَّاجُ فتركَ الكوفةَ، وَجَاءَ إلَى أصحَابِهِ بالمُوصلِ ودارَا، فدعاهُم إلَى الخرُوجِ وحثَّهُم عليهِ.

وجاءَهُ كتابُ شبيبِ بنِ يزيدَ بن نعيمِ بن شراحيلَ بن مرَّةَ مِن بني ذهلِ بنِ شيبان الشيبانِيِّ مِن رؤُوسهِم يحثُّه عَلَى مثلِ ذلكَ. فكتبَ إليْهِ إنِّي فِي انتظارِكَ فاقدُم.

فقدمَ شبيبٌ فِي نفرٍ من أصحابِهِ مِنْهُم أخُوه المصادّ، والمُحلّل بنُ وائلٍ اليشكريّ، ولقيهُ بدارا، وأجمعَ صالحُ الخرُوجَ.

وبثَّ إلَى أصحابِه وخرجُوا فِي صفر سنة ستٍّ وسبعِينَ، وأمرَ بالدُّعاءِ قبلَ القتالِ، وخيّرَ فِي الدِّماءِ والأموالِ، وعرضت لَهُم دَوابُ لمحمدِ بنِ مروانَ بالجزيرةِ فأخذُوهَا وحملُوا عَلَيْهَا أصحَابَهُم.

وبلغَ محمدَ بنِ مروَانَ وهُو أميرُ الجزيرةِ خرُوجُهم؛ فسرَّحَ إليْهِم عديَّ بنَ عديِّ الكندِي فِي ألفٍ، فسَارَ منْ حرَّانَ، وكانَ ناسكًا فكره حربَهُم، وبعَثَ إليْهِم بالخرُوجِ من البلدِ؛ فحبسُوا الرَّسُولَ.

فسارُوا إليْهِ وطلعُوا عَلَيْهِ، وهُو يصلّي الضُّحى، وشبيبٌ فِي الميمنةِ، وسويدُ بن سليم فِي الميسرةِ، وركبَ عديٌّ عَلَى غيرِ تعبيةٍ فانهزمَ، واحتوَى الخوارجُ عَلَى معسكرِه، ومضوا إلَى آمد.

وسرَّحَ محمدُ بنُ مروان خالدَ بن جزء السلمي فِي ألفٍ وخمسمائةٍ، والحارثُ بن جعُونةَ العامريّ فِي مثلِها، وقالَ: أيُّكما سبقَ فَهُوَ أميرٌ عَلَى صاحبِه.

وبعَثَ صالحٌ شبيبًا إلَى الحارثِ، وتوجَّه نحوَ خالدٍ، وقاتلُوهم أشدَّ القتالِ، واعتصمَ أصحابُ محمدٍ بخنادقِهم، فسارتِ الخوارجُ عنهُم، وقطعُوا أرضَ الجزيرةِ والموصلِ إلَى الدَّسكرةِ[1].

---

(١) «تاريخ ابنِ خلدُونَ» (٣/ ١٩٠ ـ ١٩١).



فصلٌ

فِي مقتلِ صالحِ بنِ مسرح الخَارِجي، وتوليةِ شبيبٍ بعدَه أمرَ الخوَارِجِ:

فلمَّا أرادَ الخَوارِجُ قتلَ صالحٍ، وأن يتولَّى أمرَهمُ شبيبٌ، سرَّح إليْهِم الحجَّاجُ الحارث بنَ عميرةَ ابن ذي الشغارِ فِي ثلاثةِ آلاف من أهلِ الكوفةِ فَلقيَهُم عَلَى تُخم مَا بينَ الموصلِ وجوخى، والخوارجُ فِي تسعِينَ رجُلًا.

فانهزمَ سويدُ بنُ سليمٍ، وقُتِلَ صالحٌ، وصُرِعَ شبيبٌ.

ثمَّ وقفَ عَلَى صالحٍ قتيلًا فنادَى بالمُسلمِينَ فلاذُوا بِهِ، ودخلُوا حِصنًا هنالكَ وهُم سبعُونَ.

وأحاطَ الحارثُ بِهم، وأحرقَ عَلَيْهِم البابَ، ورَجعَ حتَّى يُصبِّحهُم من الغداةِ.

فقال لَهُم شبيبٌ: بايعُوا مَنْ شئتم من أصحَابكُم واخرجُوا بنَا إليهم، فبايعُوه، وأطفأوا النارَ بالماءِ فِي اللبودِ، وخرجُوا إِلَيْهِ فبيَّتُوه، وصُرِع الحَارثُ فحمله أصحَابُه، وانهزمُوا نحوَ المَدَائنِ، وحوَى شبيبٌ عَسكرِهِمْ.

وسَارَ شبيبٌ إِلَى أرضِ الموصلِ فلقِيَ سلامةَ بنَ سنانٍ التَّمِيمِي من تميمِ شيبان، وكانَ أخُوه فضالةُ منْ أكابرِ الخوَارِجِ.

وكانَ خرجَ قبلَ صالحٍ فِي ثمانيةَ عشرَ رجلًا ونزلَ عَلَى ماءٍ لبني عنزةَ، فَقَتَلُوهُم، وأتوْا برؤُوسهِم إِلَى عبدِ الملكِ يستخدمُونَ لَهُ بِهِمْ.

فلمَّا دعَا شبيبٌ سلامةَ إِلَى الخرُوجِ شرطَ عَلَيْهِ أن ينتخبَ ثلاثِينَ فارسًا، ويسيرَ بِهِمْ إِلَى عنزةَ، فيثأرَ مِنْهُم بأخيه، فقبلَ شرطَهُ، وسَارَ إِلَى عنزة فأثخن فِيهِم يقتلُ الحلّة بعدَ الحلّةِ.

ثم أقبل شبيبٌ إِلَى داران فِي نحو سبعين رجلًا، ففرّت مِنْهُ طائفة من بني شيبان نحو ثلاثة آلاف فنزلوا دَيْرًا خرابًا، وامتنعُوا مِنْهُ، وسَارَ فِي بعضِ حَاجاتِهِ، واسْتَخْلَفَ أخاهُ مصاد بنَ يزيدَ بجمَاعةٍ من بنِي شيبانَ فِي أموالِهم مُقِيمِينَ، فقتلَ مِنْهُم ثَلَاثِينَ شيخًا فِيهِم

حوثرةَ بن أسدٍ. وأشرفَ بنُو شيبانَ عَلَى مصادٍ وأصحابِهِ، وسألُوا الأمانَ؛ ليخرجُوا إِلَيْهِم ويسمعُوا دعوتَهُم، فخرَجُوا، وقبلُوا ونزلُوا إِلَيْهِم واجتمعُوا بِهِمْ.

وجاءَ شبيبٌ فاستصوبَ فعلَهُم، وسَارَ بطائفةٍ نحو أذربيجانَ.

وكانَ الحجَّاجُ قدْ بعثَ سفيانَ بنَ أبِي العَاليةِ الخثعميَّ إِلَى طبرستانَ يحاصرُها فِي ألفِ فارسٍ، فكتبَ إِلَيْهِ الحجَّاجُ أن يرجعَ، فصَالحَ أهلَ طبرستان ورَجعَ؛ فأقامَ بالدسكرةِ يطلبُ المَددَ.

وبعَثَ الحجَّاجُ أيضًا إِلَى الحارثِ بنِ عميرةَ الهمدانِيِّ قاتل صالح أن يأتيَهُ بجيشِ الكوفةِ والمدائنِ، وإلى سورةَ ابنِ أبجرِ التَّمِيمِي فِي خيلٍ للمناهضَةِ.

ويعجِّلُ سفيانَ فِي طلبِ شبيبٍ، فلحقَهُ بخانقين فاستطردَهُم، وأكمنَ كمينًا معَ أخيهِ، واتَّبعُوه فِي سفحِ الجبلِ، فخرجَ عَلَيْهِم الكمين، فانهزمُوا بغيرِ قتالٍ.

وثبتَ سفيانُ، وقاتلَ، ثمَّ حملَ شبيبٌ، فانكشفَ ونجَى إِلَى بابلَ مهرُود، وكتبَ إِلَى الحجَّاجِ بالخبرِ، وبوصُولِ العسَاكرِ إِلَّا سورة بن أبجرٍ، فكتبَ الحجَّاجُ إِلَى سورةَ يتهدَّدهُ، ويأمرُه أن يتَّخذَ منَ المدائنِ خمسمائة فارسٍ، ويسيرَ إِلَى شبيبٍ، فسارَ.

وانتهَى شبيبٌ إِلَى المدائنِ ثمَّ إِلَى النَّهروانِ، وترحَّم عَلَى أصحابِه هنالكَ، وبيَّتهُم سورةُ هنالكَ وهُم حَذرُونَ، فلمْ يُصبْ مِنْهُم الغرَّة، ورَجعَ نحوَ المَدائنِ، وشبيبٌ فِي اتِّبَاعِهِ.

وخرجَ ابنُ أبِي العصيفرِ عامل المَدائنِ فقاتلَهُم، وهربَ الكثيرُ من جندِه إِلَى الكُوفةِ، ومضَى شبيبٌ إِلَى تكريت، ووصلَ سورةُ إِلَى الكُوفةِ بالفلِّ، فحبسَهُ الحجَّاجُ ثمَّ أطلقَهُ(١).

(١) «تاريخ ابنِ خلدُونَ» (٣/ ١٩١ ـ ١٩٢).

فَصْلٌ

فِي مُنَاهضةِ شبيبٍ...... [١]، وقتل سعيدِ بنِ مجالِدِ، وما بعثَ بعدَ ذَلِكَ من الأمدَادِ والأمراءِ.

وسرّحَ عثمانَ بنَ سعيدِ بن شرحبيلَ الكنديّ، ويُلقبُ الجَزلَ فِي أربعةِ آلافِ لَيْسَ فِيهِم من المنهزِمِينَ أحدٌ، وسارُوا لحربِ شبيبٍ وأصحابِهِ.

وقَدّمَ بين يديهِ عياضَ بن أبي لينةَ الكنديُّ، وجعلُوا يتبعُونَ شبيبًا من رِستاق إلى رِستاق، وهُو عَلَى غيرِ تعبيةٍ، والجزلُ عَلَى التعبيةِ، ويُخندقُ عَلَى نفسِهِ متَى نزلَ.

وطالَ ذَلِكَ عَلَى شبيبٍ، وكانَ فِي مائةٍ وستينَ، فقسَّمهُ عَلَى أربعِ فرقٍ، وثبتَ الجزلُ ومسالحه، فلَمْ يُصِبْ مِنْهُم غِرَّةً، فرجعَ عنهُم، ثمَّ صبّحهُم ثانيةً فلمْ يظفرْ مِنْهُم بشَيءٍ.

وسَارَ الجزلُ فِي التعبيةِ كَمَا كانَ، وشبيبٌ فِي أرضِ الجوخِ وغيرِها، وجبى كثير الخَرجِ.

وكتبَ الحجَّاجُ إلَى الجزلِ يُنكرُ عَلَيْهِ البُطءَ، ويأمرُهُ بالمناهضَةِ، وبعَثَ سعيدَ بنَ المجالدِ عَلَى جيشِ الجزلِ فجاءَهُم بالنَّهروانِ ووبَّخَهُم وعجَّزهُم وجاءَهُم الخبرُ بأنَّ شبيبًا قد دخلَ قطيطا، والدّهقان يُصلحُ لَهُم الغدَاء، فنهضَ سعيدٌ فِي الناسِ، وتركَ الجزلَ معَ العسكرِ، وقد صفَّ بِهِمْ خارج الخندقِ، وَجَاءَ سعيدٌ إلَى قطيطا وعلمَ بِهِ شبيبٌ، فأكلَ وتوضَّأ وصلَّى، وخرجَ فحملَ عَلَى سعيدٍ وأصحابِه مُستعرضًا، فانهزمُوا، وثبتَ سعيدٌ فقتلَهُ، وسَارَ فِي اتِّباعِهِم إلَى الجَزلِ، فقاتلَهُم الجزلُ حتَّى وقعَ بينَ القتلَى جَرِيحًا.

..... [٢] يقول:

جَاؤُوا بِشَيْخِهِم وَجِئْنَا بالجَزْلْ ... شَيْخٌ إذَا مَا عايَنَ الموت نَزَلْ

---

(١) كلمات غير واضحة.

(٢) كلمات غير واضحة.

وكتبَ إِلَى الحجَّاجِ بالخبرِ، وأقامَ بالمدائنِ، وانتهَى شبيبٌ إِلَى الكرخِ، وعبرَ دجلةَ إليهِ، وأرسلَ إِلَى سوقِ بغدادَ، فأتَاهُم فِي يومِ سوقِهِم، واشترَى مِنْهُ حاجَاته، وسَارَ إِلَى الكُوفةِ.

فَلَمَّا قَرُبَ مِنْهَا بعثَ الحجَّاجُ سويدَ بنَ عبدِ الرحمنِ السعديَّ فِي ألفي رجلٍ، فسارُوا إِلَى شبيبٍ، وأمّرَ عثمانَ بن قطن فعسكرَ فِي السّبخةِ، وخالفَهُ شبيبٌ إِلَى أهلِ السبخةِ فقَاتَلُوهُ، وَجَاءَ سويدٌ فِي آثارِه فمضَى نحوَ الحيرةِ وسويدٌ فِي اتِّباعِهِ ثمَّ رحلَ مِنَ الحيرَةِ.

وجاءَ كتابُ الحجَّاجِ إِلَى سويدٍ يأمرُه باتِّباعِه، فمضَى فِي اتّباعه، وشبيبٌ يغيرُ فِي طريقِه، وأخذَ عَلَى القطقطانة، ثمَّ عَلَى قصرِ بنِي مقاتلٍ، ثمَّ عَلَى الأنبارِ، ثمَّ ارتفع عَلَى أدنى أذَربيجان.

ولَمَّا أبعدَ سَارَ الحجَّاجُ إِلَى البصرةِ، واستعملَ عَلَى الكُوفةِ عروةَ بنَ المغيرةِ بن شعبةَ، فجاءَهُ كتابُ دهقان بابل مهرود يخبرُه بقصدِ شبيبِ الكوفةَ، فبعثَ بالكتَابِ إِلَى الحجَّاجِ.

وأقبلَ شبيبٌ حتَّى نزلَ عقرقوبا، ونزلَ وسَارَ مِنْهَا يسابقُ الحجَّاجَ إِلَى الكُوفَةِ.

وطَوَى الحجَّاجُ المَنَازِلَ فوصلَ الكُوفَةَ عندَ العصرِ، ووصلَ شبيبٌ عندَ المغربِ، فأراحَ وطعمُوا، ثمَّ ركبُوا ودخلُوا إِلَى السُّوقَ، وضربَ شبيبٌ القصرَ بعَمُودِهِ.

ثم اقتحمُوا المسجدَ الأعظمَ فقتلُوا فِيهِ منَ الصَّالحينَ، ومرُّوا بدارِ صاحبِ الشرطةِ فدعَوه إِلَى الأميرِ، وأنكرهم فقتلُوا غلامَهُ، ومرُّوا بمسجدِ بنِي ذهلٍ فقتلُوا ذهلَ بنَ الحارثِ، وكانَ يطيلُ الصلاةَ فيهِ.

ثمَّ خرجُوا منَ الكُوفةِ واستقبلَهُم النضرُ بنُ القعقاع بن شور الذُّهلِي، وكانَ مِمَّن أقبلَ معَ الحجَّاجِ منَ البصرةِ، فتخلَّفَ عَنْهُ، فَلَمَّا رآهُ قالَ: السَّلامُ عليكَ أيُّهَا الأميرُ، فقال لَهُ شبيبٌ: قلْ أميرَ المُؤمنينَ وَيْلَكَ! فقَالهَا.

وأرادَ شبيبٌ أن يُلقِّنَهُ للقَرَابةِ بَيْنَهُمَا.

وكان النَّضرُ ناحيةَ بيتِ هانِيء بنِ قبيصةَ الشَّيبانِيِّ فقال له: يَا نضرُ لَا حُكمَ إِلَّا للهِ، ففطنَ بِهِمْ، وقال: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِليْهِ راجِعُونَ، وشدَّ عَلَيْهِ أصحابُ شبيبٍ فَقَتَلُوهُ.

ونادَى مُنَادِي الحجَّاجِ بالكُوفةِ: يَا خيلَ الله اركبِي ! وهُو بباب القَصرِ، وَكانَ أوَّلَ مَنْ أتَاهُ عثمانُ بنُ قطن بن عبدِ الله بنِ الحُسينِ ذِي القصَّة.

ثمَّ جَاءَ النَّاسُ من كلِّ جانبٍ، فبعثَ الحجَّاجُ بشرَ بنَ خالدِ بنِ الأسدِي، وزائدةَ بنَ قُدامةَ الثَّقفيَّ، وأبَا الضَّريسِ مَولى بنِي تميمٍ، وعبدَ الأعلَى بنَ عبدِ الله بنِ عامرٍ، وزيادَ بنَ عبدِ الله العتكيَّ فِي ألفينِ ألفينِ، وقال: إنْ كانَ حَربٌ فأميرُكُم زائدةُ بنُ قُدَامَةَ.

وبعَثَ معَهُم محمدَ بنَ مُوسَى بن طَلحَةَ بن عُبيدِ الله مِن سِجستان، وكانَ عبدُ الملكِ قَد ولَّاهُ عَلَيْها، وأمرَ الحجَّاجَ أن يجهِّزَهُ ويبعثَهُ فِي آلافٍ منَ الجنُودِ إلَى عملِهِ، فجهَّزَهُ.

وحدَثَ أمرُ شبيبٍ، فقالَ لَهُ الحجَّاجُ: تجاهدْ ويظهرَ اسمُكَ، ثمَّ تمضِي إلَى عملِكَ، فسارُوا جميعًا ونزلُوا أسفلَ الفُراتِ.

وأخذَ شبيبٌ نحوَ القَادسيةِ، وجرَّدَ الحجَّاجُ ألفًا وثمانمائةٍ مِن نقاوةِ الجُندِ معَ زحر بنِ قيسٍ، وأمرَهُ بمواقعةِ شبيبٍ أينَما أدركَهُ، وإنْ ذهبَ فاتركهُ، فأدركَهُ بالسَّلخينِ، وعطفَ عَلَيْهِ شبيبٌ، فقاتلَ زحر حتَّى صُرِعَ وفيهِ بضعة عَشَرَ جُرحًا، وانهزمَ أصحابُهُ يظنُّونَ أنَّهُ قُتلَ، ثمَّ أفاقَ من بردِ السّحَرِ فدخلَ قريةً قريبًا منه، وسَارَ إلَى الكُوفةِ.

ثمَّ قصدَ شبيبٌ الأمراءَ وهُم عَلَى أربعةٍ وعشرِينَ فرسخًا من الكُوفةِ فَقالَ: إنّ هَزَمْنَاهُم فلَيسَ دُونَ الحجَّاجِ والكُوفةِ مانعٌ، وانتهَى إليهم، وقد تعبّوا للحربِ وعلى الميمنةِ زيادُ بنُ عمرَ العتكيُّ، وعلى الميسرةِ بشرُ بنُ غالبِ الأسدِي، وكلُّ أميرٍ بمكَانِهِ.

وعبَّى شبيبٌ أصحابَهُ ثلاثة كتائبٍ بينَ سويدِ بنِ سليمٍ فِي الميمنةِ، وأخيهِ مصادٍ فِي الميسرةِ، وهُو فِي القَلبِ.

وحمَلَ سويدُ بنُ سليمٍ عَلَى زيادِ بنِ عمرَ فانكشفُوا وثبتَ زيادٌ قليلًا. ثمَّ حمَلَ الثانيةَ فانهزمُوا وانهزمَ جريحًا عندَ المَسَاءِ.

ثمَّ حملُوا عَلَى عبدِ الأعلَى بنِ عبدِ الله بنِ عامرٍ فانهزمَ ولم يقاتلْ، ولحقَ بزيادِ بنِ عمرَ، ودخلتِ الخوارجُ حتَّى انتهتْ إلَى محمدِ بنِ مُوسَى بن طلحةَ عندَ الغرُوبِ فقاتلُوه، وصبرَ لَهُم.

ثم حمَلَ مصادٌ أخُو شبيبٍ عَلَى بشرِ بنِ غالبٍ فِي الميسرةِ، فصبرَ ونزلَ فِي خمسِينَ رجلًا فقاتلُوا حتَّى قُتِلُوا.

وحملتِ الخوَارجُ عَلَى أبي الضريسِ مولَى بنِي تميمٍ فهزمُوهُ حتَّى انتهَى إِلَى أعين، ثمَّ حملُوا عَلَيْهِ وعلى أعينٍ فهزمُوهُما إِلَى زائدةَ بنِ قدامةَ.

فلمَّا انتهَوْا إِليْهِ نادَى نِزال، وقاتلَهُم إِلَى السَّحَرِ، ثمَّ حملَ شبيبٌ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ وقتلَ أصحابهُ، ودخلَ أبُو الضريسِ معَ الفلِّ إِلَى جوسقٍ بإزائِهِم.

ورفعَ الخوارجُ عنهُم السَّيفَ، ودعوهُم إِلَى البيعةِ لشبيبٍ عندَ الفجرِ، فبايعُوه، وكانَ فيمن بايعَهُ أبُو بُردةَ[1].

ويروى... [2] الخوارج تِلْكَ الليةِ (حم) فأشرعَ رجلٌ منَ الخَوارجِ رمحَه فِي رجلٍ مِنْهُم فقالَ: (حم) فإذا هُو أنفذَهُ الرُّمح، فقالَ الخَارِجي - لَمَّا عرفَ أنه مِنْهُم -:

يُذَكِّرُنِي (حَم) وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ... فَهَلَّا تَلَا (حَم) قَبْلَ التَّقَدُّمِ

ويقالُ: إنَّ القائلَ لذلكَ الأشتر حينَ قتلَ محمدِ بنِ طلحةَ السَّجَّادِ يومَ الجملِ، وكانتْ معهُ امرأةُ أبيهِ، وكان عليٌّ ﷺ، نَهى عن قَتْلِه، فقالَ لأصحَابهِ: إِيَّاكم وصاحبَ البُرْنُسِ.

فعندَ ابنِ أبِي الدُّنيَا منْ طرِيقِ مُحَمَّدِ بنِ إِسْحَاقَ أنَّ الأشترَ قَتل محمدَ بن طلحةَ يوم الجملِ، وقالَ:

(١) «تارِيخ ابنِ خلدُونَ» (٣/ ١٩٢ - ١٩٣).

(٢) كلمة غير واضحة.



وَأَشْعَــثَ قَــوَّامٍ بِآيَاتِ رَبِّــهِ قَلِيلِ الْأَذَى فِيمَا تَرَى الْعَيْنُ مُسْلِمِ
هَتَكْتُ لَهُ بِالرُّمْحِ جَيْبَ قَمِيصِهِ فَخَرَّ صَـرِيعًا لِلْيَدَيْــنِ وَلِلْفَمِ
يُذَكِّرُنِي (حَـم) وَالرُّمْحُ دُونَـهُ فَهـلَّا تَلَا (حَـم) قَبْـلَ التَّقَــدُّمِ
وَمَا كَانَ شَيْئًا غَيْرَ أَنْ لَيْسَ تَابِعًا عَلِيًّا وَمَـنْ لَمْ يَتْبَـعِ الْحَقَّ يظلِـمِ (١)

قَالَ:.......... (٢) الصَّحِيحُ أَنَّهُ الَّذِي قتلَهُ، وأَنَّه قَائِلُ الشعرِ، وَيُقَالُ: قَتَلَهُ شَدَّادُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْعَبْسِيُّ، ويُقَالُ: قَتَلَهُ كَعْبُ بْنُ مُدْلِجٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ طَرِيفٍ الأَسدِيِّ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ كفَّ يدهُ عنِ القِتَالِ، فَقَتَلَهُ المُقشعرِ المَذْكُورِ بَعدَ مَا قَالَ (حم)، وَهِيَ شعارُ عليٍّ وأصحَابِهِ، وَقِيلَ: إِنَّهَا اسْمٌ منْ أَسْمَاءِ الله تعَالَى.......... (٣) وغيره.

وبقيَ محمدُ بنُ مُوسَى لمْ ينهزمْ، فَلَمَّا طلعَ الفجرُ سمعَ شبيبٌ أذانَهُم وعلمَ مكانَهُم، فأَذَّنَ وصلَّى، ثمَّ حملَ عَلَيْهِم فانهزمتْ طائفةٌ منهُم، وثبتتْ أُخرَى، وقاتلَ محمدٌ حتَّى قُتِلَ.

وأخذَ الخوارجُ مَا فِي العَسكرِ، وانهزمَ الَّذِينَ بايعُوا شبيبًا، فلمْ يبقَ مِنْهُم أحدٌ.

وجاءَ شبيبٌ إِلَى الجوسقِ الَّذِي فِيهِ أعين وأَبُو الضُّريسِ فتحصَّنُوا مِنْهُ، فأقامَ عَلَيْهِم يومًا، وسَارَ عنهُم، وأرادَهُ أصحابُه عَلَى الكُوفَةِ وإزاءهم جوخى فتركَهَا، وخرجَ عَلَى نفرٍ، وسمعَ الحجَّاجُ بذَلِكَ فظنَّ أَنَّهُ يريدُ المدائنَ وَهِيَ باب الكُوفةِ، وأكثر السَواد لها فهَالَهُ ذلكَ، وبعثَ عثمانَ بنَ قطنٍ أميرًا عَلَى المدائنِ وجوخى والأنبَار، وعزَلَ عَنْهَا عبدَ الله بنَ أَبِي عصيفيرٍ.

وقيلَ فِي مقتلِ مُحَمَّدِ بنِ مُوسَى غير هَذَا، كانَ شهدَ معَ عمرَ بنِ عبيدِ الله بن معمرٍ قتالَ أبِي فديكٍ فزوَّجهُ عمرُ ابنتَهُ، وكانتْ أختُه تحتَ عبدِ الملكِ فولَّاهُ سِجستانَ فمرَّ بالكُوفةِ.

---

(١) أخرجهُ الحاكمُ فِي «المستدركِ» (٣/ ٣٧٥).

(٢) كلمات غير واضحة.

(٣) كلمات غير واضحة.

وقيل للحجاج: إنْ جاءَ إلى هذا أحدٌ ممّن تطلبهُ منعكَ مِنْهُ، فَمُرْهُ بقتالِ شبيبٍ فِي طريقِهِ؛ لعلَّ اللهَ يريحكَ مِنْهُ ففعلَ الحجَّاجُ.

وعدلَ محمدٌ إلَى قتالِ شبيبٍ، وبعثَ إليْهِ شبيبٌ برأيِ الحجَّاجِ وخديعتِه إيَّاهُ، وأن يعدلَ عَنْهُ فأبى إلّا محاربتَهُ فواقفَهُ، وطلبَ البِرازَ، فخرجَ إليْهِ من أصحابِ شبيبٍ، فأبى إلّا شبيبًا فبارزَهُ، وقتلَهُ شبيبٌ[1][2].

---

(١) «تاريخ ابن خلدون» (٣/ ١٩٤).

(٢) في هامشِ الأصلِ: «بلغَ مُقابلةً علَى أصْلِه، فصحَّ علَى يدِ مؤلفِه عفَى اللهُ عنهُ».

فَصْلٌ

ولَمَّا انهزمَ الأمرَاءُ وَقُتِلَ مُوسَى بنُ مُحمَّدِ بنِ طلحةَ؛ دعَا الحجَّاجُ عبدَ الرَّحمن بنَ الأشعثِ وأمرَهُ أن ينتخبَ ستةَ آلاف فارسٍ، ويسيرَ فِي طلبِ شبيبٍ أينَ كانَ، فسَارَ لذلكَ.

ثمَّ كتبَ إِلَيْهِ وإِلَى أصحابِه يتهدَّدهُم إن انهزمُوا. ومرَّ ابنُ الأشعثِ بالمدائنِ، وعادَ الجزلُ من جراحتِه فوصَّاهُ وحذَّرهُ، وحملَهُ عَلَى فرسِهِ، وكانتْ لا تُجارى.

وسَارَ شبيبٌ عَلَى دقوقا وشهرزور، وابنُ الأشعث فِي أثرِه أينَ سلكَ، إِلَى أن وقفَ عَلَى أرضِ الموصلِ، وأقامَ يقاتلُه أهلُهَا، فكتبَ إِلَيْهِ الحجَّاجُ: أمَّا بعدُ؛ فاطلبْ شبيبًا واسلكْ فِي أثرِه أينَ سلكَ حتَّى تدركهُ فاقتلْهُ، أو تنفيهِ فإنَّما السلطَانُ سلطانُ أميرِ المؤمنينَ والجندُ جُندهُ.

فجعلَ ابنُ الأشعثِ يتبعهُ وشبيبٌ يقصدُ بِهِ الأرضَ الخشنةَ الغليظةَ، وإذا دنا مِنْهُ رجعَ يبيِّتهُ، فيجدُه عَلَى حذرةٍ، حتَّى أتعبَ الجيشَ، وأحفَى دوابَّهُم، ونزلَ بطنَ أرضِ الموصلِ لَيْسَ بينَهُ وبينَ سواد الكوفة إلا نهر حولايا فِي داذان الأعلَى من أرضِ جوخى.

ونزلَ عبدُ الرحمنِ فِي عواقيل النَّهر، وكانتْ أيَّام النحرِ، وطلبَ شبيبٌ الموادعةَ فِيها، فأجابَهُ قصدًا للمُطاولةِ، وكتبَ عثمانُ بنُ قطنٍ بذَلِكَ إِلَى الحجّاجِ، فنكرَه وبعَثَ إِلَى عثمانَ بنِ قطنٍ بإمارَةِ العسكرِ، وأمرَهُ بالمسيرِ، وعزلَ عبدَ الرحمنِ بنَ الأشعثِ، وبعَثَ عَلَى المدائنِ مطرِّفَ بنَ المغيرةِ مكانَ ابنِ قطنٍ.

وقدمَ ابنُ قطنٍ عَلَى عسكرِ الكُوفةِ عشيةَ يوم التَّرويةِ، ونادَاهُم إِلَى الحربِ فاستمهلُوه، وأنزلَهُ عبدُ الرحمن بنُ الأشعثِ، وأصبحُوا إِلَى القتالِ ثالث يومِهِم عَلَى تعبيةٍ، وفِي الميمنةِ خالدُ بنُ نهيك بن قيسٍ، وفي الميسرةِ عقيلُ بنُ شدَّادِ السّلوليّ، وابن قطنٍ فِي الرَّجَالةِ.

وعبَرَ إِلَيْهِم شبيبٌ فِي مائة وثمانين رجلًا، فوقفَ فِي الميمنة، وأخوه مصادٌ فِي القلبِ، وسويدُ بنُ سليمٍ فِي الميسرةِ.

وحمَلَ شبيبٌ عَلَى ميسرةِ عثمانَ بنِ قطنٍ فانهزمُوا، ونزَلَ عقيلُ بنُ شدّادٍ فقاتَلَ حتَّى قُتِلَ، وقُتِلَ معه مالكُ بنُ عبدِ الله الهمدانِيُّ، وحمَلَ سويدٌ عَلَى ميمنةِ عثمانَ فهزمَهَا، وقاتَلَ خالدُ بنُ نهيك فجاءَ شبيبٌ من ورائِه فقتَلَهُ، وتقدَّم عثمانُ إِلَى مصادٍ فِي القلبِ، فاشتدَّ القتالُ.

وحمَلَ شبيبٌ من وراءِ عثمانَ، وعطفَ عَلَيْهِم سويدُ بنُ سليمٍ، ومصادٌ منَ القلبِ حتَّى أَحاطُوا بِهِ فَقَتَلُوهُ وانهزمتِ العساكرُ، ووقعَ عبدُ الرحمنِ بنُ الأشعثِ، فأتَاهُ ابنُ أبِي سبرَةَ الجعفِي، وهُو عَلَى بغلةٍ فأردفَهُ، ونادَى فِي النَّاسِ باللَّحاقِ بدَير أبِي مريمَ، ورفعَ شبيبٌ السَّيفَ عَنِ النَّاسِ، ودعَاهُم إِلَى البيعةِ فبايعُوهُ، ولحقَ ابنُ الأشعثِ بالكُوفةِ، فاختفَى حتَّى أمَّنَهُ الحجَّاجُ، ومضَى شبيبٌ إِلَى ماه نهرادان فأقامَ فِيهِ فصلَ الصَّيفِ، فلحقَ بِهِ مَن كانَ للحجَّاجِ عَلَيْهِ تَبِعة.

ثمَّ أقبلَ إِلَى المدائنِ فِي ثمانمائةِ رجلٍ وعَلَيْهَا مطرِّفُ بنُ المغيرةِ، وبلغَ الخبرُ الحجّاجَ، وجاءَه كتابٌ منْ عبدِ الملكِ، عنْ جوابِ كتبَهُ إِلَيْهِ يُغلِّظُ فِيهِ أمرَ الخوارجِ،، وشدَّة شوكتِهم، فكتبَ إِليهِ: (أُوصيكَ بِمَا أوصَى بِهِ البكرِي زيدًا، والسَّلامُ).

فلم يَفْهَمِ الحجَّاجُ مَا أرادَ عبدُ الملكِ، فاستعلم ذَلِكَ من كثيرٍ منَ العُلماءِ بأخبارِ العربِ، فلَمْ يُعلمُوهُ، فقالَ: من جاءنِي بتفسيره فلَهُ عشرةُ آلاف درهمٍ، ووَرَدَ رجلٌ من أهلِ الحجازِ يتظَلَّم مِن بعضِ العمالِ، فقالَ لَهُ قائلٌ: أتعلمُ مَا أوصَى بِهِ البكريُّ زيدًا؟

قال: نَعَمْ أعلمُهُ.

فقيل لَهُ: فأتِ بابَ الأميرِ، فأخبرْهُ ولكَ عشرةُ آلاف درهمٍ، فدخلَ عَلَيْهِ فسألَهُ، فقَالَ: نعَمْ أيُّها الأميرُ، إنَّهُ يعنِي قولَهُ:

أقُولُ لِزَيْــــدٍ لا تُتَرتِـــر فإنَّهُـــمْ يَرَوْنَ المَنَايَا دُونَ قَتْلِكَ أو قَتْلِي [١]
فإنْ وضعُوا حَرْبًا فضعهَا وإن أَبَوْا فعُرضة نارِ الحَرْبِ مثلكَ أو مثلي
وإنْ رَفَعُوا الحَرْبَ العوَان الَّتِي ترى فشُبّ وقود النَّارِ بالحطَبِ الجزلِ

قلت:... [٢] هُو موسى بن جابرِ الَّذِي يقولُ:

وَمَا خَيرُ مَالٍ لَا يقِي الـذَمَّ ربّـــهُ وَنَفسِ امرئٍ فِي حَقِّهَا لَا يُهِينُهَا

فقالَ الحجَّاجُ: أصابَ أميرُ المؤمنينَ فِيمَا أوصانِي، وأصابَ البكريُّ فِيمَا أوصى بِهِ زيدًا، وأصبتَ أيُّها الأعرابِي، ودفعَ إِليْهِ الدَّرَاهمَ.

وكتبَ إِلَى المهلَّبِ: إنَّ أميرَ المُؤمنينَ أوصانِي بِمَا أوصَى بِهِ البكريُّ زيدًا، وأنا أوصِيكَ بذَلِكَ، وبمَا أوصَى بِهِ الحَارِثُ بنُ كعبٍ بنيهِ.

فنظرَ المهلَّبُ فِي وصيةِ الحارثِ بنِ كعبٍ، فإِذَا فِيهَا: يا بنِي كونُوا جَميعًا، ولا تكونُوا شِيَعًا فتفرقُوا، وبِزُّوا قبلَ أن تُبَزُّوا، الموتُ فِي قوةٍ وعزٍّ، خيرٌ منَ الحياةِ فِي ذلٍ وعجزٍ.

فقالَ المُهَلَّبُ: صَدَقَ وأصَابَ [٣].

ثُمَّ إنَّ الحجَّاجَ قَامَ فِي النَّاسِ، وتَسَخَّطَ، وتوعَّدَ.

فقالَ زهرةُ بن حويّةَ ـ وهُو شيخٌ كبيرٌ لا يستطيعُ القيامَ إلا معتمدًا ـ: أنتَ تبعثُ النَاسَ متقطعِينَ فيصيبُونَ مِنهُم فاستنفرِ الناسَ جميعًا، وابعثْ عَلَيْهِم رجلًا شجاعًا مجرَّبا، يرَى الفرارَ عارًا، والصبرَ مجدًا وكرمًا.

فقالَ الحجَّاجُ: أنتَ ذَلِكَ الرجل!

---

(١) الترترة: العجَلَة.

(٢) كلمات غير واضحة.

(٣) «شرح نهج البلاغة» (٥/ ٣٧ـ ٣٨).

فقال: إنَّما يَصلحُ من يحملُ الدِّرعَ والرُمحَ، ويهزُّ السيفَ، ويثبتُ عَلَى الفرسِ، ولا أطيقُ من هَذَا شيئًا، وقد ضعُفَ بصرِي، ولكن أكونُ معَ أميرٍ، وأشيرُ عليهِ.

فقالَ لهُ: جزاكَ اللهُ خيرًا عنِ الإسلامِ وأهلِه أوَّل أمركَ وآخرهُ.

ثم قَالَ للنَّاسِ: سيرُوا فتجهَّزوا بأجمعِكُم.

فتجهَّزُوا، وكتبَ الحجَّاجُ إِلَى عبدِ الملكِ بأنَّ شبيبًا شارفَ المدائنَ، يريدُ الكُوفةَ، وهُم عاجِزُونَ عن قتالِهِ بِمَا هزمَ جندَهُم، وقتلَ أمراءَهُم، ويستمدُّه من جندِ الشَّام، فبعثَ إِلَيْهِ عبدُ الملكِ سفيانَ بنَ الأبردِ الكلبيَّ فِي أربعةِ آلافٍ، وحبيبَ بنَ عبدِ الرحمنِ الحكميّ فِي ألفينِ، وَذَلِكَ سنة ستٍّ وسبعِينَ.

وكتبَ الحجَّاجُ إِلَى عتاب بنِ ورقاء الرّياحِي يستقدمهُ من عندِ المهلَّبِ، وقدْ وقعَ بَيْنَهُمَا كَمَا مرَّ منافرةٌ.

فقدمَ عتابٌ وولَّاهُ عَلَى الجيشِ، فشكرَ زهرةُ بنُ حويّةَ لَهُ، وقالَ: رميتَهُم بحجرِهِم، واللهِ لا يرجعُ إليكَ حتَّى يَظفرَ أو يُقتلَ.

وبعَثَ الحجَّاجُ إِلَى جندِ الشَّام يحذِّرُهُم البَياتِ، ويوصِيهم الاحتياطَ، وأن يأتوا عَلَى عينِ التمرِ.

وعسكرَ عتابٌ بحمام أعينٍ، ثمَّ قطعَ شبيبٌ دجلةَ إِلَى المَدائنِ، وبعَثَ إِلَيْهِ مطرّفٌ أن يأتيَهُ رجالٌ من وجوهِهِم ينظرُ فِي دعوتِهم فرجَى مِنْهُ، وبعَثَ إِلَيْهِ قعنب بن سويدٍ فِي جماعةٍ مكثُوا عندَهُ أربعًا، ولمْ يرجعُوا من مطرِّفٍ بشيءٍ.

ونزلَ عتابٌ السراة وخرجَ مطرفٌ إِلَى الجبالِ خوفًا أن يصلَ خبرهُ معَ شبيبٍ إِلَى الحجَّاجِ.

فخَلَا لَهُم الجوُّ، وجاءَ مصادٌ إِلَى المَدائنِ فعقدَ الجسرَ، ونزلَ عتابٌ سوقَ حكم فِي خمسينَ ألفًا.

وسَارَ شبيبٌ بأصحابه فِي ألفِ رجلٍ، فصلَّى الظُّهرَ بساباط، وأشرفَ عَلَى عسكرِ عتابٍ عندَ المغربِ، وقد تخلَّفَ عَنْهُ أربعمائةٍ منْ أصحابِه، فصلَّى المغربَ، وعبَّى أصحابَهُ ستمائةٍ؛ سويد بن سليمٍ فِي مائتَينِ فِي الميسرةِ، والمحلّل بن وائلٍ فِي مائتين فِي الميمنةِ، وهُو فِي مائتَينِ فِي القلب.

وكانَ عَلَى ميمنةِ عتابٍ محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ سعيدٍ، وعلى ميسرتِه نعيمُ بن عليمٍ، وعلى الرجّالة حنظلةُ بنُ الحارثِ اليربُوعي وهُو ابن عمِّه، وهم ثلاثةُ صفوفٍ بينَ السُّيوفِ والرماحِ والرماةِ.

ثم حرَّضَ الناسَ طويلًا، وجلسَ فِي القلبِ ومعَهُ زهرةُ بن حوية، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعثِ، وأبو بكر بنُ محمَّد بن أبي جهمٍ العدويُّ.

وأقبلَ شبيبٌ حينَ أضاءَ القمرُ بينَ العشاءينِ فحملَ عَلَى الميسرةِ، وَفِيهَا ربيعةُ، فانفضّوا وثبتَ قبيصةُ بنُ والقٍ، وعبيدُ بن الحليسِ، ونعيمُ بن عليمٍ عَلَى رايتهِم حتَّى قُتلُوا.

ثم حملَ شبيبٌ عَلَى عتابِ بنِ ورقاء، وحملَ سويدُ بنُ سليمٍ عَلَى محمدِ بنِ سليمٍ فِي الميمنةِ فِي تميمٍ وهمدَانَ، واشتدَّ القتالُ، وخالطَ شبيبٌ القلبَ وانفضُّوا، وتركُوا عتابًا، وفرَّ ابنُ الأشعثِ فِي ناسٍ كثيرينَ، وقُتل عتاب بن ورقاء، وركبَ زهرةُ بن حويّة فقاتلَ ساعةً، ثمَّ طعنهُ عامرُ بنُ عمرَ التَّغلبي من الخوَارجِ، ووطئته الخيلُ، فَقَتَلَهُ الفضلُ بن عامرٍ الشيبانِيّ منهُم، ووقفَ عَلَيْهِ شبيبٌ وتوجَّعَ لَهُ، وأنكر الخوارجُ ذَلِكَ وقَالُوا: أتتوجعُ لرجلٍ كافرٍ؟

فقال: أعرفُ قديمَهُ.

ثم رفعَ السيفَ عن النَّاسِ، ودعَا للبيعةِ فبايعُوه، وهربُوا تحتَ ليلِهم، وحوى مَا فِي العسكرِ، وأتاه أخُوه من المَدائنِ، وأقامَ يومينِ، ثمَّ سَارَ نحو الكوفةِ ولحقَ سفيانُ بنُ الأبردِ، وعسكرُ الشَّام بالحجَّاجِ، فاستغنَى بِهِمْ عن أهلِ الكُوفةِ، واشتدَّ بِهِم، وخطبَ فوبَّخ أهلَ الكُوفةِ وعيَّرَهُم.

وجاءَ شبيبٌ فنزلَ حمام أعين، فسرَّحَ الحجّاجُ إِلَيْهِ الحارثَ بنَ معاويةَ الثقفي فِي نحوِ

ألفٍ من الشُرطِ لم يشهدُوا يومَ عتاب، فبادرَ إِليْهِ شبيبٌ فقتلَهُ، وانهزمَ أصحابُه إِلَى الكُوفةِ، وأخرجَ الحجَّاج مواليهِ، فأخذُوا بأفوَاه السّككِ.

وجاءَ شبيبٌ فنزلَ السّبخةَ ظاهر الكُوفة، وبنَى بِهَا مسجدًا، وسرَّحَ الحجَّاجُ مولَاهُ أبا الوردِ فِي غلمَانٍ لقتالِه، فحملَ عَلَيْهِ شبيبٌ وقتلَه يظنُّه الحجَّاجَ.

ثمَّ أخرجَ إِليْهِ مولاهُ طهمان كذلكَ فقتلَهُ.

فركبَ الحجَّاجُ فِي أهلِ الشَّام، وجعلَ سبرة بن عبد الرحمن بن مخنفٍ عَلَى أفوَاه السُكك، وقعدَ عَلَى كرسيهِ، ونادى فِي أهلِ الشَّام وحرَّضَهُم، فغضُّوا الأبصَارَ، وجثُوا عَلَى الركبِ، وأشرعوا الرماحَ.

وأقبل شبيبٌ فِي ثلاثةِ كراديس معَه، ومعَ سويدِ بنِ سليمٍ، ومع المحلّلِ بن وائلٍ.

وحملَ سويدٌ، وثبتوا وطاعنُوه حتَّى انصرفَ.

وقدَّم الحجَّاجُ كرسيّه وحمل المحلّل ثانيةً فكذلكَ.

وقدَّم الحجَّاجُ كرسيّه فثبتُوا لهُ، وألحقُوه بأصحابِه.

وسرب شبيبٌ سويدَ بنَ سليمٍ إِلَى أهل السُكك، وكانَ عَلَيْهَا عروةُ بنُ المغيرةِ بن شعبةَ فلم يُطقْ دفاعَهُ.

ثم حملَ شبيبٌ فطاعنُوه وردُّوه، وانتهَى الحجَّاجُ إِلَى مسجدِه وصعدَهُ وملك الفرصةَ.

وقال لَهُ خالدُ بن عتابٍ: ائذَنْ لِي فِي قتالِهم، فإِنّي موتورٌ.

فأذنَ لهُ، فجاءَهُم من ورائِهم، وقتلَ مصادًا أخَا شبيبٍ وغزالَةَ امرأتَهُ وخرَّق عسكرَهُم.

وحملَ الحجَّاجُ عَلَيْهم فانهزمُوا، وتخلَّفَ شبيبٌ رِدءًا لَهُم.

فأمرَ الحجَّاجُ أصحابَهُ بموادعتِهم، ودخلَ الكُوفَةَ فخَطبَ، وبشَّر الناسَ.

ثم سرَّحَ حبيبَ بنَ عبدِ الرحمنِ الحكمِي فِي ثلاثة آلاف فارسٍ لاتّباعِه وحذَّره بياتهُ، فانتهَى فِي أثره إِلَى الأنبارِ، وقد افترقَ عن شبيبٍ كثيرٌ من أصحابِه للأمانِ الَّذِي نادَى

الحجَّاجُ به، فجاءَهُ شبيبٌ عندَ الغرُوبِ، وقد قسَّم حبيبٌ جندَهُ أرباعًا، وتواصوا بالاستماتةِ، فقاتلهُم شبيبٌ طائفةً بعد طائفةٍ، فما زالتْ قدم إنسانٍ عن موضعِهَا إِلَى آخرِ اللَّيلِ.

ثم نزلَ شبيبٌ وأصحَابُه، واشتدَّ القتَالُ، وكثُرَ القتلَى، وسقطتِ الأيدِي وفُقِئت الأعينُ، وقُتلَ من أصحابِ شبيبٍ نحو ثلاثينَ، ومن أهلِ الشَّام نحو مائةٍ، وأدركهُم الإعياءُ والفشلُ جميعًا، فانصرفَ شبيبٌ بأصحابِه وقطعَ دجلةَ، ومرَّ فِي أرضِ جوخَى.

ثم قطعَ دجلةَ أخرَى عندَ واسطٍ، ومضَى عَلَى الأهوازِ وفارسٍ إِلَى كِرمانَ ليريح بِهَا.

وقد قيلَ فِي هذِهِ الحربِ غيرُ هَذا، وهُو أنَّ الحجاجَ بعثَ إِلَيْهِ أمَرَاء واحدًا بعدَ واحدٍ فقتلَهُم، فكانَ مِنْهُم أعين صاحبُ حمام أعين[1].

---

(١) «تاريخ ابنِ خلدُونَ» (٣/ ١٩٧ ـ ١٩٨).

فَصْلٌ

فِي ذكرِ غزالةَ امرأة شبيبٍ، ونذرِها، ومقتلِها، وهرُوبِ الحجَّاجِ مِنْهَا، ووفائِهَا بنذرِهَا، وذكرِ جهيزة أمِّه، وذكرِ قتلِهَا، ومقتلِ مصادٍ أخيه، وذكرِ اختلافِ أصحابِه من الخوارج عليه:

وكانتْ غزالةُ امرأة شبيبٍ نذرَتْ أن تصلِّيَ فِي مسجدِ الكوفةِ ركعتَينِ بالبقرةِ وآل عمرانَ، فجاءَ شبيبٌ فِي سبعينَ رجلًا، ودخلَ الكُوفةَ ليلًا، وأوفتْ بنذرِهَا.

وكانتْ غزالةُ منَ الشجاعةِ والفُروسيةِ بالموضعِ العظِيمِ، وكانت تقاتلُ فِي الحرُوبِ بنفسِها، وكانَ الحجَّاجُ هربَ فِي بعضِ الحرُوبِ معَ شبيبٍ منهَا، فَعَيَّرَه عِمرانُ بن حطانَ بذلِكَ، بقوله مخاطبًا الحجَّاجَ بنَ يوسفَ الثَّقفِي:

أَسَدٌ عَلَيَّ، وَفِي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ ... فَتخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ!
هَلاَّ بَرَزْتَ إِلَى غَزَالَةَ فِي الوَغَى ... بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحَيْ طَائِرِ
صَدَعتْ غَزَالةُ قَلبَهُ بفوَارِسٍ ... تَرَكَتْ مدابِرَهُ كأَمسِ الدابرِ[1]

وكَانت أمُّه تسمَّى جهيزة أيضًا شجاعةٌ، تشهدُ الحرُوبَ، وَقُتِلَتْ معَ قَتلِ غزالةَ، وقد مرَّ أنَّ ابنَهَا شبيبًا قُتلَ، ولَم تقبلْ، وأنَّها لَمَا نُعِيَ إليهَا ابنُهَا، وأنَّه غرِقَ قبلتْ وصدقتْ، وكانتْ قبل ذَلِكَ لا تُصدقُ لرؤيتِهَا، وقد مرَّ ذَلِكَ أولَ الكتابِ، والله أَعلمُ أيُّ ذَلِكَ كان.

وقدْ كانَ شبيبٌ حصرَ الحَجَّاج سنة..................[2]

أَقَامَتْ غَزَالةُ سُوقَ الضِّرَابِ ... لِأَهْلِ العِرَاقَيْنِ حَولًا قَمِيطا

ثم قاتلَهُم الناسُ وخرجُوا، وقامَ الحجَّاجُ فِي الناسِ يستشيرُهم، وبرزَ إِليْهِ قتيبةُ،

---

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٤٥٤).

(٢) كلمات غير واضحة.

وعذلَهُ فِي بعثِ الرّعاعِ ينهزمُون ويموتُ قائدُهُم، والرَّأي أن تخرجَ بنفسك فتُحاكمهُ، فخرجَ منَ الغدِ إِلَى السّبخةِ، وَبِهَا شبيبٌ، وأخفَى مكانهُ عن القومِ، ونصبَ مولَاه أبا الوردِ تحتَ اللواءِ، فحملَ عَلَيْهِ شبيبٌ، فقتلَهُ.

ثم حملَ عَلَى خالدِ بنِ عتابٍ فِي الميسرةِ، ثمَّ عَلَى مطرفِ بنِ ناجيةَ فِي الميمنةِ فكشفهُمَا، ونزلَ عند ذَلِكَ الحجّاجِ وأصحابُه، وجلسَ عَلَى عباءةٍ، ومعهُ عنبسةُ بنُ سعيدٍ، وبينَمَا هُم عَلَى ذَلِكَ إذ اختلفَ الخَوارجُ، وقال مَصقلةُ بنُ مهلهلٍ الضبيُّ لشبيبٍ: مَا تقولُ فِي صالحِ بنِ مسرّحٍ؟

قال: بَرئتُ منهُ.

فبرئ مصقلةُ مِنْهُ، وفارقَهُ.

وشعرَ الحجّاجُ باختلافِهِم؛ فسرَّحَ خالدَ بنَ عتابٍ لقتالِهِم، فقاتلَهُم فِي عسكرِهِم، وقتلَ غزالة، وبعَثَ برأسِهَا إِلَى الحجَّاجِ، فأمر شبيبٌ من اعترضه؛ فقتلَ حامله، وَجَاءَ بِهِ فغسله ودفنه.

وانصرفَ الخوارجُ، وتبعهُم خالدٌ، وقَتلَ مصادًا أخا شبيبٍ، ورَجعَ خالدٌ عنهُم بعد أن أبلَى.

وسَارَ شبيبٌ إِلَى كِرمانَ.

وكتبَ الحجَّاجُ إِلَى عبدِ الملكِ يستمدُّه؛ فبعثَ إِلَيْهِ سفيانَ بنَ الأبردِ الكلبيَّ فِي العساكرِ، فأنفقَ فِيهِم المَالِ، وسرَّحهُ بعدَ انصرافِ الخَوارجِ بشهرينِ.

وكتبَ إِلَى عاملِ البصرةِ، وهُو الحَكمِ بنِ أَيُّوبَ زوج ابنتِه أن يبعثَ بأربعةِ آلافِ فارسٍ من جُندِ البصرَةِ إِلَى سفيانَ، فبعثَهُم معَ زيادِ بنِ عمرَ العتكيّ، فلحقَهُ بعدَ انقضَاءِ الحربِ [1].

(١) «تارِيخ ابنِ خلدُونَ» (٣/ ١٩٩).

فصلٌ

فِي ذكرِ مقتلِ شبيبٍ:

وكانَ شبيبٌ بعدَ أن استجمَّ بكِرمانَ أقبلَ راجعًا، فلقِيَ سفيانَ بالأهوازِ، فعبَرَ إِلَيْهِ جسرَ دُجيل، وزحفَ فِي ثلاثةِ كراديس فقاتَلَهُم أشدَّ قتالٍ، وحملُوا عَلَيْهِم أكثرَ منْ ثلاثينَ حملةً.

وسفيانُ وأهلُ الشَّام مستميتِينَ يزحفُونَ زحفًا، حتَّى اضطُرَّ الخوارجُ إِلَى الجسرِ، فنزلَ شبيبٌ فِي مائةٍ من أصحابِه، وقاتل إِلَى المساءِ، حتَّى إذا اظلمَ اللَّيل انصرفَ، وَجَاءَ إِلَى الجسرِ، فقدّمَ أصحابَه وهُو عَلَى أثرِهم.

وكانَ عَلَى ظهرِ الفرسِ ينعسُ غيرَ مبالٍ بالحربِ، وكانَ عَلَيْهِ الحديدِ الثقيلِ من دِرعٍ ومِغفرٍ وغيرِهِمَا.

فلمَّا مرَّ بالجسرِ اضطربَ حَجرٌ تحتَ حافرِ فرسِه وهُو عَلَى حَرفِ السفينةِ، فسقطَ فِي الماءِ وغرقَ، وهُو يقُولُ: (وكانَ أمرُ الله مفعولًا)، فقالَ لَهُ بعضُ أصحابِه: أغرقًا يا أميرَ المؤمنينَ، فقالَ: (ذلكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ).

وجاءَ صاحبُ الجسرِ إِلَى سفيانَ وهُو يريدُ الانصرافَ بأصحابِه فقالَ: إنَّ رجلًا من الخوَارجِ سقطَ فتنادوا بينهُم: غَرقَ أميرُ المؤمنينَ.

ومرُّوا وتركُوا عسكرَهُم، فكبَّر سفيانُ وأصحابُه، وركبَ إِلَى الجسرِ، وبعَثَ إِلَى عسكرِهم فحوَى مَا فيهِ، وكانَ كثيرَ الخيراتِ[1].

ثم استخرجُوا شبيبًا منَ النَّهرِ، وحُمِلَ إِلَى الحجَّاجِ؛ فأمرَ بشقِّ بطنِه، واستخراجِ قلبِه، فاستُخرجَ فإذا هُو كالحَجَرِ إذا ضُرب بِهِ الأرضَ نبَا عَنْهَا، فشُقَّ، فكانَ فِي داخلِه قلبٌ

---

(١) «تاريخ ابنِ خلدُونَ» (٣/ ١٩٩).

صغيرٌ كالكرةِ، فشُقَّ، فأصيبَ مثل علقةِ الدمِ فِي داخلِه[١].

وفِي حرُوبِ الحجَّاجِ هذِهِ، يقُولُ جريرٌ يمدحُه، ويحرِّضُ أهلَ العراقِ عَلَى قتالِ الخَوارجِ شبيبٍ وقَطريٍّ:

دَعَوا الجُبنَ يا أهـلَ العِـرَاقِ فـإنَّمَا ... يُبَاحُ وَيُشْرَى سَبيُ مَنْ لَا يُقاتِـلُ
لَقَدْ جَـرّدَ الحَجَّـاجُ بـالحقِّ سَـيْفَهُ ... لكُمْ فاستَقيمُوا لَا يمـيلَنَّ مَائِـلُ
فَمَا يَسْتَوِي دَاعِ الضَّلَالَةِ والهُـدَى ... وَلا حُجَّةُ الخَصْمَينِ حَقٌّ وَباطِلُ

وَقَالَ جريرُ بنُ عَطيةَ أيضًا:

أَطِيعُوا فَلاَ الحَجَّاجُ مُبقٍ عَلَيْكُمُ ... وَلَا جِبرَئيلٌ ذُو الجَنَاحَينِ غَافِـلُ
أَلَا رُبَّ جَبّارٍ حَمَلْتَ عَلَى العَصَا ... وبَابُ استهِ عنْ منبرِ المُلْكِ زَائِلُ
تَمَنَّى شَبِيبٌ فِتْنَـةً سَفلَـتْ بِهِ ... وذو قَطـريٍّ لفّهُ منــكَ وَابِـلُ

وقال الأخطل يمدح الحجاج ويذم الأزارقة.......[٢]:

وَلقَـدْ عَلِمْـتَ بـلَاءَهُ فِي مَعْـشَرٍ ... تغـلِي شـنَاهُ صـدُورهمْ وتَفُـورُ
والقـومُ زَأرُهُـمُ وَأعْـلَى صَـوْتِهمْ ... تَحْـتَ الـسُّيوفِ غَمَاغِـمٌ وَهَرِيـرُ
طَلَبَ الأزارِقَ بالكتَائِبِ إذْ هـوَتْ ... بَـشبِيبَ غائِلَـةُ النُّفـوسِ غَـدُورُ
يرجُـو البَقيـةَ بعـدَمَا حـدقتْ بـهِ ... فَـرْطُ المَنيَّـةِ بِحَـصبٍ وحجـورُ
فأبـــاحَ جَمْعَهُمُ حَمِيـــدًا وانْثنى ... وَلَـــهُ لوقعـــةِ آخريـــنَ زَئيرُ

ولَمَّا غرقَ شَبِيبٌ أُحضرَ إِلَى عبدِ الملكِ رجلٌ يرى رأيِ الخوَارجِ، وهُو عتبان ابن أصيلةَ، وَهِيَ أمه، وهُو من بنِي محكم بن شيبان من شُراةِ الخوارجِ، خَوارج الجزيرة، فقَالَ لَهُ عَبْدُ المُلِكِ بْنُ مَرْوَانَ: أَلَسْتَ الْقَائِلَ يَا عدوَّ الله:

---

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٤٥٥).

(٢) كلمات غير واضحة.

فَإِنْ يَكُ مِنْكُمْ كَانَ مَرْوَانُ وَابْنُهُ ... وَعَمْرٌو وَمِنْكُمْ هَاشِمٌ، وَحَبِيبُ
فَمِنَّا حُصَيْنٌ، وَالْبَطِينُ وَقَعْنَبٌ ... وَمِنَّـا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ شَبِيـــبُ

فَقَالَ: إِنَّمَا قُلْتُ: وَمِنَّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ شَبِيبُ. فَأَعْجَبَهُ اعْتِذَارُهُ وَأَطْلَقَهُ[1].

فاستحسَن قولَهُ.

وَذَكَرَ ابنُ عساكرٍ فِي تاريخ دمشق[2] أن أبَا المنهالِ الخَارِجي الشَّيباني وفدَ عَلَى عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ مُستأمِنًا بَعدمَا قَالَ لعَبْدِ المُلِكِ:

أَبْلِـغْ أَمِـيرَ الْمُـؤمِنِينَ رِسَـالَةً ... وَذُو النُّصْحِ لَو يدعَى إِلَيْهِ قَرِيبُ
فَلَا صُلْحَ مَا دَامَتْ مَنَابِرُ أَرْضِـنَا ... يقُومُ عَلَيْهَا مِـن ثَقِيـف خَطِيـبُ
فإِنَّكَ إِنْ تـرضَ بَكْـرَ بـنَ وائـلٍ ... يَكُنْ لَكَ يَـومٌ بِـالعرَاقِ عَـصِيبُ

وبعدَهَا: (فَإِنْ يَكُ مِنكُمْ) الأبيات السَّابقة[3].

---

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٤٥٦).

(٢) «تاريخ دمشق» (٦٧/ ٢٥٧).

(٣) فِي هامشِ الأصلِ: «بلغَ مُقَابلةً عَلَى أَصْلِهِ، فصحَّ عَلَى يدِ مؤلِفه عفَى اللهُ عنهُ».

فَصْلٌ

فِي استعمالِ الحجَّاج معهُ بني المُغِيرة بنِ شُعبةَ:

لَمَّا وليَ الحجَّاجُ الكُوفةَ وقدِمَهَا، وجدَ بنِي المغيرةِ صلحَاء أشرافًا، فاستعملَ عروةَ عَلَى الكوفة، ومطرّفَ عَلَى المدائن، وحمزةَ عَلَى همدان، فكَانُوا أحسنَ العمَّالِ سيرةً، وأشدَّهُم عَلَى المريبِ.

ولَمَّا جَاءَ شبيبٌ إِلَى المدائنِ نزلَ نهر شير، ومطرِّف بمدينةِ الأبوابِ، فقطعَ مطرِّفٌ الجسرَ، وبعَثَ إِلَى شبيبٍ أن يُرسلَ إِلَيْهِ من يعرض عَلَيْهِ الدعوةَ، فبعثَ إِلَيْهِ رجلًا منْ أصحَابِه.

فقَالُوا: نَحنُ نَدعُو إِلَى كتابِ الله وسنةِ رسُولِه، وأنّا نقمنا عَلَى قومِنَا الاستئثارَ بالفِيءِ، وتعطيلَ الحدُودِ، والتسلط بالجزيةِ.

فقالَ مطرّفٌ: دعوتُم إِلَى حقٍّ، ونقمتُم جَورًا ظاهرًا، وأنا لكُم متابعٌ فبايعُونِي عَلَى قتالِ هؤلاءِ الظَّلَمَةِ بإحداثهِم، والدُّعاء إِلَى الكتابِ والسُّنةِ عَلَى الشُّورى كَمَا تركَهَا عمرُ بنُ الخطّابِ حتَّى يولِّي المسلمُونَ من يرضونَهُ، فإنّ العربَ إذا علمتْ أنَّ المرادَ بالشُّورى الرِّضا من قريشٍ رضَوْا، فكثرُ مُبايعكُم.

فقَالُوا: لا نجيبُكَ إِلَى هَذَا!

وأقامُوا أربعةَ أيامٍ يتناظرُونَ فِي ذلكَ، ولم يتفقُوا، وخرجُوا من عنده.

ثم دعَا مطرِّفٌ أصحابَهُ وأخبرَهُم بِمَا دارَ بينَهُ وبينَ أصحابِ شبيبٍ، وأنَّ رأيهُ خلع عبدِ الملكِ والحجَّاجِ، فوجمُوا من قولِهِ، وأشارُوا عَلَيْهِ بالكتمَانِ.

فقال لَهُ يزيدُ بنُ أبي زيادٍ مولَى أبيهِ: لنْ واللهِ يخفَى عَلَى الحجَّاجِ شيءٌ مِمَّا وقعَ، ولو كنتَ فِي السّحابِ لاستنزلكَ، فالنَّجاء بنفسكَ.

ووافقهُ أصحابُه، فسَارَ عن المَدائنِ إِلَى الجبالِ.

ولَمَّا كانَ فِي بعضِ الطَّريقِ دعَا أصحابَهُ إِلَى الخلعِ والدُّعاءِ إِلَى الكتابِ والسُّنّةِ، وأن يكونَ الأمرُ شُورَى، فرجعَ عَنْهُ بعضٌ إِلَى الحجَّاجِ؛ مِنْهُم سبرةُ بنُ عبد الرَّحمنِ بن مخنفٍ.

وسَارَ مطرِّفٌ ومرَّ بحلوان وَبِهَا سويدُ بنُ عبدِ الرحمنِ السّعدي معَ الأكرادِ، فاعترضُوه، فأوقعَ مطرِّف بِهم، وأثخنَ فِي الأكرادِ، ومالَ عن همدان ذاتَ اليمينِ، وَبِهَا أخُوه حمزةُ، واستمدَّه بمالٍ وسلاحٍ فأمدَّه سرًّا.

وسَارَ إِلَى قُم وقاشان فبعثَ عمالَهُ فِي نواحيهِ، وفزِعَ إِلَيْهِ الناسُ من كلِّ جانبٍ، فجاءَ سويدُ بنُ سرحان الثّقفي وبكيرُ بنُ هارُونَ النّخعيّ من الرَّي فِي نحوِ مائةِ رجلٍ.

وكان عَلَى الرَّيّ عديُّ بنُ زيادٍ الأيادي، وعلى أصبهانَ البراءُ بنُ قبيصةَ، فكتبَ إِلَى الحجّاجِ بالخَبرِ، واستمدَّه فأمدَّهُ بالرِّجالِ، وكتبَ إِلَى عديٍّ بالرَّي أن يجتمعَ معَ البرّاءِ عَلَى حربِ مطرِّفٍ، فاجتمعُوا فِي ستةِ آلافٍ وعديٌّ أميرُهُم.

وكتبَ الحجَّاجُ إِلَى قيسِ بنِ سعدِ البجلِيّ وهُو عَلَى شُرطةِ حمزةَ بهمدَان بأن يقبضَ عَلَى حمزةَ، ويتولَّى مكانَهُ، فجاءَهُ فِي جمعٍ من عجل وربيعةَ، وأقرأهُ كتابَ الحجَّاجِ فقالَ: سمعًا وطَاعةً.

وقبضَ قيسٌ عَلَيْهِ، وأودعَهُ السجنَ، وسَارَ عديٌّ والبراءُ نحو مطرِّفٍ، فقاتلُوهُ وانهزمَ أصحابُه، وقتلَ يزيد مولَى أبيهِ، وكانَ صاحبَ الرَّايةِ.

وقُتل من أصحابِه عبدُ الرحمن بن عبد الله بن عفيفٍ الأزدي، وكان ناسكًا صالحًا.

وكانَ الَّذِي تولَّى قتلَ مطرِّفٍ عمرُ بنُ هبيرةَ الفزاريُّ.

وبعَثَ عديٌّ أهلَ البلاءِ إِلَى الحجَّاجِ، وأمّن بُكيرَ بنَ هارُونَ وسويدَ بنَ سرحان، وكانَ الحجَّاجُ يقولُ: مطرِّفٌ لَيْسَ بولدٍ للمُغيرةِ، وإِنَّمَا هُو ابنُ مصقلةَ الحرِّ؛ لأنَّ أكثرَ الخَوارجِ كانُوا من ربيعةَ، ولَم يكُنْ فِيهم من قيسٍ عيلان أحدٌ[1].

---

(١) «تاريخ ابنِ خلدُونَ» (٣/ ٢٠١).

فَصْلٌ

فِي اختلافِ الأزَارقةِ:

قد تقدَّمَ لنَا مقامُ المهلَّبِ فِي قتالِ الأزارقةِ عَلَى سابُورَ بعدَ مسيرِ عتابٍ عَنْهُ إلَى الحجَّاجِ، وأنَّهُ أقامَ فِي قتالِهِمْ سنَةً، وكانتْ كِرمانُ لهُم، وفارسُ للمهلَّبِ، فانقطعَ عنهُم المَدَدُ، وضَاقَتْ حالُهُم، فتأخَّرُوا إلَى كِرمانَ، وتبِعَهُم المهلَّبُ، ونزلَ جيررفت مدينةَ كِرمان، وقاتلَهُم حتَّى أزالَهُمْ عَنْهَا.

وبعَثَ الحجَّاجُ إلَى المهلَّبُ البرّاءَ بنَ قبيصةَ يستحثُّه لقتالِ الخوارجِ، فسَارَ وقاتلَهُم، والبراءُ مشرفٌ عَلَيْهِ من ربوة، واشتدَّ قتالُه، وَجَاءَ البراءُ من اللَّيلِ فتعجَّب لقتالِه، وانصرفَ إلَى الحجَّاجِ، وأنهَى غدر المهلَّبِ، وقاتلَهُم المُهَلَّبُ ثمانيةَ عشر شهرًا لا يقدرُ مِنهُم عَلَى شيءٍ.

ثمَّ وقعَ الاختلافُ بينهُم فقيلَ فِي سببِه: إنَّ المقعطرَ الضبيَّ، وكانَ عاملًا لقَطريٍّ عَلَى بعضِ نواحِي كرمانَ قَتل بعضَ الخوارجِ، فطلبُوا القَوَد مِنْهُ، فمنعُه قَطريٌّ، وقالَ: تأوَّل فأخطأ، وهُو من ذوي السَّابقة، فاختلفُوا.

وقيلَ: بَل كانَ رجلٌ فِي عسكرِهِم يصنعُ النُصولَ مسمُومة، فيرمِي بِهَا أصحابَ المهلَّبِ، فكتبَ المهلَّبُ كتابًا معَ رجلٍ وأمره أن يُلقيه فِي عسكرِهِم، وفيهِ: وصلتْ نصالُكَ، وقد أنفذتُ إليكَ ألف درهمٍ!

فلمَّا وقفَ عَلَى الكتابِ سألَ الصَّانعَ فأنكرَ، فقتلَهُ، فأنكرَ عَلَيْهِ عبدُربِّه الكبيرُ، واختلفُوا.

وقيل: بَلْ بعثَ المهلَّبُ نصرانيًّا، وأمرَهُ بالسُّجودِ لقَطريٍّ، فَقَتَلَهُ بعضُ الخوارجِ، وولُّوا عبدربِّه الكبير، وخلعُوا قَطريًّا، فبقي فِي نحو الخمسِينَ منهُم، وأقامُوا يقتتلُون شهرًا.

ثم لحق قَطريٌّ بطبرستانَ، وأقامَ عبدُربِّه بكِرمان، وقاتلَهُم المهلَّبُ، وحاصرَهُم بجيرفت، ولما طالَ عَلَيْهِم الحصَارُ خرجُوا بأموالِهِم وحريمِهِم وهُو يقاتلُهم حتَّى أثخنَ فيهِم.

ثم دخلَ جيرفت، وسَارَ فِي اتِّباعهِم، فلحقَهُم عَلَى أربعةِ فراسخ فقاتلهُم هُو وأصحابه حتَّى أعيوا وكفَّ عنهُم.

ثم استمات الخوارج ورجعُوا فقاتلُوه حتَّى يئسَ من نفسِه.

ثم نصرَهُ اللهُ عَلَيْهِم وهزمَهُم، وقتل مِنْهُم نحوًا من أربعة آلافٍ كان مِنْهُم عبدُربّه الكبير، ولم ينجُ إلا القليل.

وبعَثَ المهلَّبُ المبشرَ إِلَى الحجّاجِ، فأخبرَه، وسألهُ عن بنِي المهلَّبِ فأثنى عَلَيْهِم واحدًا واحدًا.

قال: فأيهُم كانَ أنجد؟

قال: كانُوا كالحلقةِ المُفرغةِ لا يُعرفُ طرفُهَا.

فاستحسنَ قولَهُ، وقالَ: لله دَر المهلّب، والله لكأنَّه مَا وصفَ لقيطٌ لقومِه يقُولُ:

صُونُوا جباهَكُم وَأَجْلُوا سِلَاحَكُمْ ... ثُمَّ افْزَعوا قَدْ يَنالُ الأمْنَ مَنْ فَزِعا

وقَلِّدوا أمْرَكُمْ لله دَرُّكُمُ ... رَحْبَ الذِّراعِ بأمْرِ الحَرْبِ مُضْطلِعا

لا مُتْرَفاً إنْ رخاءُ العيشِ ساعَدَه ... ولا إذا عَضَّ مَكْروهٌ بِهِ خَشَعا

مازالَ يَحْلُبُ هَذَا الدَّهْرَ أشْطُرَه ... يَكونُ متَّبِعاً طَوْراً ومتَّبَعا

حتّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَزْرٍ مَريرَتُه ... منَ العَزِيمَةِ لَا فَانٍ ولا ضَرِعا[١]

فقامَ إِلَى الحجَّاجِ رجلٌ فقالَ: أيها الأميرُ، والله لكأنِّي أسمعُ هذِهِ التمثيلِ من قَطريٍّ فِي المهلّبِ. فَسُرَّ الحجاجُ بذَلِكَ سرُوراً تبيَّن فِي وجهِه.

وكتبَ إِلَى المهلِّبِ يشكرُه ويأمرُه أن يولِّي عَلَى كِرمانَ مَن يرَاهُ، ويُنزلَ بها حاميته ويقدُمُ عَلَيْهِ، فولَّى عَلَيْهَا ابنَه يزيدَ، وقَدِمَ عَلَى الحجَّاجِ فاحتفلَ لقدُومِهِ وأجلسَهُ إِلَى جانبِهِ وقال: يا أهلَ العِراقِ أنتُم عبيدُ المُهلَّبِ![٢]

---

(١) «الكامِل» (٣/ ٢٨٧)، «الأغانِي» (٢٢/ ٥١٠).

(٢) «تارِيخ ابنِ خلدُون» (٣/ ٢٠٢).

فَصْلٌ

فِي ذِكْرِ مقتلِ قطريٍّ بنِ الفُجَاءةِ المَازِنِي:

ثمَّ إنَّ الحجَّاجَ سرَّحَ سفيانَ بنَ الأبردِ الكلبي فِي جيشٍ عظيمٍ نحو طبرستانَ لطَلب قَطريٍّ، وعبيدةَ بنِ هلالٍ ومن معهُم من الخوَارجِ.

والتقوا هنالكَ بإسحاقَ بنِ محمدِ بنِ الأشعثِ فِي أهلِ الكُوفةِ، واجتمَعا عَلَى طلبِهم، فلحقُوهم فِي شِعبٍ من شعابِ طبرستانَ، وقاتلُوهُم، فافترقُوا عن قَطريٍّ، ووقعَ عن دابتِه فتدهدهَ إِلَى أسفلِ الشِّعبِ.

ومرَّ بهِ عِلجٌ فاستقَاهُ عَلَى أن يُعطيَهُ سلاحَهُ، فعمدَ إِلَى أعلى الشِعبِ، وحدّرَ عَلَيْهِ حَجرًا من فوق الشِعبِ فأصابَهُ فِي رأسِه فأوهنَهُ.

ونادَى بالنَّاسِ، فجاءَ فِي أوَّلِهم نفرٌ من أهلِ الكوفةِ فَقَتَلُوهُ، مِنْهُم سورة بن أبجر التَّمِيمِي، وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنفٍ، والسياح بن محمد بن الأشعث، وحملَ رأسَهُ أبُو الجهم إِلَى إسحاقَ بنِ محمدٍ، فبعثَ بهِ إِلَى الحجَّاجِ، وبعثَهُ الحجَّاجُ إِلَى عبدِ الملكِ.

وركبَ سفيانُ فأحاطَ بالخَوارجِ، وحاصَرَهُم حتَّى أكلُوا دوابَهُم، ثمَّ خرجُوا إليهِ، واستَأْتُوا، فقتلَهُم أجمعِينَ، وبعَثَ برؤُوسِهِم إِلَى الحجَّاجِ، ودخلَ دنباوند وطبرستان، فكَانَ هُنَاكَ حتَّى عزلَهُ الحجَّاجُ قبلَ دَير الجماجِمِ.

فصلٌ

فِي انقرَاضِ الأَزَارقةِ:

قال بعضُ العُلماءِ: وانقرضتِ الأزارقةُ بعدَ قَطريٍّ وعبيدةَ آخر رؤُسَائِهِم، وأوَّلُ رؤُسَائِهِم نافعُ بن الأزرقِ.

واتَّصلَ أمرُهُم بضعًا وعشرِينَ سنةً إِلَى أن افترقُوا كَمَا ذكرنَاهُ سنة سبعٍ وسبعينَ؛ فلمْ تظهرْ لَهُم جماعةٌ إِلَى رأسِ المائةِ.



فَصْلٌ

في خبرِ سبرةَ بنِ الجعدِ:

وحدَّث حماد الرَّاوية: أن الحجَّاجَ سهرَ ليلةً بالكُوفةِ، فقالَ لحرسِي لهُ: ائتني بمحدِّثٍ من المسجدِ، فاعترَضَ رجلًا جَسيمًا عظيمًا، فقالَ لهُ: أجبْ الأميرَ.

فانطلقَ بهِ حتَّى أدخلَهُ إليهِ، فلم يُسلِّمْ، ولا نطقَ، حتَّى قَالَ لَهُ الحجَّاجُ: إيهِ مَا عندكَ؟

قال الرَّجلُ: إيهِ مَا عندكَ؟

فقال للحَرسِي: أَخْرِجْهُ أخرجَ اللهُ نفسَكَ، أمرتُكَ أن تأتيني بمُحدِّثٍ فأتيتني بمرعُوبٍ قدْ ذهبَ فؤادُه، فخرجَ الحجَّاجُ ومعه صرَّةٌ دراهم إلَى المسجدِ، فجعلَ يتأمَّلُ النَّاسَ فيعطِيهم منَ الدَّرَاهِم فيأخذُونَها، حتَّى انتهَى إلَى شيخٍ، فأعطاهُ فنبَذهَا، فأعادَهَا الحَجَّاج فردَّها، ففعلَ ذَلِكَ الحجَّاجُ ثلاثاً، فدنَا مِنْهُ الحجَّاجُ، وقال: أنا الحجَّاجُ، فأخذَهَا، ودخلَ القصرَ.

وقال للحَرسي: ألحقنِي بهِ.

فدخلَ فسلَّمَ بلسانٍ ذلقٍ وقلبٍ شديدٍ، فقال لَهُ الحجَّاجُ: ممَّن الرجلُ؟

فقال: من بنِي شيبانَ.

قال: مَا اسمُك؟

قال سبرةُ بنُ الجعدِ.

قال: يا سبرةُ، هل قرأتَ القرآنَ؟

قال: جمعتُه فِي صدرِي، فإن عَمِلتُ بهِ فقد حفظتُه، وان لَمْ أعملْ بهِ ضيعتُه.

قال: فهلْ تفرضُ؟

قال: إنِّي لأفرضُ الصُّلْبَ وأعرفُ الاختلافَ فِي الجدِّ.

قال: فهلْ تُبصرُ الفِقْه؟

قال: إنِّي لأبصرُ مَا أُقوِّمُ بهِ أهلِي، وأرشدُ ذا العمَى من قومِي.

قال: فَهَلْ تعرفُ النُّجومَ؟

قال: إنِّي لأعرفُ منازلَ القَمر، وما أهتدِي بهِ فِي السَّفرِ.

قال: فهلْ تروِي الشعرَ؟

قال إنِّي لأروِي المَثَلَ والشَّاهدَ.

قال: المثلُ قد عرفناهُ فَمَا الشَّاهدُ؟

قال: اليوم يكُون للعربِ من أيَّامِهَا عَلَيْهِ شاهدٌ منَ الشعرِ، فإنِّي أروِي ذَلِكَ الشَّاهدَ.

فاتَّخذَهُ الحجَّاجُ سميرًا، فلمْ يكُنْ يطلبُ شيئًا من الحَدِيثِ إلا وجدَ عنده مِنْهُ علمًا، وكانَ يرى رأي الخوارجِ.

وكانَ منْ أصحابِ قَطَرِيِّ بنِ الفُجَاءة التَّمِيمِي، والفُجاءةُ أمُّه، وكانتْ مِن بني شَيبان، وإنما هُو رجلٌ من تميمٍ، وكان قَطَرِيٌّ يومئذٍ يحاربُ المُهلَّبَ، فبلغَ قَطريًّا مكانَ سبرةَ منَ الحجَّاجِ؛ فكتبَ إِليْهِ بأبياتٍ مِنهَا:

لـشتَّانَ مَـا بـينَ ابـنِ جَعـدٍ وبيننَـا ... إذا نحنُ رُحنَا فِي الحَديـدِ المظَـاهرِ
نجاهــدُ فُرْســانَ المهلَّــبِ كُلنَــا ... صبُورٌ عَلَى وَقعِ الـسُّيوفِ البـوَاترِ
وراحَ يجــرُّ الخَــز عنــدَ أمــيرِه ... أمــير بتقــوَى ربِّــه غــيرِ آمــرِ
أبَا الجعدِ، أينَ العلمُ والحلمُ والنُّهى ... ومـيرَاثُ آبـاءِ كـرام العنَـاصرِ؟
ألَمْ تـرَ أنَّ المَـوتَ لا شـكَّ نـازلٌ ... ولَا بدَّ مـنْ بعـثَ الألى فِي المقَـابرِ
حفــاةً عــراةً والثَّــواب لــربِّهم ... فمن بينَ ذِي ربـحِ وآخـرَ خَـاسر
فـإنَّ الَّـذِي قَـدْ نِلـتَ يفنَـى، وإنَّـمَا ... حَياتُـكَ فِي الـدُّنيَا كَوقعـةِ طَـائرِ
فرَاجـعْ أبـا جعـدٍ ولاتـكُ مُفـضيًا ... عَلَى ظُلمةٍ أعـشَتْ جَمِيـع النَّـوَاظرِ
وتُـبْ توْبـةً تهـدِي إليـكَ شـهادةً ... فإنَّــكَ ذُو ذَنــبٍ ولـستَ بكَـافرِ
وسرْ نَحوَنَـا تلـقَ الجهـادَ غَنيمَـةً ... تُفدكَ ابتيَاعـاً رَابحـاً غـيرَ خَاسِرِ
هِيَ الغَايةُ القُصْوَى الرَّغِيبُ ثَوَابهَا ... إذَا نالَ فِي الدُّنيَا الغِنَى كُلُ تَاجرِ

فلمَّا قرأ سبرةُ كتابَ قَطريٍّ بكَى، وركبَ فرسَهُ وأخذَ سلاحَهُ، ولحقَ بقَطريٍّ، وطلبَهُ الحجَّاجُ فلَمْ يقدرْ عَلَيْهِ، ولم يرعَ الحجَّاجُ إلَّا وكتابٌ مِنْهُ فِيهِ شعر قَطريٍّ الَّذِي كانَ كتبَ بِهِ إليهِ، وفِي أسفلِ الكتابِ إلَى الحجَّاجِ أبيات، منهَا:

أمِـنْ مُبلـغ الحَجَّـاج أنَّ سـميرَه ... فـلَا كـلَّ ديـنٍ غـير ديـنِ الخَـوارجِ
رأى النَّاسَ إلَّا مَنْ رأى مِثلَ رَأيِـهِ ... ملَاعِـين تـرَّاكين قـصْدَ المخَـارِجِ
فَأَقْبَلْـتُ نحـوَ الله بـالله وَاتِّقَـا ... ومَـا كُربتـي غـير الإلَـهِ بفَـارجِ
إلى عـصبةٍ أمَّـا النَّهـارُ فـإنَّهُم ... هُمُ الأُسدُ أُسدُ الغيلِ عندَ التهايجِ
وأمَّـا إذَا مَـا اللَّيـلُ جَـنَّ فـإنَّهُم ... قيـامٌ كـأنوَاحِ النِّـساءِ النَّواشـجِ
يُنـادونَ للتَّحكِـيمِ تَـالله إنَّهُـم ... رَأَوْا حُكْـمَ عَمـرٍ كَالرِّيـاحِ الهـوَائجِ
وحُكمُ ابنِ قيسٍ مثلَ ذاكَ فأعصمُوا ... بحبلٍ شـديدِ المتنِ لَيـْسَ بناهجِ

فطرحَ الحجَّاجُ هَذَا الكتابَ إلَى عنبسةَ بنِ سعيدٍ، فقال: هَذَا مِن سميرِنَا الشَّيبانِي، وهُو مِنَ الخَوارِجِ، ولا نعلمُ بِهِ[1]. قاتلَهُ اللهُ، فكانَ بعد ذَلِكَ يقاتلُ جماعةَ المُسلمِينَ معَ الخوارجِ.

..........[2] روي أن الحجاجَ قَالَ لأخي قَطرِي: لأقتلنَّكَ!

قال: لِمَ ذاكَ؟

قال: لخرُوجِ أخِيكَ.

قال: فإنَّ معِي كتابَ أميرِ المؤمنينَ أن لا تأخذنِي بذنبِ أخِي!

قالَ: هاته.

قالَ: فإنَّ معِي مَا هُو أوكدُ منهُ.

قالَ: وما هُو؟

قالَ: كتابُ الله عزَّ وجلَّ حيثُ يقولُ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾. فتعجَّبَ من جوَابِهِ، وخلَّى سبيلَهُ[3].

(١) «مرُوج الذَّهبِ ومَعَادن الجَوهرِ» (٣/ ١٣٦ ـ ١٣٧).

(٢) كلمات غير واضحة.

(٣) «وفيات الأعيان» (٤/ ٩٥)، «الوافي بالوفيات» (٢٤/ ١٨٦)، «سراج الملوك» (ص ٧٧).

فَصْلٌ

فِي خرُوج شوذب... [1] لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ عَلَى رأي الخوارجِ بعدَ قتلِهم لعبدِ الله بن خبَّابٍ رضي الله عنه:

وكانَ خرُوجُ شوذبَ هَذَا أَيَّام عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ عَلَى رأسِ المائةِ، واسمُه بسطام، وهُو من بنِي يشكرَ، فخرجَ فِي ثمانين رجلًا، وسَارَ فِي جوخى وعاملُ الكوفة يومئذٍ عبدُ الحميدِ بنِ عبد الرحمن بن زيد بن الخطَّابِ رضي الله عنه.

فكتبَ إِلَيْهِ عمرُ أن لا يعرضَ لَهُم حتَّى يَقتلُوا أو يُفسدُوا، فيوجِّه إِلَيْهِم الجندَ معَ صَليبِ حازم، فبعثَ عبدَ الحميدِ بنَ جريرِ بن عبد الله البجلِيّ فِي ألفين، فأقامَ بإزائِه لا يحرِّكهُ.

وكتبَ عمرُ إِلَى شوذب: بلغنِي أَنَّكَ خرجتَ غضبًا للهِ ولرسولِه، وكنتَ أولَى بذَلِكَ منِّي، فهلمَّ إِلَيَّ أناظرُك، فإنْ كانَ الحقُّ معنَا دخلتَ معَ النَّاسِ، وإن كان الحقُّ معكَ نظرْنَا فِي أمرِكَ.

فبعثَ إِلَيْهِ عاصمًا الحبشيَّ مولى بني شيبانَ ورجلًا من بنِي يشكرَ، فقدمَا عَلَيْهِ بخناصر -وخناصر دونَ حلبٍ فِي شِعيب من حلبٍ- فصعدَ عَلَيْهِ، وكانَ في غرفته، ومعهُ ابنه عبدُ الملكِ، وحاجبُه مزاحِم.

فقال عمرُ: فتشوهُما لا يكونُ معهُما حديدٌ.

ففتشوهُمَا وأدخلوهُمَا، فسألهُمَا: مَا أخرجكُم وما الَّذِي نقمتُم؟

فقال عاصمٌ: مَا نقمْنَا سيرتَكَ، إِنَّكَ لتتحرَّى العدلَ والإحسانَ، فأخبرنا عن قيامك بِهذا الأمرِ مشورة من النَّاس أم غَلبتَ عليهِ؟

---

(١) كلمات غير واضحة.

قال عمرُ: مَا سألتُه ولا غلبتُ عَلَيْهِ، وعَهد إليَّ رجلٌ قبلي فقمتُ، ولم يُنكرْ أحدٌ، ومذهبكُم الرضا لكلِّ من عَدلَ، وإن أنا خالفتُ الحقَّ فلا طاعةَ لي عليكُم.

قال عاصمٌ: بيننا وبينكَ أمرٌ إن أعطيتناهُ فنحنُ منكَ، وإن منعتناهُ فلستَ منَّا، ولسنَا منكَ.

قال عمرُ: مَا هُو؟

قَالُوا: رأيناكَ خالفتَ أعمالَ أهلِ بيتكَ، وسميتَها مظالمَ، وسلكتَ غيرَ سبيلِهِم، فإن زَعمْتَ أنَّكَ عَلَى هدًى وهُم عَلَى ضلالٍ فالعنهُم وتبرأ منهُم، فهذا الَّذِي يجمعُ بيننا وبينكَ أو نتفرق.

فتكلَّمَ عمَرُ، فحمدَ اللهَ، وأثنَى عَلَيْهِ، ثمَّ قالَ:

إنِّي قَد علمتُ وظننتُ أنَّكم لم تخرجُوا مخرجَكُم هَذَا لطلبِ دُنيا ومتاعِهَا، ولكنَّكم أردتُم الآخرةَ، فأخطأتُم طريقَهَا، وأنا سائلكُم عن أمرٍ، فباللهِ أصدقَانِي عَنْهُ فِيمَا بلغه علمكُمَا.

قَالَا: نَعَمْ.

قال: أخبرانِي عن أبِي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما أليسَا من أسلافِكُم، وممَّن توليتمَا وتشهدُونَ لهُما بالنَّجاةِ؟

قالا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قال: هَلْ علمتُما أنَّ أبا بكرٍ حينَ قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ وارتدتِ العربُ قاتلَهُم، فسفكَ الدِّماء، وأخذَ الأموالَ، وسبي الذَّراري؟

قالا: نَعم.

قال: فهَل علمتُما أن عمرَ بعدَ أبي بكرٍ ردَّها بالفديةِ، ولم يبرأ من أبي بكرٍ، وأنتُم أفلا تبرأونَ من واحدٍ منهمُا؟

قالا: لَا.

قال: فأخبراني عن أهلِ النّهروانِ أليسُوا من صالِحِي أسلافِكُم وممن تشهدُونَ لَهُم بالنَّجاةِ؟

قالا: نَعم.

قال: فَهَلْ تعلمُونَ أنَّ أهلَ الكُوفةِ حينَ خرجُوا كفُّوا أيديَهُم فلم يسفكُوا دمًا، ولم يُخيفُوا آمنًا، ولم يأخذُوا مالًا؟

قالا: نعم.

قال: فهلْ علمتُم أن أهلَ البصرةِ حينَ خرجُوا معَ مسعرِ بنِ فُدَيكٍ، اسْتَعْرَضُوا النّاسَ يَقْتُلُونهم، ولقوا عبدَ الله بنَ خبّابِ بنِ الأرتِّ، صاحبَ رسُولِ الله ﷺ، فَقَتَلُوهُ، وقتلُوا جاريتَهُ، وقتلُوا الأطفالَ والنساءَ حتّى جعلُوا يُلقونَ الصبيانَ فِي قدُورِ الإقط وَهِيَ تفورُ؟

قالا: بلى.

قال: أرأيتُم الدِّينَ واحدًا أم اثنين؟

قالا: بل واحدًا.

قال: فهَل يسعكُم فِيهِ شيءٌ يُعجزنِي؟

قالا: لَا.

قال: فكيفَ وسعكُم أن توليتُم أبا بكرٍ وعمرَ، وتولى كلُ واحدٍ منهُما صاحبه، وتوليتُم أهلَ الكُوفةِ والبصرةِ، وتولّى بعضُهم بعضًا، وقد اختلفُوا فِي أعظم الأشياءِ، الدّماءِ والفروجِ والأموالِ، فلم يتبرأْ مَن لَمْ يقتلْ ممَّن قتلَ، واستعرضَ، ولا أنتُم تبرأتُم من واحدٍ منهُما، وكيفَ يسعكُم ذَلِكَ معَ علمِكُم باختلافِ أعمالِهم، ولا يسعنِي إلا لعنَ أهلِ بيتِي والتبرؤُ منهُم؟

أرأيتُم لعنَ أهلِ الذنُوبِ فريضة مفرُوضة لا بدَّ منها؟ فإن كانتْ كذلكَ، فمتَى عهدكُم بلعنِ فرعونَ وقد قَالَ: (أنا ربُّكُم الأعْلَى)؟

قال: مَا أذكرُ أنِّي لعنتُه

قال: وَيْحَكَ! ألا تلعنَ فرعونَ وهُو أخبثُ الخلقِ، ولا يسعني فِيمَا زعمتَ لعن أهل بيتِي والبراءَة منهم؟ ويْحَكُم! إنَّكم قومٌ جهالٌ أردتُم أمراً فأخطأتمُوه، فأنتُم تردُّونَ عَلَى الناسِ مَا قَبِله مِنْهُم رسُولُ الله ﷺ، بعثَهُ اللهُ إِلَيْهِم وهُم عبدةُ أوثانٍ فدعَاهُم إِلَى أن يخلعُوا الأوثانَ، وأن يشهدُوا أن لا إلَه إلا الله وأنَّ محمداً رسُولُ الله، فمن قَالَ بذَلِكَ حقَن دمهُ، فَاتَّقُوا اللهَّ! لا تقبلُون المردود وتردُّون المقبُول، وقد أمَّن رَسُولُ اللهَّ ﷺ مَن شهدَ شهادة الإسلامِ وعصمَ مَالهُ ودَمهُ، وَأَنْتُم تَقْتُلُونَهُ، وَيَأْمَنُ عِنْدَكُمْ سَائِرُ أَهْلِ الْأَدْيَانِ، فَتُحَرِّمُونَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ !

فقَالَ الْيَشْكُرِيُّ: أَرَأَيْتَ من استولى عَلَى قَوْمٍ وَأَمْوَالِهِمْ، فَعَدَلَ فِيهَا، ثمَّ صَيَّرَهَا بَعْدَهُ إِلَى رَجُلٍ غَيْرِ مَأْمُونٍ، أَتُرَاهُ أَدَّى الْحَقَّ الَّذِي لزمه، فكيفَ يُسلم هَذَا الأمر بَعْدَكَ إِلَى يَزِيدَ، معَ عِلْمِكَ أَنَّهُ لَا يعدلُ فِيهِ؟

فقَالَ: إِنَّمَا وَلَّاهُ غَيْرِي وَالْمسلمُونَ أَوْلَى بذَلِكَ بَعْدِي.

قَالَ: وهُوَ حَقٌّ مِمَّنْ فعلهُ ووَلَّاهُ؟

قَالَ: أَنْظِرَانِي ثَلَاثًا.

ثُمَّ جَاءَهُ عَاصِمٌ فرجعَ عن رأي الخوارجِ، وقَالَ للْيَشْكُرِيِّ: اعْرِضْ عَلَيْهِم مَا قُلْتَ وَاعْلَمْ مَا حُجَّتُهُمْ.

وَأقامَ عَاصِمٌ عِنْدَ عُمَرَ، فَأَمَرَ لَهُ عُمَرُ بِالْعَطَاءِ، وتوفي عُمَرُ لأَيَّامٍ قَلَائلَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ يَنْتَظِرُ عَوْدَ الرُّسُلِ.

ولَّما ماتَ عُمَرُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى كتبَ عبدُ الحميدِ إِلَى محمدِ بنِ جريرٍ بمناجزَةِ شوذب قبلَ أن يصلَ إِلَيْهِم خبرُ عمرَ، فقالتِ الخوارجُ: مَا خالفَ هؤلَاءِ ميعادهم إلّا وقَد ماتَ الرَّجلُ الصَّالحُ.

واقتتلوا فانهزم محمدُ بن جرير، واتبعهُ الخوارجُ إلى الكُوفةِ، ورجعُوا، وقدِمَ على شوذبَ صاحباهُ وأخبراهُ بموتِ عُمرَ.

وسرَّح يزيدُ تميمَ بنَ الحُبابِ في ألفينِ فهزمُوه وقتلُوهُ، ولحق بعضُ أصحابِه إلى الكُوفةِ، وبعضُهم إلى يزيدَ، فبعث نجدةَ بنَ الحكمِ الأزدِي في جمعٍ فقتَلُوهُ وهزمُوه بعدَ أن قتلَ منهُم هدبة ابن عمِّ شوذبَ.

وبقيَ الخوارجُ بمكانِهِم، حتَّى جاءَ مُسلمةُ إلى الكُوفةِ فأرسلَ سعيدَ بنَ عمرٍو الحرشيَّ في عشرةِ آلافٍ، فاستماتتِ الخوارجُ، وكشفُوا العسكرَ مرارًا، ثمَّ حملُوا عليْهِم فطحنُوهُم طحنًا.

وقتلَ شوذبَ وأصحابُه ولمْ يبقَ منهُم أحدٌ، وضعُفَ أمرُ الخوارجِ [1].

---

(١) «مروج الذهب» (٢/ ١٧٥ - ١٧٨)، «الكامل في التاريخ» (٤/ ١٠٤)، «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٢٢/ ٣٦١ـ ٣٦٢)، «العقد الفريد» (٢/ ٣٣٩-٣٩٥)، «تاريخ ابن خلدون» (٣/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥).

فَصْلٌ

فِي مقتلِ هُدبةَ اليشكرِي - وهُو ابن عمِّ شوذب الخَارِجي اليشكرِي المذكور خروجُه آنفًا، وكان شجاعًا مقدامًا، وشوذبُ لقبُ، وإنَّما اسمُه بسطام - وكان خرُوج هدبةَ أيضًا فِي خلافةِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ويزيدَ بنِ عبد الملك، فأرسلَ إِلَيْهِ يزيدُ بن عبدِ الملكِ جيشًا كثيفًا فحاربَه، فانكشفتِ الخوَارجُ، وثبتَ هدبةُ وأبى الفِرَارَ، فقاتلَ حتَّى قُتلَ، فقال أيُّوبُ بن خولي يرثيهِ:

فيا هُدبُ للهيجَا، ويا هُدبُ للندى ⁂ ويا هدبُ للخصمِ الألـدِ يحاربُه!

ويا هُدبُ كَمْ من مَلحمٍ قـد أجبته ⁂ وقـد أسلمتهُ للرمَـاحِ جـوالبُه

تزودتَ مـن دنياكَ دِرعًـا ومِغفرًا ⁂ وعَضـبًا حُسَامًا لم تخنك مضاربُه

وأجردَ محبـوكَ السـراةُ كأنَّـه ⁂ إذَا انفضَّ وافي الريش حجنٌ مخالبُه [1]

---

(١) «تاريخ الطبري» (٦/ ٥٧٦)، «شرح نهج البلاغة» (٣/ ٢٦٧).

فَصْلٌ

فِي مقتلِ بهلُولٍ:

وخرجَ أيامَ هشامٍ سنة عشرين ومائة بهلول بنُ بشرِ بن شيبانَ، ويُلقب كنارة، وكانَ لمَّا عزمَ عَلَى الخُرُوجِ حجَّ وَلَقِيَ بمكَّةَ من كان عَلَى رأيِه، فاتعدُوا إِلَى قريةٍ من قرَى الموصلِ، واجتمعُوا بِهَا وهُم أربعُون، وأمَّرُوا عَلَيْهِم البهلولَ، وأخفُوا أنفسَهُم بأنَّهم قدمُوا من عند هشام.

ومرُّوا بقريةٍ كانَ بهلولٌ ابتاعَ مِنْهَا خلًّا فوجدَهُ خمرًا، وأبى البائعُ من ردِّه، واستعدَى عَلَيْهِ عاملَ القريةِ، فقالَ: الخمرُ خيرٌ منكَ ومن قومِكَ.

فقتلُوهُ وأظهرُوا أمرَهُم، وقصدُوا خالد القَسري بواسطِ وتعلَّلُوا عَلَيْهِ بأنَّه يَهدمُ المساجدَ ويبني الكنائسَ ويولِّي المجوسي عَلَى المسلمِينَ.

وجاءَ الخبرُ إِلَى خالدٍ فتوجَّه من واسطِ إِلَى الحيرةِ، وكانَ بِهَا جندٌ من بنِي القينِ نحو ستمائةٍ بُعثُوا مددًا لعاملِ الهندِ، فبعثَهُم خالدٌ معَ مقدمِهِم لقتالِ بهلولٍ وأصحابه، وضمَّ إِلَيْهِم مائتَينِ منَ الشُّرطِ، والتقَوْا عَلَى الفُراتِ، فقُتلَ مقدمُهُمْ وانهزمُوا إِلَى الكُوفةِ.

وبعثَ خالدٌ عابدًا الشيبانِيّ من بني حوشبَ بنِ يزيدَ بن رُوَيْم، فلقيهُ بينَ الموصلِ والكوفةِ، فهزمَهُم إِلَى الكُوفةِ، وارتحلَ يريدُ الموصلَ.

ثمَّ بدَا لَهُ وسَارَ يريدُ هشامًا بالشَّام، وبعثَ خالدٌ جندًا منَ العراقِ، وعامل الجزيرةِ جندًا، وبعثَ هشامٌ جندًا؛ فاجتمعُوا بينَ الجزيرةِ والموصلِ بكحيل وهُم فِي عشرينَ ألفًا، وبهلولٌ فِي سبعينَ، فقاتلُوا واستماتُوا، وصُرِعَ بهلولٌ، وسألَهُ أصحابُه العهدَ فعهدَ إِلَى دعامةَ الشَّيبانِي، ثمَّ إِلَى عُمرَ اليشكريِّ من بعدِه.

وماتَ بهلولٌ من ليلتِه، وهربَ دعامةُ وتركهُم، ثمَّ خرجَ عُمرُ اليشكريُّ فلم يلبثْ أن قُتلَ[1].

---

(١) «تاريخ الطبري» (٧/ ١٣٠)، الكامل فِي التاريخ» (٤/ ٢٤٠)، «تاريخ ابن خلدون» (٣/ ٢٠٥).

فَصْلٌ

فِي مقتلِ صاحبِ الأشهبِ:

ثمَّ خرجَ عَلَى خالد بعد ذَلِكَ بسنتَينِ العنزيّ صاحبُ الأشهبِ، وبهذا كانَ يُعرفُ، فبعثَ إِلَيْهِ السمطَ بنَ مسلمٍ العجليَّ فِي أربعة آلافٍ، فالتقوا بناحيةِ الفُراتِ، فانهزمتِ الخَوارجُ، ولقيهُم عبيدُ أهلِ الكوفةِ وغوغاؤُهُم فرمَوهُم بالحجارةِ حتَّى قتلُوهُم.

ثم خرجَ وزيرُ السّختيانِيّ عَلَى خالدٍ بالحيرةِ فقَتلَ وأحرقَ القُرَى، فوجَّه إِلَيْهِ خالدٌ جندًا فقتلُوا أصحَابه، وأُثخنَ بالجراحِ، وأُتِي بِهِ خالدٌ فوعظَه فأعجبَهُ وعظُهُ، فأعفَاهُ منَ القتلِ وحبسَهُ.

وكانَ يسامرُه بالليلِ وسُعيَ بخالدٍ إِلَى هشامٍ، وأنَّه أخذَ حروريًّا يستحقُّ القتلَ فجعلَهُ سميرًا، فكتَبَ إِلَيْهِ هشامٌ بقتلِه فقتلَهُ.

ثم خرجَ بعد ذَلِكَ الصحاري بن شبيبٍ بناحيةِ جُبَّلٍ، وقدْ كانَ أتى خالدًا يسألهُ الفَريضةَ، فقالَ لهُ: وما يصنعُ ابنُ شبيبٍ بالفريضة؟!، فمضَى ونَدِمَ خالدٌ، فطلبَهُ فلَمْ يرجعْ، وأتَى جُبّلَ وَبِهَا نفرٌ مِن بني تيم اللّات بنِ ثعلبةَ، فأخبرهُم بخرُوجِه عَلَى خالدٍ، وقال: إنَّما أردتُ التَّوصلَ إِلَيْهِ لأقتلهُ بفُلانٍ من قَعدِ الصفريةِ كانَ خالدٌ قتلَهُ صبرًا.

ثمَّ خرَجَ معَهُ ثلاثُونَ مِنْهُم، فوجَّه إِلَيْهِم خالدٌ جندًا فلقَوهُم بناحيةِ المناذر فاقتتلُوا، فَقُتِلَ الصَّحارى، وأصحَابُه أجمعُونَ.

وركدَ أمرُ الخوارجِ بعد ذَلِكَ مدَّةً[1].

---

(١) «تاريخ الطبري» (٧/ ١٣٢)، الكامل فِي التاريخ» (٤/ ٢٤٢)، «تاريخ ابن خلدون» (٣/ ٢٠٦).

فَصْلٌ

فِي مقتلِ سَعيدِ بنِ بهدلَ الشيبانِيِّ، وبسطَام البهسيّ:

فلمّا وقعتِ الفتنُ أيَّام هشامِ بالعراقِ والشَّام، وشُغلَ مروانُ بمن انتقضَ عَلَيْهِ، خرجَ بأرضِ كفرتوثا سعيدُ بنُ بهدلَ الشيبانِيِّ فِي مائتَينِ من أهل الجزيرةِ، وكان عَلَى رَأي الحرُورِيةِ.

وخرجَ بسطام البهسِيّ فِي مثلِ عدّتهم من ربيعةَ، وكانَ مخالفًا لرأيِهِ، فبعثَ سعيدُ بن بهدل قائده الخيبري فِي مائة وخمسينَ، فبيَّتهم وَقَتَلَ بسطامًا ومن معهُ ولم ينجُ مِنْهُم إلا أربعة عشرَ رجلًا، ثمَّ مضَى سعيدُ بنُ بهدل نحوَ العِراقِ، فماتَ هنالكَ.

واسْتَخْلَفَ الضحاكَ بنَ قيسِ الشيبانِي؛ فبايعَهُ الشُراةُ، وأتى أرض الموصلِ وشهرزور، واجتمعَ إليهِ من الصفريّةِ أربعة آلافٍ أو يزيدُونَ.

وولّى مروانُ عَلَى العِراقِ النضرَ بنَ سعيدِ الحريشيّ، وعزلَ بِهِ عبدَ الله بنَ عمرَ بن عبدِ العزيزِ فامتنعَ عبدُ الله بالحيرةِ، وسَارَ إِلَيْهِ النضرُ وتحاربَا أشهرًا.

وكانتِ الصفريّةُ معَ النضرِ عصبيةً لمروَانَ لطلبِهِ بدمِ الوَليدِ وأمُّه قيسية [1].

وكانتِ اليمنيةُ معَ ابن عمرَ عصبيةً لَهُ؛ لدخُولِهِم فِي قتل الوَليدِ بِمَا فعلَهُ معَ خالدِ القَسرِي.

(١) «تاريخ ابن خلدون» (٣/ ٢٠٦).

فصل

فِي مقتلِ الضَّحاكِ بن قيسٍ.... [١] عَلَى الكُوفةِ وكثرةِ عددِ مَنِ اتَّبعَهُ مِنَ الخوارجِ، وأنَّ سببَ ذَلِكَ اختلافُ ولاةِ مروانَ بنِ محمدٍ بينَهُم وتعصُّبُ القبائلِ.

فلمَّا علمَ الضحَّاكُ والخَوارجِ باختلافِهِم، أقبلَ إِلَى العراقِ سنة سبعٍ وعشرينَ، وزحفَ إِلَيْهِم، فتراسلَ ابنُ عمرَ والنَّضر وتعاقَدَا، واجتمعَا لقتالِهِ بالكُوفَةِ، وكُلُّ واحدٍ منهُمَا يصلِّي بأصحابِهِ، وابنُ عمرَ أميرٌ عَلَى النَّاسِ.

وجاءَ الخَوارجُ فقاتلُوهُم فهزمُوهُم إِلَى خَندقِهِم، ثمَّ قاتلُوهُم فِي اليومِ الثَّانِي كذلكَ، فسلكَ الناسُ إِلَى واسطٍ؛ منهم: النَّضرُ بنُ سعيدٍ الحريشيّ، ومنصورُ بن جمهورٍ، وإسماعيل أخو خالدٍ القسري وغيرُهُم من الوجُوهِ.

فلحقَ ابنُ عمرَ بواسطٍ، واستولَى الضحَّاكُ عَلَى الكُوفةِ، وعادتِ الحربُ بينَ ابنِ عمرَ والنَّضرِ.

ثمَّ زحفَ إليهما الضحَّاكُ فاتفقَا وقاتلَا حتَّى ضرَّستهما الحربُ، ولحقَ منصورُ بنُ جمهورٍ بالضحَّاكِ والخَوارجِ، وبايعَهُم، ثمَّ صالحَهُم ابنُ عمرَ ليُشغلُوا مروَانَ عنهُ.

وخرجَ إِلَيْهِم وصلَّى خلفَ الضحَّاكِ، وبايعَهُ، وكانَ معه سليمانُ بنُ هشامٍ وصلَ إِلَيْهِ هاربًا من حمصٍ لَمَّا انتقضَ بِهَا وغلبه عَلَيْهَا مروانُ، فلحقَ بابنِ عمرَ وبايعَ معه الضحَّاكَ، وصارَ معَهُ وحرَّضَهُ عَلَى مروانَ.

وقيلَ: إِنَّمَا لحِقَ بالضحَّاكِ وهُو يحاصرُ نصيبين، وتزوَّجَ أخت شيبان الحَرُورِي.

فرجعَ الضحَّاكُ إِلَى الكُوفةِ وسَارَ مِنْهَا إِلَى الموصلِ، وَعَلَيْهِم القطرانُ بنُ أكمه من بني شيبان عامل لمروَانَ، فأدخلَهُم أهلُ البلدِ، وقاتلَهُم القطرانُ فقُتلَ، ومَن معَهُ، وبلغَ الخبرُ

---

(١) كلمة غير واضحة.

إِلَى مروانَ، وهُو يحاصرُ حمص، فكتبَ إِلَى ابنِه عبد الله أن يسيرَ إِلَى نصيبين يمانعُ الضحّاكَ عن توسطِ الجزيرةِ، فسَارَ فِي ثمانيةِ آلاف فارسٍ، والضحَّاكُ فِي مائة ألفٍ، وحاصرَهُ بنصيبين.

ثم سَارَ مروانُ بنُ محمدٍ إِلَيْهِ فالتقيَا عندَ كفرتوثا من نواحِي ماردين؛ فقاتلَهُ عامَّة يومه إِلَى اللَّيلِ، وترجَّلِ الضحَّاكُ فِي نحو ستة آلافٍ، فقاتلوا حتى قُتِلوا عن آخرهم، وعُثِرَ عَلَى الضحَّاكِ فِي القتلَى، فبعثَ مروانُ برأسِه إلى مَدائنِ الجزيرةِ[1].

ولَمَّا قيلَ لعبدِ ابْنِ الزُّبَيْرِ عن قَتلِ مَرَوَان للضَّحَّاكِ - فِيمَا رَوَاهُ الخطَّابِيُّ[2] مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بنِ يَسَارٍ- وَذَلِكَ بِمَرْجِ رَاهِطِ المَوْضِعِ المَذْكورِ قَامَ خَطِيبًا فَقَالَ: إِنَّ ثَعْلَبَ بْنَ ثَعْلَبٍ حفَرَ بِالصَّحْصَحَةِ - يعنِي: الأَرْضَ المَسْتويَّة الجَرْدَاء - فَأَخْطَأَتِ اسْتُهُ الْحُفْرَةَ[3].

وا لهَفَ أُمٍّ لَمْ تَلِدْنِي عَلَى رَجُلٍ مِنْ محارب كَانَ يَرْعَى فِي جِبَالِ مَكَّةَ فَيَأْتِي بِالشربةِ مِنَ اللَّبَنِ فَيَبِيعَهَا بِالْقَبْضَةِ مِنَ الدَّقِيقِ فيَرَى ذَلِكَ سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ، ثمَّ أَنْشَأَ يَطْلُبُ الْخِلافَةَ. انتهى.

---

(١) «تاريخ ابن خلدون» (٣/ ٢٠٦).

(٢) فِي «غريب الحديث» (٢/ ٥٦٣).

(٣) هذا مثلٌ للعرب تضربه فيمن لم يُصب موضع حاجته. يعني أن الضحّاك طلبَ الإمارة والتقدّم فلم يَنلها.

فصلٌ

ثمَّ أصبحَ الخوارجُ فبايعُوا الخيبريَّ قائدَ الضحَّاكِ، أعادُوا الحربَ معَ مروانَ فهزمُوه، وانتهوا إلَى خيامِه، فقطعُوا أطنابَها، وجلسَ الخيبريُّ عَلَى فرشِه، والمجنبتان ثابتانِ، وعلى الميمنةِ عبدُ الله بنُ مروانَ، وعلى الميسرةِ إسحاقُ بنُ مسلمِ العقيليّ، فلَمَّا انكشفَ لهم قلَّةُ الخوارجِ أحاطُوا بِهِمْ فِي مخيمِ مروانَ فَقَتَلُوهُم جميعًا، والخيبريُّ معهُم.

ورَجعَ مرَوَانُ من نحو ستَّةِ أميالٍ[1].

---

(١) «تاريخ ابنِ خلدُون» (٣/ ٢٠٧).

فصلٌ

فِي ذكر مبايعةِ الخوارجِ شيبانَ الحرُوريِ، ومقتلِه وانصرافه، وذكرِ أوَّلِ من أبطلَ الصفَّ فِي القتَالِ:

ولَمَّا رجعَ مروَانُ وانصرَفَ الخَوارجُ بايعُوا شيبانَ الحرُوريِ وهُو شيبانُ بنُ عبدِ العزيزِ اليشكريُّ، ويكنَّى أبَا الدلفَاء، قاتلَهُم مرَوَانُ بعدَ ذَلِكَ بالكرَاديسِ، وأبطلَ الصفَّ من يومئذٍ، وأقامَ فِي قتالِهِم أيامًا، وانصرفَ عن شيبانَ كثيرٌ منهُمْ، وارتحلُوا إِلَى الموصلِ بإشارةِ سليمانَ بنِ هشامٍ، وعسكرُوا شَرقي دجلةَ، وعقدُوا الجسُورَ، واتَّبعهُم مروانُ فقاتلَهُم لتسعةِ أشهرٍ، وقُتِلَ مِن الطائفتَين خلقٌ كثيرٌ، وأُسرَ ابنُ أخٍ لسليمانَ بنِ هشامٍ اسمُه أميةُ بنُ معاويةَ؛ فقطعَهُ، ثمَّ ضربَ عنقَهُ.

وكتبَ مروان إِلَى يزيدَ بنِ عمرَ بن هبيرةَ وهُو بقرقيسية يأمرُه بالمسيرِ إِلَى العراقِ، وولَّاه عَلَيْهَا، وعلى الكُوفةِ يومئذٍ المثنَّى بن عمرانَ العائذي من قريشٍ خليفةً للخوارجِ، فلقيَ ابنَ هبيرةَ بعينِ التمرِ، فاقتتلُوا، وانهزمتِ الخوارجُ.

ثمَّ تجمَّعُوا لَهُ بالنُخيلةِ ظاهر الكُوفة فهزمهُم، ثمَّ تجمَّعوا بالبصرةِ، وأرسلَ شيبانُ إِلَيْهِم عبيدةَ بنَ سوارٍ فِي خيلٍ عظيمةٍ فَهَزَمَهُم ابنُ هبيرةَ، وقتلَ عبيدةُ واستباحَ عسكرَهُم، واستولَى عَلَى العِراقِ.

وسَارَ ابنُ هبيرةَ إِلَى واسطٍ فحبسَ ابن عمرَ، وكانَ سليمانُ بنُ حبيبٍ عامل ابن عمرَ عَلَى الأهوازِ فبعثَ ابن هبيرةَ عَلَيْهِ نباتة بنَ حنظلةَ، وبعَثَ هُو داودَ بنَ حاتمٍ، والتقيا عَلَى دجلةَ فانهزمَ داودُ، وقُتلَ.

وكتبَ مروانُ بنُ محمدٍ إِلَى ابنِ هبيرةَ أن يبعثَ إِلَيْهِ عامرَ بنَ ضبارةَ المريَ، وبعثَهُ فِي ثمانية آلافٍ، وبعَثَ شيبانَ لاعتراضِه الجون بن كلابٍ الخَارِجي فِي جمعٍ، فانهزمَ عامرٌ، وتحصَّنَ بالسندِ، وجعلَ مروانُ يمدُّه بالجنُودِ، وكانَ منصورُ بنُ جمهورٍ بالجبلِ يمدُّ شيبانَ بالأموالِ.

ثمَّ كثُرتْ جموعُ عامرٍ، فخرجَ إِلَى الجونِ والخوارج الذِينَ يحاصرُونَهُ فهزمهُم، وقتل الجون، وسَارَ قاصدًا الخوارجَ بالموصلِ، فارتحلَ شيبانُ عَنْهَا وقدمَ عامرٌ عَلَى مروانَ فبعثَهُ فِي اتباعِ شيبانَ، فمرَّ عَلَى الجبلِ، وخرجَ عَلَى بيضاء فارس، وَبِهَا يومئذٍ عبدُ الله بنُ معاويةَ بن جعفرٍ فِي جموعٍ كثيرةٍ، فسَارَ ابن معاويةَ إِلَى كِرمانَ، وقاتلَهُ عامرٌ فهزمَهُ، ولحقَ بهراة، وسَارَ عامرٌ بمن معَهُ، فلقيَ شيبانَ والخوارج بجيرفت، فَهَزَمَهُم واستباحَ عسكرَهُمْ.

ومضى شيبانُ إِلَى سِجستانَ، فهلكَ بِهَا سنة ثلاثين ومائةٍ، وقيل: بل كان قتال مروان وشيبان على الموصل شهرًا، ثمَّ انهزم شيبانُ ولحقَ بفارسَ، وعامرٌ بن ضبارة فِي اتّباعِه، ثمَّ سَارَ شيبانُ إِلَى جزيرة ابن كاوان، فكانَ بِها[1].

---

(١) «تاريخ ابنِ خلدُون» (٣/ ٢٠٧).

فَصْلٌ

.. (١) ولما وليَ السفّاح أوّل خلفائِهم بعثَ حارثةَ بنَ خزيمةَ لحربِ الخوارجِ هنالك لوجدةٍ وجدَها عَلَيْهِ، فأُشير عَلَيْهِ ببعثِه لذلك.

فَسارَ فِي عسكرٍ إِلَى البصرةِ، وركبَ السفنَ إِلَى جزيرةِ ابنِ كاوان، وبعثَ فضالةَ بنَ نعيمِ النهشليَّ ثمَّ التَّميميّ فِي خمسمائةٍ، فانهزمَ شيبانُ إِلَى عُمانَ، وقاتلَ هُناكَ وقتلهُ جلندي بنُ مسعُودِ بنِ جعفرِ بن جلندي ومن معهُ سنة أربعٍ وثلاثينَ ومائةٍ.

وركبَ سليمانُ بنُ هشامِ السفنَ بأهلِه ومواليهِ إِلَى الهندِ بعدَ مسيرِ شيبانَ إِلَى جزيرةِ ابنِ كاوانَ حتَّى إذ بويعَ السفَّاحُ قدمَ عَلَيْهِ، وأنشدَهُ سديف البيتَين المعرُوفين وهُما، يقولُ:

لا يغرَّنَّكَ مَا تَـرَى مِـنْ رِجَالٍ ... إنَّ بَينَ الضُّـلُوعِ دَاءً دويًّا

فَضَعِ السَّيفَ وَارْفع الصَّوتَ حتَّى ... لَا ترَى فَوْقَ ظَهرِهَا أمويًّا

فقتلَهُ السفَّاحُ، وانصرفَ مروانُ بعدَ مسيرِ شيبانَ إلى الموصلِ إلى منزلِه بحرَّان، فلمْ يزلْ بِهَا حتَّى سَارَ إِلَى الزابِ، ومضَى شيبانُ إلى خُراسانَ، والفتنةُ بِهَا يومئذٍ بينَ نصرِ بنِ سيّارٍ والكرمانِي والحارثِ بنِ شريحٍ.

وقَدْ ظهرَ أبُو مسلمٍ بالدَّعوةِ العبَّاسيةِ، فكانَ لَهُ منَ الحوادثِ معهُم مَا ذكرنَاهُ، واجتمعَ معَ عليِّ بنِ الكرمانِي عَلَى قتالِ نصرِ بنِ سيّارٍ.

فلمَّا صالحَ ابنُ الكرمانِي أبا مسلمٍ كَمَا مرَّ، وفارقَ شيبانَ تنحّى شيبانُ عن مروانَ لعلمِه أنَّهُ لا يقاومُه.

ثمَ هربَ نصرُ بنُ سيّارٍ إِلَى سرخس، واستقامَ أمرُ أبي مسلمٍ بخراسانَ، فأرسلَ إِلَى شيبانَ يدعُوه إِلَى البيعةِ ويأذن له بالحربِ، واستجاشَ بالكرمانِي فأبَى، فسَارَ إِلَى سرخس،

---

(١) كلمات غير واضحة.

واجتمعَ إِلَيْهِ الكثيرُ مِن بكرِ بنِ وائلٍ.

وأرسلَ أَبُو مسلمٍ إِلَى بسَّام بنِ إبراهيمَ مولى بنِي ليثٍ بالمسيرِ إِلَى شيبانَ، فسَارَ إِلَيْهِ فهزمَهُ، وقُتلَ فِي عدَّةٍ مِن بكرِ بنِ وائلٍ.

ويقالُ: إنَّ خزيمةَ بنَ خازمٍ حضرَ معَ بسَّام فِي ذلكَ[1].

(١) «تاريخ ابنِ خلدُون» (٣/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨).

فَصْلٌ

فِي خرُوجِ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسِ الشَّيْبَانِيِّ مُحَكِّمًا، ودخُولِهِ الْكُوفَةَ:

وسنذكرُه مِن طرقٍ أخرَى، ومَا فِيهِ من زيادةِ بيانٍ عمَّا تقدَّمَ عَلَى عادتِنَا، فلا يُظنُّ أنَّا ذكرْنَا مَا ذكرْنَا فِي كتَابِنَا هَذَا تكريرًا، وإنَّمَا المقصُودُ زيادةُ الإفادةِ والبيانِ بلفظٍ لَيْسَ فِي الطَّرِيقِ الآخرِ، فليُعلمْ ذَلِكَ.

فنقولُ: كانَ دخُولُ الضَّحاكِ بنِ قيسٍ الشيبانِي الكُوفةَ سنة سبعٍ وعشرِينَ ومائةٍ.

قَالَ إمامُ المفسرِينَ محمدُ بنُ جريرٍ الطبريُّ: اختُلفَ فِي ذَلِكَ من أمرِه، فأمَّا أحمدُ بنُ صالحٍ، فإنه حدَّثني عن عبدِ الوهابِ بنِ إبراهيمَ، قالَ: حدَّثني أبُو هاشمٍ مخلدُ بْنُ محمدٍ، قالَ: كانَ سببُ خرُوجِ الضَّحاكِ أنَّ الوليدَ حينَ قُتلَ خرجَ بالجزيرةِ حروريٌّ يقَالُ لَهُ: سعيدُ بنُ بهدل الشيبانِي فِي مائتَينِ من أهلِ الجزيرةِ، فِيهِم الضَّحاك، فاغتنمَ قتلَ الوليدِ، واشتغالَ مروانَ بالشَّام، فخرجَ بأرضِ كفرتوثا.

وخرجَ بسطام البيهسِي وهُو مفارقٌ لرأيِهِ فِي مثلِ عدَّتِهم من ربيعةَ، فَسَارَ كلُّ واحدٍ منهمَا إلَى صاحبِه.

فلمَّا تقاربَ العسكرانِ وجَّه سعيدُ بْن بهدل: الخيبرِي- وهُو أحدُ قوادِه، وهُو الَّذِي هزمَ مروانَ- فِي نحوٍ من مائةٍ وخمسينَ فارسًا ليبيِّته، فانتهَى إلَى عسكرِه وهُم غارُّون، وقد أمرَ كلّ واحدٍ مِنْهُم أن يكُونَ معه ثوب أبيض يُجلل بِهِ رأسه، ليَعرف بعضهم بعضًا، فبكروا فِي عسكرِهِم فأصابُوهُم فِي غرةَ، فقال الخيبريُّ:

إنْ يَكُ بسطَام فإنِّي الخيبرِي... أضربُ بالسَّيفِ وأحْمِي عسْكَرِي

فقتلُوا بسطامًا وجميعَ من معَهُ إلا أربعة عشرَ، فلحقُوا بمروانَ، فكَانُوا معَهُ وأثبتَهُم فِي روابطِه، وولَّى عَلَيْهِم رجلًا مِنْهُم يقَالُ لَهُ مقاتلٌ، ويكنَّى أبا النعثلِ.

ثمَّ مضَى سعيدُ بْنُ بهدل نحوَ العراقِ لَمَّا بلغَهُ من تشتيتِ الأمرِ بِهَا واختلافِ أهلِ

الشَّام، وقتالِ بعضِهم بعضًا معَ عبدِ الله بْنِ عمرٍ والنَّضرِ بْنِ سعيدٍ الجرشي- وكانتِ اليمانيةُ منْ أهلِ الشَّام معَ عبدِ الله بْنِ عمرَ بالحيرَةِ، والمُضريَّة، معَ ابنِ الجرشي بالكُوفةِ، فهُم يقتتلُونَ فِيمَا بينهُم غدوةً وعشيةً -.

قَالَ: فمَاتَ سعيدُ بْنُ بهدل فِي وجهِه ذَلِكَ من طاعُون أصابَهُ، واسْتَخْلَفَ الضَّحاكَ بْنَ قيسٍ من بعدِه، وكانتْ لَهُ امرأةٌ تسمَّى حومَاء، فقالَ الخيبريُّ فِي ذلكَ:

سقَى الله يَا حومَاءُ قبرَ ابنِ بهدلٍ... إذَا رحلَ السارُون لم يترحلِ

قال: واجتمعَ معَ الضَّحاكِ نحو من ألفٍ، ثمَّ توجه إِلَى الكُوفةِ، ومرَّ بأرضِ الموصلِ، فاتبعَهُ مِنْهَا ومن أهلِ الجزيرةِ نحو من ثلاثةِ آلافٍ، وبالكُوفةِ يومئذٍ النضرُ بْنُ سعيدٍ الجرشي ومعه المضريةُ، وبالحيرةِ عبدُ الله بْنِ عمرَ فِي اليمانيةِ، فهُم متعصبونَ يقتتلُونَ فِيمَا بين الكُوفةِ والحيرةِ.

فلمَّا دنا إِليْهِ الضَّحاكُ فيمَن معَهُ من الكوفةِ اصطلحَ ابنُ عمرَ والجرشِي، وصارَ أمرهُم واحدًا، ويدًا عَلَى قتالِ الضَّحاكِ، وخَندقَا عَلَى الكُوفَةِ، ومعهُما يومئذٍ من أهلِ الشَّام نحو منْ ثلاثينَ ألفًا، لَهُم قوةٌ وعدَّةٌ، ومعهُم قائدٌ من أهلِ قنسرين، يقَالُ له: عبادُ بْنُ الغزيلِ فِي ألفِ فارسٍ، قَد كانَ مروانُ أمدَّ بِهِ ابنَ الجرشِي، فبرزُوا لهُم، فقاتلُوهُم، فقُتلَ يومئذٍ عاصم بن عمرَ بن عبدِ العزيز وجعفر بن العباسِ الكندي، وهزمُوهم أقبح هزيمةٍ.

ولحقَ عبدُ الله بْنُ عمرَ فِي جماعتهِم بواسطَ، وتوجَّه النضرُ بنُ الجرشِي وجماعةُ المضريةِ إِلَى الكُوفةِ، واستعملَ ابنَ عبدِ الله القسرِي والِي مروَانَ، واستولَى الضَّحاكُ والحروريةُ عَلَى الكُوفةِ وأرضِهَا، وجَبى السَّواد.

ثم اسْتَخْلَفَ الضَّحاكُ رجلًا من أصحابِه- يقَالُ لَهُ ملحان- عَلَى الكُوفةِ فِي مائتي فارسٍ، ومضَى فِي معظمِ أصحابِه إِلَى عبدِ الله بنِ عمرَ بواسطَ، فحاصرَهُ بِها، وكانَ معَهُ قائدٌ من قوادِ أهلِ قنسرين يقَالُ له: عطيَّة الثعلبِي- وكانَ منَ الأشدَّاءِ-.

فلمَّا تخوَّفَ محاصرةَ الضَّحاكِ خرجَ فِي سبعِينَ أو ثمانِينَ مِن قومِه متوجهًا إِلَى مروانَ،

فخرجَ عَلَى القادسيةِ، فبلغَ ملحانَ ممرُّه، فخرجَ فِي أصحابه مبادرًا يريدُه، فلقيهُ عَلَى قنطرة السيلحينَ- وملحانُ قد تسرَّعَ فِي نحوٍ من ثلاثين فارسًا- فقاتلَهُ، فقتلَهُ عطيةُ وناسًا من أصحابِه، وانهزمَ بقيتهُم حتَّى دخلُوا الكُوفةَ.

ومضَى عطيةُ حتَّى لحقَ فيمَن معهُ بمروانَ[1]:

فأُشهدُكُمْ أنِّي لمَروانَ سَامِعٌ … مُطِيعٌ وللضَّحاكِ عَاصٍ مجانِبُ

قال ابن جرير: وأما أبو عبيدة معمر بن المثنى، فإنه قالَ: حدثني أبو سعيد، قالَ: لما مات سعيد بن بهدل المري، وبايعت الشُّراة الضحاكَ، أقامَ بشهرزور وثابت إِلَيْهِ الصفرية من كل وجه حتَّى صار فِي أربعة آلاف، ولم يجتمع مثلهم لخارجي قطُّ قبله.

قالَ: وهلك يزيد بن الوليد وعامله عَلَى العراق عبد الله بن عمر، فانحط مروان من أرمينية حتَّى نزل الجزيرة، وولى العراق النضر بن سعيد- وكان من قواد ابن عمر، فحاربه أربعة أشهر، ثمَّ أمد مروان النضر بابن الغزيل، وأقبل الضحاك نحو الكوفة، وذَلِكَ فِي سنة سبع وعشرين ومائة.

فأرسلَ ابنُ عمرَ إِلَى النَّضرِ: إنَّ هَذَا لا يريدُ غيرِي وغيرك، فهلمَّ نجتمعُ عَلَيْهِ، فتعاقدَا عَلَيْهِ، وأقبلَ ابنُ عمرَ، فنزلَ تل الفتحِ، وأقبلَ الضَّحاكُ ليعبرَ الفُرات.

فأرسلَ إِلَيْهِ ابنُ عمرَ حمزةَ بْنَ الأصبغ بْن ذؤالةَ الكلبي ليمنعَهُ منَ العبُورِ، فقالَ عبيدُ الله بْنُ عباسٍ الكندِي: دعْهُ يعبرُ إلينا، فَهُوَ أهونُ عَلَيْنا مِن طلبِه.

فأرسلَ ابنَ عمرَ إِلَى حمزةَ يكفُّه عنْ ذَلكَ، ونزلَ ابنُ عمرَ الكُوفةَ، وكَانَ يصلِّي فِي مسجدِ الأميرِ بأصحابِه، والنضرُ بْنُ سعيدٍ فِي ناحيةِ الكوفة يصلِّي بأصحابِه، لا يجامعُ ابنَ عمرَ ولا يصلِّي معهُ، غير أنَّهما قد تكافا واجتمَعَا عَلَى قتالِ الضَّحاك.

وأقبلَ الضَّحاكُ حينَ رجعَ حمزةُ حتَّى عبرَ الفراتَ، ونزلَ النُّخيلةَ يومَ الأربعاءِ فِي

---

(١) «تاريخ الطبريّ» (٧/ ٣١٧_٣١٨).

رجبٍ سنة سبعٍ وعشرينَ ومائةٍ، فخف إِلَيْهِم أهلُ الشَّام من أصحابِ ابنِ عمرٍ والنَّضرِ، قبلَ أن ينزلُوا، فأصابُوا مِنْهُم أربعةَ عشرَ فارسًا وثلاث عشرةَ امرأةً.

ثم نزلَ الضَّحاكُ وضربَ عسكرَهُ، وعبَّى أصحابَهُ، وأرَاحَ، ثمَّ تغادوا يومَ الخميسِ، فاقتتلُوا قتالًا شديدًا، فكشفُوا ابنَ عمرَ وأصحَابه، وقتلُوا أخَاهُ عاصمَ بنَ عمرَ، قتلهُ البرذونُ بْنُ مورق الشَّيبانِي، فدفنَهُ بنُو الأشعثِ بْنِ قيسٍ فِي دارهِم، وقتلُوا جعفرَ بْنَ العبَّاسِ الكندِي أخَا عبيد الله، وكانَ جعفرٌ عَلَى شرطةِ عبدِ الله بْنِ عُمرَ.

وكانَ عبدُ الملكِ بْنُ علقمةَ بْن عبدِ القيسِ، وكانَ جعفرٌ حينَ رهقَهُ عبدُ الملكِ نادَى ابنَ عمٍّ لَهُ يقَالُ لهُ: شاشلة، فكرَّ عَلَيْهِ شاشلةُ، وضربَهُ رجلٌ من الصفريةِ، ففلقَ وجهَهُ.

فقَالَ أَبُو سعيدٍ: فرأيتُه بعد ذَلِكَ كأن لَهُ وجهينِ، فأكبَّ عبدُ الملكِ عَلَى جعفر فذبحه ذبحًا، فقالتْ أمُّ كردوس الصفرية الخَارِجِية:

نَحْنُ قَتَلْنَا عَاصِمًا وَجَعْفَرا والفَارِسَ الضَبّي حِينَ أَصْحَرَا

ونحنُ جِئْنَا الخَنْدَقَ الْمُقعّرا

فانهزمَ أصحابُ ابنِ عمرٍ، فأقبلتِ الخَوارجُ، فوقفتْ عَلَى خندقِنَا إِلَى الليل ثمَّ انصرفُوا، ثمَّ تغادينا يومَ الجمعةِ، فوالله مَا تتامنا حتَّى هزمُونا، فدخلْنَا خنادقنَا، وأصبحنا يومَ السبتِ، فإِذَا النَّاسُ يتسللُونَ ويهربُونَ إِلَى واسطٍ، ورأَوا قومًا لم يروا مثلَهُم قطُّ أشد بأسًا، كأنَّهُم الأُسدُ عندَ أشبالِهَا.

فذهبَ ابنُ عمرَ ينظرُ أصحابَهُ، فإِذَا عامَّتهم قد هربُوا تحتَ الليلِ، ولحقَ معظمُهُم بواسطٍ، فكانَ مِمَّن لحقَ بواسطِ النضرُ بْنُ سعيدٍ، وإسماعيلُ بنُ عبدِ الله، ومنصورُ بن جمهورٍ، والأصبغُ بْنُ ذؤالةَ وابناهُ: حمزةُ وذؤالةُ، والوليدُ بْنُ حسان الغسانِي وجميعُ الوجوه، وبقِيَ ابنُ عمرَ فيمن بقيَ مِن أصحابِهِ مقيمًا لا يبرحُ[1].

---

(١) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣١٨ ـ ٣١٩).

ولَمَّا ولَّى ابنُ عمرَ أخاه عَاصِمًا الكُوفةَ، فقدمَ عَلَيْهِ الضَّحاكُ بْنُ قيسٍ الشَّيبانِي الخَارِجِي.

ويقَالُ: إِنَّمَا قدمَ الضَّحاكُ وإسماعيلُ بْنُ عبدِ الله القسري فِي القصرِ، وعبدُ الله بْنُ عمر بالحيرةِ، وابن الجرشِي بدَير هند، فغلبَ الضَّحاك عَلَى الكوُفةِ، وولَّى ملحانَ بْنَ معروفٍ الشيبانِي عليهَا، وعلى شُرَطِهِ الصفرَ من بنِي حنظلةَ - حروريٌّ - فخرجَ ابنُ الجرشي يريدُ الشَّام، فعارضَهُ ملحان، فَقَتَلَهُ ابن الجرشي، فولَّى الضَّحاكُ عَلَى الكُوفةِ حسانَ، فولَّى حسانُ ابنَهُ الحارثَ عَلَى شُرَطِه.

وقَالَ عبدُ الله بْنُ عمرَ يرثِي أخاهُ عَاصِمًا لَمَّا قتلَهُ الخَوَارِجُ:

رمَى غرضِي ريبُ الزَّمانِ فَلَمْ يدَعْ غدَاة رمَى فِي الكفِّ للقَوسِ منزعَا
رمَى غرضِي الأقصَى فأقصد عَاصمًا أخًا كانَ لِي حِرزًا ومأوًى ومفزَعَا
فإنْ تكُ حربٌ أو تتابعَ غصَّة أذابت عَبيطًا من دم الجوف منقعَا
تجرعتُهَا فِي عاصمٍ واحتسيتُهَا لأعظم مِنْهَا مَا احتسَى وتجرعَا
فليتَ المنايَا كنَّ خلّفن عَاصِمًا فَعِشنا جميعًا أو ذهبن بنَا معَا

وذُكَرَ أنَّ عبدَ الله بْنَ عمرَ كَانَ يقُولُ: بلغنِي أنَّ عينَ بْنَ عينِ بن عينِ بْن عينٍ يقتلُ ميمَ بْنَ ميم بْنِ ميمِ بْنِ ميمٍ، وكانَ يأملُ أن يقتلَهُ، فَقَتَلَهُ عبدُ الله بنُ عليِّ بنِ عبدِ الله بْن العبَّاسِ بْن عبدِ المُطَّلبِ.

فذكرَ أنَّ أصحَابَ ابنِ عمرَ لَمَّا انهزَمُوا فلحقُوا بواسط، قَالوا لابنِ عُمرَ: عَلَامَ تقيمُ وقَد هربَ النَّاسُ!

قَالَ: لأتلومَ وأنظرَ، فأقامَ يومًا أو يومينِ لا يرَى إلَّا هاربًا، ثمَّ امتلأتْ قلوبُهم رُعبًا من الخوَارجِ، فأمرَ عندَ ذَلِكَ بالرَّحيلِ إِلَى واسط، وجمعَ خالدُ بْنُ الغزيل أصحَابَهُ، فلحقَ بمروانَ وهُو مقيمٌ بالجزيرةِ.

ونظرَ عبيدُ اللهِ بْنُ العباسِ الكندِي إِلَى مَا لقيَ النَّاس، فلَمْ يأمنْ عَلَى نفسِهِ، فجنحَ إِلَى

الضَّحاكِ فبايعَهُ، وكانَ معَهُ فِي عسكرِهِ، فقالَ أَبُو عَطاءِ السندِي يعيِّرُه باتباعِهِ الضَّحاكَ، وَقد قتَلَ أَخَاهَ:

قـلْ لعبيـدِ الله لـو كـانَ جعفـرٌ ... هُـو الحـي لَمْ يجنـحْ وأنـتَ قتيـلُ
ولمْ يتبـعِ المُـرَاقَ والثَّـأر فِـيهِم ... وفي كفِّه عضب الـذُّبابِ صـقيلُ
إلى معشرٍ أردَوا أخـاكَ وأكفرُوا ... أباكَ فماذَا بعـدَ ذَاكَ تقُـولُ!

...

فلمَّا بلغَ عبيدُ الله بْنُ العباسِ هَذَا البيتَ من قولِ أبِي عطاءٍ، قالَ: أقولُ: أعضكَ اللهُ ببظرِ أمِّكَ

فَلا وصلتكَ الرحمُ من ذِي قَرَابةٍ ... وطَالب وَترٍ، والذليلُ ذليلُ
تركتَ أخَا شيبـانَ يسلـبُ بزهِ ... ونجَاكَ خوار العنَان مطولُ

قَالَ: فنزلَ ابنُ عمرَ منزلَ الحجَّاجِ بْنِ يوسُفَ بواسط- فِيمَا قيلَ- فِي اليمانيةِ، ونزلَ النَّضرُ وأخُوه سليمَانُ ابنَا سعيدٍ، وحنظلةُ بْنُ نباتةَ وابنَاهُ محمَّد ونباتة فِي المضريةِ ذاتَ اليمينِ إذَا صعدت منَ البصرةِ، وخلّوا الكُوفةَ والحيرةَ للضَّحاكِ والشُراةِ، وصَارَتْ فِي أيديهِمْ.

وعادتِ الحربُ بينَ عبدِ الله بنِ عمرَ والنَّضرِ بن سعيدِ الجرشِي إلَى مَا كانَ عَلَيْهِ قبل قدومِ الضَّحاك الخَارِجِي، ودخلَ الضَّحاك الكُوفةَ فأقَامَ بِهَا يسيرًا، ثمَّ استعملَ عَلَيْهَا ملحان السفيانِي فِي شعبَان سنة سبعٍ وعشرِينَ ومائةٍ[1].

فأقبلَ منقضًا فِي الشُراةِ إلَى واسط، متبعًا لابنِ عمرَ والنضرِ، فنزلَ بابَ المضمارِ.

فلمَّا رأى ذَلِكَ ابنُ عمرَ والنَّضرُ تكافا عَنِ الحربِ فِيمَا بَيْنَهُمَا، وصارتْ كلمتهُما عَلَيْهِ واحدةً، كَمَا كانتْ بالكُوفةِ، فجعلَ النضر وقواده يعبرُون الجَسرَ، فيقاتلُون الضَّحاك وأصحَابَهُ معَ ابنِ عمرَ، ثمَّ يعودُونَ إلَى مواضعِهِم، ولا يقيمُونَ معَ ابنِ عُمَرَ.

---

(١) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٢٠ ـ ٣٢١).

فَلَمْ يزَالُوا عَلَى ذَلِكَ: شعبانَ وشهرَ رمضانَ وشوالَ، فاقتتلُوا يومًا منْ تِلْكَ الأيَّامِ، فاشتدَّ قتالهُم، فشدَّ منصورُ بْنُ جمهورٍ عَلَى قائدٍ منْ قوادِ الضَّحاك، وكانَ عظيمَ القدرِ فِي الشُّراةِ والخوارجِ كلِّهم، يقَالُ له: عكرمَة بْن شيبانَ، فضربَهُ عَلَى بابِ القورجِ، فقطعَهُ باثنينِ، فَقَتَلَهُ.

وبعَثَ الضَّحاكُ قائدًا من قوادِه يُدعَى شوالاً مِن بنِي شيبانَ إلَى بابِ الزابِ، فقال: أَضْرِمْ عَلَيْهِم نارًا، فقد طالَ الحصَارُ علينا، فانطلقَ شوالٌ ومعَهُ الخيبريُّ، أحد بني شيبانَ فِي خيلِهِم، فلقيهُم عبدُ الملكِ بْنُ علقمةَ، فقالَ لهُم: أينَ ترِيدُونَ؟

فقال لَهُ شوال: نريدُ بابَ الزابِ، أمرنِي أميرُ المؤمنينَ بكَذَا وكَذَا.

قالَ: أنَا معكَ، فرجعَ معَهُ وهُو حاسرٌ، لا دِرعَ عَلَيْهِ، وكانَ من قوادِ الضَّحاكِ أيضًا، وكانَ أشدَّ الناسِ، فانتهوا إلَى البابِ فأضرمُوه، فأخرجَ لَهُم عبدُ الله بْنَ عمرَ: منصورَ بنَ جمهورٍ فِي ستمائةِ فارسٍ من كلب، فقاتلُوهُم أشدَّ القتالِ.

وجعلَ عبدُ الملكِ بْنُ علقمةَ يشدُّ عَلَيْهِم وهُو حاسرٌ، فقتلَ مِنْهُم عدَّةً، فنظرَ إِليْهِ منصورُ بْنُ جمهورٍ، فغاظَهُ صنيعُهُ، فشدَّ عَلَيْهِ فضربَهُ عَلَى حبلِ عاتقه فقطعَهُ حتَّى بلغَ حرقفتهُ[1]، فخرَّ ميتًا، وأقبلتِ امرأةٌ منَ الخَوارجِ شادةً، حتَّى أخذتْ بلجامِ منصورِ بنِ جمهورٍ، فقالتْ: يا فاسقُ، أجبْ أميرَ المؤمنينَ، فضربَ يدَهَا- ويقالُ: ضربَ عنانَ دابتِه فقطعَهُ فِي يدِهَا- ونجَى.

ودخلَ المدينةَ وشدَّ الخيبريُ يُريدُ منصورًا، فاعترضَ عَلَيْهِ ابنُ عمٍّ لَهُ من كلب، فضربَه الخيبرِيُّ فَقَتَلَهُ.

فقالَ حبيبُ بنُ خدرة مولَى بنِي هلالٍ- وكانَ يزعمُ إنَّهُ منْ أبناءِ ملُوك فارسَ- يرثي عبدَ الملكِ بْنِ علقمةَ:

---

(١) الحرقفة: عظم رأس الورك.

وقائلـةٌ ودمـعُ العـينِ يجـرِي   عَـلَى روحِ ابـنِ علقمَـةَ الـسَّلامُ
وأدركـكَ الحِـمَامُ وأنـتَ شـابٌ   وكُـلّ فتًـى بِمَـصْرعِهِ حِمَـامُ
فـلَا رعـشَ اليـدين ولا هـدَان   ولا وُكُـلِ اللِّقَـاءِ وَلَا كهَـامُ
ومـا قتـلٌ عَـلَى شـارٍ بعـارٍ   ولكـن يُقتلـون وهُـم كـرَامُ
طغَـام النَّاسِ لَيـْسَ لَهُم سبيل   شجَـانِي يَا ابنَ علقمـةَ الطَغَامُ

ثمَّ إنَّ منصورًا قَالَ لابنِ عمرَ: مَا رأيتُ فِي الناسِ مثلَ هؤلاءِ قطُّ - يعنِي: الشُراةَ- فلمَ تحاربُهُم وتشغلهُم عن مروانَ؟ أعطِهُم الرِّضا، واجعلهُم بينكَ وبينَ مروانَ، فإنَّكَ إن أعطيتهُم الرضَا خلوا عنَّا، ومَضَوْا إلَى مروانَ، فكانَ حدُّهُم وبأسُهُم عَلَيْهِ، وأقمتَ أنتَ مستريحًا بموضعكَ هذَا، فإنْ ظفرُوا بِه كانَ مَا أردتَ وكنتَ عندَهُم آمنًا، وإن ظفرَ بِهِمْ وأردتَ خلافَهُ وقتالَهُ قاتلته جامًّا مستريحًا، معَ أن أمرَه وأمرهُم سيطُولُ، ويوسعُونَهُ شرًّا.

فقالَ ابنُ عمرَ: لا تعجل حتَّى نتلومَ وننظرَ.

فقالَ: أي شيءٍ ننتظرُ!

فما تستطيعُ أن تطلعَ معهُم ولا تستقرَّ، وإنْ خرجْنَا لم نَقمْ لهُم، فما انتظارنَا بِهِمْ ومروان فِي راحةٍ، وقَد كفيناهُ حدَّهُم وشغلنَاهُم عنهُ! أما أنا فخارجٌ لاحقٌ بِهِمْ.

قالَ: فخرجَ فوقفَ حيالَ صفِّهم وناداهُم: إنِّي جانحٌ أريدُ أن أُسلمَ وأسمعَ كلامَ اللهِ- قالَ: وَهِيَ محنتهُم- فلحقَ بِهِمْ وبايعهُم، وقال: قد أسلمتُ، فدعوا لَهُ بغداءٍ فتغدَّى.

ثمَّ قَالَ لهُم: مَنِ الفارسُ الَّذِي أخذَ بعنانِي يومَ الزَّاب؟ يعنِي: يومَ ابنِ علقمةَ- فنادُوا: يا أمَّ العنبرِ، فخرجتْ إليهِم، فإذا أجملَ الناسِ، فقالت لهُ: أنتَ منصورُ؟

قَالَ: نعمْ.

قالت: قبَّح اللهُ سيفَكَ، أينَ مَا تذكرُ منهُ! فوَاللهِ مَا صنعَ شيئًا، ولا تركَ. تعنِي: ألا يكونَ قتلها حينَ أخذتْ بعنانِه فدخلتِ الجنةَ-.

وكان منصورٌ لا يعلمُ يومئذٍ أنَّها امرأةٌ، فقالَ: يا أميرَ المؤمنين، زَوّجْنِيهَا ! قالَ: إنَّ لهَا

زوجًا- وكانت تحتَ عبيدةَ بْنِ سوارٍ التَّغلبِي-.

قَالَ[1]: ثمَّ إنَّ عبدَ اللهِ بْنَ عمرَ خرجَ إلَى الضَّحاكِ الخارجي فِي آخرِ شوالٍ من تِلْكَ السَّنةِ فبايعَهُ.

وذكرَ فِي هذِهِ السنةِ أن سليمانَ بْنَ هشامِ بْن عبدِ الملكِ حينَ هزمهُ مروانُ يومَ خسافٍ أقبلَ هاربًا، حتَّى صارَ إلَى عبدِ اللهِ بْنِ عمرَ، فخرجَ معَ عبدِ اللهِ بْنِ عمر إلَى الضَّحاك، فبايعَهُ، وأخبرَ عن مروانَ بفسقٍ وجَورٍ، وحضض عليهِ.

وقال: أنا سائرٌ معكُم فِي مواليّ ومن اتبعنِي، فسَارَ معَ الضَّحاكِ حينَ سَارَ إلَى مروانَ.

فقالَ شبيلُ بن غررةَ فِي بيعتهِم الضَّحاكَ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَظْهَرَ دِينَهُ ... وَصَلَّتْ قُرَيشٌ خَلْفَ بَكْرِ بْنِ وَائِلِ

فصارتْ كلمةُ ابنِ عمرَ وأصحابه واحدةً عَلَى النَّضرِ بْنِ سعيدٍ، فعَلمَ أنَّهُ لا طاقةَ لَهُ بِهم، فارتحلَ من ساعتهِ يريدُ مروانَ بالشَّام.

وذكرَ أبُو عبيدةَ أنَّ بيهسًا أخبرَهُ: لَمَّا دخلَ ذُو القعدةِ سنة سبعٍ وعشرينَ ومائةٍ، استقامَ لمروانَ الشَّام، ونفَى عَنْهَا مَنْ كانَ يخالفُهُ، فدعَا يزيدَ بنَ عمرَ بن هبيرةَ، فوجَّههُ عاملًا عَلَى العراقِ، وضمَّ إليْهِ أجنادَ الجزيرةِ.

فأقبلَ حتَّى نزلَ سعيدُ بْنُ عبدِ الملكِ، فأرسلَ ابنَ عمرَ إلَى الضَّحاك يعلمُه ذَلِكَ قالَ: فجعلَ الضَّحاك لنَا ميسان.

وقال: إنَّها تكفيكُم حتَّى ننظرَ عمَّا تنجلِي، واستعملَ ابنُ عمرَ عَلَيْهَا مولَاهُ الحكمَ بْنَ النُّعمانِ.

وأمَّا أبُو مخنفٍ فإنَّهُ قَالَ- فِيمَا ذكرَ هشامٌ عنهُ -: إنَّ عبدَ اللهِ بْنَ عمرَ صالحَ الضَّحاك

---

(١) «تاريخ الطبريّ» (٧/ ٣٢١ ـ ٣٢٢).

عَلَى أنَّ بيد الضَّحاك مَا كان غلبَ عَلَيْهِ من الكُوفةِ وسوادِهَا، وبيد ابن عمرَ مَا كانَ بيدِهِ من كسكرَ وميسانَ ودستميسان وكور دجلة والأهوازِ وفارسَ، وارتحلَ الضَّحاك حتَّى لقِيَ مروانَ بكفرتوثا من أرضِ الجزيرةِ.

وقال أبُو عبيدةَ: وَتَهَيَّأَ الضَّحاكُ ليسيرَ إِلَى مروانَ، ومضَى النَّضرُ يريدُ الشَّام، فنزلَ القادسيةَ، وبلغ ذَلِكَ ملحانُ الشَّيبانِي عاملُ الضَّحاك الخَارِجِي عَلَى الكوفةِ، فخرجَ إِلَيْهِ فقاتلَهُ، وهُو فِي قلَّةٍ مِنَ الشُّرَاةِ، فقاتلَهُ فصبرَ حتَّى قتلَهُ النَّضرُ، فقالَ ابنُ خدرة يرثيهِ وعبد الملكِ بْن علقمةَ:

كائنٌ كملحَانَ من شارٍ أخِي ثقـةٍ ... وكابنِ علقمةَ المستشهدَ الشَّاري
منَ صَادقَ كنتُ أصفيهِ مخالصتِي ... فبـاعَ دارِي بـأعلَى صـفقَة الـدَّارِ
إِخْوَانُ صِدْقٍ أُرجِّيهم وأخذلهُـم ... أشكُو إِلَى الله خِذلانِي وإخفارِي

وبلغ الضحاكَ قتلُ ملحان، فاستعمل عَلَى الكوفة المثنى بن عمران من بني عائدة.

ثم سَارَ الضَّحاكُ فِي ذِي القعدةِ، فأخذَ الموصلَ، وانحطَّ ابن هبيرةَ من نهرِ سعيدٍ حتَّى نزلَ غزَّةً من عينِ التَّمرِ، وبلغ ذَلِكَ المثَنَّى بْنُ عمرَانَ العائذِي، عامل الضَّحاك عَلَى الكُوفةِ، فسَارَ إِلَيْهِ فيمَن معَهُ من الشُراةِ، ومعَهُ منصورُ بْنُ جمهورٍ، وكان صارَ إِلَيْهِ حين بايعَ الضَّحاك خلافًا عَلَى مروانَ، فالتقَوْا بغزةَ، فاقتتلُوا قتالًا شديدًا أيَّامًا متواليةً.

فقُتلَ المثَنَّى وعزير وعمرو- وكانُوا من رؤساءِ أصحابِ الضَّحاك- من رؤساءِ الخَوارجِ، وهربَ منصورٌ، وانهزمتِ الخَوارجُ، فقالَ مسلمٌ حاجبُ يزيدَ:

أذَقْنَ المثنَّى يومَ غَزَّةَ حَتْفَهُ ... وأذْرَتْ عُزَيرًا بين تلك الجَنَادِلِ
وعَمْرًا أزارَتْه المَنِيَّةَ بعدما ... أطافَتْ بمنصورٍ كفافُ الحبايلِ

وقال غيلان بن حُريث في مدحه ابن هبيرة:

نُصِرْتَ يومَ العينِ إذ لَقِيتَا ... كنصرِ داودٍ على جَالُوتَا

فلمَّا قُتلَ مِنْهُم من قتلَ فِي يوم العينِ، وهربَ منصورُ بْنُ جمهورٍ، أقبلَ لا يلوِي حتَّى دخلَ الكُوفةَ، فجمعَ بِهَا جمعًا من اليَمانيةِ والصفريةِ، ومَنْ كانَ تفرَّق مِنْهُم يومَ قتلَ ملحان،

ومن تخلَّف مِنهُم عن الضَّحاكِ، فجمعَهُم منصورٌ جميعًا.

ثمَّ سَارَ بِهِمْ حتَّى نزلَ الرَّوحاءَ، وأقبلَ ابنُ هبيرةَ فِي أجنادِهِ حتَّى لقيهُم، فقاتلَهُم أيَّامًا ثمَّ هزَمَهُم، وقتلَ البرذون بن مرزوق الشَّيبانِي، وهربَ منصورٌ، ففي ذَلِكَ يقولُ غيلانُ بْنُ حريثٍ:

ويومَ روحاءِ العذيبِ دفعوا   عَلَى ابنِ مرزوقٍ سهام مُزعفُ

قَالَ: وأقبلَ ابنُ هبيرةَ حتَّى نزلَ الكُوفةَ، ونفَى عَنْهَا الخوَارجَ، وبلغَ الضحَّاك مَا لقِيَ أصحابُهُ، فدعَا عبيدةَ بْنَ سوارٍ التَّغلبِي، فوجَّهه إليهِم، وانحطَّ ابنُ هبيرةَ يريدُ واسطًا، وعبدَ الله بْنَ عمَر بِها.

وولَّى عَلَى الكوفةِ عبدَ الرحمنِ بْنَ بشيرِ العجِلي، وأقبلَ عبيدةُ بْنُ سوارٍ معدًّا فِي فرسانِ أصحابِه، حتَّى نزلَ الصراة، ولحقَ بهِ منصورُ بْنُ جمهورٍ، وبلغَ ذَلِكَ ابنُ هبيرةَ فسَارَ إِلَيْهِم فالتقوا بالصراةِ فِي سنة سبعٍ وعشرينَ ومائةٍ [1].

.... [2] حتَّى دخلتْ سنة ثمانٍ وعشرونَ ومائةٍ، وَفِيهَا قُتلَ الضَّحاك المذكُور رئيسُ الخوَارجِ، فِيمَا قَالَ أَبُو مخنفٍ، ذكر ذَلِكَ هشامُ بْنُ محمدٍ عَنْهُ.

قال محمدُ بنُ جريرٍ الطبريُّ: وسببُ ذَلِكَ: إِنَّهُ ذُكِرَ أَنَّ الضَّحاكَ لمَّا حاصرَ عبدَ الله بْنَ عمرَ بْن عبدِ العزيزِ بواسط، وبايعَهُ منصورُ بْنُ جمهورٍ، ورأى عبدُ الله بْنُ عمرَ أَنَّهُ لا طَاقةَ لَهُ بِهِ، أرسلَ إليهِ: إن مقامَكُم عليَّ لَيْسَ بشيءٍ، هَذَا مروانُ فسِرْ إليهِ، فإنْ قتلتَهُ فأنَا معكَ، فصالحَهُ عَلَى مَا قد ذكرْنَا فِيمَا تقدَّمَ، والاختلَاف فِي ذلكَ [3].

---

(١) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩).

(٢) كلمات غير واضحة.

(٣) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٤٥).

فَصْلٌ

فِي ذكرِ مقتلِ الضَّحاك، وذكرِ مقتلِ الخيبريِ..... [1] وذكرِ كثرةِ عددِ مَنِ اتَّبعَهُم:

قال محمدُ بنُ جريرٍ: ذكرَ هشامٌ، عن أبي مخنفٍ، أن الضَّحاكَ ارتحلَ عن ابنِ عمرَ حتَّى لقي مروانَ بكفرتوثا من أرضِ الجزيرةِ، فقُتلَ الضَّحاك يومَ التَقَوْا.

قالَ: وأمَّا أَبُو هَاشم مَخلدُ بْنُ محمَّدِ بْنِ صَالحٍ، فإنَّهُ فِيمَا حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ زُهَيْرٍ، قالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الوهابِ بْنُ إبراهيمَ عَنْهُ أنَّ الضَّحاكَ لَمَّا قتلَ عطيةُ الثعلبي صاحبه، وعامله عَلَى الكُوفةِ ملحان بقنطرةِ السيلحين، وبلغَهُ خبرُ قتلِ ملحان، وهُو محاصرُ عبدَ الله بْنَ عمرَ بواسطٍ، وجَّه مكانَهُ واليًا من أصحابِه يقَالُ لهُ: مطاعن.

واصطلحَ عبدُ الله بْنُ عمرَ والضَّحاكُ عَلَى أن يدخلَ فِي طاعتِه، فدخلَ وصلَّى خلفَهُ، وانصرفَ إِلَى الكوفةِ، وأقامَ ابنُ عمرَ فيمن معَهُ بواسطٍ، ودخلَ الضَّحاكُ الكُوفةَ، وكاتبَهُ أهلُ الموصلِ، ودَعوهُ إِلَى أن يقدمَ عَلَيْهِم فيمكنُوهُ مِنهَا.

فسَارَ فِي جماعةِ جنودِه بعدَ عشرِينَ شهرًا، حتَّى انتهَى إليهَا، وعَلَيْهَا يومئذٍ عاملٌ لمرَوَان، وهُو رجلٌ منْ بنِي شيبانَ من أهلِ الجزيرةِ يقَالُ له: القطرانُ بْنُ أكمه.

ففتحَ أهلُ الموصلِ المدينةَ للضَّحاكِ، وقاتلَهُم القطرانُ فِي عدَّةٍ يسيرةٍ من قومِهِ، وأهل بيتِه حتَّى قُتلُوا، واستولَى الضَّحاكُ عَلَى الموصلِ وكورِها.

وبلغَ مروانُ خبرَه وهُو محاصرُ حمصٍ، مشتغلٌ بقتالِ أهلِهَا، فكتبَ إِلَى ابنِه عبدِ الله وهُو خليفتُه بالجزيرةِ، يأمرُه أن يسيرَ فيمَن معَهُ من روابطِه إِلَى مدينةِ نصيبين ليشغلَ الضَّحاكَ عن توسطِ الجزيرةِ، فشخصَ عبدالله إِلَى نصيبين فِي جماعةِ روابطِه، وهُو فِي نحوٍ منْ سبعةِ آلافٍ أو ثمانية.

---

(١) كلمات غير واضحة.

وخلَّف بحرانَ قائدًا فِي ألفٍ أو نحو ذلكَ، وسَارَ الضَّحاكُ من الموصلِ إلَى عبدِ الله بنصيبين، فقاتلَهُ فلمْ يكُنْ لَهُ قوَّة لكثرةِ من معَ الضَّحاك، فهُم فِيمَا بلغنا عشرُونَ ومائة ألفٍ، يُرزق الفارس عشرين ومائة، والرَّاجل والبغال المائة والثمانين فِي كل شهرٍ.

وأقامَ الضَّحاك عَلَى نصيبين مُحاصرًا لها، ووجَّه قائدينِ من قوادِه يقَالُ لهُما عبدُ الملكِ بْنُ بشرٍ التَّغلبي، وبدرِ الذكوانِي مولَى سليمانَ بْنِ هشامٍ فِي أربعةِ آلافٍ أو خمسةِ آلافٍ حتَّى وردَا الرقَّة، فقاتلَهُم من بِهَا من خيلِ مروانَ، وهُم نحو مِن خمسمائةِ فارسٍ.

ووجَّه مروانُ حينَ بلغَهُ نزولهُم الرقَّة خيلًا من روابطِه، فَلَمَّا دَنَوْا مِنْهَا انقشعَ أصحابُ الضَّحاكِ منصرفِينَ إليهِ، فاتّبعتهُم خيلهُ، فاستسقطُوا من ساقتِهم نيفًا وثلاثينَ رجلًا، فقطعهُم مروان حينَ قدمَ الرقَّة، ومضَى عامدًا إلَى الضَّحاك وجمُوعه حتَّى التقيا بموضعٍ يقَالُ له: الغز من أرضٍ كفرتوثا، فقاتلَهُ يومهُ ذلكَ.

فلمَّا كانَ عندِ المساءِ ترجَّلَ الضَّحاكُ، وترجَّلَ معَه من ذوِي الثباتِ من أصحابِه نحوٌ من ستةِ آلافٍ، وأهل عسكره أكثرهُم لا يعلمُونَ بِمَا كان مِنْهُ، وأحدقت بِهِمْ خيولُ مروانَ، واقتتلُوا قتالًا شديدًا وكثر بينهُم القتلَى، وقُتل الضَّحاك، وانحازَ كلٌّ من الفريقينِ إلَى عسكرِهِ، ومروانُ وأصحابُ الضَّحاك لا يعلمُون أنَّ الضَّحاكَ قد قُتلَ فيمنْ قُتلَ حتَّى فقدُوه فِي وسطِ الليلِ، وجاءَهُم بعضُ من عاينَهُ حينَ ترجَّل، فأخبرهُم بخبرِه ومقتلِه، فبكَوه وناحُوا عليهِ.

وخرجَ عبدُ الملكِ بْنُ بشرٍ التَّغلبي القَائد الَّذِي كانَ وجَّهه إلَى الرقةِ فِي عسكرِهم حتَّى دخلَ عسكرَ مروانَ، ودخلَ عَلَيْهِ فأعلمهُ أن الضَّحاكَ قُتلَ، فأرسلَ مَعَهُ رسلًا من حرسِه، معَهُم النيران والشَّمع إلَى موضعِ المعركةِ، فقَلَّبَا القتلَى حتَّى استخرجُوه، فاحتملُوه حتَّى أَتَوْا بِهِ مروَانَ، وفِي وجهِه أكثر منْ عشرِينَ ضربةً، فكبَّر أهلُ عسكرِ مروانَ، فعرفَ أهلُ عسكرِ الضَّحاكِ أنَّهم قد علمُوا بذلكَ، وبعَثَ مروان برأسِه من ليلتِه إلَى مدائنِ الجزيرةِ، فطيفَ بِهِ فيهَا.

قالَ: ويُقالُ: إن الضَّحاكَ والخيبريَّ إنَّما قُتلا فِي سنة تسعٍ وعشرينَ ومائةٍ[(١)].

قال: وفِي هذِهِ السَّنةِ كانَ أيضًا- فِي قولِ أبي مخنفٍ - قتلُ الخيبري الخَارِجِي، كذلكَ ذكرَ هشامٌ عنهُ.

فذكرَ ابنُ جريرٍ بسندِه عن أبِي هاشمٍ مخلدِ بنِ محمدِ بنِ صالحٍ، قالَ: لما قُتلَ الضَّحاكُ وأصبحَ أهلُ عسكرِه بايعُوا الخيبريَّ، وأقامُوا عَلَى تعبيتِهم بنُصيبين، وكانتِ الخَوارجُ أكثر منْ ثلاثةِ آلافٍ، وكانَ الخيبريُّ فِي أهلِ بيتِه ومواليه، وتزوَّج بنتَ شيبانَ الحَرُورِي الَّذِي بايعُوه بعدَ قتلِ الخيبرِي.

فحملَ الخيبريُّ عَلَى مروانَ فِي نحوٍ منْ أربعمائةِ فارسٍ من الشُراةِ، فهزَمَ مروانَ وهُو فِي القلبِ، وخرجَ مروانُ من المعسكرِ هاربًا، ودخلَ الخيبريُّ فيمن معه عسكرَهُ، فجعلُوا ينادونَ بشعارِهم: يا خيبري يا خيبرِي، ويقتلُونَ من أدركُوا حتَّى انتهوا إلَى حُجرةِ مروانَ، فقطعُوا أطنابَهَا.

وجلسَ الخيبريُّ عَلَى فَرشِه، وميمنة مروان عَلَيْهَا ابنُه عبد اللهِ ثابتة عَلَى حالِهَا، وميسرتُه ثابتةٌ عَلَيْهَا إسحاقُ بْنُ مسلمٍ العقيلِي.

فلمَّا رأى أهلُ عسكرِ مروانَ قلَّة من معَ الخيبريِّ ثابَ إلِيْهِ أهلُ النَّجدة وعبيدٌ من أهلِ العسكرِ بعُمُدِ الخيامِ، فقتلُوا الخيبريَّ وأصحابَهُ جميعًا فِي حُجرةِ مروانَ وما حولَهَا.

وبلغَ مروانَ الخبرُ وقد جازَ العسكرَ بخمسةِ أميالٍ أو ستة منهزمًا، فانصرفَ إلَى عسكرِه، وردَّ خيولَهُ عن مواقفِهَا إليهِ، وباتَ ليلتَهُ تِلْكَ فِي عسكرِهِ.

فانصرفَ أهلُ عسكرِ الخيبرِي فولّوا عَلَيْهِم شيبانَ وبايعُوه، فقاتلَهُم مروانُ بعد ذَلِكَ بالكرَاديسِ، وأبطلَ الصَفَّ منذُ يومئذٍ[(٢)].

---

(١) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٤٥ـ ٣٤٦).

(٢) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٤٧).

فَصْلٌ

فِي ذكرِ أوَّلِ منْ أبطلَ الصُّفُوفَ:

وكانَ مروانُ يومَ الخيبرِي بعثَ محمدَ بْنَ سعيدٍ، وكانَ من ثقاتِهِ وكُتّابه إِلَى الخيبريِّ، فبلّغَهُ أنّهُ مالأهم وانحازَ إِلَيْهِم، فأُتِيَ بِهِ مروَان أسيرًا، فقطعَ يدَهُ ورجلَهُ ولسَانَهُ.

قالَ: وفِي هذِهِ السَّنةِ وجَّه مروانُ بنُ محمَّدٍ يزيدَ بْنَ عمرَ بْنِ هبيرةَ إِلَى العراقِ لحربِ من بِهَا مِنَ الخوَارجِ[١].

قالَ ابنُ جريرٍ الطبريُّ[٢] والواقديُّ وغيرُهُمَا: وكانَ الضَّحاكُ قد بثَّ عمَّالَهُ فِي العراقِ، وقَدْ مضَى ذكرُ مقتلِهِ، ومقتلِ صَاحبِهِ الخيبرِي بَعْدَهُ.

---

(١) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٤٧).

(٢) فِي «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٤٨).

فَصْلٌ

وفِي هذِهِ السَّنةِ لقيَ أَبُو حمزةَ الخَارِجي عبدَ الله بْنَ يَحْيى طَالب الحقِّ - فِيمَا ذكرَهُ ابنُ جريرٍ (١) وغيرُه - ودعَاهُ إلَى مذهبِهِ الخبيثِ فأجَابَهُ.

قال ابنُ جريرٍ عن مُوسَى بْنِ كثيرٍ مولَى السَّاعديينَ، إنَّهُ قالَ: كانَ أوَّل أمرِ أبي حمزةَ - وهُو المختارِ بْنِ عوفٍ الأزدِي السّليمِي منَ البصرَةِ - قَالَ مُوسَى: وكان أولُ أمرِ أبِي حَمْزَةَ أنهُ كَانَ يوافِي كلّ سنةٍ يدعُو النَّاسِ إلَى خِلافِ مروَانَ بْنِ محمَّدٍ، وإلَى خِلافِ آل مروَانَ.

قَالَ: فَلَمْ يزلْ يختلفُ فِي كلِّ سنةٍ حتَّى وافَى عبدَ الله بْنَ يَحْيى فِي آخرِ سنةِ ثمان وعشرِينَ ومائة.

فقالَ لهُ: يا رجلُ، أسمعُ كلامًا حسنًا، وأراكَ تدعُو إلَى حقٍّ، فانطلقْ معِي، فإنِّي رجلٌ مطاعٌ فِي قومِي، فخرجَ حتَّى وردَ حضرموتَ، فبايعَهُ أبُو حمزةَ عَلَى الخلافةِ، ودعَا إلَى خِلافِ مروانَ وآل مروَانَ.

قَالَ هارونُ بنُ موسَى الفروِي: وقد حدَّثنِي عن مُحَمَّدِ بْنِ حسنٍ أنَّ أبَا حمزةَ مرَّ بمعدن بنِي سليمٍ، وكثيرِ بْنِ عبدِ الله عاملٌ عَلَى المعدنِ، فسمعَ بعضَ كلامِهِ، فأمرَ بِهِ فجُلدَ سبعينَ سوطًا، ثمَّ مضَى إلَى مكَّةَ، فَلَمَّا قدِمَ أبُو حمْزَةَ المَدِينةَ حينَ افْتَتَحَهَا تغيَّبَ كَثِيرٌ حتَّى كَانَ مِنْ أمرِهِمْ مَا كَانَ (٢).

وسيَأْتِي خبرُ أبي حمْزَةَ قريبًا، وقَدْ مضَى جُمْلَةٌ أوَّل الكِتَابِ.

---

(١) فِي «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٤٧).

(٢) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٤٧).

فَصْلٌ

ومِن ذَلِكَ مَا كَانَ مِن هلاكِ شيبانَ بْنِ عبدِ العزيزِ اليشكرِي أَبِي الدلفاء الخَارِجِي:

وكانَ سببُ ذَلِكَ أنَّ الخوارجَ الَّذِينَ كانُوا بإزَاءِ مروانَ بْنِ محمَّدٍ يُحَارِبُونَهُ لما قُتلَ الضَّحاكُ بْنُ قيسٍ الشَّيبانِي رئيس الخَوَارجِ يومئِذٍ، والخيبَرِي بعدَهُ، فولُّوا عَلَيْهِم شيبانَ وبايعُوه، فقاتلَهُم مروانُ.

فذكرَ هشامُ بْنُ محمَّدٍ والهيثمُ بْنُ عديٍّ أنَّ الخيبريَّ لَمَّا قُتلَ قَالَ سُليمَانُ بْنُ هشامِ بْنِ عَبدِ المَلكِ للخَوارجِ- وكانَ معهُم فِي عسكرِهِم: إنَّ الَّذِي تفعلُونَ لَيْسَ بِرَأيِ، فإنْ أخذتُم بِرَأيِي، وإلَّا انصرفتُ عنكُم.

قَالُوا: فَمَا الرَّأي؟

قَالَ: إنَّ أحدَكُم يظفرُ ثمَّ يستقتل فيُقتلُ، فإنِّي أرَى أن ننصرفَ عَلَى حاميتِنَا حتَّى ننزلَ الموصلَ، فنتخندقَ، واتَّبعَهُم مروانُ، والخَوارجُ فِي شرقي دجلةَ ومروانُ بإزائِهِم، فاقتتلُوا تسعةَ أشهرٍ، ويزيدُ بْنُ عمرَ بْن هبيرةَ بقرقيسيا فِي جندٍ كثيفٍ منْ أهلِ الشَّام وأهلِ الجزيرةِ، فأمرَهُ مروانُ أن يسيرَ إِلَى الكُوفةِ، وعَلَيْهَا يومئِذٍ المثنَّى بْنُ عِمرانَ، مِن عائذة قريشٍ منَ الخَوارجِ[(١)].

وذكرَ ابنُ جريرٍ بسندِهِ عَن أَبِي هَاشمٍ مخلدِ بْنِ محمَّدٍ، قالَ: كانَ مروانُ بْنُ محمدٍ يقاتلُ الخوارجَ بالصفِّ، فلَمَّا قُتلَ الخيبري وبويعَ شيبانُ، قاتلَهُم مروانُ بعد ذَلِكَ بالكراديسِ، وأبطلَ الصفَّ منذُ يومئِذٍ، وجعلَ الآخرُون يكردسُون لكراديسِ مروانَ كراديس تكافئهُم وتقاتلهُم.

وتفرَّقَ كثيرٌ من أصحابِ الطَّمعِ عنهُم وخذلُوهُم، وحصلُوا فِي نحوٍ مِن أربعينَ ألفًا،

---

(١) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٤٩).

فأشارَ عَلَيْهِم سليمانُ بْنُ هشامٍ أن ينصرفُوا إِلَى مدينةِ الموصلِ، فيصيرُوهَا الخوارجُ ملجأً وظهرًا ومِيرةً لهم، فقبلُوا رأيه، وارتحلُوا ليلًا.

وأصبحَ مروانُ وقد ارتحَلُو فاتّبعهُم، لَيْسَ يرحلُونَ عن منزلٍ إلا نزلَهُ، حتَّى انتهوا إِلَى مدينةِ الموصلِ، فعسكرُوا عَلَى شاطئِ دجلةَ، وخَندقُوا عَلَى أنفسهِم، وعقدُوا جسُورًا عَلَى دجلةَ من معسكرِهِم إِلَى المدينةِ، فكانَتْ مِيرتَهُم ومرافقهم مِنهَا، فخندقَ مروانُ بإزائِهِم، فأقامَ سنةً يقاتلهُم بكرةً وعشيةً.

قَالَ: وأُتِي بابنِ أخٍ لسليمانَ بْنِ هشامٍ، يقَالُ لَهُ أميةُ بْنُ معاويةَ بْن هشامٍ، وكان معَ عمِّه سليمانَ بْنِ هشامٍ فِي عسكرِ سيارٍ بالموصلِ، وهُو يبارزُ رجلًا من فرسانِ مروانَ، فأسَرَهُ الرَّجلُ فأتِي بِهِ أسيرًا، فقالَ لَهُ: أنشدُكَ اللهَ والرَّحمَ يا عمّ!

قالَ: مَا بينِي وبينكَ اليوم من رَحِمٍ، فأمرَ بِهِ- وعمُّه سليمَانُ وإخوتُه ينظرُونَ إِلَيْهِ - فقُطعتْ يدَاهُ وضُربتْ عنقُه.

وذكرَ ابنُ جريرٍ بسندِه عن أبِي هاشمٍ مخلدِ بْنِ محمَّدٍ قالَ: وكتبَ مروانُ إِلَى يزيدَ بْنَ عمرَ بْن هبيرةَ يأمرُه بالمسيرِ مِن قرقيسيا بجميعِ من معَهُ إِلَى عبيدةَ بْن سوارٍ خليفة الضَّحاك بالعرَاقِ.

فلقِيَ خيولَ الخَوارجِ بعينِ التَّمرِ، فقاتلَهُم فهزمَهُم، وَعَلَيْهِم يومئذٍ المثَنَّى بْنُ عمرانَ منْ عائذة قريشٍ والحَسن بن يزيدَ.

ثمَّ تجمَّعُوا لَهُ بالكُوفَةِ بالنُّخَيْلَةِ، فهزَمَهُم، ثمَّ اجتمَعُوا بالصراةِ ومعَهُم عبيدة خليفة الضَّحاري الخَارِجِي، فقاتلَهُم فقتلَ عبيدة، وهُزمَ أصحابُه، واستباحَ ابنُ هبيرةَ عسكرَهُم، فلَمْ يكُنْ لَهُم بقيةٌ بالعراقِ، واستولَى ابنُ هبيرةَ عَلَيْهَا.

وكتبَ إِلَيْهِ مروانُ بْنُ محمَّدٍ من الخنادقِ يأمرُه أن يمدَّهُ بعامرِ بْنِ ضبارةَ المرّي، فوجَّهَهُ فِي نحوٍ منْ ستة آلافٍ أو ثمانية، وبلغَ شيبانُ الخَارِجِي خبرَهُم ومَنْ مَعَهُ منَ الحرُوريةِ، فوجَّهُوا إِلَيْهِ قائدَينِ فِي أربعةِ آلافٍ، يقَالُ لهُمَا ابنُ غوثٍ والجون، فلقَوا ابنَ ضبارة بالسنِّ دونَ الموصلِ، فقاتلُوه قتالًا شدِيدًا، فَهَزمَهُم ابنُ ضبارةَ.

فلمَّا قدِمَ فلُّهُم أشارَ عَلَيْهم سليمانُ بالارتحَالِ عنِ الموصلِ، وأعْلَمَهُم إنَّهُ لَا مُقامَ لَهُم إذ جَاءَهُم ابنُ ضبارةَ من خلفِهِم، وركبهُم مروانُ منْ بينِ أيدِيهِم، فارتحلُوا، وأخذُوا عَلَى حلوانَ إِلَى الأهوازِ وفارسَ.

ووجَّه مروانُ إِلَى ابنِ ضبارةَ ثلاثةَ نفرٍ منْ قوادِهِ فِي ثلاثينَ ألفًا منْ روابطِه، أحدهُم مصعبُ بْنُ الصحصحِ الأسدِي وشقيقٌ وعطيفٌ السليمانِي، وشقيقٌ الَّذِي يقُولُ فِيهِ الخَوارجُ:

قَدْ عَلِمَتْ أختَاكَ يَا شَقِيقُ إنَّكَ مِن سُكْرِكَ مَا تُفِيقُ

وَكَتَبَ إِلَيْهِ يأمرُه باتِّبَاعِهِم، ولا يُقلعُ عنهُم حتَّى يبيرَهُم ويستأصلَهُم، فلَمْ يزلْ يتبعهُم حتَّى وردُوا فارسَ، وخرَجُوا مِنْهَا وهُو فِي ذَلِكَ يستسقطُ من لحقَ من أخريَاتِهِم، فتفرَّقُوا، فأخذَ شيبانُ رئيسَ الخوارجِ فِي فرقتِه إِلَى ناحيةِ البحرينِ، فَقُتِلَ بِهَا.

وركبَ سليمانُ فيمن معهُ منْ مواليهِ وأهلِ بيتهِ السُّفنَ إِلَى السِّندِ، وانصرفَ مروانُ إِلَى منزلِهِ مِن حرَّانَ، فأقامَ بِهَا حتَّى شخص إِلَى الزَّابِ.

هَذِهِ روايةُ مَخلدِ بْنِ محمَّدٍ.

وأمَّا أبُو مخنفٍ فإنَّهُ قَالَ- فِيمَا ذكرَ هِشَامُ بْنُ مُحَمَّدٍ عنهُ- قالَ: أَمَرَ مروانُ يزيدَ بْنَ عمرَ بْن هبيرةَ- وكانَ فِي جنُودٍ كثيرةٍ مِنَ الشَّام وأهلِ الجزيرةِ بقرقيسيا- أنْ يسيرَ إِلَى الكُوفةِ، وعلَى الكوفةِ يومئذٍ رجلٌ منَ الخوارجِ يقَالُ لَهُ المثنَّى بْنُ عمرانَ العائذِي، عائذة قريشٍ، فسَارَ إِلَيْهِ ابنُ هبيرةَ عَلَى الفراتِ حتَّى انتهَى إِلَى عينِ التَّمرِ، ثمَّ سَارَ فلقِيَ المثنَّى بالرَّوحَاءِ، فوافَى الكُوفةَ فِي شهرِ رمضانَ من سنة تسعٍ وعشرينَ ومائة، فهَزمَ الخوارجَ.

ودخلَ ابنُ هبيرةَ الكوفَةَ ثمَّ سَارَ إِلَى الصراةِ، وبعَثَ شيبانُ الخَارِجي عبيدةَ بْنَ سوارٍ فِي خيلٍ كثيرةٍ عظيمةٍ، فعسكرَ فِي شرقي الصراةِ، وابنُ هبيرةَ فِي غربيهَا، ثمَّ قطعَ عبيدةُ الصراةَ إِلَى هبيرةَ فالتقوا؛ فقُتلَ عبيدة وعدَّةٌ من أصحَابِهِ، وكانَ منصورُ بْنُ جمهورٍ معهُم فِي دورِ الصراةِ، فمضَى حتَّى غلبَ عَلَى الماهين وعلى الجبلِ أجمعُ.

وسَارَ ابنُ هبيرةَ إِلَى واسطٍ، فأخذَ ابن عمرَ فحبسَهُ، ووجَّه نباتةَ بْنَ حنظلةَ إِلَى سليمانَ

بْنِ حبيبٍ وهُو عَلَى كورِ الأهوازِ، وبعَثَ إِلَيْهِ سليمانُ داودَ بْنَ حاتمٍ، فالتقُوا بالمريانِ عَلَى شاطئِ دُجيل، فانهزَمَ الناسُ، وقُتلَ داودَ بْنُ حاتمٍ، وفي ذَلِكَ يقُولُ خلفُ بنُ خليفَةَ:

نفسِي لِدَاودَ الفِدَا والحمَى ... إذ أسلَمَ الجَيش أبَا حَاتمِ
مهلَّبِي مشرقٌ وجهُه ... لَيْسَ عَلَى المعرُوفِ بالنَّادمِ
سألتُ مَن يُعلم لِي علمَهُ ... حقًّا ومَا الجَاهِلُ كالعَالِمِ
قالُوا عهدنَاهُ عَلَى مرقبٍ ... يحمل كالضرغَامة الصارمِ
ثمَّ انثنَى منجدلاً فِي دمٍ ... يسفح فوقَ البدَنِ النَّاعمِ
وأقبلَ القبطُ عَلَى رأسهِ ... واختصموا فِي السَّيفِ والخَاتمِ

وسَارَ سليمانُ حتَّى لحقَ بابنِ مُعاويةَ الجعفرِي بفارسَ، وأقامَ ابنُ هبيرةَ شهرًا، ثمَّ وجَّه عامرَ بْنَ ضبارةَ فِي أهلِ الشَّام إلَى الموصلِ، فسَارَ حتَّى انتهى إلَى السنِّ، فلاقاهُ بِهَا الجونُ بْنُ كلابٍ الخَارجِي، فهَزمَ عامر بْن ضبارةَ حتَّى أدخله السنَّ فتحصَّن فيهَا، وجعلَ مروانُ يمدُّه بالجنُودِ يأخذُونَ طريقَ البرِّ، حتَّى انتهوا إلَى دجلةَ، فقطعُوهَا إلَى ابنِ ضبارة حتَّى كثرُوا.

وكان منصورُ بْنُ جمهورٍ يمدُّ شيبانَ بالأموالِ من كورِ الجبلِ، فلَمَّا كثُرَ مَن يتبعُ ابنَ ضبارةَ منَ الجنُودِ، نهضَ إلَى الجونِ بْنِ كلابٍ فقُتلَ الجون، وسَارَ ابنُ ضبارةَ مصعدًا إلَى الموصلِ، فلَمَّا انتهَى خبرُ الجونِ وقتله إلَى شيبانَ، ومسير عامرِ بْنِ ضبارةَ نحوَهُ، كَرِهَ أن يقيمَ بينَ العسكرينِ، فارتحلَ بمن معهُ وفرسَان الشَّام منَ اليمانيةِ.

وقدمَ عامرُ بْنُ ضبارةَ بمن معَهُ عَلَى مروانَ بالموصلِ، فضمَّ إِلَيْهِ جنودًا من جنوده كثيرة، وأمره أن يسيرَ إلَى شيبانَ، فإن أقامَ أقامَ، وإن سَارَ أن يسيرَ، وألا يبدأهُ بقتالٍ، وإن قاتلَهُ شيبانُ قاتلَهُ، وإن أمسكَ أمسكَ عنهُ، وإن ارتحلتِ الخوارجُ اتَّبعهُم، وكان عَلَى ذَلِكَ حتَّى مرَّ عَلَى الجبلِ كلِّه حتَّى خرجَ عَلَى بيضاء إصطخر، وَبِهَا عبدُ الله بْنُ معاويةَ، فلَم يتهيَّأ الأمرُ بينَهُ وبينَ ابنِ مُعاويةَ، فلحقَ بهراةَ، وسَارَ ابنُ ضبارةَ بمن معَهُ، فلقي شيبانَ ومن معَهُ منَ الخوارجِ بجيرفت من كِرمانَ، فاقتتلُوا قتالًا شديدًا وانهزمتِ الخوارجُ، واستُبيحَ

عسكرَهُم، ومضى شيبانُ إلى سجستانَ، فهلكَ بها، وذلكَ في سنة ثلاثين ومائة.

وأمَّا أبو عبيدةَ فإنَّه قالَ: لما قُتِلَ الخيبريُّ قامَ بأمرِ الخوارجِ شيبانُ بْنُ عبدِ العزيزِ اليشكريُّ، فحاربَ مروانَ، فطالتِ الحربُ بَيْنَهُمَا، وابنُ هبيرةَ بواسطٍ، وقد قُتِلَ عبيدةُ بن سوار ونفى الخوارجَ ومعَه رؤوسُ قواد أهلِ الشَّام والجزيرةِ، فوجَّه عامرَ بْنَ ضبارةَ في أربعة آلاف مددًا لمروانَ، فأخذَ عَلَى بابِ المدائنِ، وبلغَ مسيرَهُ شيبانُ، فخافَ أنْ يأتيَهُم من ورائهم، فوجَّه إِلَيْهِ الجونَ بْنَ كلابٍ الشيبانِي ليشغلَهُ، فالتقيا بالسنِّ، فحصرَ الجونُ عامرًا أيامًا.

قال أبو عبيدةَ: قَالَ أبو سعيدٍ: فأحرجنَاهُم واللهِ، واضطررْنَاهُم إلى قتالِنَا، وقدْ كانُوا خافُونَا، وأرَادُوا الهربَ منَّا، فلمْ ندَعْ لهُم مسلكًا.

فقالَ لهُم عامرٌ: أنتُم ميتونَ لا محالةَ، فموتُوا كرامًا، فصدمُونَا صدمةً لم يقمْ لها شيءٌ، وقتلُوا رئيسنَا الجونَ بْنَ كلابٍ، وانكشفنا حتَّى لحقنَا بشيبانَ، وابنُ ضبارةَ في آثارِنَا، حتَّى نزَل بِنَا، فكنَّا نقاتلُ من وجهينِ، نزَلَ ابنُ ضبارة من ورائِنَا ممَّا يلِي العرَاقَ، ومروانُ أمامنا ممَّا يلِي الشَّامِ، فقطعَ عنَّا المادةَ والميرةَ، فغلتْ أسعارُنَا، حتَّى بلغَ الرغيفُ درهمًا، ثمَّ ذهبَ الرغيفُ فلا شيءَ يُشْتَرَى بغالٍ ولا رخيصٍ.

فقالَ حبيبُ بنُ خدرةَ لشيبانَ: يا أميرَ المؤمنينَ، إنَّكَ في ضيقٍ من المعاشِ، قد بلغَ، فلو انتقلتَ إِلَى غيرِ هَذَا الموضعِ؟ ففعلَ ومضَى إلى شهرزور من أرضِ الموصلِ، فعابَ ذَلِكَ عَلَيْهِ أصحابُه، فاختلفتْ كلمتُهُم.

وقالَ بعضُهم: لَمَّا وليَ شيبانُ أمرَ الخوارجِ رجعَ بأصحَابِهِ إِلَى الموصلِ فاتبعَهُ مروانُ ينزلُ معَهُ حيثُ نزلَ، فقاتلَهُ شهرًا، ثمَّ انهزَمَ شيبانُ حتَّى لحق بأرضِ فارسَ، فوجَّه مروانُ في أثرِه عامرَ بنَ ضبارةَ، فقطعَ إِلَى جزيرةِ ابنِ كاوان، ومضَى شيبانُ بمن معهُ حتَّى صارَ إِلَى عُمانَ، فَقَتَلَهُ خُليدُ بنُ مسعُودِ بنِ جعفرِ بن جلندي الأَزدِي(١).

---

(١) «تاريخ الطبريّ» (٧/ ٣٥٠ ـ ٣٥٣).

فَصْلٌ

فِي ذكرِ مقتلِ أبِي حمزَةَ الخَارِجي........[(١)]

بعدَ مَا أطلْنَا الخبرَ فِي قصَّةِ الضَّحاكِ الخَارِجي وخلفَائِهِ منَ الخوارجِ المذكُورِينَ، وإن كانَ قَدْ ذَكَرْنَا قصةَ أبِي حمْزَةَ فِيمَا سَبقَ أوّل كتَابِنَا هَذَا فِي آخرِ ذكرِنَا المُجْمَل، فقَدْ يخرجُ بينَ القصتينِ زيادَاتٌ ليسَتْ فِي الأخرَى.

قالَ ابنُ جريرِ الطبريُّ بسندِهِ إلَى هارونَ بْنِ موسَى الفروِي، قالَ: حدَّثنِي غيرٌ واحدٍ منْ أصحَابِنَا، أن عبدَ الواحدِ بْنَ سليمانَ استعملَ عبدَ العزيز بْنَ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عَمْرِو بْنِ عُثْمانَ عَلَى النَّاسِ، فخرجُوا يريدُونَ الخوارجَ، فَلَمَّا كانُوا بالحَرّةِ لقيتهُم جُزُرٌ منحُورة، فمضَوْا.

فلمَّا كانُوا بالعقيقِ تعلَّقَ لواؤُهُم بشجرةٍ ـ وقَد قدمْنَا أنَّهُ لواءُ عبدِ الواحدِ ـ، فانكسرَ الرُمحُ، فتشاءَمَ الناسُ بالخُروجِ، ثمَّ سارُوا حتَّى نزلُوا قديد، فنزلُوهَا ليلًا - وكانتْ قديد ناحيةَ القصرِ المبنِي اليوم، وكانتِ الحياضُ هنالكَ، فنزلَ قومٌ معتزلُونَ ليسُوا بأصحابِ حربٍ، فلم يرعَهُم إلا القومَ قد خرجُوا عَلَيْهِم من القصر.

وقَدْ زعمَ بعضُ النَّاسِ أن خزاعةَ دلتْ أبا حمزةَ عَلَى عورتِهِم، وأدخلُوهُم عَلَيْهِم فَقَتَلُوهُم، فكانتِ المقتلةُ العظيمةُ عَلَى قريشٍ، وهُم كانُوا أكثرَ النَّاسِ، وبِهم كانتِ الشَوكةُ، وأُصيبَ مِنْهُم عددٌ كثيرٌ.

قَالَ هارُونُ: وأَخْبَرَنِي بعضُ أصحابِنَا أنَّ رجلًا من قريشٍ نظرَ إلَى رجلٍ من أهلِ اليمنِ وهُو يقولُ: الحمدُ لله الَّذِي أقرَّ عينِي بمقتلِ قريشٍ، فقالَ لابنِه: يا بني ابدأ بِهِ- وقد كانَ من أهلِ المدينةِ- قالَ: فَدَنَا مِنْهُ ابنُه فضربَ عنقَهُ، ثمَّ قَالَ لابنِه: يا بنِيّ، تقدَّم، فقاتلَا حتَّى قُتلَا.

(١) كلمات غير واضحة.

ثمَّ وردَ فلالُ النَّاسِ المدِينَةَ، وبكَى الناسُ قتلَاهُم، فكَانتِ المرأةُ تقيمُ عَلَى حميمِهَا النوائحَ، فمَا تبرحُ النِّساءُ حتَّى تأتيهنَّ الأخبارَ عن رجَالهنَّ فتخرجُ النساءُ امرأة امرأة، كلُّ واحدةٍ تذهبُ إلَى حميمِهَا حتَّى مَا تبقَى عندهَا امرأةٌ.

قَالَ: وأنشدنِي أبُو حمزةَ هذِهِ الأبياتِ فِي قتلَى قديد الذِينَ أصيبُوا من قومِه، رثاهُم بعضُ أصحَابِهِم:

يَا لهْفَ نَفسِي ولهفِي غَير كَاذبةٍ   عَلَى فـــوَارِسَ بالبطْحَــاءِ أنجَادُ
عمْرُو وعمرو وعبدُ الله بَيْنَهُمَا   وابناهُمَا خَامِسٌ والحَارِثُ السَّادي (١)

ومضَى قولُ المرأةِ فِي قتلَى قديد فِي قولِهَا:

مَا لقديد ماليهْ   أفنتْ قديدُ رِجَاليهْ

الأبيَات والقصَّة.

---

(١) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤).

فَصْلٌ

فِي دخُولِ أَبِي حمزةَ المدينةَ وخطبتِه فِيها، وَمَا ذكرَ فِي ذَلِكَ لأهلِهَا:

قال ابنُ جريرٍ الطَّبريُّ: وفِي هذِهِ السَّنةِ ـ يعنِي سنة ثلاثينَ ومائة ـ دخلَ أَبُو حمزةَ الخَارِجِي مدينةَ رسُولِ الله ﷺ وهربَ عبدُ الواحدِ بْنُ سُليمانَ بْن عبدِ الملكِ إِلَى الشَّام.

قال ابنُ جريرٍ الطَّبريُّ: حدَّثنِي العبَّاسُ بْنُ عِيسَى، قالَ: ثنا هارونُ بْنُ موسَى الفروِي، قالَ: ثنا موسى بْنُ كثيرٍ، قالَ: دخلَ أَبُو حمزةَ المدينةَ سنة ثلاثينَ ومائة، ومضَى عبدُ الواحدِ بْنُ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ إِلَى الشَّام، فرقي أَبُو حمزَةَ المنبرَ، فَحَمِدَ اللهَ وأثنَى عَلَيْهِ، فقَالَ:

يا أهل المدينة، سألناكم عن ولاتكم هؤلاء، فأسأتم - لعَمر الله - القول فيهم، سألناكم: هل يقتلون بالظّن؟

فقلتم لنا: نعم.

فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم نقاتلهم، فإن نظهر نحن وأنتم نأتِ بمَن يُقيم فينا وفيكم كتاب الله وسنة نبيكم، فقلتم لنا: لا نقوى.

فقلنا لكم: فخَلّوا بيننا وبينهم، فإن نظفر نعدل في أحكامكم ونحمِلكم على سنة نبيكم، ونقسم فيئكم بينكم، فأبيتم، وقاتلتمونا دونهم، فقاتلناكم، فأبعدكم الله وأسحقكم[(١)].

وذكرَ ابنُ جَريرٍ بسندِهِ عنْ حزامِ بْنِ هشامٍ، قالَ: كانتِ الحرُوريةُ أربعمائةٍ، وعلى طائفةٍ منَ الحرُوريةِ الحَارِثُ، وعلَى طائفةٍ بكارُ بْنُ محمدٍ العدوِي، عدي قريشٍ، وعلى طائفةٍ بلخ، وعلى طائفةٍ أَبُو حمزةَ، فالتقوا وقد تهيَّأ الناسُ بعدَ الإعذارِ من الخوارجِ إليهم، وقَالُوا: إنَّا واللهِ مَا لنَا حاجةَ بقتالِكُم، دعونَا نمضي إِلَى عدوِّنا، فأبَى أهلُ المدينةِ، فالتقوا

---

(١) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٩٤).

لسبع ليالٍ خلونَ من صفر يوم الخميسِ سنة ثلاثين ومائة، فقُتلَ أهلُ المدينةِ، لم يفلتْ مِنْهم إلا الشَّريد، وقُتلَ أميرهُم عبدُ العزيزِ بْنُ عبدِ الله، واتهمتْ قريشٌ خزاعةَ أن يكونُوا داهنُوا الحرُوريةَ.

فقالَ حزامٌ: والله مَا آويتُ رجالًا من قريشٍ مِنْهم حتَّى أمِن الناس، فكَان بلغ عَلَى مقدمتِهم، وقدمت الحَروريةُ المدينةَ لتسع عشرةَ ليلة منْ صفرٍ.

قال: وحدَّثني العباسُ بْنُ عيسَى، قالَ: قَالَ هارونُ بْنُ موسَى: أَخْبَرَنِي بعضُ أشياخِنَا، أنَّ أبَا حمزةَ لَمَّا دخلَ قامَ فخطبَ فقالَ فِي خطبتِه:

يَا أهلَ المَدينةِ مررتُ بكُم فِي زمنِ الأحولِ هشام بْنِ عبدِ الملكِ، وقَد أصابتكُم عاهةٌ فِي ثمارِكُم وكتبتُم إِليْهِ تسألُونَهُ أن يضعَ أخراصَكُم عنكُم، فكتبَ إليكُم يضعهَا عنكُم، فزادَ الغني غنىً، وزادَ الفقيرَ فقرًا، فقلتُم لهُ:

جزَاكَ اللهُ خيرًا، فلَا جزَاهُ.

قَالَ العبَّاسُ: قَالَ هارونُ: أَخْبَرَنِي يَحْيَى بْن زكريَا أن أبَا حمزةَ خطبَ بهذِه الخطبةِ، قالَ: فرقَى المنبرَ فحمدَ الله وأثنَى عَلَيْهِ، ثمَّ قالَ:

تعلمُونَ يا أهلَ المدينةِ أنّا لَمْ نخرجْ من ديارِنَا وأموَالنَا أشرًا ولا بَطرًا، ولا لهوًا، ولا لدولَةِ ملكٍ نريدُ أن نخوضَ فيهِ، ولا ثأرِ قديمٍ نيل منَّا، ولكنَّا لَمَّا رأينَا مصابيحَ الحقِّ قد عُطّلتْ، وعُنِّف القائلُ بالحقِّ، وقُتلَ القائمُ بالقسطِ، ضاقت عَلَيْنَا الأرضُ بِمَا رحُبتْ، وسمعنا داعيًا يدعُو إِلَى طاعَةِ الرَّحمنِ وحُكم القرآنِ، فأجبْنَا داعِيَ الله ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، أقبلْنَا من قبائلَ شتَّى، النَّفر منَّا عَلَى بعيرٍ واحِدٍ، عَلَيْهِ زادَهُم وأنفسهُم، يتعاورُونَ لِحافًا واحدًا، قليلُونَ مستضعفُونَ فِي الأرضِ، فآوانَا وأيَّدنا بنصرِه، فأصبحْنَا والله بنعمتِه إخوانًا، ثمَّ لقينَا رجالَكُم بقديد، فدعونَاهُم إِلَى طاعةِ الرحمنِ وحُكمِ القرآنِ، ودعَونا إِلَى طاعةِ الشيطانِ وحكمِ آل مروانَ، فشتَّانَ - لعَمر الله - مَا بين الغَي والرَّشادِ، والهدَى والضَّلالِ.

ثمَّ أقبلُوا يُهرعُونَ يزفُّونَ، قد ضربَ الشَّيطان فِيهِم بجِرانِه، وصدّقَ عَلَيْهِم ظنَّه، وأقبلَ أنصارُ الله عصائبَ وكتائبَ، بكلِّ مهندٍ ذي رونق، فدَارت رَحَانَا واستدارتْ رَحاهُم، بضربٍ يرتابُ مِنْهُ المبطلُونَ.

وأنتُم يا أهلَ المدينةِ، إن تنصرُوا مروَان وآل مروانَ يسحتكُم اللهُ بعذابٍ من عنده أو بأيدينَا، ويشفِ صدُورَ قومٍ مؤمنِينَ.

يا أهلَ المدينةِ، أولكُم خيرُ أول، وآخركُم شرُّ آخر.

يا أهلَ المدينةِ، النَّاس منَّا ونحنُ مِنْهُم، لا مشركَ كافر زعمَ أنَّ الله كلّف نفسًا فوقَ طاقتِهَا، أو سألَهَا مَا لم يؤتِها، فَهُوَ لله عدوٌّ، ولنا حَربٌ.

يا أهلَ المدينةِ، أخبرونِي عن ثمانية أسهمٍ فرضَهَا اللهُ فِي كتابِه عَلَى القوي والضَّعيف، فجاءَ تاسعٌ لَيْسَ لَهُ مِنْهَا ولا سهمٌ واحدٌ، فأخذَهَا لنفسِهِ، مكابرًا محاربًا لربِّه؟

يا أهلَ المدينةِ، بلغنِي أنَّكُم تنتقصُونَ أصحَابِي، قلتُم: شباب أحدَاث، وأعرابٌ جُفَاة، وَيْحكُمْ يا أهلَ المدينةِ !

وهلَ كانَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ إلَّا شبابًا أحداثًا! شبابٌ والله مكتهلُونَ فِي شبابِهم، غضيضةٌ عن الشَّرِّ أعينُهم، ثقيلة عَنِ الباطلِ أقدامُهم، قد باعُوا اللهَ أَنفسًا تموتُ بأنفسٍ لا تموتُ، قد خالطُوا كلالهُم بكلالِهم، وقيام ليلهم بصِيام نهارهم، منحنيةٌ أصلَابُهم عَلَى أجزاء القرآن، كلَّما مرُّوا بآيةِ خوفٍ شهقُوا خوفًا من النَّارِ، وإذا مرُّوا بآيةِ شوقٍ شهقُوا شوقًا إلَى الجنَّةِ، فَلَمَّا نظرُوا إلَى السُّيوفِ قد انتُضيتْ، والرمّاح قد أُشرِعت، وإلى السِّهامِ قد فُوّقتْ، وأرعدت صواعقَهَا بالموتِ وأبرقت، استخفُّوا وعيدَ الكتيبةِ لوعيد الله، ولم يستخفُّوا وعيدَ الله لوعيدِ الكتيبةِ، فطُوبَى لَهُم وحسنُ مآبٍ!

فكَمْ من عينٍ فِي منقارِ طائرٍ طالَمَا فاضتْ فِي جوفِ اللَّيلِ منْ خَوفِ الله !

وَكَمْ مِن يدٍ زالتْ من مفصلِهَا طَالَمَا اعتمد بِهَا صاحبُهَا فِي طاعةِ الله !

أقولُ قولِي هَذَا وأستغفرُ اللهَ من تقصيرِنَا، وَمَا تَوْفِيقنا إلا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أنيبُ[١].

قالَ ابنُ جريرِ الطبريُّ: حدَّثني العبَّاسُ، قالَ: قَالَ هارُون: حدَّثني جدِّي أبُو علقمةَ، قالَ: سمعتُ أبا حمزةَ عَلَى مِنبرِ رسولِ الله ﷺ، يقول: مَن زنَى فَهُوَ كافرٌ، ومن سرقَ فَهُوَ كافرٌ، ومن شكَّ أنَّهُ كافرٌ فَهُوَ كافرٌ !

قَالَ العباس: قَالَ هارونُ: وسمعتُ جدِّي يقولُ: كانَ قد أحسنَ أبُو حمزةَ الخَارِجِي السيرةَ فِي أهلِ المدينةِ حتَّى استمالَ الناسَ حتَّى سمعُوا كلامَه فِي قولِه: من زنَى فَهُوَ كافرٌ.

قَالَ هارُون: أَخْبَرَنِي بعضُ أصحَابنَا: إنَّهُ لَمَّا رقى المنبرَ قالَ: برحَ الخفَاء، أينَ مَا بك يذهبُ! من زنَى فَهُوَ كافرٌ، ومن سرقَ فَهُوَ كافرٌ.

قَالَ العباس: قَالَ هارُون: وأنشدنِي بعضهُم فِي قديد:

مَا لقديـــد وماليــهْ   أفنتْ قديدُ رجَاليهْ
فلأبكــينَّ ســريــرةً   ولأبكــينَّ علَانيــهْ
ولأبكينَّ إذا شجيت   معَ الكلَابِ العَاويهْ[٢]

---

(١) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٩٥ـ ٣٩٧).

(٢) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٩٧).

فَصْلٌ

(١)
....

فكانَ دخُولُ أبي حمزةَ وأصحابِه المدينةَ لثلاث عشرةَ بقيتْ من صفرٍ.

واختلفُوا فِي مدَّة مقامِ الخَوارجِ بالمدينةِ، فقالَ الواقديُّ: أقامُوا بِهَا بقيةَ صفرٍ وشهري ربيع وطائفة من جمادَى الأَوَّلِ.

وكانتْ عدَّةُ مَن قُتلَ من أهلِ المدينةِ بقديد- فِيمَا ذكرَ الواقديُّ- سبعمائةٍ.

وكانَ أَبُو حمزةَ- فِيمَا ذكرَ- قد قدَّمَ طائفة من أصحابه، عَلَيْهِم أَبُو بكر بْنُ محمَّد بْن عبدِ الله بْنِ عمرَ القرشِي، ثمَّ أحد بنِي عدي بْنِ كعبٍ، وبلخ بْن [عيينةَ بْن الهيصم الأسدِي من أهلِ البصرةِ، فبعثَ مروانُ بْنُ محمدٍ مِن الشَّام عبدَ المَلكِ بْنَ محمَّدِ بْن][٢] عطيةَ أحد بني سعدٍ فِي خُيولِ الشَّام[٣].

وذكرَ ابنُ جريرٍ عَنِ العبَّاسِ بْنِ عيسَى، قالَ: حدَّثني هارونُ بْنُ موسَى، عن موسَى بْنِ كثيرٍ، قالَ: خرجَ أَبُو حمزةَ من المدينةِ، وخلَّفَ بعضَ أصحابِه، فسَارَ حتَّى نزلَ الوادِي.

قَالَ العبَّاسُ: قَالَ هارُونُ: حدَّثني بعضُ أصحابِنَا فِيمَا أَخْبَرَنِي أَبُو يَحْيَى الزهريُّ، أن مروانَ انتخبَ من عسكرِه أربعة آلافٍ، واستعملَ عَلَيْهِم ابنَ عطيةَ، وأمرَه بالجدِّ فِي المسيرِ، وأعطَى كلَّ رجلٍ مِنْهُم مائة دينارٍ، وفرسًا عربيًّا وبغلًا لنقلِه، وأمرَهُ أن يمضِيَ فيقاتلَهُم، فإن هُو ظفرَ مضَى حتَّى يبلغَ اليمنَ، ويقاتل عبد الله بْن يَحْيَى ومن تبعَهُ.

---

(١) كلمات غير واضحة.

(٢) غير موجود بالأصل المخطوط، واستدركته من «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٩٨) والسياق يقتضيه.

(٣) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٩٨).

فخرجَ حتَّى نزل بالعلا- فكانَ رجلٌ منْ أهلِ المدينةِ يقَالُ له: العَلاء بْنُ أفلح مولَى أبِي الغيثِ، يقولُ: لقيِني وأنا غلامٌ ذَلِكَ اليوم رجلٌ من أصحابِ ابنِ عطيةَ، فسألنِي: مَا اسمُكَ يا غُلَامُ؟

قَالَ: فقُلتُ: العلَاء

قَالَ: ابن مَنْ؟

قلت: ابنُ أفلَح

قَالَ: مَولَى منْ؟

قلتُ: مولَى أبِي الغيثِ

قَالَ: فأينَ نحنُ؟

قلت بالعُلا.

قَالَ: فأينَ نحنُ غدًا؟

قلتُ: بغالبِ

قَالَ: فَما كلمنِي حتَّى أردفنِي وراءَهُ، ثمَّ مضَى حتَّى إذا أدخلنِي عَلَى ابنِ عطيةَ، فقال: سلْ هَذَا الغلامَ: مَا اسمُه؟

قال: فسألنِي، فرددتُ عَلَيْهِ القول الَّذِي قُلتُ.

قال: فسُرَّ بذلكَ، ووهبَ لِي دَارَهم[(١)].

قال ابنُ جريرٍ: قَالَ العبَّاسُ: قَالَ هَارُون: وأَخْبَرَنِي عبدُ الملكِ بْنُ الماجشُون، قالَ: لَمَّا لقيَ أبُو حمزةَ وابنُ عطيةَ، قَالَ أبُو حمزة: لا تقاتلُوهُم حتَّى تختبرُوهُم.

قَالَ: فصَاحُوا بهم: مَا تقولُونَ فِي القرآنِ والعملِ به؟

قَالَ: فصاحَ ابنُ عطيةَ: نضعه فِي جوفِ الجوالقِ.

---

(١) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٩٨ـ ٣٩٩).

قَالَ: فما تقولُونَ فِي مالِ اليتيمِ؟

قَالَ: نأكلُ مالَهُ ونفجرُ بأمِّه.. فِي أشياء بلغنِي أَنَّهُم سألُوهُم عَنْهَا.

قَالَ: فَلَمَّا سمعُوا كلامَهُم، قاتلُوهُم حتَّى أمسوا، وصاحُوا: وَيْحَكَ يَا ابنَ عطيةَ ! إن اللهَّ قد جعلَ الليلَ سكنًا، فاسكنْ نسكنْ، فأبَى، فقاتلَهُم حتَّى قتلَهُم.

قَالَ العبَّاسُ: قَالَ هارونُ: وكان أَبُو حمزةَ حينَ خرجَ ودَّع أهلَ المدينة للخرُوجِ إِلَى مروانَ يقاتلُه، قالَ: يا أهلَ المدينةِ، إنا خارجُونَ إِلَى مروانَ، فإنْ نظفرَ نعدِل فِي أحكَامِكُم، ونحملكُم عَلَى سُنَّةِ نبيِّكُم، ونَقسمُ بينكُم فيئَكُم، وإن يكُنْ مَا تمنّونَ، فـ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾

قَالَ العبَّاسُ: قَالَ هَارونُ: وأَخْبَرَنِي بعضُ أصحابِنَا أنَّ الناسَ وثبُوا عَلَى أصحابِ أبِي حمزةَ حينَ جَاءَهُم قتلُهُ فَقَتَلُوهُم.

وقَالَ مُحمدُ بْن عُمرَ: سَارَ أَبُو حمزةَ وأصحابُه إِلَى مروانَ، فلقيهُم خيلُ مَروان بوادِي القرَى، عَلَيْهَا ابنُ عطيةَ السَّعدي، من قيسٍ، فأوقعُوا بِهم، فرجعُوا منهزمِينَ مِنْهُم إِلَى المَدينةِ، فلقيهُم أهلُ المدينةِ فَقَتَلُوهُم.

قَالَ: وكان الَّذِي قادَ جيشَ مروانَ: عبدُ الملكِ بْنُ محمدِ بْنِ عطيةَ السَّعدِي، سعد هوازنَ، قَدمَ المدينةَ فِي أربعة آلاف فارسٍ عربي، معَ كلِّ واحدٍ مِنْهُم بَغل، ومنهُم من عَلَيْهِ دِرعان أو درع وسنُور وتجافيف، وعِدَّة لم يُرَ مثلُهَا فِي ذَلِكَ الزَّمانِ، فمضوا إِلَى مكَّة[1].

(١) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٩٩).

فَصْلٌ

(١) ....

الخَوَارج أَبِي حمزَةَ وأصحَابهِ إِلَى مكَّة واليمنِ، وذكرِ قتلِ الشُراةِ من الخَوارجِ لَهُ فِي خرُوجِه منَ اليمنِ إِلَى مكَّة ليقيم الحجَ بالناس:

قال ابنُ جريرٍ إمامُ المفسرينَ: وقالَ بعضُهم: أقامَ ابنَ عطيةَ بالمَدينةِ حينَ دخلهَا شهرًا، ثمَّ مضَى إِلَى مكَّةَ، واسْتَخْلَفَ عَلَى المدينةِ عروةَ بنَ الوليدِ بنِ عمرَ بْن عطيةَ.

ثمَّ مضَى إِلَى مكَّةَ وإِلى اليمنِ، واسْتَخْلَفَ عَلَى مكَّة ابنَ ماعزٍ، رجلًا من أهلِ الشَّام.

ولَمَّا مضَى ابنُ عطيةَ إِلَى اليمنِ بلغَ عبدُ الله بْن يحيَى - وهُو بصنعَاء - مسيرَهُ إليهِ، فأقبلَ إِلَيْهِ بمن معَهُ، فالتقَى هُو وابنُ عطيةَ، فقَتلَ ابن عطية عبدَالله بْن يحيى، وبعَثَ ابنه بشير إِلَى مروانَ، ومضَى ابنُ عطيةَ فدخلَ صنعاءَ وبعَثَ برأسِ عبدِ الله بْن يَحْيَى إِلَى مرَوَانَ.

ثمَّ كتبَ مروانُ إِلَى ابنِ عطيةَ يأمرُه أن يجدَّ السيرَ، ويحجَّ بالناسِ، فخرجَ فِي نفرٍ من أصحابِه - فِيمَا حدَّثني العباسُ بْنُ عيسَى، عن هَارُونَ - حتَّى نزلَ الجرفَ - هكذا قَالَ العبَّاسَ - ففطنَ لَهُ بعضُ أهلِ القريةِ، فقَالُوا: منهزِمِينَ واللهِ، فشدُّوا عَلَيْهِ، فقال: وَيْحَكُمْ ! عاملُ الحجِّ، كتبَ إِليَّ أميرُ المؤمنينَ.

وأمَّا مُحمدُ بنُ عمرَ، فإِنَّهُ ذكرَ أنَّ أبا الزُّبيرَ بْنَ عبدِ الرحمنِ حدَّثَهُ، قالَ: خرجتُ معَ ابنِ عطيةَ السَّعدِي، ونحنُ اثنا عشرَ رجلًا، بعهدِ مروانَ عَلَى الحجِّ، ومعه أربعُون ألف دينارٍ فِي خرجِه، حتَّى نزل الجرفَ يريدُ الحجَّ، وقد خلفَ عسكرَه وخيلَه وراءَهُ بصنعاءَ، فو الله إنا آمنون مطمئنُونَ، إذ سمعتُ كلمَةً من امرأةٍ تقولُ: قاتلَ اللهُ ابنيْ جمَانة مَا أشأمهمَا!

فقمتُ كأنِّي أهريقُ المَاء، وأشرفتُ عَلَى نَشزٍ، فإذَا الدُهم من الرجَالِ والسلاحِ والخيلِ

---

(١) كلمات غير واضحة.

والقذافاتِ، فإذا ابنَا جمانة المراديان واقفانِ علينَا، قد أحدقُوا بنَا من كلِّ ناحيةٍ يرمُونَ، فقلْنَا: مَا تريدُونَ؟

قَالُوا: أنتُم لصوصٌ.

فأخرج ابنُ عطيةَ كتابَهُ، وقالَ: هَذَا كتابُ أميرِ المؤمنينَ وعهدِه عليَّ الحجَّ وأنا ابنُ عطيةَ.

قَالُوا: هَذَا باطلٌ، ولكنَّكُم لصوصٌ، فرأينَا الشَّرَّ فركبَ الصقرُ بْنُ حبيبٍ فرسَهُ، فقاتلَ وأحسنَ حتَّى قُتلَ.

ثم ركبَ ابنُ عطيةَ فقاتلَ حتَّى قُتلَ.

ثمَّ قَتلَ من معنَا وبقيتُ، فقيلَ: مَن أنتَ؟

فقلتُ: رجلٌ منْ همْدَان.

قَالُوا: منْ أي همْدَانَ أنتَ؟

فاعتزيتُ إلَى بطنٍ منهُم- وكنتُ عالمًا ببطُون همْدان- فتركُونِي، وقَالُوا: أنتَ آمنٌ، وكُلُ مَا كَانَ لكَ فِي هَذَا الرَّحلِ فخذْهُ، فلَوِ ادعيتُ المَالَ كلَّهُ لأعطُونِي، ثمَّ بعثُوا معِي فرسَانًا حتَّى بلغُوا بِي صعدة، وأَمِنت ومضيتُ حتَّى قدمتُ مكَّةَ[1].

---

(١) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٣٩٩-٤٠٠).

فَصْلٌ

فِي مجيءِ أبي حمزةَ الخَارِجي الموسمَ فِي سنة تسع وعشرين ومائة من قِبل عبدِ الله بنِ يَحْيى طالب الحقِّ، مُحكِّمًا مظهرًا للخلافِ عَلَى مروانَ بْنِ محمَّدٍ، كَمَا قد ذكرْنَا ذَلِكَ:

قالَ العبَّاسُ بْنُ عيسَى العقيليُّ - فِيمَا حدَّث بِهِ ابنُ جريرٍ عَنْهُ -: حدَّثنا هارونُ بْنُ موسَى الفروي حدَّثنِي موسَى بْنُ كثيرٍ مولَى الساعديين، قالَ: لما كَانَ تمامُ سنة تسعٍ وعشرينَ ومائة، لم يدرِ النَّاسُ إلَّا وقدْ طلعتْ أعلامُ عمائمَ سودٍ فِي رؤُوسِ الرِّماحِ وهُم فِي سبعمائةٍ، ففزعَ الناسُ حينَ رأوهُم، وقالُوا لهُم: مَا لكُم! وما حالُكُم؟ فأخبرُوهُم بخلَافِهِم مروان وآل مروانَ والتبرؤ منهُ.

فراسلَهُم عبدُ الواحدِ بْنُ سليمانَ- وهُو يومئذٍ عَلَى المَدينةِ ومكَّةَ - فراسلَهُم عبدُ الواحدِ بْنُ سليمانَ وهُو فِي الهدنةِ، فقَالُوا: نحنُ بحجِّنا أضنُّ، ونحنُ عَلَيْهِ أشحُّ.

فصالحَهُم عَلَى أنَّهم جميعًا آمنُون، بعضُهُم من بعضٍ، حتَّى ينفرَ النَّاس النَّفر الأخيرَ، ويصبحُوا من الغدِ فوقفُوا عَلَى حدةٍ بعرفةَ، ودفعَ بالنَّاسِ عبد الواحد بن سليمان بن عبدِ الملكِ بن مروانَ، فَلَمَّا كانُوا بمنًى ندّموا عبدَ الواحدِ، وقالُوا لَهُ: قد أخطأتَ فيهم، ولو حملتَ الحاجَّ عَلَيْهِم مَا كانُوا إلا أكلةَ رأسٍ.

فنزلَ أبُو حمزةَ بقرنِ الثَّعالبِ، ونزلَ عبدُ الواحدِ منزلَ السلطانِ، فبعثَ عبدُ الواحدِ إِلَى أبي حمزةَ عبدَ الله بْنَ حسنٍ، ومحمدَ بْنَ عَبْدِ اللهِّ بْنِ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ بن عفَّان، وعبدَ الرحمنِ بْنَ القاسمِ بْنِ محمَّدِ بْن أبي بكرٍ، وعبيدَ الله بْنَ عمرَ بْنِ حفصِ بْن عاصمٍ، وربيعةَ بْنِ أبي عبدِ الرحمنِ، فِي رجالٍ أمثالِهِم، فَلَمَّا دَنَوْا من قرنِ الثَّعالبِ لقيتهُم مسالح أبي حمزةَ فأخذتُهُم؛ فدُخلَ بِهِمْ عَلَى أبي حمزةَ، فوجدُوه وعليهِ إزارٌ قَطريٌ غليظٌ قد ربطَهُ بالجوزةِ فِي قفَاهُ، فلَمّا دنَوْا تقدمهم إِلَيْهِ عبدُ الله بْنُ حسنٍ ومحمدُ بْنُ عبد الله بنِ عمرَ فنسبهمَا، فلَمَّا انتسَبا، عبسَ فِي وجوهِهمَا وبسرَ، وأظهرَ الكراهةَ لهُمَا.

ثمَّ دنَى إِلَيْهِ بعدَهُمَا عبدُ الرحمنِ بْنُ القاسمِ وعبيدُ الله بْنُ عمرَ فنسبهُما، فلَمَّا انتسبَا إِلَيْهِ

هشَّ إليهمَا، وتبسَّم فِي وجوهِهما، وقالَ: والله مَا خرجْنَا إلا لنسيرَ بسيرةِ أبويكُمَا.

فقال لَهُ عبدُ الله بْنُ حسنٍ: والله مَا جئْنَا لتفاضلَ بينَ آبائِنَا، ولكنَّا بعثَنا إليك الأمير برسالةٍ- وهَذا ربيعةُ يخبرُكَهَا-.

فلمَّا ذكرَ ربيعةُ نقضَ العهد.

قَالَ بلخ وأبرهةُ- وكانَا قائدينِ لَهُ: السَّاعة السَّاعة! فأقبلَ عَلَيْهم أبُو حمزةَ، فقالَ: معاذَ الله أن ننقضَ العهدَ أو نخيسَ به، والله لا أفعلُ ولو قطعت رقبتِي هذِهِ، ولكن تنقضِي الهدنة بيننَا وبينكُم، فَلَمَّا أبى عَلَيْهِم خرجُوا، فأبلغُوا عبدَ الواحدِ.

فلمَّا كانَ النَّفرُ الأوَّل نفرَ عبدُ الواحدِ فِي النَّفرِ الأولِ، وخلَّى مكَّةَ لأبِي حمزةَ، بغيرِ قتالٍ.

قَالَ العبَّاسُ: قَالَ هارونُ: فأنشدنِي يعقوبُ بْن طلحةَ اللَّيثي أبياتًا هجى بِهَا عبد الواحد- قالَ: لبعضِ الشُّعراءِ لم أحفظْ اسمَهُ -:

زَارَ الْحَجِيجَ عِصَابَةٌ قَدْ خَالَفُوا ... دِينَ الْإِلَهِ فَفَرَّ عَبْدُ الْوَاحِدِ
تَرَكَ الحَلَائِلَ والْإِمَارَةَ هَارِبًا ... وَمَضَى يُخَبِّطُ كَالْبَعِيرِ الشَّارِدِ
لو كان والده تنصّل عرقه ... لصفت خلائقه بعرق الوالدِ

ثمَّ مضى عبدُ الواحدِ إِلَى المدينةِ حتَّى دخلهَا، فَدَعَا بالديوانِ، فضَربَ عَلَى الناسِ البَعثَ، وزادَهُم فِي العطَاء عشرةً عشرةً.

قَالَ العبَّاسُ: قَالَ هارونُ: وحدَّثني غيرُ واحدٍ من أصحابِنَا أن عبدَ الواحدِ استعملَ عبدَ العزيزِ بْنَ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ عَلَى النَّاسِ، فخرجُوا، فَلَمَّا كانُوا بالحَرَّة لقيتهُم جُزُرٌ منحُورة فمضَوْا[1]، فذكرَ قصتَهُم كَمَا تقدَّمَ مُسْتَقْصَاةً.

(١) «تاريخ الطبريِّ» (٧/ ٤٧٥ـ٤٧٦).

فَصْلٌ

قَدْ ذَكَرَ ابنُ خلدُونَ خبرَ أَبِي حمزةَ وطالب الحقِّ، فقالَ: كانَ عبدُ الله بنُ يَحْيى من كِنْدَه، وكانَ من الخوارجِ ويُلقَّبُ طالبَ الحقِّ، فثار فِي حضرموتَ، وملكهَا بعدَ أنْ كانتْ رؤُساءُ الخَوارجِ بالبصرَةِ، فأذنُوا لَهُ.

وكانَ اسمُ أبِي حمزةَ الخَارِجِي المختار بن عوفٍ الأزدِي البصرِي، وكانَ من الخوارجِ الإباضيةِ، وكان يوافِي مكَّةَ كلَّ موسم يدعُو إِلَى خلافِ مروانَ، وَجَاءَ طالبَ الحقِّ سنة ثمان وعشرِينَ وهُو من حضرموتَ فقالَ لَهُ: انطلقْ معِي فإنِّي مطاعٌ فِي قومِي.

فانطلَقَ معَهُ إِلَى حضرموتَ وبايعَهُ عَلَى الخلافة، وبعثَهُ عبدُ الله سنة تسعٍ وعشرينَ إلَى مكَّة معهُ بلخ بن عقبة الأزدِي فِي سبعمائةٍ.

فقدمُوا مكَّة وحكَّمُوا بالموقفِ، وعاملُ مكَّة والمدينةِ يومئذٍ عبدُ الواحدِ بنُ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ، فطلبَهُم فِي الموادعةِ حتَّى ينقضِي الموسمُ.

وأقامَ للناسِ حجَّهُم ونزلَ بمنًى، وبعثَ إِلَى أبي حمزةَ عبدَ الله بنَ حسنٍ بنِ الحسنِ، ومحمدَ بنَ عبدِ الله بنِ عمرَ بن عثمانَ، وعبدَ الرحمنِ بنَ القَاسِمِ بنِ محمدٍ، وعبدَ الله بنَ عمرَ بنِ حفصٍ بن عاصمِ بن عمرَ، وربيعةَ بنَ أبِي عبدِ الرحمنِ فِي أمثالِهم، فكشَّرَ فِي وجْهِ العلويِّ والعُثْمانِيِّ، وانْبَسطَ إِلَى البكريِّ والعمريِّ، وقال لهُمَا: مَا خرجْنَا إلا بسيرةِ أبَوَيْكُمَا!

فقالَ لَهُ عبدُ الله بنُ حسنٍ: مَا جِئْنَاكَ لتُفضِّلَ بينَ آبائِنا، وإنَّمَا جِئْنَاك برسالةٍ منَ الأميرِ، وربيعةُ يُخبِرُكَ بِهَا.

ثم أحكمُوا معهُ الموادعةَ إِلَى مدَّتِهَا.

ونفرَ عبدُ الواحدِ فِي النفرِ الأوَّلِ فمضَى إِلَى المدينةِ، وضربَ عَلَى أهلِهَا البَعثَ، وزادَهُم فِي العَطاءِ عشرةً، وبعثَ عَلَيْهِم عبدَ العزيزِ بنَ عبدِ الله بنِ عمرَ بنِ عثمانَ ﷺ، فانتهوا إِلَى قديد.

وجاءَتهُم رسلُ أبِي حمزةَ يسألُونَهُم التجَافِي عَن حَربِهِم، وأن يخلُّوا بينَهُم وبينَ عدوِّهِم؛ فأبَوْا، فَلَمّا نزلُوا قديدَ، وكانُوا مترفينَ، وليسُوا بأصحابِ حربٍ، فطلعَ عَلَيْهِم أصحابُ أبِي حمزةَ من الغياضِ، فأثخنُوا فيهِم، وكانَ قتلَاهُم نحو سبعمائةٍ من قريشٍ.

وبلغَ الخبرَ إلَى عبدِ الواحدِ فلحقَ بالشَّام، ودخلَ أبُو حمزةَ المدينةَ منتصف صفر سنة ثلاثين ومائة، وخطبَ عَلَى المنبرِ[1].

فَقَالَ بَعْضُ الشُّعراءِ يهجو عَبْدَ الْوَاحِدِ، لما خرجَ منْ مكَّة:

زَارَ الْحَجِيجَ عِصَابَةٌ قَدْ خَالَفُوا ... دِينَ الْإِلَـهِ فَفَرَّ عَبْدُ الْوَاحِدِ
تَرَكَ الْإِمَارَةَ والْمَوَاسِمَ هَارِبًا ... وَمَضَى يُخَبِّطُ كَالْبَعِيرِ الشَّارِدِ
فَلَوْ أَنَّ وَالِدَهُ تَخَيَّرَ أمَّهُ ... لصفت خَلَائقُه بعِرقِ الوَالِدِ

وقَدْ مَضَتْ قصَّتهُ بأبسطَ مِنْ هَذَا.

ولما دخلَ أبُو حمزةَ المَدينةَ خطبَ عَلَى المنبرِ، وأعلنَ بدعوتِه ووعظَ، وذكَّرَ وردَّ مقالاتِ من مقالاتِ دعاتِهم وسفَّه رأيهُم، وأحسنَ السيرةَ معَ أهلِ المدينةِ، واستمالَهُم حتَّى سمعُوهُ يقولُ: من زنَى فَهُوَ كافرٌ، ومن سرقَ فَهُوَ كافرٌ، ومن شكَّ فِي كفرِه، فَهُوَ كافرٌ، وأقامَ ثلاثةَ أشهرٍ، ثمَّ ودَّعَهُم وسَارَ نحوَ الشَّام.

وكانَ مروانُ قد سرَّحَ إِلَيْهِم عبدَ الملكِ بنَ محمَّدِ بنِ عطيَّةَ منْ سعدِ هوازن فِي أربعةِ آلافِ فارسٍ، وأعطَى كلَّ رجلٍ مِنْهُم مائة دينارٍ، وفرسًا عربيًّا وبغلًا لنقلِه؛ ليقاتلَ الخوارجَ حتَّى يبلغَ اليمنَ، فلقِيَ أبا حمزةَ فِي وادِي القرَى، فانهزمتِ الخوارجُ، وقُتِلَ أبُو حمزةَ ولحقَ فَلُّهُم بالمَدِينَةِ.

وسَارَ ابنُ عطيةَ فِي أثرهِم إلَى مكَّةَ فأقامَ بِهَا شهرًا، ثمَّ سَارَ إِلَى اليمنِ واسْتَخْلَفَ عَلَى

---

(١) «تاريخ ابن خلدون» (٣/ ٢١٠).

المدينةِ الوليدَ ابنَ أخيهِ عروةَ، وعلى مكّةَ رجلًا من أهلِ الشَّام.

وبلغَ عبدُ الله طالب الحقِّ مسيرَه إِلَيْهِ وهُو بصنعاءَ فخرجَ للقَائه، واقتتلُوا، وقُتلَ طالب الحقِّ، وسَارَ ابنُ عطيَّةَ إلى صنعَاء فملكَهَا وإلى حضرموتَ.

وجاءَ كتابُ مروانَ بإقامَةِ الحجِّ بالناسِ، فسَارَ فِي اثني عشرَ رجلًا ومعَهُ أربعُونَ ألف دينارٍ، وخلَّفَ ثَقلَهُ بصنعاءَ، ونزلَ الجرفَ؛ فاعترضَه ابنُ جُمانة المرادِي فِي جمعٍ، وقال لَهُ ولأصحابِه: أنتُم لصوصٌ فاستظهرُوا بعهدِ مروانَ فكذَّبُوهُ، وقاتلَهُم فَقَتَلُوهُ، ولم يُفلتْ مِنْهُم إلَّا رجلًا واحدًا.

وأخذُوا مَا معَهُم منَ المَالِ، وسكنتْ ريحُ الخَوارجِ منْ يومئذٍ إِلَى أن ظهرتِ الدَّولةُ العبَّاسيةِ، وبويعَ المنصُورُ بعدَ السفَّاحِ[1].

(١) «تاريخ الطبري» (٣/ ٤٧٦).

فَصْلٌ

في ذِكْرِ قَتْلِ مُلَبَّدٍ الخَارِجِي، فِي خلافةِ المنصُورِ

فخرجَ سنةَ سبعٍ وثلاثينَ بالجزيرةِ ملبَّد بنُ حرملةَ الشيبانيُّ فسَارتْ إِلَيْهِ روابطُ الجزيرةِ فِي ألفِ فارسٍ فَهَزَمَهُم ونَالَ منهُم.

ثمَّ سَارَ إِلَيْهِ يزيد بن حاتم المهلّبيّ ثمَّ مهلّل بنُ صفوان مَولى المنصُور، ثمَّ نزار من قوَّادِ خراسَان، ثمَّ زيادُ بن مسكان، ثمَّ صالحُ بنُ صبيحٍ، فَهَزَمَهُم كلُّهُم واحدًا بعدَ واحِدٍ، وقتلَ منهُم.

ثمَّ سَارَ إِلَيْهِ حميدُ بنُ قحطبةَ، وهُو عاملُ الجزيرةِ فهزمَهُ، وتحصَّن حميدُ مِنْهُ، فبعثَ المنصورُ عبدَ العزيزِ بنَ عبدِ الرحمنِ أخَا عبدَ الجبَّارِ فِي الجيوشِ، ومعَه زيادُ بنُ مسكان، فأكمَنَ لَهُ الملبَّد، وقاتلَهُم.

ثمَّ خرجَ الكمينُ فانهزمَ عبدُ العزيزِ، وقُتل عامَّة أصحابِه، فبعثَ المنصورُ خازمَ بنَ خزيمةَ فِي ثمانية آلافٍ منْ أهلِ خُراسانَ، فسَارَ إِلَى الموصلِ، وعبر إِلَيْهِ الملبَّد دجلةَ فقاتلَهُ، فانهزمَ أهلُ الميمنةِ، وأهلُ الميسرةِ من أصحابِ خازم، وترجَّل خازمٌ وأصحابُه، وترجَّل ملبَّد كذلكَ، وأصحَابه، فنضحُوهُم بالنّبلِ، واشتدَّ القتالُ، وتراجعتِ الميمنةُ والميسرةُ ورشقُوهُم، فقُتلَ ملبَّد فِي ثمانمائةٍ ممَّن ترجَّل معهُ، وثلاثمائةٍ قبلَ أن يترجَّلَ.

وتبعهُم فضالةُ صاحبُ الميمنةِ فقتلَ مِنْهُم زهَاء مائة وَخَمْسِينَ[1].

---

(١) «تاريخ ابن خلدون» (٣/ ٢١١).

فَصْلٌ

فِي مقتلِ حسَّانَ بنِ مجالد:

ثمَّ خرجَ سنة ثمانٍ وأربعِينَ أيَّام المنصُورِ بنواحِي الموصل حسَّان بن مجالدِ بن مالكِ بن الأجدعِ الهمدانِيّ أخُو مسرُوق.

وكانَ عَلَى الموصلِ الصقرُ بنُ نجدةَ وليها بعدَ حربِ بنِ عبدِ الله، فسَارَ إِلَيْهِم فهزمُوه إِلَى الجسر.

وسَارَ حسَّانُ إِلَى الرقّة، ثمَّ إِلَى البحرِ، وركبَ إِلَى السندِ، وكاتبَ الخوارجَ بعُمانَ يدعُوهُم ويستأذنُهُم فِي اللحَاقِ بِهِمْ، فأَبَوْا، وعادَ إِلَى الموصلِ، فخرجَ إِلَيْهِ الصّقرُ والحسنُ بن صالحِ بن جنادةَ الهمدانِي وهلال، فقتَلَ هلالًا، واستبقَى ابن الحسنِ، فاتَّهمَهُ بعضُ أصحَابِهِ بالعصبيّةِ وفارقُوهُ.

وقدْ كانَ حسَّانُ أخذ دينَ الخارجيّة من خاله حفصِ بن أشيم من فقهائِهِم، ولَمَّا بلغَ المنصورَ خرُوجُهُ قالَ: خارجِي من همْدانَ ! فقيلَ لهُ: إِنَّهُ ابنُ أخت حفصِ بنِ أشيم.

قال: فَمِن هُنَاكَ !

وإِنَّما أنكرَ المنصُورُ ذَلِكَ لأنَّ عامَّةَ همْدان شيعةٌ.

وعزمَ المنصُورُ عَلَى الفتكِ بأهلِ الموصلِ، فإِنَّهُم عاهدُوه عَلَى أَنَّهُم إن خرجُوا فقد حلت ديارُهم وأموالهُم، وأحضرَ أبا حنيفةَ وابنَ أَبِي ليلَى وابن شبرمةَ، واستفتَاهُم، فتلطَّفُوا لَهُ فِي العَفْو، فأشارَ إِلَى أبي حنيفةَ؛ فقالَ: أباحُوا مَا لا يملكُونَ،كَمَا لَو أباحتِ امرأةٌ، فرجَهَا بغيرِ عقدٍ شرعيٍّ، فكفَّ عَنْ أهلِ الموصلِ[(١)].

(١) «تاريخ ابنِ خلدُون» (٣/ ٢١٢).

فَصْلٌ

فِي مقتلِ يوسفَ بنِ إبرَاهيمَ أيَّام المهدِي:

ثمَّ خرجَ أيَّام المهدِي بخُرَاسانَ: يوسفُ بنُ إبراهيمَ المعرُوف بالبرم، واجتمعَ إلَيْهِ بشرٌ كثير، فبعثَ إلَيْهِ المهدِي يزيدَ بنَ مزيدَ الشَّيبانِيّ ابن أخِي معن، فاقتتلُوا قتالًا شديدًا، وأسرهُ يزيدُ وبعَثَ بِهِ إلَى المهدِي مُوثقًا.

وحُمِلَ من النهرَوانِ عَلَى بعيرٍ، وحوَّلَ وجهَهُ إلَى ذنبِه، وأصحابُه كذلك، فدخلُوا الرّصافةَ، وقُطعُوا ثمَّ صُلِبُوا [1].

(١) «تاريخ ابنِ خلدُون» (٣/ ٢١٢).

فَصْلٌ

ثمَّ خرجَ آخر أيام المهدي بأرضِ الموصلِ خارجيٌّ من بني تميمٍ اسمُه يَاسِينُ يميلُ إلَى مقالةِ صالحِ بنِ مسرّحٍ، فهزمَ عسكر الموصلِ، وغلبَ عَلَى أكثرِ ديارِ ربيعةَ والجزيرةِ.

فبعثَ إليْهِ المهدِي: القائدَ أبَا هريرةَ محمدَ بنَ فروخ، وهُزيمةَ بنَ أعين مولَى بنِي ضبّةَ، فحاربَاهُ حتَّى قُتلَ فِي عدَّةٍ من أصحَابِهِ، وانهزَمَ البَاقُونَ[٢].

(١) «تاريخ ابنِ خلدُون» (٣/ ٢١٢).

فَصْلٌ

ثمَّ خرجَ أيَّام المهدِي بالجزيرةِ حمزةُ بنُ مالكٍ الخزاعِي سنةَ تسعٍ وستينَ، وهزمَ منصورَ بن زيادٍ وصَاحب الخَراجِ، وقوي أمرُه، ثمَّ اغتالَهُ بعضُ أصحَابِه فَقَتَلَهُ.

ثمَّ خرجَ بالجَزيرةِ أيَّام الرَّشيدِ سنةَ ثمانٍ وسبعِينَ: الوليدُ بنُ طريفٍ مِن بنِي تغلب، وقتلَ إبراهيمَ بنَ خالدِ بن خُزيمةَ بنُصيبين، ثمَّ دخلَ أرمينيةَ، وحاصرَ خلاطَ عشرِينَ يومًا وافتدوا بثلَاثِينَ ألفًا.

ثمَّ سَارَ إلَى أذربيجانَ، ثمَّ إلَى حلوانَ وأرضِ السوادِ، وعبرَ إلَى غربِ دجلةَ، وعاثَ فِي أرضِ الجزيرةِ، فبعثَ إِليْهِ الرَّشيدُ جيشًا كثيفًا نحو خمسينَ ألفًا مقدمه أبُو خالدٍ يزيدُ بنُ مزيدَ بنِ زائدةَ الشَّيبانِيُّ، وهُو ابنِ أخي معنِ بنِ زائدةَ، فجعلَ يزيدُ يُخايلُهُ ويماكرُهُ، وجعلَ الوليدُ يُراوغُه، ويزيدُ يتبعهُ، وكانَ الوليدُ ذَا مكرٍ ودهاءٍ، وكَانَتْ بَيْنَهُمَا حرُوبٌ صعبةٌ[1].

وكانتِ البرَامكةُ منحرفةً عنْ يزيدَ، فاغرُوا بهِ الرشيدَ، وقالُوا: إنَّهُ يراعيهِ لأجلِ الرّحِمِ، وهُو يواعدُه وينتظرُ مَا يكُونُ من أمرِه، وإلّا فشوكةُ الوليدِ أقلُّ من ذلكَ.

فوجَّه إِليْهِ الرَّشيدُ كِتابَ مُغضَبٍ وقالَ: «لَو وَجَّهْتُ أَحَدَ الخَدَمِ لَقامَ بِأَكْثَرِ مِمَّا تَقُوم بِهِ، وَلَكِنَّكَ مُداهِنٌ مُتَعَصِّبٌ، وَأمِيرُ المُؤْمِنِيْنَ يُقْسِمُ بِاللهِ لَئِنْ أَخَّرْتَ مُناجزَةَ الوَلِيْدِ لَيُوَجِهَنَّ إلَيْكَ مَنْ يَحْمِلُ رَأسَكَ».

فسَارَ إِليْهِ يزيد فِي طلبِ الوليدِ، ثمَّ نزلَ يصلِّي الصبحَ، فلم يتمَّ صلاتَهُ حتَّى طلعَ عَلَيْهم الوليدُ فِي عسكرِهِ، فاصطفتِ الخَيلانِ، وتزَاحمَ النَّاسُ، فَلَمَّا نشبتِ الحربُ نادَى يزيدُ: يا وليدُ مَا حاجتُكَ إلَى التسترِ بالرجَالِ، ابْرَزْ إلَيَّ، قَالَ: نعمْ واللهِ.

فبرزَ إِليْهِ يزيدُ، ووقفَ العسكرَانِ، فلَمْ يتحركْ مِنْهُمَا أحدٌ، فتطاردَا مدَّةً، فلمْ يقدرْ واحدٌ منهُمَا عَلَى صاحبِه حتَّى مضتْ ساعَاتٌ منَ النَّهارِ، فأمكنَ يزيدُ مِنْهُ الفُرصةَ، فضربَ

---

(١) «تاريخ ابنِ خلدُون» (٣/ ٢١٢).

رجلَهُ، فسقطَ، فصاحَ يزيدُ بخيلِه، فسعَوْا إليْهِ، واجتزَّ رأسَهُ، وَذَلِكَ فِي سنةٍ تسعٍ وسبعينَ ومائة عشيةَ خميسٍ فِي شهرِ رمضانَ، وَهِيَ واقعةٌ مشهُورَة تضمَّنتهَا التَّواريخُ.

فوجَّه يزيدُ برأسِ الوليدِ وبكتَابِ الفَتحِ إلَى الرَّشيدِ معَ ابنِه أسد بنِ يزيدَ.

وكانَ للوليدِ المذكُورِ أختٌ تسمَّى الفَارِعَة، وقيلَ: فاطِمَة.

فلمَّا علمَتْ بقتلِ أخِيهَا لبسَتْ لأمَة الحَربِ، وحملتْ عَلَى جيشِ يزيدَ، فقالَ يزيدُ: دَعُوهَا، ثمَّ خَرَجَ إليهَا فضَرَبَها عَلَى رأسِهَا بالرُّمحِ، وقالَ لهَا: اغربِي، فقَدْ فَضَحْتِ العَشِيرَةَ، فاستحيتْ وانصَرَفَتْ.

وكانتْ تُجيدُ الشعرَ، وتسلكُ بمرَاثِيهَا لأخِيهَا سبيلَ الخنساءِ فِي مرَاثِيهَا لأخِيهَا صخر، فرثتِ الفَارعةُ أخَاهَا الوليدَ بقصيدَةٍ أجَادَتْ فِيهَا، وَهِيَ قولهَا:

بِتَلِّ تبَاثَا رَسْمُ قَبْرٍ كَأَنَّهُ ... عَلَى عَلَمٍ فَوْقَ الجِبَالِ مُنِيفِ
تَضَمَّنَ جُودًا حَاتِمِيًّا وَنَائِلًا ... وَهِمَّةَ مِقْدَامٍ وَرَأْيِ حَصِيفِ
فَيَا شَجَرَ الخَابُوْرِ مَا لَكَ مُوْرِقاً؟ ... كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيْفِ!
فَتًى لاَ يُحِبُّ الزَّادَ إلاَّ مِنَ التُّقَى ... وَلاَ المَالَ إلاَّ مِنْ قَنًا وَسُيُوْفِ
وَلاَ الذُّخرَ إلاَّ كُلَّ جَرْدَاءَ صِلْدَمٍ ... مُعَاوِدَةٍ لِلْكَرِّ بَيْنَ صُفُوفِ
خَفِيفٌ عَلَى ظَهْرِ الجَوَادِ إذا عَدَا ... وَلَيْسَ عَلَى أعدائِهِ بِخَفِيفِ
كَأَنَّكَ لَمْ تَشْهَدْ هُنَاكَ وَلَمْ تَقُمْ ... مَقَامًا عَلَى الأَعْدَاءِ غَيرَ خَفِيفِ
وَلَمْ تَسْتَلِمْ يومًا لِوِردِ كَرِيهَةٍ ... مِنَ السَّرْدِ فِي خَضْرَاءَ ذَاتِ رَفِيفِ
ولَمْ تسعَ يَوْمَ الحَرْبِ وَالحرْبُ لاقِحٌ ... وسُمرُ القَنَا يَنْكُزْنَهَا بِأُنُوفِ
حَلِيْفُ النَّدَى مَا عَاشَ يَرْضَى بِهِ النَّدَى ... فَإنْ مَاتَ لَمْ يَرْضَ النَّدَى بِحَلِيْفِ
فَقَدْنَاكَ فِقْدَانَ الرَّبِيعِ وَلَيْتَنَا ... فَدَيْنَاكَ مِنْ دَهْمَائِنَا بِأُلُوفِ
وَمَا زَالَ حتَّى أزهقَ المَوْتُ نَفْسَهُ ... شَجًا لِعَدُوٍّ أو نَجًا لِضَعِيفِ
أَلاَ يَا لَقَوْمِي لِلْحِمَامِ وَلِلْبِلَى ... وَلِلأَرْضِ هَمَّتْ بَعْدَهُ برجيفِ
أَلاَ يَا لَقَوْمِي لِلنَّوَائِبِ وَالرَّدَى ... وَدَهْرٍ مُلِحٍّ بِالكِرَامِ عَنِيْفِ
وللبَدْرِ مِنْ بَينِ الكَوَاكِبِ إذ هَوَى ... وللشَّمْسِ لَمَّا أَزْمَعَتْ بِكُسُوفِ

وللَّيثِ كُلَّ اللَّيثِ إذْ يَحْمِلُونَهُ إلَى حُفْرَةٍ ملحُودَةٍ وسَقِيفِ
أَلَا قَاتَلَ اللهُ الحَشى كَيْفَ أَضْمَرَتْ فَتًى كَانَ بِالمَعْرُوفِ غَيْرَ عيوفِ
فَإِنْ يَكُ أَرْدَاهُ يَزِيدُ بنُ مَزْيَدٍ فَرُبَّ زُحُوفٍ لَفَّهَا بِزُحُوفِ
عَلَيْهِ سَلَامُ اللهِ وَقْفاً، فَإِنَّنِي أَرَى المَوْتَ وَقَّاعاً بِكُلِّ شَرِيْفِ

وَقَالَتْ أيضًا:

ذَكَرْتُ الوَلِيدَ وأَيَّامَهُ إذِ الأَرْضُ من شَخصِهِ بلقَعُ
فَأَقْبَلْتُ أَطْلُبُهُ فِي السَّمَاء كَمَا يَبْتَغِي أَنْفَهُ الأَجْدَعُ
أَضَاعكَ قَوْمُكَ فَلَيَطْلُبُوا إفَادَةَ مِثْلِ الَّذِي ضَيَّعُوا
لَو أنَّ السُّيوفَ الَّتِي حَدُّهَا يُصِيبُكَ تَعْلَمُ مَا تَصْنَعُ
نَبَتْ عَنْكَ لَو عَلمت هَيْبَةً وخَوْفاً لصَولِكَ لَا تقطَعُ

وَقَالَتْ أيضًا:

يَا بَنِي وَائِلٍ لَقَدْ فجعتكم مِنْ يَزِيدٍ سُيوفُهُ بالوَلِيدِ
لَو سُيوفٌ سِوَى سُيوفِ يَزِيدٍ قَاتَلتهُ لَاقَتْ خِلَافَ السّعُودِ
وائلٌ بَعْضُهَا يَقْتلُ بَعْضًا لَا يَفُلُّ الحَدِيدَ غَيْرُ الحَدِيدِ

وكانَ الوَليدُ يومَ المصَافِ يُنشدُ:

أَنَا الوَلِيدُ بنُ طَرِيفٍ الشَّارِي قسورَةٌ لَا يُصْطَلَى بِنَارِي
جَوْرُكُمُ أَخْرَجَنِي مِنْ دَارِي[(١)]

(١) «وفيات الأعيان» (٦/ ٣٢٨).

فَصْلٌ

ثمَّ إنَّ الوَلِيدَ هَذَا لَمَّا خرجَ عَلَى هارُونَ الرَّشيدِ ببلادِ الجزيرةِ، وَهِيَ فِيمَا بينَ الفراتِ وشطِّ الموصلِ، وكثُرَ جمعُ الوليدِ منَ الشُراةِ فِي تِلْكَ البلادِ، ونهضَ إِلَيْهِم عاملُ ديارِ ربيعةَ فَقَتَلُوهُ، صارُوا إِلَى ديارِ مُضرَ الَّتِي تسمَّى الآن ديار بكرٍ، فحصرُوا عبدَ الملكِ بنَ صالحِ بن عليٍّ بن عبدِ اللهِ بن عباسٍ بالرقَّةِ.

فاستشَارَ هارُونُ الرَّشيدُ يَحْيَى بنَ خالدٍ البرمكِيِ فيمن يوجِّههُ لحربِ الوليدِ، فقال لَهُ يَحْيَى بنُ خَالِدٍ البرمكِي: وجِّه موسَى بنَ حازمٍ التَّمِيمِي، فإنَّ فِرعونَ كانَ اسمُه الوليدُ فغرَّقَهُ موسَى، فوجَّهَهُ إِلَيْهِ الرَّشيد فِي جيشٍ كثيفٍ، فَلَقِيَهُ الوليدُ فِي أصحَابِهِ فهَزمَ موسَى وقَتلَهُ.

فلمَّا بلغَ ذَلِكَ الرَّشيدُ وجَّه إِلَيْهِ معمرَ بنَ عيسَى العبدِي منْ عبدِ القيسِ، فكانتْ بَيْنَهُمَا عدَّة وقائع بناحيةِ ديارِ ربيعةَ.

ثمَّ استظهرَ عَلَى معمرٍ وقَتلَهُ، وهزمَ أصحَابه، فَلَمَّا اتصلتْ وقَائعُ الوليدِ، وكثُرَتْ جمُوعُهُ، وظهرَ هَذَا الظهُورَ العظِيمَ، قَالَ الرَّشيدُ: لَيْسَ لهَا إِلَّا الأعرابِي يزيدُ بن مزيدَ الشَّيبانِي.

فقال بكرُ بنُ النَّطاح الشَّاعرُ:

لاَ تَبْعَثَنَّ إِلَى رَبِيعةَ غَيْرَهَا ... إِنَّ الحْدِيدَ بِغَيْرِهِ لا يُفْلَحُ

ووجَّه الرَّشيدُ يزيدَ للوليدِ، يقُولُ أبُو مسلمِ ابنُ الوليدِ الأنصَارِي الشَّاعِرُ المشهُورُ، وكان منقطعًا إِلَى يزيدَ مختصًا بِهِ:

سَلَّ الخَلِيفَةُ سَيْفًا مِنْ بَنِي مُـضَرٍ ... يَمضِي فَيَخْتَرِقُ الأَجْسَادَ وَالهَامَـا
لَـوْلَا يَزِيـدُ وَمِقْـدَارٌ لَـهُ سَـبَبٌ ... عَاشَ الوَلِيدُ معَ العَامِينَ أعوَامَـا
أَكْـرِمْ بِـهِ وَبَآبَـاءِ لَـهُ سَـلفُوا ... أبقَـوا مِـنَ المَجْـدِ أيَامـاً وأَيَّامَـا

ولما انصرفَ يزيدُ إلَى بابِ الرشيدِ قدَّمَهُ ورفعَ مرتبتَهُ، وقال له: يا يزيدُ، مَا أكثر أمرَاء المؤمنينَ فِي قومِكَ ! قالَ: نَعَمْ، إلا أنَّ مَنابرَهُم الجذُوع، يعنِي: الجذُوع الَّتِي يُصلبُونَ عَلَيْهَا إذا قُتلُوا[1].

فضحكَ الرَّشيدُ، وتعجَّبَ من جوابِهِ، وقال مسلمُ بنُ الوليدِ يمدحُ يزيدَ بنَ مزيدَ، ويذكرُ قتلَهُ الوَلِيدَ:

وَالمارِق اِبن الوَلِيدِ قَد دَلَفتَ لَهُ ... بِعَارِضٍ لِلمَنايا مُسبِلٍ هَطِلِ

لَو أَنَّ شيئًا بكى مما أطاف بهِ ... فازَ الوَليدُ بِقِدحِ الناضِلِ الخَصِلِ

ما كانَ جَمعُهُمُ لَمّا لَقيتَهُمُ ... إِلّا كَرِجْلِ جرَادٍ رِيعَ مُنجَفِلِ

فاسلَم يَزِيدُ فَما فِي المُلكِ مِنْ أَودٍ.. إذا سَلِمْتَ وَما فِي الدِّينِ مِن خَلَلِ[2]

وقَدْ رُوِيَ أنَّ هارونَ الرشيدَ لَمَّا جهَّزَ يزيدَ إلَى حربِ الوليدِ بنِ طريفٍ أعطَاهُ ذَا الفَقَارِ سيفَ النَّبيِّ ﷺ، وقالَ لَهُ: خُذْهُ يا يزيدُ فإنَّكَ ستُنصرُ بهِ، فأخذَهُ ومَضَى، وكانَ مِن هزيمةِ الوليدِ، وقتلِه، مَا قدْ شَرَحْنَاهُ[3].

---

(١) «وفيات الأعيان» (٦/ ٣٢٩).

(٢) «صريع الغوانِي» (ص ١٧ ـ ٢١) «الأغاني» (١٢/ ٣٣٦).

(٣) «وفيات الأعيان» (٦/ ٣٢٩).

فَصْلٌ

ثمَّ خرجَ فِي أيَّامِ المتوكلِ: ابنُ عمرٍو الخثعميِّ، بالجزيرَةِ، وما حولَها مِن أرضِ العربِ وفجاجِهَا، وكانَ يدعُو الناسَ إلَى متابعَةِ الكتَابِ والسُّنةِ بزعمِهِ، ويُرغبهُم فِي الدُّنيا والآخرَةِ، وحَكَمَ علَى النَّاسِ بالضَّلالِ، وأنَّه بذَلِكَ مهتدِي، وقطعَ الطَّريقَ، وأخافَ السَّبيلَ، وتسمَّى بالإِمامةَ والخلافةِ وبأميرِ المؤمنينَ، فحاربَهُ أَبُو سعيدٍ محمدُ بنُ يوسفَ الطَّائِي الصَّامتي وقاتلَهُ قتالًا شديدًا.

وكَانَ يأمرُ النَّاسَ أن يجتمعُوا للصَّلاةِ جماعةً واحدةً، ويُغلظ الأمرَ فِي ذَلِكَ تغليظًا شديدًا، ويُضللُ مَن خالفَهُ ويُكفرُه، حتَّى بسطَ يدَهُ فِي المُسلمينَ، ولسانَه، قتلًا وتكفيرًا، فقتلَ أَبُو سعيدٍ فِي محاربتِه لَهُ كثيرًا من أصحَابه، وأسرَ كثيرًا مِنْهُم، ونجَى هاربًا بنفسِه، فمدَحَهُ أَبُو عُبادَةَ البحترِي، وكانَ يَتشيَّعُ، يمدحُ أَبَا سعيدٍ، ويذكرُ ذلكَ، ويذكرُ فِي معرضِه الوليدَ، فقالَ:

كُنَّـا نُكَفِّـرُ مِـن أُمَيَّـةَ عُـصْبَةً ... طَلَبُـوا الخِلَافَـةَ فَجْـرَةً وَفُـسُوقَا
وَنَلُـومُ طَلْحَـةَ والـزُّبَيْرَ كِلَـيهِمَا ... وَنُعَنِّـفُ الـصِّدِّيقَ والفَارُوقَـا
ونَقُـولُ تَـيْمٌ قَرَّبَـتْ وعَـدِيُّهَا ... أمرًا بَعِيـدًا حيثُ كَـانَ سَـحِيقَا
وَهم قُرَيشُ الأبطَحـون إِذَا انتَمَـوا ... طَابُوا أُصُـولًا فِي العُـلَا وَعُرُوقَـا
حتَّى غَدَتْ جُشَمُ بـنُ بَكْـرٍ تبْتغِي ... إِرْثَ النَّبِـيِّ وتَدَّعِيـهِ حُقُوقَـا
جَـاءُوا بِـرَاعِيهِمْ ليتَّخِـذُوا بـهِ ... عَمَـدًا إِلَى قَطْـعِ الطَّرِيـقِ طَرِيقَـا
عَقَـدُوا عِمَامَتَـهُ بِـرَأسِ قَنَاتِـهِ ... وَرَأَوْهُ بَـرًّا فَاسْـتَحَالَ عُقُوقَـا
وَأقَـامَ يُنْفِـذُ فِي الجزِيـرَةِ حُكْمَـهُ ... وَيَظُـنُّ وَعْـدَ الكَـاذِبِينَ صَـدُوقَا
حَتَّـى إِذَا مَـا الحيَّـة الـذَّكَرُ انكَفـا ... مِـنْ أرزنٍ حَنقًـا يَمُـجُّ حَرِيقَـا
غضْبانَ يَلقَى الـشَّمْسَ مِنْـهُ بهامَـةٍ ... تغْـشَى العُيُـونَ تألُّقـاً وبَرِيقَـا

أَوْفَى عَلَيْـهِ فَظَـنَّ مِـنْ دَهَـشٍ بِـهِ ... البَرَّ بَحْـرًا، وَالفَـضَاءَ مَـضِيقَا[1]

غَـدَرَتْ أَمَانِيـهِ بِــهِ وَتَمَزَّقَــتْ ... عَنْــهُ غَيَابَــةُ سُــكْرِهِ تَمْزِيقَــا

طَلَعَتْ جِيادُكَ من رُبا الجُوديِّ قـد ... حُمِّلْـنَ مِـنْ دُفَـعِ المَنُـونِ وسُـوقَا

فدعا فرِيقًـا مِـن سُـيوفِكَ حـتْفُهُمْ ... وَشَدَدْتَ فِي عُقَـدِ الحَدِيـدِ فَرِيقَـا

وَمَضَى ابْنُ عَمْرٍو قَدْ أَسَـاءَ بِعُمْـرِهِ ... ظنًّــا يُنَــزِّقُ مَهْــرَهُ تَنْزِيقَــا

فَاجْتَـازَ[2] دِجْلَـةَ خَائِـضًا فكَأَنَّهَـا ... قَعْبٌ عَـلَى بَـابِ الكَحِيـلِ أُرِيقَـا

لَـوْ خاضَـهَا عِمْلِيـقُ أَوْ عـوجٌ إذن ... مَا جَـاوزَتْ عُوجًـا وَلا عِمْليقَـا

لَوْلَا اضْطِرَابُ الخَوْفِ فِي أَحْشَائِهِ ... رَسَبَ العُبابُ بِـهِ فَـمَاتَ غَرِيقَـا

لَــوْ نَفَّــسَتْهُ الخَيْــلُ لِفتــةَ نــاظِرٍ ... مَــلَأَ الــبِلَادَ زَلَازِلاً، وَفُتُوقَــا

لَثَنَى صُدُورَ السُّمرِ تَكـشِفُ كُرْبَـه ... وَلَوَى رؤوسَ الخَيْلِ تُفْرِجُ ضِيقَا

وَلَبَكَّـرتْ بَكْــرٌ وَرَاحَــتْ تَغْلِــبٌ ... فِي نَـصْرِ دَعْوَتِـهِ إِلَيْـهِ طُرُوقَـا

حَتَّـى يَعُـودَ الـذِّئبُ لَيْثًـا ضَـيْغَمًا ... والغُصْنُ سَاقًا والقَـرَارَةُ[3] نِيقَـا

هَيْهَــاتَ فَــارِسَ فيلَــقٍ مُتَيَقِّظًــا ... قَلِقًـا إذا سَـكَنَ البَلِيـدُ رَشِـيقَا

مُسْتَسْلِفًا جعلَ الغَبُوقَ صَبُوحَـهُ ... وَمَرى صَبُوح غَدٍ فكانَ غَبُوقَا[4]

وقَدْ خرجَ بعدَ هذينِ: جماعةٌ منَ الخوارجِ مِنْهُم الملقبُ بالفصصِ والنكُوص بأعمالَ كِرمانَ، وجماعة أخرَى من أهلِ عُمانَ بعد ذَلِكَ لا نباهةَ لَهُم، ذكرهُم أَبُو إسحَاق الصَّابِي فِي كتَابِهِ "التاجِي" حتَّى وصلَ أمرهُم إلَى اليَمامَةِ من أرضِ نجدٍ، فعاثُوا فِي الأرضِ بالفسَّادِ وظُلمِ العبادِ، وسيجزيهُم مولَاهُم بِمَا فعلُوا يومَ المعَادِ.

---

(١) البيت فِي الأصل هكذا: «أوفى عَلَيْهِ فظل من دهش.... يظن البر بحرًا والفضاء مضيقا» وما ذكرته من ديوان البحتري.

(٢) في الأصل: «فأجاب».

(٣) فِي الأصل: «والفراة».

(٤) «ديوان البحتري» (٣/ ١٤٥٢ ـ ١٤٥٦ ط المرصفي).

وقدْ ذكرُوا أنَّ أئمتَهُم كانُوا كثيرًا يقرأونَ فِي صلاتِهِم الجهرية بسُورةِ محمدٍ والفتحِ والحديدِ والمجادلةِ والحشرِ والممتحنةِ والصفِ وآخر التَّغابنِ والمطففِينَ والبرُوجِ ونظائرهَا، يتلُونَ مَا فِي المؤمنينَ لهُم، وما فِي الكفَّارِ والمنافقِينَ فِي المُسلمينَ، نسألُ اللهَ الحمايةَ... [1] فِي غيرِ موضعِهَا.

ويُروى أن الحجَّاجَ بنَ يوسفَ أُتِيَ بامرأةٍ من الخوَارجِ وعندَه مولَاهُ يزيد بن أبِي مسلمٍ، وكان يستسرُ برأي الخوارجِ، فكلّم الحجاجُ المرأةَ فأعرضت عَنْهُ، فقالَ لهَا يزيدُ: الأمير وَيْلَكِ يكلمُكَ !

فَقَالتْ: بلِ الويلُ لكَ أيُّهَا الفاسقُ الرَّديء ! والرَّديء عندَ الخوارجِ هُو الَّذِي يعلمُ الحقَّ من قولِهِم ويكتمُه.

.... [2] ذكرنَاهُم هُم سلف الخوَارجِ لكُلِّ مَن خرجَ بعدَهُم سلف عَلَى مذهبهم، فمنهُم المُقلُّ والمستكثرُ، ولهُم أيضًا أسماءُ وألقابٌ نذكرُهَا ونذكرُ أئمَّتَهُم وقادَتَهُم فِي مذهبِهِمْ.

وقدْ أكثرَ العُلماءُ رحمهُم اللهُ تعالَى فِي عدِّهم فيزيدُ بعضهُم عَلَى بعضٍ فِي ذَلِكَ، وسنبينُ شيئًا من ذَلِكَ، وإنْ كانَ مَاسبقَ من ذكرْنَا لهم ينبئْ عَنْهَا معَ التَّنبهِ للمتأمِّلِ لهَا.

فسمُّوا بالخوَارجِ لخرُوجِهم عَلَى عليٍّ ومَن بعدهُ.

وسمُّوا محكِّمِينَ لإنكارِهِم الحكمَينِ أبَا موسَى وعمرو بنَ العاصِ رضي الله عنهما، ولقولِهِم: لا حُكْمَ إلا لله، لَمَّا حَكَمَ الحَكَمَانِ.

وسمُّوا حرُوريةَ؛ لأنَّهم نزلُوا بحَروراءَ، وقد مرَّ تعريفُ موضعِهَا.

---

(١) كلمة غير واضحة.

(٢) كلمات غير واضحة.

وسمُّوا شُراةً؛ لقولِهم شرينا أنفسنَا فِي الله، أي: بِعْنَاهَا بثوَابِ الله ورضَاهُ والجنَّة، يتأولُونَ قولَهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ الآية.

وسمُّوا مارقةً؛ لمُرُوقِهم من الدِّينِ بقتلِهم المُسلِمِينَ، وتكفيرهم لَهُم، فهُم الَّذين مرقُوا منَ الدينِّ، وفارقُوا أئمَّةَ المسلمينَ وجماعتهم، وخرَجُوا عَلَى السلطانِ، وسلُّوا السيفَ عَلَى الجميعِ، واستحلُّوا دماءَهُم وأموالَهُم، فكَفَّرُوا من خَالفَهُم، ورمُوهُم بالعظَائم، فَلَا يرَوْنَ صحَّةَ صلاةِ الجمَاعَةِ إلا خَلف إمَامٍ يرَى رأيهُم.

وأكثر مَا يكونُون بالجزيرةِ والموصلِ واليمامةِ وحضرموتَ ونواحِي المغربِ كَمَا مرَّ ذَلِكَ.

والَّذِي وضعَ لَهُم الكُتُب وصنَّفها عبدُ الله بنُ زيدٍ، ومحمدُ بنُ حربٍ، ويحيَى بنُ كَاملٍ، وسعيدُ بنُ هارُونَ وغيرُهُم من أئمَّتِهِم؛ كَمَا وضعَ ابنُ تومرتَ كتبًا ومصنفاتٍ صغارًا ورسائلَ لأصحَابِهِ اجتزوا بِهَا عن أقوَالِ السَّلفِ وعلمَاءِ الأمَّة منْ أهلِ زمانِهِم وغيره.

فمِنَ الخوَارجِ فوق خمسة عشرَ فرقةً:

- النجداتُ: نُسبُوا إِلَى نجدةَ بنِ عامرٍ الحنفِي، صاحبَ اليمامةِ، وأصحاب عبدِ الله بنِ ناصرٍ.
- والأزارقةُ: أصحابُ نافع بنِ الأزرقِ.
- والفدكيةُ: نُسبُوا لأبي فديكٍ.
- والعطويةُ: نِسبةً إِلَى عطيةَ بنِ الأسودِ.
- والعجاردةُ والميمونيةُ: نسبةً إِلَى عجردَ وميمونَ. وهم كثيرٌ منَ الخوارجِ.
- والخازميةُ والمعلوميةُ والمجهوليةُ نسبةً إِلَى مذاهبَ لَهُم وأقوالٍ اتَّبعُوهَا.
- والصلتيةُ: نِسبةً إِلَى عثمانَ بنِ الصَّلتِ.

- والأخنسيةُ: نِسبةً إلَى رجلٍ يقَالُ لَهُ الأخنسُ.
- ومنهُم الصفريةُ: فرقةٌ كبيرةٌ ذكرْنَا اختلافَ تسميتِهم بذَلِكَ، هَل هُو إلَى رجلٍ، أو إلَى صُفرةِ ألوانِهم منَ العبَادَةِ؟
- والحفصيةُ مِنْهُم: نِسبةً إلَى رجلٍ يُقَالُ لَهُ: حفصٌ.
- والأباضيةُ: وهم بعُمانَ نِسبةً إلَى عبدِ الله بنِ أباضَ.
- والشمراخيةُ: نِسبةً إلَى عبدِ الله بنِ الشمراخِ.
- ومنهُم البدعيةُ: قولُها كقولِ الأزارقةِ.

وأقوالُ الخوَارجِ فِي التَّكفِيرِ للمُسلمينَ وقتالِهم والخرُوجِ عَلَيْهِم ونهبِ أموالِهم وأفعالِهِمْ فِي ذَلِكَ معلومةٌ، وهُم فِي ذَلِكَ مذَاهب يخالفُ بعضُهَا بعضًا.

واتفقتِ الأزارقةُ مِن بينَ الخَوارجِ عَلَى جوازِ سبي النِّساءِ وقتلِ الأطفالِ من الكفَّار؛ متأوِّلينَ لِقَوْلِهِ تعالَى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآية.

وقد مضَى استدلالُ نافعٍ بذَلِكَ عَلَى نجدةَ بنِ عُويمرٍ الخَارِجي صَاحِبِ اليمامةِ.

واتفقت الخوارجُ جميعُها عَلَى إكفارِ عليٍّ ﷺ؛ لأجلِ التَّحكيمِ، وعَلَى إكفَارِ مرتكبِ الكبيرةِ، إلا النَّجدَات - وهُم نجدةُ بنُ عويمرٍ وأصحَابُه أهل اليَمامةِ الذِينَ اتَّبعُوهُ، وأخذُوا مذهبَهُ - فإنَّهم لم يوافقُوا باقي الخوارجِ ممن سوَاهُم عَلَى إكفَارِ عليٍّ، والتَّكفِيرُ بالكبيرةِ، ووافقُوهُم عَلَى تكفيرِ مَن لم يدخلْ معَهُم فِي مذهبِهِم، وأنَّهُم لا يرَوْنَ الطَّاعةَ للسلطانِ، ولا الدُّخولَ فِي جماعتِهِ، ولا الصَّلاةَ جَماعَةً خلفَ غيرهِمْ؛ لأنَّهُمُ عندَهُم كفارٌ، وبلادُهُم بلادُ كُفرٍ، وإنْ شَهِدُوا الشَّهادتَينِ وأقامُوا شعَائرَ الإسلَامِ، وجاهدُوا عدوَّهُم حتَّى يتبعُوا ملَّتهُم، ويرفضُوا سلطانَهُم، ويتبرأوا من جمَاعةِ المُسلمينَ؛ لأنَّ هَذَا البراءَ والتولي لَهُم مِن لازمِ دينهِم،كَما مرَّ عنهُم صريحًا فِي أقوالِهم وأفعالِهم، غير خافٍ من استقرأ من سيرتِهِم، واللهِ يهدِي من يشاءُ إلَى صراطٍ مستقيمٍ.

.... [١] هَذَا المَحَلّ وجدتُ فَضلَ قولٍ، فقلتُ فِي ذَلِكَ أبياتًا مِنْهَا [٢]:

تلكَ الخوَارجُ ضُلّلتْ أحلَامُهَا — سفهًا تُخرِّقُ دينَهَا تخرِيقَا
أشقَى الخَلائقِ يَرَوْنَ طريقَهُم — نهجًا يلوحُ بزعمِهِم تشوِيقَا
قومٌ يقُولُ غويُّهم لسفيهِهِم — اقرأ القرانَ وشقِّقَن تشقِيقَا
مِن غيرِ مَا علمٍ بكُنهِ لغاتِه — أو بالعمُومِ مخصّصًا تعويقَا
أو بالمقيّدِ عَن عمُومِ خطَابِه — أو أن يكُونَ مشترك الخِطَابِ رشِيقَا
أو أن يكُونَ ظاهرُه المُرَاد حقيقةً — أو بالمجَازِ مركَّبًا تزْوِيقَا
أو أن يكُونَ مشتركُ الخطَابِ واسمه — فِيهِ التَّواطئ أوهَمَا توفِيقَا
عِلمُ الأصُولِ فعندَهُم مرفوضةٌ — لا يجعلُونَ بِهَا إِلَيْهِ طريقَا
كم جَاءَ فِي الأخبار عند نزوله — سببٌ يُرى بالمشركين حقيقَا
جعلُوا النُّزولَ لعَكْسِ مَا يُعنى بِهِ — بالمُسلمِينَ مُعَلّقًا تعلِيقَا
لولَا المخافةُ أوقدُوا نيرانَهُم — بالمُسلمينَ وحرّقوا تحرِيقَا
قومٌ عَلَى الإضلالِ فِيهِم أسَّسوا — دينًا ترَاهُ ممزقًا تمزِيقَا
فَارْبَأ بنفسِكَ أن تكُونَ كمثلِهِم — يغشَى الفسَادَ مُلوقًا تلوِيقَا
شرح اللّسان وقلبُه فِي ضِيقةٍ — حَرجًا من الطّبعِ الملُوم مضِيقَا
فاللهُ يقبلُ عَلَى العبدِ الَّذِي — يرجُو النّجاةَ مُوفقًا تَوفِيقَا
فَاسْأله التَّوفيقَ يُعطِك عودَةً — مِنْهَا الهُدَى متضوعًا شِرّيقَا

وعندَ ابنِ الجوزيِّ فِي كتابِ تلبسِ إبليسَ [٣] بسندِه عن سماكِ بْنِ زميل قالَ: قَالَ ابْنُ عَبّاسٍ: إنّهُ لما اعتزلتِ الخوارجُ دخلُوا دارًا وهُم ستة آلافٍ. وأجمعُوا كلُّهُم عَلَى أن يخرجُوا

(١) كلمات غير واضحة.

(٢) الأبيات فيها ركاكة.

(٣) (ص ٨٢ ـ ٨٣).

عَلَى عَلِيٍّ كرَّمَ اللهُ وجْهَهُ[١]، وكانَ لا يزالُ يجيءُ إنسانٌ فيقول: يا أميرَ المؤمنينَ إن القومَ خارجُونَ عليكَ، فيقُولُ: دعوهُم فإنِّي لا أقاتلُهُم حتَّى يقاتلُونِي، وسوفَ يفعلُونَ.

فلمَّا كانَ ذاتَ يومٍ أتيتهُ قبلَ صلاةِ الظُّهرِ فقلتُ لَهُ: يا أميرَ المؤمنين أبرِدْ بالصَّلاة لعلِّي أدخلُ عَلَى هؤلاءِ القومِ فأُكلّمْهُم.

فَقَالَ: إنِّي أخافُ عليكَ.

فقلتُ: كلَّا، وكنتُ رجلًا حَسنَ الخُلقِ لا أؤذِي أحدًا، فأذِنَ لي، فلبستُ حلَّةً من أحسنِ مَا يكُون منَ اليمنيةِ، وترجَّلتُ، فدخلتُ عَلَيْهِم نصفَ النهارِ، فدخلتُ عَلَى قومٍ لَمْ أرَ قطُّ قومًا أشَرَّ مِنْهُم اجتهادًا، جباهُهُم قَرِحةٌ منَ السجُودِ، وأياديهم كأنَّها ثفن الإبلِ، وَعَلَيْهِم قُمُصٌ مرحّضةٌ، مشمرينَ، مسهمةٌ وجوهُهم من السهرِ.

فسلمتُ عَلَيْهِم.

فقَالُوا: مرحبًا بابن عَبَّاس مَا جَاءَ بك؟

قلت: أتيتكُم مِن عندِ المُهاجرِينَ والأنصَارِ، ومِن عندِ صِهرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعَلَيْهِم نزلَ القرآن، وهُم أعلمُ بتأويلِهِ مِنْكُمْ.

فقالتْ طائفةٌ منهم: لا تخاصمُوا قريشًا فَإِن اللهَ يَقُول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ فَقَالَ اثنان أَوْ ثَلاثَة: لنُكلمنَّهُ.

فقلت: هاتُوا.

فوقعتْ بينهُم المُجادلَةُ، وذكرَ تمامَ الحدِيث نحو مَا ذكرْنَا أولَ الكتابِ.

ثم روَى ابنُ الجوزيِّ[٢] بسندِه إِلَى جندبَ الأزدي قالَ: لَمَّا عدلنا إِلَى الخَوارجِ، ونحنُ معَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طالبٍ رضي الله عنه.

---

(١) الأولى أن يُقال: رضي الله عنه، ولا يُخصص دون الصحابة رضي الله عنهم بهذا الوصف، كما يفعل الشيعة.

(٢) فِي تلبيس إبليس (ص ٨٤).

قَالَ: فانتهينا إِلَى معسكرِهِم، فَإِذَا لَهُم دويّ كدويّ النَّحلِ من قراءةِ القرآنِ.

وذكرَ فِيهِم حرقوصَ بن زهيرِ السعدي.

قَالَ: وكانَ وقتَ القتالِ يقُولُ بعضُهم لبعضٍ: تهيَّأوا للقاءِ الربِّ ! الرَّواح الرَّواح إِلَى الجْنَّةِ.

وقد بيَّنا مذاهبَهُم فِيمَا سبقَ، وفِي أثناءِ الكتابِ مفصَّلًا، ولكن من أصلِ الأزارقةِ أنَّهم قَالُوا: لا نعلمُ أحدًا مؤمنًا، وكفَّرُوا أهلَ القبلةِ إِلَّا مَنْ دَانَ بقولِهِمْ.

ومنْ أصلِ الأباضيةِ أنَّهم قَالُوا: من أخذَ بقولِنا فَهُوَ مؤمنٌ، ومن أعرضَ عَنْهُ فَهُوَ منافقٌ. ذكرَ ذَلِكَ ابنُ الجوزيِّ فِي كتابهِ تلبيسِ إبليسَ [1] المذكُور.

وحكاه عنهم غيرُ واحدٍ من أهل العلم.

وقد ذكرْنَا قصةَ صُبَيْغٍ القشعِي التَّمِيمِي الَّذِي ضَربه عُمَرُ بالجريدِ ونفاهُ إِلَى الكُوفةِ، وأمرَ أميرَهَا أبَا موسَى ألا يجالسُ فِي "شَرحِ التَّوحِيدِ"، وذكرْنَا قولَ ابنِ عبدِ البرِّ إِنَّهُ يرَى رأيَ الخَوَارجِ، وقول غيرِهِ إِنَّهُ اتُّهِم بذَلِكَ.

وسببُ ضَربِ عُمَر لَهُ لأنَّه ذُكِرَ لَهُ أَنَّهُ يسألُ عن مُتشَابه القُرْآنِ، وفِي لفظٍ: يَسألُ عَنِ الذَّاريَاتِ، فقال لَهُ الفاروق ﷺ: أتسألُ عن محدثةٍ، فضربَه ثلاثة أيامٍ، ونفَاهُ، حتَّى ذكر لَهُ أبُو موسَى إِنَّهُ حَسَنَتْ حالُهُ، فأمرَ بمجَالستِه.

هَذَا وقدِ انقرضتْ جُملةُ هؤلاءِ الخَوَارجِ بالعراقِ والشَّام، فكانَ يخرجُ بعدَ ذَلِكَ مِنْهُم شُذّاذٌ متفرقُونَ يستلحمُهُم الوُلَاةُ بالنَّواحِي.

وكانَ... [2] إِلَى حضرموتَ وشرقي اليمنِ، وما حولَ هذِهِ الأماكنِ كاليمامةِ، آثارٌ تفشو كلَّ حينٍ، وعرُوقٌ تنبضُ فِي كلِّ دولةٍ.

---

(١) (ص ٢٠).

(٢) كلمات غير واضحة.

ومن مذهبهم القبيح أنَّهم لا يرونَ طاعةَ السلطانِ، ولا الدُّخولَ فِي جماعَةِ المسلمينَ تحتَ سلطانِهم، بلِ الإمامُ عندَهُم من تولَّى أمرهم، وقاتلَ جماعةَ المسلمين وسلطانَهم، وجعلُوا الموالَاة والمعادَاة فِي ذَلِكَ دينًا يتقرَّبُونَ بِهِ عندَ الله تعالى، والله تعالى يُضلُّ منْ يشَاءُ ويهدِي منْ يشاءُ، لا مُعقِّبَ لحُكْمِهِ، وهُو سريعُ الحسَابِ.

هذا مَا تيسَّر تأليفُه وتصنيفُه من أخبارِ الخَوارجِ، وقد استقصيتُ فِي ذَلِكَ، واجتهدتُ فِي جمعِه، وعزوتُ غالبَ مَا ذكرتُه فِي هَذَا الكتابِ إِلَى ناقلِه، وبالغتُ فِي نقلِه عَلَى أقربِ وجْهٍ للصِّحَّةِ.

.... [(١)] دعوَى الخَوَارجِ، خرُوجُ ابنِ تومرت الَّذِي يسمِّي أصحابَهُ الموحِدينَ، فإنَّه دوَّخ المغرب بتلكَ الدَّعوى، فأبادَ العبادَ، وجاسَ خلالَ البلادِ، وكانَ أمرُ الله مفعولًا، وكان موتُه سنة أربع وعشرين وخمسمائةٍ، وأخفَى أصحابُه وعبدُ المؤمنِ موتَهُ.

وكانَ عبدُ المؤمنِ صاحبُه يُغِيرُ ويأمرُ وينهي عَلَى لسانِ ابنِ تومرتَ بعدَ موتِه لإخفائِهم موتَهُ.

فلَمَّا كانَ سنة تسعٍ وعشرينَ وخمسمائةٍ صرَّحُوا بمَوتِه، وكانُوا يُلقبُونَهُ بالمهدِي، وكانَ خليفة عبدِ المؤمنِ فِي قصَّة طويلة المقصُود مِنْهَا دعوَاهُم، ولقَّبه الموحدُونَ: أمير المؤمنينَ [(٢)].

قالَ صاحبُ المُعجبِ [(٣)] - كَمَا ذكرَهُ ابنُ كثيرٍ فِي البدَايةِ والنهايةِ -: وقبلَ وفاةِ ابنِ تومرتَ بأيَّامٍ استدعَى المسمين بالجماعةِ، وأهل الخمسينَ، والقواد الثلاثة عمر بن عبد الله الصنهاجِي المعرُوف بعمرَ الرباح، وما زالَ يُعرف بعمرَ إِيْنتِي، وَعَبْدَ الله بنَ سُلَيْمَانَ، فَحَمِدَ الله وأثنى عَلَيْهِ، ثمَّ قالَ:

---

(١) كلمات غير واضحة.

(٢) انظر عنه: " أخبار المهدي بن تومرت، وبداية دولة الموحّدين "؛ لأبي بكر بن علي الصنهاجي المُكنى بالبيذق - تحقيق عبدالوهاب بن منصور.

(٣) «المُعجِب فِي تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إِلَى آخر عصر الموحدين» (ص ١٤٦ ـ ١٤٨).

ثَمَّ إنَّ اللهَ -سبحانَهُ ولَهُ الحمدُ- مَنَّ عليكُم أيَّتهَا الطائفةُ بتأييدِه، وخصَّكُم من بينِ أهلِ هَذَا العصرِ بحقيقةِ توحيدِه، وقيَّض لكُم مَن ألفاكم ضُلالاً لا تهتدُونَ، وعُميًا لا تُبصرُونَ، لا تعرفُونَ معروفًا، ولا تُنكرُونَ منكرًا، قد فشتْ فيكُم البدعُ، واستهوتكُم الأباطيلُ، وزيَّن لكُم الشَّيطانُ أباطيلَ وتُرَّهاتٍ أُنزّه لسانِي عن النطقِ بها، فهدَاكُم اللهُ بِهِ بعدَ الضلالةِ، وبصَّركُم بِهِ بعدَ العمَى، وجمَعَكُم بِهِ بعدَ الفُرقةِ، وأعزَّكُم بِهِ بعدَ الذِّلَّة، وأغناكُم بِهِ بعدَ العَيلةِ، ورفعَ عنكُم سلطان هؤلاءِ المارِقِينَ، وسيورثُكُم أرضَهُم وديارَهُم؛ ذَلِكَ بِمَا كسبتْه أيديهم، وأضمرتْه قلوبهم، فجدِّدُوا لله خالصَ نياتكُم، وأثروهُ من الشكرِ قولًا وفعلًا مما يزكِّي بِهِ سعيكُم.

واحذرُوا الفرقةَ، وكونُوا يدًا واحدةً عَلَى عدوِّكُم، فإنَّكُم إن فعلتُم ذَلِكَ هابكُم الناسُ، وأسرعُوا إِلَى طاعتِكُم، وإلا تفعلُوا شَمِلكُم الذُّل، واحتقرتكُم العامَّة.

وعليكُم بمزجِ الرَّأفة بالغِلظةِ، واللينِ بالعُنفِ، وقدِ اخترْنَا لكُم رجلًا منكُم، وجعلْنَاهُ أميرًا عليكُم، بعد أن بلوناهُ؛ فرأيناهُ ثَبْتًا فِي دينِه، متبصرًا فِي أمرِه، وهُو هَذَا - وأشارَ إِلَى عبدِ المؤمنِ - فاسمعُوا لَهُ وأطيعُوا، مَا دامَ سامعًا مطيعًا لربِّه، فإن بدَّلَ ففي الموحدِين بركةٌ وخيرٌ، والأمرُ أمرُ اللهِ يُقلدُه من يشاءُ.

فبايعَ القومُ عبدَ المؤمنِ، وقال بعضُهم [1]: إنَّهُ لم يستخلفْ، بل راعَى أصحابه فِي تقديمِه.

والمثبِت مُقدَّمٌ عَلَى النافي.

قال [2]: ولمْ يزلْ عَبْدُ المؤمنِ بعدَ موتِ ابنِ تُومَرْت يَقْوى، ويظهرُ عَلَى النَّواحِي، ويُدوّخُ البلادَ.

واشتدت صولتُه، وأحسنَ السيرةَ حتَّى دانتْ لَهُ أقطارُ المغربِ، وامتدحَهُ الشعراءُ،

---

(١) هُو ابن خلكان فِي «وفيَات الأعيان» (٣/ ٢٣٩).

(٢) فِي «المُعْجِب» (ص ١٤٩).

ووفدَ عَلَيْهِ الوافدُون من أقاصِي البلادِ، وكانتْ صولتُه فِي ملكِه يعجزُ عَنْهَا الوصفُ، وكانَ لا يلبسُ إلا الصوفَ، وكانُ يُوصفُ بالجوادِ والدهاءِ والذكاءِ والبراعةِ وسرعةِ الجوَابِ وفصلِ الخطابِ، ولمَّا قَالَ فِيهِ الفقيه مُحَمَّدُ بْنُ أبِي الْعَبَّاس التّيفاشيُّ قصيدةً، وأتى عَلَى قوله فيها:

مَا هَزَّ عِطْفَيهِ بَيْنَ الْبِيضِ وَالأَسَلِ ... مِثْلُ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْمُؤمِنِ بْنِ عَلِيّ

أشار إِلَيْهِ أن يقتصر عَلَى هَذَا البيت، وأجازه بألفِ دينار.

وكان لا يُؤْثرُ جَمْعَ المالِ، ويُفرقُ جميعَ مَا فِي بيتِ مالِه، ويصلِّي فيهِ، ولم يَدَع مُنكرًا إلَّا وأزالَهُ، وكان يُصَلِّي بالناسِ الصَّلوات الخمسِ، ويقرأُ فِي كلِّ يومٍ سُبعًا من القرآنِ بعد صلاةِ الصُّبحِ، ويَلْبَسُ الصُّوفَ، ويصومُ الاثنينَ والخميسَ، فأحبَّه النَّاسُ، وكان يقولُ: مَنْ تركَ الصَّلاةَ ثلاثةَ أيامٍ، فاقتلُوهُ.

وكانَ لا يقبلُ الجزيةَ من أهلِ الذِّمةِ، ويُخيِّرهم بينَ ثلاثٍ؛ بينَ أن يُسلمُوا، أو يَلحقُوا بدارِ الحربِ، أو القتلِ، وكانَ شديدَ السَّطْوةِ، عظيمَ الهيبةِ.

قال عزيزٌ فِي تاريخِه: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ من أهلِ المهديّةِ سنةَ إحدى وخمسينَ وخمسمائةٍ بصَقَلِّية قالَ: افتتحَ عَبْدُالمؤمنِ بِجَايَةَ، فأتيتها بأحمالٍ لنبتاعَ، فَلَمَّا كنَّا عَلَى مرحلةٍ مِنْهَا سُرِقتْ لِي شَدَّةٌ من المتاعِ، فدخلتُ وبعتُ المتاعَ، وأفدتُ فِيهِ فائدةً يسيرةً.

فقلتُ لتاجرٍ: سُرقت لِي شَدَّة، وأخلفَ اللهُ عليَّ فِي الباقِي.

فقالُ: وما أَنْهَيْتُ ذَلِكَ إِلَى أميرِ المؤمنين عَبْدِالمؤمن؟

قلتُ: لا.

قال: واللهِ إنْ عَلِم بكَ لحِقَكَ ضَرَرٌ.

فرُحتُ إِلَى القصرِ، فأدخلني خادمٌ عَلَيْهِ، فأعلمتُه ورجعتُ.

فَلَمَّا كانَ صبيحةُ اليوم الثَّالثِ جاءنِي غلامٌ فقالَ: أَجِبْ أميرَ المؤمنين.

فخرجتُ معهُ، فإذا جماعةٌ كبيرةٌ، والمصامدةُ محيطةٌ بهم، فقالَ الغُلامَ لِي: هؤلاء أهل

الصَّقع الَّذِي أُخذَ رَحْلُكَ فِيهِ.

فدخلتُ وأُجلِستُ بين يديهِ، فاستدعَى مشايخَهُم، وقالَ لِي: كَم كان لك فِي الشَّدَّة الَّتِي فقَدْتَ أُخْتَها؟

قلتُ: كذَا وكَذا.

فأمرَ مَن وَزَنَ لِي المبلغَ.

وقالَ: قُم، أنتَ أخذتَ حقَّكَ، وبقيَ حقِّي وحقُّ اللهِ.

وأمرَ بإخراجِ المشَايخِ، وبقتلِ الجميعِ، فأقبلُوا يتضرَّعُونَ ويبكُونَ وقَالُوا: تؤاخذْ سيِّدنَا الصُّلحَاءَ بالمُفسدِينَ؟

فقالَ: يُخرجُ كلُّ طائفةٍ منكُم مَنْ فِيهَا منَ المُفسدِين.

فصارَ الرَّجلُ يُخْرِجُ ولَدَهُ، وأخَاهُ، وابنَ عمِّه، إِلَى أن اجتمعَ نحو مائة نفسٍ، فأمر أهلَهُم أن يتولَّوْا قتْلهم، ففعلُوا.

فخرجتُ من المغرب إِلَى صَقَلِّيَةَ خوفًا عَلَى نفسِي من أهلِ المقتولِينَ!

قالَ عَبْدُ المؤمنِ بْنُ عُمَرَ الكحَّال فِي أخبارِ ابنِ تُومَرت: توجَّه أميرُ المؤمنين عَبْدُالمؤمن إِلَى بلادِ إفريقية، فسَارَ فِي مائة ألفِ فارسٍ مُحصاةٍ فِي ديوانِه، سوَى من يتْبعهَا، وكانُوا يُصلُّونَ كلَّهُم خلفَ إمامٍ واحدٍ.

وكان فصيحًا بالعربيَّةِ، حَسَنَ العبارةِ.

قال: وكانَ فِي جُودِه بالمالِ كالسيلِ، وفي محبَّتِه لحُسْنِ الثّناءِ كالعَاشقِ، وما كانَ فِي مجلسِه حصيرٌ، بل مفروشٌ بالحَصْباء، وله سجّادة منَ الخُوصِ تحته خاصَّة[1].

ولهُ قصيدةٌ فِي بني هلالِ بنِ عامرٍ من غربِ المغربِ يعتزي فِيهَا إِلَيْهِم، يقُولُ فِيهَا وَهِيَ طويلةٌ:

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٣٨/ ٢٦٠ـ ٢٦٢) بتصرف.

بني العمِّ من عليا هلَال بن عَامرٍ　　وما جَمَعْتَ من باسلٍ وابن باسِلِ
تعالَوْا فقد شُلــّتْ إِلَى الغزْوِ نيَّةٌ　　عواقِبُهـــا منصــورةٌ بالأوائِلِ

قالهَا فِيهِم لما عاثُوا بالقيرَوَانِ وما حولَهَا يستميلُهُم لَّما تخالفُوا عَلَيْهِ خوفًا مِنْهُم أن يجليَهُم، ففعلُوا مَا فعلُوا حتَّى استعطفَهُم واستمالَهُم بقولِه، وما بذلَ لَهُم منَ الأموالِ والإكرامِ حتَّى استولَى عَلَيْهِم، وصارُوا فِي طاعتِه بعدَ أن عاثُوا فِي البلادِ فأكثرُوا فِيهَا الفسادَ.

وقالَ الحافظُ الذَّهبيُّ: ابنُ تُومَرْت هُو: محمدُ بنُ عبدِ الله ابن تُومَرْت المَصْمُودي، البربرِي، المدّعي إِنَّهُ حَسَنيٌّ، وأنَّه المهدِي.

رحل إِلَى المَشرقِ، وَلَقِيَ الغزَّاليَّ، وحصَّلَ فنونًا من العِلمِ والأصُولِ والكَلَامِ[(١)]. ذاهبًا فِيهَا مذاهبَ المعتزلةِ.

والمعتزلةُ إِنَّمَا أخذتْ جملةَ مذاهِبها منَ الخوارجِ، مِنْهَا تجويزُهُم الخروجَ عَلَى السلطانِ، وسببُه إنكارُهُم إجماعَ الأمَّة، بأنَّ الأمةَ لا تجتمعُ عَلَى ضلالةٍ، وأنَّه لا يكونُ بعدَ النبيِّ ﷺ فِي أمَّتِه جَاهليةٌ عامَّةٌ، وهذا منْ مذهبِ الخوَارجِ.

ومنْ مذهبِهِم الَّذِي أَخَذَتْهُ المعتزلةُ: كونُه لايَصحُّ إيمانُ المكلَّفِ حتَّى يَعرفَ دينهُ وإيمانَهُ بالأدلةِ، ويمتحنُونَ النَّاسَ بذَلِكَ، والنَّبيُّ ﷺ وخلفَاؤه لم يطلبُوا منَ الناسِ إلا التَّلفظَ بالشهادتَينِ، والخوَارجُ والمعتزلةُ لا يكفِيهم ذَلِكَ.

ومنَ البليةِ أنَّ ابنَ تومرتَ معَ مَا كان معَهُ من الابتداعِ كانَ ورعاً ساكناً ناسكاً فِي الجملةِ، زاهداً متقشّفًا شجَاعاً جلداً عاقلاً عميقَ الفكرِ بعيدَ الغورِ، فصيحاً مهيباً، لذّته فِي الأمرِ بالمعرُوفِ والنهي عنِ المنكرِ والجهاد.

ولكن جرَّه إقدامُه وجرأتُه إِلَى حبِّ الرئاسةِ والظُّهورِ، وارتكاب المحظور، ودعوى

---

(١) «العبر» (٢/ ٤٢١).

الكذب والزور من إنَّهُ حسنيّ، وهُو هرغيّ بربريّ، وأنّه إمامٌ معصومٌ، وهُو بالإجماع مخصوم.

فبدأ أوّلاً بالإنكارِ بمكّة، فآذُوه، فقدمَ مِصرَ وأنكرَ، فردُّوهُ.

فأقامَ بالثغرِ مدَّةً فنفَوه، وركبَ البحرَ فشرعَ يُنكرُ عَلَى أهلِ المركبِ، ويأمرُ وينهى ويلزمهُم بالصَّلاةِ.

وكانَ مهيبًا وقورًا، بزيق الفقرِ.

فنزلَ بالمهديَّةِ فِي غُرفةٍ، فكانَ لا يرَى منكراً أو لهواً إلاّ غيَّره بيدِه ولسانِه،

فاشتهرَ، وصارَ لَهُ زبون وشبابٌ يقرأون عَلَيْهِ فِي الأصُولِ.

فطلبَهُ أميرُ البلدِ يَحْيَى بن باديس وجلسَ لهُ.

فلمّا رأى حُسنَ سمتِهِ وسمعَ كلامَه احترمَه وأمرَه بالتَّحولِ عن بلادِه، فتحوَّل إلَى بجايةَ وأنكرَ بِها.

فأخرجُوه، فلقِيَ بقريةٍ ملّالة عبدَ المؤمنِ بنِ عليٍّ شابّاً مختطاً حليماً. فربطَهُ عَلَيْهِ وأفضَى إِلَيْهِ بسرِّه، وأنكَر كعادتِه، فأشارَ فقيهُها وعالمُها مالكُ بنُ وهيب عَلَى عليِّ بنِ يوسفَ بن تاشفينَ بالقبضِ عليهمَا ومنَ معهُما سدًّا للذريعةِ، وخوفاً منَ الغائلةِ.

وقيلَ للملكِ: إن لم تسجنهُم وتُنفقُ عَلَيْهِم كلَّ يومٍ دينارًا، وإلا أنفقتَ عَلَيْهِم خزانتكَ !

فهوَّن الوزيرُ أمرَهُم ليقضِي اللهُ أمرًا كان مفعُولاً. فصرفَه الملكُ، وسَارَ إِلَى أغمات بجبلِ تينملل، فأخذَ يستميلُ الشبابَ الأغتامَ والجهلةَ الشجعانَ، غيرَ مراعٍ لاتباعِ العلماءِ الماضِينَ، ولا مقيدًا لنتائجِ فكرِه فِي القرآنِ بسبيلِ المؤمنينِ، يستميلُ الأغمارَ منَ الجُهالِ والشَّبابِ، ويجري معَ العلماءِ مجرى الكهامِ معَ السَحابِ [(١)]، حيثُ يشبهها فِي الرعدِ والبرقِ، وما بينَهُ وبينَ الجفيلِ بونٌ ولا فرقَ، حتَّى نابذَ فِي أمرِه علماءَ وقتِه، ومزَّق أتباعهم

(١) الكهام: بطيء السير.

بجبروته ومقته، حتَّى طالت عَلَى أهلِ وقتِهِ المدَّة، وأصحابه يكثرون وهُو يأخذهُم بالدِّيانةِ والتقوَى، ويحضُّهم عَلَى الجهادِ، وبذلِ النفوسِ فِي الحقِّ.

ولما كثرت أصحابُه أخذَ يَذكرُ المهدي ويشوِّق إليه، ويروي الأحاديثَ الَّتِي وردتْ فيه. فتلهَّفُوا عَلَى لقائِه.

فلمَّا رأى ظمَأهُم قالَ: أنَا هُو.

وساق لَهُم نسباً ادَّعَاهُ، وصرَّحَ بالعِصْمَةِ.

وكانَ عَلَى طريقةٍ مُثلَى لا ينكرُ معها العصمةَ. فبادرُوا إلَى متابعتِه، وصنَّف لَهُم تصانيفَ مختصرات. وقوي أمرُه فِي سنة خمسَ عشرةَ وخمسمائةٍ.

فلمَّا كان فِي سنة سبع عشرةَ جهَّز عسكراً أكثرهُم من أهلِ تينملل والسوسِ وقالَ: اقصدُوا هؤلاءِ المَارِقينَ، فادعوهُم إلَى إزالةِ البدعِ والإقرارِ بالتَّوحيدِ والإمام، فإن أجابُوكُم وإلا فقاتلُوهُم.

وقدّم عَلَيْهِم عبدَ المؤمنِ. فالتقاهُم الزبير ولد أميرِ المسلمينَ، فانهزمتْ مصامدتُه ونجى عبدُ المؤمنِ.

ثمَّ التقوهُم مرَّةً أخرَى فنُصرُوا، واستفحلَ أمرُهُم، وأخذُوا فِي شنِّ الإغاراتِ فِي البلادِ، وكثُر الدَّاخلونَ فِي دعوتِهم، وانضمَّ إلَيْهِم كلُّ مفسدٍ ومريبٍ، واتَّسعتْ عَلَيْهِم الدُّنيا، وابنُ تومرت فِي ذَلِكَ كله لونٌ واحدٌ من الزُّهدِ والتقلّلِ والعبادةِ، وإقامة السُّننِ والشعائرِ، لولا مَا أفسدَ القضيةَ بِمَا ذكرنا، وبتسرّعِه فِي سفكِ الدِّماءِ.

وكانَ ربَّما كاشفَ أصحابَه، ووعدهُم بأمورٍ؛ فتوافقُ، فيفتنونَ بِهِ.

وكانَ كهلاً أسمرَ عظيمَ الهامةِ رَبعةً حديدَ النظرِ مهيباً طويلَ الصمتِ حَسنَ الخشوعِ والسمتِ، ولم يملكْ شيئًا من المَدَائنِ الكبارِ، وإنَّما مهَّد الأمورَ وقرَّر القواعدَ من دعواه، فبغتهُ الموتُ.

وكانتِ الفتوحاتُ والمَمالكُ لعبدِ المؤمنِ [١]، وقد ذكرْنَا موتَهُ قبلُ كَمَا ذكرَهُ الذهبيُّ هنَا فِي أربع وعشرين وخمسمائةٍ، وكذَا ابنُ كثيرٍ وابنُ الأثيرِ وغيرُهم، وقد مضَى جملةَ صفاتِ صاحبِه عبدِالمؤمنِ، وتوليهِ بعدَه، وكانُوا كلهُم:

وكلُّهُم يدَّعِي وصَالَ لَيْلَى ... ولَيْلَى لا تُقرُّ لَهُم بذَاكَ

ولكِن كَمَا قَالَ ترجمانُ القرآنِ حَبرُ هذِهِ الأمَّة بلا مدافعٍ ابنُ عمِّ الرسُولِ ﷺ، المُفقِّه فِي الدينِ، المُعلِّم للتَّأويلِ عبدُ الله بن عباسٍ رضي الله عنهما فِي قولِه جَلَّ وعلاَ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ قالَ: هُم الحَرُورِيةُ، يعنِي الخوَارجَ.

قال سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه وغيرُه منَ الصَّحابةِ: «هُمْ قَوْمٌ زَاغُوا فَأَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ» [٢].

وروى أبو دَاودَ [٣] وغيرهُ عن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ وأَبِي سَعِيدٍ الخدري عن رسُولِ الله ﷺ قالَ: «سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي اخْتِلاَفٌ وَفُرْقَةٌ، قَوْمٌ يُحْسِنُونَ الْقِيلَ، وَيُسِيئُونَ الْفِعْلَ، وَيَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لاَ يَرْجِعُونَ حَتَّى يَرْتَدَّ السَّهْمَ إِلَى فُوقِهِ، هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ، طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ وَقَتَلُوهُ، يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللهِ، وَلَيْسُوا مِنْهُ فِي شَيْءٍ، مَنْ قَاتَلَهُمْ كَانَ أَوْلَى بِاللهِ مِنْهُمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا سِيمَاهُمْ؟ قالَ: «التَّحْلِيقُ».

وَعِندَ النَّسَائِيِّ [٤] عَن شَرِيكِ بْنِ شِهَابٍ، قالَ: كُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ أَلْقَى رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ

---

(١) «العبر» (٢/ ٤٢١ ـ ٤٢٣) بتصرف.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد فِي «السُّنَّة» (١٥٢٥) بسَندٍ صَحِيحٍ.

(٣) فِي «السُّنَنِ» (٤٧٦٥) وصحَّحه الشَّيخُ الألبَانِي فِي «صَحِيحِ الجامعِ» (١٤٤٥).

(٤) فِي «المجتبى» (٦/ ٥٥٢) وصحَّحه الشيخُ الألبانِيُّ فِي «صحيحِ الجامعِ» (٢٣٠١).

النَّبِيِّ ﷺ أَسْأَلُهُ عَنِ الخَوَارِجِ، فَلَقِيتُ أَبَا بَرْزَةَ فِي يَوْمِ عِيدٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ الله ﷺ يَذْكُرُ الخَوَارِجَ؟ قالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ بِأُذُنِي وَرَأَيْتُهُ بِعَيْنِي، أُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَالٍ فَقَسَمَهُ، فَأَعْطَى مَنْ عَنْ يَمِينِهِ، وَمَنْ عَنْ شِمَالِهِ، وَلَمْ يُعْطِ مَنْ وَرَائِي، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ وَرَائِهِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَا عَدَلْتَ فِي قِسْمَةٍ، رَجُلٌ أَسْوَدُ، مَطْمُومُ الشَّعْرِ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَبْيَضَانِ، فَغَضِبَ رَسُولُ الله ﷺ غَضَبًا شَدِيدًا، وَقَالَ: « وَالله لا تَجِدُونَ بَعْدِي رَجُلاً هُو أَعْدَلُ مِنِّي »، ثمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ كَأَنَّ هَذَا مِنْهُمْ، يَقْرَؤونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإسلامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، سِيمَاهُمُ التَّحْلِيقُ، لا يَزَالُونَ يَخْرُجُونَ حتَّى يَخْرُجَ آخِرُهُمْ معَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فإنَّهُمْ أَشَرُّ الخَلْقِ وَالخَلِيقَةِ».

وَعِندَ أبي طاهرٍ فِي كتابه «الحجَّةِ عَلَى تَاركِ المحجَّةِ» بسندِهِ إِلَى أَبِي سُفيانَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لجَابِرِ بنِ عبدِ الله: هَلْ كُنتُم تسمُّونَ أَحَدًا مِنْ أَهلِ القِبْلَةِ مُشْرِكًا؟ قَالَ: «مَعَاذَ الله»، قَالَ: هَلْ كُنتُم تُسَمُّونَهُ كافرًا؟، قَالَ: «لَا والله»[(١)].

وعِندَ التِّرْمِذِيِّ[(٢)] - وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ» -، وابنِ مَاجَه عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ، وَكَذَلِكَ الإِمَامِ أَحْمَدَ[(٣)]، وَرَوَاهُ أيضًا الإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالحَاكِمُ[(٤)]، وابنُ مَاجَه[(٥)] عَنِ ابنِ أَبِي

---

(١) أخرجهُ أبو يعلى (٢٣١٧)، وأبو عبيدٍ القاسمُ بنُ سلامٍ فِي «الإيمانِ» (٢٩)، وابنُ أبي زمنين فِي «أصُولِ السُّنةِ» (١٤٤) من طريقِ الأعمشِ، عن أَبِي سُفيَانَ به. قال الشيخُ الألبانِيُّ فِي تحقيقِ «الإيمانِ» (ص ٩٨): «صحيحٌ عَلَى شرطِ مسلمٍ».

(٢) (برقم: ٣٠٠٠).

(٣) فِي «المسنَدِ» (٥/ ٢٥٣).
وقال الهَيثميُّ فِي «المَجْمَع» (٦/ ٢٣٤): «رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ، وَالتِّرْمِذِيُّ بِاخْتِصَارٍ. رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ» وأبو غَالبٍ حسنُ الحديثِ.

(٤) فِي «المُسْتَدرَكِ» (٢/ ١٤٩).

(٥) فِي «السُّنَنِ» (١٧٣) وصحَّحه الشيخُ الألبانِيُّ فِي «ظِلَالِ الجنَّة» (٩٠٤).

أوفى - رَوَى الجميعُ عَنهُمَا - فِي الخوارجِ أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ فيهِمْ: «هُم كِلَابُ النَّارِ، شَرُّ قَتْلَى تَحتَ أدِيمِ السَّماءِ. خَيرُ قَتلَى مَنْ قَتلُوهُ»، ثمَّ قَرأَ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ قِيلَ لِأَبِي أُمَامَةَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ؟ قالَ: لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلَّا مرةً أو مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا حتَّى عَدَّ سَبْعًا مَا حَدَّثْتُكُمُوهُ.

وهُو عندَ غيرِهم من أهلِ المسانيدِ، وَذَلِكَ أنهم قومٌ.. [1] نصَبوا فِي العبادةِ، وفي قلوبهم زيغٌ، فمرقُوا من الدينِ بإغواءِ شياطينِهم حتَّى أكفرُوا الموحدينَ، وتأوَّلوا التنزيلَ عَلَى غيرِ وجهِه؛ فخُذلُوا حتَّى صارُوا كلابَ النَّارِ.

فالمؤمنُ يَسترُ ويَرحمُ، ويرجُو لأخيهِ المغفرةَ والرحمةَ، والمفتُونُ الخارجِي الزائغُ المغبُون يهتكُ ويُعيِّرُ ويُقنطُ، وَهَذِهِ أخلاقُ الكلابِ وأفعالُهم، ولمَّا كلبُوا عَلَى عبادِ الله تعالى، ونظرُوا إِلَيهِم بعينِ النقصِ والعداوةِ أُدخلُوا النارَ فِي هيئةِ أعمالِهِم كلابًا كَمَا كانُوا عَلَى الأمَّةِ فِي الدُّنيا كِلابًا يهارِشُونَهُم كتهارشِ الكِلَابِ عَلَى الناسِ.

قال أبو سليمانَ الخطَّابي: أجمعُوا - يعنِي: أهلَ العلمِ - أنَّهم ضُلالٌ مسلمُونَ مأمورٌ بقتالِهِم كفًّا لشرِّهم عن المُسلمينَ حيثُ قاتلُوا ودَعوا إِلَى مذهبِهِم بالدخُول معهُم فِيهِ، نسألُ اللهَ الحمايةَ.

وَسُئِلَ عَلِيٌّ ﷺ وكَرَّمَ وَجْههُ: أَكُفَّارٌ هُمْ؟ فقَالَ: مِنَ الْكُفْرِ فَرُّوا. فقِيلَ: أَمُنَافِقُونَ؟ قالَ: المُنَافِقُونَ لَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا، وَهَؤُلَاءِ يَذْكُرُونَ اللهَ بُكرَةً وَأَصِيلًا، هُمْ قَوْمٌ أَصَابَتْهُمْ فِتْنَةٌ، فَعَمُوا وَصَمُّوا [2].

---

(١) كلمة غير واضحة.

(٢) أخرجَهُ عبدُ الرَّزاقِ فِي «المُصنَّفِ» (٨/ ٢٤٣ ط التأصيل) بسندٍ ضَعيفٍ لجهالَةِ منْ حَدَّثَ مَعْمرًا.
وأخرَجَ ابنُ أبي شيبةَ فِي «المُصنَّفِ» (٢١/ ٤٦١) بِسَنَدٍ رِجالُه ثِقَاتٌ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قالَ: كُنْتُ عِنْدَ عَلِيٍّ، فَسُئِلَ عَنْ أَهْلِ النَّهْرِ أَمُشْرِكُونَ هم؟ قالَ: مِنَ الشِّرْكِ فَرُّوا، قِيلَ: فَمُنَافِقُونَ هُمْ؟ قالَ: إِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً، قِيلَ لَهُ: فَمَا هُمْ، قالَ: قَوْمٌ بَغَوْا عَلَيْنَا.

فلا يَرَوْنَ دينًا إلا قولَهُم، ولا مهتديًا إلا هُم، ومَن سِواهُم ضَالينَ، وهُم والله الضَّالُونَ المتهوكُونَ، وقد جعلَهُم جماعةٌ من أهلِ الحديثِ كأهلِ الرِّدةِ، وأكفرهُم بفعلِهِم، وحكَاه موفقُ الدِّينِ[(١)] قولًا لأهلِ الحديثِ.

فإِيَّاكَ ثمَّ إِيَّاكَ والخروجَ من غمارِ الأمةِ، فإنَّ الأمَّة قد أجمعتْ بأسرِها أنَّها لا تجتمعُ عَلَى ضلالةٍ، فهي أمةٌ مَرحومةٌ، قد عصمَهَا اللهُ أن تجتمعَ عَلَى ضلالةٍ، وأنها بخبرِ نبيِّها محمدٍ ﷺ لا تزالُ مِنْهَا طائفةٌ منصورةٌ عَلَى الحقِّ ظاهرةً لا يضرُّها من خذَلَها حتَّى يأتِيَ أمرُ الله، ولا إشكالَ أنَّ جملةَ هذِهِ الطَّائفة هم الَّذِي يُجاهدُونَ عدوَّ هذِهِ الأمةِ، المنكرِينَ مَا هُم عَلَيْهِ من القرآنِ، وبعثةِ نبيِّهم محمدٍ ﷺ، ولا ينافِي ذَلِكَ كونُهم العُلَماء، وكونهم أهلَ الغربِ، فقدْ قِيلَ: إنَّ الغربَ شدة الجهادِ، وشدة جري الخيلِ والركابِ، كَمَا أوضحْنا ذَلِكَ فِي شرحِ التَّوحيدِ، فلينظرْ هُناكَ.

وأيضًا فإنَّهُ لَيْسَ فِي هذِهِ الأمَّةِ جَاهِليةٌ عَامَّةٌ بعدَ مبعثِ نبيِّهم محمَّدٍ ﷺ، كَمَا صرَّحَ بذَلِكَ شيخُ الإِسلَامِ ابنُ تيميةَ فِي «اقتضَاءِ الصِّراطِ المُستقِيمِ فِي مُخالفَةِ أصْحَابِ الجَحِيمِ»، ومَا قالَهُ هُو ضِمْن مَا أخبرَ بِهِ النبيُّ ﷺ، وأنَّ دارَ الأمَّةِ دارُ إسلامٍ لَا دارُ كُفرٍ وحربٍ، كَمَا يزعمُه مَنْ ضَلَّ عنِ الهُدَى.

وَلهذَا عِندَ الإمَامِ أَحْمَدَ[(٢)]، وابنِ مَاجه، والحَاكِمِ[(٣)]، وابنِ حِبَّانَ[(٤)]، والبَيْهَقِيِّ[(٥)] وَغَيْرِهِمْ عَن عرفجةَ بنِ شَرحبيلَ ﷺ عنِ النبيِّ ﷺ إنَّهُ قالَ: «سَتكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ فَارَقَ الجَمَاعَةَ، أَو يُرِيدُ أَنْ يُفرِّقَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَائِنًا مَنْ كَانَ فَاقْتُلُوهُ،

---

(١) فِي «المُغني» (١٢/ ٢٥٦).

(٢) فِي «المُسندِ» (٤/ ٢٦١).

(٣) فِي «المستدرك» (٢/ ١٥٦).

(٤) (برقم: ٤٥٧٧) وصحَّحه الشيخُ الألبانِيُّ فِي «صحيحِ الجامعِ» (٢٣٠١).

(٥) فِي «شُعبِ الإيمانِ» (٧١٠٦).

فَإِنَّ يَدَ اللهِ عَلَى الجَمَاعَةِ[(١)]، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ عَلَى مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ يَرْكُضُ».

وبذلكَ أمرَ ﷺ كَمَا صحَّ عَنْهُ فِي السُّننِ وغيرِهَا عَن عُبادَةَ بنِ الصَّامتِ، وعبدِ الله بنِ عَمْرو بنِ العَاصِ وَغَيرِهِمَا مَنْ أدركَ الأئمةَ الَّذِين يُؤخِّرُونَ الصَّلاةَ عَن وقتِهَا أن يصلوها فِي وقتِهَا، وأن يصلُّوا معَهُم إذا حضرُوا، ويجعلُوها لَهُم تطوعًا[(٢)]، ولمْ يرخِّصْ لَهُم فِي منابذَتِهِم، ولا الخُرُوجَ عَلَيْهِم.

وأجمعَ علماءُ السُّنةِ عَلَى المنعِ مِن ذَلِكَ، ولمْ يجعلْ ذَلِكَ دينًا يُقاتَلُ عَلَيْهِ إلا الخَوَارج، فخرجُوا بذَلِكَ وأشباههم عَلَى الأمَّةِ بالسَّيفِ، وبسطُوا ألسنَتَهُم وسيفَهُم عَلَيْهِم، بالظُّنونِ والصَلَفِ والحيفِ.

فالأمةُ فِي محنةٍ مِنْهُم بصيالِهِم من سفكِ دِمائهم، ونهبِ أموالِهم، لا يجدُونَ مِنْهُم لَهُم راحةً، ولا فِي الأرضِ عنهم منتاً وبَراحة.

فنسألُ اللهَ ذَا العزِّ والجلالِ والجودِ والإفضالِ: أن يُجنبنَا والمسلمِينَ طريقَ الضَّلالِ، وما يُوجب التَعَس والانتكاس والوبَال، فإنَّه إذا شُكرَ ثبّت وهدَى، أو صُدَّ عنِ طريقِه أضلَّ، وأزالَ.

رَبَّنَا لا تُزغْ قلُوبَنَا بعدَ إِذْ هَدَيْتنَا، وهَبْ لنَا منْ لَدنكَ رحمةً، إنَّكَ أنتَ الوهابُ، وأَرِنَا مَنَاسِكنَا، وَتُبْ عَلَيْنَا إنَّكَ أنتَ التَّوابُ الرَّحيمُ.

واشرحْ صدُورَنَا لهدُاكَ، واسلكْ بنَا طريقَ رسُولِكَ وسائرِ أنبيائِكَ، فإنَّه لا ربَّ لنَا سِوَاكَ، ولا نعبدُ إلا إيَّاكَ، ولا نطلبُ الاهتدَاء من عقُولِنَا، بَلْ مِن كتَابِكَ باتِّباعِ سَبيلِ المُؤمنينَ مِن أَوليائِكَ.

وهَذَا آخرُ مَا تيسَّر.

---

(١) فِي الأصلِ زيادة: «وإن الجماعة، وإن الجماعة».

(٢) أخرجه مسلمٌ (٦٤٨).

قالَ مصنِّفُه المُؤلفُ عثمانُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ منصُورٍ النَّاصِري، ثمَّ العَمرِي، التَّمِيمِي، الحَنبلِي: وافقَ الفراغُ من تَبييضِه - وَقَدْ كنتُ سوّدتُ بعضَهُ بالبصرةِ المحرُوسةِ سنةَ الأربعِينَ بعدَ المائتَينِ والألفِ، ثمَّ عنَّ لي بطلبِ بعضِ الإخوانِ كَما مرَّ أن أُبيِّضَهُ - فِي سنةِ خمسٍ وخمسِينَ ومائتَينِ وألفٍ منَ الهجرَةِ النبويَّةِ عَلَى مُهَاجرِهَا أفضلُ الصَّلاةِ وأزْكَى سَلامٍ، وعلَى آلِه وأصحَابِه السَّادَة الكرَام، والتَّابعِينَ لهُم بإحسَانٍ إلَى يوم الدِّينِ.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

أتمَّ ذَلِكَ كتابةً بقلمِه، راجِي عَفْو ربِّه وكَرمِه، الفَقِيرُ إلَى الله: مُحمَّدُ بنُ حمدِ بنِ نصرِ الله بن فوزانَ بنِ نصرِ اللهِ بنِ محمَّدِ بنِ عِيسَى بن حمدِ بنِ عِيسَى بنِ صقرِ بن مشعاب، غفَرَ اللهُ لَهُ ولوَالديهِ.

وكانَ الفرَاغُ مِن كتَابتِهِ فِي اليومِ الخَامسِ منَ العَشرِ الأُولَى مِن الشَّهرِ الثَّالثِ منَ السَّنةِ التَّاسعةِ منَ العَشْرِ السَّادسةِ منَ المائةِ الثَّالثةِ منَ الألفِ الثانِي منَ الهجرةِ النَّبويةِ عَلَى مُهاجرِهَا أَفضلُ الصَّلاةِ وَأَزْكَى السَّلامِ.

فهرس الكتاب

